

لقد حذف الحق من وصف الفئة الأولى ما يدل عليه في وصف الفئة الثانية .  
وعرفنا وصف الفئة التي تقاتل في سبيل الله من مقابلتها في الآية وهي الفئة الأخرى .  
فمقابل الكافرة مؤمنة ، وعرفنا أيضا - أن الفئة الكافرة إنما تقاتل في سبيل الشيطان  
لمجرد معرفتنا أن الفئة الأولى المؤمنة تقاتل في سبيل الله . ويسمون ذلك في اللغة  
« احتباك » . وهو أن تحذف من الأول نظير ما أثبت في الثاني ، وتحذف من الثاني  
نظير ما أثبت في الأول ، وذلك حتى لا تكرر القول ، وحتى توضح الالتحام بين  
القتال في سبيل الله والإيمان ، والقتال في سبيل الشيطان والكفر .

إذن فالآية على هذا المعنى توضح لنا الآن : لقد كان لكم آية ، أي أمر عجيب  
جدا لا يسير ولا يتفق مع منطق الأسباب الواقعية في فئتين فعندما التقت الفئة المؤمنة  
في قتال مع الفئة الكافرة ، استطاعت الجماعة المؤمنة المحددة بالغاية التي تقاتل من  
أجلها - وهي القتال في سبيل الله - أن تنصرف على الفئة الكافرة التي تقاتل في سبيل  
الشيطان .

وبعد ذلك يقول الحق : « يرونها مثلهم رأي العين » فنحن أمام فئتين ، فمن  
الذي يرى ؟ ومن الذي يُرى ؟ من الرائي ومن المرئي ؟ إن كان الرائي هم المؤمنون  
فالمرئي هم الكافرون . وإن كان الرائي هم الكافرين فالمرئي هم المؤمنون ولتر الأمر  
على المعنيين :

فإن كان الكافرون هم الذين يرون المؤمنين ، فإنهم يرونها مثلهم ، أي ضعف  
عددهم ، وكان عدد الكافرين يقرب من ألف . إذن فالكافرون يرون المؤمنين  
ضعف أنفسهم ، أي ألفين . وقد يكون المعنى مؤديا إلى أن المؤمنين يرون الكافرين  
ضعف عددهم الفعل . وقد يؤدي المعنى إلى أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف  
عددهم وكان عدد المؤمنين يقرب من ثلاثمائة وأربعة عشر ، وضعف هذا العدد هو  
ستمائة وثمانية وعشرون مقاتلا .

فإن أخذنا معنى « مثلهم » على عدد المؤمنين ، فالكافرون يرونها حوالي ستمائة  
وثمانية وعشرين مقاتلا ، وإن أخذنا معنى « مثلهم » على عدد الكافرين فالكافرون  
يرون المؤمنين حوالي ألفين . وما الهدف من ذلك ؟ إن الحق سبحانه يتكلم عن

المواجهة بين الكفر والإيمان حيث ينصر الله الإيمان على الكفر . وبعض من الذين يتصيدون للقرآن يقولون : كيف يقول القرآن : « يرونهم مثلهم رأى العين » وهو يقول في موقع آخر :

﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَلِكٍ قَلِيلًا ۖ لَوِ اتَّارَنَّهُمْ كَثِيرًا ۖ لَفَظَلْتُمْ وَلَتَنْتَرَعَنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝١٣٠ ۖ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَّمُّ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَتَلَمَّكَ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝١٣١﴾

( سورة الأنفال )

وهذه الآية تثبت كثرة ، سواء كثرة المؤمنين أو كثرة الكافرين ، والآية التي نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية تثبت قلة ، والمشكلون في القرآن يقولون : كيف يتناول القرآن موقعة واحدة على أمرين مختلفين ؟ ونقول لهؤلاء المشككين : أنتم قليلو الفطنة ؛ لأن هناك فرقاً بين الشجاعة في الإقبال على المعركة وبين الروح العملية والمعنوية التي تسيطر على المقاتل أثناء المعركة ، والحق سبحانه قد تكلم عن الحالين : قتل الحق هؤلاء في أعين هؤلاء ، وقتل هؤلاء في أعين هؤلاء ، لأن المؤمنين حين يرون الكافرين قليلاً فإنهم يتزودون بالجرأة وطاقة الإيمان ليحققوا النصر .

والكافرون عندما يرون المؤمنين قلة فإنهم يستهينون بهم ويتراخون عند مواجهتهم . ولكن عندما تلتحم المعركة فما الذي يحدث ؟ لقد دخلوا جميعاً المعركة على أمل القلة في الأعداد المواجهة ، فما الذي يحدث في أعصابهم ؟ إن المؤمن يدخل المعركة بالاستعداد المكثف لمواجهة الكفار . وأعصاب الكافر تخور لأن العدد أصبح على غير ما توقع ، إذن فقول الحق :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَّمُّ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلِلُكَ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝١٣١﴾

( سورة الأنفال )

يُصور الحالة قبل المعركة ؛ لأن الله لا يريد أن يتهيب طرف من طرف فلا تنشأ المعركة . لكن ما إن تبدأ المعركة حتى يقلب الحق الأمور على عكسها ، إنه ينقل الشيء من الضد إلى الضد . ونقل الشيء من الضد إلى الضد إيذان بأن قادرا أعلى بقود المشاعر والأحاسيس ، والقدرة العالية تستطيع أن تصنع في المشاعر ما تريد .

لقد قلل الحق الأعداد أولا حتى لا يتهيبوا المعركة ، وفي وقت المعركة جعلهم الله كثيرا في أعين بعضهم البعض ، ففترى كل فئة الطرف الآخر كثيرا ، فتتفجر طاقات الشجاعة المؤمنة من نفوس المؤمنين فيقبلون على القتال بحماسة ، وتخور نفوس الكافرين عندما يواجهون أعدادا أكثر مما يتوقعون . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ١٣٠ ﴾

(سورة آل عمران)

إن هذه الآية هي خبر تبشيري لكل مؤمن بالنصر ، وهي في الوقت نفسه خبر إنذاري لكل كافر بأن الهزيمة سوف تلحق به إن واجه الجماعة المؤمنة . فليأكم أن تقيموا الأمور بمقاييس الأسباب ، فالأسباب المطلوبة منكم هي المقدور عليها للبشر وعليكم أن تتركوا تنمة كل ذلك للقدر ، فلا تخور الفئة المؤمنة أمام عدد كثير ، ولا تغتروا معشر الكفار بأعدادكم الكثيرة ؛ فالسابقة أمامكم تؤكد أن عددا قليلا من المؤمنين قد غلب عددا كثيرا من الكافرين .

ومن معاني الآية - أيضا - أن الكافرين يرون المؤمنين مثل عدد الكافرين ، أي ضعف عددهم . ومن معانيها - ثالثا - أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف عدد المؤمنين الفعلي . ومن معاني الآية - رابعا - أن يرى المسلمون الكافرين مثلهم ، أي مثل المؤمنين مرتين ، أي ستمائة نفر وقليلا ، وحيث أن يكون عدد الكافرين في عيون المؤمنين أقل من العدد الفعلي لهؤلاء الكافرين . إذن فما حكاية « مثلهم » هذه ؟ لقد وعد الله المؤمنين بنصره حين قال :

﴿ إِنَّمَا أَنَا خَارِصٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْفِتَنِ إِنَّ بَيْنَكُمْ عِشْرُونَ صَبْرُونَ يَغْلِبُوا ١٣١ ﴾

مَا تَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(سورة الأنفال)

والنسبة هنا أن المؤمن الواحد يخرج إلى عشرة من الكافرين فيهزمهم ، ذلك وعد الله ، وحين أراد الله التخفيف قال الحق :

﴿ أَلَمْ نَخَفْ أَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَارَةً يَغْلِبُوا مَا تَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿٦٦﴾

(سورة الأنفال)

لقد خفف الله النسبة ، فواحد من المؤمنين يغلب اثنين من الكافرين . فالمؤمنون موعودون من الله بالغلبة حتى وهم ضعاف . والحق يقول في الآية المبشرة للمؤمنين ، المنفرة للكافرين ، والتي نحن بصدددها الآن : « والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

وتحس نسمع كلمة « عبرة » كثيرا ، والمادة المأخوذة منها تدل على الدخول من مكان إلى مكان ، فيقال عن ذلك « عبور » ، ونحن في حياتنا العادية نخصص في الشوارع أماكن لعبور المشاة ، أى المسافة التى يمكن للمشاة أن ينفذوا منها من ضفة الشارع إلى الضفة الأخرى من الشارع نفسه . وعبور البحر هو النفاذ من شاطئ إلى شاطئ آخر .

إذن فمادة « العبور » تدل على النفاذ من مكان إلى مكان ، وه « العبارة » أى الدفعة لأنها تسقط من محلها من العين على الحد . وه « العبارة » أى الجملة التى نتكلم بها ، فهى تنتقل من الفم إلى الأذن ، وهى عبور أيضا . وه « العبور » أى الرائحة الجميلة التى تنتقل من الوردة البعيدة عن الإنسان قليلا لتنفذ إلى أنفه . إذن فمادة « العبور » تدل على « النفاذ » .

وحين يقول الحق : « إن في ذلك لعبرة » . أى تنقلكم من أمر قد يخيفكم أيها المؤمنون لأنكم قليل ، وهم كثير ، إنها تنقلكم إلى نصر الله أيها المؤمنون ، وتنقلكم



أيها الكافرون إلى الهزيمة برغم كثرة عدتكم وعدتكم . فالعبرة هي حدث ينقلك من شيء إلى شيء مغاير ، كالظالم الذي نرى فيه يوما ، ونقول : إن ذلك عبرة لنا ، أي إنها نقلتنا من رؤيته في الطغيان إلى رؤيته في المهانة .

وهكذا تكون العبرة هي العظة اللافتة والناقلة من حكم إلى حكم قد يستغربه الذهن ، فتذيل هذه الآية الكريمة بهذا المعنى هو إيضاح وبيان كامل ، فالحق يقول في بداية هذه الآية : « قد كان لكم آية في فتنين التفتا » . وتنتهي الآية بقوله : « إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » .

إذن فالعبرة شيء ينقلنا من أمر إلى أمر قد تستغربه الأسباب وذلك إن كنت متروكا لسياسة نفسك ، لكن المؤمن ليس متروكا لسياسة نفسه ؛ لأن الله لو أراد أن يعذب الكفار بدون مواجهة المؤمنين وحرهم لعذبهم بدون ذلك ، ولكن الله يريد أن يكون عذاب الكافرين بأيدي المؤمنين :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ ﴾

مُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾

(سورة التوبة)

ولو كان الله يريد أن يعذب الكافرين بغير أيدي المؤمنين لأحدث ظاهرة في الكون تعذبهم ، كزلزال يحدث ويدمرهم ، ولكن الله يريد أن يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين . « والله يؤيد بنصره من يشاء » ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ، « وه الأبد » هو القوة ، إذن فهو يريد منك فقط النواة العملية ، ثم بعد ذلك يكملها الله بالنصر ، « وأيده » أي قواه ، ويؤيد الله بنصره من يشاء ، وتكون العبرة لأولي الأبصار .

وقد يقول قائل : أتكون العبرة لأولي الأبصار أم لأولي البصائر ؟ وهنا نقول : إن العبرة هنا لأولي الأبصار ؛ لأن الأمر الذي نتحدث عنه الآية هو أمر مشهدي ، أمر محسوس ، فمن له عينان عليه أن يصر بهما ، فإذا كان التفكير والتدبر ليس أمرا موهوبا لكل مخلوق من البشر ، فإن البصر موجود للغالبية من الناس ، وكل منهم

يستطيع أن يفتح عينه ليرى هذا الأمر المشهدى .

وإذا ما نظرنا إلى المعركة بذاتها وجدنا الدليل الكامل على صدق العبارة ؛ فالمؤمنون قلة وعددهم معروف محدود ، وعتادهم قليل ، ولم يخرجوا بقصد حرب ، إنما خرجوا لقصد الاستيلاء على العير المحملة بالأرزاق من طعام وكسوة تعويضا عما اغتصبه المشركون من أموالهم في مكة ، ولو أنهم استولوا على العير فقط لما كان النصر عظيما بالدرجة التي كان عليها ؛ لأن العير عادة لا تسير بعتاد ضخم إنما تحفظ بالحراسة فقط . ولكن الله يريد لهم النصر على ذات الشوكة ، أى الطائفة القوية المسلحة ، لقد وعدهم الله بالنصر على إحدى الطائفتين :

﴿ وَإِذْ يَعِذُّكَ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكُفْرِينَ ٧ ﴾

(سورة الأنفال)

لقد كان وعد الله أن ينصر المؤمنين على إحدى الطائفتين ، والأمل البشرى كان يود الانتصار على الطائفة غير ذات الشوكة أى الطائفة غير المسلحة وهى العير ، ولكن مثل هذا النصر لا يكون له قوى النصر على الطائفة المسلحة ، فقد كان من السهل أن يقال : إن محمداً ومن معه تعرضوا لجماعة من التجار لا أسلحة معهم ولا جيش ، ولكن الله يريد أن يجعل من هذه المعركة فرقانا وأن يحق الحق .

إنكم أيها المؤمنون لم تخرجوا إلا لقصد العير أى لم يكن استعدادكم كافيا للقتال ، أما الكفار فقد جاءوا بالنفير ، أى بكل قوتهم فقد ألقت مكة في هذه المعركة بأفلاذ أكبادها . وعندما يأتى النصر من الله للمؤمن في مثل هذه الموقعة فهو نصر حقيقى ، ويكون آية غاية في العجب من آيات الله . ونصير عبرة للغير . لذلك نجد العجائب في هذه المعركة - معركة بدر - .

الغرائب أنك تجد الأخوين يكون لكل منهما موقف ومجابهة . وتجد الأب والابن لكل منهما موقف ومجابهة برغم عمق الصلة بينهما ، فمثلا ابن أبى بكر رضى الله عنه ، وكان هذا الابن لم يسلم بعد ، وكان في جانب الكفار ، وأبوه الصديق مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن أسلم ابن أبي بكر يحكى الابن لأبيه بشيء من الامتنان والبر : لقد تراءيت لى يوم بدر فزويت وجهى عنك . فإرد أبو بكر الرد الإيمانى الصديقى : والله لو تراءيت لى أنت لقتلتك .

وكلا الموقفين منطقى ، لماذا ؟ لأن ابن أبى بكر حين يلتقى بأبى بكر ، ويرى وجه أبيه ، فإنه يقارن بين أبى بكر وبين ماذا ؟ إنه يقارن بين أبيه وبين باطل ، ويعرف تمام العلم أنه باطل ، فيرجع عند ابن أبى بكر أبوه ، ولذلك يحافظ على أبيه فلا يلصقه . لكن أبى بكر الصديق حينها يقارن فهو يقارن بين الإيمان بالله وابنه ، ومن المؤكد أن الإيمان يزيد عند الصديق أبى بكر ، فلو رآه يوم بدر لقتله .

والله حكمة فيمن قُتل على أيدى المؤمنين من مجرمى الحرب من قریش ، والله حكمة فيمن أبى من الكفار بغير قتل ؛ لأن هؤلاء مدخرون لقضية إيمانية كبرى سوف يملون فيها البلاء الحسن . فلومات خالد بن الوليد فى موقعة من المواقع التى كان فيها فى جانب الكفر لحزننا نحن المسلمين ؛ لأن الله قد ادخره لمعارك إيمانية يكون فيها سيف الله المسلول ، ولومات عكرمة لفقدت أمة الإسلام مقاتلا عبقرى .

لقد حزن المسلمون فى موقعة بدر لأنهم لم يقتلوا هؤلاء الفرسان ؛ لأنهم لم يعلموا حكمة الله فى ادخار هؤلاء المقاتلين ؛ لينضموا فيها بعد إلى صفوف الإيمان . والله لم يمكن مقاتل المسلمين يوم بدر من المحاربين الذين كانوا على دين قومهم آنئذ إلا لأن الله قد ادخرهم لمواقع إيمانية قادمة يقفون فيها ، ويحاربون فى صفوف المؤمنين ، وهذا نصر جديد .

ونرى أبى عزيز وهو شقيق الصحابى مصعب بن عمير الذى أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشر بدين الله ، ويعلم أهل المدينة ، وكان مصعب فقى قریش المدلل صاحب ترف ، وأمه صاحبة ثراء ، وبعد ذلك رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلبس جلد شاة بعد أن كان يلبس الحرير ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلى الإيمان ماذا فعل بصاحبكم » .

والتقى مصعب فى المعركة مع أخيه أبى عزيز ، وأبو عزيز على الكفر ، ومصعب

رضي الله عنه مسلم يقف مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وحين يرى مصعب رضي الله عنه أخاه أبا عزيز وهو أسير لصحاب اسمه أبو اليسر ، فيقول مصعب : يا أبا اليسر اشد على أسيرك ؛ فإن أمه غنية وذات متاع ، وستفديه بمال كثير .

فيقول له أخوه أبو عزيز : أهذه وصانك بأخيك ؟ فيقول مصعب مشيراً إلى أبي اليسر : هذا أخى دونك . كانت هذه هي الروح الإيمانية التي تجعل الفئة القليلة تنتصر على أهل الكفر ، طاقة إيمانية ضخمة تغلب على عاطفة الأخوة ، وعاطفة الأبوة ، وعاطفة البنوة . وقد جعل الله من موقعة بدر آية حتى لا يخور مؤمن وإن قل عدد المؤمنين ، أو قلت عدتهم ، وحتى لا يفتخر كافر ، وإن كثر عدد قومه وعتادهم .

وقد جعلها الله آية للصدق الإيماني ، ولذلك يقال : احرص على الموت توهب لك الحياة . وقد كانت القضية الإيمانية هي التي تملأ نفس المؤمن ، إنها قضية عميقة متغلغلة في النفوس . ولماذا يترصد الكفار بالمؤمنين ؟ إنهم إن تربصوا بهم ، فسيدخل المؤمنون الجنة إن قبلوا أو يتصرون على الكفار ، وفي ذلك يقول الحق على لسان المؤمنين :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ۝٥٧﴾

(سورة التوبة)

فالظفر هنا بأحد أمرين : إما النصر على الكافرين ، وإما الاستشهاد في سبيل الله ، ونيل منزلة الشهداء في الجنة وكلاهما جميل . والمؤمنون يترصدون بالكافرين ، إما أن يصيب الله الكفار بعذاب من عنده ، وإما أن يصيبهم بأيدي المؤمنين . إنها معادلة إيمانية واضحة جلية . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ  
مَتَكُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ

### الْمَثَابِ ١١

الموضع الذى تأتى فيه هذه الآية الكريمة هو : موقع ذكر المعركة الإسلامية التى جعلها الله آية مستمرة دائمة ؛ لتوضح لنا أن المعارك الإيمانية تتطلب الانقطاع إلى الله ، وتتطلب خروج الإنسان المؤمن عما ألف من عادة تمنحه كل المتع . والمعارك الإيمانية تجعل المؤمن الصادق يضحى بكثير من ماله فى تسليح نفسه ، وتسليح غيره أيضا .

فمن يقعد عن الحرب إنسان تغلبه شهوات الدنيا ، فىأتى الله بهذه الآية بعد ذكر الآية التى ترسم طريق الانتصارات المتجدد لأهل الإيمان ؛ وذلك حتى لا تأخذنا شهوات الحياة من متعة القتال فى سبيل الله وإعلاء كلمته فيقول : « زين للناس حب الشهوات » وكلمة « زين » تعطينا فاصلا بين المتعة التى يجلبها الله ، والمتعة التى لا يرضاها الله ؛ لأن الزينة عادة هى شئ فوق الجوهر . فالمرأة تكون جميلة فى ذاتها وبعد ذلك تزين ، فتكون زينتها شيئا فوق جوهر جمالها .

فكان الله يريد أن نأخذ الحياة ولا نرفضها ، ولكن لا نأخذها بزینتها وبهرجتها ، بل نأخذها بحقيقتها الاستباقية فيقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء » . وما الشهوة ؟ الشهوة هى ميل النفس بقوة إلى أى عمل ما .

وحين ننظر إلى الآية فإننا نجد أنها توضح لنا أن الميل إذا كان مما يؤكد حقيقة استبقاء الحياة فهو مطلوب ومقبول ، ولكن إن أخذ الإنسان الأمر على أكثر من ذلك فهذا هو المحفوت .

وسبق أن ضربنا المثل من قبل بأعنف غرائز الإنسان وهى غريزة الجنس ، وأن

الحيوان يُفَضَّل الإنسان فيها ، فالحيوان أخذ العملية الجنسية لاستبقاء النوع بدليل أن الأنثى من الحيوان إذا تم لقاحها من فحل لا تُمكن فحلاً آخر منها . والفحل أيضاً إذا ما جاء إلى أنثى وهى حامل فهو لا يُقبل عليها ، إذن فالحيوانات قد أخذت غريزة الجنس كاستبقاء للحياة ، ولم تأخذها كالإنسان لذّة متجددة .

ومع ذلك فنحن البشر نظلم الحيوانات ، ونقول فى وصف شهوة الإنسان : إن عند فلان شهوة بهيمية . وبإلتها كانت شهوة بهيمية بالفعل ؛ لأن البهيمة قد أخذتها على القدر الضرورى ، لكن نحن فلسفناها ، إذن فخرجك بالشئ عما يمكن أن يكون مباحاً ومشروعاً يسمى : دناءة شهوة النفس .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للكون بقاءه ، والبقاء له نوعان : أن يُبقى الإنسان حياته بالمطعم والمشرب ، وتبقى حياة النوع الإنسانى بالتزاوج .

ولكن إن نظرت إلى المسألة وجدت الخالق حكيماً عليماً . إنه يعلم أن طفولة أى حيوان بسيطة بالنسبة لأبيه وأمه ، مثال ذلك : الحمامة تطعم فرخها إلى أن يستطيع الطيران ، ثم لا تعرف أين ذهب فرخها ، لكن حصيلة الالتقاء بين الرجل والمرأة ، والذى أراد الله لها أن تنتج الأولاد تحتاج إلى شفاء إلى أن يبلغ الولد ، وذلك ليكون هناك تكافؤ وتناسب بين ما يحرص عليه الإنسان من شهوة ، وما يتحمل من مشاق ومتاعب فى سبيل الاستمتاع بها واستبقائها . فقول الحق سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء » فمن المزين ؟ إن كان فى الأمر الزائد على ضروريات الأمر ، فهذا من شغل الشيطان ، وإن كان فى الأمر الرتيب الذى يضمن استبقاء النوع فهذا من الله .

ونجد الحق يضيف « البنين » إلى مجال الشهوات ويقصد بها الذكران ، ولم يقل البنات ، لماذا ؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائماً للعزوة كما يقولون ولا يأق منهم العار ، وكان العرب يثدّون البنات ويخافون العار ، والمحجوب لدى الرجل فى الإنجاب حتى الآن هو إنجاب البنين ، حتى الذين يقولون بحقوق المرأة وينادون بها ، سواء كان رجلاً أو امرأة إن لم يرزقه الله بولد ذكر فإنه أو إنها تريد ولداً ذكراً .





ويضيف الحق إلى مجال الشهوات : « والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة » ،  
والقناطير هي جمع قنطار ، والقنطار هو وحدة وزن ، وهذا الوزن حددته كثافة  
الذهب ، إلا أن القنطار قبل أن يكون وزناً كان حجماً ، لكنهم رأوا الحجم هذا يزن  
قديراً كميّاً ، فانتقلوا من الحجم إلى الوزن .

وكان علامة الثراء الواسع في الزمن القديم أن يأتوا بجلد الثور بعد سلخه ويملاؤه  
ذهبا ، وملء جلد الثور بالذهب يسمونه قنطاراً ، وكانت هذه عملية بدائية . وبعد  
ذلك أخذوا ملء الجلد ذهباً ووزنوه فصار وزناً . إذن فالأصل فيه أنه كان حجماً ،  
فصار ووزناً .

وساعة تسمع « قناطير مقنطرة من الذهب والفضة » فهو يريد أن يحقق فيها  
القنطارية ، وذلك يعني أن القنطار المقنطر هو القنطار الكامل الوزن ، وليس مجرد  
قنطار تقريباً ، كما نقول أيضاً : « دنابر مدنرة » . وعادة نجد في اللغة العربية لفظاً  
يأت من جنس اللفظ يضم إليه كي يعطيه قوة ، فيقال « ظل ظليل » أى ظل كثيف ،  
ويقال « ليل أليل » أى أن الليل في ظلمة شديدة ، وهي مبالغة في كثافة الظلام .

والظلام على سبيل المثال يحجب الشمس ، وحاجب الشمس عنك قد يكون  
حجاباً واحداً ، وقد يكون الشيء الذي يظلك فوقه شيء آخر يظلك أيضاً فيكون  
الظل ظليلاً ، ولذلك يكون الظل تحت الأشجار جيلاً ، لأن ورقة تستر الشمس ،  
ورقة أخرى تستر الورقة الأولى ، وهكذا ، فتصنع تكييفاً طبيعياً للهواء .

ولذلك فهم يصنعون الآن خياماً مكيفة الهواء مصنوعة من قماش فوقه قماش  
آخر ، وبينهما مسافة ، فيكون هناك قماش يظلل ظلاً آخر ، فإذا ما وضعوا قطعة ثالثة  
من القماش تظل الظلين الأولين ، فإن الظل يكون ظليلاً ، ولذلك قلنا : إن ظل  
الأشجار هو ظل ظليل ، فيه حنان ، فكل ورقة تظل الإنسان تكون نفسها مظلة  
بورقة أخرى ، وتكون أوراق الشجر التي تظلل بعضها بعضها مختلفة الأوضاع ،  
وتعطي الأوراق للنسيم فرصة المرور ، أما الخيام فهي تحجب النسيم . والشاعر حين  
أراد أن يصف الروضة قال :

تصيد الشمس أنى واجهتها

فنجحبها وتلذن للنسيم  
إذن فحين وصف الحق القناطير بأنها مقنطرة فذلك يعنى القناطير الدقيقة الميزان ،  
وهى قناطير مقنطرة من ماذا ؟ « من الذهب والقضة والخيل المسومة » . وكانت الخيل  
هى أداة العز وأمانة وعلامة على العظمة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :  
( الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ) (١) .

قول الحق : « والخيل المسومة » نرى فيه أن اللفظ الواحد يشع فى مجالات متعددة  
من المعانى ، فمسومة من ساءها يسومها ، ومعنى ذلك أن هذه الخيل مراعى تأكل  
منها كما تريد ، وليست خيلاً مربوطة تأكل ما يقدم لها فقط ، ومسومة أيضاً تعنى أن  
لهذه الخيل علامات ، فهذا حصان آخر ، وذلك أدهم ، وذاك أشقر .

ومسومة أيضاً ، أن تكون مروضة ، ومدرية ، وتم تعليمها ، فالأصل فى الخيل  
أنها لم تكن مُستأنسة بل مُتوحشة ، ولذلك لا بد من ترويضها حتى يتطعم بها  
الإنسان . فكم معنى إذن أعطته لنا كلمة « مسومة » ؟

سائمة ، أى تأكل على قدر ما تشتهى لا على قدر ما تعطىها من طعام . ومُعَلِّمة  
أى فيها علامات كالغرة والتجويل ، وهذا جواد أدهم ، وذلك جواد أشقر ، أو أنها  
معلمة أى مروضة . فإذا تتطلب الحرب ؟

إن الحرب تتطلب الانقطاع عن الأهل ، فيجب ألا تكون شهوة النفس حاجزاً ،  
سواء كانت شهوة للنساء ، أو كانت شهوة العزوة للبنين ورعايتهم ، أو كانت شهوة  
المال ، فاللؤمن بنفقه فى سبيل الله ، والخيل أيضاً يستخدمها الإنسان فى القتال لإعلاء  
كلمة الله .

ونلاحظ أن هذه الآية - التى تعد أنواع الزينة - جاءت بعد الآية التى تتحدث عن  
الجهاد فى سبيل الله ، والى يقول الحق تبارك وتعالى فيها :

( ١ ) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، وأحمد .

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْأَعْيُنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ١٦٧ ﴾

(سورة آل عمران)

وذلك ليرشدنا إلى أن الإنسان المؤمن لا يصح أن يضحى بشهوته الحقيقية وهي إدراك الشهادة في سبيل الله أو النصر على العدو بسبب الشهوات الزائلة التي تتمثل في النساء ، وفي البنين ، وفي القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وفي الخيل المسومة والأعنام . وقد قال الله عن الأنعام في سورة الأنعام :

﴿ ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٌ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ النَّعَمِ اثْنَيْنِ فُلٌّ آلِدَّ كَرَيْنٍ حَرَّمَ إِمَّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِغُوهُنَّ بِعَظِيمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ١٦٨ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ فُلٌّ آلِدَّ كَرَيْنٍ حَرَّمَ إِمَّ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ إِمَّ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَرَّغْتُمْ مِّنْ أَفْئَتِي عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِخَيْرٍ يَعْلَمُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ١٦٩ ﴾

(سورة الأنعام)

حساب ذلك هو إثنان من الضأن ، وإثنان من الماعز ، وإثنان من الإبل ، وإثنان من البقر أي ثمانية أزواج . ولا يمكن حسابها على أنها ستة عشر كما قال البعض قديماً ، لا ؛ إن الزوج لا يعنى اثنين من الشيء ، ولكن الزوج واحد ، ولكن يشترط أن يكون مع غيره من جنسه . ومثال آخر هو كلمة « التوأم » ، إن التوأم هو واحد معه غيره ، وهما توأمان ، وهم توأم إذا كان العدد أكثر من اثنين .

والحق يقول في مجال زينة الشهوات : « رُبَّين للناس حُبُّ الشهوات من النساء

والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ،  
وحيث نسمع كلمة « الحرث » فافهم أن المراد بها هنا الزرع ، ولكن الله سبحانه  
وتعالى يريد منك أن تعلم أن الله حين يُنبئ لك أشياء بدون معالجتك فإنه يريد منك  
أيضاً أن تستنبط أشياء بمعالجتك ، وهذا لا يتأتى إلا بعملية الحرث .

والحرث هو إهليجة الأرض ، فالتربة تكون جامدة ، فلا بد أن يهيجها الإنسان  
بالحرث ، أي أن تفك بيوستها وتلاصق ذراتها ؛ لأن تلاصق ذرات التربة لا يصلح  
أن يكون بيئة للنبات ؛ لأن النبات يحتاج إلى الماء ويحتاج إلى الهواء ، ويحتاج من  
الإنسان أن يمهّد للشعيرات البسيطة أن تخرج ، ونجد تربة سهلة تتحرك فيها إلى أن  
تقوى .

إذن فالحرث يثير الأرض ، ويجعلها بيئة مُفتحة حتى تستطيع البذرة أن تنمو ؛ لأن  
الله قد أودع في فلق كل بذرة مقومات الحياة إلى أن يوجد لها جذر يأخذ مقومات  
الحياة من الأرض ، وكلما قوى الجذر في النبات فإن الفلقتين تضمحلان ، وتصيران  
مجرد ورقتين . فأين ذهب حجم الفلقتين ؟

لقد قامت الفلقتان بتغذية النبتة إلى أن استطاعت النبتة أن تتغذى بنفسها من  
الأرض ، ولا يمكن حدوث ذلك إلا إذا كانت الأرض محروثة . ولذلك يقولون : إن  
الأرض الطينية السوداء تكون صعبة ، وغير خصبة ، ويقال : إن الأرض الرملية  
أيضاً غير خصبة ، لماذا ؟

لأننا نريد صفتين اثنتين في الأرض : الصفة الأولى أن تكون الأرض صالحة أن  
يتخللها الماء ليُشرب الزرع ، والصفة الأخرى ألا تُسرب الماء بعيداً ، فإذا كانت  
الأرض طينية فإن جذور الزرع تخنق وتمطن ، وإذا كانت رملية فإن الماء يتسرب  
بعيداً ، لذلك نحتاج في الزراعة إلى أرض بين سوداء ورملية ، أي أرض صفراء .  
والله حين يتكلم عن الزرع فإنه يقول : « الحرث » وذلك حتى يلفتنا إلى أن من يريد  
أن يأخذ زرعاً لا بد أن يجتد ويحرث الأرض . وهو سبحانه القائل :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ١٧ ﴿ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ ١٨ ﴿

وعبر الحق عن الزرع بالحرث لأنه السبب الذي يوجد الزرع . وكل ما تقدم من الشهوات من النساء والبنين والقناطير المنقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، كل ذلك تكون قيمته عند الإنسان ما يوضحه الحق بقوله : « ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » .

إن كل ذلك هو متاع الحياة الدنيا ، والفصل هو أن الإنسان يخشى أن تفوته النعمة فلا تكون عنده ، أو أن يفوتها فيموت . وكل ما يفوتك أو تفوته ، فلا تعثر به . وعندما نتأمل الآية في مجموعها نجد أن فيها مفاتيح كل شخصية تريد أن تنحرف عن منهج الله ، إنه سبحانه يقول :

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَقَابِ ١٥ ﴾

(سورة آل عمران)

هكذا نرى المفاتيح التي قد تمجذب الإنسان لينحرف عن مراد الله في منهجه ، إنه - سبحانه - يطلب من عبده المؤمن أن يبنى حركة حياته على مراد الله ، فما الذي يجعل المؤمن يترك مراد الله من حكم لينصرف إلى حكم يناقضه ؟ .

لاشك أنه الهوى ، والهوى هو الذي يميل ويَزِيغ القلوب ، ولكل هوى مفتاح ، ولكل شخصية من المكلفين بمنهج الله مفتاح هواه ، فواحد مفتاحه النساء ، وواحد مفتاحه البنون ، يحب أن يرعاهم رعاية تفوق دخله من عمل أو صناعة مثلا فقد يسرق أو يرتشي ليسعد هؤلاء . وأناس مفاتيحهم الشخصية في المال ، أو في زينة الخيل ، والعدة والعتاد فلكل شخصية مفتاح هوى .

والذين يدخلون على الناس لِيُزَيِّنُوا لهم غير منهج الله يأتون لهم بالمفتاح الذي يفتح شخصياتهم ، فرما كان هناك إنسان لا تغريه نظرة المرأة أو ملايين الذهب ، إنما يمتلكه حبه لأولاده وهو الهوى الغلاب .

إذن فكل واحد له مفتاح لشخصيته ، والذين يريدون إغراء الناس وغوايتهم يعرفون مفاتيح من يريدون إغراءه وإغواءه . وحين يقول الحق أن هذه الأشياء هي المزيئة للناس . قد يقول قائل : إذا كان الله يريد أن يصرفنا عن هذه الأشياء فلماذا خلقها لنا ؟

وعلى هذا القول نرد : إن الحق ملهم قد قال : « زَيْنٌ » وبنائها - كما يقول النحاة - للمجهول أى لما لم يسم فاعله ، فمن الذى زين ؟ لقد كان الله قادراً أن يقول لنا من الذى زين تلك الأشياء تحديداً ، لكن الحق يريد أن يعلمنا أنه من الممكن أن يكون الشيطان هو الذى يُزين لنا هذه الأشياء ، ومن الممكن أن يكون منطلق المنهج هو الذى يزين ، ألم يقل الحق سبحانه دعاء على لسان عباده الصالحين :

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَفِرَتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الفرقان)

إذن فما الفصل في تلك المسألة ؟ الفصل في هذه المسألة أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل نعمة من نعم الحياة عملاً يعمل به الإنسان فيها ، فالمرأة إنما اتخذت سكناً أى ارتياحاً عندها ، ارتياحاً يعطيك كل الحنان والعطف ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٥٦ ﴾

(سورة الروم)

إن الحق يريد لنا أن يسكن الرجل إلى حلاله ، وتصرف المرأة الحلال حقن زوجها عن أعراض الناس . لكن ماذا في الرجل الذى يحب الابناء ؟ ألم يقل سيدنا زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ١ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ٢ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ عَالِي بَيْتِي وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٣ ﴾

(سورة مريم)



لقد طلب زكريا عليه السلام وليا يرثه ، والأنبياء لا تُورث منهم أموال ، إنما يُورثون العلم والحكمة ، إذن فقد طلب زكريا عليه السلام أن يرث ابنه الحكمة منه ويرث من آل يعقوب وأن يجعله الله رضيعا . فلو كان الأنبياء يُورثون المال ، لكان البعض قد فهم أن طلب زكريا للإبن كي يرثه في المال ، لكن الحق أراد لأنبيائه ألا يُورثوا المال ، بل يُورثون العلم بمنهج الله . وقد طلب زكريا الابن لثبوت منهج الله في الأرض .

وكذلك الذي يريد الأموال لينفقها في سبيل الله ، وكذلك الذي يريد الحرب ليملا بطون خلق الله بما يطعمون منه ، كل هؤلاء ينالهم المدح والثناء والجزاء الكثير من الله . لذلك يجب أن نعلم أن الحكم يأتي من الله محتملا أن تتجه به إلى الخير المراد لله ، ومحتملا أن تتجه به إلى الشر المراد لنفسك . وأنت - أيها العبد - حين تنظر إلى أي شهوة من هذه الشهوات فلسوف تجد أنه من الممكن أن تُوجهها وجهة خير . يقول الحق :

﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَفِرْيَئِنَّا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمَتَّحِينَ إِمَامًا ﴾

( من الآية ٧٤ من سورة الفرقان )

لقد أراد الله للأتقياء والأنبياء أن يكون لهم من الذرية أبناء ليرثوا المنهج السلوكي ويكونوا مثلا طيبة للناس يقتدون بهم . إذن فالمؤمن يجب أن تكون ذريته قدوة سلوكية . والذي يحب الخيل يمكن أن يوجه هذا الحب إلى الخير ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ( بين خير معاش الناس لهم رجل ممسك بجنان فرسه في سبيل الله يطير على منته كلما سمع هَيْعَةً<sup>(١)</sup> أو فَرْعَةً طار عليه يبتغي القتل والموت مَظَانَّةً<sup>(٢)</sup> )<sup>(٣)</sup> .

(١) الهيمة : كل ما أفرغ من جانب العدو من صوت أو خير .

(٢) مظانه : بفتح الميم والغاء المعجمة وتشديد النون منصوب على الظرفية : أي يطلبه في المحل الذي يقطن وجوده فيه طلبا لمرضاة الله تعالى .

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة .

وقد أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نروض الخيل ، إذن فمن الممكن أن تكون هذه الأشياء مسارا للخير . وإياكم أن تفهموا أن الله يزهدنا فيها أو ينقروا منها ، ولكنه يزهدنا أن نستعمل ما خلقه لنا في غير مراده .

ولننظر إلى تعليق الله على الأشياء المزيّنة : « ذلك متاع الحياة الدنيا » أى أن الذى ينظر إلى هذه الأشياء المزيّنة نظرة تقليدية سطحية سيحدها مجرد متاع ، وما عمر هذا المتاع ؟ إنه موقوت بالدنيا القانية . ولننظر إلى الإنسان عندما يُصعدُ في عمله قيمة الخير، وتصعيد قيمة الخير يأتى من تنمية نوعه . أى الزيادة في نوع الخير ، ومن استدامته ، ومن أن الإنسان لا يترك هذا الخير .

إذن فتصعيد الخير يأتى على عدة صور تبدأ من تنمية الخير نفسه . واستدامة الخير فلا ينقطع ، وضمان أن يحيا الإنسان للخير ويعيش له ، وألا يذهب الخير عنه ، وأمر رابع هو ألا تربط هذا الخير بأغيار ، أى أن تربطه بواحد قوى يأتى لك به ، فقد يضعف ، أو يمرض ، أو يغيب ، أو يغدر بك .

إذن فلا بد من أربعة عناصر : الأول : تصعيد الخير ، أى نوع الخير الذى تفعله يكون أرقى من خير آخر ، فنعمل دائما على زيادته وتنميته . والثانى : استدامة الخير . والثالث : أن تدوم أنت للخير ، وتحرص على أن تعيش له ، والأمر الرابع : ألا تربط هذا الخير بالأغيار . بل عليك أن تعتمد على الله ثم على نفسك .

وكل خير يأتى دون هذا فهو خير غير حقيقى . فإذا نظرت إلى شهوات النساء والمال والبنين والخيول والأنعام والحرف فإنها ستعطيك متاع الدنيا . ولنسلم جدلا أن شيئا لن يسلبك هذه الأشياء وأنت حي ، وأنها ستظل معك طيلة دنياك . فما قيمة الدنيا وهي مقاسة بالآلاف السنين . والإنسان لا يعيش فيها إلا قدرا محددًا من الأعوام يقرره الحق سبحانه وتعالى .

إذن فالدنيا تقاس بعمر الإنسان فيها لا بعمر ذات الدنيا لغيره ، لأن عمر الدنيا لغيرك لا يخصك . هب أن هذه الشهوات من نساء ومال وبنين وخيول وذهب وفضة

وحرث وأنعام وعدة وعناد قد دامت لك ، فما الذي يحدث ؟ إن الدنيا محدودة .  
ولا أحد يستطيع أن يستديم الدنيا ، لذلك فلن يستطيع أحد أن يستديم الخير لأن  
عمره في الدنيا محدود .

وحياة الإنسان في الدنيا لم يضع الله لها حداً يبلغه الإنسان . إن الله لم يحدد عمرا  
يموت فيه الإنسان ، ولكن لكل إنسان عمر خاص محدود بحياته ، فعندما يولد أى  
طفل لا تنزل معه بطاقة تحدد عدد السنوات التى سوف يجيها في الدنيا .

وهو سبحانه قد جعل عدد سنوات الحياة مبهما لكل إنسان ، ولذلك يقال إن  
الإبهام هو أعلى درجات البيان ، الحق أخفى توقيت الموت وسببه عن الإنسان . متى  
يأتى ؟ فى أى زمان وفى أى مكان ؟ كل ذلك أخفاه فأصبح على المؤمن أن يكون مترقبا  
للموت فى كل لحظة .

إن الإبهام للموت هو البيان الوافى ، ومادامت الدنيا مبهما طالبت فهمى محدودة وغير  
مضمونة للإنسان أن يجيها ، ونعيمه فيها على قدر إمكاناته وقدرته ، وإن لم تذهب  
الدنيا من الإنسان فالإنسان نفسه يذهب منها . فإذا ما قارنت كل ذلك باسم الحياة  
التي نجياها الآن ، إن اسمها « الدنيا » أى « السفلى » ومقابل « الدنيا » هو « العليا »  
وهى الحياة فى الآخرة . ولماذا هى « عليا » ؟ لأنها تستصعد الخير .

فبعد انقضاء هذه الحياة المحدودة ، يذهب المؤمن إلى الجنة وبها حياة غير محدودة ،  
وهذا أول تصعيد . ويضمن المؤمن أن أكلها دائم لا ينقطع . ويضمن المؤمن أنه  
خالد فى الجنة فلا يموت فيها . ويضمن المؤمن قيمة هذه الجنة ، لأن الخير إنما يأتى  
على مقدار معرفة الفاعل للخير . ومعرفة الإنسان للخير جزئية محدودة ، ومعرفة الله  
للخير كمال مطلق .

فالمؤمن فى الآخرة يتنعم فى الخير على مقدار ما علم الله من الخير . إذن فحياتنا  
هى الدنيا ، أى السفلى ، وهناك الآخرة العليا . فإذا طلب المنهج منا ألا ننخدع  
بالدنيا ، وألا نتفاد إلى المتاع فهل هذا لون من تشجيع الحب للنفس أو تشجيع  
للكراهية للنفس ؟

إنه منهج سماوى يقود إلى حب النفس ؛ لأنه يريد أن يُصعد الخير لكل مؤمن ،  
لقد بين المنهج أن في الدنيا ألوانا من المتع هي كذا وكذا وكذا ، والدنيا محدودة  
ولا تدوم للإنسان ، ولا يدوم إنسان لها ، وإمكانات الإنسان في النعيم الدنيوى  
محدودة على قدر الإنسان ، أما إمكانات النعيم في الآخرة فهي على قدر قدرة الخالق  
المربى ، فمن المنطقى جدا أن يقول الله لنا : « ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده  
حسن المآب » . وحسن المآب تعنى حسن المرجع .

والحق حينما طلب منك أيها المؤمن أن تغض بصرك عما لا يحل لك ، فقد يظن  
الإنسان السطحي أن في ذلك حجراً على حرية العين ، ولكن هذا الغض للبصر أمر  
به - سبحانه - إنما ليملا العين في الآخرة بما أحل الله ، إذن فهذا حب من الله  
للمخلوق وهذا تصعيد في الخير .

ولنفترض أن معك مبلغا قليلا من المال وقابلت فقيرا مسكينا فأثرت أنت هذا  
الفقير على نفسك ، فأنت تفعل ذلك لتنال في الآخرة ثوابا مضاعفا . إذن فقضية  
الدين هي أنانية عالية سامية ، لا أنانية حمقاء . ويوضح الله بعد ذلك حسن المآب  
بقوله سبحانه :

﴿ قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ  
جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا  
وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ  
بَصِيرٌ ۝۱۵﴾

وحين نسمع كلمة « أُوْنِبْتُكُمْ » فما نسمعه بعد ذلك كلام عادى ، أما عندما  
نسمع « أُوْنِبْتُكُمْ » فما نسمعه بعدها هو خبر هائل لا يقال إلا في الأحداث العظام ،

فلا يقول أحد لآخر : سأنبئك بأنك ستأكل كذا وكذا في الغداه ، ولكن يقال « أنا أنبئك بأنك نلت جائزة كبرى » ، هذا في المستوى البشرى فما بالناس بالله الخالق الأعلى ، ولذلك يقول الله الحق :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۚ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ ۝١﴾

(سورة النبا)

إنه الأمر الذى يقلب كيان هذه الدنيا كلها ، فحين يقول الحق : « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم » فمعنى ذلك أن الله يخبرنا بخير من هذه الأشياء ، ومن ذلك نعرف أن الله قد جعل هذه الأشياء مقياساً ، لماذا ؟

لأنه مقياس محس ، وأوضح لنا كيفية التصعيد فقال : « للذين اتقوا عند ربهم » ، والمؤمن هو من ينظر بثقة إلى كلمة « عند ربهم » أى الرب المتولى التربية والذى يتعهد المرء حتى يبلغه درجة الكمال المطلوب منه .

والعندية هنا هى عند الرب الأعلى . فإذا أعد المرء الأعلى للمتمقين ؟ لقد أعد لهم « جنات تجري من تحتها الأنهار » ولنز الخيرية فى هذه الجنات ، وهى تقابل فى الدنيا الحرث والزرع ، وقد قلنا : إن الحق حين تكلم عن الزرع تكلم واصفاً له بـ « الحرث » لنعرف أن الزرع يتطلب منا حركة وعملاً .

أما فى الآخرة فالجنات جاهزة لا تتطلب من المؤمن حركة أو تعباً ، ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل إن هذه الجنات تجر من تحتها الأنهار وفيها للإنسان المؤمن ما وعده الله به : « خالدين فيها وأزواج مطهرة » إنه الخلود الذى لا يفنى ، ولا يتركه الإنسان ولا يترك هو الإنسان .

والأزواج المطهرة هى وعد من الله للمؤمنين ، ومن يحب النساء فى الدنيا يعرف أن المرأة فى الدنيا بطراً عليها أشياء قد تنفر ، إما خلقاً تكوينياً ، وإما خلقاً ، فهناك وقت لا يحب الرجل أن يقرب فيه المرأة ، وقد يكون فيها خصلة من الخصال السيئة فيكره الإنسان جامها .

لذلك فالرجل قد ينخدع بالمنظر الخارجى للمرأة فى الدنيا ، وقد يقع الإنسان فى هوى واحدة فيجد فيها خصلة تجعله يكرهها ، أما فى الآخرة فالأمر مختلف ، إنها « أزواج مطهرة » أى مطهرة من كل عيب يعيب نساء الدنيا ، فيأخذ المؤمن جمالها ، ولا يوجد فيها شرور الدنيا ، فقد طهرها الله منها .

« وأزواج مطهرة » من الذى طهرها ؟ إنه هو الله - سبحانه - طهرها خلقاً وخلقاً . فالرجل فى الدنيا قد يهوى امرأة ، وتستمر نضارتها خمسة عشر عاماً تستميله وتجذبه ، ثم تبدأ التجاعيد والترهل والتناثر . أما فى الآخرة فالمرأة مطهرة من كل شيء ، وتظل على نضارتها وجمالها إلى الأبد ، أليس هذا تصعيداً للخير ؟ ونلاحظ أن الحق سبحانه ذكر هنا أمرين :

الأمر الأول : هو جنات تجري من تحتها الأنهار ، ونقارن بينها وبين الحرث فى الدنيا .

والأمر الآخر : هو الأزواج المطهرة ، ونقارن بينها وبين النساء فى الدنيا أيضاً ، ولم يورد الحق أى شيء من بقية الأشياء ، فأين القناطير المقنطرة من الذهب ؟ وأين الخيل ؟ وأين الأنعام وأين البنون ؟

إننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل الأمرين المزيين ، واحداً يستهل به الآية ، والأمر الآخر يأتى فى آخر الآية ، ولتقرأ الآية التى فيها التزيين : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث » .

إن البداية هى النساء ، ذلك هو القوس الأول ، والنهاية هى الحرث وذلك هو القوس الثانى ، وبين القوسين بقية الأشياء المزيينة ، وقد أعطانا الله عوض القوسين ، وأوضح لنا أنهما الخير المصعد ، ولم يورد بقية الأشياء المزيينة ، وهذا يعنى أن نفهم ذلك فى ضوء أن الرزق ما به انتفع ، أى أن كل ما يتنفع به الإنسان رزق ، الخلق الطيب رزق ، سماع العلم رزق ، أدب الإنسان رزق ، حلم الإنسان رزق ، صدق الإنسان رزق ، لكن الرزق يأتى مرة مباشرة بحيث تنتفع به مباشرة ، ومرة أخرى يأتى الرزق لكنه لا ينتفع مباشرة ، بل قد يكون سبباً ووسيلة لما ينتفع مباشرة .



مثال ذلك الخبز ، إنه رزق مباشر ، والنقود هي رزق ، لكنها رزق غير مباشر ؛ لأن الإنسان قد يكون جائعاً وعنده جبل من ذهب ، فلو قال واحد لهذا الإنسان : خذ رغيفاً مقابل جبل الذهب . سيعطى الإنسان الجائع جبل الذهب مقابل الرغيف ؛ لأن الإنسان لا يأكل الذهب ، وكذلك كوب الماء بالنسبة للمعطشان .

إذن فهناك رزق لا يطلب لذاته ، ولكن يطلبه الإنسان لأنه وسيلة لغيره فالوسيلة لغيره أنت لن تحتاج إليها في الآخرة ؛ لأنك ستعيش بيدل الأسباب بقول الحق : « كن » . فالإنسان لن يحتاج في الجنة إلى مال . أو قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ؛ لأن كل ما تشتهي النفس ستجده ، ولن تحتاج في الآخرة إلى خيل مسومة ؛ لأنك لن تجاهد عليها أو تتلذذ وتستأنس بركوبها .

وكل ما لا تحتاج إليه في الآخرة من أشياء أعطاها لك الله في الدنيا لتسعى بها في الأسباب ، ولم يورده الله في قوله : « قل أؤنبكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » لم يوردها في النص الكريم ، لأن عطاء الله في الآخرة بالرزق المباشر ، أما الأشياء التي يسعى بها الإنسان إلى الرزق المباشر في الدنيا فلم يوردها لعدم الحاجة إليها في الآخرة ، فنحن نحب المال ، لماذا ؟ . لأنه يحقق لنا شراء الأشياء ، والحيل المسومة نجعلها ؛ لأنها تحقق لنا القدرة على القتال والجهاد في سبيل الله . والأنعام ؛ لتحقيق لنا المتعة .

أما الجنة في الآخرة فالمؤمن يجد فيها كل ما تشتهي النفس ، وكل ما يخطر ببال من يرزقه الله الجنة سوف يجده ؛ فالوسائل لا لزوم لها . لذلك تكلم الحق عن الأشياء المباشرة ، فأورد لنا ذكر الجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، وذكر لنا الأزواج المطهرة .

وعندما تأمل قول الحق : « قل أؤنبكم بخير من ذلكم » قد يقول قائل : ألم يكن من المنطق أن نخبرنا الحق مباشرة بما يريد أن يخبرنا به ، بدلاً من أن يسألنا : أيخبرنا بهذا الخير ، أم لا ؟

ونقول : أنت لم تلتفت إلى التشويق بالأسلوب الجميل ، وحنان الله على خلقه . إنه سبحانه وتعالى يقول لنا : ألا تريدون أن أقول لكم على أشياء تفضل تلك الأشياء التي تسيركم في الدنيا . فكأن الحق سبحانه وتعالى قد نبه من لم ينتبه . ولم ينتظر الحق أن نقول له . قل لنا يارب .

لا ، إنه يقول لنا دون طلب منا ، ويقال عن هذا الأسلوب في اللغة إنه « استفهام للتقرير » ، ولإنسان حين يسمع : « أؤنبئكم بخير من ذلكم » فالذهن ينشغل ، فإن لم يسمع النبأ ، فليسوف يظل الذهن مشغولاً بالنبأ ، ويأتى الجواب على اشتياق فيتمكن من نفس المؤمن .

ويأتى النبأ « للذين اتقوا » ، فعندما نعلم النظر في الشهوات التي تقدمت من نساء وبينين وقناطير مقنطرة من ذهب وفضة وخيل مسومة وأنعام وحرث ، ألا يكون من المناسب فيها أن يتقى الإنسان ربه في مجالها ؟

إن التقوى لله في هذه الأشياء واجبة ، ولذلك قلنا من قبل قضية نرد بها على الذين يريدون أن يجعلوا الحياة زهداً وانحساراً عن الحركة ، وأن يوقفوا الحياة على العبادة في أمور الصلاة والصوم ، وأن تترك كل شيء . هؤلاء نقول : لا ؛ إن حركتك في الحياة تعينك على التقوى ؛ لأننا عرفنا أن معنى التقوى هو أن يجعل الإنسان بينه وبين النار حجاباً ، أو أن تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية . فإذا ما أخذت نعم الله لتصرفها في ضوء منهج الله فهذا هو حسن استخدام النعم .

وقد أوضحنا من قبل أن التقوى حين تأتى مرة في قول الحق : « اتقوا الله » وتأتى مرة أخرى « اتقوا النار » فهما ملتقيان ؛ فانتقاء النار حتى لا يصاب الإنسان بأذى ، وعندما يتقى الإنسان الله فهو يتقى غضب الله ؛ لأن غضب الله يورد العذاب ، والعذاب من جنود النار . إذن فالذين يتقون الله لا يظنون أنهم زهدوا في هذه الحياة لذات الزهد فيها . ولكن للطمع فيها هو أعلى منها ، إنه الطمع في النعيم الآخروى الدائم .

ويوضح الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك : أنكم لن تتمتعوا في الآخرة لضرورة

الحاجة للمتعة ، بحيث إذا ما جاءت النعمة عليكم تفرحون بها ، إن الأمر لا يقتصر على ذلك وإنما يتعداه إلى أنكم - أيها المؤمنون - تحبون فقط أن تروا المنعم ، فإدام المؤمن الذي يدخل الجنة يجد كل ما يشتهي بل إنه لا يشتهي شيئاً حتى يأتيه ، ويستمتع على قدر عطاء الله وقدراته .

وإذا لم يشته الإنسان شيئاً في الجنة أو نساء ، ويصبح مشغولاً برؤية ربه فإن مكانه جنة من الجنان اسمها « عليون » و « عليون » هذه ليس فيها شيء مما تسمعه عن الجنة ، ليس فيها إلا أن تلقى الله . إن الرزق والنعم ليسا من أجل قوام الحياة في الجنة ، بل إن الإنسان سيكون له الخلود فيها ؛ فالذي يحتاج إليه الإنسان هو رضوان من الله .

إن رضواناً من الله أكبر من كل شيء . ولقد نبأنا الله بما في الجنات ، ونبأنا بالخير من كل ذلك . لقد نبأنا الله بأن رضوانه الأكبر هو أن يضمن المؤمن أن يظفر برؤية ربه . وهذا ما يقول فيه الله .

﴿ وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرٌ ﴿٢٢﴾ إِلَٰكَ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

إذن فهناك في الجنة مراتب ارتقائية . ونخبنا الحق من بعد ذلك : « والله بصير بالعباد ، أي أن الله سيعطي كل إنسان على قدر موقفه من منهج ربه ، فمن أطاع الله رغبة في النعيم بالجنة يأخذ جنة الله ، ومن أطاع الله لأن ذات الله أهل لأن تطاع فإن الله يعطيه متعة ولذة النظر إليه - سبحانه - تقول رابعة العدوية في هذا المعنى : كلهم يعبدون من خوف نار

ويرون النجاة حظاً جزيلاً  
إنني لست مثلهم ولهذا

لست أبغى بمن أحب بديلاً  
وقالت أيضاً : اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فادخلني فيها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمني منها ، إنما أعبدك لأنك تستحق أن تعبد .

إذن فد الله بصير بالعباد ، أى أنه سيعطى كل عبد على قدر حركته ونيته في الحركة ، فالذى أحب ما عند الله من النعمة فليأخذ النعمة ويفيضها الله عليه . أما الذى أحب الله وإن سلب منه النعمة ، فإن الله يعطيه العطاء الأوفى ، وذلك هو مجال مياهاة الله للملائكة . . ومن أقوى دلائل الإيمان وكماله .. إيثار محبة الله ورسوله على كل شيء في الوجود :

عن أنس رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » (١) . إن هناك العبد الذى يحب الله لذاته ؛ لأن ذاته سبحانه تستحق أن تعبد ، فذات الله تستحق العبادة ؛ لأنه الوهاب ، الذى نظم لنا هذا الكون الجميل .

إذن فقول الحق : « والله بصير بالعباد » يعنى أن الله يعلم مقدار ما يستحق كل عابد لربه ، وعلى مقدار حركته ونيته في ربه يكون الجزاء ، فمن عبد الله للنعمة أعطاه الله النعمة المرجوة في الجنة ليأخذها ، ومن أطاع الله لأنه أهل لأن يطاع وإن أخذت - بضم الألف وكسر الحاء - النعمة منه فإن الله يعطيه مكاناً في عليين .

ولذلك قيل : إن أشد الناس بلاء هم الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل . لماذا ؟ لأن ذلك دليل صدق المحبة . والإنسان عادة يحب من يحسن إليه ، ولا يحب من تأتى منه الإساءة إلا إن كانت له منزلة عالية كبيرة . إنه مطمئن إلى حكمته ، إنه ابتلاه - وهو يعلم صبره - ليعطيه ثواباً جزيلاً وأجرًا كبيراً ، والحق يقول :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَتَمِّمَ إِلَهُكَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ قَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد قال : « فمن كان يرجو لقاء ربه » ولم يقل جنة ربه وهكذا يجب ألا نشغلنا النعمة - الجنة - عن المنعم وهو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان الحق قد طلب منا ألا نشرك بعبادة ربنا أحداً فلنعلم أن الجنة آخذ .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِإِيمَانٍ فَأَغْفِرْ لَنَا  
ذُنُوبَنَا وَفِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١٦)

إن قولهم : « ربنا إننا آمنّا » هو أول مرتبة للدخول على باب الله ، فكان الإيمان بالله يتطلب رعاية من الذي تلقى التكليف لحركة نفسه ، لأن الإيمان له حق يقتضي ذلك ، كأن المؤمن يقول : أنا بيشريق لا أستطيع أن أوفى بحق الإيمان بك ، فيارب اغفر لي ما حدث لي فيه من غفلة ، أو من زلة ، أو من كبر ، أو من نزوة نفس .

وهذا الدعاء دليل على أنه عرف المطلوب الإيمان كما أوضحه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيانه لمعنى الإحسان حين قال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) .

كأنك تستحضر الله في كل عمل ؛ لأنه يراك .

وهل يتأتى لواحد من البشر أن يجترأ على محارم من يراه بعينه ؟ حيثئذ يستحضر المؤمن ما جاء إلينا من ماثور القول ، فكانه سبحانه وتعالى يوجه إلينا الحديث : يا عبدي إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالخلل في إيمانكم . وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمون أهون الناظرين إليكم ؟

وكان الحق سبحانه يقول للعبد : هل أنا أقل من عبيدى ؟ أتقدر أن تسبى إلى أحد وهو يراك ؟ إذن فكيف تجرؤ على الإساءة لخالفك ؟

إن قول المؤمنين : « إننا آمنّا فاغفر لنا » دليل على أنهم علموا أن الإيمان مطلوباته صعبة . « الذين يقولون ربنا إننا آمنّا فاغفر لنا ذنوبنا » .

( ١ ) رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

فلنر على ماذا رتبوا غفران الذنب ؟ لقد رتبوا طلب غفران الذنب على الإيمان .  
فلماذا ؟ لأنه مادام الحق سبحانه وتعالى قد شرع التوبة ، وشرع المغفرة للذنب ، فهذا  
معناه أنه سبحانه قد علم ألا أن عباده قد تحوّلوا نفوسهم ، فينحرفون عن منهج  
الله .

ونعتم الحق سبحانه الآية بقوله على السنة المؤمنين : « وقنا عذاب النار » لأنه  
ساعة أن أعلم أن الحق سبحانه وتعالى ضمن لي بواسع مغفرته أن يستر على الذنب ،  
فإن العبد قد ينجل من ارتكاب الذنب ، أو يسرع بالاستغفار .

ولماذا لا يكون قوله : « فاغفر لنا ذنوبنا » بمعنى استرها يارب عنا فلا تأن لنا  
أبدا ؟ وإن جاءت فهي هل الاستغفار والتوبة . فإذا أذنبت ذنبا ، واستغفرت ربي ،  
وعلمت أن ربي قد أذن بالمغفرة ، لأنه قال :

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُمْ كَانَ خَافِلًا ﴾

( من الآية ١٠ من سورة نوح )

فإن الرجل يمتنع ، والخوف يذهب عنى ، وأقبل على الله بحجة على تكاليفه وأحل  
نفسى على تطبيق منهج الله كله . ولذلك حينما شرع الحق سبحانه وتعالى للخلق  
التوبة كان ذلك رحمة أخرى . وهذه الرحمة الأخرى تتجلى في المقابل والقبض .

هب أن الله لم يشرع التوبة وأذنب واحد ذنبا ، وبمجرد أن أذنب ذنبا خرج من  
رحمة الله ، فإذا يصيب المجتمع منه ؟ إن كل الشرور تصيب المجتمع من هذا  
الإنسان لأنه فقد الأمل في نفسه ، أما حينما يفتح الله له باب التوبة فإن ارتكب العبد  
ذنبا ساهيا عن دينه ، فإنه يرجع إلى ربه .

وتلك واقعية الدين الإسلامى ، فليس الدين مجرد كلام يقال ، ولكنه دين يقدر  
المواقع البشرى ، فإنه - سبحانه - يعلم أن العباد سيرتكبون الذنوب ، فيرسم لهم  
أيضا طريق الاستغفار . وإذا ما ارتكب العباد ذنوبا ، فإن الحق يطلب منهم أن  
يتوبوا عنها . وأن يستغفروا الله . فإذا ما لدعهم التوبة حينما يتذكرون الذنب فإن  
هذه اللذعة كلما لدعهم أعطاهم الله حسنة .



كأن غفران الذنب شيء ، والوقاية من النار شيء آخر . كيف ؟ لأنه ساعة أن يعلم العبد أن الحق سبحانه وتعالى ضمن للعبد مغفرته ، وهو الخالق المربي ، فإن العبد يذهب إلى الله مستغفرا طامعا في المغفرة والرحمة . إنها دعوة المؤمنين إن كانوا قد نسوا أن يستغفروا لأنفسهم . لماذا ؟ لأن الاستغفار من الذنب تكليف من الله . وكما قلنا : إن الإنسان قد ينسى بعضا من التكاليف ، لذلك فمن الممكن أن يسهو عن الاستغفار ، ولذا يقول الحق على ألسنة عباده المؤمنين : «وقنا عذاب النار» .

ومعنى التقوى أن نجعل بينك وبين النار وقاية ، أو نجعل بينك وبين غضب ربك وقاية ، فإذا ما أخذت النعم من الله لتصرفها في منهج الله تكون حسنة لك ، وقلنا : إن « اتقوا الله » و« اتقوا النار » ملتقيتان ، لأن معنى « اتقوا النار » كي لا نصيبكم بأذى ، « واتقوا الله » تعنى أن نضع بيننا وبين غضب الله وقاية ، لأن غضب الله سيأتى .

وبعد ذلك يقول الحق :

## ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

وهذه كلها صفات للذين اتقوا الله ، وأعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، والأزواج المطهرة ، ورضوان من الله أكبر ، وهم صابرون وصادقون وقانتون ومنفقون في سبيل الله ، ومستغفرون بالأسحار .

وصابرون على ماذا ؟ إنهم صابرون على تنفيذ تكاليف الله ، لأننا أول ما نسمع عن التكليف فلنعلم أن فيه كلفة ومشقة ، والتكاليف الشرعية فيها مشقة لأنها قيدت حرية العبد .

لقد خلقتك الحق خلقا صالحا لأن تفعل كذا وألا تفعل . فساعة يقول لك :

افعل . . فإنه قد سد عليك باب « لا تفعل » وساعة يقول لك الحق : لا تفعل فإنه يكون قد سد عليك باب « افعل » ، وهكذا يكون تقييد حركتك وتقييد المخلوق على هيئة الاختيار فيه مشقة ، فإذا ما جاء أمر الله بـ « افعل » فقد يكون الفعل في ذاته شاقا ، فإن صبرت على مشقة الفعل الذي جاء بوساطة « افعل » فأنت صابر ، لأنك صبرت على الطاعة . . وقد تنصبر عن المعصية ، عندما يلح عليك شيء فيه غضب الله فترفض أن ترتكب الذنب ، فتكون قد صبرت عن ارتكاب الذنب .

إذن ففى « افعل » صبر على مشقتها ، وفى « لا تفعل » صبر عنها ، فالصابرون لهم اتجاهان اثنان ، لأن التكليف إما أن يكون بافعل ، وإما أن يكون بلا تفعل . فساعة يأتي التكليف بافعل فقد تأتى المشقة . . وعندما تنفذ التكليف بافعل فأنت قد صبرت على المشقة . . وعندما يأتي التكليف بـ « لا تفعل » كأمر الحق بعدم شرب الخمر ، أو « لا تسرق » فأنت قد صبرت عنها . . إذن فـ « افعل » ولا « تفعل » قد استوعبت نوعي التكليف ، وبقيت بعد ذلك أحداث لا تدخل في نطاق افعل ولا تفعل ، وهى ما ينزل عليك نزولا قدريا بدون اختيار منك بل هى القهرية والقسرية .

فساعة أن يطلب الله منك أن تفعل ، أى إنه قد خلقك صالحا ألا تفعل كما قلنا من قبل . . إلا إن كنت مجبرا على الفعل فقط . وكذلك إذا قال لك الحق : « لا تفعل » . والشئ القدرى الذى لا صلاحية فيه للاختيار ماذا يفعل فيه المؤمن ؟ إنه يصبر على الآلام والمتاعب لأنه آمن بالله ربا ، والرب هو الذى يتولى تربية المؤمن لبلوغه حد الكمال المنشود له فإذا جاء لك الحق بأمر لا خيار لك فيه ، كالمرض أو الكوارث الطارئة ، كوقوع حجر من أعلى أو إصابة برصاصة طائشة ، فكل ذلك هى أمور لا تدخل لـ « افعل » ولا « تفعل » فيها .

وهنا يكون الصبر على مثل هذه الأمور هو إيمان بحكمة من أجراها عليك . لأن الذى أجراها رب ، وهو الذى خلقنى فأنا صنعته . وما رأينا أحدا يفسد صنعته أبدا . فإذا ما جاء أمر على الإنسان بدون اختيار منه ، فالذى أجراه له فيه حكمة ، فإن صبر الإنسان على هذه الآلام فإنه يدخل في باب الصابرين .

إذن ، فالصابرون أنواع هم : صابر على الطاعة ومشاقها ، صابر عن المعاصي



ومغرياتها ، وصابر على الأحداث القدرية التي تنزل عليه بدون اختيار منه . وإذا رأيت إنسانا قد صبر على أمر الطاعة وصبر عن شهوة المعصية وصبر على الأقدار النازلة به ، فاعرف حبه لربه ورضاه عنه .

ونأتي بعد ذلك لوصف آخر يقول الله فيه : « الصابرين » « والصادقين » .

والصدق كما نعلم يقابله الكذب ، والصدق كما نعرف حقيقته : يأتي حين توافق النسبة الكلامية التي يتكلم بها الإنسان ، النسبة الأخرى الخارجية الواقعة في الكون .

فإن قلت : « حصل كذا وكذا » فتلك نسبة كلامية صدرت من متكلم ، فإن وافقها الواقع بأنه حصل كذا وكذا فعلا يكون المتكلم صادقا . وإن لم يكن الواقع موافقا لحدوث ما أخبر به يكون المتكلم كاذبا . لماذا ؟ لأن كلام المتكلم العاقل لا بد له من نسب ثلاث :

الأولى وهي النسبة الذهنية : فقبل أن أتكلم أعرض الأمر على ذهني ، وذهني هو الذي يعطى الإشارة للسان ليتكلم . هذه هي النسبة الأولى واسمها « نسبة الذهن » . وقد يعن لي أن تأتي النسبة الذهنية ثم أعدل عنها فلا أتكلم ، فتكون النسبة الذهنية قد وُجِدت ، والنسبة الكلامية لم توجد .

وقد أصر على أن أبرز إشارة ذهني على لسان فأقول النسبة الكلامية . ونأتي بعد النسبة الكلامية لنرى : هل الواقع أن ما حدث وتحدثت به وقع أم لم يقع ؟ فإن كان قد وقع ، يكون الكلام مني صادقا . وإن لم يكن قد وقع ، وكانت النسبة الخارجية على عكس ما أخبرت به . فإننا نقول : « هذا كلام كذب » إذن : فالصدق : هو أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والكذب : هو ألا تطابق النسبة الكلامية الواقع . وكثيرا ما يخطئ الناس في فهم الواقع فيجدون تناقضا في بعض الأساليب .

مثال ذلك ، حينما تعرض بعض المستشرقين لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾

تلك نسبة كلامية صدرت منهم ، فهل هي مطابقة للواقع أم هي مخالفة له ؟  
إنها مطابقة للواقع . ويؤكد الحق ذلك بقوله :

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾

( من الآية الأولى من سورة المنافقين )

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾

( من الآية الأولى من سورة المنافقين )

فقيم كذب المنافقون ؟ هل كذبوا في قولهم : « إنك لرسول الله » ؟ لا . إن الحق لم يكذبهم في قولهم : « إنك لرسول الله » ، لأن الله قد أيد هذه الحقيقة بقوله : « والله يعلم إنك لرسوله » .

ولكن كذبهم الله فيما سها عنه المستشرق الناقد عندما قالوا : « نشهد إنك لرسول الله » . لقد كذبهم الله في شهادتهم ، لا في المشهود به ، وهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول من الله ، إن الله يعلم أن محمداً رسوله المبعوث منه رحمة للعالمين ، لكن الكذب كان في شهادتهم هم .

إن كلام المنافقين مردود من الله . لماذا ؟ لأن الشهادة تعني أن يواطىء اللسان القلب ويوافقه . وقولهم : شهادة لا توافق قلوبهم وتعني كذبهم .

إذن ، فالتكذيب هو لشهادتهم « فلو قالوا : « إنك لرسول الله » دون « نشهد » لكان قولهم : قضية « سليمة » . ولذلك كان تكذيب الله لشهادتهم ، ومن هنا نترك السر في قول الله : « والله يعلم إنك لرسوله » . إن الحق يؤكد الأمر المشهود به وهو بعث محمد رسولاً من عند الحق ، وبعد ذلك يأتي لنا الحق بشهادته إن المنافقين كاذبون في قولهم : « نشهد » . فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والصدق .. كما قلنا من قبل - حق ، والحق لا يتعدد ، وضربت من قبل المثل بأن الإنسان الذي نطلب منه

أن يروى واقعة شهدا بعينه ، وأن يحكيها بصدق لن يتغير كلامه أبدا ،  
 مهيا تكرر القول ؛ أو عدد مرات الشهادة . لكن إن كانت الواقعة كذبا ، فالراوي  
 تختلط عليه أكاذيبه ، فيروى الواقعة بألوان متعددة لا اتساق فيها ، وقد ينسى الراوي  
 الكاذب ماذا قال في المرة الأولى ، وهكذا ينكشف سر الكذب . لكن الراوي عن  
 واقع مشهود ويصدق ، هو الذي يحكى ، وهو الذي لا تختلف رواياته في كل مرة عن  
 سابقتها بل تتطابق .

فعندما نقول : « إن زيدا مجتهد » ، فهذا يعنى أن اجتهد زيدا قد حدث أولا ،  
 ثم باتى في ذهن من رأى اجتهد زيدا أن يخبر بأمر اجتهداه ، ثم يخبر بالكلام عن  
 اجتهد زيدا . إن الأمر الخارج وهو اجتهد زيدا قد حدث أولا ، وبعد ذلك تأتى  
 النسبة الذهنية ، وبعد ذلك تأتى النسبة الكلامية .

ولكن الإنشاء وهو ضد الخبر ، هو أن نطلب من واحد أن ينشئ أمرا لا واقع  
 له ، كأن نقول لواحد : اجتهد . إننا قبل أن نقول لإنسان ما : « اجتهد » فمعنى  
 ذلك أن الاجتهاد كان أمرا في ذهن القائل ، وعندما ينطقها تصبح « نسبة كلامية » .  
 وبعد ذلك يحدث الواقع ، بعد النسبة الذهنية ، والنسبة الكلامية ، وهذا هو  
 الإنشاء .

إن الإنشاء الطلبى يعنى أن تحدث النسبة الخارجية بعد النسبة الكلامية .  
 والصادقون هم الذين أراد الله أن يمدحهم ، لماذا ؟ وأين هو مجال صدقهم ؟ إنهم  
 الذين تتطابق حركتهم مع منهج الله ، لأنهم حين قالوا : « لا إله إلا الله » ، وآمنوا  
 به ، فهم قد التزموا بكل مطلوبات الإيمان قدر الطاقة . ومعنى « لا إله إلا الله » أى  
 لا معبود إلا الله . ومعنى لا معبود إلا الله أى أنه لا طاعة إلا لله .

والطاعة - كما نعرف - هى امتثال أمر ، وامتنال نهى . إذن فمجال « لا إله  
 إلا الله » يشمل أنه لا معبود بحق إلا الله ، ولا مطاع في تكليفه إلا الله ، ولا امتثال  
 لأمر أو نهى إلا للأمر القادم من الله ؛ فإن امتثال إنسان الأمر من الله بعد قوله :  
 « لا إله إلا الله » كان هذا الإنسان صادقا في قوله : « لا إله إلا الله » .

وهذا هو صدق الفمة ، أن تكون كل تصرفات قائل : « لا إله إلا الله » متطابقة

مع هذا القول . والمؤمن الحق هو من يبنى كل تصرفاته موافقة لمنهج الله . هذا هو الإنسان الصادق . أما الذى يقول بلسانه : « لا إله إلا الله ، لا معبود بحق إلا الله » ثم يخالف ربه بعصيانه له ، لنا أن نقول له : أنت كاذب فى قولك « لا إله إلا الله » لماذا ؟ لأنه لم يطابق النسبة التى قالها . إن هذا الإنسان إذا آمن بأى تكليف ثم فعل ما يناقضه قلنا له : أنت منافق . لماذا ؟ لأننا عندما تكلمنا فى أول سورة البقرة عن المنافقين قلنا : إن المؤمن حين يؤمن بالله يكون صادقا مع نفسه ، لأنه قال : « لا إله إلا الله » وهو مؤمن بها ، والكافر حين ينكر الألوهية يكون صادقا مع نفسه أيضا .

أما المنافق فهو لا يصدق مع نفسه ، ولا يصدق مع الناس ، إنه مذبذب بين هؤلاء وهؤلاء . إن المنافق بلا صدق مع النفس . ولذلك يصفهم الحق :

﴿ مَذْبِذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ ﴾

( من الآية ١٤٢ من سورة النساء )

إن الكافر له صدق مع النفس فهو لا يقول : « لا إله إلا الله » لأنه لا يعتقد بها . أما المنافق فقد قال : « لا إله إلا الله » وهى غير مطابقة لسلوكه ، لذلك يكون غير صادق مع نفسه ، وغير صادق مع ربه . إذن ، فقول الحق : « الصادقين » مقصود به هؤلاء الناس الذين يأتون فى كل حركاتهم صادرين عن منهج الله ، فلا يؤمنون بقضية ، ويفعلون أخرى . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ ﴾

﴿ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۚ ﴾

( سورة الصف )

أى أنه حين يكون القول شيئا مختلفا عن الفعل ، لا تتطابق النسبة . فالصادقون هم الذين يصدقون فى سلوكهم مع كلمة التوحيد فى كل ما تتطلبه هذه الكلمة من هذه السلسلة : « لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله » أى لا مطاع فى أمر أو نهي إلا الله ، فإن جئت وطأعت أحدا فى غير ما شرع الله بحق للمؤمنين أن يقولوا لك : أنت كاذب فى قولك : « لا إله إلا الله » .

« فعن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يزن الزاني حين يزن وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) .

هذا هو سمو الإيمان عند المؤمن ، إن المؤمن لا يمكن أن يكذب أو يخالف مقتضيات عقيدته ؛ لأن المؤمن في كل تصرفاته خاضع لإيمانه بأنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق : « والقانتين » والقانت : هو العابد بخشوع وباطمئنان وباستدامة . والقانت صادق مع نفسه ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف عباده تكليفا ، فقد يكلفهم بشيء يعز على أفهامهم أن تدرك حكمته .

واقبل القانتون من العباد على هذا التكليف ؛ لأن الذى أمرهم به إله قادر ، فهم يشقون فى حكمته فأدوا الأمر الصادر إليهم لأنهم خاضعون لحكمة الله .

إنهم منفذون للأمر القادم من الأمر لا لعله الأمر . وبعد أن يصنعوا ذلك ؛ يريهم الله نورانية هذا الحكم بأن يعطيهم فرقا فى أنفسهم :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَشْقُوا أَنَّ اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ

لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٩﴾

( سورة الانفال )

فيقول المؤمن منهم لنفسه بعد أن يرى هذا الفرقان : إن الله قد أراد لى بهذا الأمر أن أدرك حلاوة طاعة هذا الأمر ، ولذلك قال أحد العارفين بالله :

إن كنت تريد أن تعلم عن الله حكما كلفك الله به دون أن تعلم علته فاتى الله فيه ، وحين تنفى الله فى هذا الأمر ، فإنك تجد الحكمة مستتيرة فى ذهنك ، ولذلك يقول الله :

( ١ ) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد .

## ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة)

فكانت قبل التقوى لم يعلمك الله ، أما بعد التقوى فإن الله يعلمك ، فتقبل على تنفيذ التكليف لتلمس إشارة في نورانية نفسك ، وهذا هو الفارق بين الأمر من المساوي ، والأمر من الأعلى . وعندما ترتقى كلمة « الأعلى » ، فإنها لا تنطبق إلا على الأعلى المطلق وهو الله ، إنه الأعلى في الحكمة ، والأعلى في المنزلة ، والأعلى في المكانة ، والأعلى في الربوبية .

إذن ، فالإنسان لا يطلب علة حكم إلا من مساو له ، فإن قال لك أحد من البشر : افعل الشيء الفلاني . فإنك تسأله : لماذا ؟ فإن أقنعك ، فأنت تقوم بالفعل . وتكون قد قمت بتنفيذ هذا الفعل . لأن المساوي لك قد أقنعك بالحكمة لا بالطاعة له .

ولكن عندما يصدر الأمر من الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى ، فإنك أيها العبد المؤمن تنفذ الأمر فوراً عشقاً في طاعته . والمثال الذي أخبر به للتقريب لا للتشبيه ، قاله الأعلى ، وهو منزّه عن كل شبيه ، إن الأب يقول لابن في حياتنا اليومية : إن نجحت في المدرسة فسأحضر لك هدية هي الدراجة . فهل معنى ذلك أن علة الذهاب إلى المدرسة هي الحصول على الدراجة كهدية ؟ لا ، ليست هذه هي العلة ، إن العلة عند الأب هي أن يتعلم الابن ويتفوق في حياته ، ويكبر ، وعند ذلك يدرك العلة ، ويقول لنفسه : لقد كان أبي على حق .

إذا كان هذا يحدث في الحياة بيننا نحن البشر ، فكيف لنا بطاعة الأمر الصادر من الله ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف العبد تكليفاً ، فإن العبد قد يجد مشقة في فهم العلة . والعبد المؤمن يعرف أن الرضوخ لتكليف الحق إنما هو خضوع للأمر الأعلى .

إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن بمن هو أعلى منه وأعلى من كل كائن ، ولا يساويه أحد ، إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن أولاً بأن الله هو الإله الواحد - سبحانه - له مطلق



الحكمة ، وله القوة وله كل شيء في الكون ، وسبق أن ضربت المثل - والله المثل الأعلى .

إن الإنسان قد يمرض ، وصحة الإنسان أتمن شيء عنده ، فيفكر في الذهاب إلى طبيب ، ويقول له : إنني أتعب من معدني ، أو من قلبي أو من أمعائي . إنه يحدد ما يشكو منه . وعقل الإنسان هو الذي هداه إلى الطبيب الذي يشخص العلة ، وبعد ذلك يأخذ المريض من الطبيب ورقة مكتوباً فيها الأدوية اللازمة . إن الإنسان يتناول كل دواء من هذه الأدوية دون أن يسأل الطبيب عن حكمة كل دواء ، لأنه لو سأل عن ذلك فهذا معناه الدخول في متاهة كيميائية ، فإن سأل أي إنسان ذلك المريض : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فيجيب المريض : لأن الذي كتب لي هذا الدواء هو الطبيب المختص بعلاج المعدة ، أو القلب ، أو الأمعاء أو أي عضو يشكو منه الإنسان .

والطبيب قد يخطئ ، إنما حكم الله لا يخطئ أبداً ، فهو جل شأنه منزّه عن الخطأ تماماً . إن الحكمة تكون عند الحق سبحانه وتعالى ، وعندما يتفد المؤمن مطلوب الله فإنه يدرك آثار الحكمة الربانية في نفسه . وكلمة « قانتين » كما عرفنا هي وصف لمن يعيشون القنوت ، والقنوت هو عبادة مع خضوع ، وخشوع واستدامة . لماذا الخضوع ، والخشوع ؟

لأن الله جل وعلا لم يشرع العبادة لينفذها الإنسان ، وينفذ نفسه من عذاب النار ، لا ؛ إنما نرى كثيراً من الناس - إذا ما لاحظنا واقع الحياة - إذا وجدوا رئيساً قوى الشكيمة وقوانينه صارمة في أن الموظفين تحت يده يجب أن يحضروا صباحاً في الميعاد المحدد ، وأن ينصرفوا في الميعاد المحدد ، ولا يسمح لهم بالاستغفال بغير العمل ، فلا يشربون الشاي ، ولا يقرأون الصحف ولا يقابلون الأصدقاء ، وغير ذلك من الأعمال . ويأت واحد من الموظفين فيقول عن هذا الرئيس : إنه شديد المراس ، ولذلك فليس له عندي إلا أن أحضر في الثامنة إلا خمس دقائق ، ولن أنصرف إلا في الثانية وخمس دقائق ، ولن أقرأ الصحف ولن أفعل أي شيء مما يمنعه . إن هذا الموظف يفعل ذلك بجبروت واستعلاء على رئيسه حتى لا يسمح له بنقد أو تجريح ، فهذا الموظف يمثل ولكن باستعلاء .

إنها طاعة بلا حب ، ولكنها باستعلاء . وقد يحاول عبد أن يقول : ماذا يطلب الله مني ؟ ألا يطلب مني الصلاة والزكاة وإقامة العبادات ؟ سوف أفعل ذلك . لمثل هذا العبد نقول : لا ، إن الله يطلب العبادة بحب منك وخشوع واطمئنان ، لأن التكليف من الحق صدقة أخرى أجراها الله على العبد . إن الحق سبحانه وتعالى قد كلف العبد بالتكاليف الإيمانية ، حتى يكون الإنسان سويا وله قيمة في الحياة .

إن معنى « قانت » هو العبد الذي يؤدي عبادة ربه بخشوع ، وباطمئنان ، وباستدامة . لماذا ؟ لأن الذي يقبل على الطاعة ثم ينصرف عنها كأنه قد جرب وده الله فلم يجد الله أهلا للود . أما العبد الطائع فهو لا ينصرف عن العبادة ، لأنه ذاق حلاوة استدامة العبادة لله ، ومادام قد أدرك حلاوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع ، واطمئنان ، واستدامة ، ويدخل في دائرة القانتين .

وبعد « القانتين » يقول الله سبحانه : « والمنفقين » وكلمة أنفق و« نفق » ، مأخوذة من كلمة « نفق الحمار » أي مات ، و« نفقت السوق » أي انتهت بضائعها واشتراها الناس ولم يبق منها شيء . و« نفقة » مأخوذة من هذا المعنى لتشعرنا بأن الإنسان حين ينفق فهو يبيع ما أنفقه من نفسه ، فلا يتذكر أنه أنفق على فلان كذا ، وعلى فلان كذا ، أي يعلم يقينا أن ما أنفقه هو رزق من أنفقه عليهم وليس له إلا أجر إيصاله إليهم فلا من ، ولا إذلال .

إن الله يريد من كل إنسان يخرج شيئا من ماله أن ينهي من ذهنه هذا الشيء الذي خرج من المال فلا يذكره ولا يمين به على أحد . « والنفقة » تقتضي وجود منفق ، ومنفقا عليه ، ومنفقا به ، المنفق كما نعرف هو المؤمن الذي عنده فضل مال ، والمنفق عليه هو الفقير ، والمنفق به هو الخيرات .

ومن أين تأتي هذه الخيرات ؟ إنها تأتي نتيجة الحركة في الحياة ، وحركة المتحرك في الحياة تقتضي قدرة ، فإذا كان الإنسان عاجزا ، ولا يجد القدرة على الحركة ، فمن أين يعيش ؟ إن الله لا بد أن يضمن له في حركة القادر ما يعوله .

لقد جعل الله القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر اليوم قد يصير عاجزا غدا . ومادامت القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر الآن عندما يسمع الأمر

من الله بأن يتفق على غير القادر ، فلا بد أن يُقدر في نفسه أن قدرته هي عرض من أعراض الحياة ، والقادر الآن من الأغيار ، لذلك فهو عرضة لأن يصير غدا من العاجزين ، ويقول القادر لنفسه : « عندما أصبح عاجزا سوف أجد من يعطيني » . ليس ذلك هو التأمين الحق ؟ إنه تأمين المؤمن . إن المؤمن يعطى عند قدرته ، وذلك حتى يجنبه الله مشقة السؤال إن جاءت الأغيار ، لأن الأغيار إن جاءت سوف يجد من يعطيه .

إننا يجب أن نلاحظ في الحكم ، لا ساعة أن تطالب أنت بأداء مطلوب الحكم ، ولكن ساعة أن يؤدي الغير إليك مطلوب الحكم . فالذي يطلب منه أن يتفق ، عليه أن يقدر أنه قد يصبح عاجزا ، ولنا أن نسأله : لو كنت عاجزا ألم تكن تحب أن يعطيك الناس دون من أو أذى ؟

إن هذا هو التأمين الحق ، لأن التأمين في يد الله ، وملاذمت الأغيار عرضة لأن يصير القادر عاجزا ويصير العاجز قادرا ، فساعة يتفق المتفق يجب عليه أن يميت أنه أنفق فلا يتذكر وجه من أنفق عليه ، ولا يخبر أحدا بما أنفق .

عد الرسول صلى الله عليه وسلم الرجل الذي أنفق حتى لا تعلم شياله ما صنعت يمينه من السبعة الذين يظلمهم الله في ظله فقال : ( سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأته ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شياله ما تنفق يمينه )<sup>(١)</sup> .

وبعد ذلك على المؤمن المتق أن يُقدر ساعة عطائه أنه أخر ليأخذ ، إما أن يأخذ إن طرأت له الأغيار في الدنيا ، وإما أن يأخذ من يد الله في الآخرة أضعافا مضاعفة . إذن ، فالمتفق هو الذي يؤمن لغير القادر حركته في الحياة ضيانا لنفسه حين لا يقدر ، أو استئارا مضاعفا عند الله . وهؤلاء المنفقون الذين يسعون العاجزين بفضل ما لديهم ، يظهرون حكمة الله في الوجود ، لأن الله مادام قد خلقنا ، وفيما

القادر ، وفيما العاجز ، فقد أراد الله لنا أن نعرف أن القدرة ليست لازمة في الخلق . فإن قدرت الآن فقد تسلب - بضم التاء - منك هذه القدرة ، ومادامت القدرة يتم سلبها ، فلا بد أن يتمسك المؤمن بالقيوم الذي يقيم القدرة لك أيها المؤمن دائما ، وذلك حتى يعرف الواحد منا أنه لم ينفلت من ربه . خلقنا قادرين وانتهت المسألة . لا . إن القدرة أغيار تذهب ونجىء . ومادامت الأغيار تذهب ونجىء فلا بد أن يضع المؤمن نصب عينيه عطاء القادر الأعلى .

وقلنا سابقا : إن الله جعل المنفقين وصفا من أوصاف الذين اتقوا ، والذين أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وذلك حتى يحصى الله الضعيف الذي خلقه الله لحكمة في الوجود . إن الإنفاق ليس أخذًا من العبد ، إنما هو مناولة ، هذه المناولة تتضح في أنه ما كان لك ما يزيد عن حاجتك ، إلا بحركتك في الحياة .

وهذه الحركة في الحياة تتطلب عقلا يخطط للحركة وجوارح تنفذ المخطط الفكري ، ومادة يتم الفعل فيها سواء كانت أرضا تتم زراعتها ، أو آلة يتم الصنع بها ، ولا شيء للإنسان من هذا في الكون . إن المخ الذي يدبر هو عطاء من الله ، والطاقة التي تنفذ هي عطاء من الله . ونحن نرى في الحياة إنسانا قد نزع الله عنه المخ الذي يفكر ويدبر ، ونجد إنسانا آخر قد نزع الله منه الطاقة التي تنفذ ، فقد يمنع الله عن عبد المادة التي يتفاعل معها .

إذن ، فلا شيء من هذه الأشياء ذاتي للإنسان ؛ إنما كلها عطاء من الله . فليعمل المؤمن مضاربا عند الله ، وليعط المؤمن للعاجز حق الله . إن الله لا يأخذ هذا الحق لنفسه إنما يريد الله لأخيك العاجز ، وسوف يطلب الله هذا الحق لك إذا عنت لك حاجة بسبب الأغيار .

هكذا تكون « المنفقين » صفة من صفات الذين اتقوا ربهم . والحق سبحانه وتعالى قد جعل في الصبر ، صلابة اليقين الإيمان في النفس البشرية . وفي الصدق انسجاما مع واقع لا إله إلا الله ، وفي النفقة حماية العاجز الذي لا يقدر .

وبعد ذلك يعود إلى نفس المؤمن عودة أخرى فيقول : « والمستغفرين بالأسحار » . إننا يجب أن نأخذ هذا الوصف بعد مجيء الأوصاف الأخرى في النفس البشرية . البداية

هي إقرارهم بالإيمان ، ودعاؤهم الحق - سبحانه - أن يقفر لهم وقد طلبوا الوقاية من عذاب النار ، وصبروا ، وصدقوا ، وقتلوا في العبادة ، وأنفقوا في سبيل الله ، إن كل هذه الأوصاف تبرىء ذمتهم من أنهم مقصرون أيضا في حقوق إلههم لذلك فهم يأتون حال السكون بالليل ، ويستغفرون الله .

إما أن يستغفر العبد لأنه قد فرطت منه هفوة في ذنب ، وإما أن يستغفر لأنه لم يزد فيما يفعله من أمور الطاعة . وكلمة « بالأسحار » توضح لنا لحظات من اليوم يكون الإنسان فيها محل الكسل والراحة ، إن الذي سوف يصحو في السحر لابد أن يكون قد اكتفى من الراحة ، ولم يكن قد أخذ منه كد الحياة كل النهار ، ثم إن بعضهم يأخذ هو الحياة ليلا .

وهذا هو وجه الخيبة لما يحدث في زماننا . إن كد الحياة - إن أخذ - يأخذ نهارا ، وبعد ذلك يأخذنا هو الحياة ليلا ، مما نشاهده من هو الحديث ، وهو السهرات ، وبعد ذلك يأتى الإنسان لينام متأخرا ، فكيف نطلب من هذا الإنسان أن يصحو في السحر ؟ إن الذي يصحو في السحر هو من أخذ حظه في الراحة ، فبعد أن جاء من كد العمل نام نوما هادئا ، ويصحو من بعد ذلك في السحر ليذكر ربه ، في الوقت الذي نام فيه غيره من الناس ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى في لحظة سكون الليل يوزع رحمته ، وعندما يصحو إنسان في السحر ويدعو الله ، ويستغفره فإنه يأخذ من رحمة الله النازلة .

وعندما يأخذ هذا العبد من رحمة الله النازلة في ذلك الوقت ، فمعنى هذا أنه سيأخذ الكثير من رحمة الله . وإياك أن تقول : لو صبحونا جميعا في الأسحار لتفدت الرحمة والعطاء « لا » ، لأن الله قد قال :

﴿ مَا عِنْدَكَ يُنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾

( من الآية ٩٦ من سورة النحل )

إن قدرته جل وعلا تتسع لعطائنا جميعا دون أن ينقص شيء من عنده . إن كل هذه الأشياء من التقوى ، والإقرار بالإيمان ، وطلب المغفرة للذنوب ، وطلب الوقاية من عذاب النار ، والصبر ، والصدق ، والقنوت ، والإنفاق في سبيل الله ،

والاستغفار بالأسحار ، كل ذلك نتيجة للتقوى الأولى .

إنها الثمرة من « لا إله إلا الله » . ومادامت هذه هي الثمرة من « لا إله إلا الله » فليعلم كل إنسان ، أن الله لم يدعك لتستنبطها أنت من مفقود ، بل اعلم أن الله قد شهد أنه لا إله إلا الله ، وكفى بالله شهيدا . ولذلك يقول الحق :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا  
الْعِلْمِ قَابِئًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ  
﴿ ١٨ ﴾

ولنأخذ الجملة الأولى من الآية الكريمة بمعناها : لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو ، أى أن الحق قد أخبر بما رآه ، وشاهده ، أو ما يقوم مقام ذلك . إن « شهد » بمعنى علم .

إنه الحق الذى نصب الأدلة فى الوجود على قيوميته ، وعلى أنه إله واحد ، ليس فى ذلك إقامة للحجة على أنه إله واحد ؟ ومن الذى خلق الأدلة وجاء بها ؟ إنه الله . إذن ، فقد شهد الله أنه لا إله إلا هو . وقلنا : إن شهادة الله أنه لا إله إلا هو هي شهادة الذات للذات ، وشهادة الذات للذات تعنى أنها كلمة مُمكنٌ منها . فعندما يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ ١٧ ﴾

( سورة البقرة )

بالله لو لم يكن قد شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، وليس هناك من يعارض مبتغاه ، أكان يجازف فيقولها ؟ إنه الحق الأعلى الذى شهد أن لا إله إلا هو ، فساعة

أن يقول : « كن » فإنه قد علم ، أنه لا يوجد إله آخر يقول : « لا تكن » . إن الحق لا بد أن يطمئنا أنه لا إله إلا هو ، لذلك فلزم أن يشهد لنفسه أنه لا إله إلا هو . إننا نجد أن من أسماء الله الحسنى « المؤمن » . بماذا يؤمن الله ؟ إنه مؤمن بأنه لا إله إلا هو ويلقى الأمر ، ويلقى الحكم التسخيري ، ويعلم أنه لا إله يعارضه .

واليس من مطلوبات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشهد أنه رسول الله ؟ لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال في صلاته : « أشهد أن محمدا رسول الله » . ولو لم يشهد بهذه لنفسه فكيف يجازف بالأشياء التي يقولها ؟ ولذلك فسيدينا أبو بكر عندما بلغه أمر بعث محمد رسولا ، قال ما معناه : أقالها محمد ؟ إنه صادق ، ومادام قد قالها فهي حق .

إن أبا بكر الصديق واثق من الرصيد الذي سبق بعث محمد بالرسالة . ونحن نرى في التاريخ امرأة كان السبب في إسلامها لمحة من سيرته صلى الله عليه وسلم . قرأت هذه المرأة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له حراس من المؤمنين يقومون بحراسته من الكافرين . وبعد ذلك جاء يوم وصرف الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الحراس ، وقال لهم ما معناه : إن الله عصمني من الناس فاذهبوا أنتم .

وقد قرأنا هذه الواقعة كثيرا جدا ، ولكن الفتح جاء من الحق لامرأة ، فشغلتها هذه المسألة ، وتساءلت : ألم يكن هؤلاء الحراس يحرسونه خوفا على حياته ؟ فلماذا قال لهم : « لا تحرسون » لأن الله هو الذي يحرسني ؟ فلو أن رسول الله قد غش الدنيا كلها ، أكان من الممكن أن يغش نفسه في حياته ؟

وأجابت المرأة على نفسها : لا يمكن ، لا بد أن رسول الله قد وثق تمام الثقة في أن الله قد أبلغه أمر حمايته بدليل أنه قام بصرف الحراس ، وإلا فكيف يأمن أن يأتي أحد ليقتله ؟ قالت المرأة : والله لو خدع الناس جميعا ما خدع نفسه في حياته ، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . حدث إسلام هذه المرأة من نعمة يسيرة من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن ، « شهد الله أنه لا إله إلا هو » هي شهادة الذات للذات ، وكفى بالله

شهيذا . وشهدت الملائكة أيضا ، والملائكة هم الغيب الخفى عنا ، وتلقى الأوامر من الحق . إن الملائكة لم يروا أحدا آخر يعطى لهم الأوامر ، إنه الإله الواحد القادر . وهذه هي شهادة الشهيد . ويضاف إلى الملائكة « أولو العلم » ، لقد أخذ « أولو العلم » الأدلة وجلسوا يستنبطون من كون الله أدلة على أنه لا إله إلا الله .

إن هذه أعظم شهادة لأعظم مشهود به من أعظم شهود ، الله فى القمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ، والملائكة وأولو العلم . ولقد أخذ أولو العلم منزلة كبيرة لأن الله قد قرنهم بالملائكة .

إن الحق سبحانه وتعالى يبلغنا أنه قد نثر فى كونه الآيات العجيبة العديدة ، والذي يجلس ، ويتفكر ويتدبر ، ويتفطن وينظر ، فإنه يستخرج الأدلة على أنه لا إله إلا هو ، وكما قلنا من قبل : إن أبسط الطرق للتدليل على هذه الحقيقة . إن كانت « لا إله إلا الله » صدقا فقد كفيينا ، وإن كانت غير صدق فأين الإله الذى أخذ منه الله هذا الكون ، ولم يخبرنا ذلك الإله أنه صاحب الكون ؟ فإما أن هذا الإله الآخر لم يَدْر ، أو أنه قد علم « ولا يستطيع فعل شيء » ، إذن فلا يصح أن يكون إلهنا يزاحم الحق الذى أبلغنا أنه لا إله إلا هو .

وتظل « لا إله إلا الله » لصاحبها - جل شأنه - « شهد الله أنه لا إله إلا هو » وفى كل حركة من حركات الحياة نجد أن الانفراد بصدور الحركة قد يعطى علوا ، وقد يعطى استكبارا . . . لذلك نقول : ها هو ذا الخالق الأعلى الذى « لا إله إلا هو » يخبرنا أنه قائم بالقسط . ورغم أنه لا أحد فى استطاعته أن يتدارك على الله ، إلا أنه بطمئنا أنه قائم بالقسط .

ولنلاحظ هنا ملحظا جليلا فى الأداء « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » لماذا لم يقل الله إن « الملائكة » و « أولو العلم » ، الذين شهدوا أنه لا إله إلا هو « قائمين » بالقسط ؟ لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط ، والملائكة شهدوا هذه القضية والعلماء شهدوا أيضا بهذه القضية . . . لماذا ؟ لأن الله لو قال : « قائمين بالقسط » لكان الله مشهودا عليه من هؤلاء ، والشهادة هى له وحده أنه قائم بالقسط والعدل .

لأنه سبحانه خلق الملائكة بالقسط ، فلو كانوا معه فى ذلك لما استقام الأمر ،



وأولو العلم أيضا مخلوقون بالقسط ، لأن الله قد وزع حركة الحياة على الناس ، فأناس يعملون بعقولهم ، وآخرون يعملون بقلوبهم ، وقوم غيرهم يعملون بجوارحهم ، فهذا هو لون من عدل الله ، وإلا ، فهل يدعى أحد أن إنسانا تتجمع فيه كل المواهب التي تتطلبها الحياة . لا ، وهذه من عدالة الرحمن .

إن من عدالة الحق أنه وزع المواهب بين البشر ، فبدلا من أن يعتمد الإنسان على نفسه في صناعة الملابس والمأكل ، والمشراب ، جعل الله المهارات موزعة بين البشر . . فأنقذت مجموعة من البشر حرفة الزراعة لإنتاج الطعام الذي يكفيهم ، ويسد حاجة غيرهم ، وكذلك تبادلوا مع غيرهم المنافع ، فالإنسان - بمفرده - لا يستطيع أن يزرع القطن ويجمعه ويفزله وينسجه ، ليلبس ، والإنسان لا يستطيع أن يزرع القمح ويحصده ثم يطحنه ثم يخبزه .

إن الله لم يخلق الناس ليقوم كل فرد بإشباع حاجات نفسه المتنوعة ، إنما وزع الله المواهب ، لتداخل هذه المواهب ، ويتكامل المجتمع البشري ، فواحد يزرع الأرض ، وثاني يفزل القطن ، وثالث ينسج القماش ، ورابع يصنع الأدوات . وهذا عدل عظيم ، لأن الطاقة البشرية لا تقوى على أن تقوم بكل متطلبات الحياة ، لذلك جعل الحق هذا التنوع في المواهب ليربط الناس بالناس قهرا عن الناس ، فلم يجعل لأحد تفضلا على أحد ، فإدام واحد يعرف في مجال ، وآخر لا يعرف في هذا المجال ، فالذي لا يعرف محتاج للآخر ، وهكذا يتبادل الناس المنافع رغبا عنهم .

ولذلك نجد الكون متكاملا . ولينظر كل منا إلى حياته وليعدد كم زاوية من زوايا العلم ، وكم زاوية من زوايا القدرات ، وكم زاوية من زوايا المواهب تلزم حتى تخدم حركة الحياة ؟

إن هذه الزوايا موزعة على الناس جميعا ليقدموا جميعا حركة الحياة . وهذا قمة العدل . وحتى يوضح لنا الحق قيمة العدل وكيفية العدالة في إقامة المحبة والاحترام بين البشر ، فلينظر الواحد منا إلى الإنسان الآخر البعيد عنه ، ويتساءل بينه وبين نفسه : أهذا الرجل البعيد عني يعمل من أجل ؟ وتكون الإجابة : نعم .

إذن ، فعل الإنسان عندما يرى إنسانا متفوقا في صنعة ما ، فليقل : إن تفوقه في

صنعتة عائد إلى وتفوقه في موهبته عائد إلى ، وهكذا منع الله بالعدل الحقد والحسد ، وجعل الناس متكاتفين قهرا عنهم ، لا تفضيلا منهم ، إذن ، فكل إنسان يسعى بحركة الحياة إنما يقيم نفسه في زاوية من زوايا الحياة ، ومن العجيب أن الزاوية التي يحسبها الإنسان تكون حاجته فيها أقل الحاجات ، لذلك نجد المثل الرفي الذي يقول : « باب النجار مخلق » ، وذلك حتى يعلم الإنسان أن موهبة ما تكون عند غيره سوف تنفعه هو ، بدليل أن الموهبة التي عندك لم تنفع أنت بها إلا قليلا .

وبذلك يشيع في الناس اقتناع بأن موهبة كل فرد فيهم ، إنما تعود عليهم جميعا ، وبذلك تحمل المحبة والاحترام بدلا من الحسد والحقد . وعندما سأل أحد الظرفاء : ولماذا يكون باب النجار هو « المخلق » ؟ قال أحد الظرفاء ردا عليه : لأنه الباب الوحيد الذي لن يأخذ النجار أجرا لإصلاحه ، وولتفت إلى العجائب في الحكمة الشائعة ، فنجد أطباء اخصائين في ألوان من المرض ، وصاروا أعلاما في مجالات تخصصاتهم ، ويشاء الحق سبحانه وتعالى ألا يصابوا إلا بما برعوا فيه ، كان الذي برعوا فيه لم يفدهم هم بشيء ، إنما أفاد الآخرين . ولننظر إلى الآية في مجملها :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

( سورة آل عمران )

لقد استهلها الله بقوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » ثم قال بعد ذلك : « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فكان الآية تقول لنا : إذا ثبتت شهادة الذات للذات ، وشهادة المشهد من الملائكة ، وشهادة الاستدلال من العلماء ، فإن القاعدة تكون قد استقرت استقرارا نهائيا لاشك فيه ، فخذوها مسلمة : « لا إله إلا هو » .

ومادام « لا إله إلا هو » فليكن اعتمادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إنما فأنت قد اعتمدت على عزيز لا يغلب على أمره .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ،

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف <sup>(١)</sup> .

فلا يستطيع أحد أن يدخل مع الله في جدال . إنما يدخل خلق الله مع خلق الله في خلاف أو نضال ، لكن لا أحد يجزئ على أن يدخل في نضال مع الله لأنه عزيز لا يغلب . فإن آمنت به وحده ، فلك الفوز . وكلمة « وحده » قد تبدو في ظاهرها تقليلاً للسند الذي تستند إليه في القياس البشري ، فيقال : « أنا لاجيء إلى فلان وحده » وعندما تكون لاجئاً إلى عشرين ألا تكون أكثر قوة ؟ لكن هنا لا يكون قياس بين اللجوء إلى الله وحده ، بقياس اللجوء إلى مخلوق . إنك هنا تلجأ إلى خالق أعلى بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير ، فكلمة « وحده » هنا تغنيك وتكفيك عن الكل . اعمل لوجه واحد . يكفك كل الأوجه ، واعلم أنه لا يوجد من يغلبه على أمره .

وعظمة الحق أنه واحد أحد فرد متفرد صمد ، وهو عزيز لا يغلب على أمره ، وهو صاحب كل الحكمة في وضع الأشياء في مواضعها بحيث إذا ما عرفت حكمة ما يجريه الله سبحانه وتعالى على خلقه فأنت تتعجب من عظمة قدرة الله . لأن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه ، ومادمت قد وضعت الشيء في موضعه فإنه لا يكون هناك قلق ، ومادام الشيء موضوعاً في مكانه فهو مستقر . ومادام الشيء مستقراً فإنه لا يتلون وتزداد الثقة فيه ، وهذه مأخوذة من « الحكمة » التي توضع في فم الفرس ، والتي نسميها « اللجام » وهي كما نعرف تتكون من قطعة من الجلد تدخل على اللسان وفيها قطعة من الحديد ، فإن مال إلى غير الاتجاه الذي تريد ، يكون من السهل جذبه إلى الاتجاه الصحيح .

إن وجود الحكمة يعني وجود شيء يحكمه فلا ينحرف يمينا ولا يسارا ، ومادام الله قد شهد أنه لا إله إلا هو ، وشهدت الملائكة وشهد أولو العلم ، وانتهت القضية بعد هذه الشهادات إلى أنه لا إله إلا هو ، وأنه العزيز الحكيم ، فكل منج منه يجب أن يُسلم إليه ، وأن ينقاد له . ومادام الله قد شهد لنفسه بأنه إله واحد ، أي لا يوجد له

شريك ينازعه فيما يريد من خلقه ، وليس لله شريك في الخلق ، وليس لله شريك في الرزق ، وليس له شريك في التشريع .

إذن .. فالجهة التي نستمد منها مقومات منهجنا هي جهة واحدة ، وكان من الممكن أن نظلم ونجور هذه الجهة الواحدة الخالقة على ما خلقت لأنه ليس لأحد من خلق الله حق على الله ، لكن الله سبحانه عادل ، إنه سبحانه يطمئتنا ، فهذه الوحدانية بقدرتها وجبروتها وعلمها وحكمتها عادلة لا نظلم ؛ لأنه قال : مع أن إله واحد ، لا يُرد لي حكم ولا أمر فأنا قائم بالقسط .

والقيام بالقسط يجب أن نتوقف عنده لفهمه جيدا ، إن الحق يقول عن نفسه : « قائما بالقسط » وكلمة قائم تعني أن الله قد خلقهم الخلق الأول ، وهذا الخلق إنما قام على العدل والقسط . وتكليف الحق للخلق قام على العدل والقسط . والعدل والقسط يقتضي ميزانا لا ترجح فيه كفة على كفة ، وهذا الميزان ممسوك بيد القدرة القاهرة التي لا توجد قوة أعلى منها تميل في الحكم ، والحق سبحانه قائم بالقسط في الخلق ، فقبل أن نخلقنا أعد لنا ما تتطلبه حياتنا بالقسط أيضا ، فلم يجعل أمر الحياة قائما على الأسباب التي يكلفنا بها لنعيش ، بل حكم بالقسط ، لقد جعل الحق بعضا من الأمور لا تدخل لنا نحن العباد فيها ، ولم يقض الحق بذلك على حركتنا ولا على حريتنا في الحركة ، لذلك خلق لنا أسبابا إن شئنا أن نفعل بها وصلنا إلى المسببات ، وإن شئنا ألا نفعل فنترك الأسباب والمسببات .

إذن .. فالحق سبحانه لم يحكمنا في قضية الخلق الأولى بشيء واحد ، بأن يجبرنا على كل شيء ، بل جبرنا بأنه - سبحانه - لم يدخل أسبابنا ولا حركتنا في كثير من الحركات التي تترتب عليها الحياة ، فلم يجعل الشمس بأيدينا ، ولا القمر ، ولا الريح ، ولا المطر . كل هذه الأسباب جعلها بيده هو ، لماذا ؟ لأن هذه الأسباب ستفعل للمخلوق قبل أن تكون له قدرة . هذه الأسباب تفعل للإنسان قبل أن توجد له حياة ، لتمهد للحياة التي يهبك الله إياها ، فلو ترك الله كل هذه الأشياء لأسباب الإنسان لتأخرت هذه الأشياء إلى أن يوجد للإنسان إرادة ، وتوجد له قدرة وعلم .

لقد جعل الله أسباب الحياة بيده ، كالتنفس مثلا ، إن التنفس لا يخضع لإرادة القدرة على الحركة في الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان - وهو سبحانه الإله القادر - تحرك

التنفس إلى أن توجد له إرادة . ولا توجد الإرادة إلا إن وجد عند الإنسان علم بأنه يريد إدخال الأوكسجين إلى الرئتين حتى يغذى الدم والمخ وينقى الدم والجسم من الأشياء التي تضره ، هذا يقتضى العلم ، فإذا كان هذا الأمر يقتضى العلم . فماذا يصنع الطفل الذى ليس له علم ؟ كيف يتنفس ؟

لذلك فمن رحمة الله وعدالته أن جعل أمر التنفس - على سبيل المثال - بيده هو سبحانه ، ولكن الحق سبحانه لم يقض على مخلوقه بأن يجعله فى الكون بلا حرية أو اختيار ، لا ، لقد ترك الحق سبحانه بعضا من الأشياء لحرية الإنسان واختياره .

إذن ، فالحق لم يلزم العبد تسخيرا ، ولم يمنع تخيرا . وذلك هو العدل المطلق . لقد احترم الحق كينونة الإنسان ، وحياة الإنسان ، ومشية الإنسان ، واختيار الإنسان ، فقال : أنا سأعطيك أسباب الحياة الضرورية ولا أجعل لك دخلا فيها ، لأنك إن تدخلت فيها أفسدتها ، وتأخر وصول خدمتها لك إلى أن تعرف وتعلم ، وأنا - الحق - أريدها لك ، وأنت أيها الإنسان عاجز قبل أن توجد لك ، وأنت قادر بوجودها الذى أمتحه لك ، لذلك جعلتها بيدي أنا الخالق المأمون على خلقى . ولكن لن أقضى على حريتك ، فإن أردت ارتقاء فى الحياة فتتحرك فى الحياة ، إن شئت أيها الإنسان أن تفعل فافعل . وإن شئت أيها الإنسان ألا تفعل فلا تفعل . وهذا مطلق العدل .

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى وجعل قوله : « قائلا بالقسط » مشتملا على التكليف أيضا ، أى إن عدالته فى التكليف مطلقة . فأناس يقولون : « لا إله » وأناس آخرون عدلوا الآلهة ، فقام الحق بالقسط بين الأمرين . هو إله موجود يا من تقول : « لا إله » . وهو إله غير متعدد يا من تشرك معه غيره . وهذا قيام بالقسط . وجاء الحق سبحانه فى الأحكام . نحن نجد أحكاما شرعية طلبها الحق سبحانه من العبد طلبا باتا ، ولم يتركها لاختيار الإنسان ونجد أشياء تركها الحق سبحانه ليجتهد فيها الإنسان ، فلم يجعل الحق سبحانه العبد حرا طليقا يعربد فى الكون كما يشاء ، ولم يجعل الحق سبحانه عبده مقهورا أو مقسورا بحيث لا توجد له إرادة أو اختيار .

لقد جعل الله للإنسان مجالا فى القصر ومجالا فى الاختيار ، أوجد فى الإنسان القدرة على الحركة فى الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان - وهو الإله القادر - تحرك

في الحياة وأنا أحمي نتيجة ما تتحرك فيه ، ولكن لي في مالك الذي جعلتك فيه خليفة حق عليك أن تعطى بعضاً منه لأخيك المحتاج .

لقد أعطى الحق للنفس البشرية أن تكذب ، وأعطى لها أن تكذب ، وحفظ لها ما تملك ، ولكنه هو الحق لم يُطلق للنفس البشرية عناها ، بل قال : لي حق في ذلك . وهكذا نجد سبحانه قد عدل في هذا الأمر .

إذن فقول الحق إنه قائم بالقسط . . . نجد واضحاً في كل شيء ؛ ففي الخلق والرزق والتكليف نجد أنه قائم بالقسط ، ومادام هو إلهاً واحداً وقائماً بالقسط . فما الذي يمنعك أيها الإنسان أن تخضع لمراده منك ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ  
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ  
الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَأْتِ اللَّهَ فَاثِمًا  
اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١٩ ﴾

بعد أن قال لنا : إنه إله واحد ، وقائم بالقسط هو نتيجة منطقية لكونه - سبحانه - إلهاً واحداً فكان قوله « إن الدين عند الله الإسلام » هو نتيجة لقوله : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط » . لماذا ؟ لأنه لا تسليم لأحد إلا الله ، ومادام الله إلهاً واحداً ، فلا إله غيره يشاركه ؛ يقول الحق :

﴿ مَا آخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَنْهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ  
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ١٥ ﴾

ومادام قد ثبت أنه هو الإله الواحد ، فما الذى يمنعك أيها الإنسان أن تخضع لمراحمه منك ؟ إذن فقول الحق بعد ذلك : « إن الدين عند الله الإسلام » هو أمر منطقي جدا يجب أن ينتهي إليه العاقل ، ومع ذلك رحمننا الله سبحانه وتعالى فأرسل لنا رسلا لينبهونا إلى القضية المسيية ، والمسيية ، والمقدمة والنتيجة « إن الدين عند الله الإسلام » وإذا سألنا : ما هو الدين ؟ تكون الإجابة : إن الدين كلمة لها إطلاقات متعددة فهي من « دان » تقول : دنت لفلان : رجعت له وأسلمت نفسي له ، واتسمرت بأمره . ويُطلق الدين أيضا على الجزاء ، فالحق يقول عن يوم الجزاء : « يوم الدين » وهو يوم الجزاء على الطاعة وعلى المعصية ، وعلى أن الإنسان المؤمن قد دان لأمر الله ، فكلها تلتقى في قول الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يُشعرنا بأنه قد توجد أديان يخضع لها الناس ، ولكنها ليست أديانا عند الله ، ألم يقل الحق :

﴿ لَكَرَّ دِينَكُمْ وَلِيَ دِينٍ ۝ ﴾

( سورة الكافرون )

إن معنى ذلك أن هناك دينا لغير الله فيه خضوع واستسلام ، وفيه تنفيذ لأوامر ، ولكن ليس دينا لله ، ولا دينا عند الله . إن الدين المعترف به عند الله هو الإسلام . والدين يطلق مرة على الملة ومرة أخرى على الشريعة ، فإن أراد المؤمن الأحكام المطلوبة فلنك أن تسميها شريعة ، وإن أراد المؤمن الطاعة ، والخضوع ، وما يترتب عليها من الجزاء فليسمها المؤمن الدين ، وإن أراد الإنسان كل ما ينتظم ذلك فليسمها الملة .

إذن فقوله سبحانه : « إن الدين عند الله الإسلام » تعنى أنه لا دين عند الله إلا الإسلام ، وكلمة « إسلام » مأخوذة من مادة « سين » و « لام » و « ميم » . و « السين » و « اللام » و « الميم » لها معنى يدور في كل اشتقاقاتها ، وينتهي عند السلامة من الفساد . وينتهي المعنى أيضا إلى الصلح بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والكون ، وبين الإنسان وإخوانه ، إنه صلح وعدم فساد ، كل مادة السين واللام والميم تدل على ذلك ، ومادامت المادة المكونة منها كلمة « إسلام » تدل على ذلك فلماذا لا نتبعها ؟ .

لقد قلنا سابقا : إن الإنسان لا يخضع لمثيله إلا إذا اقتنع بما يقول ، إن الإنسان

يقول مساويه الذى يأمره : لماذا تريدنى أن أنفذ أوامرك ؟ إنك لابد أن تقنعنى بالحكمة من ذلك الأمر ، لكن عندما يؤمن الإنسان بإله واحد قائم بالقسط ، ويصدر من هذا الإله أمر ، فعل الإنسان الطاعة .

إذن . . فالإسلام معناه الخضوع ، والاستسلام بعزة وفهم ، وعزة وتعقل ؛ لأن هناك عبودية تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى السطحي ، وهناك عزة تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه ، إن هذا هو عزة العقل فلا يستهويه أى شيء سوى الخضوع للأمر الثابت الذى لا يتناقض أبدا .

فإدام الله إلهها واحدا قائما بالقسط فإن كعبد من عبده حين يؤمن به وأخذ عنه ، فهذه عزة فى الفهم وعزة فى التعقل ، وعزة فى العبودية أيضا ، لأننى أعبد الله الذى هو فوق كل المخلوقات والكائنات ، ولا أعبد مساويا لى ، وإن الذى يعبد مساويا له لا يملك إلا إنفة وحمية الذليل ، ومادام الإسلام هو الخضوع والاستسلام لله فهو خضوع لغير مساو ، وه أسلم ، أى دخل فى السلم ، أى دخل فى الصلح ، وعدم التناقض ، وفى الأمان والراحة ، أى خلص نفسه من كل شيء إلا وجه الله ، ولذلك يقول الحق :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّكُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا  
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٩)

( سورة الزمر )

كان الله يريد أن يوضح لنا الفرق بين الخاضع لأمر سيد واحد ، وبين الخاضع لِسَادَةٍ كثيرين . وضرب الله لنا المثل بالأمر المشهور عندما ، فقال ما معناه : هب أن عبدا له من السادة عشرة ، وكل سيد له منه طلب ، فماذا يصنع ذلك العبد ؟ وعبد آخر له سيد واحد ، هذا العبد يكون مستريحا لأن له سيديا واحدا ، بينما الآخر المملوك لعشرة تضارب حياته بتضارب أوامر سادته العشرة .

إذن فالعبد المملوك لشركاء نعيم ؛ لأن الشركاء غير متفقين ، إنهم شركاء



متشاكسون ، فإذا رآه سيد يفعل أمرا لسيد آخر ، أمره بالعكس ، وبذلك يتبدد جهد هذا العبد ويكثر تعب ، ولكن الرجل السلم لرجل ، هو مستريح ، وكذلك التوحيد ، لقد جاء الحق سبحانه بمثل من واقعنا ليقترب لنا حلاوة التوحيد . إن العبد المؤمن بإله واحد يحمده الله لأنه خاضع لإله واحد . إذن فما دام الإسلام هو الخضوع والاستسلام ومعناه الدخول في السلم بكسر السين - أو الدخول في السلم - يفتح السين - يقول الحق :

﴿ وَإِنْ جَبَحُوا إِلَيْكَ سَطَاحًا فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١١١ ﴾

( سورة الانفال )

هذا الخضوع ليس لمساو ، بل لأعلى . والأعلى الذي نخضع له هو الذي خلق ، وهو الأعلى الذي أمدنا بقيوميته بكل شيء . إذن فإذا أسلم الإنسان ، فإن هذا الإسلام له ثمن هو المثوبة من الله . إن من مصلحة الإنسان أن يسلم . « إن الدين عند الله الإسلام » ومادام الدين المعترف به عند الله هو الإسلام فهو الدين الذي يترتب عليه الثواب والإسلام هو دين الرسل جميعا ، وكلهم قد آمن به ، فإبراهيم خليل الرحمن قد قال :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَإِرْنَا مَنَّاسِكًا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ أَتَوَّابُ الرَّحِيمُ ١٢٨ ﴾

( سورة البقرة )

ويعقوب عليه السلام يخبر الحق عنه في قوله لبيه وإجابتهم له :

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ ١٣١ ﴾

( سورة البقرة )

ويقول - جل شانه - :

﴿ قُلْ إِنِّي قَدَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (٣) ﴿

( سورة الانعام )

إذن فالإسلام دين شائع ، والمسلمون كلمة شائعة في الأديان ، وبذلك لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقط، إنما الإسلام خضوع من مخلوق لإله في منهج جاء به رسل مؤيدون بالمعجزات ، إلا أن الإسلام بالنسبة لهذه الرسائل كان وصفا ، لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بديمومة الوصف لدينها كما كان لأمم الرسل السابقة ، وصار الإسلام - أيضا - علما لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمنت منتهى ما يوجد من إسلام في الأرض ، فلم يعد هناك مزيد عليها ، وانفردت أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن صار الإسلام علما عليها .

إذن فالإسلام في الأمم السابقة كان وصفا ، وأما بالنسبة لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صار علما لأنه لم يأت بعدها دين ، فإسلامها إسلام عالمي، ولذلك فنحن بهذا الدين نقول : « نحن مسلمون » أما أصحاب الديانات الأخرى فهم أيضا مسلمون لكن بالوصف فقط . نحن الذين تتبع الدين الخاتم سبانا الله في كتابه المسلمين فهذا من إعجازات التسمية التي وافق فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام مراد ربه :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ يَمُنُّكَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا

## وَاللَّهُ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿١٨﴾

( سورة الحج )

لقد صار الإسلام اسماً لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يُطلق هذا الوصف اسماً إلا على من بالغ في التسليم . كيف ؟ نحن نعلم أن لفظ « الله » علم لواجب الوجود ، ونعلم أن « حى » صفة من صفات واجب الوجود . ونعلم أن « قادر » صفة من صفات الله سبحانه وتعالى . ولكن صارت كلمة « حى » اسماً من أسماء الله ، لأن الله حى حياة كاملة أزلية . إذن لا تكون الصفة اسماً إلا إذا أخذ الوصف فيها الديمومة والإطلاق . وعلى هذا القياس يكون الرسل السابقون على محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمم السابقة على أمة الإسلام ، كانوا مسلمين ، وكانوا أمماً مسلمة بالوصف ، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بالإسلام وصفاً وعلمياً ، فصار الأمر بالنسبة إليها اسماً ، ونظرنا لأنه لن يأتى شيئاً بعدها ، لذلك صار إسلام أمة رسول الله « علمياً » . ولقد بشر سيدنا إبراهيم عليه السلام بهذا الأمر :

## ﴿ قُلْ أَيْكُمْ إِبرَاهِيمُ هُوَ مَعَكُمْ الْمُتَّبِعِينَ ﴾

( من الآية ٧٨ من سورة الحج )

إن الحق قد أورد على لسان سيدنا إبراهيم بالوضوح الكامل « هو سيحكم المسلمين » ولم يقل الحق : « هو وصفكم بالمسلمين » . لا ، إنما قال : « هو سيحكم المسلمين » . لأن الأمم السابقة موصوفة بالإسلام وأما أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي مسماة بالإسلام . ونجد من إعجازات التسمية « أننا نجد لأتباع الأديان الأخرى أسماء أخرى غير الإسلام ، فاليهود يسمون أنفسهم باليهود نسبة لـ « يوحنا » . ويقولون عن أنفسهم : « موسويون » نسبة إلى موسى عليه السلام . والمسيحيون يسمون أنفسهم بذلك نسبة إلى المسيح عيسى بن مريم . ولم نقل نحن أمة رسول الله عن أنفسنا : « إنا عمديون » . لقد قلنا عن أنفسنا : « نحن مسلمون » . ولم تأت على لسان أحد فظ إلا هذه التسمية لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار اسم الإسلام لنا شرفاً . إذن ، فقول الله الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يعنى أنه « إن جاز أن يكون لرسول أو لأتباع رسول وصف

الإسلام فقد يحيى رسول بشيء جديد لم يكن عند الأمم السابقة فتزيده نحن بالتسليم ، وبزيادتنا - نحن المسلمين - بهذا التسليم ختم التسليم بنا نحن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولذا صار الإسلام لا يطلق إلا علينا .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الذين أوتوا الكتاب قد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولماذا اختلفوا ؟ جاءت الإجابة من الحق . الأعلى : ( بغيا بينهم ) وكلمة الاختلاف هذه توحي أن هناك شيئا متفقا عليه ، ومادام الإسلام هو خضوعها لمنهج الله . لأنه إله واحد وقائم بالقسط ، فمن أين يوجد الاختلاف ؟ وما الذى زاد حتى يوجد اختلاف ؟ أبرز إله آخر يناقض الله فى ملكه ؟ لا لم يحدث . ومادام الإله واحدا ، ومادام المنهج القادم من عنده متبعا واحدا ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

إن الحق يوضح لنا أن الاختلاف قد جاء للذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءهم العلم وتلك هى النكايه ، وذلك هو الشر ، فلو كانوا قد اختلفوا من قبل أن يأتى إليهم العلم لقنا : « إنهم معذورون فى الاختلاف » . ولكن أن يحدث الاختلاف من بعد أن جاء العلم من الإله الواحد القائم بالقسط فلنا أن نقول لهم : ما الذى جُدَّ لمتخلفوا ؟ إن الذى جُدَّ هو من عالم الأغيار ، ومادام الجديد قد جاء إليهم من عالم الأغيار ، فمعنى ذلك أن هوى النفس قد دخل ، ونريد أن نعرف أولا - معنى الاختلاف ، الاختلاف فى حقيقته هو ذهاب نفس إلى غير ما ذهبت إليه نفس أخرى .

ولماذا حدث الاختلاف هنا رغم أن الإله واحد ، وهو قائم بالقسط ؟ لابد لنا أن نستنتج أن شيئا جديدا قد نبت . ما هو هذا الشيء ؟ إنه الهوى المختلف ، وحينما يقال : « اختلفوا » فنحن نعلم أن جماعة قد ذهبت إلى شيء وجماعة أخرى ذهبت إلى شيء آخر . وقد نستنتج أن طرفا قد ذهب إلى حق ، وأن الطرف الآخر قد ذهب إلى باطل ، أو أنهم جميعا قد ذهبوا إلى باطل . والذهاب إلى الباطل قد يختلف ، لأن كل باطل له لون مختلف . هل أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول : أنا أنزلت الأديان ومن رحنى بخلقى تركت بعضا من الناس يحتفظون بالحق فى ذاته وإن طرأ عليهم أناس يختلفون معهم . ونجد المثال لذلك فى اليهود ، عندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد اختلفوا ، وأسلم منهم أناس وأمنوا برسالة النبى الخاتم ، بينما

الآخرون لم يسلموا ، ومن أسلم هم الذين كانوا على الحق ، ومن رحمة الله تعالى أنه جعل الذين علموا برسالة رسول الله أن يعلنوا البشارة في كتبهم ولم يكتموا ذلك العلم بل أعلنوا الإيمان ، بينما أصر البعض الآخر على كتمان ما جاءهم من العلم وأصروا على الإنكار . إن الذين أسلموا هم الذين ينطبق عليهم قول الشاعر :

إن الذي جعل الحقيقة علما

لم يخل من أهل الحقيقة جيلا

وإذا كان الله قد عصم الأجيال المتتالية من أمة الإسلام بأن حفظ لنا القرآن . ففي الأديان الأخرى كان هناك أناس من أهل الحقيقة ، وأنصفهم الله :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١٣٢﴾ يُؤْمِنُونَ بِآفِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْحَسَنَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

( سورة آل عمران )

لقد أنصفهم الله حق الإنصاف ، والذين آمنوا برسول الله من أتباع تلك الديانات قد اهتموا إلى الحق ، واختلفوا مع غيرهم وقول الحق : « أوتوا الكتاب » هذا القول يقتضي أن نقف عند « أوتوا » ونقف عند « الكتاب » وقفة أخرى ، إن قول الحق « أوتوا » أي أن شيئا قد جاء إليهم من جهة أخرى . إذن فالكتاب ليس من أفكار البشر ، لأن المنهج لو كان من أفكار البشر لكان من الممكن أن يختلفوا فيه أو حوله . وبناء « أوتوا » للمفعول يجعلنا نسأل : من الذي آتاهم الكتاب ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، والحق سبحانه وتعالى لا يأتي بمختلف فيه .

ومادام الكتاب من عند الله فلا يمكن أن يوجد فيه خلاف . يقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

( من الآية ٨٢ من سورة النساء )

وكان الله ينهنا بذلك القول إلى أن كل شيء بنيت من البشر للبشر ، فلا بد أن تحدث فيه خلافات . إنما الشيء عندما يأتي من الواحد الأحد لا يمكن أن يحدث فيه خلاف أبدا . لا يمكن أن يحدث خلاف فيما اتحد فيه المصدر والمنبع إلا إن وجدت - بضم الواو وكسر الجيم - أشياء زائدة عن ذلك ، وهذه الأشياء الزائدة هي أهواء الذين يقولون : إنهم منسوبون إلى الله .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الكتاب لم يأت إليهم من بشر مثلهم ، إنما من إله واحد قادر ، وفي هذا تنبيه لاتباع الديانات السابقة . أي إنكم أيها الأتباع لا تتبعون إلا منهج الله ، وحين تتبعون منهج الله الذي جاء به الرسل فأنتم لا تتبعون أحدا من الخلق ، لأن أي رسول أرسل إليكم إنما جاء ليبلغكم بمنهج قادم من ربكم ، ولم يقل لكم أحد من الرسل إن المنهج قادم من عنده والرسول يحمل نفسه على الطاعة والخضوع للمنهج المنزل عليه قبلكم ، وهذه عزة لكم ، وليتبه جميع الخلق أن المنهج الحق دائما قد أحله الرسل من الله .

وحين يقول الحق : « الكتاب » فلنا أن نعرف أن كلمة « الكتاب » قد وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، إن الحق سبحانه وتعالى يسمي القرآن مرة « قرآنا » لأنه يقرأ ، ويسميه الحق أيضا « الكتاب » وذلك دليل على أنه يكتب ، وحين نقول : إن القرآن من ( القراءة ) فهذا يعني أن نبرز ما في الصدور بالقراءة ولكن ما في الصدور قد تلوه الأهواء ، لذلك يحرس الحق قرآنه بما في السطور ولذلك فالقرآن مقروء ومكتوب .

وعندما يقول الحق ( من أهل الكتاب ) ، فإن ذلك تنبيه لنا أن الكتاب هو منهج مكتوب ، أي لم يتم وضعه في الصدور ونسيته النفوس ، لا ، إنه منهج مكتوب ، هكذا حدد الحق أمر المنهج السابق على القرآن ، إنه مكتوب ، فإن لعبت أهواء النفوس كما لعبت ، فإن ذلك يعني تحريف الكلم عن مواضعه . ولنا أن نتفل الآن إلى معرفة « العلم » : ما هو العلم ؟ إن العلم هو أن تدرك قضية وهذه القضية واقعة في الوجود تستطيع أن تقيم الدليل عليها ، وغير ذلك من القضايا لا يصل إلى مرتبة العلم لأنه لا يستطيع أحد أن يدلل عليه .

مثال ذلك : نحن نقول : « الأرض كروية » إن كروية الأرض هي نسبة

حدثت ، ونقولها ونحن جازمون بها . والسابقون لنا في عصور سابقة قال بعضهم : « إن الأرض مسطحة » ، وحاول أن يجد من الأسباب ما يقيم الدليل على ذلك ، ولكن الذين أقاموا الدليل على أن الأرض كروية كانوا صادقين بالفعل . وفي العصر الحديث صارت كروية الأرض أمرا مرثيا من سفن القضاء ، وغيرها من الوسائل ، ونحن نعرف أنه « ليس مع العين أين » إن الكروية بالنسبة للأرض ، هي نسبة ، نقولها ونجزم بها ، والواقع أنها كذلك ، ونستطيع أن نقيم على ذلك الدليل .

هذا هو العلم المستوفى ، إن فساد الناس أنهم يأتون إلى قضية لم تصل إلى هذه المرتبة ويسمونها « علما » كقولهم : إن الإنسان أصله فرد ، لا ، إن أحدا لا يستطيع الجزم بذلك ، وتلك قضية ليست من العلم ، إن كلمة « علم » تطلق على القضية المجزوم بها ، وهي واقعة في الوجود ، ونستطيع أن ندلل عليها ، وإذا كانت القضية مجزوما بها ، وواقعة في الوجود ، ولكنك لا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تسمى هذه القضية ؟ هذا ما يطلق عليه « تقليد » تماما كما يقلد الولد أباه قبل أن ينضج عقله فيقول : « لا إله إلا الله ، الله واحد » . ومثلما يأخذ التلميذ عن أستاذه القضية العلمية ، ولا يعرف كيفية إقامة الدليل عليها ، فهذا نطلق عليه « تقليدا » ، وإلى أن ينضج عقل التلميذ ويحسن استيعابه نقول له : ابحث بحثا آخر لتقيم الدليل .

إذن فالتقليد هو قضية مجزوم بها ، وواقعة ، ولا يوجد عليها دليل . وهكذا نعرف أن « العلم » يمتاز عن التقليد بوجود القدرة على التدليل ، لكن إذا ما كانت هناك قضية ومجزوم بها ولكنها ليست واقعة ، فهذا نسمى ذلك ؟ إن هذا هو الجهل . إن الجهل لا يعنى عدم علم الإنسان ، ولكن الجهل يعنى أن يعلم الإنسان قضية مخالفة للواقع ومناقضة له . أما الذى لا يعلم فهو أعمى يحتاج إلى معرفة الحكم الصحيح ، فالجاهل أمره يختلف ، إنه يحتاج منا أن نخرج من ذهنه الحكم الباطل ، ونضع فى يمينه الحكم الصحيح ، وهكذا تكون عملية إقناع الجاهل بالحكم الصحيح هي عملية مركبة من أمرين ، إخراج الباطل من ذهنه ، ووضع الحكم الصحيح فى يمينه .

ولذلك فنحن نجد أن تعب الناس يتأتى من الجهلاء ، لا من الأميين ، لأن الجاهل هو الذى يجزم بقضية مخالفة للواقع ومناقضة له ، أما الأمى فهو لا يعرف ، ويحتاج

إلى أن يعرف . وماذا يكون الأمر حين تكون القضية غير مجزوم بها ، وتكون نسبة عدم الجزم ، مساوية للجزم ؟ هنا نقول : إن هذا الأمر هو الشك ، وإن رجح أمر الجزم على عدم الجزم فهذا هو الظن ، وإن رجح عدم الجزم يكون ذلك هو الوهم .

إذن فوسائل إدراك القضايا هي كالآتي : أولا : علم . ثانيا : تقليد . ثالثا : جهل . رابعا : شك . خامسا : ظن . سادسا : وهم . والعلم هو أعلى المستويات في إدراك القضايا . ولذلك نجد أن الحق يحدد لنا على ماذا يختلف الذين أوتوا الكتاب ، لقد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولم يقل الحق : إنهم اختلفوا بعد ما جاءهم التقليد أو الظن ، أو الجهل أو الشك ، إنما قال الحق : إنهم قد اختلفوا من بعد ما جاءهم الاستيفاء الكامل ، وهو العلم . ومادام هناك أمر قد جاء من القائم بالقسط والإله الواحد ، فالمسألة القادمة منه وهي الحق قد وصلت إلى مرتبة العلم .

إذن ، فقيم الاختلاف ؟ لابد أن أمرا ما قد جد . والذي يحدُّ إنما هو قادم من الأغيار ، وهي الأهواء ، ولذلك يحدد لنا الحق هذا الأمر بقوله : « بغيا بينهم » . ما البغي ؟ البغي هو طلب الاستعلاء بغير حق . إذن فطلب الاستعلاء ليس محمونا في ذاته ، لأن طلب الاستعلاء هو قضية الطموح في الكون . وأن يطلب إنسان الرفعة فيجد ويجهد ، ويبدل العرق ليصل إلى مكانة علمية أو غيرها ، فهذا حق طبيعي ، ونحن نعرف أن العالم قد ارتقى بالطموحات الإنسانية ، إن العالم لو اكتفى وثبت عند الذي وصل إليه في جيل ما ، فإن العالم يحكم على نفسه بالجمود . ولكن الناس طوردت في العالم الذي نحياه بجهد بذله البعض منهم في قضايا نافعة ، ثم حاولوا أن يرتقوا بها ونالوا حقهم من التقدير ، وارتفعوا بالعلم بجهد حقيقي بذلوه ، ويدراسة لما بذله السابقون عليهم .

إذن فطلب الاستعلاء في حد ذاته غير محموت ، بل محمود مادام قائما على الجهد . لكن أن يطلب الإنسان الاستعلاء بغير حق ، فهذا هو البغي . لقد أثبت الله لنا في هذه الآية ، أن كل خلاف بين رجال دين ، أو بين دين ودين ، إنما مرجعه إلى نشوء البغي ، ونشوء البغي هو طلب رجال دين الاستعلاء بغير حق . ومظاهر طلب الاستعلاء بغير حق هو إعطاء الفتاوى التي توافق أمزجة القوم ، وتحالف ما أنزله الحق .



إن الواحد من هؤلاء يدعى لنفسه التحضر ، ويعطى من الفتاوى ما يناقض الذى أنزله الله ، ويدعى أنه يأخذ الدين بروح العصر ، ويدعى لنفسه عدم الجنود ، ويذهب إلى حد اتهام المتمسكين بدينهم بأنهم متخلفون ، والهدف الذى يخبىء فى صدر مثل هذا الإنسان هو الاستعلاء فى قومه بغير الحق ، ويجب أن نفهم أن كل خلاف بين أهل دين واحد ، أو بين دين ودين ، منبهه قول الحق : « بغيا بينهم » . وهذا يعنى اتباع البعض للهوى التابع من بينهم ولم ينزله الله .

لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى إما أن ينزل حكما محكما لا رأى فيه لأحد ، ولا يستطيع أحد أن ينقضه ، وإما أن ينزل الله حكما قابلا للفهم والاجتهاد . ولم يجعل الله الأحكام كلها من لون واحد ، إنما جعل الأحكام على لونين ، وذلك حتى يحترم الإنسان ما وهبه الخالق له من عقل ، ويجعل له مهمة ، فىأتى بقضية ويبحثها ويرجع سببا على سبب . وفى ذلك استخدام من الإنسان لعقله ، إنما رحمة من الله حتى لا يحمى العقل الإنسانى .

إذن فإذا رأيت أى خلاف بين رجال دين أو بين دين ودين فاعلم أن القول الفصل فى هذا الأمر هو ما عبر عنه القرآن : « بغيا بينهم » فمن البغى يهب الهوى الذى تنشأ منه الأعاصير ، إن من يجب الاستعلاء بغير الحق هو الذى يحاول البغى فيدعى لنفسه أنه أرقى فى الفكر ، أو يستعل عند من يملكون له أمرا ، أو يستعل عندما يوافق حاكما فى رأى من الآراء ، ويبرر للحاكم حكما من الأحكام .

إن كلمة « بغيا بينهم » يدخل فى نطاقها كل موجات الخروج عن منهج الله ، والتى نراها فى الكون ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة ضد الأمراض النفسية الناشئة عن البغى ، مثلما يعطى المعاصرون المصل ضد أمراض البدن التى تفتك بالإنسان ، وحتى لا تفاجئنا أمراض البغى ، نجد الرسول يعطينا المناعة

فيقول لنا صلى الله عليه وسلم : ( البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس )<sup>(١)</sup> .

ويعفونا الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك كما فى الحديث التالى :

فيقول صلى الله عليه وسلم : ( البر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون )<sup>(١)</sup> .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يحذرننا ليوضح لنا أن أهل البغي لهم لحاج في أن يقولوا ويصدروا الفتاوى ، وما معنى الإفتاء الذي يحذرننا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل هو مجرد رأى ؟ أم هو رأى يأتي من إنسان معروف عنه أنه مشتغل بعلم الله وبالأحكام ؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم ينهنا إلى ذلك مناعة لنا . فقد يصبح أصحاب الحق قلة ، وليس لهم نصيب في إيصال رأيهم للناس ، أو أن الذين يملكون الكلمة الإعلامية ليسوا مع أصحاب الحق بل في جانب رجل يسير الباطل أو الركب .

وهنا نرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا المناعة حتى لا يأس المتمسكون بالحق ، فأمر الدين لن يمر رخاء ، أو بسلام دائم ، بل سنجد قوما يفسرون أحكام الدين بغيرها بينهم ، ويلوون الأشياء ، لذلك أوضح لنا أن المؤمن حَكَمَ في نفسه ، ويحذرننا من الذين يفتون بالبغى ، إن الإفتاء يحتاجه الناس من الذي يعلم ، ولذلك جاءت كلمة « يستفتونك » أكثر من مرة في القرآن الكريم ، لأن الذين يطلبون الفتوى هم الذين يحتاجون إلى توضيح لأمر ما ، لأنهم مشغولون بقضية الإيمان ، ولذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم يحذرننا من الذين يحاولون إلقاء الفتاوى ، ويحذر كل مؤمن من أن يستمع لكل فتوى .

ويقول الحق : « ومن يكفر بآيات الله » . إذن فمن هو الذي يكفر بآيات الله ؟ وفي أى مجال ؟ إن الكفر بآيات الله هنا محدد في الاختلاف ، وفي البغى بينهم ، أى طلب الاستعلاء بغير حق ، وسمى الحق كل ذلك « كفرا » والمراد منه هنا التنبيه لنا ألا نستمر أحكام الله بالاختلاف أو البغى ، وجاء التحذير في تذييل الآية بقوله : « فإن الله سريع الحساب » . فإليك أن نستطيع أمر الجزاء ونقول : سأستمتع بنتيجة البغى والاختلاف لخدمة من يهمهم أمر الاختلاف ، ويهمهم أمر البغى ، لأنك تريد أن تتعجل أشياء تظن أنها نافعة لك ، لكن ها هو ذا الحق سبحانه يحذرك أن تستبطن حسابها ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أن يأتي لك الحساب من الله في الدنيا ،

وهب أن الله لم يتل مثل هذا الإنسان ببلاء كبير في الدنيا فإن هذا الإنسان سيكون له الحساب العسير في الآخرة .

وقد يقول قائل : إن الحساب في الدنيا قد يؤجله الله إلى الآخرة ، والعلامات الصغرى للقيامة نحن في مراحلها ، وما زالت العلامات الكبرى ليوم القيامة لم تظهر . لمثل هذا القائل نقول : هناك فرق بين الحدث في ذاته ، وبين الحدث فيمن يجرى عليه الحدث . هناك فرق بين أن تقوم القيامة على الناس جميعا ، وبين أن تختصر حياة الإنسان بحادثة ليست في حسبانها ، فقد يفتى الإنسان فتوى اليوم ، وتأتى له حادثة فورية تنقله فجأة إلى سريع الحساب ، فإن استبطأ إنسان الحساب فعليه أن يعرف أن الآخرة قد تحمى له أسرع من مسائل الدنيا ، لأن الإنسان لا يملك القدرة على إطالة عمره ، ومفتاح العمر عند الخالق الأكرم ، وهو الذى يملك القدرة على أن ينقل إليه من يريد فى أى وقت . وهكذا تكون الآخرة بالنسبة للمستبطىء . للحساب أسرع من حساب الدنيا ، وكلمة « حساب » كلمة تطمئن المؤمن إلى أن الله قائم بالقسط لا يتخل حتى عمن كفر به أو عصاه ، إن كل إنسان يأخذ ماله ويدفع ما عليه ، ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾  
وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ  
أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ  
الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٠﴾

« فإن حاجوك » هذا القول يدل على أن الحق سبحانه وتعالى يلقى منهجه على الرسول الخاتم ، ويعطيه الواقع الذى يحيا فيه ، لقد جاءه الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة معسكرات . المعسكر الأول : هم مشركو قريش ، وكان كفرهم فى القمة . والمعسكر الثانى : هو معسكر اليهود والنصارى وجميعهم معا لأنهم أهل كتاب . والمعسكر الثالث : هو معسكر المنافقين . والمحااجة قد أتت من المعسكر

الثاني ، لأن كفار قريش لم يدعوا أن عندهم ديناً قد نزل من السماء ، أما أهل الكتاب فهم يدعون أن عندهم ديناً منزلاً من السماء ، وعندما يناطح الشرك ديناً فهذا أمر معقول ، أما أن يناطح أهل دين نزل من السماء رسولاً جاء بدين خاتم من السماء - فهذا أمر يستحق أن نتوقف عنده .

ومعنى « فإن حاجوك » أى أنهم يحتاجون الرسول صلى الله عليه وسلم وتم إدغام الحرفين المتشابهين وهما حرفا « الجيم » حتى لا تصبح ثقيلة على اللسان . ومعنى الحاجة : أن يدلى كل واحد من الخصمين بحجته . وهذا يعنى النقاش ، ومادام هناك نقاش بين حق وبين باطل ، فإن الله لا يترك الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل يقول له : « فإن حاجوك » أى إن ناقشوك فى أمر الإسلام الذى جئت به كدين خاتم مناقض لوثنية أو شرك قريش ومناقض لما قام أهل الكتاب بتغييره من مراد الله فقل يا محمد : « أسلمت وجهى لله » وقد قلنا من قبل : إننا عندما نسمع قول الحق : « فقل » كان من الجائز أن يكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقول القول ، وضربنا مثلاً على ذلك ، حين يقول الأب لابنه : اذهب إلى عمك وقل له : كذا وكذا . وساعة أن يذهب الابن إلى العم فيقول له : الأمر كذا ، وكذا . إن الابن لا يقول لعمه : قل لعمك كذا وكذا . . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حافظ على النص الذى جاءه من ربه لأن النص واضح . « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله » فهل هذا رد بالحجة ؟ نعم هذا هو الرد ، لأن أهل الكتاب وكفار قريش يأتى فيهم القول :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ① ﴾

( سورة الزخرف )

ويأتى فيهم القول الحكيم :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ② ﴾

( سورة الزخرف )

والكون كما نعرف « مكان » و« مكين » فالمكان : هو السماء والأرض . والمكين وهو الإنسان . المكان مخلوق لله ، والمكين مخلوق لله . وكان من المنطق

أن نسلم وجهنا لمن خلق .

إذن فقول الحق : « فقل أسلمت وجهي لله » أي انتبهوا أيها الناس ، إنني لم أخرج عن دائرة الإيمان بالإله الواحد ، الذي تؤمنون به . إنه هو الذي خلق وهو الذي أوجد الكون . وبعد ذلك إذا كان في الإسلام خضوع ، فإن الحق يأتي بأشرف شيء في الإنسان ليجمعه مظهر الخضوع . لأن الوجه هو السمة العالية المميزة ، وهو الذي يظهر عليه انفعالات الأحداث في الكون من سرور أو حزن ، ويظهر عليه أنك قد تكون قد سجدت وأنت كاره للسجود ، أو سجدت وأنت مقرب لله سبحانه وتعالى فيمثلة الوجه بالبشر والبشاشة .

وقول الحق : « أسلمت وجهي لله » . تعني أن الوجه المسلم لله وهو أشرف شيء في الإنسان قد خضع للحق ، وكان القول الكريم لم ينسب الخضوع للبدن ولكن لأشرف شيء في الإنسان وهو الوجه ، والوجه يطلق مرة ويراد به الذات كلها ، فعندما يقول إنسان : « أسلمت وجهي » فهو يعني « أسلمت ذاتي » بكل ما أوتيت الذات من جوارح ومن أعضاء . ولتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

( من الآية ٨٨ من سورة القصص )

أي كل شيء هالك إلا ذاته سبحانه وتعالى ، هذا هو المقصود بـ « إلا وجهه » وإلا إن أخذنا الوجه على أنه الوجه فقط فقد يقول قائل : أليس لله يد مثلاً ؟ ونقول : إن له يداً في نطاق ليس كمثله شيء ، ولذلك فلا يد الله تهلك ولا أي شيء فيه يهلك ، ووجهه يعني ذاته في نطاق ليس كمثله شيء . وأطلق الوجه على الذات ، لأن الوجه هو الشخص للذات ، فلا يستطيع أحد أن يميز أعضاء بدن عن أعضاء بدن ، إنما التمييز يأتي بسمة الوجه ، لأنها السمة المميزة، وقول الحق في تلقيته لرسول الله : « فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » . تدل على أن الرسول قد أسلم وجهه لله ، لأن الله خاطبه بوساطة الوحي ، والوحي يباشره صلى الله عليه وسلم، ولكن حين يقول : « ومن اتبعن » فقد قام الدليل لمن اتبعني ، وإن لم يكن مخاطباً من الله مباشرة .

إذن فلا مجال لأن يقول قائل للرسول صلى الله عليه وسلم : أنت أسلمت وجهك لله لأنه خاطبك وحدك ، وكان صاحب هذا القول يريد خطابا لكل مؤمن ، قال سبحانه : « ومن اتبعن » فمن اتبع الرسول فقد آمن بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو رسول صدق مبلغ عن الله منهج حق ، فلا مجال لطلب البلاغ لكل فرد ، لأن البلاغ قد وصل إليهم بالإيمان بما أنزله الله على رسوله الكريم ويأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم « وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم » .

وساعة نقرأ أو نسمع أسلوبا فيه « همزة الاستفهام » فلك أن تعرف أن الاستفهام يُطلب منه أن تعرف الحقيقة ، كقول إنسان لآخر : أعندك محمد ؟ أو أزارك فلان ؟ إن هذا استفهام المراد به فهم الحقيقة ، ومرة يريد الاستفهام مجرد الأمر بشيء ، كأن يأتيك ضيف وتجلس معه ويدخل عليك والدك فيقول لك : أصنعت قهوة لضيفك ؟ إن ذلك توجيه لك إن كنت لم تقم بواجب الضيافة فعليك أن تسرع في القيام بهذا الواجب . وعلى ذلك نفهم قول الحق : « أسلمتم » ولذلك نقرأ قول الحق سبحانه بعد الكلام عن الخمر :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ ۝٩١﴾

( سورة المائدة )

إن قول الحق : « فهل أنتم منتهون » يتضمن استفهاما ، والاستفهام هنا يعني الأمر بالانتهاء . وفي مجال الآية التي نتعرض لها بالخواطر نجد قول الحق : « أسلمتم » تعني الدعوة للإسلام ، أي « أسلموا » وجاء بعد ذلك قول الحق الكريم : « فإن أسلموا فقد اهتدوا » ومعنى « اهتدوا » أنهم عرفوا الطريق الموصل للغاية التي خلق الله من أجلها الإنسان . وهنا يجب أن تعلم أن كلمة « الإسلام » هنا جاءت لتدل على الخضوع ، والخضوع لا يلحق إلا من خاضع ، وعملية الخضوع تعرف بالحركة والسلوك ، ولا تعرف فقط بالاعتقاد ، ولذلك فالإمام على كرم الله وجهه الذي أوتى شيئا من نفع النبوة في الأداء الإيماني بالأسلوب البياني الجميل قال الإمام علي لإخوانه : ما نسب الإسلام نسباً لم ينسبه قبل أحد : الإسلام هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء

هو العمل ، والمؤمن يُعرف بإيمانه بالعمل . ونحن في حياتنا العادية نسأل : ما نسب فلان ؟

أى أننا نسأل « هو ابن من » ؟ ومعنى كلمة « نسبة » عند العرب هو الرجل الذى يعرف سلسلة النسب ، ومن ابن من ، ففلان ابن فلان ابن فلان ، ابن فلان . والإمام على كرم الله وجهه ، حين ينسب الإسلام ينسبه بالفعل إلى نسب لم ينسبه قبله أحد . وحين ينتهى الإمام على كرم الله وجهه إلى أن نسب الإسلام إلى العمل قال :

المؤمن يعرف إيمانه بالعمل ، فالدليل الصحيح على إيمان المؤمن هو عمله . ويضيف الإمام على كرم الله وجهه : والكافر يُعرف كفره بالإنكار ، وإن المؤمن قد أخذ دينه من ربه ، ولم يأخذه برأيه . والسيئة في الإسلام خير من الحسنة في غيره ؛ لأن السيئة في الإسلام تغفر ، والحسنة في غيره لا تقبل ؛ لأن الكفر يصاحبها بالله ، هل هناك نسب للإسلام أروع من هذا ؟ وهكذا نجد القول الكريم : « فإن أسلموا فقد اهتدوا » . والمقابل للإسلام يأتى بعد ذلك : « وإن تولوا فإنما عليك البلاغ » إن المقابل هو « تولوا » أى لم يسلموا ، إنه الحق بينه رسوله ألا يهزى ، وألا بأسف إن تولوا ، كما جاء في قوله الكريم :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَنِيعَ نَفْسِكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (١)

( سورة الكهف )

لماذا ؟ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عليه البلاغ فقط ، ومادام قد جاء في صدر الآية : « أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » فإن البلاغ أيضا يشمل النبى صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه ، ولذلك تأتى آية أخرى لتشرح هذه القضية الإيمانية ، ولتبقى الرسالة في أمتة صلى الله عليه وسلم ، ولتخبرنا أيضا لماذا لم يعد هناك داع لوجود أنبياء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم آمناء على أن يعدلوا فساد السلوك في الكون ، فلم يعد العالم في حاجة إلى أنبياء جدد لهذا السبب قال الرسول : صلى الله عليه وسلم : ( العلماء ورثة الأنبياء ) (١) .

( ١ ) رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والترمذى وصححه ابن حبان والحاكم .

إذن « فعليك البلاغ » نأخذ منها الفهم الواضح أن البلاغ لا تنتهى مهمته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما يشمل كل عالم بالبلاغ الذى وصل إلى رسول الله وأمن به ، فقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة ، ويوضح الحق ذلك في آية أخرى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١١٠)

( سورة آل عمران )

ويقول الحق في آية أخرى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (٧٨)

( سورة الحج )

ومعنى ذلك أنكم تشهدون على الناس أنكم أبلغتموهم رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يقم بإبلاغ الناس برسالة رسول الله فهو لم يأخذ ميراث النبوة . وميراث النبوة كما يكون شرف تبليغ ، فهو أيضا تجلّد وتحمل ، إن ميراث النبوة يكون مرة هو نيل شرف التبليغ لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرة أخرى يكون ميراث النبوة هو جلادة التحمل في سبيل أداء الرسالة ، وجلادة التحمل هي التى يجب أن يتصف بها أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكما ورثناه نحن المسلمين في شرف النبوة فإننا نرثه في جلادة التحمل ، وهذا هو معنى القول الحق :

﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

( من الآية ٧٨ من سورة الحج )



فما معنى الأسوة إذن ؟ إن الأسوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم تقتضى أنه مادام قد تحمل بجلادة بلاغ الناس في رسالته ، فعليها أيضا أن تقتدى به . لقد ناضل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أتباع رسول الله أن يناضلوا في سبيل نشر الدعوة ، فإن رأيت أهل الدين في استرخاء وترهل وعدم قدرة على النضال في سبيل البلاغ عن الله فلتعلم أن هؤلاء القوم لم يأخذوا ميراث النبوة . ولذلك إذا رأيت عالما من علماء الإسلام ليس له أعداء فاعلم أنه قد نقص ميراثه من ميراث الأنبياء .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له أعداء وكان يواجههم . فساعة أن ترى رجل دين وله أعداء فاعرف أنه قد أخذ حظه من ميراث الأنبياء ولننظر الآن إلى قول الحق سبحانه تذيلا للآية يوضح لنا ما الإسلام : « والله بصير بالعباد » لم يقل الله : إنه عليم بالعباد ، لأن « عليم » تكون للأمور العقدية . لقد قال الحق في وصف ذاته هنا : « إنه بصير بالعباد » ، والبصر لا يأتي إلا ليدرك حركة وسلوكا . فهاذا يرى الله من العباد؟ إنه - سبحانه - يرى العباد المتحركين في الكون، وهل حركة العبد منهم تطابق الإسلام أولا ؟ ومتابعة الحركة تحتاج إلى البصر ، ولا تحتاج إلى العلم ، وكان الحق سبحانه وتعالى يقول : إن كنتم تعتقدون أنى لا أراكم ، فالحلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمون أهون الناظرين إليكم ؟

إذن فقول الحق : « والله بصير بالعباد » نفهم منها أن الإسلام سلوك لا اعتقاد فقط ، لأن الذى يرى هو الفعل لا المعتقدات الداخلية . ومادام الله بصيرا بكل سكنات الإنسان وحركاته فإن الإنسان يستحى أن يراه ربه على غير ما يحب ، وأضرب هذا المثل للتقريب لا للتشبيه فالحق سبحانه له المثل الأعلى وليس كمثله شيء ، نحن في حياتنا العادية نجد أن الشاب الذى يدخن يستحى أن يظهر أمام كبار عائلته كمدخن ، فيمتنع عن التدخين أثناء تواجده مع الكبار ، فما بالنا بالعبد وهو يعتقد أن الله يراه ؟ وبعد ذلك يقول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ  
النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ  
يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢١)

وقلنا إن الحق حين يقول : « إن الذين يكفرون بآيات الله » هم الذين يكفرون بآيات الله على إطلاقها ، وهناك فرق بين الكفر بآيات الله وبين الكفر بالله . لماذا ؟ لأن الإيمان بالله يتطلب البينات التي تدل على الله ، والبيانات الدالة على وجود الله موجودة في الكون .

إذن فالبيانات واضحة ، إن الذي يكفر بالله يكون قبل ذلك كافرا بالأدلة التي تدل على وجود الخالق . إن الحق لم يقل هنا : إن الذين يكفرون بالله ، وذلك حتى يوضح لنا أن الحق غيب ، ولكن الآيات البينات ظاهرة في الكون ، لذلك قال : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين » . ولنا أن نلاحظ هنا ، أن كلمة القتل تأتي دائما للنبيين ، أي أنها لا تأتي للذين أخذوا صفة تزيد على مهمة النبي ، وهو الرسول ، فليس من المعقول أن يرسل الله رسولا ليبلغ منهجا لله ، فيقدر الله خلقه على أن يقتلوا الرسول . لكن الأنبياء يرسلهم الله ليكونوا أسوة سلوكية للمؤمنين ، ولا يأتي الواحد منهم بتشريعات جديدة ، أما الرسول فإن الله يعثه حاملا لمنهج من الله . وليس من المعقول أن يصطفى الله عبدا من عباده ويستخلصه ليبلغ منهجه ، ويمكن الله بعد ذلك بعضا من خلقه أن يقتلوا هذا الرسول .

إن الخلق لا يقدرُونَ على رسول أرسله الله ، لكنهم قد يقدرُونَ على الأنبياء ، وكل واحد من الأنبياء هو أسوة سلوكية ، ولذلك نجد أن كل نبي يتعبد على دين الرسول السابق عليه ، فلماذا يقتل الخلق الأسوة السلوكية مادام النبي من هؤلاء قد جاء ليكون مجرد أسوة ، ولم يأت بدين جديد ؟ فلو كان النبي من هؤلاء قد جاء بدين جديد ، لقلنا : إن التعصب للدين السابق عليه هو الذي جعلهم يقتلونه ،

لكن النبي أسوة في السلوك ، فلماذا القتل ؟ إن النبي من هؤلاء يؤدي من العبادة ما يجعل القوم يتنبهون إلى أن السلوك الذي يفعله النبي لا يأتي وفق أهوائهم .

إن القوم الذين يقتلون النبيين هم القوم الذين لا يوافقون على أن يسلكوا السلوك الإسلامي الذي يعنى إخضاع الجوارح ، والحركة لمنطق الدين ولنطق الإسلام ، لماذا ؟ لأن النبي وهو ملتزم بشرع الرسول السابق عليه ، حينما يلتزم بدين الله بين جماعة من غير الملتزمين يكون سلوكه قد طعن غير الملتزمين .

إن وجود النبي الذي يتمسك بشرع الله ، ويخضع جوارحه ، وسلوكه لمنهج الله بين جماعة تدعى أنها تدين بدين الله ، ولكنها لا تتمسك بمنهج الله تحملهم إلى أن يقولوا : لماذا يفعل النبي هذا السلوك القويم ، ولماذا يخضع جوارحه لمنطق الإيمان ، ونحن غير ملتزمين مثله ؟ وهذا السؤال يثير الغيظ والحقد على النبي بين هذه الجماعة غير الملتزمة بدين الله ، وإن أعلنت في ظاهر الأمر التزامها بالدين . إنهم يحقدون على النبي لأنه يرتفع بسلوكه المسلم ، وهم لا يستطيعون أن يرتفعوا ليكونوا مثله .

إن النبي بسلوكه الخاضع لمنهج الله يكون أسوة واضحة جليلة يظهر بها الفرق بين مجرد إعلان الإيمان بمنهج الله ، وبين الالتزام السلوكي بمنهج الله ، وتكون أسوة النبي محفزة لفعلهم ، ولذلك حين نجد إنسانا ملتزما بدين الله ومنهجه ، فإننا نجد غير الملتزم ينال الملتزم بالسخرية والاستهزاء ، لماذا ؟ لأن غير الملتزم يمتلئ بالغيظ والحقد على الملتزم القادر على إخضاع نفسه لمنهج الله ، ويسأل غير الملتزم نفسه :

لماذا يكون هذا الإنسان قادرا على نفسه خضعا لها لمنهج الله وأنا غير قادر على ذلك ؟ إن غير الملتزم يحاول إزاحة الملتزم وإبعاده من أمامه . لماذا ؟ لأن غير الملتزم يتضاءل في نظر نفسه ونظر الآخرين . إذا ما قارن نفسه بالملتزم بمنهج الله ، وعندما يقارن الآخرون بين سلوك الملتزم بمنهج الله وسلوك غير الملتزم بمنهج الله فهم لا يحترمون غير الملتزم ، فيشعر بالصغار النفسى أمام الملتزم وأمام الناس . فيحاول غير الملتزم أن يزيح الملتزم وينحيه عن طريقه ، إن غير الملتزمين بمنهج الله يسخرون ويتغامزون على الملتزمين بمنهج الله ، كما يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ ﴾ ٢٩ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿ ٣٠ ۖ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿ ٣١ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَسَآئِلُونَ ﴿ ٣٢ ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿ ٣٣ ۖ

( سورة المطففين )

الا توضح لنا تلك الآيات البينات ما يقوله غير الملتزمين في بعض مجتمعاتنا للملتزمين بمنهج الله ؟ ألا نسمع قول غير الملتزمين للملتزم بمنهج الله : « خذنا على جناحك » ؟ إن هؤلاء غير الملتزمين ينطبق عليهم قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿ ٣٠ ۖ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿ ٣١ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَسَآئِلُونَ ﴿ ٣٢ ۖ

( سورة المطففين )

إن غير الملتزمين قد يفرح الواحد منهم ، لأنه استطاع السخرية من مؤمن ملتزم بالله . وقد يتهم غير الملتزمين إنسانا ملتزما بأن الالتزام ضلال . والحق سبحانه وتعالى يرد على هذا الاتهام بالقول الكريم :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿ ٣٣ ۖ

( سورة المطففين )

الحق يرد على الساخرين من الملتزمين بمنهج الله ، فيضحك الذين آمنوا يوم القيامة من الكفار ، ويتساءل الحق بجلال قدرته وقام جبروته :

﴿ قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿ ٣٤ ۖ عَلَى الْأَرَابِكِ يُنْظَرُونَ ﴿ ٣٥ ۖ هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿ ٣٦ ۖ

( سورة المطففين )

هكذا يتال غير الملتزمين عقابهم ، فإذا عن الذين يقتلون النبيين بغير حق ؟ إن لنا أن نسأل : لماذا وصف الله قتل النبيين بأنه « بغير حق » ، وهل هناك قتل لنبيٍّ بغير حق ؟ لا يمكن أن يكون هناك قتل لنبيٍّ بحق ، وإذا كان الله قد قال : « ويقتلون النبيين بغير حق » هذا القول الكريم قد أتى ليوضح واقعا ، إنه سبحانه يقول بعد ذلك في سلسلة أعمال هؤلاء الذين يقتلون النبيين بغير حق : « ويقتلون الذين يأمرُونَ بالفسط من الناس » إنهم لم يكتفوا بقتل النبيين ، بل يقتلون أيضا من يدافع من المؤمنين عن هذا النبيِّ كيف ؟ لأنه ساعة يُقتل نبيٌّ ، فالذين التزموا بمنهج النبيِّ ، وكانوا معه لابد لهم أن يغضبوا ويحزنوا .

إن أتباع النبيِّ يفعلون بحدث قتل النبيِّ ، فإن استطاعوا منع ذلك القتل لفعلوا وإن لم يستطيع أتباع النبيِّ منع قتل النبيِّ فلا أقل من أن يأمرُوا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، لكن القتلة يتجاوز طغيانهم فلا يقتلون النبيين فقط فإذا قال لهم منكر لتصرفهم : ولماذا تقتلون النبيين ؟ فإنهم يقتلونه أيضا ، وبالنسبة لرسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، نحن نعرف أن أعداءه قد صنعوا معه أشياء أرادوا بها اغتياله ، وذلك بدل على غياء الذين فكروا في ذلك الاغتيال .

لماذا ؟ لأنهم لم ينظروا إلى وضعه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن نبيا فقط ، ولكنه رسول أيضا . ومادام رسولا فهو أسوة وحامل لمنهج في آن واحد ، فلو كان محمد صلى الله عليه وسلم نبيا فقط لكان في استطاعتهم أن يقتلوه كما قتلوا النبيين من قبل ، لكنه رسول من عند الله ، ولقد رأوه يحمل منهجا جديدا ، وهذا المنهج يسفه أحلامهم ، ويوضح أكاذيبهم ، من تبديلهم للكتب المنزلة عليهم .

إذن ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا يحمل رسالة ومنهجا ، وحينما أرادوا أن يقتلوه كتبى ، غفلوا عن كونه رسولا . ولذلك قال الحق مطمئنا لنا ومحدثا رسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ

يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾

الرسول الكريم إذن حامل رسالة ومعصوم بالله من أعدائه ، والحق سبحانه وتعالى قد حكى عن الذين يقتلون الأنبياء ، وأراد أن يطمئن المؤمنين ، ويطمئن الرسول على نفسه ، وأن يعرف خصوم رسول الله أنه لا سبيل إلى قتله ، فيقول الحق :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

( من الآية ٩١ من سورة البقرة )

ولماذا يأق الله بـ « من قبل » هذه ؟ إنه يوضح لنا وللرسول ولأعداء محمد صلى الله عليه وسلم أن مسألة قتل الأنبياء كان من الممكن حدوثها قبل رسول الله ، لكن هذه المسألة صارت منتهية ، ولا يجرو أحد أن يمارسها مع محمد رسول الله ، وبذلك طمأن الحق المؤمنين ، وطمأن رسول الله بأن أحدا لن يناله بأذى ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

( من الآية ٦٧ من سورة المائدة )

وأيأس الحق الذين يريدون قتل رسول الله فقد قال لهم :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾

( من الآية ٩١ من سورة البقرة )

ولو أن المسألة مسألة نبوة ، ورسالة رسول الله غير داخلة في مواجيدهم ، وكان إنكارهم لرسالته عنادا ، لكانوا قد قالوا : « إن مسألة قتل الأنبياء لا تتوقف عند من قبل » لأننا سنجعلها « من بعد » أيضا ، ولكانوا قد كتلوا قواهم وقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن الله سبحانه أيأسهم وقنطهم من ذلك ، وذلك من مناط قدرة الله . وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يحكى عن أمر في قتل الأنبياء ، وقتل الذين يأمرهم بالقسط ، أكان ذلك معاصرا لقول الرسول هذا ؟ أو كان هذا الكلام لمن ؟ إنه موجه لبعض من أهل الكتاب ، إنه موجه لمن آمنوا باتباع الذين قتلوا النبيين من قبل ، وقتلوا الذين يأمرهم بالقسط ، لقد آمنوا كإيمان السابقين لهم من قتلة الأنبياء ، وقتلهم للذين يأمرهم بالقسط .

وهذا تقرير هؤلاء الذين اتبعوا في الإيمان قوما قتلوا الأنبياء من قبل ، وقتلوا الذين يأمرهم بالقسط ، إنه تقرير وتساؤل . كيف تؤمنون بالإيمان الذين قتلوا الأنبياء؟ وكيف تتبعون من فعل مثل ذلك ؟ وقد قص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن بنى إسرائيل قد قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا دفعة واحدة ، فقام مائة وسبعون من أتباع الأنبياء لينكروا عليهم ذلك ، فقتلوه<sup>(١)</sup> ، وهذا هو معنى هذه الآية الكريمة :

﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ

### بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿

( من الآية ٢١ من سورة النمل )

لماذا يشرهم الحق بعذاب أليم ؟ أليس معنى التبشير هو إخبار بما يسر في أمد يمكن أن يؤق فيه الفعل الذي يسر ؟ إن التبشير دائما يكون للفعل الذي يسر ، كتبشير الحق للمؤمنين بالجنة ، ومعنى التبشير بالجنة أن الله يخبر المؤمن بأمر يسر له المؤمن ، ويعطى الحق الفرصة للمؤمن لينفذ منهج الله ليأخذ الجائزة والبشارة .

لماذا يكون الحديث بالبشارة موجها لأبناء الذين فعلوا ذلك ؟ لانتا نعرف أن الذين قتلوا النبيين وقتلوا الذين أمروا بالقسط من الناس لم يكونوا معاصرين لتزول هذه الآية ، إن المعاصرين من أهل الكتاب لتزول هذه الآية هم أبناء الذين قتلوا الأنبياء وقتلوا الذين أمروا بالقسط ، ويشرهم الحق بالعذاب الأليم ، لأنهم ربما رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صوابا . فإن كانوا قد رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صوابا فلهم أيضا البشارة بالعذاب .

وتتسع دائرة العذاب لهم أيضا ، ولكن لماذا يكون العذاب بشارة لهم ، رغم أن البشارة غالبا ما تكون إخبارا بالخير ، وعملية العذاب الأليم ليست خيرا ؟ إن علينا أن نعرف أنه ساعة نسمع كلمة « أبشر » فإن النفس تفتح لاستقبال خبر يسر ، وعندما تستعد النفس بالسرور وانبساط الأسارير إلى أن تسمع شيئا حسنا يأتي قول : أبشر بعذاب أليم ، ماذا يحدث ؟ الذي يحدث هو انقباض مفاجئ أليم ، ابتداء مطمح « فبشرهم » وانتهاء مقيس ( بعذاب أليم ) وهنا يكون الإحساس بالمصيبة أشد لأن الحق لو أئذرهم وأوعدهم من أول الأمر بدون أن يقول :

« فبشرهم » لكان وقوع الخبر المؤلم هينا . لكن الحق يريد للخبر أن يقع وقوعا صاعقا ، ومثال لذلك قول الحق :

﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

( من الآية ٢٩ من سورة الكهف )

إنهم يستغيثون في الآخرة ، ويغاثون بالفعل ، ولكن بماذا يغاثهم الله ؟ إنه يغاثهم بماء كالمهل يشوي الوجوه . إننا ساعا أن نسمع « يغاثوا » قد نظن أن هناك فرجا قادمًا ، ولكن الذي يأتي هو ماء كالمهل يشوي الوجوه . وهكذا تكون البشارة بالنسبة لمن قتلوا الأنبياء أو لاتباع القتلة الذين آمنوا بمثل ما آمن به هؤلاء القتلة . « فبشرهم بعذاب أليم » وكلمة « عذاب » تعني إيلام حتى يحس بالألم . والعذاب هو للمحى الذي يظل متألما ، أما القتل فهو ينهى النفس الواعية وهذا ليس بعذاب ، بل العذاب أن يبقى الشخص حيا حتى يتألم ويشعر بالعذاب ، وقول الحق : « بعذاب أليم » يلفتنا إلى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

( سورة النساء )

أى ان الحق يديم عليهم الحياة ليدوم عليهم التعذيب . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾

إنهم الذين كفروا بآيات الله ، وقتلوا النبيين بغير حق ، وقتلوا الذين أمروا بالقسط بين الناس ، هؤلاء لهم العذاب ، ولهم أيضا حبط العمل في الدنيا



والآخرة ، وكذلك من نهج نهجهم ، ومعنى « حبطت » أى لا ثمرة مرجوة من العمل ، إن كل عمل بعمله العاقل لابد أن يكون له هدف يقصده ، فأى عمل لا يكون له مقصد يكون كضربة المجنون ليس لها هدف . إن العاقل قبل أن يفعل أى عمل ينبغي أن يعرف الغاية منه ، وما الذى يحققه من النفع ؟ وهل هذا النفع الذى سوف يحققه هو خير النفع وأدوم ، أو هو أقل من ذلك ؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقل عمله ، وحينما يقول الحق : « أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة » فهو سبحانه يريد أن يخبرنا أن إنسانا قد يفعل عملا هو فى ظاهره خير ، فإياك أن تغتر أياها المؤمن بأنه عمل خيرا . لماذا ؟ لأن عمل الخير لا يحسب للإنسان إلا بنية إيمانه بمن يجازى ، فالإنسان إن عمل عملا قد تصلح به دنياه فهو عمل حسن ، فلماذا يكون عمل هؤلاء حابطا فى الدنيا ، وفى الآخرة ؟ إنه حابط بموازين الإيمان ويكون العمل حابطا لأنه لم يصدر من مؤمن ، لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقة بنتيجة العمل ، لا ثقة بالأمر الأعلى .

إن الإنسان المؤمن حين يقوم بالعمل يقوم بالعمل ثقة فى الأمر الأعلى . وبعض من الناس فى عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازى الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية . يقول الواحد منهم : هل يعقل أحد أن « باستير » الذى اكتشف الميكروبات ، والعالم الآخر الذى اكتشف الأشعة ، وكل هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار ؟ وهؤلاء نقول : نعم ، إن الحق بعدالته أراد ذلك ، ولنتقاض نحن وأنتم إلى أعراف الناس . إن الذى يطلب أجرا على عمل يطلبه ممن ؟ إنه يطلب الأجر ممن عمل له . فهل كان الله فى بال هؤلاء العلماء وهم يفعلون هذه الأعمال ؟ إن بهم كان مشغولا بالإنسانية ، وقد أعطتهم الإنسانية التخليد ، وغير ذلك من مكاسب الدنيا ، وينطبق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

( إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فىك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، حتى ألقي فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فىك القرآن قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ، ليقال : هو قارىء ،

فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار ، ورجل وشع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقي في النار<sup>(١)</sup> .

إذن فإذا كان الجزاء من الله ، فلنا أن نسأل : هل كان الله في بال هؤلاء العلماء حينما أنتجوا مخترعاتهم ؟ لم يكن في بالهم الله . والذي يطلب أجرا ، فهو يطلبه ممن عمل له . ولم يضع الله ثمرة عملهم ، بل دوت عليهم أعمالهم الذكر والجاه والرفعة . لم يضع الله أجر من أحسن عملا .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾

( سورة الزمر )

وقد قلت لكم قديما : تذكروا المفاجأة التي تحدث لمن عمل عملا هو في ظاهره خير ، ولكن لم يكن ربه في باله ، هذا ينطبق عليه قول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُ أَنَّ ظِلْمًا مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَا يَخَذُّونَ شَيْعًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فُوقَهُ حِجَابًا ۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

( سورة النور )

إنه يفاجأ بوجود الله ، ولم يكن هذا الإله في باله ساعة أن قام بهذا العمل الذي هو في ظاهره خير ، كان الله يقول لصاحب مثل هذا العمل : أنا لم أكن في بالك ساعة أن قمت بهذا العمل ، فخذ جزاءك ممن كان في بالك . أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين ، إن أعمالهم حبطت في الدنيا ، لأنهم قد يعملون عملا يراد به الكيد للإسلام ، لذلك لا يمكنهم الله من ذلك ، بل يخذلهم

(١) أخرجه الإمام مسلم بروايات مختلفة وأخرجه النسائي والترمذي وابن ماجه .

جميعا . وانتصر دين الله رغم قلة العدد وقلة العدة . وليس هؤلاء ناصرون . أى ليس لهم من يأتى ويبراهم مهزومين أمام خصم لهم وينجدهم ، إنهم لن يجدوا ناصرا إذا هزمهم الله ، فليس مع الله أحد غيره . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ  
يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ  
مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾

ونعرف أننا ساحة نسمع قول الحق : ( ألم تر ) . فهنا همزة استفهام ، وهنا أداة نفى هي « لم » ، وهنا « تر » ومعناها أن يستخدم الإنسان آلة الإبصار وهي العين . فإذا ما قال الله لرسوله : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم معرضون » . إن هذه دعوة لأمر واضح . لكن فى بعض الأحيان تأتى « ألم تر » فى حادث كان زمانه قبل بعثته صلى الله عليه وسلم فلم يره رسول الله كقول الحق :

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّكَ فَاصْحَابُ الْفِيلِ﴾

( سورة الفيل )

إن النبى صلى الله عليه وسلم لم ير أصحاب الفيل ، إذن فساعة تسمع « ألم تر » ، إن كان حدثها من المعاصر ، فمن الممكن أن تكون رؤية ، والرؤية تؤدى إلى علم يقين ، لأنها رؤية لمشهود . وإن جاءت « ألم تر » فى أمر قد حدث من قبل ، أو أمر لما يحدث بعد فهي تعنى « ألم تعلم » ، لأن الرؤية سيده الأدلة ، فكان الله سبحانه وتعالى ساعة يقول لرسوله فى حادث لم يشهده الرسول : ألم تر ؟ فهذا معناه : ألم تعلم ؟

وقد يقول قائل : ولماذا لم يأت بـ « تعلم » وجاء بـ ( تر ) ؟ لأن سيادة الأدلة هو الدليل المرئى ، فكان الله يريد أن يخبرنا بـ « ألم تر » أن نأخذ المعلومة من الله على أنها

مرئية ، وليكن ربك أوثق عندك من عينك ، إنك قد لا ترى بالفعل هذا الأمر الذي يخبرك به الله ، ولكن لأن القائل هو الله ، ولا توجد قدرة تخرج ما يقوله الله على غير ما يقوله الله . لذلك فقد قلنا ساعة يعبر الله عن الأمر المستقبل الذي سيأتى بعد ، فإنه قد يعبر عنه بالماضى ، فالحق قد قال :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١١ ﴾

( سورة النحل )

فهل ينسجم قوله : « أتى أمر الله » مع « فلا تستعجلوه » ؟ إن الأمر الذي يخبرنا به الله قد أتى ، فكيف يمكن عدم استعجاله ؟ إن « أتى » معناها أن الأمر قد حصل قبل أن يتكلم . يجب علينا إذن أن نعرف أن الذى قال : « أتى » قادر على الإتيان به ، فكانه أمر واقع ، إنها مسألة لا تحتاج إلى جدال ، لأنه لا توجد قوة تستطيع أن تنازع الله لتبرز أمرا أراده في غير مراده . فكان قوله الحق : « ألم تر » إن كانت تحكى عن حدث فات زمنه فالذى يأتى منها هو العلم ، لأنه إخبار الله ، وإن كانت تحكى عن حدث معاصر فالذى يأتى منه أيضا هو العلم ؛ لأنه صادر عن رؤية ومشاهدة .

وعندما يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » . « وأوتوا » تلفتتا إلى قوم قد نزل إليهم منهج من أعلى . ولذلك يأتى فى القرآن ذكر المنهج بـ « نزل » و « أنزل » ، وذلك حتى نشعر بعلو المكانة التى نزل منها المنهج . وما هو النصيب ؟ إننا نسمى النصيب « الحظ » ، أو خارج القسمة ، كأن يكون عندنا عشرون دينارا ، ونقسمها على أربعة فيكون لكل واحد خمسة ، هذه الخمسة الدنانير هى التى نسمى « نصيبا » أو « حظا » ، والنصيب : « حظ » أو « قسمة » يضاف لمن أخذه .

إذن ، فلماذا يقول الحق : « الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » إنها لفظة جميلة ، فالكتاب كله لم يبق لهم ، إنما الذى وصل وانتهى إليهم جزء بسيط من الكتاب ، فكان هذه الكلمة تنبه الرسول والسامعين له أن يعذروا هؤلاء القوم حيث لم يصلهم من الكتاب إلا جزء يسير منه ، إن نصيبا من الكتاب فقط هو الذى وصلهم .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

ويشرح الحق ذلك في آيات أخرى :

﴿فِيمَا نَقُضُهُمْ مِثْقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ،  
وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾

( من الآية ١٢ من سورة المائدة )

إن الجزء النسي من الكتاب لم يأخذه المعاصرون لرسول الله - وقلنا أيضا : إن الحق قد أوضح أن بعضهم كتم بعضا من الكتاب .

﴿الَّذِينَ اتَّيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ  
الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾

( سورة البقرة )

ومع ذلك هناك من كتم بعضا من الكتاب فمعنى ذلك كتمانهم عن المعاصرين له ، وهناك أناس منهم مخدوعون ، فشيء من الكتاب قد نسي ، وبالتالي مسح من الذاكرة ، وهناك شيء من الكتاب قد كتم ، فصار معلوما عند البعض ، وغير معلوم عند البعض الآخر ، وحتى الذي لم يكتموه ، جاء فيه القول الحكيم :

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ  
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ  
يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

( سورة آل عمران )

إذن فالكتاب الذي أنزل إليهم من الله قد تعرض لأكثر من عدوان منهم ، ولم يبق إلا حظ من الكتاب ، وهذا الحظ من الكتاب هو الذي يجادل القرآن به هؤلاء الناس ، إن القرآن لا يجادلهم فيما تبدل عندهم بفعل أحبارهم ورهبانهم السابقين ، ولكنه يجادلهم بالنصيب الذي أوتوه .

يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله

ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . وعن أى كتاب الله تتحدث هذه الآية ؟ هل تتحدث عن القرآن ؟ لو كان الحديث عن القرآن فلا بد أنه حُكِّمَ في أمر بينهم وبين رسول الله ، لكن الذين أوتوا نصيبا من الكتاب قد اختلفوا فيما بينهم ، ولماذا يختلفون فيما بينهم ؟ السبب هو أيضا لون من البغى فيما بينهم . وإذا كان الكتاب هو القرآن ، اليس القرآن مصدقا لما معهم ؟

إذن فعندما يدعون ل يتم التصديق على ما جاء في كتبهم ، فالدعوة هنا لأن يسود حكم القرآن . وما معنى « يدعون إلى كتاب الله » . إن الداعى هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم المدعون ، ومادام الحق قد قال : « أوتوا نصيبا من الكتاب » فهل كان خلافهم في النصيب الذى بين أيديهم أم النصيب المحذوف ؟ إنه خلاف بينهم في النصيب الذى بين أيديهم ، ليكون ذلك حجة على أنهم غير مأمونين حتى على ما وصل إليهم وما هو مكتوب عندهم . وعندما تكلم العلماء عن هذه المسألة أوردوا لذلك الأمر حادثة . لقد اختلفوا في أمر سيدنا إبراهيم وقالوا : إن سيدنا إبراهيم يهودى وقال بعضهم : إنه نصرانى . وجاء القرآن حاسما :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ۝ ٣٧ ﴾

( سورة ال عمران )

لماذا . . لأن كلمة يهودى ونصرانى قد جاءت بعد إبراهيم ، وكان لابد لهم أن يخرجوا من قلة الفطنة وأن يرتبوا الأحداث حسب زمانها . إذن ففى أى أمر اختلفوا ؟ هل اختلفوا في أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ؟ هل اختلفوا في حكم موجود عندهم في التوراة ؟ لقد كانت الدعوة موجهة إليهم في ماذا ؟ إنهم « يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » وذلك يدل على أن كلمة :

﴿ بَقِيًّا بَيْنَهُمْ ۝ ٣٨ ﴾

( من الآية ١٩ من سورة ال عمران )

هى حالة شائعة بينهم ، لماذا ؟ لأن العلماء حينها ذكروا الحادثة التى دعوا للحكم فيها بكتاب الله ، قال العلماء : إن اثنين من يهود خيبر - امرأة - خيبرية ورجل من

خير ، قد زنيا ، وكان الاثنان من أشرف القوم ، ويريد الذين يحكمون في هذا الأمر بكتاب التوراة ألا يبرزوا حكم الله الذي جاء بالتوراة ، وهو الرجم ، فاحتالوا حيلة ، وهي أن يذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولماذا يذهبون في هذه الجزئية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إننا نأخذ مجرد الذهاب إلى رسول الله ارتضاء لحكمه .

لكن لماذا لم يرتضوا من البداية بكل ما جاء به رسول الله ؟ لقد أرادوا أن يذهبوا لعلهم يجدون نفعا في مسألة ييغونها ، أما في غير ذلك فهم لا يذهبون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن مجرد ذهابهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطينا فكرة عنهم . لقد كانوا يريدون حكما مخففا غير الرجم . إن الزاني وهو من خير والخيرية الزانية أرادا أن يستنقذا أنفسهما من حكم التوراة بالرجم ، إنيها من أشرف خير ، ولأن اليهود قد صنعوا لأنفسهم في ذلك الوقت سلطة زمنية ، فذهب الزاني والزانية ومعهما الأخبار الذين يريدون أن يلبوا حكم الله السابق نزوله في التوراة وهو الرجم . وعندما دخلوا على رسول الله كان هناك واحد اسمه « النعمان بن أوفى » ، وواحد اسمه « بحرى بن عمرو » فقالوا : يا رسول الله اقض بين هؤلاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : أو ليس عندكم حكم ؟ وأضاف رسول الله ما معناه : أنا أحتكم إلى التوراة وهي كتابكم ، فماذا قالوا ؟ قالوا : أنصفتنا .

وكان رسول الله قد بين لهم أولا حكم الإسلام في الزنا بأنه الرجم ، وجيء بالجزء الباقي عندهم من التوراة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يتضمن الحكم الملزم دليلا على أن الله أطلعه على أشياء لم تكن في بال أحد . فدعا بقسم من التوراة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه : أيكم أعلم بالتوراة ؟ فقالوا : شخص اسمه عبدالله بن صورية فأحضره ، وأعطاه التوراة ، وقال : اقرأ فجلس عبدالله بن صورية بقرا ، فلما مر على آية الرجم وضع كفه عليها ليخفيها ، وقرأ غيرها وكان عبدالله بن سلام حاضرا ، فقال : يا رسول الله أما رأيته قد ستر بكفه آية وقرأ ما بعدها ؟ وزحزح ابن سلام كف الرجل ، وقرأ هو فإذا هي آية الرجم .

هذه المسألة تعطينا أن الحكم في القرآن الكريم هو الحكم في التوراة في أمر الزنا ، وتعطينا أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أفاض الله عليه من إلهاماته فجاء

بالجزء من التوراة الذى يحمل هذا النص . وجاء بعد ذلك جندى من جنود الله هو عبدالله بن سلام وكان يهوديا قد أسلم ليظهر به رغبة القوم في التزييف والتزوير .

واسلام عبدالله بن سلام له قصة عجيبة ، فبعد أن اختتم الإيمان في قلبه ، جاء إلى رسول الله قائلا : لقد شرح الله صدرى إلى الإسلام ونطق بكلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ولكنى أحب قبل أن أعلن إسلامى أن تحضر رؤساء اليهود لتسلمهم رأيهم في شخصى ، لأن اليهود قوم بهت ، فيهم افتراء وفيهم الكذب وفيهم التضليل ، فلما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء اليهود عن رأيهم في عبدالله بن سلام قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا . إلخ . وأفاضوا في صفات المدح والإطراء والتقدير . فقال عبدالله بن سلام أمامهم : الآن أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فانقلب رؤساء اليهود ، وقالوا في عبدالله بن سلام : عكس ما قالوه أولا ، قالوا : إنه خبيثنا وابن خبيثنا . إلخ .

لقد غيروا المديح إلى ذم . فقال عبدالله بن سلام : يا رسول الله أما قلت لك : إنهم قوم بهت ؟ والله لقد أردت أن أعلمك برأيهم في قبل أن أسلم . ذلك هو عبدالله بن سلام الذى زحزح كف عبدالله بن صورية عن النص الذى فيه آية الرجم في التوراة ، وفي ذلك جاء القول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ، إنهم الذين أعرض فريق منهم عن قبول الحق .

ما سبب هذا الإعراض ؟ أهو قضية عامة ؟ أو أن سبب هذا الإعراض هو السلطة الزمنية التى أراد اليهود أن يتخذوها لأنفسهم ؟ ومعنى السلطة الزمنية أن يحىء أشخاص فيأخذوا من قداسة الدين ما يفيض عليهم هم قداسة ، ويستمتعوا بهذه القداسة ثم يستخدموها في غير قضية الدين ، هذا هو معنى السلطة الزمنية . وقلنا سابقا : إن كل تحوير في منهج الله سببه البغى ، والمفروض أن أهل الكتاب من أصحاب التوراة كانوا يستفتحون على العرب ويقولون : سيقا نبى من العرب نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم ، فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عرفوه سابقا في كتبهم كفروا به ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في مثل هذه القضية موضحا موقفهم من قضية الإيمان العليا :



﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ  
عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (١٣)

( سورة الرعد )

فكان من عنده علم بالكتاب كان مفروضا فيه أن يشهد لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلا يقول الله : « ومن عنده علم الكتاب » لن يقول الحق ذلك إلا إذا كان عند علماء أهل الكتاب ما يتفق مع ما جاء به الله في صدق رسوله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عنه . وكان السبب في محاولة بعض اليهود لإنكار رسالة رسول الله هو السلطة الزمنية ، وأرادوا أن يسروا لأتباعهم أمور الدين .

إن كل دعى - أى مزيف - في مبدأ من المبادئ يحاول أن يأخذ لنفسه سلطة زمنية ، فيأتى إلى تكاليف الدين التى قد يكون فيها مشقة على النفس ، ويحاول أن يخفف من هذه التكاليف ، أو يأتى بدين فيه تخفيف محلي بالعبادات ، فإذا نظرنا إلى مسيلمة الكذاب ، نجده قد خفف الصلاة حتى يرغب في دينه من تشق عليه الصلاة ، وينضم إلى دين مسيلمة ، وحذف مسيلمة جزءا من الزكاة ، وهذا يعطى فرصة التحلل من تكاليف الدين ، ولذلك فالذى أفسد الأدبان السابقة على الإسلام أن بعضا من رجال الدين فيها كلما رأوا قوما على دين فيه تيسيرات أخذوا من هذه التيسيرات ووضعوها في الدين ، لأن تكاليف الدين شاقة ولا يحمل إنسان نفسه عليها إلا من آمن بها إيمان صدق وإيمان حق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في عمدة العبادات وهى الصلاة :

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (١٤)

( سورة البقرة )

ويقول في موقع آخر في القرآن الكريم عن الصلاة :

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَقِبَةُ  
لِلتَّقَوِّى ﴾ (١٥)

( سورة طه )

إن الحق عليم حكيم بمن خلق وهو الإنسان ، ويعلم أن الضعف قد يصيب روح الإنسان فلا يصطبر على الصلاة ، أو يراها تكليفا صعبا ، لكن الذى يقيم الصلاة ويحافظ عليها فهو الخاشع لربه . ولذلك فإننا نجد أن كل منحرف يأتى ويحاول أن يخفف من تكاليف الدين ، ويحاول أن يجلل أشياء محرمة فى الدين ، ولم نر منحرفا يزيد فى الأشياء المحرمة . إن المنحرفين يريدون إنقاص الأمور الحرام . وإذا سألنا هؤلاء المنحرفين : لماذا تفعلون ذلك ؟ فإننا نجد أنهم يفعلون ذلك لجذب الناس إلى أمور محرمة بجللها هؤلاء المنحرفون . ولذلك أراد بعض من اليهود أن يسهلوا على أتباعهم الدين ، وقال بعض من أحبارهم : لا تخافوا من أمر يوم القيامة . وجاء القول الحق بمكى عنهم وكانهم حاولوا أن يفهموا الأمر بأن الله يجلل لهم أمورا ، لا ، إن الله لم يجلل إلا الحلال ، ولم يحرم إلا الحرام . وإذا كان الحق قد قال :

﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَانَا وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ① ﴾

( سورة التحريم )

فهذا القول الحكيم جاء فى مناسبة محددة وينطبق فقط فى مجال ما حلل الله فلا تحرمه ، أما ما حرم الله فلا تقربه ، لقد أرادوا أن يبيحوا للأتباع ارتكاب الآثام ، لأن النار لن تصيبهم إلا أياما معدودة ، وإذا دققنا التأمل فى القول الحق الذى جاء على لسانهم ، فإننا نجد الأتى : إننا نعرف أن لكل حدث زمانا ، ولكل حدث قوة يحدث عليها ، فمن ناحية الزمان . قال هؤلاء المزورون لأحكام الله عن يوم القيامة إنها أيام معدودة ، فلا خلود فى النار ، وحتى لو كان العذاب شديدا فإنه أيام معدودة ، فالإنسان يستطيع أن يتحمل ، ومن ناحية قوة الحدث ، أرادوا أن يخففوا منه ، فقالوا : إنه عذاب ليس بشديد إنما هو مجرد مس . إنهم يحاولون إغراء الناس لإفسادهم وقال هؤلاء الأحبار : نحن أبناء الله وأحبائه أرايتم أحدا يعذب أبناءه وأحبائه ؟ لقد أعطى الله يعقوب النبوة ، ولا يمكن أن يعاقب ذريته أبدا ، إلا بمقدار تحلة القسم .

﴿ وَخُذْ يَدَ يَدِكَ ضَغْفًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ② ﴾

( سورة ص )

إن أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب امرأته إذا برىء من مرضه مائة سوط ، وأراد الله له أن يحله من هذا القسم فأمره أن يأخذ حزمة من حشيش أو

عشب فيها مائة عود ويضربها بها ضربة خفيفة ليبر في قسمه ، وكان ذلك رحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وقت المرض ، وكان أيوب عبدا شاكرا لله ، كان الضربة الواحدة هي مائة ضربة ، وهذا تحليل للقسم ، وقال بعض من بنى إسرائيل : إن ذرية بنى يعقوب لن تعذب من الله إلا بمقدار تحلة القسم / وكل ذلك ليزينوا للناس بقاءهم على هذا الدين الذي سوف تكون الآخرة فيه بعذابها مجرد من النار ، وأيام معدودة ، بادعاء أن بنى يعقوب هم أبناء الله وأحبائه ، وأن الله قد أعطى وعدا ليعقوب بأنه لن يعذب أبناءه إلا بمقدار تحلة القسم ، وهذا بطبيعة الحال هو تزييف لدين الله ومنهجه لقد تولوا عن منهج الله ، وأعرضوا عنه بعصيان ، يوضح لنا هذا المعنى القول الكريم :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ  
وَعَرَّيْنَاهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴾

لقد تولوا وهم معرضون عن حكم الله لقد ظنوا أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات . ولنا أن نعرف معنى « غرهم » ولنا أن نسأل ما الغرور ؟ إن الغرور هو الإطباع فيما لا يصح ولا يحصل ، فعندما تقول لواحد والعباد بالله : « أنت مغرور » فأنت تقصد أنه يسلك سبيلا لا يوصله إلى الهدف المنشود . إذن فالغرور هو الإطباع فيما لا يصح ولا يحصل ، ولذلك يسمى الله الشيطان « الغرور » .

﴿ يَتَّبِعُ النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرُّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرُّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ  
﴿١﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرَّ عَدُوٍّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ  
السَّعِيرِ ﴾

( سورة فاطر )

إنه الشيطان الذى يزين للناس بعض الأمور ويحث الخلق ليطمعوا فى حدوثها .

وعندما تحدث فإن هذه الأمور لا صواب فيها ، فهي مما زينه الشيطان ، لذلك فحصيلتها لا تتناسب مع الطمع فيها . والحق سبحانه يقول عن الدنيا :

﴿ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أُنْجِبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطًّا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾

( سورة الحديد )

ويقال عن الرجل الذي ليس له تجربة : إنه « غرٌّ » فإيا بأشياء بدون تجربة ؛ فلا ينتفع منها ، ولا نصح . إذن ، فكل مادة « الغرور » مأخوذة من إطباع فيها لا يصح ولا يحصل . لذلك سمي الله الشيطان « الغرور » لأنه يطمعنا نحن البشر بأشياء لا نصح ولا تحدث ، ولهذا سوف يأتي الشيطان يوم القيامة ليتبرأ من الذين اتبعوه ويتهمهم بالبلاهة :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

( سورة إبراهيم )

ما معنى « وما كان لي عليكم من سلطان »؟ السلطان أى القوة التى تقنع الإنسان بعمل فعل ما ، وهو إما أن يكون سلطان الحجة فيقنعك بفعل ما ، فتفعله ، وإما أن يكون سلطان القوة ، فيرغمك أن تفعل ، السلطان - إذن - نوعان : سلطان حجة ، وسلطان قوة . والفرق بين سلطان الحجة وسلطان القوة القاهرة على الفعل ، هو أن سلطان الحجة يقنعك أن تفعل الفعل وأنت مقتنع ، أما سلطان القوة القاهرة فهو لا يقنع الإنسان ، ولكنه يرغم الإنسان على فعل ما ، ولذلك فالشيطان يعلن لاتباعه يوم القيامة : لم يكن لي سلطان عليكم ،

لا حجة عندي لأقنعكم بعمل المعاصي ، ولا عندي قوة ترغمكم على الفعل ، لكنكم أنتم كنتم على حرف إتيان المعاصي ودعوتكم فاستجبتم لي . ويضيف الشيطان مخاطبا أتباعه :

﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِي ﴾

( من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم )

أي أن الشيطان يؤكد أنه لن يفزع لأحد من الذين اتبعوه لينجده ، إن كلمة « يصرخ » تعني أن هناك مَنْ يفزع لأحد تلبية لنداء أو استغاثة . الشيطان إذن لن ينجد أحدا من عذاب الله ، ولن ينجد أحد الشيطان من عذاب الله . وهكذا ذهب بعض من أهل الكتاب إلى الغرور في الدين ، فافتروا أقوالا على الله ، لم تصدر عنه ، وصدقوا افتراءاتهم . ويا ليت غرورهم لم يكن في الدين ، لأن الغرور في غير الدين تكون المصيبة فيه سهلة ، لكن الغرور في الدين هو المصيبة الكبرى ، لماذا ؟ لأن الغرور في أي أمر يخضع لقانون واضح ، وهو أن ميعاد كل حدث موقوت بماهيته ، لكن الغرور في أمر الدين مختلف ، لماذا ؟ لأن حدث الدين غير موقوت بماهيته الزمان ، إنه مستمر ، لأنه منهج قيم صدر من الحق إلى الخلق ، إن الغرور في أي جزئية من جزئيات الدنيا ، فإن فشلت فالفضل يقف عند هذه الجزئية وحدها ، ولا يتعدى الفضل إلى بقية الزمن . لكن الغرور في الدين يجعل العمر كله يضيع ، لأن الإنسان لم يتبع المنهج الحق بل يمتد الضياع والعذاب إلى العمر الثاني وهو الحياة في الآخرة . يقول الحق :

﴿ وَغَرَّمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

( من الآية ٢٤ من سورة آل عمران )

والافتراء هو نعت الكذب ، إن الحق سبحانه يوضح لهم المعنى فيقول : إن حصل ذلك منكم وأعرضتم عن حكم الله الذي دعيتم إليه في كتاب الله ، وعللتم ذلك بأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة ، وادعيتم كذبا أن الأيام المعدودات هي أيام عبادتكم للعجل ، وادعيتم أنكم أبناء الله وأحباؤه ، إن ذلك كله غرور وافتراءات . ويا ليتهم كانوا يعلمون صدق هذه الافتراءات ، لكنهم هم الذين قالوها ويعرفون أنها كذب ، فإذا جاز ذلك لهم في هذه الدنيا فكيف يكون موقفهم

وحالهم عندما يجمعهم الله في يوم لا ريب فيه ؟ وفي هذا يقول الحق :

﴿ كَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢٥)

إن كذبتهم سينكشف في هذا اليوم ، فالفاضحة قد جاءت ، والفاضحة هي القيامة ، إنها تفضح كل كذاب وكل غشاش وكل داعية بغير الحق . إن الحق يتساءل : كيف يصنعون ذلك كله في الحياة التي جعلنا لهم فيها اختيارا ، يفعلون ما يريدون ، ولا يفعلون ما لا يريدون ، يحدث منهم كل ذلك وهم يعلمون أن الحق قد جعل الثواب لمن اتبع تكاليف الله ، وجعل العقاب لمن يخرج عن مراد الله ، كيف يتصرفون عندما يسلب الحق منهم الاختيار ويحيى يوم القيامة . لقد كانوا في الدنيا يملكون عطاء الله من قدرة الاختيار بين البدلات ، وركز الله لهم في بنائهم أن كل جوارحهم خاضعة لإرادتهم كبشر من خلق الله ، فمنهم من يستطيع أن يستخدم جوارحه فيما يرضى الله ، وفيهم من يستخدم جوارحه المسخرة له - بفضل الله - فيما لا يرضى الله ، إن الجوارح كما نعلم جميعا خاضعة لإرادة الإنسان ، وإرادة الإنسان هي التي تختار بين البدلات ، لكن ماذا يفعل هؤلاء يوم القيامة ؟ إن الجوارح التي كانت تطيع الخارجين عن منهج الله في الفعل لا تطيعهم في هذا اليوم العظيم ، لأن الطاعة اختيار أن تفعل وتطيع ، والجوارح يوم القيامة لا تكون مقهورة لإرادة الإنسان ، إن الجوارح يوم القيامة تنحل عنها صفة القهر والتسخير لمراد الإنسان ، ونصير الجوارح على طبيعتها :

﴿ يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِذِي بَرٍّ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢٦) يَوْمَ يُقَيِّمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٧﴾

( سورة النود )

إن اللسان كان أداة إعلان الكفر ، وهو يوم القيامة يشهد على الكافر ، واليد

كانت أداة معصية الله ، وهى يوم القيامة تشهد على صاحبها ، والجلود تشهد أيضا ،  
لقد كانت الجوارح خاضعة لإرادة أصحابها ، وتفعل ما يريدونها أن تفعل ، ولكنها  
كانت تفعل الفعل العاصى لله وهى كارهة لهذا الفعل ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يَظْلُمُونَ ﴾ (٢٥)

( سورة النجم )

كيف يكون حالهم يوم يجمعهم الله للجزاء فى يوم لا ريب فيه ولا شك فى مجيئه . .  
وهذا اليوم قادم لا محالة لقيام الأدلة على وجوده ، ورغم خصومتهم لله فإن الله  
العاقل الحق لا يظلمهم بل سيأخذهم بمقاييس العدل .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ

وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ

مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤٦)

وساعة تسمع كلمة « ملك » ، فلنا أن نعرف أن هناك كلمة هى « مُلْك » بضم  
الميم ، وكلمة أخرى هى « يَمْلِك » بكسر الميم . إن كلمة « يَمْلِك » تعنى أن للإنسان  
ملكية بعض من الأشياء ، كملكية إنسان لملابسه وكتبه وأشياءه ، لكن الذى يملك  
مالك هذا الملك فهذا تسميه « مُلْك » ، فإذا كانت هذه الملكية فى الأمر الظاهر  
لنا ، فإننا نسميه « عالم الملك » ، وهو العالم المشاهد ، وإذا كانت هذه الملكية فى  
الأمر الخفى فإننا نسميه « عالم الملكوت » . إذن ، فنحن هنا أمام « يَمْلِك » ،  
و« مُلْك » و« ملكوت » . ولذلك فعندما تجل الحق سبحانه وتعالى على سيدنا  
إبراهيم خليل الرحمن وكشف له ما خفى عن العيون وما ظهر ، قال سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١١)

( سورة الانعام )

أى أن الله سبحانه وتعالى أراد لسيدنا إبراهيم أن يشاهد الملكوت فى السماوات والأرض ، أى كل الأشياء الظاهرة والخافية المخفية عن عيون العباد . وهكذا نرى مراحل الحياة كالآتى : ملك ، أى أن يملك الإنسان شيئاً ما ، وهذا نسميه مالكا للأشياء ، فهو مالك لأشياءه ، ومالك لمتاعه ، أما الذى يملك الإنسان الذى يملك الأشياء فإننا نسميه « ملك » ، أى أنه يملك من يملك الأشياء ، والظاهرة فى الأولى نسميها « ملك » فكل إنسان له ملكية بعض من الأشياء ، وبعد ذلك ننحاز إلى الأقل ، أى أن تنسب ملكية أصحاب الأملاك إلى ملك واحد . فالملكية بالنسبة للإنسان تتلخص فى أن يملك الإنسان شيئاً فيصير مالكا ، وإنسان آخر يوليه الله على جماعة من البشر فيصير ملكاً ، هذا فى المجال البشرى .

أما فى المجال الإلهى ، فإننا نصعد لنرى من يملك كل مالك وملك ، إنه الله سبحانه وتعالى . ولا يظن أحد أن هناك إنساناً قد ملك شيئاً ، أوجاها فى هذه الدنيا بغير مراد الله فيه ، فكل إنسان يملك بما يريد الله له من رسالة ، فإذا انحرف العباد ، فلا بد أن يولى الله عليهم ملكاً ظالماً ، لماذا ؟ لأن الأخيار قد لا يحسنون تربية الناس .

﴿ وَكَذَلِكَ نُورِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١١٢)

( سورة الانعام )

وكان الحق سبحانه يقول : بأيتها الخير - بتشديد الياء - ضع قدما على قدم ولا تلوث يدك بأن تتقم من الظالم ، فسوف أضع ولاية ظالم أكبر على هذا الظالم الصغير ، إننى أربأ بك أن تفعل ذلك ، وسأنتقم لك ، وأنت أيتها الخير منزله عندى عن ارتكاب المظالم ، ولذلك نجد قول الحق :

﴿ وَكَذَلِكَ نُورِي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١١٣)

( سورة الانعام )



ونحن جميعا نعرف القول الشائع : « الله يسلط الظالمين على الظالمين » . ولو أن الذين ظلموا مكن منهم من ظلموهم ما صنعوا فيهم ما يصنعه الظالمون في بعضهم بعضا . إن الحق يسلط الظالمين على الظالمين ، وينجي أهل الخير من موقف الانتقام ممن ظلموهم .

إذن فنحن في هذه الحياة نجد «مالك» ، و«ملك» وهناك فوق كل ذلك «مالك الملك» ، ولم يقل الله : إنه «ملك الملك» ، لأننا إذا دققنا جيدا في أمر الملكية فإننا لن نجد مالكا إلا الله . « قل اللهم مالك الملك » إنه المتصرف في ملكه ، وإياكم أن تغنوا أن أحدا قد حكم في خلق الله بدون مراد الله ، ولكن الناس حين تخرج عن طاعة الله فإن الله يسلط عليهم الحاكم الظالم ، ولذلك فالحق سبحانه يقول في حديثه القدسي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( يطوى الله - عز وجل - السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرض بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون )<sup>(١)</sup>

إياك أيها المؤمن أن تغن أن أحدا قد أخذ الملك غصبا من الله . إنما الملك يريد الله لمن يؤدب به العباد . وإن ظلم الملك في التأديب فإن الله يبعث له من يظلمه ، ومن رأى ظلم هذا الملك أو ذاك الحاكم فمن الجائز أن يريه الله هذا الملك أو ذلك الحاكم مظلوما . إنه القول الحكيم يؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى مالك الملك وحده .

إن الحق سبحانه يأمر رسوله الكريم : « قل اللهم مالك الملك » إن كلمة « اللهم » وحدها فيها عجب من العجائب اللغوية . إن القرآن قد نزل باللسان العربي . وأمة العرب فصيحة اللسان والبيان والبلاغة ، وشاء الحق أن يكون للفظ الجلالة « الله » خصوصية فريدة في اللغة العربية .

إن اللغة العربية تضع قاعدة واضحة وهي ألا يُنادى ما فيه ، أداة التعريف ، مثل « الرجل » بـ « يا » فلا يقال : « يا الرجل » بل يقال : « يا أيها الرجل » لكن اللغة

التي يسرها الله لعباده تخص لفظ الجلالة بالتفديس ، فيكون من حق العباد أن يقولوا : « يا الله » . وهذا اللفظ بجلاله له تميز حتى في نطقه .

ولنا أن نلاحظ أن العرب من كفار قريش وهم أهل فصاحة لم يفتنوا إلى ذلك ، فكان الله يرغم حتى الكافرين بأن يجعل للفظ الجلالة تميزا حتى في أفواه الكافرين فيقولون مع المؤمنين : « يا الله » . أما بقية الأسماء التي تسبقها أداة التعريف فلا يمكن أن تقول : « يا الرجل » أو « يا العباس » لكن لابد أن تقول : « يا أيها الرجل » ، أو « يا أيها العباس » ، ولا تقول حتى في نداء النبي : « يا النبي » ، إنما تقول : « يا أيها النبي » .

لكن عند التوجه بالنداء إلى الله فإننا نقول : « يا الله » ، إنها خصوصية يلفتنا لها الحق سبحانه بأنه وحده المخصوص بها ، وأيضا ما رأينا في لغة العرب علما دخلت عليه « التاء » كحرف القسم إلا الله ، فإننا نقول « تالله » ، ولم نجد أبدا من يقول « تزهد » أو « تعمرو » .

إننا لا نجد التاء كحرف قسم إلا في لفظ الجلالة ، ولا نجد أيضا علما من الأعلام في اللغة العربية تحذف منه « يا » في النداء وتستبدل بالميم إلا في لفظ الجلالة فنقول : « اللهم » كل ذلك ليدل على أن اللفظ في ذاته له خصوصية المسمى . « قل اللهم » وكأن حذف حرف النداء هنا يعلمنا أن الله هو وحده المستدعى بدون حرف نداء . « اللهم » وفي بعض الألسنة يجمعون الياء والميم ، مثل قول الشاعر :

إني إذا ما حادثت المآ

أقول يا اللهم يا للهِمَّ

إنها خصوصية لصاحب الخصوصية الأعلى . « قل اللهم مالك الملك » وقد يسأل إنسان لماذا لم يقل الحق : « ملك الملك » ؟ هنا لابد أن نعرف أنه سيأتي يوم لا تكون فيه أي ملكية لأي أحد إلا الله ، وهو المالك الوحيد ، فهو سبحانه يقول :

﴿ رَفِيعُ الثَّرَاجَتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ

التَّلَاقِ ١٥ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ  
الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ ١٦ ﴿

( سورة غافر )

إن قول الحق هنا : « مالك الملك » توضح لنا أن ملكية الله وهي الدائمة والقادرة واضحة ، وجلية ، ومؤكدة ، ولو قال الله في وصف ذاته : « ملك الملك » لكان معنى ذلك أن هناك بشرا يملكون بجانب الله ، لا ، إنه الحق وحده مالك الملك . ومادام الله هو مالك الملك ، فإنه يهب لمن يشاء ، وينزعه ممن يشاء . وهنا نلاحظ أن قول الحق : إنه مالك الملك يعطى الملك لمن يشاء وينزع الملك ممن يشاء تأتي بعد عملية الحاجة ، وبعد أن تهرب بعض من أهل الكتاب من تطبيق حكم الله بعد أن دعوا إليه ، فتولى فريق منهم وأعرض عن حكم الله ، وعلموا ذلك بادعاء أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات .

كل هذه خيارات من لطف الله وضعها أمام هؤلاء العباد ، خيارات بين اتباع حكم الله أو اتباع حكم الهوى ، لكنهم لم يختاروا إلا الاختيار السيئ ، حكم الهوى . ولذلك يأتي الله بخبر اليوم الذي سوف يحىء ، ولن يكون لأحد أى قدرة ، أو اختيار . إن حق الاختيار موجود لنا في هذه الدنيا ، وعلينا أن نحسن الاختيار في ضوء منهج الله .

ولنتأمل هذا المثل الذى حدثنا عنه السيرة النبوية الطاهرة ، حينما جاءت غزوة الأحزاب التى اجتمع فيها كل خصوم الدعوة ، واشتغل اليهود بالدس والوقعة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحفر بمشورة سلمان الفارسي خندقا حول المدينة المنورة . ومعنى « الخندق » ، أى مساحة من الأرض يتم حفرها بما يعوق التقدم . وكان المقاتلون يعرفون أن الفرس يستطيع أن يقفز مسافة ما من الأمتار .

لقد حاول المؤمنون أثناء حفر الخندق أن يكون اتساعه أكبر من قدرة الخيل ، ولتنظر إلى دقة الإدارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن سلمان الفارسي قد اقترح أن يتم حفر الخندق ، وفيما يبدو أنه قد أخذ الفكرة من بيته وقبل الرسول صلى الله عليه وسلم الفكرة وأقرها ، وفعلها المسلمون .

إذن فليس كل ما فعله الكفار كان مرفوضاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل تطبيق كل الأعمال النافعة ، سواء أكان قد فعلها الكفار من قبل أم لا ، ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن عملية الحفر مرهقة بسبب جود الأرض وصخريتها في بعض المواقع ، لذلك وضع حصّة قدرها أربعون ذراعاً لكل عشرة من الصحابة ، وبذلك وزع الرسول الكريم العمل والمسئولية ، ولم يترك الأمر لكل جماعة خشية أن ينواكلوا على غيرهم .

وتوزيع المسئولية يعني أن كل جماعة تعرف القدر الواضح من العمل الذي تشارك به مع بقية الجماعات وقد يسأل سائل : ولماذا لم يوزع الرسول صلى الله عليه وسلم التكليف لكل واحد بمفرده ؟ ونقول : إنها حكمة الإدارة والحزم هي التي جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يتعرف على حقيقة واضحة ، وهي أن الذين يحفرون من الصحابة ليسوا متساوين في القدرة والمجهود ، لذلك أراد لكل ضعيف أن يكون مسنداً بتسعة من الصحابة .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعل الأمر مشاعاً ، بل كان هناك تحديد للمسئولية ، لكنه لم يجعل المسئولية مشخصة تشخيصاً أولياً ومحدداً بكل فرد ، وذلك حتى يساعد الأقوياء الضعيف من بينهم . لقد ستر رسول الله صلى الله عليه وسلم الضعيف بقوة إخوانه ، وساعة أن يوجد ضعيف بين عشرة من الإخوان يحملون عنه ويحفرون ، فإن موقفه من أصحابه يكون المحبة والألفة ، ويكون القوى قد أفاض على الضعيف .

وكان عمرو بن عوف ضمن عشرة منهم سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فلما جاءوا ليحفروا صادفتهم منطقة يقال عنها : « الكنود » ، ومعنى « الكنود » هي المنطقة التي تكون صلبة أثناء الحفر ، فالحافر إذا ما حفر الأرض قد يجد الأرض سهلة ويواصل الحفر ، أما إذا صادفته قطعة صلبة في الأرض فإنه لا يقدر عليها بمعوله لأنها صخرية صماء ، فيقال له : « أكدي الحافر » . وعندما صادف عمرو بن عوف وسلمان الفارسي والمغيرة وغيرهم هذه الصخرة الكنود ، قالوا لسلمان : « اذهب فارفع أمرنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم » . ومن هذا نتعلم درساً وهو أن المكلف من قبل من يكلفه بأمر إذا وجد شيئاً يعوقه عن أداء المهمة فلا بد أن يعود إلى من كلفه بها .

وذهب سلمان الفارسي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر رسول الله

صلى الله عليه وسلم مع سلمان إلى الموقع وأخذ المعول وجاء على الصخرة الكثود وضربها ، فحدث شرر أضواء من فرط قوة الاصطدام بين الحديد والصخرة ، فهتف رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فُتِحت قصور بصري بالشام ، ثم ضرب ضربة أخرى ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فُتِحت قصور الحمراء بالروم . وضرب ضربة ثالثة وقال : الله أكبر ، فُتِحت قصور صنعاء باليمن ، فكانه حين ضرب الضربة أوضح الله له معالم الأماكن التي سوف يدخلها الإسلام فاتحا ومتصرا ، فلما بلغ ذلك القول أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الأعداء للصحابه : ينيكم محمد بفتح قصور صنعاء في اليمن ، والحمراء في الروم ، وفتح قصور بصري ، وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا لنا للقتال فانزل الله قوله : « قل اللهم مالك الملك تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء . . . » .

إن المسألة ليست عزما من هؤلاء المؤمنين ، إنما هي نية على قدر الوسع ، فإن فعلت أى فعل على النية بقدر الوسع فانظر المذد من الممد الأعلى سبحانه وتعالى .

إن الله سبحانه هو الذي يعطى الملك ، وهو الإله الحق الذي ينزع ملك الكفر في كسرى والروم وصنعاء ، يعطى سبحانه الملك لمحمد رسول الله وأصحابه ، وينزعه من قريش ، وينزع الملك من يهود المدينة حيث كانوا يريدون الملك .

إن قول الحق : « وتنزع الملك ممن تشاء » نجعلنا نتساءل : ما النزاع ؟ إنه القلع بشدة ، لأن الملك عادة ما يكون متمسكا بكرسى الملك ، متشبثا به ، لماذا ؟ لأن بعضا ممن يجلسون على كراسى السلطان ينظرون إليه كمغنم بلا تبعات فلا عرق ولا سهر ولا مشقة أو حرص على حقوق الناس ، إنهم يتناسون سؤال النفس « وماذا فعلت للناس » ؟ إن الواحد من هؤلاء لا يلتفت إلى ضرورة رعاية حق الله في الخلق فيسهر على مصالح الناس ويتعب ويكد ويشقى ويحرص على حقوق الناس .

إننا ساعة نرى حاكما متكالبا على الحكم ، فلنعلم أن الحكم عنده مغنم ، لا مغرم . ولئر ماذا قال سيدنا عمر بن الخطاب عندما قالوا له : إن فقدناك - ولا نفقدك - نولى عبدالله بن عمر ، وهو رجل قرقوه الورع . . فقال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه : بحسب آل الخطاب أن يُسأل منهم عن أمة محمد رجل واحد ، لماذا ؟ لأن الحكم في الإسلام مشقة وتعب .

لقد جاء الحق بالقول الحكيم : « وتنزع الملك ممن تشاء » وذلك لينبهنا إلى هؤلاء المشبتهين بكراسي الحكم وينزعهم الله منها ، إن المؤمن عندما ينظر إلى الدول في عنفوانها وحضاراتها وقوتها ونجد أن الملك فيها يسلب من الملك فيها على أهون سبب . لماذا ؟ إنها إرادة الخالق الأعلى ، فعندما يريد فلا راد لقضائه .

إن الحق إما أن يأخذ الحكم من مثل هذا النوع من الحكام ، وإما أن يأخذه هو من الحكم ، ونحن نرى كل ملك وهو يوطن نفسه توطينا في الحكم ، بحيث يصعب على من يريد أن يخلعه منه أن يخلعه بسهولة ، لكن الله يقتلع هذا الملك حين يريد سبحانه .

وبعد ذلك يقول الحق : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » لأن ظواهر الكون لا تقتصر على من يملك فقط ، ولكن كل ملك حوله أناس هم « ملوك ظل » . ومعنى « ملوك الظل » أي هؤلاء الذين يتمتعون بنفوذ الملوك وإن لم يكونوا ظاهريين أمام الناس ، ومن هؤلاء يأتي معظم الشر . إنهم يستظلون ويستترون بسلطان الملك ، ويفعلون ما يشاءون ، أو يفعل الآخرون لهم ما يأمرهم به ، وحين ينزع الملك فلا شك أن المغلوب بالظالمين يعزه الله ، وأما الظالمون لأنفسهم فيذلهم الله ، لذلك كان ولا بد أن يجي . بعد « تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء » هذا القول الحق : « وتعز من تشاء وتذل من تشاء » . لماذا ؟ لأن كل ملك يعيش حوله من يتمتع بجاهه ونفوذه ، فإذا ما انتهى سلطان هذا الملك ، ظهر هؤلاء المستمتعون على السطح . وهذا نشاهده كل يوم وكل عصر . « وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير » .

ونلاحظ هنا : أن إيتاء الملك في أعراف الناس خير . ونزع الملك في أعراف الناس شر . وهؤلاء نقول : إن نزع الملك شر على من خلع منه ، ولكنه خير لمن أوتى الملك . وقد يكون خيرا لمن نزع منه الملك أيضا . لأن الله حين ينزع منه الملك ، أو ينزعه من الملك يخفف عليه مؤونة ظلمه فلو كان ذلك الملك المخلوع عاقلا ، لتقبل ذلك وقال : إن الله يريد أن يخلصني لنفسه لعل أتوب ..

إذن فلو نظرت إلى الجزئيات في الأشخاص ، ونظرت إلى الكليات في العموم لوجدت أن ما يجري في كون الله من إيتاء الملك وما يتبعه من إعزاز ، ثم نزع الملك

وما يتبعه من إذلال ، كل ذلك ظاهرة خير في الوجود ، لذلك قال الحق هنا : « بيدك الخير » ولودقق كل منا النظر إلى مجريات الأمور ، لوجد أن : الله هو الذى يؤق ، والله هو الذى ينزع ، والله هو الذى يعز ، والله هو الذى يذل ، ولا بد أن يكون في كل ذلك صور للخير في الوجود ، فيقول : « بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » .

إن إتياء الملك عملية تحتاج إلى تحضير بشرى وبأسباب بشرية ، وأحيانا يكون الوصول إلى الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية ، أو السياسية ، وكذلك نزع الملك يحتاج إلى نفس الجهد .

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا المعنى فيقول : ليس ذلك بأمر صعب على قدرتي اللانهائية ، لأننى لا أتناول الأفعال بعلاج ، أو بعمل ، إنما أنا أقول : « كن » فتتفعل الأشياء لإرادتي ، ويأتى الحق بعد ذلك ليدلل بنواميس الكون وآيات الله في الوجود على صدق قضية « إنك على كل شيء قدير » فيقول وقوله الحق :

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ  
وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ  
وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

إن الحق يقول لنا : عندكم ظاهرة تختلف عليكم ، وهى الليل والنهار ، وظاهرة أخرى ، هى الحياة والموت . إن ظاهرة الليل والنهار كلنا نعرفها لأنها آية من الآيات العجيبة ، والحق يقول عنها : « تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل » إن الحق لم يصنع النهار بكمية محدودة من الوقت متشابهة في كل مرة ، لا ، إنه سبحانه شاء لليل أن ينقص أحيانا عن النهار خمس ساعات ، وأحيانا يزيد النهار على الليل خمس ساعات .

ولنا أن نتساءل . . هل تنقص الخمس الساعات من الليل أو النهار مرة واحدة وفجأة ؟ هل يفاجئنا النهار بعد أن يكون اثنتى عشرة ساعة ليصبح سبع عشرة ساعة ؟ هل يكون الليل مفاجئاً لنا في الطول أو القصر ؟ لا ، إن المسألة تأتي تباعاً ، بالدورة ، بحيث لا نحس ذلك ، إن هناك نوعاً من الحركة اسمها الحركة الترسية . إننا عندما ننظر إلى الساعة التي تدور نجد أن دورتها تعتمد على التروس ، فهل يمشى عقرب الساعة في كل الزمن ؟ لا ، إن كل ترس له زمن يتوقف فيه ، وعندما يتوقف فإننا ندفع به ليعيد دورته ، ويعمل ، وإذا دققنا النظر في عقرب الدقائق فإننا نستطيع أن نلاحظ ذلك .

إذن هناك فترة توقف وسكون بين انتقال عقرب الدقائق من دقيقة إلى أخرى ، وهذا اللون من الحركة نسميه « حركة ترسية » ، وهناك حركة أخرى ثانية ، نسميها « حركة انسيابية » ، بحيث يكون كل جزء من الزمن له حركة ، كما يحدث الأمر في ظاهرة النمو بالنسبة للإنسان والنبات والحيوان .

إن الطفل الوليد لا يكبر من الصباح إلى المساء بشكل جزئى ، أو محسوس ، إنه يكبر بالفعل دون أن نلاحظ ذلك ، وقد يزيد بمقدار ملليمتر في الطول ، وهذا الملليمتر شائع في كل ذرات الثوانى من النهار ، إن الطفل لا يظل على وزنه وطوله أربعاً وعشرين ساعة من النهار ، ثم يكبر فجأة عند انتهاء اليوم ، لا ، إن نمو الطفل كل يوم يتم بطريقة تشيع فيها قدرة النمو في كل ذرات الثوانى من النهار ، وهذه العملية تحتاج إلى الدقة المتناهية في توزيع جزئيات الحدث على جزئيات الزمان ، وهذه هي العظمة للقدرة الخالقة التي يظل الإنسان عاجزاً عنها إلى الأبد .

وقد قلت لكم مرة : إن الواحد منكم إن نظر إلى ابنه الوليد ، وظل ناظراً له طوال العمر فلن يلاحظ الإنسان منكم كبر ابنه على الإطلاق ، لكن عندما يتغيب الإنسان عن ابنه شهراً أو شهوراً ، ثم يعود ، هنا يرى في ابنه مجموع نمو الشهور التي غاب فيها عنه وقد أصبح واضحاً . ولتزرع الإنسان نباتاً ما ، وجلس ينظر إلى هذا النبات ، فهو لن يرى أبداً نمو هذا النبات لماذا ؟ لأن الجزئيات تكبر دون قدرة على أن يلمس الإنسان طريقة نموها .

ولنا أن نعرف أن كل ما يكبر إنما يصغر أيضاً ، ولا توجد عند الإنسان قدرة



للملاحظة المباشرة لذلك ، وفي الحياة أمثلة أخرى ، نأخذ منها هذا المثل ، فعندما قام العلماء بتصوير الأرض من الأقمار الصناعية ، كانت الصور الأولى لمدينة نيويورك هي صورة لنقطة بسيطة ، وعندما قام العلماء بتكبير هذه الصور ظهرت الجزئيات ، كالشوارع وغيرها ، أين كانت الشوارع في هذه النقطة الصغيرة ؟ لقد صغرت الشوارع أثناء التصوير بصورة تستحيل معها على آلات الإدراك عند الإنسان أن تراها ، ولذلك فلا بد من التكبير لهذه الصور حتى يمكن للإنسان أن يراها ، ونحن نرى الشيء البعيد صغيرا ، ولكما قربناه كبر في نظرنا .

إذن فقول الله : « تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل » هو لفت للانتباه البشرى إلى أن الليل والنهار لا يفصل بينهما حد قاطع بنسبة متساوية لكل منهما ، لا ، إنه الحق بقدرته يدخل الليل في النهار ، ويدخل النهار في الليل . إن معنى « تولج » هو « تدخل » ، ومثال ذلك أن يؤذن المؤذن لصلاة المغرب في يوم ما عند الساعة الخامسة ، ويؤذن المؤذن لصلاة المغرب في أيام أخرى في الساعة السابعة . إن ذلك لا يحدث فجأة ، ولا يقفز المغرب من الخامسة إلى السابعة ، إنما يحدث ذلك بانسيابية ، ورتابة . ومن ذلك نتلقى الدرس والمثل .

إنك أيها العبد إن رأيت ملكا قائما على حضارة مؤصلة ، فاعلم أن هناك عوامل دقيقة لا تراها بالعين تنخر في هذا الملك إلى أن يأتي يوم ينتهي فيه هذا الملك . وهكذا تنهار الحضارات بعد أن تبلغ أوج الارتقاءات ، ويصل الناس فيها إلى استعدادات ضخمة وإمكانات هائلة ، وذلك لأن عوامل الانهيار تنخر داخل هذه الحضارات .

إن الحق بلفتنا إلى جلال قدرته وعظمة دقة صنعه ، بمثل الليل والنهار : « تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل » . ثم بأن لنا الحق الأعلى بمثل آخر ، فيقول : « ونخرج الحي من الميت ونخرج الميت من الحي » ، إنها القدرة المطلقة بدون أسباب .

والوقفه هنا نجعلنا نرى كيف اهتمينا بما أفاض الله على بعض خلقه من اكتشاف لبعض أسرارهِ في كونه . لقد وصل العلم لمعرفة أن لكل شيء حياة خاصة ، فنرى أن ورقة النبات تحدث فيها تفاعلات ولها حياة خاصة ، ونرى أن الذرة فيها تفاعلات

ولها حياة خاصة ، والتفاعل معناه الحركة ، والحياة كما تعرف مظهرها الحركة ، وغاية ما هناك أنه يوجد فرق في رؤية الحياة عند العامة ، ورؤية الحياة عند الخاصة . إن الإنسان العاقل لا يعرف أن النطفة فيها حياة ، وأن الحبة فيها حياة ، ولا يعرف ذلك إلا الخاصة من أهل العلم .

إن العامة من الناس لا يعرفون أن الحبة توجد لها حياة مرئية ، ويكمن فيها نمو غير ظاهر ، ولا يعرف العامة أن هناك فرقا بين شيء حي ، وشيء قابل لأن يحيا . ومثال ذلك نواة البلح التي نأخذها ونزرعها لتخرج منها النخلة ، إنها كنواة تظل مجرد نواة إلى أن يأخذها الإنسان ، ويضعها في بيتها ، لتخرج منها النخلة .

إذن فالنواة قابلة للحياة ، وعندما ننظر إلى ذرات التراب فإننا لا نستطيع أن نضعها في بيئة لنصنع منها شيئا ، ورغم ذلك فإن لذرة التراب حركة . ويقول العلماء : إن الحركة الموجودة في ذرات رأس عيدان علبة كبريت واحدة تكفي لإدارة قطار كهربائي بإمكانه أن يلف حول الكرة الأرضية عددا من السنوات .

إن هذه أمور يعرفها الخاصة ، ولا يعرفها العامة . فإن نظرنا إلى العامة عندما يسمعون القول الحق : « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » كانوا يقولون : إن المثل على ذلك نواة البلح ، وكانوا يعرفون أن النخلة تنمو من النواة . ولكن الخاصة بحثوا واكتشفوا أن داخل النواة حياة وعرفوا كيفية النمو . . . وعرف العلماء أن لكل شيء في الوجود حياة مناسبة لمهمته . . . فليست الحياة هي الحركة الظاهرة والنمو الواضح أمام العين فقط ، لا ، بل إن هناك حياة في كل شيء .

إن العامة يمكنهم أن يحددوا المثال الواضح على أن الحق يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، أما الخاصة فيعرفون قدرة الله عن طريق معرفتهم أن كل شيء فيه حياة ، فالتراب الذى نضع فيه البذر لو أخذنا بعضا منه في مكان معزول ، فلن يخرج منه شيء ، هذا التراب هو ما يصفه العلماء بوصف « الميت في الدرجة الأولى » وأما النواة التي يمكن أن نأخذها ونضعها في هذا التراب ، فيصفها العلماء بأنها « الميت من الدرجة الثانية » .

وعندما ننقل الميت في الدرجة الأولى ليكون وسطا بيثيا للميت في الدرجة الثانية

تظهر لنا نتائج تدلل على حياة كل من التراب والنواة معا ، وقد مس القرآن ذلك مسا دقيقا ، لأن القرآن حين يخاطب بأشياء قد تقف فيها العقول فإنه يتناولها تناول الذى يتقبلها به كل العقول ، فعقل الصقوة يتقبلها ، وعقل العامة يتقبلها أيضا ؛ لأن القرآن عندما يلمس أى أمر إنما يلمسه بلفظ جامع راق يتقبله الجميع ، ثم يكتشف العقل البشرى تفاصيل جديدة فى هذا الأمر .

إن القرآن على سبيل المثال لم يقل لنا : إن الذرة فيها حركة وحياة وفيها شحنات من لون معين من الطاقة ، ولكن القرآن تناول الذرة وغيرها من الأشياء بالبيان الإلهى القادر ، وخصوصا أن هذه الأشياء لن يترتب عليها خلاف فى الحكم أو المنهج . فلو عرف الإنسان وقت نزول القرآن أن الذرة بها حياة فهاذا الذى يزيد من الأحكام ؟ ولو أن أحدا أثبت أن الذرة ليس بها حياة ، فما الذى ينقص من أحكام المنهج الإيماني ؟ لم يكن الأمر من ناحية الأحكام ليزيد أو لينقص ، وعندما نأخذ القرآن مأخذ الواعين به ، ونفهم معطيات الألفاظ فإننا نجد أن كلمة « الحياة » لها ضد هو « الموت » ، وقد ترك الحق سبحانه كلمة « الموت » فى بعض المواقع من الكتاب الكريم وأورد لنا كلمة أخرى هى « الهلاك » قال الحق سبحانه :

﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

( من الآية ٤٢ من سورة الأنفال )

إن « الهلاك » هنا هو مقابل الحياة ، لماذا لم يورد الحق كلمة « الموت » هنا ؟ لأنه الخالق الأعلم بعباده ، يعلم أن العباد قد يختلفون فى مسألة « الموت » فبعض منهم يقول تعريفا للميت : إنه الذى لا توجد به حركة أو حس أو نمو ، ولكن هذا الميت له حياة مناسبة له ، كحياة الذرة أو حياة حبة الرمل ، أو حياة أى شئ ميت ، وهكذا عرفنا من الآية السابقة أن الحياة يقابلها الهلاك . ويقول الحق سبحانه عن الآخرة ليوضح لنا ما الذى سوف يحدث يوم القيامة :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

( الآية ٨٨ من سورة القصص )

لقد استثنى الحق الوجه أو الذات الإلهية ، وكل ما عداها هالك . ومادام كل شيء هالكا فمعنى ذلك أن كل شيء كان حيا . وإن لم تدرك له حياة . إذن فالحياة الحقيقية توجد في كل شيء بما يناسبه ، مرة تدركها أنت ، ومرة لا تدركها .

إذن فقوله الكريم : « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » يجوز أن تأخذه مرة بالعرف العام ، أو تأخذه بالعرف الخاص ، أى عرف العلماء ، ومادام ذلك أمرا ظاهرا في الوجود كولوج الليل في النهار ، وولوج النهار في الليل ، أى أن الحق يدخل النهار في الليل ، ويدخل الليل في النهار . وفي اللغة يسمون ببطانة الرجل - أى خاصة أصدقائه - « الوليعة » لماذا ؟ لأنها تتداخل فيه ، لأنك إن أردت أن تعرف سر واحد من البشر فاجلس مع صديق له أو عدد من أصدقائه الذين يتداخلون معه .

لذلك جاء أمر إيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل بالوضوح الكامل ، وجاءت مسألة الحياة والموت بالفاظ يمكن أن يفهمها كل من العامة والخاصة . وإذا كانت تلك الظواهر هي بعض من قدرات الله فمن إذن يستكثر على الله قدرته في أنه يؤق الملك من يشاء ، ويعز من يشاء ، وتنزع الملك ممن يشاء ، ويذل من يشاء ؟ لقد جاء الدليل من الآيات الكونية ، ونراه كل يوم رأى العين . « قل اللهم مالك الملك ... تؤق الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » . إنك أنت يا الله ، الذى أجريت في كونك كل هذه المسائل وهي كلها أمور من الخير ، وإن بدا للبعض أن الخير فيها غير ظاهر .

إن الإنسان عندما يرى في ابنه شيئا يحتاج إلى علاج فإنه يسرع به إلى الطبيب ويرجوه أن يقوم بكل ما يلزم لشفاء الابن ، حتى ولو كان الأمر يتطلب التدخل الجراحي . إن الأب هنا يفعل الخير للابن ، والابن قد يتألم من العلاج ، فإذا كان هذا أمر المخلوق في علاقته بالمخلوق ، فما بالناس بالخالق الأكرم الذى يجرى في ملكه ما يشاء ، إتياء ملك أو نزع ، وإعزاز أو إذلالا ، فكل ذلك لابد أن يكون من الخير ، وآيات الله تشهد بأن الله على كل شيء قدير لذلك يأتي بعد الآية السابقة قوله :

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهْرِ وَتُولِجُ النَّهْرَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٧)

(سورة النحل عمران)

فإذا كان هناك إنسان لم يفطن أبدا لمسألة إيلاج الليل في النهار أو إخراج الحي من الميت ، فإنه لابد أن يلتفت إلى رزقه ، فكل واحد منا يتصل برزقه قهرا عنه ، ولذلك جاء الحق سبحانه بهذا الأمر الواضح : « وترزق من تشاء بغير حساب » وساعة تسمع كلمة « حساب » فإنك تعرف أن الحساب هو كما قلنا سابقا : بين لك مالك وما عليك .

وعندما نتأمل قول الحق : « وترزق من تشاء بغير حساب » . فإننا نعلم أن « الحساب » يقتضى « محاسبا » - بكسر السين ويقتضى « محاسبيا » - بفتح السين ويقتضى « محاسبيا عليه » ، إن الحساب يقتضى تلك العناصر السابقة . فعندما يقول الحق : « وترزق من تشاء بغير حساب » قلنا أن نقول : ممن ؟ ولئن ؟ من أين يأتي الرزق ؟ وإلى أين ؟ إنه يأتي من الله ، ويذهب إلى ما يقدره الله لأن الله هو الرزاق ، وهو الحق وحده ، وهو الذى لا يستطيع ولا يجزؤ أحد على حسابه ، فهو سبحانه الذى يحاسبنا جميعا ، لا شريك له ، وهو الفعال لما يريد .

إن الحساب يجريه الله على الناس ، وهو سبحانه لا يعطى الناس فقط على قدر حركتهم في الوجود ، بل يرزقهم أحيانا بما هو فوق حركتهم . وقد يرزقك الله من شيء لم يكن محسوبا عندك ، لأن معنى الحساب هو ذلك الأمر التقديرى الذى يخطط له الإنسان ، كالفلاح الذى يحسب عندما يزرع الفدان ويتوقع منه نتاجا يساوى كذا إردبا أو قنطارا ، أو الصانع الذى يقدر لنفسه دخلا محددًا من صناعته . هذا هو الحساب ، لكن الإنسان قد يلتفت فيجد أن عطاء الله له من غير حساب . وقد يحسب الإنسان مرة ولا يأتى له الرزق .

مثال ذلك : قالوا : إن دولة أعلنت أنها زرعت قمحا يكفى الدنيا كلها ، ولكن عندما نضج المحصول هبت عاصفة أهلكت الزرع ، وأكلت هذه الدولة قمحها من

الخارج . فمن قالوا عن أنفسهم : إنهم سيطعمون الناس أطعمهم الناس . أليس ذلك مصداقا لقول الحق : « من غير حساب » ؟ إنه الحق سبحانه لا يحسب حركتك أيها الإنسان ليعطيك قدرها ، ولكنه قد يعطيك أحيانا فوق حركتك .

ونحن نرى إخواننا الذين أفاض الله عليهم بثروة البترول ، لقد تفجر البترول من تحت أرجلهم دون جهد منهم ، إنه الله يريد أن يلفت الناس إلى قدرته جل وعلا ، وأن الأرزاق في يده هو . وننظر إلى الناس الذين يشيرون إلى منطقة البترول فيتهمون أهلها بالكسل ، ونجد أن الحق سبحانه وتعالى قد سخر لهم غير الكسالى ليعخدموهم ، وعندما أفاء على المنطقة العربية بالبترول احتاجت لهم الدول التي تقول عن نفسها : إنها متقدمة ، إنه رزق بغير حساب .

إن هذه اللفقات إنما تؤكد للمؤمن طلاقة القدرة . إن الحق قد خلق الأسباب ، ولم يترك الأسباب تتحكم وحدها ، وقد يترك الحق الأسباب للإنسان ليعمل بها ، وقد لا يعطيه منها ، ويعطى الحق الإنسان من جهة أخرى لم يحسب لها حسابا . والإنسان الذى يتأمل تقدير أموره أو أمور من يعرف يجد أن تلك القضية متشرة في كل الخلق ، إنه سبحانه يرزق بغير حساب ، ولا يقول : « لقد فعلت على قدر يساوى كذا » ، والحق سبحانه يعطى بغير حساب من الإنسان ، لأن الموازنة التى قد يقوم بها الإنسان قد يأتى لها من الأسباب ما يحرقها .

إذن « وترزق من تشاء بغير حساب » تعنى قدرة الحق المطلقة على الرزق بغير حساب ولا توجد سلطة أعلى منه تقول له : لماذا فعلت ؟ أو ماذا أعطيت ؟ أو من غير حساب منه سبحانه لخلق ، فيأتى الرزق على ما هو فوق أسباب الخلق ، أو من غير حساب للناس المرزوقين فيأتى رزقهم من حيث لم يقدروا ، فإذا كانت كل هذه الأمور لله ، وهو مالك الملك ويعطى من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويولج الليل في النهار ، ويرزق من يشاء بغير حساب ، أليس من الحق أن يذهب إنسان ليوالى من لا سلطان له ويترك هذا السلطان ، إن من يوالى غير الله هو الذى استبد به الغباء . ولنفظن لتلك القضية الإيمانية : أى فسادات كل الأمور عندى فيأياكم أن توالوا خصومى ، لأننى أنا الذى بيده كل شيء ، ها هوذا القول الحق :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ

قَدْ بَدَتْ الْبَقَاصُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ  
إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

( سورة النحل عمران )

إنه الحق يأمرنا الا نوالى إلا الله ، فإن كنت مجرى حسابا لكل شيء وبتقدير مؤمن فلا نوال إلا صاحب هذه الأشياء ، وإياك أن تعتمد إلى عدو لهذه القوة القاهرة القادرة المستبدة في كل أمور الكون ونواميسه ، إياك أن تعتمد إلى أعداء الله لتتخذ منهم أولياء ، لأنك لو فعلت تكون غير صائب التفكير .

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ  
الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ  
إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ  
وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾

أنت لا تتخذ الكافر وليا إلا إن بانت لك مظاهر القوة فيه ، ومظاهر الضعف فيك ، إنك عندما تتأمل معنى كلمة « ولي » . تجد أن معناها « معين » وحين تقول : « الله هو الولي » فإننا نستخدم الكلمة هنا على إطلاقها ، إن كلمة الولي تضاف إلى الله على إطلاقها ، وتضاف بالنسبة والمحدودية لخلق الله / فالحق يقول :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

( من الآية ٢٥٧ من سورة البقرة )

إن الله ولى على إطلاقه ، والحق يقول :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٧ ﴾

( سورة يونس )

إن المفرد لأولياء الله هو « ولى الله » ، فالمؤمن ولى الله ، والحق يقول :

﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ١١ ﴾

( سورة الكهف )

هكذا نلاحظ أن الولاية قد تضاف مرة إلى الله ، ومرة إلى خلق الله . إن الله ولى المؤمن ، وهذا أمر مفهوم ، وقد نتساءل : كيف يكون المؤمن ولى الله ؟ إنا نستطيع أن نفهم هذا المعنى كما يلي : إن الله هو المعين للعباد المؤمنين فيكون الله ولى الذين آمنوا ، أى معينهم ومقوِّمهم . وأولياء الله ، هم الذين ينصرون الله ، فينصرهم الله ، وهو - سبحانه - الحق الذى قال :

﴿ يَتَأَيَّسُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَصَرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ٧ ﴾

( سورة محمد )

ألم يكن الله قادرا أن ينتقم من الكفار مرة واحدة وينتهى من أمرهم ؟ ولكن الحق سبحانه قال :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسِفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١٤ ﴾

( سورة التوبة )

إن الحق لو قاتلهم فإن قتاله لهم سيكون أمرا خفيا ، وقد يقولون : إن هذه مسائل كيونية فى الوجود ؛ لذلك يأتى بالقتال للمؤمنين الذين استضعفهم الكافرون . إذن مرة تطلق « الولى » ويراد بها « المعين » . ومرة أخرى تطلق كلمة « الولى » ويراد



بها « المعان » لأنك إن كنت أنت ولي الله ، والله وليك فإنه الحق سبحانه « معين » لك وأنت « معان » .

إن الحق سبحانه يريد لمنهجه أن يسود بإيمان خلقه به ، وإلا لكان الحق سبحانه وتعالى قد استخدم طلاقة قدرته على إرغام الناس على أن يكونوا طائعين ، فلا أحد يقادر على أن يخرج عن قدرة الله ، والإنسان عليه أن يفكر تفكيراً واضحاً ، ويعرف أن حياته بين قوسين : بين قوس ميلاده وقوس وفاته ، ولا يتحكم الإنسان في واحد من القوسين ، فلماذا يحاول التحكم في المسافة بين القوسين ؟ إذن القواميس الكونية بيد الله ونسير كالساعة ، إنه سبحانه يقول :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

( سورة غافر )

إن شيئاً لم يخرج عن مراد الخالق الأعظم . إنما الحق سبحانه وتعالى أخذ هذه المسائل في حركة السماوات والأرض بقوة قهره وقدرته جبروته ، فلا شيء يخرج من يده ، أما بالنسبة للعباد فهو سبحانه يريد أن يأخذ قوماً بحب قلوبهم . إن الإيمان طريق متروك لاختيار الإنسان ، صحيح أن الحق قادر على أن يأخذ بالناس مؤمنين ، ولكنه يريد أن يرى من يحىء إليه وهو مختار ألا يحىء .

إن تسخير الأشياء يظهر لنا صفة القدرة الكاملة لله ، واختيارات الإنسان هي التي تظهر صفة المحبوبة لله ، والله يريد لنا أن نرى قدرته ، ويريد منا أن نتجه إليه بالمحبة لذلك يقول الحق : « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » لماذا ؟ لأن الكافرين وإن تظاهروا أنهم أولياء لك أيها المؤمن ، فهم يحاولون أن يجعلوك تستنهم لهم ، وتعلمن إليهم وربما تسلبوا بلطف ودقة ، فدخلوا عليك مدخل المودة ، وهم ليسوا صادقين في ذلك ، لأنهم ماداموا كافرين ، فليس هناك التقاء في الأصل بين الإيمان والكفر ؛ لذلك يقول الحق : « ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » .

إن من يتخذ هؤلاء أولياء له ، فليس له نصيب من نصرة الله ، لماذا ؟ لأنه اعتقد

ان هؤلاء الكافرين قادرون على فعل شيء له . لذلك يحذرنا الله ويزيد المعنى وضوحا  
أى : إياكم أن تغتروا بقوة الكافرين وتتخذوا منهم أولياء . ولا تقل أيها المؤمن :  
« ماذا أفعل ؟ » لأن الله لا يريد منك إلا أن تبذل ما تستطيع من جهد ، ولذلك قال  
سبحانه :

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ انْحِلِيلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ  
وَالَّذِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ  
إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ ١٢٠﴾

( سورة الانفال )

إن الحق لم يقل : « أعدوا لهم ما تغلبونهم به » ، ولكنه قال : « أعدوا لهم  
ما استطعتم » . إن على المؤمن أن يعمل ما في استطاعته ، وأن يدع الباقي لله ،  
ولذلك فهناك قضية قد يقف فيها العقل ، ولكن الله يعلمتنا ؛ أى : لا تخافوا  
ولا تظنوا أن أعدادهم الكبيرة قادرة على أن تهزمكم ، ولا تسأل : « ماذا أفعل  
يا الله ؟ » لقد علمنا الحق ألا نقول ذلك ، وعلمنا ما يحميننا من هذا الموقف لذلك  
قال :

﴿سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾

( من الآية ١٢ من سورة الانفال )

إذن فساعة يلقي الله في قلوب الذين كفروا الرعب لماذا يصنعون مهما كان  
عددهم أو عددهم ؟ ليس في ذلك نهاية للمسألة ؟ إن الرعب هو جندي ضمن جنود  
الله ، ولذلك فعل المؤمن ألا يوالى الكافرين من دون المؤمنين ، لماذا ؟ حتى لا ينطبق  
عليه القول الحق : « ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » ويضع الحق بعد ذلك  
الاستثناء : « إلا أن تنفوا منهم تفاع وبجذركم الله نفسه وإلى الله المصير » .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى المنهج للإنسان وهو من خلقه سبحانه ، ويعرف كل  
غرائزه ، وانفعالاته ، وفكره ، وفي أنه قد تأنى له ظروف أقوى من طاقته ، لذلك

يعامل الحق الإنسان على أنه مخلوق محدود القدرات ، وفي موضع آخر جاء الحق باستثناء آخر فقال :

﴿ وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُرُّهُ إِلَّا مُنْحَرِقًا لَيَقْنَالَ أَوْ مُنْعِزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِقَضَبٍ  
مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١١ ﴾

( سورة الغاثال )

إن الحق يقول في هذا الموضع من سورة آل عمران : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة .

« وتقاة » مأخوذة من « الوقاية » . إنهم قد يكونون أقوياء للغاية ، وقد لا يملك المؤمن بغلبة الظن في أن يتصر عليهم ، وهم الكافرون ، فلا مانع من أن يتقى المؤمن شرهم .

إن التقية رخصة من الله ، روى : أن مسيلمة الكذاب جاء برجلين من المسلمين وقال لواحد منهما : « أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ » قال المؤمن « نعم » : قال مسيلمة : « وتشهد أني رسول الله ؟ » قال المؤمن : « نعم » . وأحضر مسيلمة المسلم الآخر وقال له : « أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ » قال المؤمن : « نعم » . قال مسيلمة : « أتشهد أني رسول الله ؟ » قال المؤمن الثاني : « إن أصم » كيف رد عليه المؤمن بدعوى الصمم ؟ لقد علم مسيلمة أنه يدعى الصمم ، ولذلك أخذه وقتله ، ورفع الأمر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهاذا قال ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « أما المقتول . . فقد صدع بالحق فهنيئا له ، وأما الآخر فقد أخذ برخصة الله » . فالتقية رخصة ، والإفصاح بالحق فضيلة . .

وعمار بن ياسر أخذ بالرخصة وبلال بن رباح تمسك بالقرعة .

ولننظر إلى حكمة التشريع في هذا الأمر . إن كل مبدأ من مبادئ الخير جاء ليواجه ظاهرة من ظواهر الشر في الوجود ، وهذا المبدأ يحتاج إلى منهج يأتي من حكيم أعلى منه ، ويريد صلابة يقين ، وقوة عزيمة ، كما يريد تحمل منهج ، فالتحمل إنما يكون من أجل أن يبقى المنهج للناس ، والعزيمة من أجل أن يواجه المؤمن الخصوم ، فلهم يشرع الله التقية بقوله :

﴿إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾

( من الآية ١٠٦ من سورة النحل )

لكننا حقيقة سنحقق الفدائية التي تفدى مناهج الحق بالتضحية بالحياة رخيصة في سبيل الله ، ولكن هب أن كل مؤمن وقف هذا الموقف فمن يحمل علم الله إلى الآخرين ؟ لذلك يشرح الحق سبحانه وتعالى التقية من أجل أن يبقى من يحمل المنهج ، إنه يقرر لنا الفداء للعقيدة ، ويشرع لنا التقية من أجل بقاء العقيدة . لقد جاء الحق بالأمرين : أمر الوقوف في وجه الباطل بالاستشهاد في سبيل الحق ، وأمر التقية حماية لبعض الخلق حتى لا يضيع المنهج الحق لو جاء جبار ، واستأصل المؤمنين جميعا ، لذلك يشرع الحق ما يبقى للفداء قوما ، ويبقى للبقاء قوما ليحملوا منهج الله ، هل عرفنا الآن لماذا جاءت التقية ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد منها يعمر الأرض ، ويورث للأجيال المتتالية ، فلو أن الحق لم يشرع التقية بقوله :

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَفُصِّلَ عَذَابُ عَظِيمٍ﴾ (١٠٦)

( سورة النحل )

لثبتت الفدائية في العقيدة ، ولو ثبتت الفدائية وحدها لكان أمر المنهج عرضة لأن يزول ، ولا يرثه قوم آخرون ، لذلك شرع الله التقية ليظل أناس حول شمعته الإيمان ، يحتفظون بضوئها ؛ لعل واحدا يأخذ بقبسها ، فيضيء بها نورا وهاجا . ولذلك ، فلا ولاية من مؤمن لقوم كافرين إلا أن يتقى منهم نقاة ، لماذا ؟ لأن الله يحذرنا نفسه بقوله : « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » .

فإياك أن تقبل على السلوك الذي يضعه أمامك الكفار بانسراح صدر وتقول : أنا أقوم بالتقية ، بل لابد أن تكون المسألة واضحة في نفسك ، وأن تعرف لماذا فعلت التقية ، هل فعلتها لتبقى منهج الخير في الوجود ، أو لغير ذلك ؟ هل فعلتها حتى لا تجعل جنود الخير كلهم إلى فناء أو غير ذلك ؟ إنك إن فعلت التقية بوعى واستبقيت نفسك لمهمة استبقاء المنهج الإيمان ، فأنت أهل الإيمان ، وعليك أن تعرف جيداً أن الحق قد قال : « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » . إنه الحق يقول للمؤمنين : إياكم أن تخلعوا على التقية أمراً هو مرغوب لنفوسكم ، لماذا ؟ لأن الحق قد حددها :

﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٤١)  
(سورة النحل)

فلا غاية إلا الله ، وإياكم أن تغشوا أنفسكم ، لأنه لا غاية عند غيره ، فالغاية كلها عنده وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُنْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢١)

لأن الإنسان قد يقوم بالتقية كظاهرة شكلية ، أما المؤمن فلا يفعل ذلك أبداً . لماذا ؟ لأن التحذير واضح في هذه الآية . هنا قد يقول قائل : إن إخفاء ما في الصدر هو الذي يعلمه الله أما إبداء ما في الصدر فإنه قد علمه أحد غير الله ، فلماذا جاء هذا القول ؟ لقد جاء هذا القول الحكيم ، لأنه قد يطرأ على بالك أن الله غيب فهو يعلم

الغيب فقط ولا يعلم المشهد . لكن الله لا يحجبه مكان عن مكان أو زمان عن زمان . فإياك أن تعتقد أن الله غيب فلا يعرف إلا الغيب . إن الحق يعلم الغيب ويعلم ما برز إلى الوجود . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا  
وَمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا  
بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ  
بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

إن العمل في ذاته ظاهرة تحدث وتنتهي ، فكيف يأتي الإنسان يوم القيامة ، ويجد عمله ؟ إنه لاشك سوف يجد جزء عمله ، إننا حتى الآن نقول ذلك ، لكن حين يفتح الله على بعض المقول فتكتشف أسراراً من أسرار الكون فقد يكون تفسير هذه الآية فوق ما نقول ، إنهم الآن يستطيعون تصوير شريط لعمل ما وبعد مدة يقول الإنسان للآخر : انظر ماذا فعلت وماذا قلت إن العمل المسجل بالشريط يكون حاضراً ومصوراً ، فإذا كنا نحن البشر نستطيع أن نفعل ذلك بوسائلنا فماذا عن وسائل الحق سبحانه وتعالى ؟ لا بد أنها تفوقنا قدرة ، إنه الحق يعلم كل شيء ، في الصدر ، أو في السماوات أو في الأرض : إن الحكم الإلهي يشمل الكون كله مصداقاً لقول الحق :

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ  
مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ  
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

ويختم الحق هذه الآية بقوله : « والله على كل شيء قدير » إنه القادر الذي يعلم عنا الغفلة ، فينبهنا دائما إلى كمال قدرته ، كما قال في آية قبلها : « إنك على كل شيء قدير » ونحن مخلوقون لله ، وهو القادر الأعلى ، القادر على كل شيء ويأتى لكل منا بكتاب حسابه يوم الحساب :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمْ أَقْرَأْ وَآكِتْبِيَّةٌ ۝١٥﴾

( سورة الحالة )

إذن فمن تقف في عقله هذه المسألة ، فليقل : « ما عملت من خير محضرا » يعنى أنه يجزأ عمله . أما ما عملته النفس من السوء فهي تود أن يكون بينه وبينها أمد بعيد ، أى غاية بعيدة ، ويقول الإنسان لنفسه : « ياليتها ما جاءت » . والحق سبحانه يقول : « ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد » إن الحق سبحانه يكرر التحذير لنستحضر قوته المطلقة ، ولكنه أيضا رءوف بنا رحيم ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣١﴾

ولنا أن نعرف أن كل « قل » إنما جاءت في القرآن كدليل على أن ما سيأتى من بعدها هو بلاغ من الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه ، بلاغ للأمر وللماثور به ، إن البعض ممن في قلوبهم زيغ يقولون : كان من الممكن أن يقول الرسول : « إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » لهؤلاء نقول : لو فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لكان قد أدى « المأمور به » ولم يؤد الأمر بتهامه . لماذا ؟ لأن الأمر في « قل » .. والمأمور به « إن كنتم تحبون الله » وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في كل بلاغ عن الله بدأ بـ « قل » إنما يبلغ « الأمر » ويبلغ « المأمور به » مما يدل على أنه

مبلغ عن الله في كل ما يبلغه من الله .

إن الذين يقولون : يجب أن تحذف « قل » من القرآن ، وبدلاً من أن نقول : « قل هو الله أحد » فلننتقلها : « الله أحد » . هؤلاء نقول : إنكم تريدون أن يكون الرسول قد أدى « الأمور به » ولم يؤد « الأمر » .

إن الحق يقول : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » هذه الآية تدل على ماذا ؟ إنهم لا يدقون قد ادعوا أنهم يحبون الله ، ولكنهم لم يتبعوا الله فيما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئاً ، واتباع التكليف شيئاً آخر ، والله سبحانه وتعالى له على خلقه إيجاد ، وإمداد ، وتلك نعمة ، والله على خلقه فضل التكليف ، لأن التكليف إن عاد على المكلف « بفتح الكاف » وتشديد اللام ، ولم يعد منه شيء على المكلف بكسر الكاف فهذه نعمة من المكلف .

إن الحق سبحانه لا يحتاج إلى أحد ولا من أحد . إن الحق سبحانه عندما كلفنا إنما يريد لنا أن نتبع قانون صيانة حياة الإنسان . وقد ضربنا المثل - والله المثل الأعلى ، بالآلة المصنوعة بأيدي البشر ، إن المهندس الذي صممها يضع لها قانون صيانة ما ، ويضع قائمة تعليمات عن كيفية استعمالها ، وهي تلخص في « افعل كذا » و « لاتفعل كذا » ، ويختار لهذه الآلة مكاناً مخدداً ، وأسلوباً منظماً للاستخدام .

إذن - فوضع قائمة بالقوانين الخاصة بصيانة واستعمال آلة ما وطبيعتها في كراسة صغيرة ، هي لفائدة المنتفع بالصنعة . هذا في مجال الصنعة البشرية - فما بالنا بصنعة الله عز وجل ؟ إن الله إيجادا للإنسان ، والله إمدادا للإنسان ، والله تكليفاً للإنسان ، والحق قد جعل التكليف في خدمة الإيجاد والإمداد . إن الحق لو لم يعطنا نظام حركة الحياة في « افعل » و « لاتفعل » لفسد علينا الإيجاد والإمداد ، إن من تمام نعمة الحق على الخلق أن أوجد التكليف ، وإن كان العبد قد عرف قدر الله فأحبه للإيجاد والإمداد فليعرف العبد فضل ربه عليه أيضاً من ناحية قبول التكليف ، وأن يحب العبد ربه لأنه كلفه بالتكاليف الإيمانية .

إنك قد تحب الله ، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت الله ، وأن



يجبك الله . إن التكليف قد يبدو شاقا عليك فتهمل التكليف ؛ لذلك نقول لك : لا يكفي أن تحب الله لنعمة إيجاده وإمداده ؛ لأنك بذلك تكون أهملت نعمة تكليفه التي تعود عليك بالخير ، إن نعمة التكليف تعود عليك بكل الخير عندما تؤديها أيها الإنسان ، فلا تهملها ، ومن الجائز أن تجد عبادا يحبون الله لأنه أوجدهم وأمدهم بكل أسباب الحياة ، ولكن حب الله لعبده يتوقف على أن يعرف العبد نعمته - سبحانه - في التكليف ، إن الله يحب العبد الذي يعرف قيمة النعمة في التكليف .

ونحن في مجالنا البشري نرى إنسانا يحب إنسانا آخر ، لكن هذا الآخر لا يبادلُه العاطفة ، والمتنبى قال :

أنت الحبيب ولكني أعوذ به

من أن أكون حبيبا غير محبوب  
إن المتنبى يستعيز أن يحب واحدا لا يبادلُه الحب . فكأن الذين يدعون أنهم يحبون الله ، لأنهم عبيد إحسانه وإيجاده وإمداده ، ثم بعد ذلك يستنكفون ، أولا يقدرّون على حمل نفوسهم على أداء التكليف لهؤلاء ، نقول : أنتم قد منعتم شطر الحب لله ، لأن الله لم يكلفكم لصالحه ولكنه كلفكم لصالحكم ؛ لأن التكليف لا يقل عن الإيجاد والإمداد .

لماذا ؟ لأن التكليف فيه صلاح الإيجاد والإمداد ، والحب - كما نعرف - هو ودادة القلب وعندما تقيس ودادة القلب بالنسبة لله ، فإننا نرى آثارها ، وعملها ، من عفو ورحمة ورضا . وعندما تقيس ودادة القلب من العبد إلى الله فإنها تكون في الطاعة . إن الحب الذي هو ودادة القلب يقدر عليه كل إنسان ، ولكن الحق يطلب من ودادة القلب ودادة القلب ، وعلى الإنسان أن يبحث عن تكاليف الله ليقوم بها ، طاعة منه وحبا لله ، ليتلقى محبة الله له بآثارها ، من عفو ، ورحمة ، ورضا .

والحب المطلوب شرعا يختلف عن الحب بمفهومه الضيق ، أقول ذلك لنعلم جميعا ، أنه الحق سبحانه قائم بالقسط ، فلا يكلف شططا ، ولا يكلف فوق الوسع أو فوق الطاقة . إن الحب المراد لله في التكليف هو الحب العقل ، ولا بد أن نفرق بين الحب العقل والحب العاطفي ، العاطفي لا يقنن له . لا أقول لك : « عليك أن تحب فلانا حبا عاطفيا » لأن ذلك الحب العاطفي لا قانون له . إن الإنسان يحب ابنه حتى ولو كان قليل الذكاء أو صاحب عاهة ، يحبه بعاطفته ، ويكره قليل الذكاء

بعقله

والإنسان حينما يرى ابن جاره أو حتى ابن عدوه ، وهو متفوق ، فإنه يحب ابن الجار أو ابن العدو بعقله ، لكنه لا يحب ابن الجار أو العدو بعاطفته ، ودليل ذلك أن الإنسان عندما توجد لديه أشياء جميلة فإنه يعطيها لابنه لا لابن الجيران ، هناك - إذن - فرق بين حب العقل ، وحب العاطفة .

والتكليف دائما يقع في إطار المقدور عليه وهو حب العقل ، ومع حب العقل قد يسأل الإنسان نفسه : ماذا تكون حياتي وكيف . . . لو لم أعتق هذا الدين ؟ وماذا تكون الدنيا وكيف ، لولا رحمة الله بنا عندما أكرمنا بهذا الدين ؟ وأرسل لنا هذا الرسول الكريم ؟ إن هذا حديث العقل وحب العقل .

وقد يتسامى الحب فيصير بالعاطفة أيضا ، لكن المكلف به هو حب العقل ، وليس الحب العاطفي ، ولذلك يجب أن نقتطع إلى ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - حينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين )<sup>(١)</sup> .

وقف سيدنا عمر عند هذه النقطة فقال : أمعقول أن يكون الحب لك أكثر من النفس ؟ إنني أحبك أكثر من مالي ، أو من ولدي ، إنما من نفسي ؟ ففي النفس منها شيء . وهكذا نرى صدق الأداء الإيماني من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكررها النبي صلى الله عليه وسلم ثانيا ، وثالثا ، فعرف سيدنا عمر أنه قد أصبحت تكليفا وعرف أنها لا بد أن تكون من الحب المقدور عليه ، وهو حب العقل ، وليس حب العاطفة . وهنا قال عمر : « الآن يا رسول الله ؟ » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر ، أي كمل إيمانك الآن ، أي أن سيدنا عمر قد فهم المراد بهذا الحب وهو الحب العقلي .

ونريد هنا أن نضرب مثلا حتى لا تقف هذه المسألة حقبة في القلوب أو العقول

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه واحد .

- نقول - والله المثل الأعلى: إن الإنسان ينظر إلى الدواء المر طعما ويسال نفسه هل أحبه أو لا ؟ إن الإنسان يجب هذا الدواء بعقله ، لا بعاطفته

إذن فحب العقل هو ودادة من تعلم أنه صالح لك ونافع لديك وإن كانت نفسك تعافه ، وعندما تتضيق لك حدود نفع بالشئ ، فأنت تحبه بعاطفتك ، إذا فالمطلوب للتكليف الإيمان « الحب العقل » ، وبعد ذلك يتسامى ليكون « حبا عاطفيا » وهكذا يكون قول الحق : « إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله » وهذا الحب ليس دعوى . إن الإنسان منا عندما يدعى أنه يحب إنسانا آخر ، فكل ما يتصل به يكون محبوبا ، ألم يقل الشاعر : « وكل ما يفعل المحبوب محبوب » ؟ فإن كنتم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتبعوه بتنفيذ التكليف الإيمانية ، ولنلتفت إلى الفرق بين « اتبعني » و « استمع لي » .

إن الاتباع لا يكون إلا في السلوك ، فإن كنت تحب رسول الله فعليك أن ترى ماذا كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تفعل مثله ، أما إذا كنت تدهى هذا الحب ، ولا تفعل مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا عدم صدق في الحب ، إن دليل صدقكم في الحب المدعى منكم أن تتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن اتبعنا رسول الله نكون قد أخذنا التكليف من الله على أنه نعمة ، وقبلها من الله مع ما فيها من مشقة علينا ، فيحبنا الله ، لأننا أثرتنا تكليفه على المشقة في التكليف .

إن فهم هذه الآية يقتضى أن نعرف أن الحق ينهنا فكأنه يقول لنا : أنتم أحببتم الله للإيمان والإمداد ، وبعد ذلك وقفتم في التكليف لأنه ثقل عليكم ، وهنا نقول : « انظروا إلى التكليف أهو لصالح من كلف أم هو لصالح من تلقى التكليف ؟ » . إنه لصالح المكلف أى الذى تلقى التكليف .

وهكذا يجب أن نضم التكليف للنعم ، فتصبح النعم هى « نعم الإيجاد » ، وه الإمداد ، وه التكليف ، فإن أحببت الله للإيجاد والإمداد ، فهذا يقتضى أن تحبه أيضا للتكليف ، ودليل صدق الحب هو قيام العبد بالتكليف ، وما دامت أنت قد عبرت عن صدق عواطفك بحبك لله ، فلا بد أن يحبك الله ، وكل منا يعرف أن حبه لله لا يقدم ولا يؤخر ، لكن حب الله لك يقدم ويؤخر .

إن قول الحق سبحانه وتعالى فيما يعلمه لرسول الله ليقول لهم : « فاتبعوني يحببكم الله » أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم المرسل من عند الله جاء بكل ما أنزله الله ولم يكتف شئاً مما أمر بتبليغه ، فلا يستقيم أن يضع أحد تفريقاً بين رسول الله وبين الله ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله كل ما أنزل عليه .

وبعد ذلك يقول الحق : « ويغفر لكم ذنوبكم » إن مسألة « يغفر لكم » هذه تتضمن ما تسميه القوانين البشرية بالآثر الرجعي ، فمن لم يكن في باله هذا الأمر ؛ وهو حب الله ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعليه أن يعرف أن عليه مسئولية أن يبدأ في هذه المسألة فوراً ويتبع الرسول صلى الله عليه وسلم وينفذ التكليف الإيماني ، وسيغفر له الله ما قد سبق « وأى ذنوب يغفرها الله هنا ؟ إنها الذنوب التي فر منها بعض العباد عن اتباع الرسول ، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالحكم فيها .

وهكذا نعرف ونتيقن أن عدالة الله أنه سبحانه لن يعاقب أحداً على ذنب سابق مادام قد قبل العبد أن ينفذ التكليف الإيماني ، إن الذين أبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجب عليهم أن يفتنوا بعقولهم إلى ما أعلنه الرسول لهم ، إن هذا الأمر لا يكون حجة إلا بعد أن صار بلاغاً ، وقد جاء البلاغ ، ولذلك يغفر الله الذنوب السابقة على البلاغ ، وبعد ذلك يقول الحق : « والله غفور رحيم » إننا نعلم أن المغفرة من الله والرحمة منه أيضاً ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا

فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢٢)

وقد قلت من قبل في مسألة الأمر بالطاعة ، إنها جاءت في القرآن الكريم على ثلاثة ألوان : فمرة يقول الحق : « أطيعوا الله والرسول » . كما جاء بهذه الآية التي

نحن بصدد تناولها بخواطرننا الإيمانية . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه لم يكرر أمر الطاعة ، بل جعل الأمر واحداً ، هو « أطيعوا » ، فإذا سألنا من المطاع ؟ تكون الإجابة . الله والرسول معا .

إذن فقول الرسول صلى الله عليه وسلم بلاغا عن الله « اتبعوني يحببكم الله » يعني أن طاعة المؤمنين للرسول من طاعة الله . إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمرنا بطاعته ، ولكنه يأمرنا بطاعة الله ، ولذلك لم يكرر الحق أمر الطاعة ، إن الحق هنا يوحد أمر الطاعة فيجعلها لله وللرسول معا ، إنه يعطف على المطاع الأول وهو الله بمطاع ثاني هو الرسول صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق في كتابه العزيز :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَلَمَّا عَلَيْهِ مَا حِمْلٌ وَعَلَيْكُمْ مَا حِمْلَتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ٥٩ ﴾

( سورة النور )

إن الحق يورد أمر الطاعة ثلاث مرات : فمرة يكون أمر الطاعة لله ، ومرة ثانية يكون أمر الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومرة ثالثة يقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩ ﴾

( سورة النساء )

فما مسألة هذه الأوامر بالطاعة ؟ إنها طاعة بالوان التكليف وأنواعها ، إن الأحكام المطلوب من المؤمنين أن يطيعوا فيها . مرة يكون الأمر من الله قد جاء بها وأن يكون الرسول قد أكدها بقوله وسلوكه ، إن المؤمن حين يطيع في هذا الأمر الواحد ، فهو يطيع الله والرسول معا ، ومرة يأتي حكم من الله إجمالا ، ويأتي الرسول ليفصله .

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥٦)

(سورة النور)

إن الواحد منا لم يكن يعرف كم صلاة في اليوم ، ولا عدد الركعات في كل صلاة ، ولا نعرف كيفيتها لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فصل لنا الأمر في كل صلاة ، إذن ، فالمؤمن يطيع الله في الإجمال ، ويطيع الرسول في التفصيل . إن علينا أن نلتفت إلى أن هنا طاعتين : الأولى : طاعة الله ، والثانية : طاعة الرسول ، أما في الأمر المتحد ، فتكون الطاعة لله والرسول ؛ لأنه أمر واحد . وأما الأمر الذي جاء من الله فيه تكليف إجمالي فقد ترك الله للرسول صلى الله عليه وسلم بيانه ، فالمؤمن يطيع الله في الأمر الإجمالي كأمر الصلاة ، وإقامتها ، ويطيع الرسول في تفصيل أمر الصلاة ؛ وكيفيتها ، وأحيانا يبيح الحكم بالتفويض الأعلى من الله للرسول ، فيقول الله لرسوله ما معناه إنك أنت الذي تقرر في هذه الأمور ، كما قال الحق :

﴿وَمَا أَشْكُرُ الرَّسُولَ فَعْدُوهُ وَمَا نُنْكِرُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوْا﴾

(من الآية ٧ من سورة الم نشر)

لقد ترك الحق سبحانه للرسول أن يصدر التشريعات اللازمة لاستقامة حياة المؤمنين ، لقد أعطاه الحق سبحانه التفويض العام ، وما دام سبحانه قد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم التفويض العام فإن طاعة المؤمن تكون للرسول فيما يقوله الرسول وإن لم يقل الله به . إننا على سبيل المثال لا نجد في القرآن دليلاً على أن صلاة الفجر ركعتان ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي فصل لنا الصلاة فعرّفنا أن الفجر ركعتان ، والظهر أربع ركعات ، والمغرب مثل الظهر ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع ركعات . إن الدليل هو تفصيل الرسول ، وقول الحق :

﴿وَمَا أَشْكُرُ الرَّسُولَ فَعْدُوهُ وَمَا نُنْكِرُ عَنْهُ فَأَنْتَهُوْا﴾

(من الآية ٧ من سورة الم نشر)

إنه دليل من القرآن الكريم . هكذا نعرف أن الأمر بالطاعة جاء بالقرآن على ألوان ثلاثة : اللون الأول : إن اتحد المطاع « الله والرسول » ان عطف الرسول هنا يكون على لفظ الجلالة الأعلى . اللون الثاني : هو طاعة الله في الأمر الإجمالي وطاعة الرسول في تفصيل هذا الأمر ، فإن الحق يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » اللون الثالث : وهو الذي لم يكن لله فيه حكم ، ولكنه بالتفويض العام للرسول ، بحكم قوله الحق : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » هذه طاعة للرسول ، ثم يأتي في أمر طاعة أولى الأمر فيقول الحق :

﴿ بَنَاتِهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَلْوِيلًا ﴾

( سورة النساء )  
إن الحق لم يورد طاعة أولى الأمر مندجة في طاعة الله والرسول ، لتكون طاعة واحدة . لا . إن الحق أورد طاعة أولى الأمر في الآية التي يفرق فيها بين طاعة الله وطاعة الرسول ، ثم من بطن طاعة الرسول تكون طاعة أولى الأمر . لماذا ؟ لأنه لا توجد طاعة ذاتية لأولى الأمر ؟ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم له الطاعة الذاتية . أما طاعة أولى الأمر فهي مستمدة من طاعة أولى الأمر لله ورسوله ، ولا طاعة لأولى الأمر فيما لم يكن فيه طاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم .

إن الحق يقول : « قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » . إن الله يبلغ الرسول أن يبلغ هؤلاء الذين قالوا : إنهم يحبون الله ، بالشروط التي يمكن أن يبادل بها الحق عباده الحب ، وذلك حتى تتحقق الفائدة للبشر ، لأن عبة الله تفوق ما يقدمه البشر من حب . إن اتباع الرسول وتنفيذ التكليف بالطاعة لله والرسول .

ذلك هو أسلوب تعبير العباد عن حبهم لله وللرسول صلى الله عليه وسلم ، أما إن تولوا ، أى لم يستمعوا إليك يا محمد ، ولم يتبعوك ، فإن موقفهم - والعباد بالله - ينتقل إلى الكفر ، لأن الحق يقول عن الذين يتولون عن الله والرسول : « فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » . وليس هناك تفضيع أكثر من هذا .

إن كلمة « تولوا » توحى بأن الذين استمعوا إلى أوامر الحق قد نفروا وأعرضوا ، فهم لم يأخذوا حكم الله ، ثم منعهم الكسل من تنفيذه . لا . إنهم أعرضوا عن حكم الله - والعباد بالله - ولذلك فقد قلت ومازلت أقول : فليحذر الذين يخالفون عن أوامر الله ألا يفرقوا بين أمر متقبل على أنه الحكم الحق وبين حمل النفس على اتباع الحكم وتنفيذه .

إياك أيها المسلم أن تنكر حكما لا تستطيع أن تحمل نفسك عليه أو لا تقدر عليه . إنك إن أنكرت تنقل نفسك من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والعباد بالله : ولكن عليك أن تؤمن بالحكم ، وقل : « إنه حكم الله وهو صواب ولكني لا أستطيع أن أقدر على نفسي » إن ذلك يجعل عدم تنفيذ الحكم معصية فقط . وبأن الحق - سبحانه - بعد أن بين لنا أصول العقائد في قوله :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

( سورة آل عمران )

وبعد أن بشر الحق المؤمنين بأنه سبحانه وتعالى يعطيهم الملك الإيمان وأنه الإله القادر ، وطلاقة قدرته تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ، وبعد أن رسم سبحانه طريق محبته ، فإن كنتم قد أحبيتم الله للإيمان والإمداد ، وتريدون أن يحبكم فعليكم بطاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم في تنفيذ التكليف .

وبعد أن وضع الله سبحانه وتعالى المبادئ الإيمانية عقيدة وتشريعية ، بعد هذا وذاك يعطى لنا نماذج تطبيقية من سلوك الخلق ، ذلك أن هناك فرقا بين أن توضع نظريات وبأن الأمر للتطبيق فلا تجد من يطبق ، إن الحق لم يكلف شططا ولا عبثا ، إن الله يقول لنا : أنا كلفت بالتكاليف الإيمانية ومن الخلق أمثالكم من استطاع أن يسير عليها وأن ينفذها ، لذلك يعرض الحق لنا النماذج التي توضح ذلك .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى أمة أمية ، وكان الإسلام جديدا عليهم ، ولذلك يعرض الحق نماذج قديمة ، وهذه النماذج تؤكد لنا أننا في دين



الإسلام لا نجد تعصبا، لأن الدين الذي جاء من الله على آدم عليه السلام هو الدين الذي جاء به إبراهيم عليه السلام من عند الله وهو الدين الذي نزل إلى آل عمران وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام .

إن الحق يعطى صفات التكريم لأهل أديان منسوين إلى ما أنزله الله عليهم من منهج . وجاء الإسلام لينسخ بعضها مما جاء في تلك الرسائل السابقة ويضعها في منهج واحد باق إلى يوم القيامة ، هو منهج الإسلام ، إنه مطلق العظمة . هاهوذا الحق يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ

وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

إنها عدالة القرآن الكريم ، إنه الحق العادل الذي ينزل على الرسول بلاغا يذكر الأبناء بطهارة أصول الآباء ، ومن الحساسة أن يصير الأبناء إلى ما هم عليه . « إن الله اصطفى آدم » وكلمة « اصطفى » تدل على اختيار مرض . ولنا أن نسأل : هل اصطفى الحق هؤلاء الرسل ، آدم ونوحا ، وآل إبراهيم ، وآل عمران فكانوا طائعين ، أم علم الحق ألا أنهم يكونون طائعين فاصطفاهم ؟ إن الحق علمه أزلي ، وعلمه ليس مرتبا على شيء . وساعة أن تأن أنت بقانونك البشري وتفرض في إنسان ما ، وتولي أمره ، وينجح فيه ، هنا تهتئ نفسك بأن فراستك كانت في محلها ، بعلم الله واقتداره ؟

إن الذين اصطفاهم الله هم الذين علم الله ألا أنهم سيكونون طائعين ، وقد يقول قائل : إنهم طائعون لله بالاصطفاء ، مثل هذا القائل نرد : إنهم طائعون بالنفس العامة ويكونون في مزيد من الطاعة بعد أن يأخذوا التكليف بالنفس الخاصة ، إنهم طائعون من قبل أن يأخذوا أمور التكليف ، ولو تركهم الحق للأمور

العقلية لاهتدوا إلى طاعته ، وعندما جاءهم الأمر التكليفى ويصطفىهم الله يكونون رسلا وحلة منج سهاوى .

عندما يسمع الإنسان قول الحق : « إن الله اصطفى آدم » فقد يتساءل عن معناها ، ذلك أن من اصطفاه الله لآدم تأتى إلى الذهن معنى « خصه » بنفسه أو أخذه صفوة من غيره ، فكيف كان اصطفاه آدم ، ولم يكن هناك أحد من قبله ، أو معه لأنه الخلق الأول ؟ إننا يمكن أن نعرف بالعقل العادى أن اصطفاه الله لنوح عليه السلام ، كان اصطفاه من بشر موجودين ، وكذلك اصطفاه إبراهيم خليل الرحمن وبقية الأنبياء .

إذن « فكيف كان اصطفاه آدم ؟ إن معنى « اصطفى آدم » - كما قلنا - تعنى أن الله قد اختاره أو أن « المصطفى عليه » يأتى منه ومن ذريته . نعم وقد جاء المصطفى عليه من ذريته ، وهذا المعنى يصلح ، والمعنى السابق عليه يصلح أيضا . إن الحق يقول : « إن الله اصطفى آدم ونوحا » ونحن نعلم أن سيدنا نوحا عليه السلام واجه جماعة من الكافرين به ، فأغرقهم الله فى الطوفان، ونجا نوح ومن معه بأمر الله .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَمْلَكْ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ١٠١ ﴾

( سورة هود )

إن الذين بقوا من بعد نوح عليه السلام كانوا مؤمنين ، ثم تعرضوا للأغيار . وجاءت هذه الأغيار فى أعقابهم ، فنشأ كفر وإيمان ، لماذا ؟ لأن آدم عليه السلام حين خلقه الله وضع له التجربة التكليفية فى الجنة ، كان من الواجب أن ينقل ما علمه له الله لأبنائه .

لقد نقل آدم لهم مسائل صيانة مادتهم وعلمهم كيف يأكلون ، وكيف يشربون ، وغير ذلك . وكان يجب أن تكون معهم القيم . إن آدم عليه السلام قد أدى ذلك ، وعلم أبنائه كيفية صيانة مادتهم وعلمهم القيم أيضا ، ولكن بمرور الزمان ، ظل بعض من أبناء آدم يتخففون من التكاليف حتى اندثرت وذهبت . ومن رحمة الله بخلقه يجدد سبحانه وتعالى الرسالة ببعث رسول جديد .

والرسالة الجديدة تعطى ما كان موجودا أولا ، فيها يتعلق بالعقائد والأخبار ، والأشياء التي لا تتغير ، وتأتى الرسالة الجديدة بالأحكام المناسبة لزمن الرسالة . فإذا ما أمكن للبشر أن يعدلوا من سياسة البشر ، يظل الأمر كما هو ، فإن ارتكب واحد منكرا وضرب قومه على يده ، استقام أمر الرسالة وبقيت هذه الأمة على الخير . لماذا ؟ لأن مصافى اليقين في النفس الإنسانية موجودة ، ونحن نراها ونلمسها . إن هناك واحدا نحمد مصافى اليقين في ذاته ، وقد لا يقدر على نفسه ، فيرتكب المعصية ، وتلومه نفسه ، فيرجع عن المعصية .

ومرة أخرى نجد إنسانا آخر لا يجد في نفسه مصافى اليقين ، ولكنها موجودة في غيره ، فنجد من يأمره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر ، فإذا امتنعت المصافى الذاتية للإيمان ، وكذلك امتنعت المصافى الإيمانية في المجتمع ، فلا أمل هنالك ، لذلك يجب أن يأتي رسول جديد ، وينبه الناس بمعجزة ما .

لقد شامت إرادة الحق سبحانه ألا يأتي رسول آخر بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك شهادة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن الله أمنها على منهج الله ، فإذا مُنعت من أى نفس مصافىها الذاتية فستبقى مصافىها الاجتماعية ، ولا بد أن يكون في أمة محمد ذلك ، لأن امتناع ذلك كان يستدعى وجود نبي جديد .

إن الله أمن أمة محمد على منهجه ، ولذلك لم يأت نبي بعد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أمن الحق أمة محمد فلم يمنع فيها أبدا المصافى الذاتية أو الاجتماعية ، ولذلك يأتي القول الحق :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

( من الآية ١١٠ من سورة آل عمران )

إن هذا توجيه لنا من الحق لنعرف أن المصافى الاجتماعية ستظل موجودة في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذن فبعد حدوث الغفلة من بعد نوح عليه السلام جاء الله باصطفاءات أخرى رحمة منه بالعالمين ، ويقول الحق : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » . ونحن نقول على إبراهيم عليه السلام : « أبو الأنبياء » وأورد الحق نبأ بعض من أبناء آل إبراهيم ، وهم آل عمران وأعطاهم ميزة .

وكلمة « عمران » هذه حين ترد في الإسلام قلنا أن نعرف أن هناك اثنين لها الاسم نفسه ، هناك « عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام . وهناك « عمران » آخر . إن عمران والد موسى وهارون كان اسم أبيه « يصهر » وجده اسمه « فاهات » ، ومن بعده « لاوى » ومن بعده « يعقوب » ، ومن بعده « إسحق » ، وبعده « إبراهيم » ، أما عمران الآخر ، فهو والد مريم عليها السلام .

وقد حدث إشكال عند عدد من الدارسين هو : أى العمرانين يقصده الله هنا ؟ « والذى زاد من حيرة هؤلاء العلماء هو وجود أخت لموسى وهارون عليهما السلام اسمها مريم ، وكانت ابنة عمران والد موسى وهارون فكلتاها اسمها مريم بنت عمران . وكانوا في ذلك الزمن يتفاءلون باسم « مريم » لأن معناه « العابدة » ، ولما اختلفوا لم يفتنوا إلى أن القرآن قد أبان وأوضح المعنى ، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون عليهما السلام ، بل عمران والد مريم ، ومنها عيسى عليه السلام ، وعمران والد مريم هو ابن ماثان ، وهو من نسل سليمان ، وسليمان من داود ، وداود من أوشى ، وأوشى من يهوذا ، ويهوذا من يعقوب ، ويعقوب من إسحق .

وكنا قديما أيام طلب العلم نضع لها ضبطا بالحرف ، فنقول « عمعم سدثيا » ومعناها . . عيسى بن مريم ، ومريم بنت عمران ، وعمران ابن ماثان ، وماثان من سليمان ، من داود من أوشى وأوشى من يهوذا ويهوذا من يعقوب ويعقوب من إسحاق . لقد التبس الأمر على الكثير وقالوا : أى العمرانين الذى يقول الله في حقه هذا القول الكريم ؟ ول هؤلاء نقول : إن مجيء اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك يعنى أنه عمران والد مريم . وأيضا يجب أن نفتن إلى أن الحق قد قال عن مريم :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ بِمَرِّمٍ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٧﴾ ﴾

وزكريا عليه السلام هو ابن آذن ، وآذن كان معاصرا لمائتان . إن المراد هنا هو عمران والد مريم . هكذا حددنا أى العمرانين يقصد الحق بقوله : « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » . وعندما تقول : اصطفت كذا على كذا ، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن تصطفى واحدا من مجموعة على الآخرين ، ولذلك نفهم المقصود بـ « على العالمين » أى على عالمي زمانهم ، إنهم قوم موجودون وقد اصطفى منهم واحدا ، أما الذى سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه ، فلا اصطفاء على محمد صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣١ ﴾

وحين يقول : « ذرية بعضها من بعض » فلنا أن نسأل : هل المقصود بذلك الأنساب أم الدين والقيم ؟ ولنا أن نلتفت أن الحق قد علمنا في مسألة إبراهيم عليه السلام أن الأنساب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها ، وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هي أنساب القيم والدين . وكنا قد عرضنا من قبل لما قاله الحق :

﴿ وَإِذْ أَنْبَأَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّكَ بِكَائِنَاتٍ فَأَخْتَبُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ۚ ﴾

( من الآية ١٢٤ سورة البقرة )

فردها الله عليه قائلا :

﴿ لَا يَنْبَأُ عَهْدِي الْفَاطِلِينَ ۚ ﴾

( من الآية ١٢٤ سورة البقرة )

لماذا ؟ لأن الإمام هو المقتدى في الهدايات . إذن فالمسألة ليست وراثه بالدم . وهكذا علم سيدنا إبراهيم ذلك بأن النسب للأنبياء ليس بوراثه الدم ، إذن فنحن نفهم قول الحق : « ذرية بعضها من بعض » على أنها ذرية في توارثها للقيم . ونحن نسمع في القرآن :

﴿ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٧٧)

( سورة التوبة )

إن هذا التفاق ليس أمرا يتعلق بالنسب وإنما يتعلق بالقيم ، إنها كلها أمور قيمة ، وحين يقال : « والله سميع عليم » أى أن الله يعرف الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٣٥)

وعندما تقرأ « إذ » فلتعلم أنها ظرف ويُقدر لها في اللغة « اذكر » ، ويقال « إذ جئتك » أى « اذكر أني جئتك » . وعندما يقول الحق : « إذ قالت امرأة عمران » فبعض الناس من أهل الفتح والفهم يرون أن الحق سبحانه سميع عليم وقت أن قالت امرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى » ، وهم يحاولون أن يربطوا هذه الآية بما جاء قبلها ، بأن الله سميع وعليم . ونقف عند قول امرأة عمران : « رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا » .

إننا عندما نسمع كلمة « محررا » فمعناها أنه غير مملوك لأحد فإذا قلنا : « حررت

العبد « يعنى ينصرف دون قيد عليه . أو « حررت الكتاب » أصلحت ما فيه . إن تحرير أى أمر ، هو إصلاح ما فيه من فساد أو إطلاقه من أى ارتباط أو قيد . أما قولها : « رب إني نذرت لك ما فى بطنى محررا » هو مناجاة لله ، فما الدافع إلى هذه المناجاة لله ؟

إن امرأة عمران موجودة فى بيثة ترى الناس تعز بأولادها ، وأولاد الناس - كما نعلم - يحكمون حركة الناس ، والناس تحكم حركة أولادهم ، ويكد الناس من أجل أن يكون الأبناء عزوة ، وقرة عين ، ويتقدم المجتمع بذلك التواصل المادى ، ولم تعجب امرأة عمران بذلك ؛ لقد أرادت ما فى بطنها محررا من كل ذلك ، إنها تريد محررا منها ، وهى محررة منه . وهذا يعنى أنها ترغب فى أن يكون ما فى بطنها غير مرتبط بشئ أو بحب أو برعاية .

لماذا ؟ لأن الإنسان مهما وصل إلى مرتبة اليقين ، فإن المسائل التى تتصل بالناس وبه « تمر عليه » وتشغله ، لذلك أرادت امرأة عمران أن يكون ما فى بطنها محررا من كل ذلك ، وقد يقال : إن امرأة عمران إنما تتحكم بهذا النذر فى ذات إنسانية كذاتها ، ونرد على ذلك بما يلى :

لقد كانوا قديما عندما يندرون ابنا للبيت المقدس فهذا النذر يستمر مادامت لهم الولاية عليه ، ويظل كما أرادوا إلى أن يبلغ سن الرشد ، وعند بلوغ سن الرشد فإن للابن أن يختار بين أن يظل كما أراد والداه أو أن يحمي حياته كما يريد .

إن بلوغ سن الرشد هو اعتراف بذاتية الإنسان فى اتخاذ القرار المناسب لحياته . كانت امرأة عمران لا تريد ما فى بطنها أن يكون قررة عين ، أو أن يكون معها ، إنها تريد محررا لخدمة البيت المقدس ، وكان يستلزم ذلك فى التصور البشرى أن يكون المولود ذكرا ، لأن الذى كان يقوم بخدمة البيت هم الذكور .

ونحن نعرف أن كلمة « الولد » يطلق أيضا على البنت ، ولكن الاستعمال الشائع ، هو أن يطلق الناس كلمة « ولد » على الذكر . لكن معنى الولد لغويا هو المولود سواء أكان ذكرا أم أنثى . وعندما نسمع كلمة « نذر » فلنفهم أنها أمر أريد به الطاعة فوق تكليف المكلف من جنس ما كلفه به الله .

إن الله قد فرض علينا خمس صلوات ، فإذا نذر إنسان أن يصلي عددا من الركعات فوق ذلك ، فإن الإنسان يكون قد ألزم نفسه بأمر أكثر مما ألزمه به الله ، وهو من جنس ما كلف الله وهو الصلاة . والله قد فرض صيام شهر رمضان ، فإذا ما نذر إنسان أن يصوم يومى الاثنين والخميس أو صيام شهرين فالإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، وهو الصيام . والله فرض زكاة قدرها باثنين ونصف بالمائة ، ولكن الإنسان قد ينذر فوق ذلك ، كمقدار عشرة بالمائة أو حتى خمسين بالمائة .

إن الإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، إن النذر هو زيادة عما كلف المكلف من جنس ما كلف سبحانه . وكلمة « نذرت » من ضمن معانيها هو أن امرأة عمران سيدة تقية وورعة ولم تكن مجبرة على النذر ، ولكنها فعلت ذلك ، وهو أمر زائد من أجل خدمة بيت الله .

والنذر كما نعلم يعبر عن عشق العبد لتكاليف الله ، فيلزم نفسه بالكثير من بعضها . ودعت امرأة عمران الله من بعد ذلك بقبول ذلك النذر فقالت : « فتقبل منى » . « والتقبل » هو أخذ الشيء برضا ، لأنك قد تأخذ بكراهة ، أو تأخذ على مضض ، أما أن « تتقبل » فذلك يعنى الأخذ بقبول وبرضا . واستجابة لهذا الدعاء جاء قول الحق :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾

( من الآية ٢٧ سورة آل عمران )

ونلاحظ أن امرأة عمران قالت فى أول ما قالت : « رب إني نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » ، ولم تقل : « يا الله » وهذا لنعلم أن الرب هو المتولى التربية ، فساعة ينادى « ربى » فالمفهوم فيها التربية . وساعة ينادى بـ « الله » فالمفهوم فيها التكليف . إن « الله » نداء للمعبود الذى يطاع فيما يكلف به . أما « رب » فهو المتولى التربية .

قالت امرأة عمران : « رب إني نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » . هذا هو الدعاء ، وهكذا كانت الاستجابة : « فتقبلها ربها



بقبول حسن ، وبعد ذلك تكلم الحق عن الأشياء التي تكون من جهة التربية . « وأنبئها نباتا حسنا . . وكفلها زكريا » . كل ذلك متعلق بالتربية وبالربوبية ، فساعة نادى امرأة عمران عرفت كيف تنادى ونذرت ما في بطنها . وبعد ذلك جاء الجواب من جنس ما دعت بقمة القبول وهو الأخذ برضا . « فتقبلها ربها بقبول حسن » .

فالحسن هنا هو زيادة في الرضا ، لأن كلمة « قبول » تعطينا معنى الأخذ بالرضا ، وكلمة « حسن » توضح أن هناك زيادة في الرضا ، وذلك مما يدل على أن الله قد أخذ ما قدمته امرأة عمران برضا ، وبشيء حسن ، وهذا دليل على أن الناس ستلحق في تربيتها شيئا فوق الرضا ، إنه ليس قبولا عاديا ، إنه قبول حسن . « وأنبئها نباتا حسنا » . مما يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين نذرت ما في بطنها ، ألا ترى ما في بطنها إلى العمر الذي يستطيع فيه المولود أن يخدم في بيت الله . ولكنها نذرت ما في بطنها من اللحظة الأولى للميلاد . إنها لن تتنعم بالمولود ، ولذلك قال الحق : « وكفلها زكريا » ، وزكريا هو زوج خالة السيدة مريم . وبعد دعاء امرأة عمران ، يجيء القول الحكيم :

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ  
أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا  
مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ  
الرَّجِيمِ ﴿٢٦﴾

لقد جاء هذا القول منها ، لأنها كانت قد قالت : إنها نذرت ما في بطنها محررا لخدمة البيت ، وقولها : « محررا » تعني أنها أرادت ذكرها لخدمة البيت ، لكن المولود جاء أنثى . فكانها قد قالت : إن لم أمكن من الوفاء بالنذر ، فلأن قدرك سبق ، لقد جاءت المولودة أنثى . لكن الحق يقول بعد ذلك : « والله أعلم » .

بما وضعت . وهذا يعني أنها لا تريد إخبار الله ، ولكنها تريد أن تظهر التحسر ، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق وبعد ذلك يقول الحق : « وليس الذكر كالأنثى » . فهل هذا من كلامها ، أم من كلام الله ؟

قد قالت : « إني وضعنها أنثى » وقال الله : « وليس الذكر كالأنثى » .

إن الحق يقول لها : لا تظني أن الذكر الذي كنت تتمنيه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى ، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم . أو أن القول من تمام كلامها : « إني وضعنها أنثى » ويكون قول الحق : « والله أعلم بما وضعت » هو جملة اعتراضية ويكون تمام كلامها « وليس الذكر كالأنثى » . أي أنها قالت : يارب إن الذكر ليس كالأنثى ، إنها لا تصلح لخدمة البيت .

وليأخذ المؤمن المعنى الذي يحبه ، وسنجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر ، إنه تصور أن الحق قد قال : أنت تريدان ذكرًا بمفهومك في الوفاء بالنذر ، وليكون في خدمة البيت ، ولقد وهبت لك المولود أنثى ، ولكني سأعطي فيها آية أكبر من خدمة البيت ، وأنا أريد بالآية التي سأعطيها لهذه الأنثى مساندة عقائد ، لا مجرد خدمة رقعة تقام فيها شعائر .

إنني سأجعل من هذه الآية مواصلة لمسيرة العقائد في الدنيا إلى أن تقوم الساعة . ولأنني أنا الخالق ، سأوجد في هذه الأنثى آية لا توجد في غيرها ، وهي آية تثبت طلاقة قدرة الحق ، ولقد قلت من قبل : إن طلاقة القدرة تختلف عن القدرة العادية ، إن القدرة تخلق بأسباب ، ولكن من أين الأسباب ؟ إن الحق هو خالق الأسباب أيضا .

إذن فهإدام الخالق للأسباب أراد خلقا بالأسباب فهذه إرادته . ولذلك أعطانا الحق القدرة على رؤية طلاقة قدرته ، لأنها عقائد إيمانية ، يجب أن تغل في بؤرة الشعور الإيماني ، وعلى بال المؤمن دائما . لقد خلق الله بعضا من الخلق بالأسباب كما خلقنا نحن ، وجمهرة الخلق عن طريق التناسل بين أب وأم ، أما خلق الحق لأدم عليه السلام فقد خلقه بلا أسباب . ونحن نعلم أن الشيء الدائر بين اثنين له قسمة عقلية ومنطقية ، فهإدام هناك أب وأم ، ذكر وأنثى ، فسيجيء منها تكاثر . .

إن الحق يقول :

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (١٩)

( سورة الذاريات )

وعندما يمتنع الزوجان ، فهذه هي الصورة الكاملة ، وهذه الأولى في القسمة المنطقية والتصور العقلي ، وإما أن ينعدم الزوجان فهذه هي الثانية في القسمة المنطقية والتصور العقلي . أو أن ينعدم الزوج الأول ويبقى الطرف الثاني ، وهذه هي الثالثة في القسمة المنطقية والتصور العقلي ، أو أن ينعدم الزوج الثاني ويبقى الطرف الأول ، وهذه هي الرابعة في القسمة المنطقية والتصور العقلي .

تلك إذن أربعة تصورات للقسمة العقلية ، وجميعنا جاء من اجتماع العنصرين ، الرجل والمرأة . أما آدم فقد خلقه الله بطلاقة قدرته ليكون السبب . وكذلك تم خلق حواء من آدم . وأخرج الحق من لقاء آدم وحواء نسلا . وهناك أنثى وهي مريم ويأتى منها المسيح عيسى بن مريم بلا ذكر . وهذه هي الآية في العالمين ، وثبتت قمة عقدية . فلا يقولن أحد : ذكرا ، أو أنثى ، لأن نية امرأة عمران في الطاعة أن يكون المولود ذكرا ، وشاء قدر ربكم أن يكون أسمى من تقدير امرأة عمران في الطاعة ، لذلك قال : « وليس الذكر كالأنثى » . أى أن الذكر لن يصل إلى مرتبة هذه الأنثى .

وقالت امرأة عمران : « وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها ، فحينما فات المولودة بأنوثتها أن تكون في خدمة بيت الله فقد تمت امرأة عمران أن تكون المولودة طائعة ، عابدة ، فسمتها « مريم » لأن مريم في لغتهم - كما قلنا - معناها « العابدة » .

وأول ما يعترض العبودية هو الشيطان . إنه هو الذى يجعل الإنسان يتعرد على العبودية . إن الإنسان يريد أن يصير عابدا ، فيجىء الشيطان ليزين له المعصية . وأرادت امرأة عمران أن تحمى ابنتها من نزغ الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصي كلها تأتى من نزغ الشيطان ، وقد سميتها « مريم » حتى تصبح « عابدة لله » ، ولأن امرأة عمران كانت تمتلك عقلية إيمانية حاضرة وتحمل المنهج التبعدي كله لذلك قالت : « وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

إن المستعاذ به هو الله ، والمستعاذ منه هو الشيطان ، وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله في تزيين المعاصي ، فهو يدخل مع المخلوق في عراك ، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه في عراك ، ولذلك يقال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يخنس أي يتراجع ، ووصفه القرآن الكريم بأنها « الخنافس » ، إن الشيطان إنما يتفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيدا عن الله ، ولذلك فالحق يعلم الإنسان :

﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾

( سورة الاعراف )

إن الشيطان يرتعد فرقا ورعدة من الاستعاذة بالله . وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة ، فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يجيد عن طاعة الله إلى المعاصي . وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجيء الرجل امرأته ، ويجيء الأهل هو مظنة لمولود قد يجيء ، فيقول العبد : « اللهم جنبي الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني » ( من دعاء رسول الله ) .

إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التخلق « فلن يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذي يأتي بإذن الله . ولذلك قالت امرأة عمران : « وإنى أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . والذرية قد يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر ، ولكن كلمة « ذرية » تطلق على الواحد وعلى الاثنين ، وعلى الثلاثة أو أكثر . والذرية هنا بالنسبة لمريم عليها السلام هي عيسى عليه السلام ، وتنتهي المسألة . وبعد دعاء امرأة عمران « وإنى أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » يجيء القول الحق :

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا  
وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ

عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُومُ أَنِّي لَأَبْلُوكُ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ  
عِنْدِ اللَّهِ إِنْ أَلَّهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

وقد عرفنا القبول الحسن والإنبات الحسن ، أما قوله الحق : « وكفلها زكريا »  
فهذا يعني أن المسألة جاءت من أعلى ، إنه الرب الذي تقبل بقبول حسن ، وهو  
الذي أنبتها نباتا حسنا . إذن ، فرعاية زكريا لها إنما جاءت بأمر من الله . والدليل  
على ما حدث عند كفالة مريم . لقد اجتمع كبار القوم رغبة في كفالتها وأجروا بينهم  
قرعة من أجل ذلك . وساعة تجد قرعة ، أو إسهما . فالناس تكون قد خرجت من  
مراداتها المختلفة إلى مراد الله . فعندما نختلف على شيء فإننا نجرى قرعة ،  
ونخصص سهم لكل مشترك فيها ، ونرى بعد ذلك من الذي يخرج سهمه ، ويلجأ  
الناس لهذا الأمر ، ليمنعوا هوى البشر عن التدخل في الاختيار ، ويصبح الأمر  
خارجا عن مراد البشر إلى مراد الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما حدث عند كفالة زكريا  
لمريم . ولذلك فالحق يقول لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمَنَّمْهُمْ آيَهُمْ يَكْفُلُ  
مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٢٨)

(سورة النجم)

إذن فالكفالة لمريم أخذت لها ضجة ، وهذا دليل على أنهم اتفقوا على إجراء  
قرعة بالنسبة لكفالتها ، ولا يمكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد  
حدث تنازع بينهم ، عن أيهم يكفل مريم ، ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام  
كان متزوجا من « إشاع » ، « أخت » ، « حنة » ، وهي أم مريم ، فهو زوج خالتها .

وكلمة « أفلامهم » قال فيها المفسرون : إنها القداح التي كانوا يصنعونها قديما ،  
أو الأقلام التي كتبوا بها التوراة ، فرموها في البحر ، فمن طفا قلمه لم يأخذ رعاية  
مريم ، ومن غرق قلمه في البحر فهو الذي فاز بكفالة مريم . إذن فهم قد خرجوا

عن مراداتهم إلى مراد الله .

والخروج عن المرادات ، والخروج عن الأهواء بجسم ليس له اختيار - كقداح القرعة - لا يوجد في النفس غضاضة . لكن لو كان هناك من سيأخذ رعاية مريم بالقوة والغضب فلا بد أن يجد نفوس الآخرين وقد امتلأت بالمرارة أو الغضب . ولذلك فقد كان سائدا في ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يساء الظن بأحد ، وهناك قصة سيدنا يونس عندما قاربت السفينة على الغرق ، وكان لابد لإنقاذها أن ينزل واحد إلى البحر ، وجاء القول الحكيم :

﴿ وَإِنْ يُوسُفُ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١١٣﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ ﴿١١٤﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١١٥﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١١٦﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١١٧﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة الصافات )

كان لابد أن ينزل واحد من تلك السفينة ، لذلك تم إجراء قرعة بالسهم حتى لا تقوم معركة بين الموجودين على ظهر السفينة ، وحتى لا تكون الغلبة للأقوياء ، ولكن القرعة حمت الناس من ظلم بعضهم بعضا . قالوا : لنجر قرعة السهام ، فمن يخرج سهمه فهو الذي يلقي به ، وكان على يونس عليه السلام أن ينزل إلى البيم فيلتقمه الحوت . ولأنه من المسبحين فإن الله ينقذه . لقد قبل يونس عليه السلام اختيار الله ولم ينس تسبيح الله فكان في ذلك الإنقاذ له . وهكذا نقرأ قول الله لنفهم أن كفالة زكريا كانت باختيار الله . « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا » .

وكلمة « كفلها » أى تولى كل مهمة تربيته ، هذه هي الكفالة ، ونحن نعرف أن الكفيل في عرفنا هو الضامن ، والضامن هو من يسد القروض عندما يعجز الإنسان عن السداد ، وقوله الحق : « وكفلها زكريا » يعطينا المعنى الواضح بأن زكريا عليه

السلام هو الذى قام برعاية شئون مريم .

ويتابع الحق الكريم قوله : « كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقا »  
 انه لم يدخل مرة واحدة ، بل دخل عليها المحراب مرات متعددة . وكان زكريا عليه  
 السلام كلما دخل على مريم يجد عندها الرزق . ولذلك كان لابد أن يتساءل عن  
 مصدر هذا الرزق ، ولابد أن يكون تساؤله معبرا عن الدهشة . لذلك يجيء القول  
 الحق على لسان زكريا : « أنى لك هذا » .

وساعة أن نسمع « أنى لك هذا ؟ » فهذا يدل على أنه قام بعمل محابس على المكان  
 الذى توجد به مريم ، وإلا لظن أن هناك أحدا قد دخل على مريم ، وكما يقولون :  
 فإن زكريا كان يقفل على مريم الأبواب . وإلا لو كانت الأبواب غير مغلقة لظن أن  
 هناك من دخل وأحضر لها تلك الألوان المتعددة من الرزق .

والرزق هو ما ينتفع به - بالبناء للمجهول - وعندما يقول زكريا عليه السلام :  
 « أنى لك هذا » . فلنا أن نتذكر ما قلناه سابقا من أن أى إنسان وكله الله على جماعة  
 ويرى عندهم ما هو أزيد من الطاقة أو حدود الدخل ، فلا بد أن يسأل كلاً منهم :  
 من أين لك هذا ؟ ذلك أن فساد البيوت والمجتمعات إنما يأتى من عدم الاهتمام  
 بالسؤال وضرورة الحصول على إجابة على السؤال المحدد : من أين لك هذا ؟

إن الذى يدخل بيته ويمجد ابته ترتدى فستانا مرتفع الثمن ويفوق طاقة الأسرة ،  
 أو يمجد ابنه قد اشترى شيئا ليس فى طاقة الأسرة أن تشتريه ، هنا يجب أن يتوقف  
 الأب أو الولي ليسأل : من أين لك هذا ؟ إن فى ذلك حماية لآخلاق الأسرة من  
 الانهيار أو التحلل . فلو فطن كل واحد أن يسأل أهله ومن يدخلون فى كفالاته - « من  
 أين لك هذا ؟ » لعرف كل تفاصيل حركتهم ، لكن لو ترك الحبل على الغارب لفسد  
 الأمر .

وقول زكريا : « أنى لك هذا ؟ » هو سؤال محدد عن مصدر هذا الرزق ، ولننظر  
 إلى إجابتها : « قالت هو من عند الله » ثم لا ندع البديهة الإيمانية عند سيدنا زكريا  
 دون أن تذكره انها لا تنسى حقيقة واضحة فى بؤرة شعور كل مؤمن : « إن الله يرزق

من يشاء بغير حساب . واثارت هذه المسألة في نفس زكريا نوازع شتى ، إنها مسألة غير عادية ، لقد أخبرته مريم أن الرزق الذي عندها هو من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، إنه الإله هو القادر على أن يقول : « كن » فيكون .

وهنا ذكر زكريا نفسه ، وكان نفسه قد حدثته : « إذا كانت للقدره طلاقة في أن تفعل بلا أسباب ، وتعطي من غير حساب ، فأنا أريد ولدا يخلفني ، رغم أنني على كبر ورغم بلوغى من السن عتياً ، وامرأتى عاقر . إن مسألة الرزق الذي وجده زكريا كلها دخل على مريم هي التي نبهت زكريا إلى ما يمتنى ويرغب .

ونحن نعلم أن المعلومات التي تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة ، ولكن لا يستقر في بؤرة الشعور إلا الذي يصر عليه الإنسان ، وهناك فرق بين معلومات توجد في بؤرة الشعور . ومعلومات في حاشية الشعور يتم استدعاؤها عند اللزوم ، فلما وجد زكريا الرزق المنوع عند مريم وقالت له عن مصدره : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . هنا تساءل زكريا : كيف فاتني هذا الأمر ؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا :

هَٰذَا نَذَارٌ لِّكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٢٨﴾

إنها ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وأنه الحق الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، هنا أيقظت فيه القضية الإيمانية فجاءت أمنيته إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا ، ومادام قد قال هذا القول فلا بد أنه قد صدق مريم في قضيتها ، بأن هذا الرزق الذي يأتيها هو من عند الله ، ودليل آخر في التصديق ، هو أنه لا بد وقد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التي توجد عند مريم ليست في بيته ، أو ليست في أوانها ، وكل ذلك في المحراب .



ونحن نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت العبادة . يقول الحق :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَنَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ ۚ أَعْمَلُوا  
لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ عِبَادٍ ۚ الشُّكُورُ ۝ ١٣ ﴾

( سورة سبأ )

أو « المحراب » وهو مكان الإمام في المسجد ، أو هو حجرة يصعد إليها بسلم ، كالمبلغات التي تقام في بعض المساجد . ومادامت مريم قد أخبرت زكريا وهي في المحراب بأن الرزق من عند الله ، وأيقظت بذلك تلك القضية الإيمانية في بؤرة شعوره ، فماذا يكون تصرفه ؟ هنا دعا زكريا أثناء وجوده في المحراب : « رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » إنه هنا يطلب الولد . ولكن لابد لنا أن نلاحظ ما يلي :

- هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو « عزوة » أو ذكرا ؟ لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذكر زكريا الذرية الطيبة تفيد معرفته أن هنالك ذرية غير طيبة . وفي قول زكريا الذي أورده الحق :

﴿ يَرْثِي وَيَرِثُ مِنْهُ ۚ إِنَّهُ يُعْطِي ۚ ﴾

( من الآية ٦ سورة مريم )

أى أن يكون دعاء لإرث النبوة وإرث المناهج وإرث القيم ، هكذا طلب زكريا الولد . لقد طلبه لمهام كبيرة ، وقول زكريا : « رب هب » تعني أنه استعطاء شيء بلا مقابل ، إنه يعترف . أنا ليس لي المؤهلات التي تجعل لي ولدا ، لأن كبير السن وامراتي عاقر ، إذن فعطاؤك يا رب لي هو هبة وليس حقا ، وحتى الذي يملك الاستعداد لا يكون هذا الأمر حقا له ، فلا بد أن يعرف أن عطاء الله له بظل هبة ، فإياك أن تظن أن احتمال الأسباب والشباب هي التي تعطى الذرية ، إن الحق سبحانه يهبنا ألا نقع في خديعة وغش أنفسنا بالأسباب .

﴿ إِنَّ اللَّهَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ ۚ ﴾

لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۖ أَوْ يَزُوْجَهُمْ ذُكْرًا أَوْ إِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيْمًا  
إِنَّهُ عَلِيْمٌ قَدِيْرٌ ﴿٥﴾

( سورة الشورى )

إن في ذلك لقنا واضحا وتحذيراً محمداً ألا نفتتن بالأسباب ؛ إذن فلكل عطاء من الله هوية ، والأسباب لا تعطى أحدا ما يريد . إن زكريا يقول : « رب هب لي من لدنك » وساعة أن تقول من : « لدنك » فهو يعنى « هب لي من وراء أسبابك » . لماذا ؟ لأن الكل من الله .

ولكن هناك فرقا بين عطاء الله بسبب ، كان يذهب إنسان ليتعلم العلم ويمكث عشرين عاما ليتعلم ، وهناك إنسان يفيض الله عليه بموهبة ما ، ولذلك يقول أهل الإشراقات : إنه علم لدن ؛ أى من غير تعب ، وساعة أن نسمع « من لدن » أى انعزلت الأسباب ، كان دعاء زكريا هو « رب هب لي من لدنك » وكلمة « هب » توضح ما جاء في سورة مريم من قول زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي نَكُنُّ لَكَ غَنِيًّا وَكَُنَّا نَ أَمْرًا غَافِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ ﴿٥﴾

( سورة مريم )

إن « هب » هى التى توضح لنا هذه المعانى ، هذا كان دعاء زكريا : « رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » فهل المراد أن يسمع الله الدعاء ؟ أم أن يجيب الله الدعاء ؟ إنه يضع كل أمله في الله ، وكأنه يقول : إنك يارب من فور أن تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك . لماذا ؟ لأنك يارب تعلم صدق نيتى في أننى أريد الغلام لا لشيء من أمور كفرة العين ، والذكر ، والعز ، وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثا لى في حمل منهجك في الأرض ، وبعد ذلك يقول الحق :

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ  
أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِخَيْرٍ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا  
وَخَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾

هل كل الملائكة اجتمعوا أو نادوا زكريا ؟ لا ، لأن جبريل عليه السلام الذي ناداه . ولماذا جاء القول الحق هنا بأن الملائكة هي التي نادته ؟ لقد جاء هذا القول الحق لنفطن إلى شيء هو ، أن الصوت في الحدث - كالإنسان - له جهة يأتي منها ، أما الصوت القادم من الملائكة فلا يعرف الإنسان من أين يأتيه ، إن الإنسان يسمعه وكأنه يأتي من كل الجهات ، وكأن هناك ملكا في كل مكان .

والعصر الحديث الذي نعيشه قد ارتقى في الصوتيات ووصل لدرجة أن الإنسان أصبح قادرا على جعل المؤثر الصوتي يحيط بالإنسان من جهات متعددة ؛ إذن فقوله الحق : « فنادته الملائكة » فهذا يعني أن الصوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات .

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ أَنْ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِخَيْرٍ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ  
مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَخَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

( سورة آل عمران )

لقد نادته الملائكة في أروع لقاءاته مع ربه . أو هو حينما دعا أخذ ما علمه الله للأنبياء إذا حزبه أمر قاموا إلى الصلاة . أليس طلبه من الله ؟ إذن فليقف بين يدي الله . وليجربها كل واحد منا عندما يصعب عليك أي شيء ، وتتأزم الأمور ، وتختل الأسباب ، فليقم ويتوضأ وضوءا جديدا ويبدأ بالنية حتى ولو كان متوضئا . وليقف بين يدي الله ، وليقل - إنه أمر يارب عز علي في أسبابك ، وليصل بخشوع ، وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يسلم من هذه الصلاة إلا ويكون الفرج قد جاء . ألم نتلق عن رسول الله هذا السلوك البديع ؟ إنه كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة ؟

ومعنى حزنه أمر ، أى أن أسبابه ضاقت ، لذلك يذهب إلى الصلاة لخالق الأسباب ، إنها ذهاب إلى المسبب . وبدلاً من أن تلف وتدور حول نفسك ، اذهب إلى الله من أقصر الطرق وهو الصلاة ، لماذا تتعب نفسك أيها العبد ولك رب حكيم ؟ وقدما قلنا : إن من له أب لا يحملهما ، والذي له رب ليس أولى بالإطمئنان ؟

إن زكريا قد دعا الله في الأمر الذى حزنه ، وبمجرد أن دعا في الأمر الذى حزنه ، قام إلى الصلاة ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصل ، إن الملائكة لم تنتظر إلى أن ينتهى من صلاته ، فنادته الملائكة وهو قائم يصل في المحراب أن الله يشرك .

والبشارة هى إخبار بخير زمنه لم يأت ، فإذا كانت البشارة بخير زمنه لم يأت فلنر من الذى يخبر بالبشارة ؟ أمن يقدر علم إيجاده أم من لا يقدر ؟ فإذا كان الله هو الذى يشرك ، فهو الذى يقدر ، لذلك فالمبشر به قادم لا محالة ، «إن الله يشرك ببيحي» لقد قال له الله : سأعطيك . وزيادة على العطاء سباه الله بـ «بيحي» وفوق كل ذلك : «مصدقاً بكلمة من الله» .

ولنتظر إلى دقة الحق حين يقول : «بيحي مصدقاً» . هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله وما يعرفه من الطاعات سيسير في هذا الطريق وهو مصدق ، وهو سياتى بكلمة من الله ، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من الله ، لأن سيدنا يحيى هو أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام . وهو موصوف بالقول الحق : «سيداً وحسوراً ونبياً من الصالحين» . أى ممنوعاً عن كل ما حرم عليه ، أو ممنوعاً عن قمة الغرائز وهى الشهوة ، وهو نبي ، أى قدوة في اتباع الرسول الذى يحيى في عصره ، لقد دعا زكريا ، وقام ليصل ، وتلقى البشارة بيحيى ، وهنا ارتجت الأمور على بشرية زكريا ، ويصوره الحق بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي  
الْكِبَرُ وَآمَرَ أُنِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ  
يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝١٠﴾

إن زكريا - وهو الطالب - يصيبه التعجب من الإستجابة فيسأل : كيف يكون ذلك ؟ والحق يورد ذلك ليعلمنا أن النفس البشرية دائماً تكون في دائرات التلوين ، وليست في دائرات التمكين ، وذلك ليعطى الله لخلقهم الذين لا يهتدون إلى الصراط المستقيم الأسوة في أنه إذا ما حدث له ابتلاء فعليه الرجوع إلى الله ، فيقول زكريا : « أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبرى وامراق عاقر » .

إن بلوغ الكبر ليس دليلاً على أنه عاجز عن الإنجاب لأنه قد يكون كبير العمر ، وقادراً على إخصاب امرأة ، ذلك أن الإخصاب بالنسبة لبعض الرجال ليس أمراً عسيراً مهما بلغ من العمر إن لم يكن عاقراً ، ولكن المرأة هي العنصر المهم ، فإن كانت عاقراً ، فذلك قمة العجز في الأسباب . ولو أن زكريا قال فقط : « وامراق عاقر » لكان أمراً غير مستحب بالنسبة لزوجته ، ولكن معنى ذلك أنه نسب لنفسه الصلاحية وهي غير القادرة .

إنه أدب النبوة وهو أدب عال ، لذلك أوردتها من أولها : « وقد بلغنى الكبر وامراق عاقر » ولتردقة القول في : « بلغنى الكبر » ، إنه لم يقل : « بلغت الكبر » بل يقول : إن الكبر هو الذى جاءنى ولم أجدى أنا إلى الكبر . لأن بلوغ الشيء يعنى أن هناك إحساساً ورغبة في أن تذهب إليه ، وذكر زكريا « وامراق عاقر » هو توضيح لطلاقة القدرة عند من يستمع للقصة ، لقد أورد كل الخوارج البشرية ، وبعد ذلك يأتي القول الفصل : « قل كذلك الله يفعل ما يشاء » إنها طلاقة القدرة التى فوق الأسباب لأنها خالفة الأسباب . ويقول زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ

النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا

وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾

إن زكريا يطلب علامة على أن القول قد انتقل إلى فعل .

﴿ قَالَ رَبِّ اُنِّىْ يَكُوْنُ لِىْ عُلْمٌ وَكَانَتْ اَمْرًاىْ عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا  
 ﴿٥٥﴾ قَالَ كَذٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هٰٓئِنٍ وَقَدْ خَلَقْنٰكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْطًا ۝ ﴿٥٦﴾ ﴾

( سورة مريم )

لقد كان هذا القول تأكيداً لاشك فيه ، فبمجرد أن قال الرب فقد انتهى الأمر .  
 فماذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب آية ، أى علامة على أن بحسبى قد تم  
 إيجاده فى رحم أمه ، ومادامت المرأة قد كبرت فهي قد انقطع عنها الحيض ، ولا بد أنه  
 عرف الآية لأنه يعرف مسبقاً أنها عاقرة . لكن زكريا لم يرغب أن يفوت على نفسه  
 لحظة من لحظات هبات الله عليه ، ومادام الحمل قد حدث فهنا كانت استغاثة  
 زكريا ، لا تركنى يارب إلى أن أفهم بالعلامات الظاهرة المحسنة ، لأننى أريد أن  
 أعيش من أول نعمتك علىّ فى إطار الشكر لك على النعمة ، فبمجرد أن يحدث  
 الإخصاب لابد أن أحيا فى نطاق الشكر ؛ لأن النعمة قد تآق وأنا غير شاكر .

إنه يطلب آية لعيش فى نطاق الشكر ، إنه لم يطلب آية لأنه يشك - معاذ الله - فى  
 قدرة الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة النعمة من أول وجودها إلا  
 ومعها الشكر عليها ، والذي يعطينا هذا المعنى هو القول الحق : « قال آيتك ألا  
 تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشئ والإبكار » . لابد أن  
 معناها أنه يرغب فى الكلام فلا يستطيع .

إن هناك فارقا بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألا يقدر على الكلام .  
 ومادامت الآية هبة من الله . فالحق هو الذى قال له : سأمنعك من أن تتكلم ،  
 فساعة أن تحم نفسك غير قادر على الكلام فاعرف أنها العلامة ، وستعرف أن تتكلم  
 مع الناس رمزا ، أى بالإشارة ، وحتى تعرف أن الآية قادمة من الله ، وأن الله علم  
 عن عبده أنه لا يريد أن تمر عليه لحظة مع نعمة الله بدون شكر الله عليها ، فإننا  
 نعلم أن الله سينطقه . . « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشئ والإبكار » .

لقد أراد زكريا أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكرا ، وجعل كل وقته  
 ذكرا ، فلم يشغل بالناس أو بكلام الناس ، وذكر الرب كثيرا هو ما علمه  
 - سبحانه - عن زكريا عندما طلب الآية ليصحبها دائما بشكر الله عليها ، إن قوله :

« واذكر ربك كثيرا » تفيد أن زكريا قادر على الذكر وغير قادر على كلام الناس ، لذلك لا يريد الله أن يشغله بكلام الناس ، وكان الله يريد أن يقول له : مادمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرا فأسألك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قادر على الذكر .

والذكر مطلقا هو ذكر الله بآلائه وعظمته وقدرته وصفاته الكمال له ، والتسبيح هو التنزيه لله ، لأن ما فعله الله لا يمكن أن يحدث من سواء ، فسبحان الله ، معناها تنزيه الله ، لأنه القادر على أن يفعل ما لا تفعله الأسباب ولا يقدر أحد أن يصنعه . إنه يريد أن يشكر الحق الذي يرزق من يشاء بغير حساب . تلك اللفظة . التي جاءت من قبل من مريم لزكريا .

وزكريا كما نعلم هو الكفيل لها ، فكونها تنطق بهذه العبارة دلالة على أن الله مهد لها بالرزق ، بحيثها من غير زكريا ، بأنها ستأتي بشيء من غير أسباب . وكان التجربة قد أراد الله أن تكون من ذاتها لذاتها ، لأنها ستعرض لشيء يتعلق بعرض المرأة ، فلا بد أن تعلم مسبقا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، وبدون أسباب . فإن جاءت بولد بدون سبب من أبوة فلتعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

فلما سمع زكريا منها ذلك قال : مادام الله يرزق من غير حساب ويأتى بالأشياء بلا أسباب فأنا قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب من ربي أن يبنى غلاما ؟ إذن فمقولة مريم : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » قد لفتت زكريا ، ونهت إيمانا موجودا في أعماقه وحاشية شعوره ، ولا نقول أوجدت إيمانا جديدا لزكريا بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولكنها أخرجت القضية الإيمانية من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا : مادام الأمر كذلك . فأنا أسأل الله أن يبنى غلاما . . . وقول زكريا : « هب لي من لدنك ذرية طيبة » دل على أنه وزوجته لا يملكان اكتساب الأبوة والأمومة ولذلك طلب الهبة من الله . والهبة شيء بدون مقابل .

فلما سأل الله ذلك استجاب الله له ، وقال له سبحانه : سأهبك غلاما بدون أسباب من خصوبتك في التلقيح أو خصوبة الزوجة في الحمل ، ومادامت المسألة ستكون بلا أسباب وأنا - الخالق - سأتولى الإيجاب بـ « كن » ولمعنى سام شريف سأمنحكم شيئا آخر تقومون به أنتم معشر الآباء والأمهات - عادة - إنه تسمية

المولود ، فافاض الحق عليهم نعمة أخرى وهي تسمية المولود بعد أن وهبه لها . . هنا وقفة عند اخبة بالاسم .

﴿ فَادَّعَى الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بَيِّنٍ مُّصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٢٢)

( سورة النجم )

حين يولد للناس ولد فهم يسمونه ، فالتسمية أمر شائع في عادات الناس . ولكن من يهمهم أمر الوليد حينها يقبلون على تسميته ، فهم يحاولون أن يتفاهلوا ، فيسموه اسما يرجون أن يتحقق في المسمى ، فيسمونه « سعيدا » أملا في أن يكون سعيدا ، أو يسمونه « فضلا » أو يسمونه « كريما » . إنهم يأتون بالاسم الذي يحبون أن يجدوا وليدهم على صفته . وذلك هو الأمل منهم ، ولكن أتاق المقادير على وفق الآمال ؟

قد يسمونه سعيدا ، ولا يكون سعيدا . وسمونه فضلا ، ولا يكون فضلا . وسمونه عزا ، ولا يكون عزا . ولكن ماذا يحدث حين يسمى الله سبحانه وتعالى ؟ لابد أن يختلف الموقف تماما ، فإذا قال اسمه « يحيى » دل على أنه سيعيش . وقدما قال الشاعر حينما تقابل بتسمية ابنه يحيى :

فسميته يحيى ليحيا

فلم يكن لرد قضاء الله فيه سبيل

كان الشاعر قد سمى ابنه يحيى أملا أن يحيا ، ولكن الله لم يرد ذلك ، فهات الابن . لماذا ؟ لأن المسمى من البشر ليس هو الذي يحيى ، إن المسمى إنسان قدرته عاجزة ، ولكن « المحيى » له طلاقة القدرة ، فعين يسمى من له طلاقة القدرة على إرادة أن يحيا . فلا بد من أن يحيا حياة متميزة ؟ وحتى لا تفهم أن الحياة التي أشار الله إليها بقوله : « اسمه يحيى » بأنها الحياة المعروفة للبشر عادة - لأن الرجل حينما يسمى ابنه « يحيى » يأمل أن يحيا الابن متوسط الأعمار ، كما يحيا الناس - ستين عاما ، أو سبعين ، أو أى عدد من السنوات مكتوبة له في الأزل .

لكن الله حينما يسمى « يحيى » فإنه لا يأخذ « يحيى » على قدر ما يأخذه الناس ،



بل لا بد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس ، ويهيء له الحق من خصومه ومن أعدائه من يقتله ليكون شهيدا ، وهو بالشهادة يصير حيا ، فكانه يحيا دائما ، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

وهكذا أراد الله ليحيى عليه السلام أن يحيا كحياة الناس ، ويحيا حياة أطول من حياة الناس إلى أن تقوم الساعة ، وأيضا نأخذ ملحظا في أن زكريا حينما بشر بأن الله سيهبه غلاما ويسميه يحيى ، نجده قد استقبلها بالمعجب . كيف يستقبل زكريا مسألة الرزق بالولد متعجبا مع أنه رآها في الرزق الذي كان يجده عند مريم ؟ « يرزق من يشاء بغير حساب » .

ولنا أن نقول : أكنت تحب أن يمر مثل هذا الأمر الخارق للعادة والخارق للناموس على سيدنا زكريا كأنه أمر عادي لا يندهش له ولا يتمعجبه ؟ لا ، لا بد أن يندهش ويتمعجبه لذلك قال : « رب أنى يكون لى غلام » . فكان الدهشة لفته إلى أنه ستأتى آية عجيبة ، ولو لم تكن تلك الدهشة لكانت المسألة رتيبة وكأنها أمر عادي . إذن ، فهو يلفتنا إلى الأمر العجيب الذى حصه الله به . وأيضا جاءت المسألة على خلاف ناموس التكاثر والإنجاب والنسل : « وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » .

إن المسألة كلها تفضل وهبة من الله . فلما جاءته البشارة ، لم يقل الله له : إننى سأهبك الغلام واسمه يحيى من امرأتك هذه ، أو وأنت على حالتك هذه . فيتشكك ويتردد ويقول : أترى يأتى الغلام الذى اسمه « يحيى » منى وأنا على هذه الحالة ، امرأتى عاقر وأنا قد بلغت هذا الكبر ، أو ربما ردنا الله شبابا حتى نستطيع الإنجاب ، أو تأتى امرأة أخرى فأتزوجها وأنجب .

إذن فالعجب فى الهيبة التى سيصير عليها الإنجاب فقوله : « أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » هذا التساؤل من زكريا يهدف به إلى معرفة هيبة أو الحالة التى سيأتى بها الإنجاب . لأن الإنجاب يأتى على حالات متعددة . فلما أكد الله ذلك قال : « كذلك » ماذا تعنى كذلك ؟ إنها تعنى أن الإنجاب سيأتى منك ومن زوجك وأنتما على حالكما ، أنت قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتك عاقر . لأن العجيبة تتحقق بذلك ، أكان من المعقول أن يردهما الله شبابا حتى يساعدها أن يهبها الولد ؟ لا . لذلك قال الحق : « كذلك الله يفعل ما يشاء » . أى كما أنتما ، وعلى حالكما .

لقد جعل الحق الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ، وقد يكون عدم الكلام في نظر الناس مرضا لا ، إنه ليس كذلك ، لأن الحق يقول له : « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار » إن الحق يجعل زكريا قادرا على التسبيح ، وغير قادر على الكلام . وهذه قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله ، إنه اللسان الواحد ، غير قادر على الكلام ، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع ، ولكن هذا اللسان نفسه - أيضا - يصبح قادرا فقط على التسبيح ، وذكر الله بالعشي والإبكار ، ذكر الله باللسان ويسمعه الناس ، وذلك بيان لطلاقة القدرة .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى مسألة أخرى تتعلق بمريم ، لأن مريم هي الأصل في الكلام ، فالرزق الذي كان يأتيها من الله بغير حساب هو الذي نبه سيدنا زكريا إلى طلب الولد، وجاء الحق لنا بقصة زكريا والولد، ثم عاد إلى قصة مريم :

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ  
وَوَهَبَ لَكِ وَهَبًا ۚ وَاتَّقِي اللَّهَ وَاتَّقِي النَّاسَ

« وإذ قالت الملائكة » المراد بها جبريل عليه السلام ، والسبب في أن الحق يورد ذلك به قالت الملائكة « لأن كلام المتكلم - أي الإنسان - له - كما قلنا - زاوية انطلاق يأتي من جهتها الصوت . وتستطيع أن تتأكد من ذلك عندما يجيء لك صوت ، فأنت تجد ميل أذنك لجهة مصدر الصوت ، فإن جاء الصوت من ناحية أذنك اليميني فأنت تلتفت وتقبل إلى يمينك ، وإذا جاءك الصوت من شمالك تلتفت إلى الشمال . لكن المتكلم هنا هو جبريل عليه السلام ، ويأتي صوته من كل جهة حتى يصير الأمر عجيبا ، لهذا جاء الكلام منسوباً إلى الملائكة .

فماذا قال جبريل ؟ قال جبريل مبلغاً عن رب العزة : « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » وما الاصطفاء ؟ إن الاصطفاء اختيار واجتباء ، وهو مأخوذ

من الصفو أو الصافي ، أى الشيء الخالص من الكدر . وعادة تؤخذ المعاني من المحسات ،  
وعندما تقول الماء الصافي أى الماء غير المكدر ، أو كما يقول الحق :

﴿ وَأَنْهَرْ مِنْ عَيْنٍ مَصْنِيٍّ ﴾

( من الآية ١٥ من سورة محمد )

وعندما يقول الحق : ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا اللَّهُ اصْطَفَاكَ وَطَهَّرَكَ وَاصْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾  
نحن هنا أمام اصطفاءين ، الاصطفاء الأول ورد دون أن تسبقه كلمة « على »  
والاصطفاء الثانى تسبقه كلمة « على » والمقصود بالاصطفاء الأول هو إبلاغ مريم أن  
الله ميزها بالإيمان ، والصلاح والخلق الطيب ، ولكن هذا الاصطفاء الأول جاء  
مجردا عن « على » أى أن هذا الاصطفاء الأول لا يمنع أن يوجد معها فى مجال هذا  
الاصطفاء آخرون ، بدليل قول الحق :

﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا اللَّهُ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

( سورة آل عمران )

ثم أورد الحق سبحانه أنه طهرها ، وجاء من بعد ذلك بالاصطفاء الثانى المسبوق  
بـ « على » فقال « واصطفاك على نساء العالمين » إذن فهذا خروج للرجال عن دائرة  
هذا الاصطفاء ، ولن يكون مجال الاصطفاء موضوعا يتعلق بالرجولة ، فهى مصطفاة  
على نساء العالمين ، فكأنه لا توجد أنثى فى العالمين تشاركها هذا الاصطفاء . لماذا ؟  
لأنها الوحيدة التى ستلد دون ذكر ، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد .

وقوله الحق : « واصطفاك على نساء العالمين » هذا القول يجب أن ينبه فى نفسها  
سؤالا هو : ما الذى تمتاز هى به عن نساء العالمين ؟ إن الذهن ينشغل بهذا الأمر ،  
وينشغل على أمر من وظيفة الأنثى ، ولننضم هذه إلى قول الحق على لسانها : « إِنْ أَنْتَ إِلَّا اللَّهُ  
يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » ونجد أب هذه كلها إينسات للحدث الذى سياتى من  
بعد ذلك ، وهو حدث يتعلق بعرضها وعفافها ، فلا بد أن يمهّد الله له تمهيدا مناسباً  
حتى تتأكد من أن هذه المسألة ليس فيها شيء يندش العرض أو يندش الكرامة .  
« واصطفاك على نساء العالمين » ولنا أن نسأل : ما نتيجة الاصطفاء ؟

لقد عرفنا أن الاصطفاء هو الاجتباء والاختيار ، ويقتضى « مصطفى » بفتح الفاء . ويقتضى « مصطفى » بكسر الفاء . والمصطفى هو الله ، لكن ما علة الاصطفاء ؟ إن الذي يصطفيه الله إنما يصطفيه لمهمة ، وتكون مهمة صعبة . إذن هو يصطفيه حتى يشيع اصطفاؤه في الناس . كان الله قد خصه بالاصطفاء من أجل الناس ومصلحتهم ، سواء أكان هذا الاصطفاء لمكان أم لإنسان أم لزمان ليشيع صفاؤه في كل ما اصطفى عليه . لقد اصطفى الله الكعبة من أجل ماذا ؟ حتى يتجه كل إنسان إلى الكعبة . إذن فقد اصطفاها من أجل البشر وليشيع اصطفاؤها في كل مكان آخر ، ولذلك قال الحق عن الكعبة :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٤٣)

(سورة آل عمران)

وإذا اصطفى الحق سبحانه زمانا ، كاصطفائه لرمضان ، فلماذا اصطفاه ؟ ليشيع صفاؤه ، وصفاء ما أنزل فيه في كل زمان . إذن فاصطفاه الحق للشخص أو للمكان أو للزمان هو لمصلحة بقية الناس أو الأمكنة أو الأزمنة ، لماذا ؟ لأن أحدا من الخلق ليس ابنا لله ، وليس هناك مكان أولى بمكان عند الله . ولكن الله يصطفى زمانا على زمان ، ومكانا على مكان ، وإنسانا على إنسان ليشيع اصطفاه المصطفى في كل ما اصطفى عليه . إذن فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفى ، أو لا يفرحوا به ؟ إن عليهم أن يفرحوا به ، لأنه جاء لمصلحتهم ، والحق سبحانه يقول :

﴿ يَمْزِجُ مَاءً قَدِيرًا وَيَرْسُقُ إِلَى رَبِّكَ وَأَسْجُدُ وَأَرْكَبُ

مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴾ (٤٣)

فكان ما تقدم من حيثيات الاصطفاء الأول ، والاصطفاء الثانى ، يستحق منها القنوت ، أى العبادة الخالصة الخاضعة الخاشعة . وقد يقول قائل : ولماذا يصطفى

الله واحدا ، ليشيع اصطفاؤه في الناس ؟ لأن الاصطفاء من الحق لا بد أن يبرنه من كل ما يمكن أن يقع فيه نظيره من الاختيارات غير المرضية ، والحق - سبحانه - يريد نموذجاً لا يقع منه إلا الخير ، والمثال الكامل على ذلك اصطفاء الحق سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أول الأمر وجعله لا يفعل إلا السلوك الطيب من أول الأمر ، وذلك حتى يعطينا الرسول القدوة الإيمانية في ثلاث وعشرين سنة هي مدة الرسالة المحمدية .

والحق يقول لمريم على لسان الملائكة : « يا مريم اقنتي لربك » إنه أمر بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها ، وكلمة « لربك » تعني التربية ، فكأن الاصطفاءات هي من نعم الله عليك يا مريم ، وتسنح منك الفنون « واسجدي واركعي مع الراكعين » و« اسجدي » أي بالغي في الخشوع ، والخضوع ، بوضع الجبهة التي هي أشرف شيء في الإنسان على الأرض . لأن السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع .

لكن أيعفيها هذا اللون من الخضوع عما يكون من الركوع لله مع الناس ؟ لا ، إنه الأمر الحق يصدر لمريم « واركعي مع الراكعين » ولا يعفيك من الركوع أنك فعلت الأمر الأعلى منه في الخضوع وهو السجود ، بل عليك أن تركعي مع الراكعين ، فلا يحق لك يا مريم أن تقول : « لقد أمرني الله بأمر » أعلى ولن أنفذ الأمر الأدنى .

إن الحق بأمرها أن تكون أيضاً في ركب الراكعين مثلما نقرأ قوله الحق عن الكفار :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۚ ﴾ (١٧)

( سورة المدثر )

إنهم كفار ، فكيف يصلون ؟ إنه اعتراف منهم بأنهم كفار ، ولم يكونوا مسلمين في سلك من يصل ، واعتراف بأنهم لم يكونوا مسلمين أو مؤمنين بالله . وهنا يسأل سائل كريم : لماذا قال سبحانه وتعالى في خطابه لمريم : « يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » ولم يقل الحق : « مع الراكعات » ؟ هذا هو السؤال .

واجابة على هذا السؤال نحب أن نعهد تمهيدا بسيطا إلى فلسفة الأسماء في وضعها على مسمياتها . إن الأسماء الفاظ من اللغة تعين مسميها . والمسميات مختلفة ، فمنها الجهاد ، ومنها النبات ، ومنها الحيوان ، ومنها الأسماء التي تدل على عالم الغيب كالجن ، والملائكة ، وكل ما غيب الله . هذه الأسماء تدل على معانيها .

وهدى الله سبحانه البشر إليها بما علم آدم من الأسماء ، فكيف كان باستطاعة آدم التعبير عن معطيات الأسماء بمسمياتها ؟ إذن لا بد أن يوجد لكل شيء اسم حتى نستطيع حين نتفاهم على الشيء أو الكائن بأن نذكر لفظا واحدا موجزا يشير إليه . ولو لم يكن يذكر هذا فكيف كان باستطاعة إنسان أن يتكلم مع إنسان آخر عن الجبل مثلا ؟ أكان على المتكلم أن يأخذ السامع إلى الجبل ويشير إليه ؟ أم يكفي أن يقول له لفظ « جبل » حتى يستحضر السامع في ذهنه صورة لهذا المسمى ؟

إذن . . . فلسفة تعليم الحق للأسماء لنا أوضحت عنا عبثا كبيرا من صعوبة التفاهم . ولولا ذلك لما استطعنا أن نتفاهم على شيء إلا إذا واجهنا الشيء وأشرنا إليه . فكلمة « جبل » وكلمة « صخر » وغيرها من الكلمات هي أسماء لمسميات . . . وعندما أتكلم على سبيل المثال عن أمريكا فإنني لن أخذ السامع إليها وأشير إليه قائلا « إن هذه هي أمريكا » ، لكن كلمة واحدة هي « أمريكا » تعطي السامع معنى للمسمى ، فتلحق الأحكام على مسمياتها . ومادامت المسألة هكذا فلا بد من وجود أسماء لمسميات ، هذه الأسماء علمها الله للإنسان حتى يتفاهم بها والإنسان أصله من آدم .

وكلمة « آدم » حينما تتكلم بها نجهدها في النحو مذكرة ، والمذكر يقابله المؤنث . وقد خلق الحق الأعلى : الذكورة والأنوثة ، لأن من تزواجهما سيخرج النسل . إذن فكان لا بد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد . فالذكر والأنثى ، هما بنو آدم ، ومنها ينشأ التكاثر ، لكن العجيب أن الله حين سمى آدم ونطقناه اسما مذكرا وسمى « حواء » ونطقناه اسما مؤنثا ، وجعل سبحانه الاسم الأصيل الذي وجد منه الخلق هو « نفس » . لقد قال الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ

مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلَيْكَ رَقِيبًا ﴿١١﴾

( سورة النساء )

لقد سمي الحق آدم بكلمة نفس ، وهي مؤنثة ، إذن فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير ، ولكن « التذكير » هو فقط علامة لتضع الأشياء في مسمياتها الحقيقية وكذلك التأنيث . إن الحق سبحانه يطلق على كل إنسان منا « نفس » وهي كلمة مؤنثة ، وحينها تكلم الحق سبحانه كلاما آخر عن الخلق قال :

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾

( سورة المجرات )

وكلمة « ناس » تعني مجموع الإنسان . وهكذا نعرف أن كلمة « إنسان » تطلق مرة على المذكر ، ومرة أخرى على المؤنث . إذن فالحق قد أورد مرة لفظا مذكرا ، ومرة أخرى أطلق لفظا مؤنثا ، وذلك حتى لا نقول : إن المذكر أفضل وأحسن من المؤنث ، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط ، ولذلك يؤكد لنا الحق سبحانه أنه قد وضع الأسماء لمسمياتها لتتعارف بها .

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ ﴾

( من الآية ١٢ سورة المجرات )

ومعنى « لتتعارف » أي أن يكون لكل منا اسم يعرف به عند الآخرين . وفي حياتنا العادية - والله المثل الأعلى - نجد رجلا عنده أولاد كثيرون ، لذلك يطلق على كل ابن اسما ليعرفه المجتمع به ، والعجيب في هذه الآية الكريمة : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . أننا نجد كلمة « شعوبا » مذكورة وكلمة « قبائل » مؤنثة . إذن فلا تمايز بالأحسن ، ولكن الكلمات هنا مسميات للتعارف . والحق الأعلى يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ ١٠٠ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُ خَسِيرٌ ١٠١ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ١٠٢ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ١٠٣ ﴾

( سورة العصر )

إذن فما وضع النساء اللاتي آمن ؟ إنهن يدخلن ضمن « الذين آمنوا » . ولماذا أدخل الله المؤنث في المذكر ؟ لأن المذكر هو الأصل ، والمؤنث جاء منه فرعاً . إذن فالمؤنث هو الذي يدخل مع المذكر في الأمور المشتركة في الجنس .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٠٤ ﴾

( سورة البقرة )

وهذا يعني أن « المؤنث » عليه أن يدخل في تكليف العبودية لله .

والمعنى العام يحدد أن المطلوب منه العبادة هو الإنسان كجنس . وبنوعية الذكر والانثى . وفي الأمر الخاص بالمرأة ، يحدد الله المرأة بذاتيتها . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ١٠٥ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ١٠٦ ﴾

( سورة الاحزاب )

لماذا ؟ إن المسألة هنا تشمل النوعين من الجنس الواحد : الرجل والمرأة ، زوج وزوجة ، فمثلاً نجد زوجاً يريد تطليق زوجته ، فيأتى الحق بتفصيل يوضح ذلك . وإذا كان هناك أمر خاص بالمرأة فالحق سبحانه وتعالى يحدد الأمر فيها هوذا قوله الحكيم :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْنَا بِكَ كَأَخَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُكَ فَلَا تَحْضَنْ أَلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ١٠٧ وَقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج



الْجَنَاحِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَ الزَّكَاةَ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٦٧﴾

( سورة الاحزاب )

إن كل ما جاء في الآية السابقة يحدد المهام بالنسبة لنساء النبي صلى الله عليه وسلم ، فالخطاب الموجه يحدد الأمر بدقة « لستن » و « اتقین » ، « لا تخضعن » ، و « قرن » ، و « لا تبرجن » . الحديث في هذه الآية الكريمة يتعلق بالمرأة لذلك يأتي لها بضميرها مؤنثا .

ولكن إذا جاء أمر يتعلق بالإنسان بوجه عام فإن الحق يأتي بالأمر شاملا للرجل والمرأة ويكون مذكرا ، ولذلك فعندما قالت النساء لماذا يكون الرجل أحسن من المرأة ، جاء قول الحق :

﴿ إِنَّ السَّالِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٦٨﴾

( سورة الاحزاب )

هكذا حسم الحق الأمر . قال سبحانه تأكيدا لذلك :

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ ﴿٦٩﴾

( سورة النساء )

إن الذكر والأنثى هنا يدخلان في وصف واحد هو : « وهو مؤمن » إذن فعندما يأتي الأمر في المعنى العام الذي يطلب من الرجل والمرأة فهو يضم المرأة في الرجل

لأنها مبنية على الستر والحجاب ، مطمورة فيه . داخله معه . . فإذا قال الحق سبحانه لمريم : « واركعي مع الراكعين » فالركوع ليس خاصا بالمرأة حتى يقول « مع الراكعات » ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة ، لذلك جاء الأمر لمريم بأن تركع مع الراكعين ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

وقد قلنا من قبل : إن كلمة « نبا » ، لا تأتي إلا في الخبر العظيم . والغيب هو ما غاب عن الحس . وهناك « غياب عن الحس » من الممكن أن يدركه مثلك . وهناك غياب عن الحس لا يدركه مثلك . وقلنا من قبل : إن حجب الغيب ثلاثة : مرة يكون الحجاب في الزمن ماضيا ، ومرة مستقبلا ، ومرة ثالثة يكون الحجاب في المكان . لماذا ؟ لأن ظروف الأحداث زمان ومكان . فإذا أنبأ منبىء بخبر مضى زمنه فهذا اختراق للحجاب الزمن الماضي ، فالحدث يكون قد وقع من سنوات وصار ماضيا ، وإذا أخبرني به الآن فهذا يعنى أنه اخترق حجاب الزمن الماضي ، وإذا قال لى عن أمر سيحدث بعد سنتين من الآن فهذا اختراق حجاب الزمن المستقبل ، وهب أنه أخبرك نبأ معاصر لزمانك الآن نقول : هنا يوجد حجاب المكان ، فعندما أكون معكم الآن لا أعرف ما الحادث في مدينة أخرى غير التى نحن بها ، ورغم أن الزمن واحد .

لذلك فعلينا أن نعترف ، أنه مرة يكون الحجاب حجاب زمان . . أى قد يكون الزمن ماضيا ، أو يكون الزمن مستقبلا ، وقد يكون حجاب مكان . فإذا كان الله نبيء رسول بهذا النبا ، فوسائل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ؛ لأن وسيلة العلم بالنبا أحد ثلاثة أمور : مشاهدة ؛ أو سماع ؛ أو قراءة .

والوسيلة الأولى وهي مشاهدة النبا يشترط أن يوجد في زمن هذا النبا ، والنبأ الذي أخبر الله به رسوله حدث من قبل بعث الرسول بمالا يقل عن ستة قرون . إذن فالمشاهدة كوسيلة علم بهذا النبا لا تصلح ؛ لأن النبا قد حدث في الماضي . قد يقول قائل : لعل الرسول صلى الله عليه وسلم قد قرأها ، أو سمعها ، وبإقرار خصوم محمد صلى الله عليه وسلم أنه ليس بقارىء ، فامتنعت هذه الوسيلة أيضا ، وبإقرار خصومة صلى الله عليه وسلم أنه لم يجلس إلى معلم فلم يستمع من معلم . إذن فلم يكن من سبيل لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا النبا إلا بالوحي ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَتَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ١١ ﴾

( سورة آل عمران )

وقلنا قديما إن الوحي ، هو إعلام بخفاء ؛ لأن الإعلام العادى هو أن يقول إنسان لإنسان خبرا ما ، أو يقرأ الإنسان الخبر ، أما الإعلام بخفاء فاسمه « وحي » . والوحي يقتضى « موحى » وهو الله ، « وموحى إليه » وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، « وموحى به » وهو القرآن الكريم .

وإذا نظرنا إلى الإعلام بخفاء لوجدنا له وسائل كثيرة . إن الله يوحى . لكن الموحى إليه يختلف . الله سبحانه وتعالى يوحى للأرض :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ١ وَأُتْرِجَتِ الْأَرْضُ أَتْرَاجًا ٢ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ٣ يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُهَا أَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ٤ ﴾

( سورة النازعة )

إنه إعلام بخفاء ، لأن أحدا منا لم يسمع الله وهو يوحى للأرض ، والحق سبحانه يوحى للنحل ، ويوحى للملائكة ، ويوحى للأنبياء ، وهناك وحى من غير الله ، كوحى الشياطين .

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوا ۚ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

( سورة الانعام )

وهناك وحي من البشر للبشر :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَبَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

( سورة الانعام )

لكن الوحي إذا أطلق ، ينصرف إلى الوحي من الله إلى من اختاره لرسالة ، وما عدا ذلك من أنواع الوحي يسمونه « وحيًا لغويًا » إنما الوحي الاصطلاحي وحي من الله لرسول ، إذن فوحي الله للأرض ليس وحيًا اصطلاحيا ، ووحي الله للنحل ليس وحيًا اصطلاحيا ، ووحي الله لأم موسى ليس وحيًا اصطلاحيا ، ووحي الله للحواريين ليس وحيًا اصطلاحيا ، إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَد بِأَنَّنَا

مُسْلِمُونَ ﴾

( سورة المائدة )

إن هذا لون من الوحي غير اصطلاحى ، بل هو وحي لغوى ، أى أعلمهم بخفاء . لكن الوحي الحقيقى أن يُعلم الله من اختاره لرسالة ، وهذا هو الوحي الذى جاء للرسول صلى الله عليه وسلم . يقول الحق : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

هكذا يخبرنا الحق أن الرسول تلقى هذا النبأ بالوحي ، فلم يقرأه ، ولم يشاهده ، ونحن نعرف أن خصوم رسول الله شهدوا أنه لم يقرأ ولم يستمع من معلم . وهكذا يخبرنا الحق أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن موجودا مع قوم مريم حين القوا أقلامهم .

والقلم يُطلق على القلم الذي نكتب به ، أو يطلق القلم على القداح التي كانوا يقرعون بها إذا اختلفوا على شيء . وكانوا عندما يختلفون يحضرون قداحا ، ليقرعوا من يظفر بالشئ المختلف عليه ونسميها نحن القرعة ، والقرعة يقومون بإجرائها لإخراج الهوى من قسمة شائعة بين أفراد ، وذلك حتى لا يميل الهوى إلى هذا أو إلى ذاك مفضلا له على الآخرين ، ولذلك فنحن أيضا نجرى القرعة فنضع لكل واحد ورقة .

إذن فلا هوى لأحد في إجراء قسمة عن طريق القرعة ، وبذلك نكون قد تركنا المسألة إلى قدر الله لأن الورقة لا هوى لها ، ولما اختلف قوم مريم على كفالتها ، واختصموا حول من الذي له الحق في أن يكفلها . هنا أرادوا أن يعزلوا الهوى عن هذه المسألة ، وأرادوا أن تكون قدرية ، ويكون القول فيها عن طريق قدح لا هوى له . وهذا القدح سيجرى علي وفق المقادير . أما « أقلامهم » فقد تكون هي القداح التي يقتسمون بها القرعة ، أو الأقلام التي كتبوا بها التوراة تبركا .

وتسأل البعض ، ما المقصود بقول الحق : « إذ يلقون أقلامهم » وأين تم إلقاء هذه الأقلام ؟ قيل : إنها أُلقيت في البحر وإذا أُلقيت الأقلام في البحر فمن الذي يتميز في ذلك ؟ قيل : إنه إذا ما أطل قلم بسنه إلى أعلى فصاحبه الفائز ، أو إذا غرقت كل الأقلام وطفا قلم واحد يكون صاحبه هو الفائز . ولا بد أنهم اتفقوا على علامة أو سمة ما تميز القلم الذي كان لصاحبه فضل كفالة مريم . « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

وكلمة « إذ يختصمون » تدل على حرارة المنافسة بين القوم شوقا إلى كفالة مريم ، لدرجة أن أمر كفالتها دخل في خصومة ، وحتى تنتهي الخصومة لجئوا إلى الاقتراع بالأقلام .

وننتقل الآن إلى مرحلة أخرى .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ  
بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (١٥)

لقد كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم هي قوله الحق على لسانها : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . وبذلك تعرفت على طلاقة قدرة الله ، والمرحلة الثانية هي سماعها للحكاية زكريا ويحيى وتأكيد الحق لها أنه اصطفاها على نساء العالمين ، وفي ذلك أمر يتعلق بالنساء ، وكان ذلك إيناساً من الحق لها ، وتدخل مريم إلى مرحلة جديدة .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾

( من الآية ٤٥ سورة آل عمران )

والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح ، وقد يتساءل البعض ؟ ماذا يقصد الحق بقوله : « كلمة منه » ؟ والإجابة هي : أن الحق سبحانه وتعالى يزاول سلطانه في ملكه بالكلمة ، لا بالعلاج ، فالحق سبحانه علمنا ذلك بقوله :

﴿ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

( من الآية ٤٧ سورة آل عمران )

وهذا القول هو مجرد إيضاح لنا وتقريب لأنه لا يوجد عندنا أقصر في الأمر من كلمة « كن » إن قدرته فاعرة بطلاقتها أن تسبق نطقنا بالكاف وهي الحرف الأول من « كن » ، ولكن الحق يوضح لنا بأقصر أمر على طريقة البشر ، إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً فإنه يقول له كن فيكون ، وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما تجعله ينشأ على الفور ، و« كن » هي مجرد إظهار الأمر للخلق ، هكذا نفهم معنى بشارة الحق لمريم بـ « كلمة منه » ويقول الحق : « اسمه المسيح عيسى ابن مريم » . إنها ثلاثة أسماء ، « المسيح » ، « عيسى » ، « ابن مريم » .

ما معنى المسيح ؟ قد يكون المسموح من الذنوب ، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المسيح المبارك . . . أما عيسى . فهذا هو الاسم ، والمسيح هو اللقب ، وابن مريم هي الكنية . . . ونحن نعرف أن العلم في اللغة العربية يأتي على ثلاثة أنواع : اسم أو لقب أو كنية . وابن مالك يقول : « واسما أتى وكنية ولقباً » إن العلم على الشخص له ثلاث حالات . إما اسم وهو ما يطلق على المسمى أولاً . والاسم الثاني الذي أطلقناه عليه . إن كان يشعر برفعة صاحبه أو بضعفه تسميه لقباً . أما ما كان فيه أب أو أم فيقال له : « كنية » وجاءت الثلاثة في عيسى « اسمه المسيح عيسى بن مريم » .

« المسيح » هو اللقب ، « عيسى » هو الاسم « وه ابن مريم » هو الكنية . وعيسى عيسى باللقب والاسم والكنية ستكون لها حكمة تظهر لنا من بعد ذلك . ويقول عنه الحق : « وجيها في الدنيا والآخرة » .

ونحن في حياتنا نستعمل كلمة فلان وجيه من وجهاء القوم ، والوجيه هو الذي لا يرده مسئول للكرامة في وجهه ، ونحن نسمع في حياتنا اليومية . فلان لا يصح أن نسب له الخجل برفض أى طلب له . وكما يقول العامة : ( هو الوجه ده حد يكسفه ) إذن فالوجيه هو الذي يأخذ سمة وتميزاً بحيث يستحي الناس أن يردوه إذا كان طالباً ، وهناك إنسان آخر قد يسألك أو يسأل الناس ، فلا يبالي به أحد ، إنه يريق ماء وجهه وتنتهي المسألة .

إذن فقله الحق في وصف عيسى بن مريم : « وجيها في الدنيا والآخرة » أى أن أحداً لا يرده إن سأله . لكرم وجهه ، فالإنسان يخجل أن يرد صاحب مثل هذه الكرامة ، لذلك نجد أن السائل قد يقول : أعطني لوجه الله . أى أنه يقول لك : لا تنظر إلى وجهي ، ولكن انظر إلى وجه الله ، لأن الله هو الذي جاء به إلى الدنيا وخلقني ، ومادام قد جاء به الخالق إلى الدنيا فهو المتكفل برزقي ، فأنت حينها تعين على رزق من استدعاه الله إلى الوجود تكون قد أعطيت لوجه الله ، إنه الخالق الذي يرزق كل مخلوق له حتى الكافر .

إذن فعطاء الإنسان للسائل ليس عطاء لوجه السائل ، ولكنه عطاء لوجه الله . والحق يقول عن عيسى بن مريم : « وجيها في الدنيا والآخرة » وعرفنا كيف يكون

الإنسان وجيها في الدنيا ، فلماذا نص الحق على وجاهة عيسى في الآخرة ؟ وخصوصا أن كل وجوه المؤمنين ستكون ناضرة ، لقد نص الحق على وجاهة عيسى في الآخرة لأنه سوف يُسأل سؤالا يتعلق بالقمة الإيمانية :

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ١١٦﴾

( سورة المائدة )

إياك أن تظن أن هذا السؤال هو تقرير من الله لعيسى بن مريم . لا . إن الحق يريد أن يقرع من قالوا هذا الكلام . ولذلك يقول عنه الحق :

﴿وَأَنْتُمْ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُمْ وَأَمُوتُمْ وَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ تَفْعَلُونَ ١١٧﴾

( سورة مريم )

لأن ميلاده كان له ضجة ، وبعض بني إسرائيل اتهموا والعياذ بالله أمه مريم البتول . « يوم الممات » ، كلنا نعرف حكاية الصلب وكان لها ضجة . إنه لم يصلب ولكن صلب من خانه ووشى به فألقى الله شبه عيسى عليه فقتلوه . ويوم البعث حيا يوم يسأله الله :

﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾

( من الآية ١١٦ سورة المائدة )

إنه عيسى ابن مريم الذي أنعم الله عليه بالسلام في هذه المواقف الثلاثة . ويتابع الحق فيصف عيسى ابن مريم بقوله : « وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » إن كلمة « من المقربين » تدل على الحق في عظمته ، فحين يفتن بعض البشر في واحد منهم قد يغضب بعضهم من الشخص الذي فتن الآخرون فيه مع أنه ليس له ذنب في ذلك .

والحق سبحانه يعلمنا أن للمغالي جزاءه ولكن المغالي فيه تنجيهِ رحمة الغفار .



إن الحق يعلمنا أن فتنة بعض الناس بعيسى ابن مريم عليه السلام لا تؤثر في مكانة عيسى عليه السلام عند الحق ، إنه مقرب من الله ، ولا تؤثر فتنة الآخرين في مكانته عند الله ، ويقول الحق .

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا

وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦﴾

الكلام : معناه اللفظ الذي ينقل فكر الناطق إلى السامع ، وقول الحق : « يكلم الناس في المهد » ، معناه أن المواجه لعيسى عليه السلام في المهد هم الناس . و « المهد » هو ما أعد كفراش للوليد . ولقد أورد الحق « المهد وكهلا » رمزية لشيء ، وهي أن عيسى ابن مريم من الأغيار ، يطرأ عليه مرة أن يكون في المهد ، ويطرأ عليه مرة أخرى أن يكون كهلا ، ومادام في عالم الأغيار فلا يصح أن يفتن به أحد ليقول إنه « إله » أو « ابن إله » .

ونفهم أيضا من « ويكلم الناس في المهد » سر وجود آية المعجزة التي وهبها له الله وهو طفل في المهد . لأن المسألة تعلقت بعرض أمه وكرامتها وعفتها ، فكان من الواجب أن تأتي آية لتمحو عجبا من الناس حين يرونها تلد بدون أب لهذا الوليد أو زواج لها . وهذه المسألة لم نجد لها وجودا . مع أنها مسألة كان يجب أن يقال لأنهم يمجدون نبهم ، وكان من الواجب ألا يغفلوا عن هذه المعجبة ، إن كلام طفل في المهد لما كان أمرا عجبيا كان لا بد أنه سيكون محل حفظ وتداول بين الناس ، ولن يكفى الناس برواية واقعة كلامه في المهد فقط ، بل سيحفظون ما قاله ، ويرددون قوله .

والكلمة التي قالها عيسى عليه السلام في المهد لا تسعف من يصف عيسى عليه السلام بوصف يناقض بشرته ، لأن الكلمة التي نطق بها أول ما نطق : إن عبدالله ، فأخفوا هم هذه المسألة كلها لأن هذه الكلمة تنقض القضية التي يريدون

أن يضعوا فيها عيسى عليه السلام ، إن الحق يقول : « ويكلم الناس في المهد وكهلا » .

ونعرف أن الكلام في المهد أى وهو طفل وه كهلا ، أى بعد الثلاثين من العمر ، أى في العقد الرابع . والبعض قد قال : إن الكهولة . . بعد الأربعين من العمر . وهو قد حدث له في رواياتهم حكاية الصلب قبل أن يكون كهلا ، فإذا كان قد تكلم في المهد فيبقى أن يتكلم وهو كهل ، وقالوا إن حادثة الصلب أو عدم الصلب ، أو الاختفاء عن حس البشر قد حدثت قبل أن يكون كهلا ، إذن فلا بد أن يأتى وقت يتكلم فيه عيسى بن مريم عندما يصير كهلا ، وأيضا قوله الحق : « ويكلم الناس في المهد وكهلا » أى أنه تكلم في المهد طفلا ويتكلم كهلا ، أى ناضج النكوين ، وبذلك نعرف أن عيسى بن مريم فيه أغيار وفيه أحوال ، فإذا كنتم تقولون إنه إله فهل الألوهية في المهد هي الألوهية في الكهولة ؟

إن كانت الألوهية في المهد فقط فهي ناقصة لأنه لم يستمر في المهد ، وحدثت له أغيار ، ومادام قد حدثت له أغيار فهو محدث ، ومادام محدثا فلا يكون إلها ، وبعد ذلك يقول الحق عن عيسى ابن مريم : « ومن الصالحين » ما حكايتها ؟

إن العجبة التي قال عنها الله : إنه يكلم الناس في المهد لم تكن باختياره ، وكلامه وهو كهل سيكون بالوحي ، أى ليس له اختيار فيه أيضا ، « ومن الصالحين » مقصود بها عمله ، أى الحركة السلوكية . لماذا ؟ لأنه لا يكفى أن يكون مبلغا ، ولا يكفى أن يكون حامل آية ، بل لابد أن يؤدي السلوك الإيمان .

ويقول الحق على لسان مريم البتول :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾

قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا

يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧﴾

ونريد أن نفهم وقفة ذهنية تدبرية عند قولها : « قالت رب أنى يكون لى ولد ولم  
يمسنى بشر » فلو أنها سكنت عند قولها : « أنى يكون لى ولد » لكان أمرا معقولا فى  
تساؤلها ، ولكن إضافتها « ولم يمسنى بشر » تثير سؤالا ، من أين أتت بهذا القول  
« ولم يمسنى بشر » ؟ هل قال لها أحد : إنك ستلدن ولدا من غير أب ؟ إن الملائكة  
لم تخبرها بذلك ، لذلك انصرف ذهنها إلى مسألة المس . إنها فطرة وفطنة المهيأة  
والمعدة للتلقى عن الله ، عندما قال لها : « المسيح عيسى ابن مريم » .

قالت لنفسها : إن نسبته بأمر الله هى لى ، فلا أب له ، لقد قال الحق : إنه  
« ابن مريم » ولذلك جاء قولها : « ولم يمسنى بشر » ذلك أنه لا يمكن أن ينسب  
الطفل للأم مع وجود الأب . هكذا ترى فطنة التلقى عن الله فى مريم البتول . لقد  
مر بها خوف عندما عرفت أن عيسى منسوب إليها وقالت لنفسها : إن الحمل بعيسى  
لن يكون بوساطة أب ، وكيف يكون الحمل دون أن يمسنى بشر . وقال الخالق  
الأكرم : « كذلك » أى لن يمك بشر ، ولم يقل لها : لقد نسبناه لك لأنك مندورة  
لخدمة البيت ، ولكن الحق قال : « كذلك » تأكيد لما فهمته عن إنجاب عيسى دون  
أن يمسنها بشر . وتتجلى طلاقة القدرة فى قوله سبحانه : « الله يخلق ما يشاء » .

إنها طلاقة القدرة . وطلاقة القدرة فى الإنسال أو الإنجاب أو فى عدم التكثير  
بالنسبة للإنسان ، وطلاقة القدرة لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، ولو كانت  
طلاقة القدرة متوقفة على إيجاد ذكورة وأنوثة فكيف خلق آدم أول الخلق ؟ إن طلاقة  
القدرة فى الخلق لا تتوقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، إنه الحق الأعلى القادر على أن  
يخلق دون ذكورة أو أنوثة ، كخلقه لآدم عليه السلام ، ويخلق الحق سبحانه بواحد  
منهما ، كخلقه سبحانه لحواء وخلق عيسى عليه السلام ، ويخلق الخالق الأعلى  
بالذكورة والأنوثة ، وهذه تتضح فى خلق جمهرة الناس ، ولا تظنوا أن باجتماع  
الذكورة والأنوثة يمكن أن يحقق الخلق ، فقد توجد الذكورة والأنوثة ولا يوجد  
إنجاب ، ها هوذا القول الحق :

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْشَأَ مِنْ نَسَائِهِمْ بَنِينَ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا يَشْعُرُونَ﴾  
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْشَأَ مِنْ نَسَائِهِمْ بَنِينَ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا يَشْعُرُونَ﴾  
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْشَأَ مِنْ نَسَائِهِمْ بَنِينَ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا يَشْعُرُونَ﴾  
﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ أَنْشَأَ مِنْ نَسَائِهِمْ بَنِينَ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِمَّا يَشْعُرُونَ﴾

إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿١٨﴾

( سورة التوبة )

هذه هي إرادة الحق ، إذن فلا تقل : إن اكتمال عنصرى الذكورة والأنوثة هو الذى يحدث الخلق ، لأن الخلق يحدث بإرادة الحق . « كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » . فأنتم أيها المحدثون تفعلون بالأسباب . لكن الذى خلقكم وخلق الأسباب لكم هو الذى بيده أن يوجد بلا أسباب ، لأنه أنشأ العالم أول ما أنشأ بدون أسباب .

ويقول الحق سبحانه عن عيسى عليه السلام :

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ  
وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ ﴿١٨﴾

وساعة نسمع « يعلمه الكتاب » فنحن نفهم أن المقصود بها الكتاب المنزل ، ولكن مادام الحق قد أتبع ذلك بقوله : « والتوراة والإنجيل » فلا بد لنا أن نسأل . إذن ما المقصود بالكتاب ؟ هل كان المقصود بذلك الكتاب الكتب المتقدمة ، كالزبور ، والصحف الأولى ، كصحف إبراهيم عليه السلام ؟ إن ذلك قد يكون صحيحا ، ومعنى « يعلمه الكتاب » أن الحق قد علمه ما نزل قبله من زبور داود ، ومن صحف إبراهيم ، وبعد ذلك توراة موسى الذى جاء عيسى مكملها .

وبعض العلماء قد قال : أثر عن عيسى عليه السلام أن تسعة أعشار جمال الخط كان في يده . وبذلك يمكن أن نفهم « يعلمه الكتاب » أى القدرة على الكتابة . وما المقصود بقوله : إن عيسى عليه السلام تلقى عن الله بالإضافة إلى « يعلمه الكتاب » أنه تعلم أيضا « الحكمة والتوراة والإنجيل » وكلمة الحكمة عادة تأتي بعد

كتاب منزل ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا بُيِّنَ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (٤١)

( الآية ٢٤ من سورة الاحزاب )

كتاب الله المقصود هنا هو القرآن الكريم ، والحكمة هي كلام الرسول عليه الصلاة والسلام . فالرسول له كلام يتلقاه ويبلغه ، ويعطيه الحق أيضا أن يقول الحكمة ، أما التوراة التي علمها الله لعيسى عليه السلام فقد علمها له الله ، لأننا كما نعلم أن مهمة عيسى عليه السلام جاءت لتكمل التوراة ، ويكمل ما انقصه اليهود من التوراة ، فالتوراة أصل من أصول التشريع لعصره والمجتمع المبعوث إليه فهو بالنص القرآني :

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ  
مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُم مِّنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ  
الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ  
الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ  
وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ  
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُم إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤١)

إن كلمة رسول تحتاج إلى علامة ، فليس لأى أحد أن يقول : « أنا رسول من عند الله » بل لابد أن يقدم بين يدي دعواه معجزة تثبت أنه رسول من الله . والآية كما نعرف هي الأمر العجيب الذي خرج عن القوانين والنواميس لتثبت صدق

الرسول في البلاغ ، ومادامت المعجزة خارجة عن نواحيس البشر ، فالمخالف نقول له : أنت حين تكذب أن حامل المعجزة رسول ، فكيف تعلل أنه جاء بمعجزة خرجت عن الناموس ؟ إذن ، فالمعجزة تلزم المنكر الذي يتحدى وتفحمة ، لأنه لا يستطيع أن يأتي بمثلها ، ولذلك قلنا : إن من لزوم التحدى ألا يتحدى الله حين يعطى رسولا بمعجزة إلا بشيء ينبغ فيه القوم المبعوث إليهم ذلك الرسول ، لأن الحق لو جاء لهم بشيء لم يدرسوه ولم يعرفوه ، فالرد منهم يكون للرسول بقولهم : إن هذا أمر لم نروض أنفسنا ولم ندربها عليه ، ولو روضنا أنفسنا عليه لاستطعنا أن نفعل مثله ، وأنت قد جئت لنا بشيء لم نعود أنفسنا عليه ، لذلك يرسل الحق الرسول - أى رسول - بمعجزة من جنس ما ينبغ فيه القوم المرسل إليهم . . مثال ذلك ، موسى عليه السلام ، أرسله الله إلى قوم كانوا نابغين في السحر ، فكانت معجزته تقرب من السحر .

وإياك أن تقول إن معجزة موسى كانت سحرا ؛ لأن موسى عليه السلام لم يتزل بسحر ولكن بمعجزة . كانوا هم يخيلون للناس أشياء ليست واقعا. لذلك نجد القرآن يعطيك الفارق بين ما يكون عليه ما يأتي به الله على يد رسول من الرسل من معجزة وسحر القوم ، فيقول القرآن :

﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمْوَسَّى ۚ قَالَ مِى عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَهَآءِ عَلَىٰ غَنَمِى ۖ وَلِىَ فِيهَا مَقَآرِبُ أُخْرَى ۚ قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَّى ۚ فَالْقَهَا فَمَا ذَا مِى حَيَّةٌ تَسْعَى ۚ ﴾ (١٧)

( سورة طه )

كان الحق يقول لموسى عليه السلام : إن حدود علمك بما فى يدك أنها عصا تتوكأ عليها وتهش بها على غنمك ، أما علمى أنا فهو علم آخر . لذلك يأمره أن يلقى العصا ، فلما ألقاها وجدها حية تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة . . إن « أوجس » فى نفسه خيفة ، هى التى فرقت بين سحر القوم ومعجزة موسى عليه السلام .

لماذا ؟ لأن الساحر يلقى العصا فيراها الناس حية وهو يراها عصا لأن الساحر لو رآها حية لخاف مثل الناس ، لقد خاف موسى عليه السلام لأنها تغيرت وصارت حية فعلا. ولذلك قال له الله :

## ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ (٢١)

( سورة طه )

فلو كانت من جنس السحر لما أوجس في نفسه خيفة لأنه سوف يراها عصا وإن رآها غيره حية ، وهذا هو الفارق . وقوم عيسى أيضا كانوا مشهورين بالحكمة والطب ، إذن فستجىء الآيات من جنس الحكمة والطب ، ثم تتسامى المعجزة ، لأن الذى يطبب جسما ويداويه لا يستطيع أن يعيد الميت إلى الحياة ، لأن الإنسان إذا ما مات فقد خرج الميت عن دائرة علاج الطبيب . ولذلك رقى الله آية عيسى ، إنه يشفى المرضى ، ويحيى الموتى أيضا ، وهذا ترقى في الإعجاز . قال عيسى : « أنى قد جئتكم بأية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » . إن كلمة « أخلق » تحتاج إلى وقفة وكذلك « الطين » وهى الهيئة « وه الطير » .

« أخلق » مأخوذة من الخلق ، والخلق هو إيجاد شيء على تقدير ، فأنت تتخيله وتقدره في ذهنك أولا ثم تأتى به على هذه الحالة . فإن كان قد أتى على غير تقديرك فليس خلقا ، إنما هو شيء جزائى جاء على غير علم وتقدير ، وإن من يأخذ قطعة من الطين ويصنع منها أى شيء فهذا ليس خلقا . إن الخلق هو المطلوب على تقدير . مثال ذلك الكوب أو الكأس البلور الذى نشرب فيه حينما صنعه الصانع . هل كانت هناك شجرة تخرج أكوابا ، أم أن الصانع أخذ الرمال وصهرها ووضع عليها مواد كيميائية لتخليها من الشوائب ، ثم قام بتشكيلها على هيئة الكوب ؟

إذن فالكوب لم تكن موجودة ، ووجدت على تقدير أن تكون شكل الكوب ، فهى خلق أوجد على تقدير . فهاذا عن خلق الله ؟ إنه يخلق على تقدير ، وفرق بين صنعة البشر حين يخلق ، وبين صنعة الله حين يخلق . إن صنعة البشر حين تخلق ، إنما تخلق من موجود ، وحين يخلق الله فهو يخلق من معدوم ، وهذا هو أول فرق ، إنه سبحانه يخلق من عدم ، أما الإنسان فيضع الأشياء بنظام يحدث فيها تفاعلات أرادها الله فتوجد ، فلا يوجد من يستطيع - على سبيل المثال - من يصنع كوبا من غير المادة التى خلقها الله .

إن هذا أول فرق بين خلق الله ، وخلق الإنسان ، فخلق الله يكون من عدم ،

وخلق الإنسان من موجود ، وإن كان الإثنان على تقدير . وأيضا يعطى الله لخلقه سرا لا يستطيع البشر إعطاءه لصنعتة ، فالله يعطيه سر الحياة ، والحياة فيها نمو ، وفيها تكاثر ، لكن البشر يصنعون الكوب مثلا ، فتظل كوبا ، ولا يوجد تكاثر بين كوب ذكر وكوب أنثى .

إن الإنسان يوجد صنعتة فتظل على حالتها ، ولا يستطيع أن يصنعها صغيرة ثم تكبر ، لكن صنعة الله هي صنعة القادر الذى يهب الحياة ، فتكبر مخلوقاته وتتطور وتمر بمراحل ، وتعطى مثلها . إذن ، فالخلق إيجاد على تقدير ، هذا الإيجاد يوجد معدوما ، والمعدوم موجوده مادته ، هذا فى خلق الإنسان ، أما فى خلق الله ، فالله يخلق من معدوم لا توجد له مادة . والله يخلق من الشئ ذكرا وأنثى ويعطيها القدرة على التناسل ، فهذا قول الحق سبحانه :

﴿ وَنَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝١٣﴾

﴿ ١٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا

فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٣﴾

( سورة المؤمنون )

ولم يمنع الحق خلقه أن يخلقوا أشياء ، ولكن خلق الله أحسن ، لماذا ؟ لأنه يخلق من عدم ، والبشر يخلقون من موجود . وهو الحق يخلق ويوجد فى مخلوقاته حياة وتكاثرا ، والبشر يخلقون بلا نمو ولا حياة ، إنه الحق أحسن الخالقين ، إذن قول عيسى عليه السلام : « أنخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » .

يعنى أن كل إنسان يستطيع أن يصنع تمثالا كهيئة الطير . لكن الله أوجد معجزة عيسى وجعله يخلق من الطين كهيئة الطير ، وينفخ فيه ، وقد تسأل ، فى ماذا ينفخ ؟ أينفخ فى الطير ، أم فى الطين ، أم فى الهيئة ؟ إن قلنا : إن النفخ فى الطين بعد ما صار طيرا . يكون النفخ فى الطين ، كالنفخ فى الطير ، وجاءت فى آية أخرى أنها نفخ فى الهيئة .



﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَتِكَ إِذْ أُتِدْتُكَ بِرُوحِ  
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ  
وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا  
بِإِذْنِي ﴾

( سورة المائدة )

إن « النفخ فيه » ، تكون للطين أو الطير . و« النفخ فيها » تكون للمهيئة ، وهناك  
آية بالنسبة للسيدة مريم البتول :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ  
رَبِّهَا وَكُنِيَءٌ وَكَانَتْ مِنَ الْقَتِينِ ٥١ ﴾

( سورة التحريم )

إن النفخ هنا في الفرج ، وآية أخرى بالنسبة للسيدة مريم البتول :

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا  
آيَةً لِلْعَالَمِينَ ٥٢ ﴾

( سورة الانبياء )

مرة يقول : « نفخنا فيه » أى في الفرج ، ومرة يقول : « نفخنا فيها » أى فيها  
هى ، والقولان متساويان ، وهنا في هذه الآية ، نجد أن الإعجاز ليس في أن عيسى  
صنع من الطين كهيئة الطير ، لأن أى إنسان يستطيع أن يفعل ذلك ، فكانه حينما  
قال : « أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله » .

كانه صار طيرا من النفخة ، أما عن أمر صناعة طير من الطين فأى إنسان يمكن أن  
يفعلها ، لكن عيسى عليه السلام يفعل ذلك بإذن الله ، ولا بد أن يحىء الأمر

مختلفا ، و « بإذن الله » هنا تضم صناعة الطير ، والنفع فيه .

إن عيسى لم يكن ليحتريء ويصنع ذلك كله إلا بإذن الله ، وجاءت كلمة « بإذن الله » من عيسى وعلى لسانه كاعتراف منه بأن ذلك ليس من صناعته ، وكأنه يقول لقومه : إن كنتم فتتم بهذه . فكان يجب أن تفتنوا إبراهيم من باب أولى ، حينما قطع الطير وجعل على كل جبل جزءا منهن ثم دعاهن .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَبْطِئَنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥٠﴾ ﴾

( سورة البقرة )

إذن كان من الأولى الفتنه بما أعطاه الله إبراهيم عليه السلام من معجزة ، فإن كانت الفتنه من ناحية الإحياء . لكان ما صنعه إبراهيم عليه السلام أولى بها ، وإن كانت الفتنه من ناحية أنه جاء إلى الدنيا بدون أب لكانت الفتنه أكثر في خلق آدم ، لأن الله خلقه بلا أب أو أم . إذن فالفتنه لا أصل لها ، ولا منطق يبررها . ويتابع الحق سبحانه على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام « وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله » .

لماذا تعرض عيسى ابن مريم لهذين المرضين ؟ لأنها كانت الأمراض المستعصية في ذلك العصر ، والأكمه هو الذي ولد أعمى ، أى لم يحدث له العمى من بعد ميلاده . والبرص ، هو ابيضاض بقعة في الجلد وإن كان صاحبها آدم أو أسود . وبعد ذلك تتشرب بقع متناثرة في كافة الجسم بلون أبيض ، مما يدل على أن لون الجلد له كيمياويات في الجسم تغذى هذا اللون ، فإن مُنعت الكيمياويات في الجسم صار أبرص .

وتبين صدق هذا في أن العلم المعاصر قد عرف أن الملونات للجلد هي غدد خاصة توجد في الجسم ، واسمها الغدد الملونة ، فإن امتنعت الغدد الملونة من إعطاء الألوان ، جاء البرص والعمى بالله . وهو مرض صعب ، لم يكن باستطاعتهم أن

يدأوه ، فعندما جاء عيسى ابن مريم أعطاه الله الآية من جنس ما نبغوا فيه وهو الطب . وجاء لهم بآية هي إبراء ما كانوا عاجزين عنه .

وبعض القوم الذين يحاولون أن يقربوا بين المعجزة وعقول الناس . يقولون : إن هذه المعجزات إنما هي سبق زمني ، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان إلى أن يكتشف علاجاً لهذه الأمراض ، لكن لهؤلاء نقول : لا ، إن المعجزة تظل معجزة إلى أن تقوم الساعة . كيف ؟

لنأخذ مثلاً من طب العيون ، عندما قالوا إن هناك علاجاً للعمى . « سنقوم بتركيب قرنية » أو أن نأخذ مثلاً من طب الجلد لو قالوا : « سندأوى البرص » واكتشفوا ألواناً مختلفة من العلاج تحاول أن تجعل الجلد على لون واحد ، لكنه لا يستعيد لونه الأصلي . ولذلك قال البعض : « إن معجزة عيسى كانت مجرد سبق زمني » . لهؤلاء نقول : لا ، لنأخذ كل أمر بأدواته .

إن عيسى بن مريم عليه السلام كان يرىء بالكلمة والدعوة ومهما تقدم العلم فلن يستطيع العلم أن يرىء المرض بالكلمة والدعوة ، إنما سيأخذون أشياء ويقوم بتحليل تلك الأشياء ، وخطط الكيماويات وإجراء الجراحات ، لذلك تظل المعجزة التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة ؛ لأنه كان يرىء بالكلمة والدعوة .

ويضيف الحق على لسان عيسى ابن مريم : « وأحيى الموتى بإذن الله وأنبتكم بما تأكلون » . ومسألة إحياء الموتى لم يأخذها عيسى هكذا على إطلاقها فيحى كل ميت ، إنما قام بها وفي وحدات تثبت صدق الآية ولا نعمم مدلول المعجزة كسام بن نوح مثلاً ، وه عازر « إنها أشياء لمجرد إثبات المعجزة ، ولكنها ليست مطلقة » ذلك أنه نبي ورسول من الله فلا يمكن أن يصادم قدر الله في الأجل . ولذلك قالوا : إنه عندما أحيى سام بن نوح ، أحياه حتى نطق بكلمة ، ثم عاد سام إلى الموت من بعد ذلك ويضيف الحق على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾

( من الآية ٤٩ سورة آل عمران )

لماذا ؟ لأن كل إنسان يعلم جزئية من أحداثه الحياتية الخاصة ، يكون هذا العلم

خاصا به ، وكل إنسان - مثلا - يأكل طعامه بألوان مختلفة يعرفها هو ، ولا يعرفها الآخرون . إن الأمر الأول كخلق الطير ، وإبراء الأكهم والأبرص وإحياء الموتى ، هي أمور عامة للكل . أما الإنبياء بألوان الطعام التي يأكلها كل إنسان فهي خاصة لأحداث ، لأن كل واحد يأكل أكلا معينا فيقول له عيسى ابن مريم ماذا أكل . وليس من المعقول أن يكون عيسى ابن مريم قد دخل كل بيت أو جاءت له أخبار عن كل بيت .

وكذلك أمر الادخار . وذلك حتى تتفى شبهة أنه كان يشم رائحة الإنسان فيعرف لون الطعام الذي يأكله ، لذلك كان الإخبار بما يدخر كل واحد في بيته ، فهذه مسألة توضح بالجللاء التام أنها آية من إخبار من يعلم مغيبات الأمور .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ إِنَّا كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

( من الآية ٤٩ سورة آل عمران )

إن هذه آية عجيبة تثبت أن هناك قوة أعلى قاهرة هي قوة الله الحق هي التي تعطيه هذه الأشياء ، فإن كنتم مؤمنين بوجود قوة أعلى فعلكم تصديق الرسالة التي جاء بها عيسى ابن مريم ، لأن معنى ( رسول ) أنه مخلوق اصطفاه الله وأرسله سبحانه إلى الأذن منه ، فالذي يؤمن بالآية هو الذي يؤمن بوجود إله أعلى قادر ومن يريد أن يتب - مع إيمانه بالله - من الآية التي بعثها الله مع عيسى ابن مريم ، فالآية واضحة . أما غير المؤمنين بالله فلن تفيده الآية في الإيمان . ويقول الحق متابعا على لسان عيسى ابن مريم :

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝٥﴾

وقد قلنا : إن « مصدقا » تعني أن ما جاء به عيسى بن مريم مطابق لما جاء في

التوراة . وقلنا : إن « ما بين يدي » الإنسان هو الذي سبقه ، أي الذي جاء من قبله وصار أمامه . ومادام عيسى ابن مريم جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة في زمانه ، وكانت التوراة موجودة ، فلماذا جاءت رسالته إذن ؟

لكن القول الحق يتضمن هذا المعنى : إن عيسى سيأتى بأحكام جديدة ، ويتضح ذلك في قوله الحق سبحانه على لسان عبده عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم » إذن فليس المهم هو التصديق فقط ، ذلك أن عيسى جاء ليحل بعضا من الذي حرّمه التوراة .

وقد يقول قائل : إذا كانت الكتب السماوية تأتي مصدقة بعضها بعضا فما فائدة توالي نزول الكتب السماوية ؟ والإجابة هي : أن فائدة الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكر من سها عن الكتب السابقة ، هذا في المرتبة الأولى ، وثانيا : تأتي الكتب السماوية بأشياء ، وأحكام تناسب التوقيعات الزمنية التي تنزل فيها هذه الكتب . هذه هي فوائد الكتب السماوية التي نوات نزولا من الحق على رسله ، إنها تذكر من عقل وتعديل في بعض الأحكام .

ومن الطبيعي أننا جميعا نفهم أن العقائد لا تبديل فيها ، وكذلك الأخبار والقصص ، لكن التبديل يشمل بعضا من الأحكام . ولهذا جاء القول الحق على لسان عبده عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم » ونحن نعرف أن القوم الذي أرسل الله عيسى ابن مريم لهم هم بنو إسرائيل ، والتحريم والتحليل يكون بحكمة من الله .

إن الله حكمة فيما يحلل وحكمة فيما يحرم ، إنما إياك أن تفهم أن كل شيء يحرمه الله يكون ضارا ؛ قد يحرم الله أشياء لتأديب الخلق ، فيأمر بالتحريم ، ولا يصح أن تسأل عن الضرر فيها ، وقد يعيش المؤمن ذنياه ولم يثبت له ضرر بعض ما حرم الله . فإن تسأل أحد : لماذا حرم الله ذلك ؟ تقول له : من الذي قال لك إن الله حين يحرم فهو يحرم الشيء الضار فقط ؟ إنه الحق سبحانه يحرم الضار ، ويحرم بعضا مما هو غير ضار ، ولذلك قال الحق :

﴿ فَيُظْلَمُ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّيقِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ ﴾ (١١٠)

( سورة النساء )

وتفصيل ذلك في آية أخرى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُلْفُرٍ ۖ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبِقُورِهِمْ ۚ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۖ ﴾ (١١١)

( سورة الانعام )

إذن التحريم ليس ضروريا أن يكون لما فيه الضرر ، ولهذا جاء قول الحق على لسان عبده ورسوله إلى بنى إسرائيل عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم » لقد جاء عيسى ابن مريم ليحل لهم بأمر من الله ما كان قد حرمه الله عليهم من قبل .

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عبده ورسوله عيسى ابن مريم : « وجئتكم بأية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون » ومجموعة هذه الأوامر التى تقدمت هي آية أى شيء عجيب ، بلغت القوم الذين أرسل الله عيسى إليهم ، إنه كرسول وكبشر لا يستطيع أن يحيى بالآية المعجزة بمفرده بل لابد أن يكون مبعوثا من الله . فيجب أن يلتفتوا إلى أن الله الذى أرسله ، وله طلاقة القدرة فى خرق النواميس هو سبحانه الذى أجرى على يدي عيسى هذه الأمور ، ويأمرهم عيسى ابن مريم بتقوى الله نتيجة لذلك ، ويدعو القوم لطاعته فى تطبيق منهج الله .

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم :

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

إذن اجتمع الرسول والمرسل إليهم في أنهم جميعا مريدون إلى إله واحد ، هو الذى يتولى تربيتهم والتربية تقتضى إيجادا من عدم ، وتقتضى إمدادا من عدم ، وتقتضى رعاية قىومية ، وعيسى ابن مريم يقر بعبوديته لله وكأنه يقول : وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيدا عليكم ، ولكن أنا وأنتم مشتركون فى العبودية لله . « إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

ومعنى « هذا صراط مستقيم » أى أنه صراط غير ملتوي لأن الطريق إذ إنتهى ؛ انحرف عن الهدف ، وحتى تعرف أن الكل يسير على طريق مستقيم واحد ، فلتعلم أنك إذا نظرت على سبيل المثال إلى الدائرة ، فسجد أن لها محيطا ، ولها مركزا ، ومركز الدائرة هو الذى نضع فيه « سن الفرجار » حتى نرسم الدائرة ، وبعد ذلك تصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار ، وكلما بعدنا عن المركز زاد الفرق ، وكلما تقرب من المركز تتلاشى الفروق .

فإذا ما كان الخلق جميعا يلتقون عند المركز الواحد فهذا يعنى الانغلاق ، لكن الاختلاف يحدث بين البشر كلما بعدوا عن المركز ولذلك لا تجد للناس أهواء ولا نجد الناس شيئا إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم . والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد ، ومادامت عبوديته للإله واحد ففى هذا جمع للناس بلا هوى أو تفرق .

إنه حتى فى الأمر الحسى وهو الدائرة المرسومة ، نجد أن الأقطار المأخوذة من المحيط ونمر بمركز الدائرة ، سنجد أنه فى مسافة ما قبل المركز تتداخل الأقطار إلى أن تصبح عند نقطة المركز شيئا واحدا لا انفصال بينها أبدا . وهكذا الناس إذا التقوا جميعا عند مركز عبوديتهم للإله الواحد ، فإذا ما اختلفوا ، بعدوا عن العبودية للإله الواحد بمقدار ذلك الاختلاف .

ولذلك دعا المسيح عيسى ابن مريم الناس لعبادة الله « إن الله ربي وربكم فاعبدوه

هذا صراط مستقيم ، ذلك هو منطق عيسى . كان منطق الأول حينما كان في المهد

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ ﴾

( سورة مريم )

إن قضية عبوديته لله قد حُسمت من البداية ، وهي قضية القمة ، إنه عبدالله والقضية الثانية هي قضية الرسالة ونقل مراد الله وتكليفه إلى خلق الله حتى يبنوا حركة حياتهم على مقتضى ما أنزل الله عليهم ، ومن الطبيعي أن أى رسول عندما يأتي بمنهج من عند الله ، فالهدف أن يحمل الناس جميعا على سلوك هذا المنهج ، ويحدد حركة حياتهم بـ « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » وعندما يسمع الواحد من الناس الأمر بـ « افعل » فقد يجد في التكليف مشقة ، لماذا ؟ لأنها تلزمه بعمل قد يتنقل عليه ، و « لا تفعل كذا » فيها مشقة ، لأنها تبعده عن عمل كان يحبه .

والمرء في الأحداث بين اثنين : عمل يشق عليه فيحب أن يجتنبه ، وعمل يستهويه فيحب أن يقترب منه ، والمنهج جاء من السماء ليقول للإنسان « افعل » و « لا تفعل » إذن فهناك مشقة في أن يحمل الإنسان نفسه على أن يقوم بعمل ما من أعمال التكليف ، ومشقة أخرى في أن يتبعد عن عمل نهى عنه التكليف .

ومعظم الناس لا تلتفت إلى الغاية الأصيلة ؛ ولا يفهمونها حق الفهم ، فيأتى أنصار الشر ؛ ولا يعجبهم حل نفوسهم على مرادات خالفهم . إن أفكار الشر تلح على صاحبها فيتمرد على التكليف الإيماني ، وأفكار الشر تحاول الاقتراب بصاحبها من فعل الأمور التي حرمها التكليف . ولذلك ينقسم الناس لأنهم لم يحددوا هدفهم في الوجود .

إن كل حركة في الوجود يمكننا أن نعرف أنها حركة إيمانية في صالح انسجام الإنسان مع الكون ، أو هي حركة غير إيمانية تفسد انسجام الإنسان مع فطرته ومع الكون ، فإذا كانت الحركة تصل بالإنسان إلى هدفه الإيماني . فستكون حركة طيبة وحسنة بالنسبة للمؤمن ، وإذا كانت تبعده عن هدفه تكون حركة سيئة وباطلة ، وهكذا نرى أن الهدف هو الذى يحدد الحركة .



إن التلميذ الذى يذهب إلى المدرسة له هدف بأن يتخرج فى مهنة ما ، ومادام ذلك هو هدفه فنحن نقيس حركة سلوكه ، هل هى حركة تقربه إلى الهدف أم تبعد به عنه ؟ فإن كان مجتهدا . فاجتهاده حركة تقرب له الهدف ، وإن كان كسولا ، خاملا فإنه يتبعد بنفسه عن الهدف . إذن يجب أن نحدد الهدف حتى نعرف هل يكون هذا العمل صالحا . أو غير صالح .

وأفة الناس أنهم عندما يحددون أهدافهم يقعون فى اعتبار ما ليس بالهدف هدفا وغاية . ومادام هناك من يعتبر غير الهدف هدفا فلا بد من حدوث اضطراب وضلال ، فالذى يعتبر أن الحياة هى الهدف ، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها . أما الذى يعرف أن الهدف ليس هو الحياة ، إنما الحياة مرحلة ، نسأله .. ما الهدف إذن ، فيقول : إنه لقاء الله والأخرة .

هذا المؤمن سيكون عمله من أجل هذا الهدف . لكن الضال الذى يرى الدنيا وحدها هدفه ولا يؤمن بالجنة أو النار ، هو غارق فى ضلاله ويقبل على ما تشتهيه نفسه . ويتبعد عما يتعبه وإن كانت فيه سعادته .

ولكن المؤمن يعرف أن الهدف ليس هو الدنيا ، وأن الهدف فى مجال آخر ، لذلك يسعى فى تطبيق التكاليف الإيمانية ليصل إلى الهدف ، وهو الجنة . إذن ما يفسد سلوك الناس هو جهلهم بالهدف ، وحين يوجد الهدف ، فالإنسان يحاول أن يعرف العمل الذى يقربه من الهدف ، فيفعله ، فهذا هو الخير . أما الذى يبعده عن الهدف ويفعل عكس الموصول إليه فهذا هو الشر .

وإذا كان الأمر كذلك والمسألة هى فى تحديد الهدف يجب أن تعلم أن الناس يستقبلون الكثير من الأحداث بما يناقض معرفة الهدف ، ومادام الهدف هو أن تذهب إلى الآخرة لتلقى الله فلماذا يغرق فى الحزن إنسان لأن له حبيبا قد انتقل إلى رحمة الله ؟

هذا الإنسان يمكننا أن نسأله ، لماذا تحزن وقد قصر الله عليه خطواته إلى الهدف ؟ لابد أنك حزين على نفسك لأنك مستوحش له ، ولأنك كنت تأنس به ، أما حزنك من أجله هو ، فلا حزن ، لأنه اقترب من الهدف ووصل إليه .

وفي حياتنا اليومية عندما يكون هدف جماعة أن تصل إلى الإسكندرية من القاهرة ، نجد إنسانا ما يذهب إلى الإسكندرية ماشيا ، لأنه لا يجد نقودا أو وسيلة توصله ، ونجد آخر يذهب إليها راكبا حمارا ، وثالثا يذهب إليها راكبا حصانا ، ورابعا يصل إليها راكبا « أتوبيسا » ، وخامسا يصل إليها بركوب الطائرة ، وسادسا يصل إليها بصاروخ ، وكل ما حدث هو أن كل واحد في هذه الجماعة قد اقترب من الهدف بالوسيلة التي توافرت له ، وهكذا نجد إنسانا يذهب إلى الله ماشيا في سبعين عاما ، وآخر يستدعيه الله قورا ، فلماذا نحزن عليه ؟

إن لنا أن نحزن على الإنسان الذي لم يكن موفقا في خدمة الهدف ، أما الموفق في خدمة الهدف فلنا أن نفرح له ، ونقول : إن الله قد قصر عليه المسافة ، وأغلبنا إن كان عنده ولد حبيب إلى قلبه وصغير ويفقده فهو يغرق في الحزن قائلا : إنه لم ير الدنيا ، لهذا الإنسان نقول : يا رجل إن الله جعل ابنك يقفز الخطايا ويتجاوزها وأخذه إلى الغاية ، فما الذي يحزنك ؟ إن علينا أن نحسن استقبال ما يقضى به الله في خلقه ، ونعرف أنه حكيم ، وأنه رحيم وأن كل شيء منه يجب ألا نفهمه خارجا عن الحكمة .

وبعد تلك الآيات الكريمة التي تحدث فيها الحق عن مريم وعيسى عليه السلام . . . قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي ۚ  
إِلَى اللَّهِ قَائِلَ الْخَوَارِثُوتِ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ؕ آمَنَّا بِاللَّهِ  
وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

لقد ذكر عيسى ابن مريم القضية الجامعة المانعة أولا حين قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

وأوضح عيسى ابن مريم بما لا يقبل الجدل : « أنا معكم سواء في مربوبيتنا إلى إله واحد ، وأنا لم أجيء لأعلمكم لأن تميزت عنكم بشيء . فيما يتعلق بالعبادة نحن سواء ، فإله رب لي ورب لكم ، والصراط المستقيم هو عبادة الله الحق .

ونحن ساعة نسمع « الصراط المستقيم » فإننا نتخيل على الفور الطرق الموصلة إلى الغاية ، ونعرف جميعا أنه لا يوجد طريق في الحياة مصنوع لذات الطريق ، إنما الطريق يصنع ليوصل إلى غاية . وساعة نسمع « صراط » فإننا نفهم على الفور الغاية التي نريد أن نصل إليها . والحق سبحانه يقول :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهٖ لَعَلَّكُمْ تُشْقُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

( سورة الانعام )

ومادام هناك طريق لغاية ما فلا بد لنا أن نحدد الغاية أولا ، وتحديد الغاية إنما يهدف إلى إيضاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق الموصّل إلى تلك الغاية . وهكذا يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه » .

والعبادة هي إطاعة العابد لأمر المعبود ، وهكذا يجب أن نفطن إلى أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية في الدين من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، إن هذه هي أركان الإسلام ولا يستقيم أن يفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية ، إن الأركان التعبدية لازمة ، لأنها تشحن الطاقة الإيمانية للنفس حتى تقبل على العمل الخاص بعمارة الدنيا ، ويجب أن نفطن إلى أن العبادة في الدنيا هي كل حركة تؤدي إلى إسعاد الناس وعمارة الكون .

ويجب أن نعرف أن الأركان التعبدية هي تقسيم اصطلاحى وضعه العلماء في الفقه كباب العبادات وباب المعاملات ، لكن علينا أن نعرف أن كل شيء يأمر به الله اسمه « عبادة » . إذن فالعبادة منها ما يصل العبد بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه ، خالق الكون ، ومنها ما يتصل بعمارة الكون . ولذلك قلنا : إنك حينما

تقبل من الله أمرا بعبادة ما ، فانت تتلقاه وانت موصول بأسباب الله بحثا عن الرزق وغير ذلك من أمور الحياة ، والمثل الواضح لذلك هو قول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ  
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

( سورة الجمعة )

إن هذا الأمر بالصلاة الجامعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع ، وهذا الأمر بالصلاة لم يأخذ الإنسان من فراغ ، إنما أخذ الإنسان من عمل ، هو البيع . . ولو نظرنا إلى دقة الأداء في البيع لوجدناها قمة الأخذ المباشر للرزق . إن كلام الله يصل في دقته إلى ما لا يصل إليه كلام بشر ، فلم يقل الله مثلا « اتركوا الصنعة » « اتركوا الحرث » ولكن الحق جاء بالبيع هنا لأنه قمة النفع العاجلة .

إن الذي يحرق ويزرع ينتظر وقتا قد يطول حتى تنضج الثمار ، لكن الذي يبيع شيئا ، فإنه ينال المنفعة فورا ، لقد جاء الأمر بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ويتضمن هذا الأمر ترك كل الأمور التي قد تأتي ثمراتها من بعد ذلك لأداء الصلاة .

إن البيع هو التعبير الدقيق لأن المتكلم هو الله ، والحق لم يتكلم هنا مثلا عن الشراء ، لأن الشاري قد يشتري وهو كاره ، لكن البائع يملاء السرور وهو يبيع فقد يذهب رجل لشراء أشياء ليته فيسمع الأذان فيسرع إلى الصلاة ويقول لأهله من بعد ذلك : لقد ذهبت إلى الشراء ، لكن المؤذن قد أذن لصلاة الجمعة ، ذلك أن الإنسان يجب ألا يدفع نقودا ، لكن البائع يستفيد بقمة الفائدة . لذلك يخرجنا الحق من قمة « كل الأعمال ونهاية كل الأعمال وهي مبادلة السلع بأثمانها » . لكن ماذا بعد انقضاء الصلاة ؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

( سورة الجمعة )

لقد أخرجنا من الصلاة إلى الحياة نبتغي من فضل الله ، ولذلك يكون الانتشار في الأرض والبحث عن الرزق عبادة .

ولنتظر إلى الدقة في قوله الحق : « فانتشروا في الأرض » إن الانتشار يعني أن ينساح البشر ليتنظمو في كل حركات الحياة ، وبذلك تعمّر كل حركة فيها . إن كل حركة في الحياة هي عبادة ، وهكذا نستوعب قوله الحق على لسان عيسى بن مريم : « إن الله ربّ وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » ومن بعد ذلك يقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » لقد حسم عيسى بن مريم أمر العقيدة حينما قال : « إن الله ربّ وربكم » إن في ذلك تحذيرا من أن يقول أتباع عيسى أى شيء آخر عن عيسى غير أنه عبادة خاضع لله ، مأمور بالطاعة والعبادة لله . ووضع أمامهم المنهج ، فقال : « هذا صراط مستقيم » .

وقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » يدل على أن كل صاحب فكرة ، وكل صاحب مهمة ، وكل صاحب هدف لابد أن يكون يقظ الأحاسيس ، لأن صاحب الفكرة وخاصة الدينية يخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وقد يقول قائل : لماذا يعيش الناس في الظلام ولا يتجهون إلى النور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إن هناك أناسا يستفيدون من وجود جموع الناس في الظلمات ، لذلك يكون بينهم أناس ظالمون وأناس مظلومون . والظالم الذي يأخذ - اختصا - خير الآخرين ويعرّبد في الكون يخاف من رجل الدعوة الذي ينهائهم عن الظلم ، ويدعوهم إلى الهداية إلى منطق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يجب أن تنطق هذه الكلمة ، إنه يكره الكلمة والقائل لها .

إن الداعية مأمور من الله بأن يكون يقظا لأنه إن اهتدى بكلماته أناس وسعدوا بها ، فإنه يفضّب أناساً آخرين . ذلك أن المجتمع الفاسد يوجد به المستفيدون من الفساد ، فالداعية عليه أن يعرف يقظة الحس ، ويقظة الحس معناها الالتفات إلى الأحاسيس الخفية الموجودة عند كل إنسان ، ونحن نسمي الأشياء الظاهرة منها الحواس الخمس ، اللمس ، والرؤية ، والسمع ، والتذوق ، والشم .

إن رجل الدعوة مأمور بأن تعمل كل حواسه حتى يعرف من الذي يجيب ويرتجف

لحظة أن تأق دعوة الخير ، ومن الذى يطمئن ويحسن الراحة لدعوة الخير . إن رجل الدعوة مأمور بدقة اليقظة والإحساس ليميز بين الذى تتغير سمحته لحظة دعوة الخير ، ومن الذى يستبشر ويفرح .

وعندما أعلن عيسى ابن مريم منهج الحق ، وجد أنصار الظلم وأنصار البغى ، وأنصار الظلمات غير معجبين بالمنهج الواضح للإيمان بالله ، لذلك أحس منهم الكفر لقد كان مليثا باليقظة والانتباه . إنه يعلم أنه قد جاء برسالة من الله ، ليخرج أناسا من مفسدة إلى مصلحة . وعندما أحس منهم الكفر ، أراد أن يتدب جماعة ليعينوه على أمر الدعوة . « قال من أنصارى إلى الله » ؟

إن الدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية . والتضحية تكون بالنفس والنفيس ، لذلك لابد أن يستير ويحرك من يجد في نفسه العون على هذه المسألة . وهو لم يناد أفرادا محددين ، إنما طرح الدعوة لياق الأنصار الذين يستشرفون في أنفسهم القدرة على حمل لواء الدعوة ، ولتكون التضحية بإقبال نفس لا استجابة لداع . « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله » وكلمة « أنصار » هى جمع « نصير » . والنصير هو المعين لك بقوة على بغيثك .

وعندما سأل عيسى : « من أنصارى إلى الله ؟ » كانت إلى في السؤال تفيد الغاية ، وهى الله ، أى من ينصرف نصرا نصير غايته إلى الله وحده لا إلى أهواء البشر ؟ إنه لا يسأل عن أناس يدخلون في لواء الدعوة من أجل الغنيمة أو يدخلون من أجل الجاه ، أو غير ذلك ، إنه يسأل عن أهل العزم ليكون كل منهم متجها ببطاقته إلى نصرة الله وحده .

ومثال ذلك ما دار بين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وبين رجال من المدينة في أثناء مبايعتهم له في العقبة فقد قال لهم رسول الله : « أبايعكم على أن تمنعوني عما تمنعون فيه نساءكم وأبناءكم » فأخذ الداء بن معرور بيده ثم قال : « نعم ، والذي بعثك بالحق لنمنعك بما تمنع منه أزرنا » فبايعوا رسول الله على ذلك فقام أبو الهيثم بن النيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالا وأنا قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتذعنا ؟ فتبسم رسول الله ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالتهم »

أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم<sup>(١)</sup>

أقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم ستمتلكون الأرض ، وستسودون الدنيا ، أو ستتصرون على أعدائكم ؟ لا . بل قال صلى الله عليه وسلم أنا منكم وأنتم بمنى . لماذا ؟ لأنه لو قال لهم ستتصرون على أعدائكم ، فقد يدخلون المعركة ، ويموت واحد منهم ؛ ولا يرى النصر ، لكن الأمر الذى سيراه كل المؤمنين أن رسول الله منهم وأنهم من رسول الله ومادمو كذلك فسيدخلون معه الجنة وهى الغاية الأصلية .

وعندما سأل عيسى ابن مريم : من أنصارى إلى الله ، فكأنه كان يسأل : من يعينى معونة غايتها الله ؟ ولماذا نأخذ هذا المعنى ؟ تكون الإجابة : أنا أخذ المعنى على قدر ذهنى ؛ لأن مرادات الله فى كلماته لا تنهى كمالاً ، وقد يأتى غيرى ويأخذ منها معنى آخر . ومعنى « النصر » : هو « من ينصر بجهد وقوة » . وننظر النصر فى الإيمان كيف يأتى ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن النصر فى الإيمان قال :

﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَصَّرُوا اللَّهُ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾

( سورة محمد )

إذن فالنصر منا لله بأن نطبق دينه ، وهذا مراد الله ، ولذلك يأتى النصر مرة من المؤمن لربه ، ومرة من الرب لمربوبه ، وقد يكون مراد عيسى - عليه السلام - من الذى ينصرف كى ينضم إلى الله فى النصر ؟

ونحن هنا أمام معسكرين ، معسكر الإيمان ، ومعسكر الكفر . لقد سأل عيسى : من أنصارى إلى الله ؟ أى أنه يسأل عن الدين بإمكانهم أن ينضموا إلى غاية هى الله ، ونتفهم نحن هذا المعنى على ضوء ما قاله الحق :

﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَصَّرُوا اللَّهُ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧ ﴾

( سورة محمد )

ونعرف أيضاً أن هناك نصراً من المؤمن لله ، وهناك نصر من الله للمؤمن . وهكذا

يكون سؤال عيسى ابن مريم : « من أنصاري إلى الله ؟ » قد أفاد المعنيين معاً . وكانت الإجابة : « قال الحواريون نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » . والحواريون مأخوذة من الحور ، وهو شدة البياض ، وهم جماعة أشرقت في وجوههم سياء الإيمان ، فكانها مشرقة بالنور . ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه في المؤمن يكون بإشراق الإيمان في النفس . ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا  
مُجِدًّا يَتَنَفَّوْنَ فَضَّلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ الْجُودِ ﴾  
( من الآية ٢٩ سورة الفتح )

فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه . كيف ولماذا ؟ لأن الإنسان مكون من أجهزة ، ومكون من ذرات ، وكل جهاز في الإنسان له مطلوب محدد . وساعة ان تتجه كل الأجهزة إلى ما أَرَادَهُ الله ، فإن الذي يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته ، ومادامت الأجهزة منسجمة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة ، تكون السحنة مكفهرة .

عندما قال عيسى : « من أنصاري إلى الله » سمع الاستجابة من الحواريين ، والحواريون قوم لهم إشراقات انسجام النفس مع الإيمان ، أوهم قوم بيض المعاني ، أي أن معانيهم بيضاء ومشرقة . والنبى صلى الله عليه وسلم سمى بعضاً من صحابته حوارى رسول الله ، وهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت .

وحين قال الحواريون : « نحن أنصار الله » كان ذلك يعنى أن كل إنسان منهم يريد نصرة الله . فينضم إلى الله ناصراً للمنهج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنهج . ونحن نعرف مقومات النصرة لله . إنه الإيمان وما الإيمان ؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا هو الإيمان في عمومته . فلولم أكن مؤمناً بأن الطريق الذى أسير فيه موصل إلى غاية مطلوبة لى لما سرت فيه .

مثال ذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط لولم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق ، وإن لم اعتقد أنى إن لم أذاكر دروسى سوف أرسب لما ذاكرت . إذن فكل أمر



في الدنيا يتم بناؤه على الإيمان ، لكن إذا أطلق الإيمان بالمعنى الخاص ، فهو اطمئنان القلب إلى قمة القضايا ، وهي الإيمان بالله ، ولذلك فأسلحة النصر إلى الله هي : إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله . ولذلك قال الحواريون : « نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

لماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض في الرسول أن يبلغ القوم عن الله ، فيشهد عليهم كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَفِي هَٰذَا لَبِكُونَ الرَّسُولَ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

( من الآية ٧٨ سورة الحج )

ولنا أن نلاحظ أن الحق أورد على لسانهم - الحواريين - الإيمان أولاً ، لأنه أمر غيبى عقدى في القلب ، وجاء من بعد ذلك على لسان الحواريين طلب الشهادة بالإسلام ، لأن الإسلام خضوع لمطلوبات الإيمان وأحكامه . إن قولهم : « واشهد بأنا مسلمون » هو أيضاً طلب منهم يسألونه لعيسى ابن مريم أن يبلغهم كل مطلوبات الإسلام قل لنا افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا إنهم قالوا : « آمنا » وماداموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بمن بلغهم عن الله ، والمطلوب من عيسى ابن مريم أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يبلغهم كل الأحكام وقد بلغهم ذلك وعملوا به وقالوا من بعد ذلك :

﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

فهل يكون إعلانهم للإيمان ، يعنى إيمانهم بشريعات رسالة سابقة ، لا ، إن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ، لأن كل رسول جاء بشيء من الله ، فورا

عيسى رسول جديد أمر يريد الله إبلاغه للناس ، ونحن نعلم أن العقائد لا تتغير فيها ؛ وكذلك الأخبار ؛ وكذلك القصص ، ولكن الأحكام هي التي تتغير. فكأن إعلان الحوارين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقا على عيسى ابن مريم من عقائد وبما جاء به عيسى ابن مريم من أحكام وتشريعات .

وقولهم : « ربنا آتينا بما أنزلت » كلمة « بما أنزلت » تدل على منهج منزل من أعلى إلى أدنى ، ونحن حين نأخذ التشريع فنحن نأخذه من أعلى . ولذلك قلنا سابقا : إن الله حينما يتنادى من آمن به ليتبع مناهج الإيمان يقول : « تعالوا » أي ارتفعوا إلى مستوى التلقى من الإله وخذوا منه المنهج ولا تظلموا في حضيض الأرض ، أي لا تتبعوا أهواء بعضكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم ، وما دام المؤمن يريد العلو في الإيمان ، فليذهب بسلوكه في الأرض إلى منهج السماء .

وقولهم : « ربنا آتينا بما أنزلت » واتبعنا الرسول . إن المتبع عادة يقتنع بمن اتبعه أولا ، حتى يكون الاتباع صادرا من قيم النفس لا من الإرغام قهرا أو فسرا ، فنحن قد نجد إنسانا يرغب إنسانا آخر على السير معه ، وهنا لا يقال عن المرغم : إنه « اتبع » إنما الذي يتبع ، أي الذي يسير في نفس طريق صاحبه يكون ذلك بمحض إرادته ومحض اختياره . فلو سار شخص في طريق شخص آخر بالقهر أو القسر لكان ذلك الاتباع بالقالب ، لا بالقلب . ولذلك فمن الممكن لمتجبر أن يمسك سوطا ويقهر مستضعفا على السير معه ، وفي ذلك إخضاع لقلب المستضعف ، لكنه لم يخضع قلبه ، فالإكراه يخضع القلب لكنه لا يخضع القلب .

﴿ لَعَلَّكَ بَئِيعَ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ١٠٠ ﴿ إِنْ شَاءَ نَزَّلَ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءَ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ ١٠١ ﴿

( سورة الشعراء )

إن الحق يخبر رسوله أن أحدا من العباد لا يستعصي على خالقه ، وأنه سبحانه القادر على الإحياء والإماتة ، ولو أراد الله أن ينزل آية تخضع أعناق كل العباد لفعل ، لكن الحق لا يريد أعناق الناس ، ولكنه يطلب القلوب التي تأتي طواعية وبالاختيار ، وأن يأتى العبد إلى الإيمان وهو قادر ألا يجيء . هذه هي العقلة

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ  
مِثْلَ أَيْمَنِ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِبَكُونِ الرُّسُولَ شَهِدًا  
عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَانصِبُوا  
يَلْلَهُ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

ولذلك فلن يأتى أنبياء أو رسل من بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد  
اثبت الله أمة محمد ؛ بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، لذلك فلا نبوة من بعد رسول  
الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يخبرنا الحق :

﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾

إن الأشياء التي يدركها العقل هي مسميات ولها أسماء وتكون أولاً بالحوس ، لأن الحس هو أول مصاحب للإنسان لإدراك الأشياء ، وبعد ذلك تأتي المعاني عندما نكبر ونعرف الحقائق . إن البداية دائماً تكون هي الأمور المحسوسة، ولذلك يقول الله عن المنهج الإيماني : إنه طريق مستقيم ، أى أن نعرف الغاية والطريق الموصل إليها،

وكلمة « الطريق المستقيم » من الأمور المحسة والتي يتعرف الناس عليها بالتطبيق لقواعد المنهج .

إن كلمة « مكر » ، مأخوذة من الشجر ، فساعة أن ترى الشجرة التي لا تلتف أغصانها على بعضها فإن الإنسان يستطيع أن يحكم أن ورقة ما ، هي من فرع ما . ولكن هناك نوع من الأشجار تكون فروعها ملفوفة على بعضها بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعرف أى ورقة من أى فرع هي ، ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « المكر » . فالرجل الذى يلف ويدور ، هو الذى يكر ، فالذى يلف على إنسان من أجل أن يستخلص منه حقيقة ما ، والذى يجتال من أجل إبراز حقيقة ، فإن كان ذلك بغير قصد الضرر نسميه حيلة ، وإن كان بقصد الضرر فهذا هو المكر السيئ . ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَمَكْرَ السَّيِّئِ لَا يَحِثُّ أَلَمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

( من الآية ١٢ سورة فاطر )

ومعنى ذلك أن هناك مكرًا غير سيئ ، أى أن المكر الذى لا يقصد منه إيقاع الضرر بأحد ، فإننا نسميه مكرًا خير ، أما المكر الذى يقصد منه إيقاع الضرر فهو « المكر السيئ » . ولنا أن نسأل : ما الذى يدفع إنسانا ما إلى المكر ؟ إن الذى يكر يدارى نواياه ، فقد يظهر لك الحب بينما هو مبغض ، ويريد أن يزين لك عملا ليكر بك ، فيحاول مثلا أن يصحبك إلى مكان بعيد غير مأهول بالناس ويريد أن يوقع بك أبلغ الضرر ، وقد يكون القتل .

إذن ، فمن أسس المكر التبييت ، والتبييت يحتاج إلى حنكة وخبرة ، لأن الذى يحاول التبييت قد يجد قبالة من يلتقط خبايا التبييت بالحدس والتخمين ، ومادام المكر يحتاج إلى التبييت ، فإن ذلك علامة على الضعف فى البشر لأن القوى لا يكر ولا يكيد ولكن يواجهه .

إن القوى لحظة أن يحسك بخضم ضعيف ، فمن الممكن أن يطلقه ، لأن القوى مطمئن إلى أن قوته تستطيع أن تؤذي هذا الضعيف . لكن الضعيف حين يملك قويا ، فإنه يعتبر الأمر فرصة لن تتكرر ، ولذلك فالشاعر يقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت  
كذلك قدرة الضعفاء

إن الضعيف هو الذى يكر ويبيت . والذى يكر قد يضع في اعتباره أن خصمه أقوى منه حيلة وأرجع عقلا ، وقد ينكل به كثيرا ، لذلك يخفى الماكر أمر مكره أو تبيته . فإذا ما أراد خصوم المنهج الإيمان أن يمكروا ، فعل من يمكرون ؟ إن الرسول لا يكون في المعركة بمفرده ولكن معه الله .

﴿ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدَّعُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١)

( سورة البقرة )

فالله يعلم ما يبيت أى إنسان ، ولذلك فعندما يريد الله أن يبرز شيئا ويوجده قلن يستطيع أحد أن يواجه إرادة الله وأمره ، إذن فمكر الله لا قبل لأحد لمواجهته .

﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَأَلَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ (٢)

( سورة آل عمران )

وساعة نجد صفة تستبعد أن يوصف بها الله فاعلم أنها جاءت للمشاكلة فقط وليست من أسماء الله الحسنى . إن المؤمنين بإمكانهم أن يقولوا للكافرين : إنكم إن أردتم أن نبيتوا لنا ، فإن الله قادر على أن يقلب المكر عليكم . أما أسماء الله وصفاته فهي توقيفية ، نزل بها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن إذا وجد فعل لله لا يصح أن نشق نحن منه وصفا ونجعله اسما لله ، « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . فليس من أسماء الله مخادع ، أو مكر ، إياك أن تقول ذلك ، لأن أسماء الله وصفاته توقيفية وجاء القول هنا بمكر الله كمقابل لفعل من البشر ، ليدهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ، ولا يستطيعون أن يمكروا بالله ، لأن الله إذا أراد أن يكر بهم ، فهم لا يستطيعون مواجهة ذلك . إن الحق يقول :

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

إذن فهناك « مكر خير » . . وذلك دليل على أن هناك من يصنع المكر ليؤدي إلى الخير . ولماذا تأتي هذه الآية هنا ؟ لأن هناك معركة سيدخلها عيسى ابن مريم عليه السلام ، وعيسى عليه السلام لم يجهز ليقاتل بالسيف ليحمي العقيدة ، إنما جاء واعظا ليدل الناس على العقيدة ، إن النصر لا تكون بالسيف فقط ، ولكن بالحجة . ونحن نعرف أن السماء كانت لا تطلب من أى رسول أن يمارب في سبيل العقيدة لأن السماء هي التي كانت تتولى التأديب .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْغَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

( سورة العنكبوت )

ولم يجهز قتال إلا حينما طلب بنو إسرائيل :

﴿ أَلَمْ تَرَى إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَجْرِ لَكُمُ آبَتْ لَنَا مَلِكًا نَقْتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُنِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَا تُنْقِطُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا قُلْنَا كُنِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

( سورة البقرة )

ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي التي أذن الله لها أن تحمل السيف لتؤدب به الذين يحولون دون بلوغ العقيدة الصحيحة للناس . إن السيف لم يأت ليفرض العقيدة ، إنما ليحمي الاختيار في النفس الإيمانية ، فبدلاً من أن يترك الناس

مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة. فالمسلمون يرفعون السيف في وجه الظالم القاهر لعباد الله . وعباد الله لهم أن يختاروا عقيدتهم .

ولذلك فعندما يقول أعداء الإسلام : « إن الإسلام انتشر بالسيف » . نرد عليهم : إن الله قد بدأ الإسلام بضعف حتى يسقط هذا الاتهام ، لقد كان المسلمون الأوائل ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فوجه بعضهم إلى الحبشة ، ويهاجرون بحثا عن الحماية ، فلو كان الإسلام قد انتشر بالسيف قلنا أن نسأل : من الذى حمل أول سيف ليكره أول مؤمن ؟ إن المؤمنين رضوا بالإسلام ديناً وهم في غاية الضعف ومنتهاه . إن الإسلام قد بدأ واستمر ومازال يحيا بقوة الإيمان .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء في أمة أمية ، ومن قبيلة لها شوكتها ، وشاء الحق ألا ينصر الله دينه بإسلام أقوياء قريش أولا ، بل آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم الضعفاء وخاض رسول الله صلى الله عليه وسلم رحلة الدعوة الإيمانية مدة ثلاثة عشر عاما ، دعوة للإيمان بالله ، ثم هاجر رسول الله إلى المدينة ، إلى أن صار كل المسلمين وحدة إيمانية قوية ، وارتفع السيف لا ليفرض العقيدة ، ولكن ليحمي حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة . ولو أن الإسلام انتشر بالسيف . فكيف نفسر وجود أبناء لديانات أخرى في البلاد المسلمة ؟ لقد أتاح الإسلام فرصة اختيار العقيدة لكل إنسان .

إذن فكل مسلم يمثل وحدة إيمانية مستقلة ، وواجب كل مسلم أن يعرف أن الإسلام قد انتشر بالأسوة الحسنة ، وأنه كمؤمن بالله وبدين الله ، قد اصطفاه الله ليطبق السلوك الإيماني ، فقد مكن الله للإسلام في الأرض بالسلوك والقدوة .

إن كل مسلم عليه واجب ألا يترك في سلوكه ثغرة ينغذ منها خصوم الإسلام إلى الإسلام ، ذلك أن اختلال توازن سلوك المسلم بالنسبة لمنهج الله هو ثغرة ينغذ منها خصوم الإسلام ، ولذلك فالمفكرون في الأديان الأخرى حينها يذهبون إلى الإسلام ، ويقتنعون به ، إنما يقتنعون بالإسلام لأنه منهج حق . إنهم يحصونه بالعقل ، ويبتدون إليه بالفطرة الإيمانية . أما الذين يريدون الطعن في الإسلام ، فهم ينظرون إلى سلوك بعض من المسلمين ، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام .

إن المفكرين المنصفين يفرقون دائماً بين العقيدة ، ومتبع العقيدة ، ولذلك فأغلب المفكرين الذين يتبعون هذا الاتجاه ، يلجأون إلى الإسلام ويؤمنون به . ولكن الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه ، فإن صادفوا تابعا للإسلام ملتزما دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا بالإسلام ، ولذلك كانت الجبهة الكثيرة الوفيرة في البلاد الإسلامية المعاصرة في بلاد لم يدخلها فتح إسلامي . وإنما دخلتها الأسوة الإسلامية في أفراد تابعين ملتزمين . فراق الناس ما عليه هؤلاء المسلمون من حياة ورعة ، ومن تصرفات مستقيمة جميلة ، ومن أسلوب تعامل سمح أمين ، نزيه ، نظيف . كل ذلك لفت جمهرة الناس إلى الإسلام ، وجعلهم يتساءلون : ما الذي جعلكم على هذا السلوك الطيب ؟ قالوا : لأننا مسلمون . وتساءل الناس في تلك المجتمعات : وما معنى الإسلام ؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام .

إذن ، فالذي لفت إلى الإسلام هو السلوك المنهجي الملتزم . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حين يعرض منهج الدعوة الناجحة يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

( سورة فصلت )

والدعوة إلى الله تكون باللسان والعمل الصالح ، ليدل المؤمن على أن ما يدعو إليه غيره قد وجدته مفيداً فالترمه هو ، فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان . ولا يكتفى المؤمن بذلك ، إنما يعلن ويقول : « إنني من المسلمين » يقول ذلك لمن ؟ يقوله لمن يرويه على السلوك السامح الرضى الطيب . إنها لفتة من ذاته إلى دينه .

إن هذا يفسر لنا كيف انتشر الإسلام بوساطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد ، وتعاملوا مع الناس بأدب الإسلام ، وبوقار الإسلام ، وبورع الإسلام ، فصار سلوكهم الملتزم لافتاً ، وعندما يسألهم القوم عن السر في سلوكهم الملتزم ، يقول الإنسان منهم : أنا لم أجد بذلك من عندي ولكن من اتباعي لدين الله الإسلام .

ومثال ذلك في السلوك الأسوة : المسلمون الأوائل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد كان صحابته رضوان الله عليهم يخافون عليه من خصومه ، فكانوا



يتناوبون حراسته ، ومعنى تناوب الحراس أنهم أرادوا أن يكونوا المصد للأخطار يتداولون ذلك فيما بينهم . وأراد الحق سبحانه أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة خفية ، ونام على بن أبي طالب رضى الله عنه وأرضاه مكان الرسول صلى الله عليه وسلم . لقد أراد على - كرم الله وجهه - أن يكون هو المصد ، فإذا جاء خطر فإنه هو الذى يصد .

لاشك أنه كان يفعل ذلك لأنه واثق أن بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم خير للإسلام حتى ولو افتداه بروحه . هذا هو التسامى العالى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان الواحد منهم يجب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأسوة بالرسول واتباع دين الله إنما يعود ذلك عليه بالخير العميم . وعندما يموت واحد منهم في سبيل المحافظة على من أرسله الله رسولا ليبلغ دعوته فقد نال الشهادة في سبيل الله .

هذا هو أبو بكر الصديق رضوان الله عليه مع رسول الله في الغار . ألم يجد الصديق شقوفا فيمزع من ثيابه ليسد الشقوق ؟ ألم يضع قدمه في شق لأنه يخشى أن تحبى حشرة من الحشرات قد تؤذى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ؟ لقد أراد أن يحافظ على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ولو افتداه ، وهذه شهادة بأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بأن بقاء الرسول خير لهم وللإيمان ولنفسهم من بقائهم هم أنفسهم .

وهكذا أراد الله نصرته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما مكروا وبيتوا أن يقتلوه قبل الهجرة ، وهكذا أراد الله نصرته رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة عندما واجه أعداء الإسلام في القتال ، لقد مكروا ، ولكن الله خير الماكرين .

وكان الحق سبحانه وتعالى يقول بهذا النصر من الله : لن نستطيعوا أن تقاوموا عمدا لا بالمواجهة ولا بالتبیت . وها هوذا تابع من أتباعه صلى الله عليه وسلم هو سيدنا عمر رضى الله عنه يهاجر علنا ، ويقول : من أراد أن تشكله أمه ، أو ترمل زوجته ، أو يترحم ولده ، فليلقني وراء هذا الوادى . بينما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم خفية .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة للضعيف . إن القوى يستطيع حماية نفسه ويخرج إلى الهجرة مجاهدا . أما الضعيف فلا بد أن يهاجر خفية ، لذلك فالأسوة للضعيف كانت في رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد مكر أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله مكر بهم .

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَيَتَوَلَّى مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ (١٤)

( سورة إبراهيم )

إن مكرهم رغم عنفه وشدة والذي قد يؤدي إلى زوال الجبال ، هذا المكر يور عند مواجهته لمكر الله الذي يحمي رسله وعباده الصالحين . لقد جاء مكر بني إسرائيل وأنزل فيه الله قوله الحكيم : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . لأنهم أرادوا أن يتخلصوا من سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام . فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ارْأَيْكَ وَرَأْفُكَ إِلَىٰ  
وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ  
اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ  
مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ  
تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٥٥)

لقد جاء الحق سبحانه بعد عرضه لمسألة المكر بهذا القول الحكيم ، وذلك دليل على أن عيسى عليه السلام أحسن من بني إسرائيل الكفر ، والتبئيس . ومؤامرة للقتل فطمأن الله عيسى إلى نهاية المعركة . « إن متوفيك ورافعك إني ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . إنها أربعة مواقف ، أرادها الله لعيسى ابن مريم عليه السلام .

ونريد أن نقف الآن عند كلمة قول الحق : « متوفيك » . نحن غالبا ما نأخذ معنى بعض الألفاظ من الغالب الشائع ، ثم نموت المعاني الأخرى في اللفظ ويروج المعنى الشائع فنفهم المقصد من اللفظ . إن كلمة « التوفى » نفهمها على أنها الموت ، ولكن علينا هنا أن نرجع إلى أصل استعمال اللفظة ، فإنه قد يغلب معنى على لفظ ، وهذا اللفظ موضوع لمعان متعددة ، فبأخذه واحد ليجعله خاصا بواحد من هذه . إن كلمة « التوفى » قد يأخذها واحدا للمعنى « الوفاة » وهو الموت . ولكن ، ألم يكن ربك الذى قال : « إن متوفيك » ؟ وهو القائل فى القرآن الكريم :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٦٠ ﴾

( سورة الانعام )

إذن « يتوفاكم » هنا بآى معنى ؟ إنها بمعنى ينمكم . فالنوم معنى من معانى التوفى . ألم يقل الحق فى كتابه أيضا الذى قال فيه : « إن متوفيك » .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٤٦ ﴾

( سورة الزمر )

لقد سمي الحق النوم موتا أيضا . هذا من ناحية منطق القرآن ، إن منطق القرآن الكريم بين لنا أن كلمة « التوفى » ليس معناها هو الموت فقط ولكن لها معان أخرى ، إلا أنه غلب اللفظ عند المستعملين للغة على معنى فاستقل اللفظ عندهم بهذا المعنى ، فإذا ما أطلق اللفظ عند هؤلاء لا ينصرف إلا لهذا المعنى ، ول هؤلاء نقول : لا ، لا بد أن ندقق جيدا فى اللفظ ولماذا جاء ؟

وقد يقول قائل : ولماذا يختار الله اللفظ هكذا ؟ والإجابة هى : لأن الأشياء التى قد يقف فيها العقل لا تؤثر فى الأحكام المطلوبة ويأتى فيها الله بأسلوب يحتمل هذا ،

ويمتثل ذلك ، حتى لا يقف أحد في أمر لا يستاهل وقفة . فالذي يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفعه الله إلى السماء ما الذي زاد عليه من أحكام دينه ؟ والذي لا يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفع ، ما الذي نقص عليه من أحكام دينه ، إن هذه القضية لا تؤثر في الأحكام المطلوبة للدين ، لكن العقل قد يقف فيها ؟ فيقول قائل : كيف يصعد إلى السماء ؟ ويقول آخر : لقد توفاه الله . وليعتقدوا أي إنسان كما يريد لأنها لا تؤثر في الأحكام المطلوبة للدين .

إذن ، فالأشياء التي لا تؤثر في الحكم المطلوب من الخلق يأتي بها الله بكلام يمتثل الفهم على أكثر من وجه حتى لا يترك العقل في حيرة أمام مسألة لا تضر ولا تنفع . وعرفنا الآن أن « توفي » تأتي من الوفاة بمعنى النوم من قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ يُرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٥١ ﴾

( سورة الانعام )

ومن قوله سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٥٢ ﴾

( سورة الزمر )

إن الحق سبحانه قد سمى النوم موتاً لأن النوم غيب عن حس الحياة . واللغة العربية توضح ذلك ، فانت تقول - على سبيل المثال - لمن أقرضته مبلغاً من المال ، ويطلب منك أن تتنازل عن بعضه لا ، لا بد أن أستوفي مالي ، وعندما يعطيك كل مالك ، تقول له : استوفيت مالي تماماً ، فتوفيته ، أي أنك أخذته بتمامه .

إذن ، فمعنى « متوفيك » قد يكون هو أخذك الشيء تاماً . أقول ذلك حتى نعرف

الفرق بين الموت والقتل ، كلاهما يلتقى في أنه سلب للحياة ، وكلمة « سلب الحياة » قد تكون مرة بنقض البنية ، كضرب واحد لآخر على حجمته فيقتله ، هذا لون من سلب الحياة ، ولكن بنقض البنية . أما الموت فلا يكون بنقض البنية ، إنما يأخذ الله الروح ، وتبقى البنية كما هي ، ولذلك فرق الله في قرآنه الحكيم بين « موت » و « قتل » وإن اتحدا معا في إزهاق الحياة .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَمْ يَمَاتْ أَوْ قُتِلَ أَنْفَلَيْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْعًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١١)

( سورة آل عمران )

إن الموت والقتل يؤدي كل منهما إلى انتهاء الحياة ، لكن القتل ينهى الحياة بنقض البنية، ولذلك يقدر بعض البشر على البشر فيقتلون بعضهم بعضا . لكن لا أحد يستطيع أن يقول : « أنا أريد أن يموت فلان » ، فالموت هو ما يجربه الله على عباده من سلب للحياة بنزع الروح . إن البشر يقدرون على البنية بالقتل ، والبنية ليست هي التي تنزع الروح ، ولكن الروح تحل في المادة فتحيا ، وعندما ينزعها الله من المادة تموت ونرم أي نصير رمة .

إذن ، فالقتل إنما هو إخلال بالموصفات الخاصة التي أرادها الله لوجود الروح في المادة ، كسلامة المخ أو القلب . فإذا اختل شيء من هذه الموصفات الخاصة الأساسية فالروح تقول : « أنا لا أسكن هنا » . إن الروح إذا ما انتزعت ، فلأنها لا تريد أن تنتزع . . لاى سبب ولكن البنية لا تصلح لسكنها . ونضرب المثل والله المثل الأعلى :

إن الكهرباء التي في المنزل يتم تركيبها ، وتعرف وجود الكهرباء بالمصباح الذي يصدر منه الضوء . إن المصباح لم يأت بالنور ، لأن النور لا يظهر إلا في بنية بهذه الموصفات بدليل أن المصباح عندما يتكسر تظل الكهرباء موجودة ، ولكن الضوء يذهب . وكذلك الروح بالنسبة للجسد . إن الروح لا توجد إلا في جسد له موصفات خاصة . وأهم هذه الموصفات الخاصة أن تكون خلايا البنية مناسبة ، فإن توقف القلب ، فمن الممكن تدليكه قبل مرور سبع ثوان على التوقف ، لكن إن

فسدت خلایا المخ ، فكل شيء ينتهى لأن المواصفات اختلت .

إذن ، فالروح لا تحل إلا فى بنية لها مواصفات خاصة ، والقتل وسيلة أساسية  
لهدم البنية ، وإذهاب الحياة ، لكن الموت هو إزهاق الحياة بغير هدم البنية ،  
ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى . ولكن خلق الله يقدر على البنية ، لأنها  
مادة ولذلك يستطيعون تحريبها .

إذن ، « فمتوفيك » تعنى مرة تمام الشيء ، « كاستيفاء المال » وتعنى مرة  
« النوم » . وحين يقول الحق : « إني متوفيك » ماذا يعنى ذلك ؟ إنه سبحانه يريد أن  
يقول : أريدك تاماً ، أى أن خلقى لا يقدر على هدم بيتك ، إني طالبك إلى  
تاماً ، لأنك فى الأرض عرضة لأغيار البشر من البشر ، لكنى سأق بك فى مكان  
تكون خالصاً لى وحدى ، لقد أخذتك من البشر تاماً ، ومعنى « تاماً » ، أى أن  
الروح فى جسدك بكل مواصفاته ، فالذين يقدر على هدم المادة لن يتمكنوا  
منه .

إذن ، فقول الحق : « ورافعك إلی » هذا القول الحكيم يأق مستقيماً مع قول  
الحق : « متوفيك » . وقد يقول قائل : لماذا نأخذ الوفاة بهذا المعنى ؟ نقول : إن  
الحق بجلال قدرته كان قادراً على أن يقول : إني رافعك إلی ثم أتوفاك بعد ذلك .  
ونقول أيضاً : من الذى قال : إن « الواو » تقتضى الترتيب فى الحدث ؟ ألم يقل الحق  
سبحانه :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾

( سورة القمر )

هل جاء العذاب قبل النذر أو بعدها ؟ إن العذاب إنما يكون من بعد النذر . إن  
« الواو » تفيد الجمع للحدثين فقط . ألم يقل الله فى كتابه أيضاً :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ

مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

( سورة الاحزاب )

إن « الواو » لا تقتضى ترتيب الأحداث ، فعل فرض أنك قد أخذت « متوفيك » أى « مميتك » ، فمن الذى قال : إن « الواو » تقتضى الترتيب فى الحدث ؟ بمعنى أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه . فإذا قال قائل : ولماذا جاءت « متوفيك » أولا ؟ نرد على ذلك : لأن البعض قد يظن أن الرفع ثبوت من الموت . ولكن عيسى سيموت قطعاً ، فالموت ضربة لازب . ومسألة يمر بها كل البشر . هذا الكلام من ناحية النص القرآنى . فإذا ما ذهبنا إلى الحديث وجدنا أن الله فوض رسوله صلى الله عليه وسلم ليشرح ويبين ، ألم يقل الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

( من الآية ١١ سورة النحل )

فالحديث كما رواه البخارى ومسلم : ( كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ) ؟ .

أى أن النبى صلى الله عليه وسلم بين لنا أن ابن مريم سينزل مرة أخرى . ولنقف الآن وقفة عقلية لنواجه العقلانيين الذين يحاولون إشاعة التعب فى الدنيا فنقول : يا عقلانيون أقبلتم فى بداية عيسى أن يوجد من غير أب على غير طريقة الخلق فى الإيجاد والميلاد ؟ سيقولون نعم . هنا نقول : إذا كنتم قد قبلتم بداية مولده بشئ عجيب خارق للنواميس فكيف تقفون فى نهاية حياته إن كانت خارقة للنواميس ؟ . إن الذى جعلكم تقبلون العجبية الأولى يهد لكم أن تقبلوا العجبية الثانية . إن الحق سبحانه يقول :

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذِّمَّةِ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾

( من الآية ٥٥ سورة آل عمران )

إنه سبحانه يبلغ عيسى إننى سأخذك تاماً غير مقدور عليك من البشر ومطهرتك من حيث هؤلاء الكافرين ونجاستهم ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . وكلمة « اتبع » تدل على أن هناك « متبعا » يتلو متبعا . أى أن المتبع هو

الذى يأتى بعد ، فمن الذى جاء من بعد عيسى بمنهج من السماء ؟ إنه محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن على أى منهج يكون الذين اتبعوك ؟ أعلى المنهج الذى جاؤا به أم المنهج الذى بلغته أنت يا عيسى ؟ إن الذى يتبعك على غير المنهج الذى قلته لن يكون تبعاً لك ، ولكن الذى يأتى ليصحح الوضع على المنهج الصحيح فهو الذى اتبعك . وقد جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحح الوضع ويبلغ المنهج كما أراه الله . « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . فإن أخذنا المعنى بهذا ؛ فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى التى اتبعت منهج الله الذى جاء به الرسل جميعاً ، ونزل به عيسى أيضاً ، وأن أمة محمد قد صححت كثيراً من القضايا التى انحرف بها القوم . نقول ليس المراد هنا من « فوق » الغلبة والنصر . ولكننا نريد من « فوق » الحجة والبرهان . وذلك إنما يحدث فى حالة وجود قوم منصفين عقلاء يزنون الأمور بحججها وأدلتها وهم لن يجدوا إلا قضية الإسلام وعقيدة الإسلام .

إذن ، فالفوقية هى فوقية ظهور دليل وقوة برهان . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ

الْمُشْرِكُونَ ﴾ (٣٧)

( سورة القوية )

وفى موقع آخر من القرآن الكريم ، يؤكد الحق ظهور الإسلام على كافة الأديان وهو الشاهد على ذلك :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

شَهِيدًا ﴾ (٣٨)

( سورة الفتح )

ومعنى ذلك أن الله قد أراد للإسلام أن يظهر على كل الأديان . وقد يقول قائل : إن فى العالم أديانا كثيرة ، ولم يظهر عليها الإسلام ، والموجودون من المسلمين فى العالم الآن مليار وأضعاف ذلك من البشر على ديانات أخرى . نقول لمثل هذا القائل : إن



الله أراد للإسلام أن يظهره إظهار حجة ، لا من قبلكم أنتم فقط ولكن من قبلهم هم كذلك . والناس دائما حين يجتمعون ليشرعوا القوانين وليحددوا مصالح بعضهم بعضا ، يلجأون أخيرا إلى الإسلام . فلننظر إلى من يشرع من جنس تشريع الأرض ولنسأل أرايت تشريعا أرضيا ظل على حاله ؟ لا ، إن التشريع الأرضي يتم تعديله دائما .

لماذا ؟ لأن الذي وضع التشريع الأول لم يكن له من العلم ما يدل على مقتضيات الأمور التي تجدد ، فلما جددت أمور في الحياة لم تكن في ذهن من شرع أولا ، احتاج الناس إلى تعديل التشريع . ولنمسك بأي قانون بشري معدل في أى قضية من قضايا الكون ، ولننظر إلى أى اتجاه يسير ؟ إنه دائما يتجه إلى الإسلام ، وإن لم يلتق مع الإسلام فإنه يقرب من الإسلام . وعندما قامت في أوروبا ضجة على الطلاق في الإسلام ، ما الذي حدث ؟ جاء التشريع بالطلاق في إيطاليا تحت سمع وبصر الفاتيكان . هل شرعوا الطلاق لأن الإسلام أباح الطلاق ؟ لا ، إنما شرعوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق ، فكأنهم أقاموا الدليل بخضوعهم لأمور الحياة على أن ما جاء به الإسلام قبل التجربة كان حقا . بدليل أن أوروبا لجأت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين ولكن لأن مصالح حياتهم لا تتأني إلا به .

وهل هناك ظهور وغلبة أكثر من الدليل الذي يأتي من الخصم ؟ تلك هي الغلبة . لقد وصلوا إلى تشريع الطلاق رغم كراهيتهم للإسلام كدليل على صدق ما جاء به الإسلام . وفي الربا ، الذي يريد البعض هنا أن يحلله ، نجد أوروبا تحاول التخلص منه ، لأنهم توصلوا بالتجربة إلى أن المال لا يؤدي وظيفته في الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى صفر. أى أنهم عرفوا أن إلغاء الربا ضرورى حتى يؤدي المال وظيفته الحقيقية في الحياة ، والذي ألجأهم إلى الوصول إلى هذه الحقيقة هو أن فساد الحياة سببه الربا ، فأرادوا أن يمنعوا الربا . لقد وصلوا إلى ما بدأ به الإسلام من أربعة عشر قرنا . أتريد غلبة ، وتريد فوقا ، وتريد ظهورا ، أكثر من هذا بالنسبة لدين الله ؟

إذن ، ففهم الخصوم ما يصلح أمر الحياة اضطهرهم إلى الأخذ بمبادئ الإسلام . ونتابع بالتأمل قول الحق : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . أى أن الحق جاعل الذين ساروا على المنهج الأصيل القادم من الله فوق الذين كفروا . فالذين يقولون فيك يا عيسى ابن مريم ما لا يقال من الوهية ، هل

اتبعوك ؟ لا . . لم يتبعوك .

إن الذى يتبع عيسى هو الذى يأتى على المنهج القادم من الله . إن عيسى ابن مريم رسول إلى بنى إسرائيل . وديانات السماء لا تأتى لعصبية الجنس أو القومية أو الأوطان أو غير ذلك ، ولكن المنهج هو الذى يربط الناس بعضهم ببعض ، ولذلك جاء لنا الحق بقصة سيدنا نوح لتتعرف على هذه المعاني . لقد وعد الله سيدنا نوحا أن ينجى له أهله . وعندما دعا نوح عليه السلام ابنه ليركب معه : ولكن ابن نوح رفض ، فقال نوح عليه السلام لله :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ

الْحَاكِمِينَ ١٥ ﴾

( سورة هود )

فهل الأهلية بالنسبة للأنبياء هي التي قالها نوح هل أهلية الدم ؟ لا ، لأن الحق قال :

﴿ قَالَ يَنْتَوِخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ

عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ١٦ ﴾

( سورة هود )

لماذا ؟ لأن أهل النبوة هم المؤمنون بها . فالذين اتبعوا المنهج الذى جاء به المسيح من عند الله ليس من يطلق على نفسه النسب للمسيح ، ومن يطلق على نفسه أنه يهودى إن هذه أسماء فقط . إن المتبع الحق هو من يتبع المنهج المنزل من عند الله . إن الأنبياء ميراثهم المنهج والعلم . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سلمان وهو فارسى لا يجتمع مع رسول الله فى أرومة عربية :  
( سلمان منا آل البيت ) (١) .

( ١ ) هذا الحديث رواه الحاكم والطبرانى فى الكبير .

وهكذا انتسب سلمان إلى آل البيت بحكم إيمانه ، وينص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » ، أى أن الحق سبحانه قد جعل الفوقية للذين يتبعون المنهج الحق القادم من عند الله . والذي يصوب منهج عيسى هو محمد رسول الله . هل تكون الفوقية هى فوقية مساحة جغرافية ؟ لأن رقعة من الأرض التى تتبع الديانات الأخرى غير الإسلام أكبر مساحة من رقعة أرض المؤمنين بالإسلام ؟ لا . . . فالفوقية تكون فوقية دليل .

وقد يقول قائل : إن الدليل لا يلزم . نرد قائلين : كيف لا يلزم الدليل ؟ ونحن نرى الذين لا يؤمنون به يدللون عليه . كيف يدللون عليه ؟ إنهم يسرون فيها يقتنون من قوانين البشر إلى ما سبق إليه تقنين السماء . ومادام هنا فى هذه الآية كلمة « فوق » وكلمة « كفروا » وهناك اتباع . إذن ، فهناك قضية وخصومة . وهناك حق ، وهناك باطل ، وهناك هدى ، وهناك ضلال . فلا بد من الفصل فى هذه القضية . ويأتى الفصل ساعة ألا يوجد للإنسان تصرف إرادى لا على ذات نفسه ولا على سواه .

إن الظالمين يستطيعون التصرف فى الأرض ، لكن عندما يكون المرجع إلى الله فالله يقول : أنا ملكتكم وأنتم عصاة لى فى كثير من الأسباب ، لكن هناك وقت تزول فيه ملكيتكم للأسباب . إذن . . . فالظالم قد يتحكم على الأرض وكذلك الباطل لأن الله أوجد لنا جميعا إرادات ومرادات اختيارية . لكن فى يوم القيامة فلا إرادات إلا إرادة الله :

﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٥ ﴾

( سورة غافر )

( إذن فالحكم قادم بدون منازع . . . والذي يدل على ذلك قوله الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُهُمْ لَسَقَّوْنَهُمْ حَاسِرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ﴿١٣٧﴾

(سورة البقرة)

إن الذي اتبع واحدا على ضلال يأتى يوم القيامة ليجد أن صاحب الضلال يتبرأ منه ، فيقول المتبعون سائلين الله : يارب ارجعنا إلى الدنيا لننتقم ممن خدعونا . هذا من ناحية علاقة البشر بالبشر . أما من ناحية الجسد الواحد نفسه ، فسوف نجد شهادة الجلود والألسنة والأيدي ، بعد أن تسقط عنها إرادة الإنسان ويسقط تسخير الحق لهذه الجوارح والحواس لخدمة الإنسان ، تقول الجوارح والحواس : لقد كانت لصاحبى إرادة ترغمنى على أن أفعل ما لا أحب ، لكن ما هوذا يوم القيامة ، فلا قهر ولا إرغام ولا تسخير لأن الملك كله لله . . . لذلك تشهد الألسنة والجلود ولهذا يقول الحق : «ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون» .

إن الحق يحكم فيما كانوا فيه يختلفون لتكون ثمرة الحكم هى ماذا ؟ هل هناك تكليف بعد ذلك ؟ لا . . . لكن ثمرة الحكم هى الجزاء . ففى الآخرة لا عمل هناك ، والحكم فيها للجزاء . وكما قلنا : مادام هناك متبعون وكافرون ، وجماعة فوق جماعة ، وإلى الله مرجعهم ، فلا بد لنا أن نرى ما هو الحكم الذى سوف يكون ؟ ما هوذا القول الحكيم :

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾

لماذا لم يأت الله بالحكم على المؤمنين أولا ؟ لأن المؤمنين يؤمنون بذلك تماما ، إنهم بإيمانهم يعرفون ذلك ويعونه . ولنتنبه هنا إلى أن الحكم لا يشمل العذاب فى الآخرة فقط ولكنه يشتمل على العذاب فى الدنيا أيضا ، فعذاب الدنيا سيكون قبل الحكم ،

وكان الحق يقول لنا : لا تعتقدوا أن تعذيبى إياهم فى الدنيا يعفيهم من تعذيبى إياهم فى الآخرة ، لأن التعذيب فى الدنيا فقط قد يصيب من آمن بى .

أما من كفر بى ، فإنى أعذبه فى الدنيا وأعذبه فى الآخرة. إننى لا أؤجل العذاب للكافرين إلى الآخرة فقط ولكن سأضرم عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة .

إن الحصيلة بعد كل شيء هى أن يعذب الكافر فى الدنيا وفى الآخرة . ويقول الحق عن هذا العذاب : إنه عذاب شديد ، لأن الحدث حين يقع لا بد أن تلحظ فيه القوة التى تناسب من أحدث . ولتضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى :

إن الطفل قد يكسر شيئاً فى حدود قوته كطفل ، والشاب قد يكسر شيئاً مناسباً لقوته . إذن فالحدث يجب أن نأخذه قياساً بالنسبة لفاعله ، فإذا كان الفاعل هو الله ، فهل لأحد طاقة على عذاب الله ؟ لا أحد يتصور ذلك ، وليس لأحد من هؤلاء من ناصر ، لأن الذى يهزمه الله ويعذبه لا ناصر له ، وبعد ذلك يأتى الحق بالمقابل :

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
فِيُوفِيهِمْ أَجْرَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

أى فإدام الذين كفروا سينالون العذاب الشديد من الله ، فالذين آمنوا سينالون النعيم المقيم بإذن الله .

ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ

الْحَكِيمِ

يقول الحق تبارك وتعالى :

« ذلك » إشارة لما سبق من الأحداث ، في شأن امرأة عمران ، ومريم ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكان لكل واحد من هؤلاء قضية عجيبة يخرق فيها ناموس الكون ، وكلها آيات ، أى عجائب . وقد نقلت إلينا هذه العجائب من واقع ما رآه الذين عاصروا تلك الأحداث ، وجاء الخبر اليقين بتلك العجائب في قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكتاب الحق الموصوف من الله بأنه « الذكر الحكيم » فاطمئنوا - أيها المؤمنون - إلى أن ما وصلكم عن طريق القرآن ، إنما حكى واقعا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فما جاء به من أخبار عن تلك الآيات هو ما يطابق الواقع الذى عاصره الناس وحكوه .

وبعد ذلك يعرض الحق لنا سبحانه قضية سيدنا عيسى عليه السلام ، وهى قضية يجب أن نتنبه إليها تنبها جديدا فنعرض وجهة نظر الذين يضعونه فى غير الموضع الذى أراده الله ، كما نعرض وجهة نظر الذين يضعونه فى الموضع الذى يريده الله . فالمسألة ليست انتصارا منا فى الدنيا على فريق يقول : كذا ، وليست انتصارا لفريق آخر فى الدنيا ليقول : كذا . لأنها مسألة لها عاقبة تآتى فى الآخرة ويحاسبنا عليها الحق تعالى ، لذلك كان من المهم جدا أن نصفها تصفية يتضح فيها الحق ، حتى لا يظلم أحد نفسه .

لقد جاء عيسى عليه السلام على دين اليهودية ، أى طرأ على دين اليهودية ونحن نعلم أن دين اليهودية قد تم تحريفه من اليهود تحريفا جعله ينحاز إلى الأمور المادية الصرفة ، دون أدنى اعتبار للأمور الروحية والإيمان بالغيب ، فهم ماديون ، وتمثل ماديتهم فى أنهم قالوا لموسى عليه السلام ما حكاه القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ اِنَّ تَوْفِيقَنَا لَآ يَكُنْ اِلَّا بِرِضَا رَبِّكَ فَاهْبُتْ فِي الْوَجْدِ وَانْتَظِرْ ﴾

(سورة البقرة)

إنهم لم يلتفتوا إلى أن بعضنا من كمال وجلال الله غيب ، لأنه لو كان مشهودا بحسب ، لحد - بضم الحاء وكسر الدال - وحيز ، وملازم قد حُذِرَ وحيز في تصورهم فذلك يعني أنه سبحانه قد يوجد في مكان ولا يوجد في مكان آخر ، والحق سبحانه منزّه عن مثل ذلك لأنه موجود في كل الوجود ، ولا نراه بالعين ، لكن نرى آثار أعماله وجميل صنعه في كل الكون .

إذن فكون الله غيبا هو من تمام الجلال والكمال . فيه .

لكن اليهود قد صوروا الأشياء كلها على أنها حسية ، حتى أمور اقتنيات حياتهم وهي الطعام ، لقد أرادها الله لهم غيبا حتى يرجعهم في التيه ، فأرسل عليهم المن والسلوى ، كرزق من الغيب الذي يأتي إليهم ، لم يستنبطوه . ولم يستوردوه ، ولم يعرفوا كنهه ، ولم يجتهدوا في استخراجها ، إنه رزق من الغيب ، ومع ذلك تمردوا على هذا الرزق القادم لهم من الغيب وقالوا كما أخبر الله عنهم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يٰمُوسَىٰ اِنَّ قَصِيرَ عَن طَعَامِ وَحِدٍ فَادْعُ لِنَارِكَ بِمُحَرِّجٍ لَّنَا مِمَّا نَبْتِ الْأَرْضِ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ اَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ اَدْنٰى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اَقْبِلُوا مَضٰى فَاِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءَ وَبَغَضِبَ مِنْ اللَّهِ ذَلِكَ بِاَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَآيَاتِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إنهم يريدون أن يكون طعامهم كما ألفوا ، وأن يروا هذا الطعام كأمر مادي من

أمور الحياة ؛ لذلك تشككوا في رزق الغيب ، وهو المن والسلوى ، وقالوا : « من يدري أن المن قد لا يأتي ، وأن السلوى قد لا تنزل علينا » فلم تكن لهم ثقة في رزق وهب لهم من الغيب ؛ لأنهم تناولوا كل أمورهم بمادية صرفة . ومادامت كل أمورهم مادية فهم في حاجة إلى هزة عنيفة تهز أوصال ماديتهم هذه ؛ لتخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب .

ونحن نعلم أن الفكر المادي لا يرى الحياة إلا أسبابا ومسببات ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يخلق منهم ذلك الفكر المادي ، لذلك جاء بعيسى عليه السلام على غير طريق الناموس الذي يأتي عليه البشر ، فجعله من امرأة دون أب ، حتى يزلزل قواعد المادية عند اليهود . لكن الفتنة جاءت في قومه ، فقالوا بينوته للإله ، وسبحانه منزله عن أن يكون له ولد .

ولنا أن نسأل ما الشبهة التي جعلتهم يقولون بهذه البنية ؟

قالوا : إن الأمومة موجودة والذكورة ممتنعة ، والشبهة إنما جاءت من أن الله نفخ فيه الروح ، فإله هو الأب .

نقول لهم : لو أن الأمر كذلك لوجب أن تفتنوا في آدم أولى من أن تفتنوا في عيسى ؛ لأن عيسى عليه السلام كان في خلقه أمومة ، أما آدم فلا أمومة ولا أبوة ، فتكون الفتنة في آدم عليه السلام أكبر ، وإن قلتم : « إن الحق قال : إنه نفخ فيه من روحه » ، فلكم أن تعرفوا قول الله في آدم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا دَاخَلَتْهُ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالنفخ هنا في آدم موجود ، فلماذا سكتم عن هذه الحكاية منذ آدم وحتى عيسى عليه السلام ، وهكذا يتم دحض تلك الحجة ونهايتها ، وبعد ذلك نأتى إلى قضية أخرى ، وهي توفيه أو وفاته ، إلى القضيتين معا - توفيه ووفاته - حتى



نُبَيِّنُ الرَّأْيَيْنِ مَعَا . وَهَذَا تَسْأَلُ : لِمَاذَا فَتَنَّا فِي ذَلِكَ ؟ يَقُولُونَ : لَقَدْ أَحْبَبَا عِيسَى الْمَوْتَ ، وَنَقُولُ لَهُمْ : أَلَمْ تَأْخُذُوا تَارِيخَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ قَالَ اللَّهُ لَهُ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى وَلَئِنْ لَيُطَمِّئُنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ أَنْطَارٍ فَمَضْرُومٌ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إِذْ فَمَجَالَ الْفِتْنَةِ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَبِيرٌ ، وَكَذَلِكَ ، أَلَمْ يَحْيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِآيَةِ هِيَ الْعَصَا ؟ . إِنَّهُ لَمْ يَحْيَ . مِمَّا كَانَتْ فِيهِ حَيَاةٌ ، إِنَّمَا أَجْرَى اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ خَلَقَ الْحَيَاةَ فِيهَا لَمْ تَثْبِتْ لَهُ حَيَاةٌ ، فَاصْبَحَتْ الْعَصَا - وَهِيَ جَمَادٌ - حَيَّةً تَسْمَى لِمَاذَا إِذْ لَمْ تَفْتَنُوا فِي عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟

وَهَكَذَا نَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَفْتَنَ أَحَدٌ فِي الْمَعْجَزَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَوْ فِي إِحْيَاةِ الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاتَّبَاعِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَفَقَهُونَ مَعَنَا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَيْبٌ ، وَلَكِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ مَعَنَا يَقُولُونَ : إِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُوْنِسَ الْبَشَرَ بِصُورَةٍ يَتَجَلَّى لَهُمْ فِيهَا بَشَرًا فَجَاءَ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَتَحَقَّقَ لَهُمْ ذَلِكَ الْآنَسُ .

وَنَقُولُ لَهُمْ : سَنَبْحَثُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ بِدُونِ حَسَاسِيَّةٍ ، وَبِدُونِ عَصَبِيَّةٍ ، بَلْ بِالْعَقْلِ ، وَنَسْأَلُ : هَلْ خَلَقَ اللَّهُ عِيسَى لِيُعْطَى صُورَةٌ لِلْإِلَهِ ؟ . إِنْ عِيسَى كَانَ طِفْلًا ، ثُمَّ كَبُرَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، فَأَيُّ صُورَةٍ مِنْ صُورِهِ الْمَرْحَلِيَّةِ كَانَتْ تُمَثِّلُ اللَّهَ ؟

إِنْ كَانَتْ صُورَةُ طِفْلٍ فَهَلْ هِيَ صُورَةُ اللَّهِ ؟ وَإِنْ كَانَتْ صُورَةُ كَهْلٍ فَهَلْ هِيَ صُورَةُ اللَّهِ ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ صُورَةً وَاحِدَةً لَا نَرَاهَا وَلَا نَعْرِفُ كُنْهَهَا فَهُوَ سَبْحَانَهُ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، ، فَأَيُّ صُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ الَّتِي تَقُولُونَ : إِنَّهَا صُورَةُ اللَّهِ ؟

وَإِنْ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ هَذِهِ الصُّوَرِ فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَغْيَارًا ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ مَزْرَعٌ عَنْ ذَلِكَ . وَلَوْ كَانَ عَلَى صُورَةٍ وَاحِدَةٍ لَقُلْنَا : إِنَّهُ الثَّابِتُ وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ فَهُوَ

- سبحانه - الحق الذي لا يتغير إنهم يقولون : إن الله أراد أن يجعل صورته في بشر ليؤنس الناس بالإله ، فتمثل في عيسى .

ولنا أن نسأل : كم استغرق وجود عيسى على الأرض ؟ والإجابة : ثلاثين عاما أو يزيد قليلا . وهكذا تكون فترة معرفة الناس بالصورة الإلهية محدودة بهذه السنوات الثلاثين طبقا لتصوركم . ولا بد أن نسأل : ما عمر الخلق البشري كله ؟ إن عمر البشرية هو ملايين السنين . فهل ترك الله خلقه السابقين الأولين بدون أن يبدي لهم صورته ، ثم ترك خلقه الآخرين الذين قدموا إلى الحياة بعد وفاة عيسى - أى تمام مهمته - ورفعهم بدون أن يعطيهم صورة له ؟ إن هذا تصور لإله ظالم ، وسبحانه وتعالى منزّه عن الشرك والظلم . فلا يعقل أن يرضن بصورته فلا يبقها إلا ثلاثين عاما ؟ إن هذا قول لا يقبله عقل يثق في عدالة الله المطلقة .

ثم إنهم يقولون : إن عيسى عليه السلام قد صلب ، وهم معذرون والحق سبحانه وتعالى قد عذرهم في ذلك فأورد التاريخ الحق العادل ، حين يقول :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظُّلُمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ (١٥٧)

(سورة النساء)

لقد جعل الله لهم علما في أن يقولوا : إنه قتل أو صلب ؛ لأنه شبه لهم وكان من المعقول أن يلتبسوا من الإسلام حلا لهذه المشكلة ، لأن الإسلام جاء ليقول : لا ، لقد شبه لكم ، فما قتلوه وما صلبوه ؛ لأن هذا الفعل - القتل أو الصلب - ينقض فكرتهم عن أنه إله أو ابن إله . لأن المصلوب لو كان إلها أو ابن إله ، لكانت لديه القدرة التي تغلب الصالب ، فكيف يعقل الإنسان أن يتقلب الإله - أو ابن الإله - مقدورا عليه من مخلوق ؟ والإسلام عندما يقول : إن عيسى ابن مريم لم يصلب فقد كرمه الله . وهكذا ترى أن الإسلام قد جاء ليصفي العقائد كلها من عيوب التحريف التي قام بها المتبعون لتلك الأديان .

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليمرض علينا قضية جدلية حدثت في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يخرج الناس - مسلمين ونصارى ويهودا - من هذه البلبلة ، وأن يتم ذلك في مودة ، لأنهم كلهم مؤمنون بالعبودية لمعبود واحد . فقد جاء وفد من نصارى نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، والتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان هؤلاء القوم جدل مع اليهود ، ولهم جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان لليهود والنصارى معا جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والجدل بين اليهود والنصارى مصدره أن لليهود والنصارى قولاً متضارباً في بعضهم بعضاً يرويه لنا الحق :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَبَّسْتَ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَبَّسَتِ الْيَهُودَ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

( سورة البقرة )

فاليهود يقولون : « كان إبراهيم يهودياً ، والنصارى يقولون لا ، كان إبراهيم نصرانياً ، وأما الجدل بين النصارى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسيبه أنهم قد أرادوا أن يتكلموا في مسألة عيسى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يفضي القضية تصفية نهائية حتى لا تظل معلقة تلوكها الألسنة وتجعلها مثاراً للفتن . فلما اجتمع نصارى نجران تحت لواء رؤسائهم ، ومن هؤلاء الرؤساء من اسمه السيد ، ومنهم من يسمى العاقب صاحب المشورة ، ومعهم قسيس ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : ماذا تقولون في عيسى ؟ قالوا : إنه ابن الله . وقال لهم الرسول : إن عيسى عليه السلام قال : « إن عبد الله » وهو عبده ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، ففضبوا وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : هل رأيت إنساناً قط من غير أب ؟ إن كنت قد رأيت مثل ذلك فأخبرنا به .

وهنا نزلت الآية الكريمة :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ  
مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٥٩

لقد جاء القول الفصل بالحجة الأقوى ، فإذا كان عيسى عليه السلام قد جاء بدون أب ، فإن آدم عليه السلام قد جاء بدون أب ، وبدون أم ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعلمون أن رسول الله وأنتي نبي هذه الأمة ، فقالوا : أنظرنا غدا نتكلم في هذه المسائل ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فقالوا : لا .

وعندما يعرض الحق سبحانه صراع قضية حق مع قضية باطل فهو يقول :

﴿وَأَنَا أَوْلَىٰ بِآلِكُلٍّ يُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾

(سورة سبا)

أى إن طرفا واحدا على هدى ، والطرف الآخر على ضلال مبين ، لماذا ؟ لأن القضيتين متناقضتان ، ولا يمكن أن يجتمعا ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يجتمع بهم في مكان ظاهر ، ويدعو الطرفان الأبناء والنساء ، ويستهل الجميع إلى الله الحق أن تستنزل لعنة الله على الكاذبين ، وفي هذا جاء القول الكريم :

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ٦٠

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ  
تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ  
وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ  
عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

لقد جاء الحق البين والقول الفصل من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فلا مجال للشك أو المراء ، ومن يُرد أن يحتكم إلى أحد فليقبل الاحتكام إلى الإله العادل الذى لن يحكم بالباطل أبدا ، فهو سبحانه الحق ، ويحى هذا القول : « تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » . إن الطرفين مدعوان ليرجعا الدعوة لأبنائهم ونسائهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم مدعو لدعوة أبنائه ونسائه ، ومن له الولاية عليهم ؛ وبحضوره هو صلى الله عليه وسلم ، وهم مدعون لدعوة أبنائهم ونسائهم وأنفسهم للابتهال .

وقد يسأل سائل : ولماذا تكون الدعوة للأبناء والنساء ؟ والإجابة هي : أن الأبناء والنساء هم القرابة القريبة التى تهم كل إنسان ، وإن لم يكن رسولا ، إنهم بضعة من نفسه وأهله . فكان الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يقول لهم : « هاتوا أحبائكم من الأبناء والنساء لأنهم أعزة الأهل والصقهم بالقلوب وادخلوا معنا فى مباهلة » ، والمباهلة : هى التضرع فى الدعاء لاستئزال اللعنة على الكاذب ، فالمباهلة - بضم الباء - هى اللعنة ، وعندما يقول الطرفان : « يارب لتزل لعنتك على الكذاب منا » فهذا دعاء يحمل مطلق العدالة ؛ فالإله الذى يستطيع أن يتزل اللعنة هو الإله الحق . وهو سينزل اللعنة على من يشركون به ، ولو كانت اللعنة تنزل من الألهة المتعددة فسوف تنزل اللعنة على أتباع الإله الواحد .

ولهذا كانت الدعوة إلى المباهلة والمباهلة - كما قلنا - وهى ضراعة إلى القوة القاهرة التى تنصرف فى الأمر لتنتهى الخلاف ، ثم صار المراد بالمباهلة هنا مطلق الدعاء ،

فنحن نقول : « نبتهل إلى الله » ، أى ندعو الله .

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بالأمر المنزل من عند الله الحق بدعوة الأبناء والنساء والأنفس ، لكنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : « أنظرنا إلى غد ونأتى إليك » .

ثم أرسلوا فى الصباح واحدا منهم ليرى ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل هو مستعد لهذا الأمر حقيقة ، أو هو مجرد قول منه أراد به التهديد فقط ؟ ووجد رسولهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه الحسين والحسن وفاطمة وعلى بن أبى طالب ، لذلك قالوا : « لالن نستطيع المباهلة » ، والله ما باهل قوم نبيا إلا أخذوا ، وحاولوا ترضية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : « لتظل على ديننا ويظل محمد وأتباعه على دينه » لقد ظنوا أن الدعوة إلى المباهلة هى مجرد تهديد لن ينفذه الرسول . لكن صاحب اليقين الصادق جاء ومعه أهله استعدادا للمباهلة ، ولن يقبل على مثل هذا الموقف إلا من عنده عميق الإيمان واليقين ، أما الذى لا يملك يقينا فلن يقبل على المباهلة بل لابد أن يرجع عنها . وقد رجعوا عن المباهلة ، وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : لتفك معنا ألا تغزونا أو تخيفنا على أن نرسل لك الجزية فى رجب وفى صفر وهى من الخيل وغبر ذلك ! لقد فروا من المباهلة لمعرفتهم أنهم فى شك من أمرهم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان على يقين بما أنزله الله عليه وكان العرب إذا خرجوا إلى الحرب يأخذون نساءهم معهم ، وذلك حتى ينجل الرجل من الفرار ، وحتى لا يترك أولاده ونساءه لكيلا يذلوا من بعد موته ، فإن قتل قتلوا معه هم أيضا .

إذن إن أردنا نحن الآن أن ننهى الجدل فى مسألة عيسى عليه السلام فلنسمع قول الحق سبحانه وتعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين » إنه الحق القادم من الربوبية فلا تكن أيها السامع من الشاكين فى هذه المسألة . ومن أراد أن يأق بحجة مضادة للحجة القادمة من الله فلنا أن نحسمها بأن نقول : « تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل لعنة الله على الكاذبين » .

ولن يجرؤ واحد منهم على ذلك . لماذا ؟ لأن السابقين عليهم قد فروا من المباهلة

ولأن الله - سبحانه - يريد أن يزيد المؤمنين إيماناً واطمئناناً إلى أن ما ينزله على رسوله هو الحق قال - جل شأنه - :

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ ﴾  
 وَابْتَغِ اللَّهَ لَّهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾

وقوله الحق : « إن هذا هو القصص الحق » يلفتنا إلى أن ما يرويه الحق لنا هو الحق المطلق ، وليس مجرد حكاية أو قصة ، أو مزج خيال بواقع ، كما يحدث في العصر الحديث ، عندما أخذت كلمة القصة في العرف الأدبي الحديث - القادم من حضارة الغرب - إن القصة بشكلها الحديث المعروف إنما يلعب فيها الخيال دوراً كبيراً ، لكن لو عرفنا أن كلمة « قصة » مشتقة من قص الأثر لبحث أهل الأدب فيما يكتبون من روايات وخیالات عن كلمة أخرى غير « قصة » ، فالقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا أخيلة .

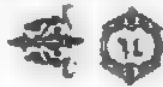
وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول : « إن هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله » فإذا جاء القصص من الإله الواحد فلنطمئن إلى أنه لا يوجد إله آخر سيقا بقصص أخرى ، ولأن الله الواحد هو « العزيز الحكيم » أى الغالب على أمره ، ومع أنه غالب على أمره فهو حكيم في تصرفه .

لكن هل اتعظ القوم الذين جادلوا ؟ لا ، إن الحق يقول :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ ﴿٦٣﴾

إن قوله « فإن تولوا » يدل على أن الله قد علم ألا أنهم لن يقبلوا المباهلة ، وهكذا حكموا على أنفسهم بأنهم المفسدون ، فصدق الحق سبحانه في قوله : « فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين » ومع ذلك فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى الدين الكامل لأنهم مؤمنون بالإله ، وبالسما ، وبالكتاب ، لذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ  
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ  
شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ  
اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾



إنها دعوة إلى كلمة مستوية لا التواء فيها « ألا نعبد إلا الله » وهذا أمر لا جدال فيه ، ثم « ولا نشرك به شيئا » أى لا ندخل معه من لا يقدر على الارتفاع إلى جلال كياله ، فالمعقول السليمة ترفض كلمة « الشرك » ، لأن الشرك يكون على ماذا ؟ هل الشرك على خلق الكون ؟ إن كل مخلوق أشركوه في الألوهية إنما جاء من بعد أن خلق الله الكون . أو يكون الشرك على إدارة هذا الكون ؟

إذا كان هذا هو السبب في الشرك فهو آتفه من أن يكون سببا لأن الحق سبحانه قادر على إدارة الكون ، وأنزل منهجا إذا ما اتبعه الإنسان صار الكون منسجما . إذن فأى شرك لا لزوم له . وإن كان - والعياذ بالله - له شريك وتمتع إله ما بقدرات خاصة فهذه القدرات تنقص من قدرات الإله الثانى . وهذا عجز في قدرة هؤلاء الألهة ، ولهذا يحسم الحق هذا الأمر بقوله الكريم :



﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذْنَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٦١)

(سورة المؤمنون)

إذن فمسألة الشركاء هذه ليست مقبولة ، وبعد ذلك يقول الحق : « ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » . أى ألا نأخذ من بعضنا كهنوتا وكهنة ، يضع الواحد منهم الحلال لنا أو الحرام علينا ، فالتحليل والتحرير إنما يأتي من الله ، وليس لمخلوق أن يحلل أو يحرم . ثم يقول الحق : « فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » أى إن من لا يقبل عبادة الإله الواحد الذى لا شريك له ولا أرباب تحلل أو تحرم ، إنما يريد أربابا وشركاء ، وهذا معناه أن قلبه غير مستعد لتقبل قضية الإيمان ؛ لأن قضية الإيمان تتميز بأن مصدرا واحدا هو الذى له مطلق القدرة ، وهو مصدر الأمر فى الحركة وهو الواحد الأحد ، فلا تتضارب الحركات فى الكون .

إن حركاتنا كلها وهى الخاضعة لمنهج الله بـ « افعل » و « لا تفعل » فلو أن هناك إلها قال : « افعل » وإلها آخر قال : « لا تفعل » ، لكان معنى ذلك والعياذ بالله أن هؤلاء الآلهة أغيار لها أهواء . والحق سبحانه يحسم هذا بقوله :

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ

بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (٦١)

(سورة المؤمنون)

وهكذا كانت دعوة الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، إنها آية تحمل دعوة مستوية بلا نتوءات ، فلا عبادة إلا لله ، ونحن لا نأخذ « افعل » و « لا تفعل » إلا من الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا كهنوتا أو مصدرا للتحليل أو التحريم ، فإن رفضوا وتولوا ، فليقل المؤمنون : « اشهدوا بأنا مسلمون » أى أنه

لا يوجد إلا إله واحد ، ولا شركاء له ، وبعضنا لا يتخذ بعضا أربابا ، وتلك شهادة بأن الإسلام إنما جاء بالأمر المستوى الذي لا عوج ولا نتوء فيه ونحن متبعون ما جاء به .

وبعد ذلك يقول الحق :

يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ  
وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا  
تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

إن الحق يسألم : لماذا يكون جدالكم في إبراهيم خليل الله ؟ إن اليهود منكم ينسبون أنفسهم إلى موسى ، والنصارى منكم ينسبون أنفسهم إلى عيسى ، وإبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا كما يدعى اليهود ، فاليهودية قد جاءت من بعد إبراهيم والنصارى لا يمكنهم الادعاء بأن إبراهيم كان نصرانيا ، لأن النصرانية قد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام ، فلم الحاجة إذن ؟ لقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم فكيف يكون تابعا للتوراة والإنجيل ؟

وبعد ذلك يقول الحق :

هَٰأَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حُجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ ، عَلِمْتُمْ  
فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ  
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

أى لقد جادلتم فيما بقى عندكم من التوراة وتريدون أن تأخذوا الجدل على أنه باب مفتوح ، نجادلوا في كل شيء ، وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الخالق الرحمن علام الغيوب .

ويوضح الحق هذا الأمر فيقول :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

وبذلك يتأكد أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ، لأن اليهودية جاءت من بعده . ولم يكن إبراهيم نصرانيا ، لأن النصرانية جاءت من بعده ، لكنه وهو خليل الرحمن ، كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، ونحن نفهم أن كلمة « حنيفا » تعنى الدين الصافي القادم من الله ، والكلمة مأخوذة من المحسات ، فالحنف هو ميل في الساقين من أسفل ، أى اعوجاج في الرجلين ، ثم نقل الحنف إلى كل أمر غير مستو .

وهنا يتساءل الإنسان ، هل كان إبراهيم عليه السلام في العوج أو في الاستقامة ؟ وكيف يكون حنيفا ، والحنف عوج ؟ وهنا نقول : إن إبراهيم عليه السلام كان على الاستقامة ، ولكنه جاء على وثنية واعوجاج طاغ فالعالم كان معوجا . وجاء إبراهيم ليخرج عن هذا العوج ، ومادام منحرفا عن العوج فهو مستقيم ، لماذا ؟ لأن الرسل لا يأتون إلا على فساد عقدى وتشريعى طاغ . والحق سبحانه وتعالى ساعة ينزل منهجه يجعل في كل نفس خلية إيمانية . والخلية الإيمانية تستيقظ مرة ، فتلتزم ، وتغفل مرة ، فتتحرف ، ثم يأتى الاستيقاظ بعد الانحراف ، فيكون الانتباه ، وهكذا توجد النفس اللوامة ، تلك النفس التى تهمس للإنسان عند الفعل الخاطيء : إن الله لم يأمر بذلك .

ويعود الإنسان إلى منهج الله تائباً ومستغفراً ، فإن لم توجد النفس اللوامة صارت النفس أمارة بالسوء ، وهي التي تتجه دائماً إلى الانحراف ، وحول النفس الواحدة توجد نفوس متعددة تحاول أن تقاوم وتقوم المعوج ، وهي نفوس من البيئة والمجتمع ، فمرة يكون الاعتدال والانحياز إلى الصواب بعد الخطأ قادمًا من ذات الإنسان أى من النفس اللوامة ، ومرة لا توجد النفس اللوامة ، بل توجد النفس الأمارة بالسوء ، لكن المجتمع الذي حول هذا الإنسان لا يخلو من أن يكون فيه خلية من الخير تهديه إلى الصواب ، أما إذا كانت كل الخلايا في المجتمع قد أصبحت أمارة بالسوء فمن الذي يعيدها ويصوبها ؟

هنا لابد أن يأتي الله برسول جديد ، لأن الإنسان يفقد الردع من ذاتية النفس بخلاياها الإيمانية ، ويفتقد الردع من المجتمع الموجود لخلوه كذلك من تلك الخلايا الطيبة ، وهكذا يطم الظلام ويعم ، فيرسل الله رسولا ليعيد شعلة الإيمان في النفوس . والله سبحانه وتعالى قد ضمن لامة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يأتي لها نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا فمن الضروري أن يوجد فيها الخير ويبقى ، فالخير يبقى في الذات المسلمة ، فإن كانت الغفلة فالنفس اللوامة تصوب ، وإن كانت هناك نفس أمارة بالسوء فهناك قوم كثيرون مطمئنون يهدون النفس الأمارة إلى الصواب .

وهكذا لن تخلو أمة محمد في أى عصر من العصور من الخير ، أما الأمم الأخرى السابقة فأمرها مختلف ؛ فإن الله يرسل لهم الرسل عندما تنطفئ كل شموع الخير في النفوس ، ويعم ظلام الفساد فتدخل السماء ، وحين تتدخل السماء يقال : إن السماء قد تدخلت على عوج لتعده وتقومه .

إذن إبراهيم عليه السلام جاء حنيفاً ، أى مائلاً عن المائل ، ومادام مائلاً عن المائل فهو مستقيم ، فالحنيفية السمحة هي الاستقامة . وهكذا نفهم قول الحق : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » .

إن إبراهيم هو أبو الأنبياء ، ولو لم تكن اليهودية قد حُرِفَت وبدلت ، وكذلك النصرانية لكان من المقبول أن يكون اليهود والنصارى على ملة إبراهيم ؛ لأن الأديان لا تختلف في أصولها ، ولكن قد تختلف في بعض التشريعات المناسبة للعصور ،

ولذلك فسيدنا إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا باعتبار التحريف الذي حدث منهم ، أى لا يكون موافقا لهم في عقيدتهم ، وكذلك لا يمكن أن يكون نصرانيا للأسباب نفسها ، لكنه « كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » أى أنه مائل عن طريق الاعوجاج .

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : « إن إبراهيم كان مستقيما » ولماذا جاء بكلمة « حنيفا » التى تدل على العوج ؟ ونقول : لو قال : « مستقيما » لظن بعض الناس أنه كان على طريقة أهل زمانه وقد كانوا فى عوج وضلال ولهذا يصف الحق إبراهيم بأنه « كان حنيفا مسلما » وكلمة « مسلما » تقتضى « مسلما إليه » وهو الله ، أى أنه أسلم زمامه إلى الله ، ومُسَلِّما فيه وهو الإيمان بالمنهج .

وعندما أسلم إبراهيم زمامه إلى الله فقد أسلم فى كل ما ورد به « افعل ولا تفعل » وإذا ما طبقنا هذا الاشتقاق على موكب الأنبياء والرسل فسنجد أن آدم عليه السلام كان مسلما ، ونوحا عليه السلام كان مسلما ، وكل الأنبياء الذين سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مسلمين .

كان كل نبي ورسول من موكب الرسل يلقي زمامه فى كل شيء إلى مُسَلِّم إليه ، وهو الله ، ويطبق المنهج الذى نزل إليه ، وبذلك كان الإسلام وصفا لكل الأنبياء والمؤمنين بكتب سابقة ، إلى أن نزل المنهج الكامل الذى اختتمت به رسالة السماء على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم به افعل ولا تفعل « ولم يعد هناك أمر جديد باقى ، ولن يشرع أحد إسلاما لله غير ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اكتملت الغاية من الإسلام ، ونزل المنهج بشامه من الله . واستقر الإسلام كعقيدة مصفاة ، وصار الإسلام علما على الأمة المسلمة ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهى التى لا يُستدرك عليها لأنها أمة أسلمت لله فى كل ما ورد ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم . لذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا

## النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾

ولنا أن نلاحظ أن كل رسول من الرسل السابقين على سيدنا رسول الله إنما نزل لأمة محددة ، فموسى عليه السلام أرسله الله إلى بني إسرائيل ، وكذلك عيسى عليه السلام ، قال تعالى : « ورسولا إلى بني إسرائيل » أي رسولا مسلما في حدود تطبيق المنهج الذي جاء به ونزل إلى هؤلاء الرسل ، فلما تغير بعض من التشريع وتمت تصفية المنهج الإيماني بالرسالة الخاتمة ، وهي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهي عامة لكل البشر فقد آمن بعض من أهل تلك الأمم برسالته عليه الصلاة والسلام ، كما آمن بها من أرسل فيهم سيدنا رسول الله ، واستمر موكب الإيمان بالدين الخاتم إلى أن وصل إلينا . وهكذا صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي خاتمة الأمم الإسلامية ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثل ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ، فأناب اللبنة وأنا خاتم النبيين » (١) .

وحين يقولون : إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا . إنما أوردوا ذلك لأن إبراهيم عليه السلام فيه أبوة الأنبياء . وهم قد أرادوا أن يستحضروا أصل الخلقة الإيمانية في محاولة لأن ينسبوها إلى أنفسهم وكأنهم تناسوا أن المسألة الإيمانية ليست بالجنس أو الوطن أو الدم ، أو أي انتهاء آخر غير الانتهاء لمنهج الله الواحد ، ولذلك فأولى الناس بإبراهيم ليسوا من جاموا من ذريته ، بل إن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه ، وبنينا محمد صلى الله عليه وسلم قد اتبع إبراهيم عليه السلام ، لذلك فلا علاقة لإبراهيم بمن جاء من نسله ، ممن حرفوا المنهج ولم يواصلوا الإيمان ، لقد حسم الله هذه القضية مع إبراهيم عندما قال سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ مِيثَاقَهُمْ فَنَقَّضْنَاهُمْ أَفْوَاجًا ۖ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذَرَنَّهُمْ أَكْثَرًا حَقًّا ۚ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْفِتْنَةِ إِلَّا بِأَمْرِنَا ۖ إِنَّ الْفِتْنَةَ فِي أَيْدِيَ النَّاسِ ۖ إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۚ ﴾

(سورة البقرة)

لقد امتحن الحق إبراهيم بكلمات من الأوامر والنواهي ، فاتمها إبراهيم عليه السلام تماما على أقصى ما يكون من الالتزام ، ولم يكن مجرد إنمام يتظاهر بالشكلية ، إنما كان إنماما بالشكل والمضمون معا .

والمثال على تمام الأوامر والنواهي بالشكل فقط هو رؤيتنا لمن يتلقى الأمر من الله بأن يصل خمسة فروض ، فيصل هذه الفروض الخمسة كإجراء شكلي ، لكن هناك إنسانا آخر يصل هذه الفروض الخمسة بحقتها في الكمال مضمونا وشكلا ، إنه يتم الأوامر الإلهية إنماما يرضى عنه الله .

ولقد أدى إبراهيم عليه السلام الابتلاءات التي جاءت بالكلمات التكليفية من الله على أكمل وجه . ألم يأمر الله إبراهيم عليه السلام على أن يرفع القواعد من البيت ؟ أما كان يكفي إبراهيم عليه السلام لينفذ الأمر برفع بناء الكعبة إلى أقصى ما تطوله يده ؟ إنه لو فعل ذلك لكان قد أدى الأمر ، لكن إبراهيم عليه السلام أراد أن يوفى الأمر بإقامة القواعد من البيت تمام الوفاء ، فبنى الكعبة بما تطوله يده ، وبما تطوله الحيلة أيضا ، فجاء إبراهيم عليه السلام بحجر ليقف من فوقه ، ويزيد من طول جدار الكعبة مقدار الحجر ، لقد أراد أن يوفى البناء بطاقته في اليدين وبحيلته الابتكارية أيضا ، فلم يكن معروفا في ذلك الزمان « السقالات » وغير ذلك من الأدوات التي تساعد الإنسان على الارتفاع عن الأرض إلى أقصى ما يستطيع .

ولو أن إبراهيم عليه السلام قد رفع القواعد من البناء على مقدار ما تطوله يده ؛ لكان قد أدى تكليف الله ، لكنه أراد الأداء بإمكاناته الذاتية الواقعية ، وأضاف إلى ذلك حيلة من ابتكاره ، لذلك جاء بالحجر الذي يقف عليه ليزيد من جدار الكعبة ، وهذا ما نعرفه عندما نزور البيت الحرام بـ « مقام إبراهيم » فلما أتم إبراهيم الكلمات

هذا الإنعام قال الحق سبحانه لإبراهيم :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى إنك يا إبراهيم مأمون على أن تكون إماماً للناس في دينهم لأنك أدبت و افعل ولا تفعل ، بنهام وإتقان . ولنر غيره إبراهيم عليه السلام على منهج ربه ، إنه لم يرد أن يستمر المنهج في حياته فقط ، ولكنه طلب من الله أن يظل المنهج والإمامة في ذريته ، فقال الحق سبحانه على لسان إبراهيم طالبا استمرار الأمانة في ذريته :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

إن سيدنا إبراهيم قد امتلأ بالغيرة على المنهج وخاف عليه حتى من بعد موته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يعلم الخلق جميعهم من خلال إبراهيم فيقول سبحانه :

﴿ لَا يَتَّبِعُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة البقرة)

أى أن المسألة ليست وراثية ، لانه سيأتى من ذريتك من يكون ظالماً لنفسه ويعدل في المنهج بما يناسب هواه ، وهو بذلك لا تتوافر فيه صفات الإمامة . إن الحق يعلمنا قواعد إرث النبوة ، إن تلك القواعد تقضى أن يرث الأنبياء من هو قادر على تطبيق المنهج بتمامه دون تحريف ، والمثال على ذلك ما علمه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لسلمان الفارسي : « سلمان منا آل البيت »<sup>(١)</sup>

إن سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم لم يقل لسلمان الفارسي « أنت من العرب » لا . بل نسبه لآل البيت ، أى نسبه إلى إرث النبوة بما يتطلبه هذا الإرث



من تطبيق المنهج بشامه ، لقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما علمه الحق سبحانه لسيدنا إبراهيم عليه السلام عن إرث النبوة ، فليس هذا الإرث بالدم ، إنما بتطبيق المنهج نصا وروحا ، كما تعلم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مما علمه له الحق عن نوح عليه السلام ، لقد وعد الحق نوحا بأن ينجيه وأهله من الطوفان . ويرى نوح عليه السلام ابنه مشرفا على الفرق ، فيسأله « ألم يعدنى الله أن ينجى أهلى ؟ » فينادى نوح عليه السلام ربه ، بما أورده القرآن الكريم حين قال :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ

الْحَكِيمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

( سورة هود )

فيقول الحق ردا على طلب نوح نجاة ابنه :

﴿ قَالَ يَبْنَوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

إِنِّي أُعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

( سورة هود )

ولنتظر إلى التعليل القرآنى لانتفاء الاهلية عن ابن نوح عليه السلام « إنه ليس من أهلك » ؟ لماذا ؟ « إنه عمل غير صالح » . إن الحق لم يقل « إنه عامل غير صالح » - الذاتية ممنوعة - لأن الفعل هو الذى يحاسب به الله ، فالإيمان ليس نسبا ، ولا انتهاء لبلد ما ، أو انتهاء لقوم ما ، إنه العمل ، فمن يعمل بشرع أى رسول يكون من أهل هذا الرسول ، إن النسبة للأنبياء لا تأتى للذات التى تنحدر من نسب النبى ، بل يكون الانتساب للأنبياء بالعمل الذى تصنعه الذات .

وفى موقع آخر يعلمنا الحق عن سيدنا إبراهيم موقفا يصور رحمة الخالق بكل خلقه من آمن منهم ومن كفر . لقد طلب إبراهيم عليه السلام سعة الرزق لأهل بيته الذين جعل إقامتهم بمكة ، كما جاء فى الكتاب الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة البقرة)

فهل استجاب الحق لدعوة إبراهيم برزق الذين آمنوا فقط من أهل مكة ؟ لا ، بل رزق المؤمنين والكافر . وعلم إبراهيم ذلك حينما قال له :

﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة البقرة)

إن الرزق المادى مكفول من الحق لكل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، والافتيات المادى مكفول من قبل الله لأنه هو الذى استدعى المؤمن والكافر إلى هذه الدنيا . أما رزق المنهج فأمر مختلف ، إن اتباع المنهج يقتضى التسليم بما جاء به دون تحريف . وهذا المنهج لم يتبعه أحد عن جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام إلا القليل ، فمن آمن برسالة موسى عليه السلام دون تحريف هم قلة .

ثم جاء عيسى عليه السلام برسالة تبعد بنى إسرائيل عن المادية الصرفة إلى الإيمان بالغيب ، لكن رسالة عيسى عليه السلام تم تحريفها أيضا ، وعلى ذلك فأولى الناس بإبراهيم عليه السلام هم الذين اتبعوا المنهج الخاتم الصحيح والمصفى لكل ما سبق من رسالات ، وهؤلاء هم الذين آمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، والله ولى المؤمنين جميعا من آمن منهم برسالة إبراهيم خليل الرحمن ، إيمانا صحيحا كاهلا ، ومن آمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . . بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَن يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

إن معنى «ودت» هو «مُحِبَّت» و«أُحِبْتُ» . ولماذا أُحِبُّوا أن يُضِلُّوا المؤمنين ؟ لأن المنحرف حين يرى المستقيم ، يعرف أنه كمنحرف لم ينجح في أن يضبط حركته على مقتضى التكليف الإيماني لـ «افعل» و«لا تفعل» ، أما الملتزم المؤمن فقد استطاع أن يضبط نفسه ، وساعة يرى غير الملتزم إنساناً آخر ملتزماً ، فإنه يحتقر نفسه ، ويقول بينه وبين نفسه حسداً للمؤمن : لماذا وكيف استطاع هذا الملتزم أن يقلد على نفسه ؟

ويحاول المنحرف أن يأخذ الملتزم إلى جانب الانحراف ، وعندما لا يستطيع جذب الملتزم إلى الانحراف فهو يسخر منه ، ويهزأ به ، ويحاول أن يحتال عليه ليأخذه إلى جانب الانحراف . ألم يقل الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۖ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ خَفِظِينَ ۖ ﴾

(سورة التوبة)

وهذا ما يحدث الآن عندما يرى أهل الانحراف إنساناً مؤمناً إذا استطاع ، فيسخرون منه بكلمات كالتي تسمعها «خذنا على جناحك» أو يحاولون النيل من إيمانه وعندما يعود أهل الانحراف إلى أهلهم فهم يروون بتلذذ كيف سخروا من المؤمنين ، وكأنهم يحققون السعادة لهؤلاء الأهل بحكايات السخرية من الإنسان المؤمن ، ويطمئن الحق المؤمنين بأن لهم يوماً يضحكون فيه من هؤلاء الكفار :

﴿ قَالِیَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۖ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ۖ ﴾

(سورة التوبة)

ويسأل الحق أهل الإيمان :

## ﴿ هَلْ يُؤِيبُ الْكَفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

(سورة النطفين)

أى قد عرفتم كيف أجازى بالعقاب أهل الكفر .

لذلك فأولى الناس بإبراهيم هم المؤمنون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . ولا يفتأ بعض من أهل الكفر من محاولة جذب المؤمنين إلى الضلال . إنهم يحبون ذلك ويتمنونه ، ولكن ليس كل ما يوده الإنسان يحدث ، فالتمنى هو أن يطلب الإنسان أمرا مستحيلا أو غير المنال ، هم يحبون ذلك ولكن لن يصلوا إلى ما يريدون ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إنهم يتمنون إضلال المؤمنين ، لكن هل يستطيعون الوصول إلى ذلك ؟ لا : والمثال على ذلك هو ما فعله بعض أهل الكتاب من اليهود عندما ذهبوا إلى معاذ بن جبل وإلى حذيفة الصحابيين الجليلين ، وذهبوا أيضا إلى عمار الصحابي الجليل وحاولوا فتنه معاذ وحذيفة وعمار لكنهم لم يستطيعوا .

وعلينا أن نعرف أن « الضلال » يأتي على معان متعددة ، فقد يأتي الضلال مرة بمعنى الذهاب والفناء في الشيء ، مثل قوله الحق :

﴿ وَقَالُوا أَوَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَنُفُورُونَ ﴾

(سورة السجدة)

لقد تسامل المشركون « أبعد أن تلوب في الأرض وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية ، ونُبعث من جديد ؟ » . وقد يأتي الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اعتناء الإنسان إلى وجه الحق ، كما قال الحق وصفا لرسوله صلى الله عليه وسلم عندما رفض عبادة الأصنام وظل يبحث عن المنهج الحق .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۖ ﴾

(سورة الضحى)

أى أنك يا محمد لم يعجبك منهج قريش في عبادة الأصنام ، وظللت تبحث عن المنهج الحق ، إلى أن هدأك الله فأنزل إليك هذا المنهج القويم . لقد كنت ضالا تبحث عن الهداية ، فجاءتك النعمة الكاملة من الله .

وهناك لون آخر من الضلال ، وهو أن يتعرف الإنسان على المنهج الحق ، لكنه ينحرف عنه ويتجه بعيدا عن هذا المنهج مثل قول الحق : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم » .

ونتساءل : كيف يحدث إضلال النفس ؟ وتكون الإجابة هي : أن الضال الذى يعرف المنهج وينكره إنما يرتكب إثما ، ويزداد هذا الإثم جرما بمحاولة الضال إضلال غيره ، فهو لم يكتف بضلال ذاته بل يزداد ضلالا بمحاولته إضلال غيره . وهذا القول الكريم قد حل لنا إشكالا في فهم قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِلْهَا لَا تُخْتَلِ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة فاطر)

وفي فهم قوله - جل شأنه - :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴾ (١٩)

(سورة النحل)

وهكذا نعرف أن الوزر في آية فاطر هو وزر الضلال في الذات والأوزار في سورة النحل هي لإضلال غيرهم فهؤلاء الضالون لا يكتفون بضلال أنفسهم ، بل يزدادون من ضلال أنفسهم أوزارا بإضلال غيرهم فهم بذلك يزدادون ضلالا مضافا إلى أنهم يحملون أوزارهم كاملة . « وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إنهم لا يشعرون بالكارثة التي سوف تأتي من هذا الضلال المركب الذي سينالون عليه العقاب . ولو أنهم تعمقوا قليلا في الفهم لتوقفوا عن إضلال غيرهم ، ولوبحثوا عن اليقين الحق لتوقفوا عن ضلال أنفسهم .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِمَا كُنْتُمْ بِاللَّهِ  
وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

إن الحق يسألم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم . لم تكفرون بآيات الله العجيبة وأنتم تشهدون ؟ وهنا قد يسأل سائل هل شهد أهل الكتاب الآيات العجيبة في زمن رسول الله ؟ .

والإجابة هي : ألم يستفتح اليهود على من يقاتلونهم بمجىء نبي قادم ؟ إنهم كانوا يدعون الله قائلين : إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم فكانوا ينصرون على أعدائهم فلما بعث - صلى الله عليه وسلم - كفروا به بغيا وحسدا قال الله تعالى :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ  
عَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَئِمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

( سورة البقرة )

لقد كفروا من أجل السلطة الزمنية . فقد كانوا يريدون الملك والحكم . وهذا عبدالله بن سلام الذي كان يهوديا فأسلم قد قال عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد » .

إذن فمعرفةهم بنعت رسول الله ووصفه موجودة في آيات التوراة ولقد شهدوا الآيات البينات ، لكنهم أنكروا الآيات طمعا في السلطة الزمنية حتى ولو تطلب ذلك أن يحرف بعضهم منهج الله سبحانه وتعالى ويحولوا هذا التحريف إلى سلطة زمنية فاسدة كهؤلاء الذين باعوا صكوك الغفران ولذلك قال الحق عن هؤلاء الذين يحرفون منهج الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لِمَنْ كَتَبَ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لِمَنْ ثَمَّ يَكْتُسُونَ ﴾ (٧٨)

(سورة البقرة)

إن العذاب هو مصير هؤلاء الذين يحرفون كلام الله ومنهجه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَأْهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٧٩)

ومعنى « تلبس » هو إدخال شيء في شيء ، فنحن عندما نرتدى ملابسنا ، إنما ندخل أجسامنا في الملابس ، وبهذا يختلف منظر اللباس والملبوس .

وفي مجال الدعوة إلى الله نجد دائما الحق وهو يواجه الباطل ، إنهم يخلطون الحق بالباطل فهذه الآية تتحدث عن محاولة من بعض أهل الكتاب لإلباس الحق بالباطل ، وقد حدث ذلك عندما حرقوا التوراة والإنجيل وأدخلوا فيها ما لم يأت به موسى عليه السلام أو عيسى عليه السلام ، وكانت هذه هي محاولة ضمن محاولات أخرى لإلباس الحق بالباطل ، ثم جاءت أكبر المحاولات لإلباس الحق بالباطل وهو

إنكارهم للبشارة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، رغم أنها وردت في كتبهم السماوية .

لقد أعلنوا الإيمان بموسى أو عيسى ، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لقد أنكروا بشارة موسى وعيسى برسالة محمد الخاتمة ، وكان ذلك قمة إلباس الحق بالباطل ، لأنهم أعلنوا الإيمان برسولين ثم أنكروا الإيمان بالنبى الخاتم وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن الإسلام الذى جاء به محمد رسول الله هو الدين الحق ، وكانوا إذا ما خلوا إلى أنفسهم عرفوا ذلك ولكنهم يمحذونه .

﴿ وَجَحِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُتُوًا ﴾

( من الآية ١٤ سورة النحل )

ومع ذلك فهم يحاولون العثور على حيلة ليتعد بها الناس عن تلك الرسالة الخاتمة ، تماديا منهم في الكفر ، ونزل قول الحق :

﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِى

أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامِنُوا وَجِهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

لقد أراد بعض من أهل الكتاب أن يشككوا المسلمين في أمر المنهج ، لذلك اصطنعوا تلك الحيلة ، فالمؤمنون من العرب وقريش في ذلك الزمن كانوا أميين وكانوا يعرفون أن أهل الكتاب على علم بمناهج السماء ، ولم يكن القرآن كله قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا ما آمن بعض منهم برسالة رسول الله وجه النهار وكفروا به آخر النهار فهذا خلط للحق بالباطل . وفي هذا خداع للمؤمنين .



ولنا أن نعرف أن « وجه النهار » مقصود به ساعات الصباح والظهر ، فالوجه هو أول ما يواجه في أى أمر ، ونحن نأخذ ذلك فى أمثلة حياتنا اليومية ، فنقول عن بائع الفاكهة : « لقد صنع وجهها للفاكهة » ، أى أنه قد وضع أنضج الثمار فى واجهة العربة ، وأخفى خلف الثمار الصالحة الناضجة ثمارا أخرى فاسدة . وعندما يفعل التاجر مثل هذا الفعل فمقصده الغش والخداع ، لأن الإنسان إذا ما اشترى أى مقدار من هذه الفاكهة فسيجد ربع ما اشترى هو من واجهة الفاكهة ، والباقي من الثمار الفاسدة .

وكذلك حاول بعض من أهل الكتاب أن يحددوا المؤمنين بإعلان الإيمان أول النهار ثم إعلان الكفر آخر النهار ، والهدف بطبيعة الحال هو إشاعة الشك وزراعة البلبلة فى نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين ، فقد يقول بعض من الأميين : « لقد اختبر أهل الكتاب هذا الدين الجديد وهم أهل علم يناهج السماء ولم يجدوه مطابقا لمناهج السماء » .

أو أن الآية قد نزلت فى مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ، فإذا كان الحق سبحانه قد أمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحول القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة ، فالكافرون من أهل الكتاب أرادوا نقض ذلك ، وقالوا : « فلنسمع أول النهار كلام محمد ونتوجه فى الصلاة إلى الكعبة ثم نصل آخر النهار ونجعل قبلتنا بيت المقدس » .

وكان الحق قد أراد بذلك أن يكشف لنا أن كل أساليب الكفر هى من تمام قلة الفطنة وعدم القدرة على حسن التدبير ، لقد أرادوا إشعال الحرب النفسية ضد المسلمين ، لعل بعضا من المسلمين يتشككون فى أمر الدين الجديد ، لكنهم دون أن يلحظوا أنهم قد فضحوا أنفسهم ، واعترفوا دون قصد متهم بأن الذين آمنوا بالقرآن هم المؤمنون حقا بينما هم قد أخذوا لأنفسهم موقف الكفر الذى هو نقيض للإيمان ، قال سبحانه حكاية عنهم : « آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره » فهم قد ارتضوا لأنفسهم الكفر .

لقد أعلن هؤلاء المشككون التصديق بالإسلام ، وذلك ليعرف الناس عنهم ذلك ، ولكونهم أهل كتاب فهم قادرين على الحكم عليه ، فإذا ما رجعوا عن

الإسلام من بعد معرفته ، فيقولون : إن رجوعنا ليس بسبب الجهل أو التعصب ، إنما بسبب اختبارنا لهذا الدين ، فلم نجده مناسباً ولا متوافقاً مع ما نزل على رسولنا . وهذا من أساليب الحرب النفسية .

والحق سبحانه وتعالى يكشف ذلك المكر والخداع للذين حاولوا أن يكتسبوا خداعهم ولعبتهم الماكرة ، والتي أرادوا بها التشكيك والخداع . فينزل على رسوله هذا القول الحق :

﴿ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى  
هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّكُمْ  
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ  
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

إن الحق سبحانه يكشف للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به من الأميين لعبة إيمان بعض من أهل الكتاب بالإسلام وجه النهار والكفر به آخر النهار ، لقد طالب المتآمرون بعضهم بعضاً أن يظل الأمر سراً حتى لا يفقد المكر هدفه وهو بلبلة المسلمين من الأميين ، ولذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » أي لا تكشفوا سر هذه الخدعة إلا لمن هو على شاكلتكم ، لكن الحق يكشف هذا الأمر كله بنزول هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلاغه إياها للمؤمنين ، وبذلك فسد أمر تلك البلبلة ، وارتدت الحرب النفسية إلى صدور من أشعلوها ، ويستمر القول الكريم في كشف خديعة هؤلاء البعض من أهل الكتاب فيقول سبحانه : « قل إن الهدى هدى الله أن يؤق أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم » .

إن الحق سبحانه يكشف فعل الماكرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إهلال الإيمان أول النهار كلون من « هدى النفس » لكنه من صميم الضلال والإضلال وذريعة له ، ولم يكن هدى من الله ؛ لأن هدى الله إنما يوصل الإنسان إلى الغاية التي يريدتها الله ، وهؤلاء البعض من أهل الكتاب أرادوا بالخديعة أن يجعلوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أتباع يؤمنون بالإسلام ؛ لقد تواصى هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتموا اتفاقهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به في آخره ، وألا يعلنوا ذلك إلا لأهل ديارهم حتى لا يفقد المكر هدفه ، وهو بلبلة المسلمين .

لقد أخذهم الخوف ؛ لأن الناس إن أخذوا بدين محمد صلى الله عليه وسلم لأوتوا مثلما أوتى أهل الكتاب من معرفة بالمنهج ، بل إن المنهج الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المنهج الخاتم . وأهل المكر من أهل الكتاب إنما أرادوا أن يجرموا الناس من الإيمان ، أو أنهم خافوا أن يدخل المسلمون معهم في المحاجة في أمر الإيمان ، وكان كل ذلك من قلة الفطنة التي تصل إلى حد الغباء .

لماذا ؟ لأنهم توهموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا ، إنهم تناسوا أن الحق يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وتطابق ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر ، وذهبوا إلى التيه أثناء عبور الصحراء ، وادعوا أن الله قال لموسى عليه السلام : « علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون ، لأنى سأنزل وأبطلش بالبلاد كلها » . وكأنهم لو لم يضعوا العلامات على البيوت فلن يعرفها الله ، إنه كلام خائب للغاية بل هو منتهى الخيبة والضلال ، ويبلغ الحق رسوله الكريم : « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

ومادام الفضل بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر بالمسلمين أن تأخذوا أناسا كما تودون ، وبعد ذلك تريدون أن تخدعوهم ؛ لأن الفضل حين يؤتيه الله لمن آمن به فلن ينزعه إلا الله .

فالحيلة لن تنزع فضل الإيمان بالله مادام قد أعطاه الله ، والله واسع بمعنى أنه قادر على إعطاء الفضل لكل الخلق ، ولن ينقص ذلك من فضله شيئا ، والحق سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفضل لأن قلبه مشغول بربه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

يَخْلُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ

الْعَظِيمِ ﴿٧١﴾

إن أحدا ليس له حق على الله ، فكل لحظة من لحظات الحياة هي فضل من الله ، وهو سبحانه يعطي رحمته بالإيمان بمنهجه لمن يشاء وهو صاحب الفضل المطلق .  
وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ

إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا

مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي

الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

إنه مطلق الإنصاف الإلهي ، فإذا كان الحق قد كشف للرسول بعضا من مكر أهل الكتاب فذلك لا يعنى أن هناك حملة على أهل الكتاب وكانهم كلهم أهل سوء ، لا ، بل منهم من يتميز بالأمانة ، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله النصف العدل .

راجع أصله وأخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

إن الحق سبحانه يخاطب النفوس التي يعلمها ، فهو يعلم أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد نزلت رحمة للناس أجمعين ، ويخاطب بها العالم كله بما فيه من أهل الكتاب ، وهم الذين يعرفون الآيات والعلامات التي تدل على مجيئ رسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم أناس قد جعلوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم في بؤرة شعورهم ليدرسوها ويؤمنوا بها . ولو أن الله قد جعل الحملة على كل أهل الكتاب ، لقال الذين فكروا في الإيمان برسول الله : « كنا نفكر في أن تؤمن ، ونحن نريد أن ننفذ تعاليم الله لنا لكن محمدا يشن حملة على كل أهل الكتاب ونحن منهم » .

فساعة يقول الله إن بعضاً من أهل الكتاب يتميزون بالأمانة فإن من تراوده فكرة الإسلام يقولون : إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا عن نور من ربه ، لكن لو عمم القرآن الحكم على الكل ، لتساءل الذين ينشغلون برغبة الإيمان بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لماذا يعم الحكم الجميع ونحن نسير في الطريق إلى الإيمان ؟ .

ولهذا يضع الحق القول الفصل في أن منهم أناساً يتجهون إلى الإيمان :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ أَنْتَ أَتَّبِلُ وَهُمْ

يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾

(سورة آل عمران)

وفي هذا ما يطمئن الذين شغلوا أنفسهم بدراسة هذا الدين والتفكير في أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

لو كان القرآن قد نزل بلمعتهم جميعاً لقال الذين يفكرون منهم في الإيمان « نحن لسنا كذلك ولا نستحق اللعنة ، فلماذا يأتي محمد بلمعتنا ؟ » .

لذلك نرى القول بأن « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » المعدل المطلق في الإنصاف :

وقد قال بعض المفسرين : إن القرآن يقصد هنا من « أهل الكتاب » النصارى ؛

لأن منهم أصحاب ضمير حي ، ونحن نعرف أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وفي هذا التفسير إنصاف للنصارى فصفة الخير لهم لا ينكرها الله ، بل يشيعها في قرآنه الذي يُتلى إلى يوم الدين ، وذلك ليصدق أيضا أهل الكتاب أى أمر سيء تنزل فيه آيات من القرآن ، لأن القرآن منصف مطلق للإنصاف . فإدام قد قال خصلة الخير فيهم فلا بد أن يكون صادقا عندما يقول الأمور السيئة التي اتصفوا بها . وعندما يقول الحق سبحانه : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » فالقنطار هنا للمبالغة في القدر الكبير من المال ، وكلمة الأمانة حينما نستعرضها في كتاب الله عز وجل نجد أنها مرة تتعدى بالباء ، كمثل هذه الآية « من إن تأمنه بقنطار ، ومرة تتعدى بـ « عل » :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصُوحُونَ ﴾ (٥٠)

( سورة يوسف )

وقوله الحق :

﴿ قَالَ هَلْ أُمِنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أُمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَآلَهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٥١)

( سورة يوسف )

إن مادة الأمانة تأتى متعددة مرة بالباء ، ومرة متعددة بـ « عل » . وكل حرف من هذين الحرفين له حكمة ، فالتكلم هو الله .

إن الأمانة هي شيء يأمن فيه مؤمن على مؤتمن ولا حجة لصاحب الشيء المؤمن عليه إلا ذمة المؤمن ، فإن كانت العلاقة بينهما محكومة بإيصال أو عقد ، أو شهود فهذه ليست أمانة ، إنما الأمانة هي ما يعطيها إنسان لآخر فيما بينهما ، وبعد ذلك فالمؤمن يعد ذلك إما أن يُقرَّبها وإما لا يُقرَّبها .

وقلنا سابقا : إن على المؤمن الحق أن يحتاط للأمانة ، لأن هناك وقتاً تتحمل فيه الأمانة ، وهناك وقت آخر تؤدي فيه الأمانة إن طلبها صاحبها .

ومثال تحمل الأمانة كأن يعرض عليك إنسان مبلغا من المال ، ويقول : « احفظ

هذا المبلغ امانة عندك ، فتقول له : نعم سأفعل . وتأخذ المبلغ ، إن هذا الفعل يسمى « التحمل » ، وعندما يأتي صاحب المال ليطلبه فهذا اسمه « الأداء » والكل يضمنون أنفسهم وقت التحمل ، وقد تكون النية هكذا بالفعل ، ولكن المؤمن الحق لا يأمن ظروف الأغيار ، فمن المحتمل أنه عندما يأتي صاحب المال ليطلبه من المؤمن يجد المؤمن نفسه وقد انشغل بالأغيار ، فقد تكون ظروف الحياة قد داهمته مما دفعه ليتصرف في الأمانة أو أن تكون نفسه قد تحركت ، وقالت له : وماذا يحدث لو تصرف في الأمانة ؟ إن المؤمن الحق لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإن ضمن نفسه وقت التحمل .

إذن يجب أن نلاحظ في الأمانة ملحوظتين هما « الأداء » و « التحمل » . والذين يأخذون الأمانة وفي نيتهم أن يؤدوها ضمنوا أنفسهم وقت التحمل ، لكنهم لا يضمنون أنفسهم وقت الأداء لذلك فالمؤمن المحتاط يقول لنفسه : ولماذا أعرض نفسي لذلك ، فقد يأتي وقت الأداء فلا أستطيع ردها لصاحبها .

لذلك يقول لصاحب الأمانة : أرجوك ابتعد عني فأنا لن أحمّل هذه الأمانة .

إنه خائف من وقت الأداء وذلك ما حدث في أمانة التكليف والاختيار والتي قال عنها الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٥٧)

( سورة الاحزاب )

إن السماء والأرض والجبال طلبوا ألا يكون لهم اختيار وأن يظلوا مقهورين ، لأنهم لا يضمنون لحظة الأداء ، أما الإنسان فلأنه ظلم جهول فقد قال : « لا ، إنني عاقل وسأرتب الأمور » فالإنسان ظلم لنفسه ، وجهول لأنه لم يعرف ماذا يفعل وقت الأداء .

لذلك نرى هنا القول الحق : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار » ونجد الأمانة متعددة بالباء ، فمعنى الباء - في اللغة - الإلصاق ، أي التصق القنطار

بأمانته ، فأصبح هناك ارتباط وامتزاج ، وإياك ساعة الأداء أن تفصل الأمانة عن القنطار ، فساعة يغريك قنطار الذهب ببريقه فعليك أن تلتصق الأمانة بالقنطار ، وإياك أن يغريك القنطار فتترك أمانتك لأنك إن نظرت إلى القنطار دون أن تنظر إلى الأمانة فهذه هي الخيبة .

أما استعمال « على » مع الأمانة ، فـ « على » في اللغة تأتي للاستعلاء والتمكن ، أى اجعل الأمانة مستعلية على القنطار ، وبذلك تصير أمانتك فوق القنطار ، فساعة تحذثك نفسك بأن تأخذ القنطار لأنه يدير لك حركة حياتك ، ولأنه يخرجك إلى دنيا عريضة مغرية فتذكر عز الأمانة ، ولهذا نجد الفقهاء قد قالوا بقطع يد السارق في ربع دينار ، وجعلوا دية قطع يد إنسان لم يسرق خمسمائة دينار وتساءل البعض قائلاً : يد بخمسين مثين عسجد وديت ما بها قطعت في ربع دينار فقال فقيه رداً على ذلك المعارض :

عز الأمانة أغلاها ، وأرخصها ذل الخيانة ، فافهم حكمة البارئ

إذن قول الحق سبحانه وتعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » هذا القول جاء بالباء ليلصق الأمانة بالمؤمن عليه ، وجاء بالمؤمن عليه وهو القنطار وهو أضخم شيء في عالم الموازين وكان من الذهب وهو أثمن المعادن وأغلاها ليؤكد على كل مؤمن أن يلصق الأمانة بما يؤمن عليه ولا يفصل بينهما أبداً لأنه لو فصل الأمانة وعزها عن القنطار ربما سولت له نفسه أن يأخذ القنطار ويترك الأمانة .

وكذلك عندما تأتي الأمانة متعديّة بعلى ، تكون الأمانة فوق الشيء المؤمن عليه ، فالأمانة يجب أن تكون مستعلية على الشيء مهما غلت قيمته ، ويقول الحق من بعد ذلك : « ومنهم من إن تأمنه بدینار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً » أى أن تكون دائم السؤال عن دينارك الذى ائتمنت عليه ذلك الإنسان ، وأن تلح في طلب دينارك .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأمين سبيل » وقد قام بعض من بنى إسرائيل على عهد رسول الله ، بخديعة الأمين من العرب المؤمنين



فأنكروا حقوقهم . والمقصود بالأميين هنا المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب ،  
أو هم المنسوبون إلى الأم كما قال الحق :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ نَكْرًا تَسْمَعُونَ وَإِنِ ابْصُرَ

وَأَلْفَيْدَةً لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ ﴾

( سورة النحل )

أو أن يكون المقصود « بالأميين » أهل مكة ، فقد كانوا يسمونهم كذلك لأنهم  
منسوبون إلى أم القرى « مكة المكرمة » .

من أين جاء أهل الكتاب إذن بهذا الأسلوب المزدوج في معاملة الناس ؟ ومن  
الذي وضع هذا المنهج الذي يقضى بخديعة المؤمنين الأميين ؟ وهل الفضائل ومنازل  
الخلق تختلف في المعاملة من إنسان إلى آخر ؟ وهل يقضى الخلق القويم أن يأخذ  
إنسان الأمانة وينكرها إذا كانت لرجل أمي ؟ ويرد الأمانة ويعترف بها إن كانت  
ليهودي ؟ هل يصح أن يقرض إنسان أمواله بالربا لغير اليهود ، ويقرض اليهود دون  
ربا ؟ إذن تكون هذه المعاملات مجحفة ، هنا فضيلة ، وهناك لا فضيلة ، لا ، إن  
القضية يجب أن تكون مستوية ومكتملة في كل وقت وكل زمان ولكل إنسان ،  
ولا ينبغي أن تتنوع .

من أين إذن جاءوا بهذا القول وهم أهل كتاب ؟ إن هذا ضد منهج الكتاب الذي  
أنزله الله عليهم بل هو من التحريف والتحويل لقد خدعوا أنفسهم وألصقوا بالتشريع  
ما ليس فيه ، فالكتاب السماوي الذي نزل عليهم ليس به تصنيف البشر صنفين :  
صنف هم أهل الكتاب ولهم معاملة خاصة ، وصنف هم الأميون ولهم معاملة  
أخرى ، وكان عليهم أن يتعلموا من عدالة رسول الله صلى الله عليه وسلم في  
معاملتهم .

لقد أرخ لهم رسول الله بالنص المنزل عليه من الله التاريخ الصادق والعدل ، في  
هذا القول الكريم الذي تناوله بالخواطر إنما يسجل تاريخ اليهودية مع الإسلام .  
وهذا التاريخ لم يصدر فيه الله حكما واحدا يشملهم جميعا ، بل أنصف أصحاب  
الحق منهم ، وإن كانوا على دين اليهودية ، وبذلك استقر في أذهان المتصنفين منهم أن

الإسلام قد جاء بكل الحق ، فلو كان الإسلام قد أصدر حكما واحدا ضد كل اليهود سواء من وقف منهم ضد دعوة رسول الله أو المنصف منهم الذي تراوده فكرة الإيمان بالإسلام ، لو كان مثل ذلك الحكم العام الشامل قد صدر لقال المنصفون من اليهود : نحن نفكر في أن نؤمن بالإسلام فكيف يهاجمنا الإسلام هذه المهاجمة ؟ لكن الإسلام جاء لينصف فيعطى كل ذي حق حقه .

وهؤلاء هم الذين يورخ الله لهم بالقول : « من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك » وتلك شهادة على صدق البقين من هؤلاء ، أما الذين طغت عليهم المادية فهؤلاء هم الذين لجأ فيهم القول الحكيم : « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما » وهذا هو التاريخ الصادق لمن طغت عليهم المادية فلا يرد الإنسان منهم ما عليه إلا بعد الملاحقة والمطاردة ، وهكذا يبلغنا القرآن التاريخ بصدق .

والعلة في أن الذي يؤمن على قنطار يؤديه ، والذي يؤمن على دينار لا يؤديه هي علة واضحة . فالمؤمن على قنطار ويؤديه هو إنسان ملتزم أمام إله موصوف باسم الحق ، ولا يريد الله من عباده إلا أن يواجهوا حركة حياتهم بالحق .

وأكرر هنا مرة أخرى ، إن كلمة « الأمانة » ترد في القرآن الكريم مرة وهي متعدية بـ « على » ، ومرة أخرى وهي متعدية بالباء ، لأن الباء تأتي في اللغة للإصاق شيء بشيء آخر ، فكأنك إذا أوثمت أيها المسلم فلا بد أن تلتصق بالأمانة حتى تؤديها ، وكذلك جاءت الأمانة متعدية بـ « على » ، أي أنك أيها المؤمن إذا أوثمت فعليك أن تستعمل على الشيء الذي أوثمت عليه . فإذا ما أوثمت على مائة جنيه مثلا فلا تنظر إلى ما يعود عليك من نفع إذا ما تصرف في هذا المبلغ ، بل يجب أن تستعمل على تلك المنفعة . فإياك أن تغش نفسك أيها المؤمن بفائدة ونفاسة الشيء الذي تحتلسه من الأمانة ، بل قارن هذا الشيء بالأمانة فستجد أن كفة الأمانة هي الراجحة .

والذين استباحوا خيانة الأمانة من أهل الكتاب ، إنما عميت بصيرتهم عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نال الشهرة بالأمانة سواء قبل الرسالة أو بعدها . وعميت أبصارهم ، إن الدين الحق لا يفرق في أداء الأمانة بين صنف من البشر ، وصنف آخر ، فالدين الحق يضم تشريعا من إله خلق الجميع وهكذا نجد أن تشريعهم بالفرقة في أداء الأمانة هو تشريع من عند أنفسهم ، وليس من الرب المتولى شئون خلقه جميعا ، ويدحض الحق القضية التي حكموا بوساطتها أن يعاملوا الأميين

معاملة. تختلف عن معاملتهم لأهل الكتاب ، فقال سبحانه : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

يعلمون ماذا ؟ يعلمون أن قولهم كذب ، فهم يعرفون الحكم الصحيح وينحرفون عنه ، وياليتهم قالوا : إن ذلك الحكم من عند أنفسهم ، لكنهم ينسبون ذلك إلى تعاليم دينهم ، وتعاليم الدين - كما قلنا - مأخوذة من الله ، وهم بذلك - والعياذ بالله - يفترون على الله كذباً بأنه خلق خلقاً ثم صنفهم صنفين : صنفاً تؤدي الأمانة له ، وصنفاً لا تؤدي الأمانة له ، وهكذا كذبوا على الله وعلموا أنهم كاذبون ، وهذا هو الافتراء . وهم أيضاً يعلمون العقوبة التي تلحق من يكذب على الله ورغم ذلك كذبوا .

لقد حذف الحق في هذه الآية المفعول به فلم يقل : « يعلمون كذا » ، الحق حين يحذف « المفعول » فهو يريد أن يعمم الفهم ويريد أن يعمم الحركة ، إنه سبحانه يريد أن يبلغنا بأن هؤلاء يعلمون أن قولهم هذا كذب ، ويعلمون عقوبة ذلك الكذب . . وساعة تأتي قضية منفية ثم يأتي بعدها كلمة « بل » فإنها تنقض القضية التي سبقتها ومعنى ذلك أنها تثبت ضدها . لقد قالوا :

« ليس علينا في الأمين سبيل » وهذه قضية منفية بدليس ، والحق يقول في الآية التالية :

بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

إن قول الحق في بداية هذه الآية « بل » إنما جاء لينقض القضية السابقة التي ادعاه أهل الكتاب ، وكان الحق يقول : أي عليكم في الأمين سبيل ، لأن المشرع هو الله ، والناس بالنسبة له سبحانه سواء .

وبعد ذلك يأتي قول الحق بقضية عامة :

﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ ، وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾

( من آية ٧٦ سورة آل عمران )

ما العهد هنا ؟ وأى عهد ؟

إنه العهد الإيماني الذي ارتضيناه لأنفسنا بأننا آمننا بالله وساعة تؤمن بالآله فمعنى إيمانك به هو حيية قبولك لكل حكم يصدر منه سبحانه ، وأن تلتزم بما يطلبه منك . وإن لم تلتزم بما يطلبه منك كان إيمانك بلا قيمة ، لأن فائدة الإيمان هو الالتزام . ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد تشريع حكم لمن آمن به يتأدى أولا بأبيها الذين آمنوا كتب عليكم كذا ، إن الحق سبحانه لا يتأدى في التكليف كل الناس ، إنما يتأدى من آمن وكأنه سبحانه يقول : « يا من آمن بي إلهي ، اسمع مني الحكم الذي أريده منك ، أنا لا أطلب ممن لم يؤمن بي حكما ، إنما أطلب ممن آمن » .

وهنا يقول الحق : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » وقد يفهم البعض هذا القول بأن من أوفى بعهده الإيماني واتقى الله في أن يجعل كل حركاته مطابقة لـ « افعل ولا تفعل » فإن الله يحبه . هذا هو المعنى الذي قد يفهم للوهلة الأولى ، لكن الله لم يقل ذلك ، إن « الحب » لا يرجع إلى الذات بل يرجع إلى العمل ، لقد قال الحق : « فإن الله يحب المتقين » .

إن الإنسان قد يخطئ ويقول : « لقد أحبنى الله ، وسأفعل من بعد ذلك ما يحلو لي » ونحن نذكر صاحب هذا القول بأن الله يحب العمل الصالح الذي يؤديه العبد بنية خالصة لله وليس للذات أي قيمة ، لذلك قال : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين » .

إن الذي أوفى بعهده واتقى سبحانه الله فيه التقوى ، وإياك أن تفهم أن الحب من الله للعبد سيصبح حبا ذاتيا ، لكنه حب لوجود الوصف فيه ، فاحرص على أن يكون الوصف لك دائما ، لتظل في محبوبة الله .

ولذلك نقول : إن الحق سبحانه وتعالى أوضح لنا أن الذات تتناسل من ذات ، والذوات عند الله متناصلة من أصل واحد . فالجنس ليس له قيمة ، إنما القيمة للعمل الصالح .

وقد ضربنا المثل قديما ، وقلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما وعد نوحا عليه السلام بأن ينجيه من الغرق هو وأهله ، ثم فوجئ نوح بأن ابنه من المغرقين ، قال سبحانه حكاية عما حدث :

﴿ قَالَ سَفَوْتِ إِلَى جَيْلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عِصْمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ٦١ ﴾

( سورة هود )

ماذا فعل نوح عليه السلام ؟ لقد نادى ربه طالبا نجاة ابنه :

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ٦٢ ﴾

﴿ ٦٢ ﴾

( سورة هود )

ويعلمنا الله من خلال رده على نوح ، أن أهل الأنبياء ليسوا من جاءوا من نسلهم ، إنما أهل الأنبياء هم من جاءوا على منهجهم ، لذلك قال الحق لنوح عن ابنه :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ٦٣ ﴾

( من الآية ٤٦ من سورة هود )

لماذا يكون ابن نوح ليس من أهل نوح ؟ ذلك لأن أهل النبوة هم الذين يتبعون منهج النبوة ، ولذلك لم يقل الحق لنوح عن ابنه : « إنه عامل غير صالح » لكن الحق سبحانه قال عن ابن نوح : « إنه عمل غير صالح » . . . لقد نسب الحق الأمر إلى العمل .

إذن فالحكمة هي أن الله سبحانه وتعالى في أسلوبه القرآني يوضح لنا أن الله لا يحب شخصا لذاته ، إنما لعمله وصفاته فلم يقل : « من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحبه » ، لأن « الهاء » هنا ترجع إلى الذات ، إن في ذلك إيضاحا كاملا للبيان بأن الله يحب عمل العبد لا ذات العبد ، فإن حرص العبد على محبوبة الله فذلك يتطلب من العبد أن يظل متبعا لمنهج الله ، وبعد ذلك يقول الحق :

حَسْبُكَ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا  
أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ  
اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ  
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

وساعة نسمع كلمة « شراء وبيع » فلا بد أن نتوقف عندها ، لنفهم معناها بدقة .  
ونحن في الريف نرى المقايضات أو المبادلات في الرزق الذي له نفع مباشر ، كأن  
يبادل طرف طرفا آخر ، قمحا بقماش ، فهذه سلعة يتم مبادلتها بسلعة أخرى ،  
وعلى ذلك فليس هناك شارب وبياع ، لأن كلا من الطرفين قد اشترى وبيع . وهنا  
نسأل : متى يصبح الأمر إذن شراء وبيعا ؟

إن الشراء والبيع يحدث عندما نستبدل رزقا مباشرا برزق غير مباشر ، ومثال ذلك  
عندما يشتري الإنسان رغيف خبز بخمسة قروش ، إن هذا هو الشراء والبيع ، لأن  
الخمسة قروش هي رزق غير مباشر النفعية ، لأن النقود لا تشبعك ولا ترويك من  
عطشك ولا تترك . والرغيف هو رزق مباشر النفعية لأنه يشبعك ويدفع عنك  
الجوع وعندما يجب الإنسان أن يشتري شيئا فإن الذي يدفعه في الشراء يسمى ثمنا .  
إذن فكيف يشتري الثمن ؟

إن الحق يوضح لنا أن الأثمان لا تكون مشتراة أبدا ، إنها مُشْتَرَى بها ، ولذلك  
تكون أول خيبة في صفقة الذين يشترون بعهد الله ثمنا قليلا ، أنهم اشترؤا الثمن ،  
بينما الثمن لا يُشْتَرَى ، فالذي يشتري هو السلعة . وبإلت الثمن الذي اشترؤه ثمن  
له قيمة ، لكنه ثمن قليل ، ومن هنا جاء تحريم الربا لأن المرابي يعطى الشخص  
مائة ، ويريد أن يسترده مائة وعشرة ، ويكون المرابي في هذه المسألة قد جعل النقود  
سلعة ، وهكذا تكون الصفقة خائبة من بدايتها .

إذن فأول خيبة في نفوس الناس الذين يستبدلون الهدى ويأخذون بدلا منه  
الضلالة ، إنهم خاسرون .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ قَبَارِجَتْ بِجَنَّتِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

( سورة البقرة )

والحق سبحانه يقول هنا : « إن الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمنا قليلا . ونعرف أن « الباء » دائما تدخل على المترك ، أى أنهم تركوا عهد الله والإيمان التي حلفوا بها على التصديق بالرسول ، وعلى نصرته إذا جاءهم . أنهم اشتروا ذلك بثمان قليل ، كيف يحدث ذلك ؟ هذه المسألة واقعة حال ، وإن كان المراد عموم الموضوع لا خصوص السبب ، فلا يقولن أحد : إن هذه الآية نزلت في الأمر الفلاني فلا شأن لي بها ، لا فكل من يشتري بآيات الله ثمنا قليلا تنطبق عليه هذه الآية .

وواقعة الحال التي نزلت فيها الآية هي أن جماعة في عهد جديب وجماعة دخلت على كعب بن الأشرف اليهودي يطلبون منه الميرة - أى الطعام والكسوة - فقال لهم : هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله ؟ قالوا نعم ، قال : إنني هممت أن أطعمكم وأن أكسوكم ولكن الله حرمكم خيرا كثيرا وتساءلوا : لماذا حرمانا الله الخير الكثير ؟ وجاءتهم الإجابة لقد أعلنتم الإيمان بمحمد فلما وجدوا أنفسهم في هذا الموقف ، قالوا لكعب بن الأشرف : دعنا فترة لأنه ربما غلبتنا شبهة ، فلتراجع فيها أنفسنا . وعندما مرت الفترة ، فضلوا الطعام والكسوة على الإيمان ، وقالوا لكعب بن الأشرف : لقد قرأنا في كتبنا الموجودة لدينا خطأ ، ومحمد ليس رسولا . فأعطاهم كعب القوت والكسوة . وهؤلاء هم الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، وهو الطعام والكسوة . وكل من يشتري بآيات الله ثمنا قليلا ، فهو يطمس حكما من أحكام الله من أجل أن يتظاهر أمام الناس أنه عصري ، أو أنه مسير لروح الزمان ، أو يزين لأولياء الأمر فعلا من الأفعال لا يرضى عنه الله .

إذن فالذي يفعل مثل ذلك إنما يشتري بآيات الله ثمنا قليلا ، وكل من يجعل آية من آيات الله عرضة للبيع من أجل أن يأخذ عنها ثمنا يُعتبر داخلا في هذا النص « إن الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمنا قليلا » .

والمقصود هنا بعهد الله ، إما أن يكون عهد الفطرة أو العهد الذي أخذه الله على أهل الكتاب بأنهم إن أهدوكوا بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا بد أن يعلنوا الإيمان به وهو العهد الذي جاء به القول الحق :

﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءِ آتِيَتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي  
قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

(سورة آل عمران)

إذن فعندما جاءت صفة تكذيبهم لما أعلنوه من إيمان سابق مقابل الميرة والكسوة  
فهم قد تركوا عهد الله وأخذوا الثمن القليل من الميرة والكسوة ، وكان ذلك خيبة  
كبيرة فهم قد اشتروا الثمن ، والثمن مع ذلك قليل ، ولذلك يقول عنهم الحق :  
﴿ أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ  
وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٨١)

(سورة آل عمران)

وكلمة « أولئك » تدل على أن الصلة وهي « يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمنا  
قليلًا » تلحق بهم كل من يتصف بهذه الصفات وتجعل له المصير نفسه . فهذه الآية  
وإن نزلت في هؤلاء الأشخاص الذين جرت منهم حادثة شراء الطعام والكسوة مقابل  
النكوص عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها تشمل كل متصف  
بهذه الصفة وكل من كان على هذا اللون في أى عصر ، وفى أى دين من الأديان ،  
ويصفهم الحق سبحانه به أولئك لا خلاق لهم .

وكلمة « خلاق » وكلمة « خُلِقَ » وكلمة « خَلِيقَة » وكلمة « خلق » كلها تدور  
حول معنى يكاد يكون متقاربا ، فالخلق - بضم الخاء واللام - أن توجد صفة في  
الإنسان تغلب عليه حتى تصير ملكة . فيقال : « فلان عنده خلق الصدق » أو  
« فلان خلقه الكرم » ومعناه : أن فلانا الأول صار الصدق عنده ملكة ولا يتعب  
نفسه في أن يكون صادقا بل صار الصدق أمرا طبيعيا فيه ، وكذلك وصف فلان  
الثاني بالكرم أى أن الكرم صار ملكة وسجية عنده .

وهذه الملكة في الأمور المعنوية تساوى الآلية في الأمور الحسية ؛ لأننا نعرف أن كل  
فعل من الأفعال يحتاج إلى درجة ليكون الإنسان متميزا في أدائه ، وعلى سبيل المثال ،  
العامل الذى ينسج على آلة يحتاج إلى أن يتدرب على تحريك مكوك الخيط ، وأن  
يتعلم كيف يحرك المكوك بين خيوط النسيج ؛ وبعد ذلك يختلف الخياطان معا لتمسك



بها حركة المكوك الثانية في ارتدادها ، وبذلك يتم النسيج ، وحين يتدرب إنسان على هذا العمل فهو يحتاج إلى وقت طويل ، ليصل إلى كفاءة الحركة .

في بداية التدريب يكون الأمر صعبا ، ويستطيع النساج بعد أن يتقن التدريب أن يجلس أمام آلة النسيج ويدها تحرك المكوك بآلية . لقد صارت المسألة بالنسبة إلى النساج المتدرب آلية .

وسبق أن ضربت المثل بالإنسان الذي يتعلم قيادة السيارة ، فالمدرّب يعلمه كيف يدير المفتاح ، وكيف ينتظر لتسخين المحرك ، وكيف يفك مكبح السيارة ، ثم كيف يحرك عصا التحكم في اندفاع السيارة ، وكيف يوازن بين الضغط على بدال الوقود والضغط على بدال التحكم الفاصل ، وكيف يوازن بين سير السيارة بتخفيض السرعة بلمسات خفيفة لبدال المكبح .

وقد يخطئ الإنسان في بداية التعلم ويرتبك ، ولكنه بعد تمام التدريب فإنه يعمل بآلية ويدون تفكير ، إنه عمل آلي لا يحتاج إلى تفكير ، وضربت في السابق مثالا بالصبي الذي يتعلم حياكة الملابس ، إنه يأخذ وقتا ليضع الخيط في سم الإبرة ، وتقع منه الأخطاء في قياس المسافات المختلفة بين الغرز ، لكنه من بعد ذلك يتدرب على فعل هذه الأعمال التي كانت صعبة ، ويؤديها بآلية ، والعمل الآلي في الأمور المحسنة ، يقابل الملكة في الأمور المعنوية ، فيقال : « إن الصديق عند فلان ملكة » أي أنه إنسان لا يرهقه أن يكون صادقا .

ونحن أثناء تعليم أبنائنا للنحو - مثلا - نقول لهم : « إن حكم الفاعل الرفع والمفعول به منصوب » وعندما ينطق الابن عبارة ما ، فإنه يحاول تطبيق القاعدة أثناء القراءة ، وقد ينساها ، أو يتلجلج ، وعندما يتذكرها فإنه ينطق الكلمات برسمها الصوق الصحيح ، وبعد أن يتم التدريب على القاعدة ويقرأ الابن « فإن أخطاهم تتلاشى » وبذلك يصير النحو ملكة عنده .

وكذلك الخلق ، إن الخلق صفة ترسخ في النفس ، فتصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة ، فيقال : « الصديق له خلق » ، « الكرم له خلق » ، « الشجاعة له خلق » إنها الصفات التي ترسخ في النفس فتصدر عنها الأفعال في يسر وسهولة . والحق سبحانه يقول : « أولئك لا خلاق لهم في الآخرة » وقد فسر البعض حرمان أولئك من الخلق بأن هذا الصنف من الناس لا نصيب لهم من الخلق ، لأن الخلق

صفة راسخة في الإنسان ، والحق يحدد الزمن بأنه « في الآخرة » . والآخرة هي الوقت الذي لا يمكن التدارك فيه . فالآخرة هي يوم التقييم الصحيح والنهائي .

إن الإنسان قد لا يكون له نصيب السلوك القويم فيعدل سلوكه حتى يكتسب هذا السلوك القويم في الدنيا لكن الإنسان لا يستطيع في الآخرة أن يجد مجالا للاستدراك ، وهذه هي الخيبة القوية .

فالإنسان في الدنيا ، قد يقوم بعمل ما ولا يكون له نصيب من أجره أو قد لا يرى نحن الجزاء والنصيب الذي يعطيه له الله ولكن الله يعوضه في الآخرة عن هذا العمل الذي لم يكن له نصيب منه في الدنيا أما من لا أخلاق له في الآخرة فكيف يتم التعويض ؟ إن ذلك أمر مستحيل ؟

ويضيف الحق : « ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » وقد يقول قائل : ألم يقل القرآن الكريم في موقع آخر ، إن الله يقول للكافرين :

﴿ قُلْ أَخْسَفُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ (١١٨)

( سورة المؤمنون )

فليماذا يقول الحق لهم مرة : « اخسثوا فيها ولا تكلمون » ، ومرة أخرى يقول الحق : « لا يكلمهم الله » ؟ . ونجيب على مثل هذا القول : إن الحق لا يكلمهم كلاما ينفعهم ، أو أنه سبحانه يكلمهم بواسطة ملائكته ، ولكن كيف لا ينظر إليهم الله ؟

وساعة نجد أمرا يوجد في الناس وله نظير منسوب لله سبحانه وتعالى ويقول سبحانه عن نفسه ، فلا بد أن تأخذ هذا الأمر في إطار : « ليس كمثله شيء » .

إننا في مجالنا البشري نقول : « فلان لا ينظر إلى فلان » أي أنه لا يوجه عينه إليه ، ويحول حقيقته عنه ، لكن لا يمكن قياس ذلك على الله ، لأن الله منزّه عن التشبيه ففي الوضع البشري نجد إنسانا يحب صديقا له فيقبل عليه بالوجه والنظر فيقال : « فتي هو قيد العين » أي أنه شاب عندما تنظر إليه العين فهو يقيد العين

فلا تذهب عنه إلى أى مكان آخر؛ ففى هذا الشاب محاسن تجعل العين لا تذهب بعيدا عنه . وهكذا نأخذ إقبال العين بالنظر على المنظور أو على المرئى كسمة للاهتمام به ، وهذا صحيح فى الوضع البشرى .

لكن إذا ما جاء ذلك بالنسبة لله ، هنا نأخذ المسألة فى إطار : « ليس كمثله شئ » . وهكذا نفهم عدم نظر الله إلى « الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا » بأن الله يهملهم ، ولا يهتم بهم « لا ينالهم الله برحمته » ، فالحق سبحانه منزّه عن كل تشبيه . وهكذا الأمر فى عدم نظر الحق إليهم ، نأخذ الأمر أيضا فى إطار : « ليس كمثله شئ » . إن ولى الأمر من البشر عندما يرغب فى عقاب أحد رعاياه ، لا ينظر إليه ويهمله ، فما بالناس بإهمال الحق سبحانه وتعالى ١٩ إنه إبعاد لهم عن رحمة الله ورضوانه .

ويضيف الحق سبحانه « ولا يذكىهم ولهم عذاب أليم » والتزكية تأتى بمعنى التطهير ، أو بمعنى الشفاء أو النماء والزيادة فنقول : « فلان زكى فلانا » أى أثنى عليه ويقال أيضا : « فلان زكى فلانا » أى طهره ، ومن هذا تكون « الزكاة » التى هى تطهير ونماء .

وعندما نجربنا الحق سبحانه أنه لا يكلم ذلك الصنف من البشر ولا ينظر إليهم ولا يطهرهم من أوزارهم ، فهذا مقدمة لما أعده لهم بقوله : « ولهم عذاب أليم » .

وكان الحق سبحانه قد أورد هذا المصير بالنسبة لهذا الصنف من البشر حتى لا يقول أحدهم ليس مُهماً أن الله لن يكلمنى ولن ينظر إلى « ولن يذكىنى » ولكنه قد يدخلنى الجنة « لا لأن يدخل واحد من هذا الصنف من البشر الجنة بل له ولا مثاله العذاب الأليم » . وحين يقال : « ولهم عذاب أليم » فلا بد أن نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث .

وفى حياتنا العادية عندما يقال : « صفع الطفل فلانا الرجل » نفهم بطبيعة الحال أن صفعة الطفل تختلف فى قوتها عن صفعة الشاب ، وكذلك صفعة الشاب تختلف عن صفعة بطل فى الملاكمة . إذن فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوة وضعفا على المفعول به الذى هو مناط الحدث ، فإذا كان فاعل العذاب هو الله فلا بد أن يكون عذابا

البا ، ولا حدود لآله ، أنجانا الله وإياكم منه . ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ  
لِيُخَسِّبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ  
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ  
وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

أى أنهم يلوون ألسنتهم بالكلام الصادر من الله ليحرفوه عن معانيه ، أو يلوون ألسنتهم عندما يريدون التعبير عن المعاني . وه اللى ، هو القتل ، فنحن عندما نقتل حبلا ، نحاول أن نجدل بين فرعين اثنين من الخيوط ، ثم نقتلهم معا لنصنع حبلا ، والهدف من القتل هو أن نصنع قوة من شعيرات الخيوط ، فهذه الشعيرات لها قوة محدودة ، وعندما نقتل هذه الخيوط فإننا نزيد من قوة الخيوط بجعلها معا .

إذن فالقتل المراد به الوصول إلى قوة ، وهكذا نرى أنهم يلوون ألسنتهم بكلام يدعون أنه من المنهج المنزل من عند الله ، وهذا الكلام ليس من المنهج ولم ينزل من عند الله إنهم يفعلون ذلك لتقوية مركزهم والتنقيص من مكانة الإسلام والطمع في الرسول كما قالوا من قبل : « راعناه » ، لذلك قال الحق مخاطبا المؤمنين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعَيْنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

( سورة البقرة )

إن الحق يوضح لنا ألا نعطي لهم فرصة لتحريف كلام الله ، فهو سبحانه  
القائل :

﴿ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ  
 مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَبًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْفُرْنَا  
 لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١٦)

(سورة النساء)

لقد فضحهم - الحق سبحانه - لنا ، وهم يحرفون الكلام عن موضعه ، فقد قال  
 الحق هذا القول بمعنى : أن الذي تسمعه لا يضرك لقد سجل الله عليهم أنهم قالوا سمعنا  
 وعصينا كما قلما بتحريف الكلمة وقالوا : « اسمع غير مسمع » أي « لا سمعت أبدا » ، تماما  
 كما أخذوا من قبل قول الله :

﴿ وَقُولُوا حَقَّةٌ ﴾

(من الآية ١٦١ من سورة الأعراف)

وحرفوا هذا القول : « وقولوا حنطة » ، وهم قد فعلوا ذلك حتى نحسب هذا  
 التحريف من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، أي أنهم يقتلون بعضا من المعاني  
 المستنبطة من الكلمات حتى يوهوا المؤمنين بأن هذه المعاني غير المرادة وغير الصحيحة  
 هي معان مرادة لله ، وصحيحة المعنى ، إنهم يدعون على المنهج المنزل من السماء  
 ما ليس فيه ، ولذلك قال سبحانه : « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب »  
 إنهم عندما يلوون ألسنتهم بالكتاب يحرفونه رغبة في التلبس والتدليس عليكم لتظنوا  
 أنه من الكتاب المنزل من عند الله على رسوله ، إنهم لو فعلوا ذلك فحسب لجاز أن  
 يتوبوا ويرجعوا إلى ربهم ويندموا على ما فعلوا .

أما قولهم بعد ذلك : « هو من عند الله » فهو دليل على أنهم أحدثوا في الكتاب  
 شيئا وأصروا عليه فجاءوا بقولهم : ( هو من عند الله ) لينفوا عن أنفسهم شبهة أن  
 يدعى عليهم أنهم حرفوا الكتاب ، ولولم يكونوا قد حرفوا الكتاب أكانت تخاطر  
 بياهم ، هذه ؟ إن أمرهم جاء من باب ( يكاد المرئيب أن يقول خذوني ) إنهم بهذا  
 القول يحتالون على إخفاء أمر حدث منهم . إن الحق - سبحانه - يؤكد أن الخيانة  
 تلاحقهم فيقول : ( وما هو من عند الله ) ، فهذه الآية الكريمة تفضحهم وتكشف  
 تحريفهم لكتاب الله ، يقول سبحانه : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

إنهم يعرفون أن ما يقولونه هو الكذب ، والكذب كما عرفنا هو أن تكون النسبة الكلامية غير مطابقة للواقع ، فالنسب في الأحداث تأتي على ثلاث حالات :  
نسبة واقعة .

نسبة يفكر فيها وهي نسبة ذهنية .

نسبة ينطق بها .

فعندما نعرف إنسانا اسمه محمد ، وهو مجتهد بالفعل فهذه نسبة واقعة  
وإذا خطر ببالك أن تخبر صديقا لك باجتهاد محمد فهذا الخاطر نسبة ذهنية .

وساعة تنطق بهذا الخبر لصديق لك صارت النسبة كلامية . والصدق هو أن تكون النسبة الكلامية لها واقع متسق معها كأن يقول : « محمد مجتهد » ويكون هناك بالفعل من اسمه محمد وهو مجتهد بالفعل ، وبهذا تكون أنت الناطق بخبر اجتهاد محمد إنسانا صادقا ، أما إن لم يكن هناك من اسمه محمد ومجتهد فالنسبة الكلامية لا تتفق مع النسبة الواقعية ، لذلك يصير الخبر كاذبا . والعلماء يفرقون بين الصدق والكذب بهذا المعيار . فالصدق : هو مطابقة الكلام للواقع ، والكذب : هو عدم مطابقة الكلام للواقع .

وحاول بعض من الذين يحبون التشكيك أن يقفوا عند سورة المنافقين التي يقول فيها الحق :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ

يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾

(سورة المنافقون)

لقد قال المنافقون : نشهد أنك لرسول الله ، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول من عند الله بالفعل ، والحق سبحانه يقول : « والله يعلم أنك لرسوله » فهل علمهم كعلم الله ؟ لا ، لأن الله سبحانه قال : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ، فكيف يصفهم الحق بأنهم كاذبون مع أنهم شهدوا بما شهد هو به ؟

إن الحق لا يكذبهم في أن محمدا رسول الله فهذه قضية صادقة ، ولكنه سبحانه قد كذبهم في قضية قالوها وهي : « نشهد » ، لأن قولهم : « نشهد » تعني أن يوافق الكلام المنطوق ما يعتقدونه في قلوبهم ، وقولهم : « نشهد » هو قول لا يتفق مع ما في

قلوبهم ، ولذلك صاروا كذابين ، فلسان كل منهم لا يوافق ما في قلبه .

إذن فقله الحق : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ، أى إنهم يقولون كلاما ليس له نسبة خارجية تطابقه ، وهم يعلمون أنه كذب ، حتى لا نقول : إنهم نطقوا بذلك غفلة ، لقد تعمّدوا الكذب ، وهم يعرفون أنهم يقولون الكذب . والدقة تقتضى أننا يجب أن نفرق بين صدق الخبر ، وصدق المخبر . صدق الخبر هو أن يطابق الواقع لكن أحيانا يكون المخبر صادقا ، والخبر في ذاته كذب ، كأن يقول واحد : « إن فلانا يستذكر طول الليل » ، لأنه شاهد حجرة فلان مضاعة وأنه يفتح كتابا ، بينما يكون هذا الفلان غارقا في قراءة رواية ما ، إن المخبر صادق في هذه الحالة ، لكن الخبر كاذب .

ولكن في مجال الآية نحن نجد أنهم كاذبون عن عمد ، فاللسان هو وسيلة بيان ما في النفس :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا  
ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ  
وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ  
اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ  
وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ ٧٩

ونحن نعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين ينزل منهجه ، فهو ينزله في كتاب ، ويفتضى ذلك أن يصطفى سبحانه إنسانا للرسالة ، أى أن الرسول يحىء بمنهج ويطبقه على نفسه وبنائه للناس ، الرسول مصطفى من الله ويختلف في مهمته عن

النبي ، فالنبي أيضا مصطفى ليطبق المنهج ، وهكذا حتى لا يسمع الناس المنهج ككلام فقط ولكن يرونه تطبيقا أيضا ، إذن فالرسول واسطة تبليغية ونموذج سلوكي ، والنبي ليس واسطة تبليغية ، بل هو نموذج سلوكي فقط .

إن الحق سبحانه وتعالى يرسل النبي ويرسل الرسول ، ولذلك تأتي الآية :  
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٢٥ ﴾

( سورة الحج )

هكذا نعرف أن الرسول والنبي كليهما مرسل من عند الله ، الرسول مرسل للأوامر والأسوة ، والنبي مرسل للأسوة فقط ، لأن هناك بعضا من الأزمنة يكون المنهج موجودا ، ولكن حمل النفس على المنهج هو المفقود ، ومثال ذلك عصرنا الحاضر .

إن المنهج موجود وكلنا نعلم ما الحلال وما الحرام ، لكن خيبة هذا الزمان تأتي من ناحية عدم حمل أنفسنا على المنهج ، لذلك فنحن نحتاج إلى أسوة سلوكية ، هكذا عرفنا الكتاب ، والنبوة ، فما هو الحكم إذن ؟

لقد جاء الحق بكلمة : « الحكم » هنا ليدلنا على أنه ليس من الضروري أن توجد الحكمة الإيمانية في الرسول أو النبي فقط ، بل قد تكون الحكمة من نصيب إنسان

من الرعية الإيمانية ، وتكون القضية الإيمانية ناضجة في ذهنه ، فيقولها لأن الحكمة تقتضي هذا . ألم يذكر الله لنا وصية لقمان لابنه ؟ إن وصية لقمان لابنه هي المنهج الديني ، وعلى ذلك فمن الممكن أن يأتي إنسان دون رسالة أو نبوة ، ولكن المنهج الإيماني ينقذ في ذهنه ، فيعظ به ويطبقه ، وهذا إيدان من الله على أن المنهج يمكن لأي عقل حين يستقبله أن يقتنع به ، فيعمل به ويبلغه .

ولا بد لنا أن نؤكد أن من يهبه الله الحكمة في الدعوة لمنهج الله وتطبيق هذا المنهج ، لن يضيف للمنهج شيئا ، وبحكم صدقه مع الله فهو لن يدعى أنه مبعوث من الله للناس ، إنه يكتفي بالدعوة لله وبأن ، يكون أسوة حسنة .



لكن لماذا جاءت هذه الآية ؟ لقد جاءت هذه الآية بعد جدال نصارى نجران مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وأثناء الجدل انضمت إليهم جماعة من اليهود ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- بماذا تؤمن وتأمرو ؟ فأبلغهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوامر المنهج وفواهيه ، وأصول العبادة ، ولأن تلك الجماعة كانوا من أهل الكتاب ، بعضهم من نصارى نجران والبعض الآخر من يهود المدينة ، وكانوا يزيفون أوامر تعبدية ليست من عند الله ، ويريدون من الناس طاعة هذه الأوامر ، لذلك لم يفتنوا إلى الفارق بين منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوامره ، وبين ما زيفوه هم من أوامر ، فمحمد صلى الله عليه وسلم يطلب من الناس عبادة الله على ضوء المنهج الذي أنزله عليه الحق سبحانه ، أما هم فيطلبون طاعة الناس في أوامر من تزيفهم .

والطاعة - كما نعلم - هي لله وحده في أصول كل الأديان ، فإذا ما جاء إنسان بأمر ليس من الله ، وطلب من الناس أن يطيعوه فيه ، فهذا معناه أن ذلك الإنسان يطلب أن يعبدوا الناس - والعبادة بالله - لأن طاعة البشر في غير أوامر الله هي شرك بالله . ولهذا تشابهت المواقف على هذا البعض من أهل الكتاب ، وظنوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منهم طاعتهم لأوامره هو ، كما كانوا يطلبون من الناس بعد تحريفهم للمنهج وقالوا : أتريد أن نعبدك ونتخذك إلهاً ؟

إنهم لم يفتنوا إلى الفارق بين الرسول الأمين على منهج الله ، وبين رؤسائهم الذين خالفوا الأحكام واستبدلوها بغيرها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب منهم طاعته لذاته هو ، ولكنه قد طلب منهم الطاعة للمنهج الذي جاء به رسولا وقدوة ، واستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوه .

وأنزل الله سبحانه قوله الحق :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ

دُونِ اللَّهِ ﴾

لقد بلغت بهم الغفلة والشرك أنهم ظنوا أن الله لم يختار رسولا أميناً على المنهج ، وظنوا بالله ظن السوء ، أو أنهم ظنوا أن الرسول سيحرف المنهج كما حرفوه هم ، فتحولوا عن عبادة الله إلى عبادة من بعثه الله رسولا . ولذلك جاء القول الفصل « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله » .

وقد ينصرف المعنى أيضا إلى أن بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يحلونه - صلى الله عليه وسلم - وكل مؤمن مطلوب منه أن يحل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يعظمه ، ومن فرط حب بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : أنسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، ألا نسجد لك ؟

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب السجود له من أحد ، والحق سبحانه هو الذي كلف عباده المؤمنين بتكريم رسوله فقال :

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونِ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (سورة النور)

إن المطلوب هو التعظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أن نعطي له أشياء لا تكون إلا لله . إن تعظيم المسلمين لرسول الله وتكريمهم له هو أن نجعل دعاءه مختلفا عن دعاء بعضنا بعضا .

والحق في هذه الآية التي نحن في مجال الخواطر عنها وحوها يقول : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

إن « لكن » هنا للاستدراك ، مثلها قلنا من قبل : إن « بل » تنقض القضية التي قبلها وتثبت بعدها قضية مخالفة لها . إن الحق يستدرك هنا لفهم أنه ليس لأحد من البشر أن يقول : « كونوا عبادا لي » بعد أن أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة ، والقضية التي يتم الاستدراك من أجلها وإثباتها هي : « كونوا ربانيين » وكلمة « رباني » ، وكلمة « رب » ، وكلمة « ربون » ، وكلمة « ربان » ، وكل المادة المكونة من « الراء » و « الباء » تدل على التربية ، والولاية ، وتعهد المربي ، وتدور

حول هذا المعنى . أليس ربان السفينة هو الذى يقود السفينة ؟

وكلمة « الرب » توضح المتولى للتربية « إذن فما معنى كلمة « ربانى » ؟ إنك إذا أردت أن تنسب إلى « رب » تقول : « ربى » . وإذا أردنا المبالغة في النسبة نضيف لها ألفا ونونا فنقول : « ربانى » ولذلك نجد في التعبيرات المعاصرة من يريدون أن ينسبوا أمرا إلى العلم فيقولون : « علمانى » وفي ذلك مبالغة في النسبة إلى العلم . والفرق بين « علمى » و « علمانى » هو أن العلمانى يزعم لنفسه أن كل أموره تمشى على العلم المادى ، ونجد أن فى « علمانى » ألفا ونونا زائدين لتأكيد النسبة إلى العلم .

وقد يقول قائل : ولماذا نؤكد الانتساب إلى الله بكلمة « ربانى » ؟ ونقول : لأن الكلمة مأخوذة من كلمة رب ، وتؤدى إلى معان : منها أن كل ما عنده من حصيلة البلاغ لابد أن يكون صادرا ومنسوبا إلى الرب ؛ لأنه لم يأت بشيء من عنده ، أى أنه يأخذ من الله ولا يأخذ من أحد آخر أبدا ؛ فهو ربانى الأخذ .

وتؤدى الكلمة إلى معنى آخر : إنه حين يقول ويتكلم فإنه يكون متصفا بخلق أنزله رب يربى الناس ليبلغوا الغاية المقصودة منهم ، فهو عندما ينقل ما عنده للناس يكون مربيا ، ويدبر الأمر للفلاح والصلاح .

يقول الحق - سبحانه - : « بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » إن العلم هو تلقى النص المنهجى . والدراسة هي البحث الفكرى فى النص المنهجى .

لذلك فنحن فى الريف نقول : « ندرس القمح » أى أننا ندرس القمح بآلة حادة كالنورج حتى تنفصل حبوب القمح عن « التبن » وتكون نتيجة الدراس هي استخلاص النافع . . إذن فقيه فرق بين « تعلمون » أى تعلمون غيركم المنهج الصادر من الله وذلك خاضع لتلقى النص ، وبين « ماكنتم تدرسون » أى تعملون أفكاركم فى الفهم عن النص .

إن الفهم عن النص يحتاج إلى مدارس ، ومعنى المدارس هو أخذ وعطاء ، ويقال : « دارسه » أى أن واحدا قد قام بتبادل التدريس مع آخر ، ويقال أيضا : « تدارسنا » أى أننى قلت ما عندى وأنت قد قلت ما عندك حتى يمكن أن نستخلص

ونستنبط الحكم الذي يوجد في النص .  
وقد يأتي النص محكما ، وقد يأتي النص محتملا لأكثر من معنى ،  
ومادمت قد تعلمت ، فلا بد أنك تعرفت على النصوص المحكمة للمنهج .  
ومادمت قد تدارست ، فلا بد أنك قد فهمت من النصوص المحتملة حين مدارستك  
لأهل الذكر حسن استقبال المنهج ؛ لذلك يجب أن تكون ربايا في الأمرين معا .  
وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا  
أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

أى أنه ليس لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يأمر الناس باخذ الملائكة  
والنبيين أربابا . إن من اختصه الله بعلم وكتاب ونبوة لا يمكن أن يقول : اعبدوني ،  
أو اعبدوا الملائكة ، أو اعبدوا الأنبياء .  
لماذا ؟ ويجب الحق سبحانه : « أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » .

وقوله الحق : « بعد إذ أنتم مسلمون » تدل على أن واقعة القضية وما معها كانت  
مع مسلمين كأنهم عندما جاءوا وأرادوا أن يعظموا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وقالوا : نحن نريد أن نعطيك وضعا في التعظيم أكثر من أى كائن ونريد أن نسجد  
لك . فَوَضَّحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ : أَنَّ السَّجُودَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلَّهِ .

إذن فالذين تكلموا مسلمون ، وكانوا يقصدون بذلك تعظيم الرسول صلى الله  
عليه وسلم ، ولو أن رسول الله وافقهم لكان معنى ذلك أنه يخرجهم عن الإسلام .  
ولا يتصور أن يصدر هذا عن سيدنا وحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أو عن غيره  
من الأنبياء عليهم السلام .

والحق سبحانه يقول :

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآتَيْكُمْ  
مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ  
لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ  
وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا  
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

هذه الآية نجعلنا نتعرف على أسباب بعث الحق لموكب الرسل ، ونعرف جميعا أن المنهج الأول قد أنزله الله على آدم عليه السلام متضمنا كل ما يجعل الحياة تسير إلى انسجام ، وبلغ آدم أولاده هذا المنهج كما علمهم أمور حياتهم ، تماما مثلما يعلم الأب أبناءه ما يخدم أمور حياتهم ، كما يقوم بإبلاغ الأبناء المطلوب الدين ، والأبناء يبلغون أبناءهم ، ويتواصل البلاغ من جيل إلى جيل كي يكتمل وصول المنهج للذرية ، ولكن مع توالى الزمن وتتابعه نجد أن بعضا من مطلوبات الدين يتم نسيانها .

إن هذا دليل على أن الناس قد غفلت عن المنهج ، وهكذا نرى أن الغفلة عن المنهج إنما تتم على مراحل ، فبعد بلاغ المنهج نجد إنسانا يغفل عن جزئية ما في هذا المنهج ، وتنبهه نفسه وتلومه على تركه لتلك الجزئية ، ونسمى صاحب هذا الموقف بصاحب النفس اللوامة ، إنه يفعل السيئة لكن نفسه تعود إلى البقطة لمنهج الله ؛ لأنه يتمتع بوجود خلية المناعة الإيمانية فيه . وهناك إنسان آخر يستمرىء المخالفة للمنهج وتلج عليه نفسه بالمخالفة ؛ إنه صاحب النفس الأمارة بالسوء ، وتتوالى به دواعي ارتكاب السيئات ، ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى غيره من خارج نفسه ليلفته إلى الخير .

وماذا يحدث للمجتمع إذا صار أفرادہ جميعا من أصحاب النفس الأمارۃ بالسوء ؟

إن معنى ذلك أن الفساد قد طم ، ولا بد من مجيء رسول ؛ لأن مراد الحق سبحانه هو هداية الناس ، لقد خلقنا سبحانه وله كل صفات الكمال ، ولم يصف خلقنا إليه شيئا . وما هو ذا الحديث القدسي الذي رواه أبوذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادي إن حرمت الظلم على نفسي ، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادي ، كلکم ضال إلا من هديته فاستهدون أهدکم ، يا عبادي ، کلکم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمون أطعمکم ، يا عبادي ، کلکم عار ، إلا من كسوته ، فاستكسبون أكسکم ، يا عبادي ، إنکم تحطثون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرون أغفر لکم ، يا عبادي إنکم لن تبلغوا ضری فتضروني ، ولن تبلغوا نفعی فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم كانوا على اتقى قلب رجل واحد منکم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي ، لو أن أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منکم ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولکم وآخرکم وإنسکم وجنکم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي ، إنما هي أعمالکم أحصيها لکم ، ثم أوفیکم إیاءه ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » (١)

إن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا وهو من الأزل إلى الأبد ، في تمام صفات الكمال ولم يصف له هذا الخلق شيئا ، فهو القائل :

﴿ مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ٥٨ ﴾

( سورة الذاریات )

إذن فعندما يشرع لنا الحق أمراً فهو يشرعه لمصلحتنا ؛ إنه سبحانه يحب لصنعتة أن تظفر بسعادة المنهج ؛ لذلك أنزل المنهج « بافعل ولا تفعل » وحين يقول المنهج : « افعل ولا تفعل » فهو لا يريد أن يحدد حرية الحركة على الخلق إلا بما يحميهم ، إنه يحدد حرية هنا ليحمي حرية هناك . فعندما حرم الله السرقة - على سبيل المثال - فالأمر شامل لكل البشر ، فلا يسرق أحد أحداً .

إن الحق سبحانه حين منع يد واحد من السرقة ، كان في ذلك منع للملايين الأيدي أن تسرق من هذا الإنسان ، وفي هذا حماية لكل البشر من أن يسرق إنسان إنساناً آخر ، وفي ذلك كسب لكل إنسان ، فساعة تأخذ التشريع لا تأخذه على أنه مطلوب منك ، ولكن خذه على أنه مطلوب منك ومطلوب لك أيضاً .

ومثال آخر ، لقد حرم المنهج على العبد المؤمن أن يمد عينيه إلى محارم غيره ، ولم يكن هذا التحريم لعبد واحد ، إنما لكل إنسان مؤمن ، وبذلك لا تمتد أي عين إلى محارم هذا العبد ، لقد جاء الأمر لك بغض البصر عن محارم غيرك وأنت واحد ، وكففتنا من أجلك ملايين الأبصار كيلا تمتد إلى محارمك .

إذن فكل عبد مؤمن يكسب حياة مطمئنة من وجود التشريع ، وكل التشريعات إنما جاءت لصالحنا جميعاً ، ولذلك كان الحق رحياً بنا لأن ركب الرسل قد تواصل واستمر في الكون منذ آدم ، وإلى محمد صلى الله عليه وسلم ، والمنهج الذي جاء به كل هؤلاء الرسل لا تناقض فيه أبداً ، لأن في هذا المنهج مصلحة للخلق ، لذلك فلا يمكن أن يكون موكب رسول قد أتى ، ليناقض موكب رسول آخر .

لكن ما الذي يأتي بالتناقض بين الأديان والمشرع واحد ؟ وكل الناس عيال له ؟

إننا نرى الرسل من التناقض ، وإن حاول البعض أن يصوروا الأمر كذلك فلنعلم أن أتباع الرسل هم الذين يريدون لأنفسهم سلطة زمنية يتحكمون بها في الدنيا ، فالذين كانت لهم سلطة زمنية في دين كاليهودية أو النصرانية فعلوا ذلك .

وعندما جاءت النصرانية على اليهودية قال أحبار اليهود : نحن لا نريد النصرانية لماذا ؟ لأن السلطة الزمنية كانت في أيديهم ، ولو أن هؤلاء الأحبار ظلوا باقين على

ما أنزله الله عليهم من منهج لقبّلوا بأي رسول قادم شاكرين له مقدمه ومجيئه وقالوا له : ساعدنا على أن نعلم فهمنا لمنهج الله . . إذن فالخلاف لا يحدث إلا حين توجد أهواء لها سلطات زمنية ، وموكب الرسالات من يوم أن خلق الله الإنسان هو منهج متساند لا متعاند .

وحينما يأتي رسول ليجد أناسا غير مؤمنين بإله فالمشكلة تكون سهلة ، لأنه سيلفتهم إلى إله واحد ، وبالمنهج الذي يريد الله ، لكن المشكلة تكون كبيرة مع الجماعة التي لها رسول وهم منسوبون إلى السماء ، فإذا ما جاء رسول من الله فهو يحمي وهؤلاء الأتباع قد أخذوا من ادعائهم بالانتساب لرسالة رسول سابق سلطة زمنية كما حدث مع اليهود والنصارى ، فتعصبوا للدين الذي كانوا عليه متناسين أن كبارهم قد حرقوا المنهج لحساب السلطة الزمنية .

وقد استمر موكب الرسل إلى الخلق ليحمي الله الخلق من سيادة الانحراف واصطفى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم لتحمل الأمانة فلن يأتي لها رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الله قد ضمن بقاء الخير في هذه الأمة ، فإذا رأيت أناسا بالغوا في الإلحاد فثق أن هناك أناسا زادهم الله في المدد حتى يحدث التوازن ؛ لأن الحق هو القائل :

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ١١٠ ﴾

( سورة آل عمران )

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ١١١ ﴾

( سورة آل عمران )



إذن فإن امتنع الوازع النفسى فى النفس اللوامة عند فرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فسوف يأتى أناس مسلمون يبنهونه إلى المنهج ، والحق سبحانه وتعالى لا يعصم الناس من أن يخطئوا فهو القائل :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٣ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٤ ﴾

( سورة العصر )

إن الحق جاء بكلمة « وتواصوا » ، ولم يأت بكلمة « وصوا » وذلك لفهم أن التوصية أمر متبادل بين الجميع ، فساعة يوجد إنسان فى لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيوصيه .

وترد هذه المسألة أيضا إلى الموصى ، فقد تأنى له لحظة ضعف أمام المنهج ؛ فيجد من يوصيه وهكذا نرى أنه لا يوجد أناس مخصوصون ليوصوا ، وآخرون مهمتهم تلقى التوصية ، إنما الأمر متبادل بينهم ، وهذا هو التكافل الإيماني ، والإنسان قد يضعف فى مسألة من المسائل فيأتى أخ مؤمن يقول له : ابتعد عن هذا الضعف ، إن هذه المسألة تحدث بالتناوب لمقاومة لحظات الاغيار فى النفس البشرية ؛ لأن لحظات الاغيار لا تجعل الإنسان يثبت على حال ، فإذا ما رأينا إنسانا قد ضعف أمام التزام ما فعلينا أن نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر ، وأنت أيضا حين تضعف ستجد من أخوتك الإيمانية من يوصيك .

هذا هو الحال فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الأمم السابقة عليها فقد كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، ولذلك كان لابد أن تتدخل السماء وتأتى برسول جديد ومعه معجزة جديدة تلفت العقول لفنا قسريا إلى أن هناك أشياء تأتى بها المعجزة ، وهى خرق ناموس الكون ، وفى ذلك لفت من الله للناس إلى مناطق القلوة .

وأخذ الله الميثاق على الأنبياء بأن يبلغ كل نبي قومه هذا البلاغ ، انتظروا أن

ترسل إليكم السماء رسلا ، وساعة يحىء الرسول المبلغ عن الله منهجه فكونوا معه ، وأبدوه .

كان الرسل عليهم جميعا السلام مأمورين أن يضعوا في المنهج . وصلبه أن السماء حينما تتدخل وتأتى برسول جديد فلا بد أن يتبعه أقوامهم ، ألا يتعصبوا ضد الرسول القادم ، بل يسلمون معه ويرحبون به ؛ لأن الرسول إنما يحىء ليعاون الناس على المنهج الصحيح ، لكن الاتباع الذين يعشقون السلطة الزمنية تعملوا التحريف ، ومن أجل أن يحىء الحق خلقه من هذا المرض أنزل الميثاق الذى أخذه على النبين ، فقال :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾

( من الآية ٨١ سورة آل عمران )

قد يقول قائل : إن هذا القول يصلح عندما يأتى رسول معاصر لرسول مثلما عاصر شعيب سيدنا موسى عليه السلام ، وكما عاصر لوط سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ونقول : هذا يحدث - أيضا - وإن لم تتعاصر الرسل ، فالحق سبحانه قد أراد لكل رسول أن يعطى لقومه البلاغ الواضح ، وإن لم يتعاصر الرسول فلا بد أن يعطى الرسول مناعة ضد التعصب ، فما داموا قد آمنوا بالرسول واتبعوه فعليهم حسن استقبال الرسول القادم من بعد رسولهم ، وكان على كل رسول أن يبلغ قومه : كونوا فى انتظار أن تتدخل السماء فى أى وقت ، فإذا تدخلت السماء فى أى وقت من الأوقات ، وجاءت برسول مصدق لما معكم فإياكم أن تقفوا منه موقف المضادة ، وإياكم أن تقفوا منه موقف العداوة ، بل عليكم أن « تنصروه » وهذا قول واضح وجل ولا لبس فيه .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ﴾

( من الآية ٨١ سورة آل عمران )

ونقول في شرح معنى : « رسول مصدق لما معكم » .

إن الدين يأتي بقضايا متفق عليها ؛ لأن العقائد واحدة ، والأخبار واحدة ، والقصاص واحد ، لكن الذي يختلف هو الحكم التشريعي الذي قد يناسب زما ولا يناسب زما آخر ، فإذا جاء الرسول بكتاب مصدق لما معكم في الأمور الدائرة في منهج العقائد ، أو منهج الأخبار أو منهج القصاص فلا بد لكم أن تصدقوه .

لكن اليهود لم يفعلوا ذلك ؛ لأن الرسول جاء ليعيد هداية الجماعة التي آمنت بالرسول والتي تؤمن بآله ، وكان مجيء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج الواضح العقيدة والأخبار الصحيحة غير المحرفة والقصاص التي تدعم المنهج كما جاء بالتشريع المناسب وكان مجيء النبي الخاتم مزلزلا لمن استمروا السلطة الزمنية ، فمنهم من أصر على اتباع رسولهم فقط وبالمنهج الذي تم تحريفه ورفضوا اتباع الرسول الجديد ، ومنهم جماعة أخرى آمنت ، بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هناك جماعة ثالثة تؤمن برسول آخر ، والخيبة تأتي نتيجة للتعصب ، ولذلك كانت دعوة الإسلام هي لتصفية العقائد ، ودعوة لكل متبع لأي رسالة سابقة أن يدرس ويناقش ، هل الدين الخاتم قد جاء بما يختلف عن الأديان السابقة في العقائد ؟ أو جاء مصدقا لها ؟

لقد جاء الدين الخاتم مصدقا لما سبقه في العقائد والأخبار والقصاص وإن اختلف في التشريعات التي تناسب زما ولا تناسب زما آخر ، فكان الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعصم البشرية من العصبية الهوجاء ، والعصبية العمياء التي تنشأ من اتباع رسول لتقف سدا حائلا أمام رسول آخر ؛ فآله حين أرسل كل رسول قد أعطاه الأخبار والحقائق وأنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبي أرسله بأن يكون على استعداد هو والمؤمنون معه لتصديق كل رسول يأتي معاصرا ومصدقا لما معهم ، وأن يؤمنوا به ، وأن يبلغ كل رسول أمته بضرورة هذا الإيمان .

لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من الركب الإيمان المتمثل في مواكب الرسل ألا يكون بعضهم لبعض عدوا ، بل عليهم أن يواجهوا أعداء قضية الدين كلها . فالذي يحمل الإلحاد متفشيا في هذا العصر هو أن المنسوين إلى الأديان السبوية يختلفون ، وربما كانت العدواة بينهم وبين بعضهم أقوى من العدواة بينهم وبين

الملحدين والمنكرين لله ، وهذا الاختلاف يعطى المجال للملحدين فيقولون : لو كانت هذه الأديان حقا لاتفقوا وما اختلفوا ، فيما معنى أن يقول أتباع كل رسول منهم يتبعون رسولا قادمًا من السماء ؟

إن الملحدين يجحدون من اختلاف أتباع الديانات السماوية فرصة ليزدروا في الناس بذور الإلحاد ، ولا يجحدون تكتلا ولا قوة إيمانية لمن يؤمن بالسماء أو بمنهج السماء لكن الحق سبحانه يقول : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين » وهذا يعنى أنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبي ساحة أرسله أنه قد آتاه الكتاب والحكمة ، وأنه إذا جاءكم رسول مصدق لهذا الكتاب وتلك الحكمة فعليكم الإيمان به ، ولا يكفى إعلان الإيمان فقط ، بل لابد أن يكون النبي ومن معه في نصرة الرسول الجديد نقول : ولو عمل أتباع كل نبي بهذا العهد والميثاق لما كان هؤلاء الملحدين حجة ويضيف سبحانه : « قال ، « أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا » والإقرار صيد الأدلة كما يقولون ؛ والإصر هو العهد الشديد ، ولذلك يقال : « أصرة المودة » أى الرابطة الشديدة المعقودة . وقال الموكب الإيمانى للأنبياء موجّهين إقرارهم لله تعالى « أقررنا » ، فقال الحق سبحانه : « فاشهدوا » . والشهادة دائما تقتضى شاهدا ومشهودا عليه ومشهودا به .

ومادام الحق سبحانه هو الذى يقول للنبيين الذين أخذوا منه العهد والميثاق الحق : « فاشهدوا » ، إذن فهم فى موقف الشاهد ، وما المشهود عليه ؟ وما المشهود به ؟ هل يشهدون على أنفسهم ؟

أو يشهد كل نبي على الأنبياء الآخرين ؟

أو يشهد أنه قد بلغ أمته هذا القرار الإلهي ؟

إن الرسول يشهد على أمته ، وأن الأنبياء يشهد بعضهم لبعض .

إذن قد يكون الشاهد نبيا ، والمشهود له نبي آخر ، والمشهود به أن يؤمنوا بالرسول القادم وينصروه .

وقد يكون الشاهد النبی ، والمشهود عليه هی أمته بأنه قد بلغها ضرورة الإيمان بالرسول القادم بمنهج السماء ، لأن الأمة مادامت قد آمنت برسول فعليهم مؤازرة هذا الرسول ، ومؤازرة مَنْ بَاقٍ من بعده ، وذلك حتى لا يتبدد ركب الإيمان ومُمام باطل الإلحاد :

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ولنرتب الشهادات التي وردت في هذه الآية الكريمة : الأنبياء يشهد بعضهم على بعض ، أو الأنبياء يشهدون على أمهم ، ثم شهادة الله على الأنبياء .

ومادام الأمر قد جاء بهذا التوثيق فعلينا أن ننبه أنه إذا ما وجدنا ديننا سابقا يتعصب أمام دين لاحق ، بعد أن يأتي هذا الدين بالمعجزة الدالة على صدق بلاغ ذلك الرسول عن الله فلتعلم أنهم خانوا هذه القضية . وسبب ذلك إنما يرجع إلى أن الله يريد أن يحتفظ بالدعوة إلى الإيمان ، بانسجام تام ، فلا يتعصب رسول لنفسه ولا لقوميته ولا لبيته ، ولا يتعصب أهل رسول لملتهم أو نحلتهم ، لأنهم جميعا مبلغون عن إله واحد لمنهج واحد ، فيجب أن يظل المنهج مترابطا فلا يتعصب كل قوم لنبيهم أو دينهم ، وهذا ليكون موكب الرسالات موكبا متلاحما متساندا متعاضدا ، فلا حجة من بعد ذلك لنبي ، ولا لتابع نبي أن يصادم دعوة أي رسول يأتي . مادام مصدقا لما بين يديه .

لقد أعلمنا الحق أنه قد عرض شهادة الأنبياء على بعضهم ، وشهادة الأنبياء على أمهم ، وشهادة الله سبحانه على الجميع ، وذلك أوثق العهود وأكدها . ولذلك فكل من استمع لهذا يجب أن ينصر أي رسول يأتي مصدقا لما معه ، وبذلك يزداد موكب الإيمان تأزرا وتلاحما ، فلا يأتي مؤمن برسالة من السماء ليصادم مؤمنا آخر برسالة من السماء . . . ولتدع المصادمة لمن لا يؤمنون برسالة السماء ، وحين يتكاتف المؤمنون برسالة السماء يستطيعون الوقوف أمام هؤلاء الملاحدة ، وبعد هذا البيان الواضح يقول الحق :

## ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

معنى « تولى » هى مقابل « أقبل » . و « أقبل » تعنى أنه جاء بوجهه عليك . و « تولى » أعرض كما نقول نحن فى تعبيراتنا الشائعة : « أعطانى ظهره » . ومعنى هذا أنه لم يأبه لى ، ولم يقبل على . إذن فالمراد من أخذ العهد أن يقبل الناس على ذلك الدين ، فالذى يعرض ويعطى الإيمان الجديد ظهره يتوعد الله ويصفه بقوله : « فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » بعد ماذا ؟ إنه التولى بعد أخذ العهد والميثاق على النبیین ، وشهادة الأمم بعضها على بعضها ، وشهادة الله على الجميع ، إذن فلا عذر لأحد . فمن أعطى ظهره للنبي الجديد ، فماذا يكون وعيد الله له ؟

إن الحق يصفهم بقوله : « فأولئك هم الفاسقون » أى أن الوعيد هو أن الله يحاسبه حساب الفاسقين ، والفسق - كما نعلم - هو الخروج عن منهج الطاعة . والمعاقب - كما تعرف - أخذت وضعها من المحسوسات . لأن الأصل فى الوعى البشرى هو الشيء المحسوس أولاً ، ثم تأتى المعنويات لتأخذ من ألفاظ المحسوسات . والفسق فى أصل اللغة هو خروج الرطوبة عن قشرتها ، فالبلع حين يرطب « يكون حجم كل ثمرة قد تناقص عن قشرتها . وحينما يتناقص الحجم الطبيعى عن القشرة تصبح القشرة فضفاضة عليه ، وتصبح أى حركة عليه هى فرصة لانفلات الرطوبة من قشرتها .

ويقال : « فسقت الرطوبة » أى خرجت عن قشرتها . وأخذ الدين هذا التعبير وجعله وصفاً لمن يخرج عن منهج الله ، فكأن منهج الله يحيط بالإنسان فى كل تصرفاته ، فإذا ما خرج الإنسان عن منهج الله ، كان مثل الرطوبة التى خرجت عن قشرتها .

ونحن أمام فسق من نوع أكبر ، فهناك فسق صغير ، وهناك فسق كبير . وهنا

نسأل أيكون الفسق هنا مجرد خروج عن منهج طاعة الرسول ؟ لكن هذا الخروج بوصف به كل عاصٍ ، أى أن صاحبه مؤمن بمنهج وفسق جزئيا ، إننا نقول عن كل عاصٍ : « إنه فسق » أى أنه مؤمن بمنهج وخارج عن جزئية من هذا المنهج ، أما الفسق الذى يتحدث عنه الحق هنا فهو فسق القمة ؛ لأنه فسق عن ركب الإيمان كله ، فإذا كان الله قد أخذ العهد ، وشهد الأنبياء على أممهم ، وشهدت الأمم بعضها على بعض ، وشهد الله على الجميع ، أبعد ذلك تكون هناك فرصة لأن يتولى الإنسان ويعرض ؟

ثم لماذا يتولى ويعرض ؟ إنه يفعل ذلك لأنه يريد منهجا غير هذا المنهج الذى أنزله الله ، فلو كان قد اقتنع بمنهج الله لأقبل على هذا المنهج ، أما الذى لم يقتنع فإنه يعرض عن المنهج ويطلب منهجا غيره فأى منهج تريد يا من لا ترضى هذه الشهادة ولا هذا التوثيق ؟ خصوصا وأنت تعلم أنه لا يوجد منهج صحيح إلا هذا المنهج ، فليس هناك إله آخر يرسل مناهج أخرى .

وهكذا نعرف أنه لا يأتى منهج غير منهج الله ، إلا منهج من البشر لبعضهم بعضا ، ولنا أن نقول لمن يتبع منهجا غير منهج الله : من الذى جعل إنسانا أولى بأن يتبعه إنسان ؟ إن التابع لابد أن يبحث عمن يتبعه ، ولابد أن يكون الذى يتبعه أعلى منه ، لكن إن يتبع إنسان إنسانا آخر فى منهج من عنده ، فهذا لا يليق ، وهو فسق عن منهج الله ؛ لأن المساوى لا يتبع مساويا له أبدا ، ومن فضل الله سبحانه أنه جعل المنهج من عنده للناس جميعا حتى لا يتبع إنسان إنسانا آخر . لماذا ؟ حتى لا يكون هوى إنسان مسيطرا على مقدرات إنسان آخر ، والحق سبحانه لا هوى له . إن كل إنسان يجب أن يكون هواء تابعا لله الذى خلق كل البشر .

ومادام ليس هناك إله آخر فما المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه ؟

إن المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه لو لم يتبع منهج الله هو منهج من وضع البشر ، والمنهج الذى يضعه البشر ينبع دائما من الهوى ، ومادامت الأهواء قد وجدت ، فكل مشرّع من البشر له هوى ، وهذا يؤدى إلى فساد الكون . قال تعالى :

﴿ وَلَوْ أَتَّبَعَ الْخَلْقُ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ

يَذْكُرُهُمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُغْرَضُونَ ﴿٧١﴾

(سورة المؤمنون)

فإذا كانوا لا يرتضون منهج الله ، فأى فسق هم فيه ؟ إنه فسق عظيم ، لأن الله قد أخذ عليهم العهد وعلى أنبيائهم ووثق هذا العهد ، أفغير الله ييغون ؟ نعم ، إنهم ييغون غير الله ومن هو ذلك الغير ؟ أمواله آخر ؟ لا ، فليس مع الله إله آخر ، بل هم قد جعلوا الخلق مقابل الخالق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ  
يُرْجَعُونَ ﴾

إنهم ماداموا غير مؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أرسله الله نبيا ورسولا فإن ذلك يكشف رغبتهم فى أنهم يريدون منهجا غير منهج الله ، وليس أمامهم إذن إلا مناهج البشر النابعة من الأهواء ، والى تقود حتما إلى الضلال ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد لخلقه أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم ، إنه الحق سبحانه وتعالى قد أوضح لنا فى منهجه ، وقال لنا هذا المنهج : أنتم مستخلفون فى الكون ، وأنتم أيها الخلفاء فى الأرض سادة هذا الكون ، سادة يخدمكم الكون كله ، وانظروا إلى أجناس الوجود تجدها فى خدمتكم ، الحيوان أقل منكم بالفكر . والنبات أقل من الحيوان بالحس . والجهد أقل من النبات .

إذن فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترضخ لإرادتك أيها الإنسان ، فالنبات يخدم الحيوان والحيوان يخدمك أيها الإنسان ، والجهد يخدم الجميع ، والعناصر التى نأخذها نحن البشر من الجهد يستفيد منها أيضا النبات والحيوان . إذن فكل جنس فى الوجود تراه بعينيك إنما يخدم الأجناس التى تعلوه .



الجهاد يخدم النبات .

والجهاد والنبات يخدمان الحيوان .

والجهاد والنبات والحيوان في خدمة الإنسان ، وأنت أيها الإنسان تخدم من ؟

كان من واجب عقلك عليك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به ارتباطا يناسب سيادتك على الأجناس الأخرى ، كان لابد أن تبحث عن أعطاك السيادة على الأجناس الأخرى .

هل أنت أيها الإنسان قد سخرت هذه الأجناس بقدرتك وقوتك ؟

لا ؛ فلست تمتلك قدرة ذاتية تتيح لك ذلك ؟ أما كان يجب عليك أن تفكر ما هي القوة التي سخرت لك ما لا تقدر عليه ، فخدمتك حين لا توجد لك قدرة ، وخدمتك وأنت نائم تغط في نوم عميق ؟ أما كان يجب أن تفكر هذا الفكر ؟ إنك أيها الإنسان يجب أن تكون منطقيا مع نفسك ، وأن تبحث لك عن سيد يناسب سيادتك على غيرك . والكون لا يوجد فيه سيد عليك ؛ لأن الكون محس ، فإن جامعك من يخدمك بأن غيبا هو الإله يطلب أن تكون في خدمته فيجب أن تقول : « إن هذا كلام منطقي بالنسبة لوضعي في الكون » وبعد ذلك انظر إلى الكون ، فأنت في الكون لست وحدك بل هناك أجناس أخرى ، وكل جنس من الأجناس له قانونه وله مهمته ، للحيوان مهمة ، وللنبات مهمة ، وللجهاد مهمة . فهل وجدت جنسا من الأجناس تمرد على مهمته ؟ لا .

إن الحصان مثلا ، تستخدمه كمطية عليها وسادة من حرير وجلد ولها لجام من فضة لتركبه ، ونجد هذه المطية في يوم آخر تحمل سباد الأرض من روث الحيوان وما نابت ، لقد أدت الخدمة لك راكبا ، وأدت الخدمة لك ناقلا ، وما تمردت عليك أبدا . كل الأجناس - إذن - تؤدي مهمتها كما ينبغي ، فاستقام الأمر فيها ، ومادام الأمر قد استقام فيها ، فبأي شيء استقام ؟ إن الله هو الذي خلقها ذللها ، قال لها : « كوني في خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا » وفي هذا الأمر عدالة الربوبية ، فلا تتأخر أو تشذ عن حركتها في خدمة الإنسان .

أراي أحدكم الشمس مرة قالت : لم يعد الخلق يعجبونني ، ولن أشرق عليهم

وساحتجب اليوم ١٩ أتمرد الهواء وقال : لا ، إن الخلق لم تعد تستحق تنفس الهواء ، لذلك لن أمكنهم من الانتفاع به .

أراينا المطر امتنع ؟ هل استنبت الإنسان أرضا صالحة للزراعة واستعصت عليه ؟ لا .. فكل شيء في الوجود يؤدي مهمته تسخيرا وتذليلا .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ ۝ أَفَلَا يَسْكُرُونَ ۝ ﴾

(سورة يس)

والحق سبحانه وتعالى يطلق بعضا من الحيوان فلا يذلل ، ولا يستأنس ، وذلك حتى تعلم أيها الإنسان أنك لم تستأنس الجمل بقدرتك فإن كانت لك قدرة مطلقة على الكون فاستأنس بعض ثعابين هذا العالم أو استأنس الأسد . و أنت أيها الإنسان ترى في هذا الكون بعضا من الحيوانات والمخلوقات شاردة مثل الثعابين والحيوانات المتوحشة . بغير استئناس ليدلنا الحق على أن هذا الذي يخدمك لو لم يذلل الله لك لما استطعت أنت بقدرتك أن تذله ، إنه تذليل وتسخير وخضوع لهذه المخلوقات منحه الله تعالى لك أيها الإنسان تفضيلا منه - سبحانه - مع عجزك وضعفك .

ولم نجد شيئا نافعا قد عصى الإنسان في الكون ، لأن كل الخلق مسخر من الله لخدمة الإنسان كافرا كان أو مؤمنا ، وهذا هو عطاء الربوبية ، لأن عطاء الربوبية يشمل الخلق جميعا ، فالخالق الأكرم هو رب الناس كلهم ويتولى تربيته جميعا ، ولذلك تستجيب الأجناس من غير الإنسان للإنسان سواء أكان مؤمنا أم كافرا . فإن أحسن الكافر استخدام الأسباب فإن الأسباب تعطيه ولا تعطى المؤمن الذي لا يستخدم الأسباب ، أو لا يحسن استخدامها فهذا هو عطاء الربوبية ، والربوبية للجميع . أما عطاء الألوهية فهو « افعل ولا تفعل » وهو عطاء للمؤمنين فقط .

فإذا كانت هذه هي صورة الكون وهو يؤدي مهمته بلا شذوذ فيه ، ومنسجم في ذاته انسجاما عجيبا فلنا أن نسأل « من أين جاء الخلل في الكون ؟ » إن الخلل قد

جاء منك أيها الإنسان . ولهذا فنحن لا نجد فسادا في الكون إلا وللإنسان مدخل فيه ، أما مالا مدخل للإنسان فيه فلا فساد فيه أبدا .

أرايت أحدا قد اشتكى من أن الهواء قصر ؟ لا .

لماذا ؟ لأن أحدا لا دخل له بمسألة الهواء هذه أبدا ، صحيح أننا نتدخل في الهواء بتلويثه بالعوادم والفضلات ، وصحيح أيضا أن الحق يُكرم الخلق باكتشافات قد تصلح من هذا الفساد إذن ، فحين يتدخل الإنسان فإن الشيء قد يفسد . لكن هل معنى ذلك ألا نتدخل ؟ هل نقف من الكون مكتوفى الأيدي ؟ لا ، بل يجب أن نتدخل في الكون ، ولكن بمنهج الله .

إنك إن تدخلت في الكون بمنهج الله ، فكل شيء يسير كما يسير الكون الذي لا منهج له إلا الخضوع والتسخير ، فكما أدت الشمس مهمتها والجياد مهمته ، والحيوان مهمته ، وأنت أيها الإنسان مطلوب منك أن تؤدي مهمتك ، وهي أن تطيع الله ، تلك الطاعة التي تلخص مطلوباته منك في : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فإن انتظمت مع المنهج بـ « افعل » و « لا تفعل » تكن قد انسجمت مع الكون .

إن الله سبحانه يزيل هذه القضية ويختمها باستفهام تنقطع وتنغلق له قلوب المؤمنين :

﴿ أَفَقِيرَ دِينَ اللَّهِ يَتَّبِعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

وَالَّذِينَ يُرْجُونَ ﴿١٥٨١﴾

(سورة آل عمران)

إن كل شيء في السماوات وفي الأرض قد أسلم لله طوعا أو كرها . وإذا ما تساءلنا ، وما معنى « طوعا » ؟ فالإجابة هي طاعة التسخير ، كما قالت السماوات والأرض في النص القرآني الحكيم :

﴿ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

## أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

( سورة فصلت )

فكل ما لا تكليف له جاء طائعا مسخرا ، وما معنى : « كرها » ؟ إن بعضا من العلماء قد قال : إن « طوعا » تشمل أجناس الملائكة ، والجهاد ، والنبات ، والحيوان ، فكل منهم يؤدي مهمته بخضوع ولا يعترض أحد منهم ولا يملك أحدهم قدرة على العصيان ، وأما عن « كرها » فقد فهم بعض العلماء أنهم الناس الذين يخدمون الناس بالقوة كالعبيد مثلا ، وهؤلاء نقول : لا يصح ولا يستقيم أن نعطي خصوم الإسلام فرصة ليقولوا إن الإسلام قد أكره أحدا من البشر أن يخدم أحدا كرها ، لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ قَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٢٦١﴾

( سورة البقرة )

فإدام الله لم يكره أحدا على الإيمان به فكيف يكره إنسانا ليعلم إنسانا آخر ؟ ولهذا فإننا يجب أن نفهم كرها على وضعها الحقيقي ، والحق سبحانه أبلغنا أن هذا الكون كله مسخر له ، لأنه سبحانه هو الذى خلقه ولا إله غيره وهذه مسألة مسلم بها ، فالكون كله لله ، وهو المدبر والقاهر له ، قال الحق :

﴿ مَا آتَاكَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَتَاهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ ﴿٩١﴾

( سورة المؤمنون )

ومادام هو الواحد وهو الخالق فلن يتمرد أحد على مراده ، وكان يجب أن يفهم الإنسان مهمته على أنه هو الوحيد الذى كلفه الله ، لأن بقية الأجناس لا اختيار لها وهى غير مكلفة كما كلف الله الإنسان بـ « افعل » و « لا تفعل » إذن فالتكليف فرع

الاختيار ، فالمنهج يقول لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » لأن الذي وضعه يعلم أنه قد خلقت صالحا لأن تفعل ما يأمرك به ، وصالحا لأن تفعل ما لا يأمرك به .

إن اليد - مثلا - مخلوقة لتحرك حسب إرادة صاحبها ، بدليل أن الإرادة إن شئت وانقطع الخيط الموصل للإرادة الأمرة إلى الجارحة الفاعلة عندئذ يحاول الإنسان المصائب بذلك - والعياذ بالله - أن يرفع يده فلا يستطيع ، فاليد مسخرة لإرادة الإنسان ، وإرادتك أيها الإنسان عندما تسير في ضوء منهج الله فإنك توجهها في ضوء « افعل » و « لا تفعل » .

وعندما يقال لك مثلا : « لا تضرب بها أحدا » فمعنى ذلك أن اليد صالحة لأن تضرب ، وعندما يقال لك : « خذ بيد العاثر » فذلك قادرة على أن تأخذ بيد العاثر . ، فأنت مخلوق على هيئة الطوعية من جوارحك لإرادتك . وبإني المنهج ليقول لك : « نفذ الإرادة في كذا ولا تنفذ الإرادة في كذا » . .

إذن فالإنسان عندما يتبع المنهج فهو يتفق مع الأشياء المسخرة تمام الاتفاق ، ويؤدي كل شيء على خير أداء ، لكن متى يختلف الإنسان عن الانسجام مع الأجناس الأخرى في الكون ؟ إن الإنسان يختلف عن الانسجام عندما لا يطبق المنهج . فيشذ عن الركب في الكون كله ، ولتقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ  
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ  
اللَّهُ فَعَلَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١٨)

(سورة النجم)

إنها الأجناس كلها ساجدة ، الشمس ساجدة ، القمر ساجد ، والنجوم ، والجبال ، كل هذه الجمادات ساجدة ، وكذلك الشجر والنبات ساجد لله ، والحيوان والدواب ساجدة لله ، وكثير من الناس سجد ، لكن في مقابل هذا الكثير الساجد من البشر ، هناك كثير غير ساجد لذلك حق عليه العذاب ، ولو أن الإنسان قد أخذ

منهج الله فننزه لصار كبقية الأجناس ، لكن الإنسان مختلف ، وقال : « أنا سوف  
أخذ اختيار تحمل الأمانة ، لأن عالم وعقل ، كما جاء في القول الحق :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ  
مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٦)

( سورة الأحزاب )

فلو أخذ الإنسان منهج الله في « افعل » و « لا تفعل » ، لانسجم الإنسان مع  
الوجود كله وحين ينسجم الإنسان مع الوجود كله فلن تأت منه مخالفة أبدا كما لا تأت  
مخالفة في الوجود من غير الإنسان ، وعند ذلك يصبح الكون مثاليا في الانسجام .  
ونحن نعرف أن الطموحات العلمية حين تعمل وتشغل العقل في أمر ما فإنها تريد  
الخير ، ولكنها تعلم شيئا ، ويغيب عنها شيء آخر ، ولو أخذوا عن الله العليم بكل  
شيء لصار الدنيا إلى انسجامها .

إن المخترعين الذين صمموا المحركات التي تتحرك بسائل البنزين قاموا بتسهيل  
الحركة على الإنسانية ، ولكن العادم والمخلفات الناتجة من البنزين صنعت ضررا  
بالكون ، ودليل ذلك أن العلماء الآن يبحثون عن أساليب لمقاومة تلوث البيئة .  
وعندما كان الوقود هو الحطب لم يكن هناك تلوث للبيئة ، لماذا ؟ لأن كل عنصر كان  
يؤدي مهمته ، فجزء من احتراق الحطب كان يتحول إلى كربون ، وجزء آخر يتحول  
إلى غازات ، وتنصرف كل الأشياء إلى مساراتها .

إن هذا يدلنا على أن الإنسان قد دخل إلى المخترعات المعاصرة بنصف علم . لقد  
قدّر الإنسان أنه يريد تخفيف الحركة ، وينقل الأثقال ويختصر المسافات ، لكنه لم ينظر  
إلى البيئة وتلوثها ، فنشأ عادم يفسد البيئة ، لكن لو كان عند الإنسان القدرة الشاملة  
على العلم لكان ساعة اختراع هذه المحركات قد بحث عن وضع معادلة لتعدل من فساد  
العادم .

ولننظر إلى عظمة الحق ، إنه يترك للعقل البشري أن يتقدم . ولكن العقل  
البشري قاصر وينسى من الأشياء ما ينتج عنه الضرر أخيرا . إن الذين اخترعوا

المبيدات الحشرية كانوا يظنون أنهم قاموا بفتح جديد في الكون ، وتشاء إرادة الحق أن يقوم بتحريم هذه المبيدات القوم أنفسهم الذين اخترعوها ؛ لأنهم وجلبوا منها الضرر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ هَبْطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ۝ ١٥٨ ۝ ﴾

( سورة الكهف )

إنك إن أردت أن تكمل صنعتك فابحث عن الحسن في ضوء منهج الله ، والحق سبحانه يضرب لنا المثل الواضح . إننا نعرف أن عادم صناعتنا ضار كعادم المصانع والسيارات وغيرها ، لكن عادم خلق الله في الحيوان نافع ، فالإنسان يأخذ روث الحيوان ويصنع منه السماد ليزيد من خصوبة الأرض ، والعجيب أن فضلات الحيوان التي تعطى خصوبة للأرض لا نجد فيها شيئاً يقرز ، ولا نجد لها الرائحة التي توجد في فضلات الإنسان ، لماذا ؟

لأن الحيوان يأكل على قدر حاجته ، إن الحيوان قد يجد أمامه أصنافا كثيرة ، مثل الحشيش الجاف اليابس ، وأمامه النعناع الأخضر ، فلا يأكل النعناع الأخضر ويأكل الحشيش اليابس ، وإذا شبع الحيوان امتنع عن الطعام ، ولذلك لا يخرج فضلات كريهة الرائحة ، لكن الإنسان ينوع ويلون ويأكل فوق طاقته ويبحث شهيته على الانطلاق والانفلات ، إن الحيوان لا اختيار له ، ومحكوم بالغريزة ويجد أمامه هذا الذي يؤكل وذلك الذي لا يؤكل فيختار بغريزته المناسب له ، وإذا امتلأت البطن لا يأكل ، لأنه محكوم بالغريزة والتسخير المطلق ، لكن الإنسان يتمتع بالاختيار ، فأفسد عليه هذا الاختيار وأبعده عن منهج الله وجعله بما لديه من قدرة يتجاوز الاكتفاء بحدود الشبع .

وهكذا نرى بوضوح أن الكون كله أسلم لله طوعا في المسخرات . وإياك أن تفهم أن هناك إسلاما بالقهر والإكراه . وبعض العلماء قد فاتهم ذلك ، وهم يعطون

لخصوم الإسلام حجة فيقولون : « إن دينكم انتشر بإكراه السيف » ولذلك نقول لهم : لا ، إن أحدا لم يسلم كرها أبدا ، لأن السيف إنما رفع لشيء واحد هو حماية حرية الاختيار . إن السيف قد رُفع ليمنع الإكراه ، وليمنع تسلط بعض الناس بقوتهم ليجبروا الناس على عقائدهم فقال لهم السيف : « قفوا عند حدكم ، ودعوا الناس أحرارا في اختيار ما يعتقدون » ، ودليل ذلك أن البلاد التي فتحها الإسلام تمجد فيها غير المسلمين ، ولو كان الأمر فتحا بالسيف لما وجدنا ديانات أخرى . غير الإسلام ، نجدهم أيضا يتشدقون بذلك ويزيدون « إنكم تفرضون جزية » .

ونقول لهم : أنتم تردون على أنفسكم ، نحن لم نفرض جزية على المؤمن ولكن الكافر تركناه على كفره ، والجزية يدفعها الكافر ليدافع عنه المؤمنون لو أصاب البلاد مكروه .

إذن فكيف نفهم قوله الحق بأن هناك من أسلم كرها ؟

نحن نفهمها كالآتي : إن الإنسان هو الذي انقسمت عنده المسائل ، وفيه أمور تدخل في فعله ومراداته ، وفيه أمور تحدث قهرا عنه ، وتحدث له بلا إرادة ولا اختيار ، فالإنسان يكون مختارا في الفعل الذي يقع منه ، أما الفعل الذي يقع عليه أو فيه فلا دخل له فيه بالاختيار ، إن أحدا منا لا يختار يوم ميلاده ، أو يوم وفاته أو يوم إصابته بالمرض ، والإنسان الذكي هو الذي يعرف ذلك ونقول للإنسان الذي لا يعرف أو يتجاهل ذلك : أيها الإنسان دعك من الغباء ، إن هناك زوايا من حياتك أنت مجبر فيها على أن تكون مسلما لله كرها إنك تسلم لله دون إرادتك في كثير من الأمور التي تقع عليك ، ولا تستطيع لها دفعا ، فلماذا تقف في الإسلام عند زاوية الاختيار ؟

إن المسخرات كلها مسلمة لله ، والإنسان فيها يقع فيه أو عليه من أمور لا يستطيع دفعها . هو تسليم لله كرها من الإنسان ، وهكذا نرى أن قيادة التسخير فيها ليس لك دخل فيه أيها الإنسان هي مسلمة لله ، مثلك في ذلك مثل كل الكائنات ، أفلا يجب عليك أن تسلم بكل زوايا حياتك ؟ فلو كان هناك إنسان كافر بكل ما فيه من أبعاض فعل هذا الكافر ألا يسلم بأي شيء من جوارحه ، هل يستطيع أن يمنحها من أن تؤدي عملها ؟



ولنر ما سيحدث له لا بد أن يتوقف عن التنفس ؛ لأن التنفس يحدث رغما عنه ، لا بد أن يوقف دقات قلبه ؛ لأنها تدق رغما عنه . ومادام هناك من يستمرى الكفر فليحاول أن يجعل كل ما فيه كافرا ، ولن يستطيع ؛ بل سيجد أنه يحب أمورا ولا تأنى له ، ويكره أمورا وتنزل به ، ولن يفلت أحد من الإسلام لله ، لأن الله قد اختار لكل إنسان يوم الميلاد ويوم الموت ، واختار الله للإنسان أن تمجرى الأحداث فوقه ولا يستطيع دفعها ، ويصبح خاضعا رغم أنفه ، لذلك قال الحق : « وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » .

إذن ولناخذ « طوعا » لغير الإنسان ، وللمؤمن الذى نفذ تعاليم المنهج ، ولناخذ « كرها » فى المسائل التى لا تدخل لاختيار الإنسان فيها وتقم عليه وهو يكرهها ، ولا يستطيع دفعها ، لأن الذى يجرىها عليه هو الخالق الفعال لما يريد ، ومادامت هناك زاوية من حياتك أيها الإنسان أنت مكره فيها فلماذا تمردت فى المسألة الاختيارية ؟

كان يجب أن يأخذ الكافر هذه النقطة ويقول للكفر : « لا » ، ويتجه إلى الإيمان ، لأن المؤمن يأخذ هذه النقطة ويقول : أنا أريد أن أنسجم مع الكون كله حتى لا تطفى ملكة على ملكة ، ولا تطفى إرادة على إرادة أخرى ، وهذه رحمة من الله بالخلق .

وحين يسلم الإنسان منهجه لله فإنه يفعل ما يطلبه المنهج ولا يفعل ما يحرمه المنهج ومن يريد أن يقف فى « افعل » و « لا تفعل » ، نقول له : إذا فعلت ما الذى يستفيد الله منك ؟ وإذا لم تفعل ما الذى يضر الله منك ؟

لا شئ ، إن عليك أن تفكر جيدا فالأمر إنما يرد أو يتمرد عليه إن كان للأمر فيه مصلحة ، وحيث إنه لا مصلحة للحق سبحانه وتعالى فى مراداته من الخلق إلا إصلاح الخلق ذاته ، إذن فمنهج الحق هو لمصلحة الإنسان ، وأول ما يصاب به من يقف فى منهج الله أنه يصبح ضد نفسه ، ولا ينسجم مع الكون ، فإن كان هناك من يريد ألا يسلم ، فليجرب نفسه بالأى يسلم فى المقهورات التى هو مقهور عليها ، وهذا أمر مستحيل .

ولنقرأ الموقف القرآن بدقة ، لنرى أنه الحق بعد القسم وبعد العهد وبعد الإشهاد

عليه ، قال لنا : « أفغير دين الله ييغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » . إن من ييغى غير دين الله ليس منطقيا مع نفسه أو مع الكون ، لأن الكون كله لله بما فيه ومن فيه من السماوات والأرض ، وكذلك الإنسان الذى ارتضى منهج الله ، وأيضا أسلم الكافر لله فيها ليس له فيه اختيار .

« وأسلم » فى هذا السياق القرآن الكريم تعنى أنه خضع وسُخر ، وقُهر على أن ينفذ ، ولكن الحق سبحانه أورد عن السماء والأرض فقال: « قالتا أتينا طائعين » . إن المؤلف أن ترضخ السماء والأرض لأمر الله ، وعندما « قالتا أتينا طائعين » فقد كسبت السماء والأرض الإسلام لله ، فإلى الله كل مرجع فالإنسان - مؤمنا كان أو كافرا - سيعود إلى الله حتما .

وكلمة « يرجعون » التى تأتى فى تذييل الآية يمكننا أن نراها فى مواقع أخرى من القرآن مرة تأتى مبنية للمفعول وننطقها « يرجعون » بمعنى أنهم مهجورون على الرجوع إلى الله ، ونجدها فى مواقع أخرى فى القرآن كفعل مبنى للفاعل فننطقها « يرجعون » ، أى أنهم يريدون الإسراع فى العودة إلى الله ، وفى هذه الآية نفهم أن الذين ييغون غير دين الله لا يرغبون أن يعودوا إلى الله لذلك يتم إرجاعهم بالقهر ، فسبحانه وتعالى يقول :

﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ۖ ﴾ (١٧)

( سورة الطور )

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ ﴾

## مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

عندما ننظر إلى هذه الآية بخواطرنا فإننا نجد أن الحق يمزج الرسول والمؤمنين به والمرسل إليهم في الإيمان به ، ويتحدث إلى الرسول والمؤمنين كوحدة إيمانية ، إن قول الحق : « قل » هو خطاب لمفرد هو النبي صلى الله عليه وسلم ، والمقول : « آمنا » دليل على انسجام الرسول مع الأمة المؤمنة به ، فكان الأمة الإسلامية قد انصهرت في « قل » ، وكان الرسول موجود في « آمنا » ، وبذلك يتحقق الامتزاج والانسجام بين الرسول وبين المؤمنين به ، ويصير خطاب الحق إليهم هو خطاب لوحدة إيمانية واحدة لا انفصام فيها .

وقد جاء الحق بهذا الأسلوب ليوضح لنا أن الرسول لم يأت ليتعالى على أمته ، بل جاء ليحمل أعباء هذه الأمة ، ولذلك قلنا من قبل : إن للرسول صلى الله عليه وسلم إيمانين ، لقد آمن بالله ، وآمن للمؤمنين ، وهو صلى الله عليه وسلم سيشفع لنا ، لأنه قد أدى مؤدى يسع أمته كلها ، لقد أتم البلاغ وخضع للتكليف بما يسع أمته كلها ، ولذلك يقول الحق : « قل آمنا » ، كان القياس أن يقول : « قل آمنت » ، أو أن يقول : « قولوا آمنا » . لكن الحق في قرآنه الكريم يضع كل كلمة في موضعها ، فتصبح الكلمة جاذبة لمعناها ، ويصبح كل معنى عاشقا لكلمته ، وقد قال الحق هنا : « قل آمنا » ليتضح لنا أن محمدا رسول ممتزج في أمته ، وأمة الإسلام في طوابعه لرسولها ، والأمر يأتي لرسول الله من الحق سبحانه ، والتنفيذ لهذا الأمر يكون من الجميع ، وفي هذا إشعار للخصوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون ذا عصبية إيمانية قوية ، فلو قال : « قل آمنت » لكان معنى ذلك أن الرسول لن يملك إلا إيمانه فقط ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم آمن به قومه ، وكثير غيرهم وجاء على يديه فتح مكة كما قال الحق :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ ﴾

وعندما نقرأ قوله الحق : « قل آمنا بالله وما أنزل علينا » فلنا أن نلتفت إلى أن العلماء لهم وقفة في مسألة الإنزال ، فمرة يقول الحق :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا آخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ① ﴾

( سورة البقرة )

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ② ﴾

( سورة النحل )

وهكذا نجد أن « الإنزال » يأتي مرة متعدبا بـ « إلى » ، ويأتي مرة أخرى متعدبا بـ « على » . وقال بعض من العلماء : إن الكلام حينها يكون موجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم فالحق يقول : « أنزل عليك » ، وكأن هؤلاء العلماء - دون قصد منهم - يفصلون بين بلاغ الله للرسول عن البلاغ إلى أمة الرسول صلى الله عليه وسلم . ولم يلتفتوا إلى أن الغاية من إنزال المنهج على الرسول هو هداية الأمة .

ونحن نقول : إن علينا ألا نأخذ الأمر بسطحية من أسلوب ظهر لنا ؛ ذلك أن هناك أسلوبا خفيا ، وهو أن « إلى » و « على » إنما تفيدان أن المنهج نزل للأمة والرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فمرة يأتي الحق بالتزول متعدبا بـ « إلى » والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم كقوله الحق :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ③ ﴾

( سورة المائدة )

ومرة يأتي الحق بالتزول متعدبا بـ « على » والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم

وسلم كقوله الحق :

﴿ وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣١)

(سورة النحل)

ومرة ثالثة يأتي الحق بالإنزال في حديث إلى المؤمنين :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ (١٥)

(سورة النساء)

إنه كتاب منزل من السماء وملحوظ فيه العلو ، والغاية من النزول هو مصلحة الأمة ، فالإتيان بـ ( على ) يفيد العلو ، والمصلحة الأمة ، والعلية هنا لتزيد مقام المنهج بالنسبة للمؤمنين فهو قد نزل لمصلحتهم . إذن فالنزول يقتضي « علية » ، وهو من حيث العلو يأتي بـ « على » ، ومن حيث الغاية يأتي بـ « إلى » ، فهو منهج نزل من الحق الأعلى ونزل إلى الرسول وعلى الرسول ليلبغه إلى المؤمنين لمصلحتهم . ولذلك قلنا : إننا إذا رأينا حكماً يقيد من حرية الفرد فلا يصح أن نفهم أن الله قد قصد هذا الفرد ليقيد حريته ، إنما جاء مثل هذا القيد ليقيد الملايين من أجل حرية الفرد ، مثال ذلك ساعة يحرم المنهج السرقة على الإنسان ، فهو أمر لكل إنسان من الملايين وهو لمصلحة كل إنسان ، فالقرآن قد نزل لمصلحتك ، ومصلحة المؤمنين جميعاً .

وعندما نقرأ قوله الحق : « قل آمنوا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . فهذا القول يوضح أن الرسول صلى

الله عليه وسلم إنما جاء بمنهج يضم صحيح العقائد والقصاص والأخبار ، وهو يوافق ما جاء في موكب الرسالات من يوم أن خلق الله الأرض وأرسل الرسل . وقد أخذ الله العهد على الأمم والأنبياء من قبل ، بأنه إذا جاء رسول مصدق لما معهم ليؤمنن به ، وكذلك أخذ الله العهد على رسولنا صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن بالرسول السابقين ، فهو صلى الله عليه وسلم لم يأت ليهدم أديانا ، ولكن ليكمل أديانا ، وهكذا نرى النص القرآني الجليل :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

دِينًا ﴾

( من الآية ٣ سورة المائدة )

كان الأديان السابقة بكل ما جاء فيها من صحيح العقائد ، والقصاص ، والأخبار موجودة في الإسلام ، وفوق كل ذلك جاء الإسلام بشرائع تناسب كل زمان ومكان ، ولذلك قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث شريف :

« إنما مثل ومثل الأنبياء قبل كمثلي رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله وأكمله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويقولون ما رأينا أحسن من هذا لولا موضع هذه اللبنة فكنت أنا اللبنة » (١)

إذن فزمام كل الأمر انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أخذ الله العهد على غيره أن يصدقوه عندما يجيء ، وهو صلى الله عليه وسلم آمن وصدق بمن سبق من الرسل ، ولن يجيء من بعده شيء يطلب من رسول الله ولا من أمته أن يصدقوه ، وقال الحق تذيلا لهذه الآية الكريمة : « ونحن له مسلمون » .

أي أنه لا يوجد لأتباع أي رسول من الرسل السابقين ما يعطيهم سلطة زمنية ، بل المسألة كلها تبدأ من الله ، وتنتهي إلى الله . وتلك هي القضية النهائية في موكب

الرسالات . ومادام الإسلام هو ذلك الانقياد الذي يختاره الإنسان لنفسه ليكون منسجما مع نفسه في الإسلام لله ، ويكون انسجاما مع الكون الآخر وما يحتويه من حيوان ونبات وجماد وغيرها في أنه أسلم خضوعا لله ، وبذلك يصبح الكون بما فيه الإنسان المؤمن المسلم لله كله مسخرا لله سبحانه وتعالى . ومادام الكون بالإنسان قد صار مسخرا لله فلا تضاد في حركة إلتعاند حركة أخرى ؛ لأن الذي يهيمن هذه الهيمنة هو الذي وضع لكل إنسان في مجال حركته في الحياة قانونا يعصمه من أن يصطدم بغيره ، وإذا كان البشر قد استطاعوا أن يضعوا لأنفسهم معايير تمنع التصادم في الحركة ، ذلك التصادم الذي يؤدي إلى كوارث ومصائب .

مثال ذلك ، لننظر إلى السكك الحديدية ، ألا يوجد موظف اسمه « المحولجي » ؟ ومعنى هذه الوظيفة هو أن القائم بها يقوم بتحويل القاطرة القادمة من طريق معين إلى مسار محدد حتى لا تدهم قاطرة أخرى جاءت من الطريق نفسه . إن ذلك من فعل الإنسان فيما صنع من قطارات ومواصلات ، لقد صنع أيضا وسائل تمنع تصادمها ، فما بالنا بالحق - وله المثل الأعلى - وهو الذي خلق الإنسان ؟ إنه سبحانه قد وضع المنهج حتى لا تصطدم حركة في الوجود بحركة أخرى .

ولننظر إلى الأشياء التي جاءت بقانون التسخير ، والأشياء التي دخلت في ظل الاختيار . أسمعنا أن جملين سارا في طريقين متعارضين واصطدم الجمل بجمل ؟ لم يحدث ذلك أبدا ، فالجمل يقادى نفسه وما يحمل من الجمل الآخر وما يحمله ، لكننا نسمع عن تصادم سيارة مع سيارة ، ذلك أن السيارة لا تسير بذاتها بل تسير بقيادة إنسان مختار ، وهو الذي يصدم وهو الذي قد تأتى منه في غفلته الكوارث .

إذن فتصادم حركة بحركة إنما ينشأ في الأمور الاختيارية ، أو غفلة إنسان عن مهمته ، كغفلة « المحولجي » عن عمله في تنظيم مرور القطارات ، لكن تصادم حركة في الوجود بحركة أخرى في الوجود هو أمر مستحيل ، ولا يحدث أبدا ؛ لأن الأمر الذي مازال في يد المهيمن الأعلى ، مهيمن الأرض والسماء ، وهو الله الذي يسير الكون منسجما ويعرفنا بصفاته فيقول : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » ومعناه : أني أنا القائم بأسبابكم ومدير أمركم ولا أنام أو تأخذنا سنة أو غفلة أي فتاموا أنتم فقد سخرت الوجود كله من أجلكم .

ومادام الأمر في الإسلام هكذا ، والوجود ينسجم مع نفسه ، فلماذا تشذ أنت أيها الإنسان عن الوجود ؟ ولماذا تشذ عن ملكات نفسك ؟

لماذا لا تكون منسجما مع الكون ؟ إنك إن انسجمت مع نفسك ومع الكون صرت الإنسان السعيد .

وفي عصرنا الحديث نرى ارتفاع العالم ماديا بصورة عالية ، بحيث يقع الحدث في أمريكا مثلا فنراه على شاشة التليفزيون فورا ، ويركب الإنسان مركبا صاروخيا إلى الفضاء ولكن هل استراح العالم ؟ لا ، لقد ازداد العالم عناء ، وكأنه يكبد ذهنه ويرهق العلماء في معاملهم لابتكار أشياء تعطى للعالم مزيدا من القلق والاضطراب وتتصادم وتتعارض . وبذلك صار الكون لا يفرغ أبدا من حرب باردة أو ساخنة .

كل ذلك إنما ينشأ من إدارة أمور العالم بأهواء البشر ، فلستنا جميعا مردودين إلى منهج واحد يأمرنا فنأتمر ، وينهانا فننتهي ، بل كل إنسان يتبع في عمله هواه ، لذلك نرى القلق والاضطراب ، ونرى الصرخات تحلأ الدنيا من أهوال ومصائب ، منها مثلا المخدرات وغيرها . إن الذي يدمن المخدرات هو إنسان غير راضٍ عن واقع حياته ، فلا يريد مواجهة حياته ، إنما يحاول الهرب منها بالإدمان ، ونقول لمثل هذا الإنسان : ليس هذا حلا للمشكلة ، لأن الإنسان عندما تأتيه مشكلة فهو يحتاج عقلا على عقله لمواجهة هذه المشكلة ، وأنت بهذا الإدمان إنما تُضَيِّعُ عقلك ، رغم أنك مطالب بأن تأق بعقل آخر بجانب عقلك لتحل مشكلتك ، فالهرب من المشكلة لا يحلها ، إنما الهروب غباء وقلة فطنة فالمشكلة زادت تعقيدا ونقول للمجتمعات التي تشكو من مثل هذه البليات لو أخذتم شرائعكم من منهج الله لكان ذلك حماية لكم من مثل تلك الكوارث .

وهكذا نرى أن كل الابتكارات تُوجه دائما إلى الشر أولا ، فإذا لم يوجد لها ميدان شر فلاننا نوجهها إلى الخير ، وبإلته خير خالص لوجه الله ، لا ، إنه خير مجمع ومنحرف عن الخير لأن الذي لا يملك هذا اللون من الاختراعات كالشعوب النامية والعالم الثالث قد جعله المخترعون بوساطة هذه الاكتشافات والمخترعات مستعبدا ومقهورا لهم ، إنهم جعلوا تقدمهم استعبادا وإذلالا لغيرهم وإن تظاهروا بغير ذلك .

لماذا يحدث كل ذلك ؟ لأننا لم نكون منطقيين - كما يجب - مع أنفسنا ولا مع واقع





الأمور النهوضية التي نحن فيها فالطموحات العلمية التي لا حد لها لا يصح أن تسبب لنا كل هذا التعب ، بل كان المفروض بعد الوصول إلى تحقيق هذه الطموحات أن نستريح ، ولكن لم يحدث هذا ؟ لأن زماننا نحن البشر بيد أهوائنا ، والأهواء ليست هي اليد الآمنة ، إن اليد الآمنة هي شرع الله الذي لم يشرع إلا لمصلحة من خلق ، ومادام الإسلام يرسم طريق الأمان مع الخالق والنفوس والكون الذي نحياه ، بما فيه من الأجناس الأخرى ، إذن فالدين عند الله هو الإسلام ، وهذه هي النتيجة الحتمية لذلك يقول الحق سبحانه : « ونحن له مسلمون » ويتبعها الحق سبحانه بقوله :

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ  
وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

إن الغاية التي تسعد العالم كله هي دين الإسلام . ومن يرد دينا غير ذلك فلن يقبله الله منه . فإن كان هناك من لا يعجبه تقنين السماء ويقول مندهشا : إن في هذا التقنين قسوة ؛ إنك تقطع يد إنسان وتشوهه نرد على مثل هذا القائل : إن سيارة تصدم سيارة تشوه عشرات من البشر داخل السيارات ، أو قطار يصاب بكارثة فيشوه مئات من البشر .

ونحن عندما نبحث عن عدد الأيدي التي تم قطعها في تاريخ الإسلام كله ، فلن نجدما إلا أقل كثيرا من عدد المشوهين بالحوادث ، وأى ادعاء بالمحافظة على جمال الإنسان مسألة تثير السخرية ؛ لأن تقنين قطع يد السارق استقامت به الحياة ، بينما الحروب الناتجة عن الهوى شوهت وأفتت المئات والآلاف ، إن مثل هذا القول سفسطة ، هل معنى تشريع العقوبة أن يحدث الذنب ؟ لا ، إن تشريع العقوبة يعنى تحذير الإنسان من أن يرتكب الذنب .

وعندما نقول لإنسان : « إن قتلت نفسا فسيطول ولى الأمر قتلك » أليس في ذلك

حفاظ على حياته وحياة الآخرين ؟ وحين يحافظ التشريع على حياة فرد واحد فهو يحافظ في الوقت نفسه على حياة كل إنسان ، يقول الله تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١٧٩)

( سورة البقرة )

وهكذا يصبح هذا التقنين سلبيا غاية السلامة ، إذن فقول الحق سبحانه : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » يدلنا على أن الذي يشرع تشريعا يناقض ما شرعه الله فكأنه خطأ الله فيما شرع ، وكأنه قد قال الله : أنا أكثر حنانا على الخلق منك أيها الإله ؛ لأنه قد فانتك هذه المسألة .

وفي هذا القول فسق عن شرع الله ، وعلى الإنسان أن يلتزم الأدب مع خالقه . وليرد كل شيء إلى الله المربي ، وحين ترد أيها الإنسان كل شيء إلى ربك فأنت تستريح وترتاح ، اللهم إلا أن يكون لك مصلحة في الانحراف . فإن كان لك مصلحة في الانحراف فأنت تريد غير ما أراد الله ، أما إذا أردت مصلحة الناس فقد شرع الحق ما فيه مصلحة كل الناس ؛ لذلك قال الحق : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

وقد يقول قائل في قوله تعالى : « فلن يقبل منه » إن هذه العبارة لا تكفي في منحى اطمئناننا إلى جزاء العمل الذي اتقرب به إلى الله فإله قد يقبل وقد لا يقبل فهو - سبحانه - لا أحد يكرهه على شيء ، ونقول له : إنك ستأتي إلى ربك رضى أو أبى فإما حاجتك إلى هذا القول ؟ لو كنت تستطيع أن تعجز الله وتفوته فلا يقدر عليك ؛ الحق لك أن تقول ذلك ، ولكنك لا تستطيع ، فكن عاقلا ولا تتمرد على أمر ربك ، ويقول الحق : « وهو في الآخرة من الخاسرين » . والخاسر : مأخوذة من « الخسر » ، و« الخسر » هو ذهاب رأس المال وضياعه ، والآخرة حياة ليس بعدها حياة ، ومن الغباء أن يقول قائل : « سوف أتعذب قليلا ثم تنتهى المسألة » لا ، إن المسألة لا تنتهى ؛ لأن الآخرة حياة دائمة ولا حياة بعدها . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ  
وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٨٦)

إننا نرى هنا الأسلوب البديع ، إن الحق سبحانه يدعونا أن نتعجب من قوم كفروا بعد الإيمان ، إنهم لو لم يعلنوا الإيمان من قبل لقلنا : إنهم لم يذوقوا حلاوة الإيمان ، لكن الذي آمن وذاق حلاوة الإيمان كيف يقبل على نفسه أن يذهب إلى الكفر ؟ إنه التمرد المركب .

وقد يتساءل إنسان قائلا : مادام الله لم يهديهم ، فما ذنبهم ؟ نقول له : يجب أن نتذكر ما نكرره دائما ، لتتضح القضية في الذهن لأنها قضية شائعة وخاصة عند غير الملتزمين ، الذين يقول الواحد منهم : إن الله لم يرد هدايتي ، فماذا أفعل أنا ؟ إن ذلك استدلال لتبرير الانحراف ومثل هذا القول لا يصدر إلا من المسرف على نفسه ، ولا يأتي هذا القول أبدا من طائع لله ، إن الذي يقول : « إن المعصية إنما أرادها الله مني ، فما ذنبي ؟ » يجب أن يعرف أن الطاعة من الله ، فلماذا لم يقل : « إن الطاعة من الله فلماذا يثيبنا عليها ؟ لماذا تغفل أيها العاصي عن ذكر ثواب الطاعة ، وتقف عند المعصية وتقول : « إن الله قد كتب على المعصية فلماذا يعذبني ؟ » كان يجب أن نقول أيضا : « مادام قد كتب على الطاعة فلماذا يعطيني عليها ثوابا ؟ » .

إننا نقول لمن يبرر لنفسه الانحراف : إنك تريد أن تأخذ من الطاعة ثوابها ، وتريد أن تهرب من عقاب المعصية . وأنت تحتاج إلى أن تفهم الأمر على حقيقته ، لقد قلت من قبل : إن « الهداية » تأتي بمعنىين « هدى » أى دل على الطريق الموصلة لل غاية المرجوة ولم يصنع شيئا أكثر من ذلك والمثال هو إشارات المرور الصماء ، إن كل إشارة توضح طريقا معيناً وتهدى إليه ، وإشارة أخرى توضح طريقا آخر وتهدى إليه . ولا يوجد أحد عند هذه الإشارة يأخذ بيد الإنسان ويقول له : أنا سأخذ بيدك وأصلح لك العربة عندما تقف منك ، أو أركب معك لأوصلك إلى غايتك .

إن هذه الإشارة هي هداية فقط ، أى أنها دلالة على الطريق الموصلة إلى الغاية المرجوة والله سبحانه وتعالى قد هدى الناس جميعا المؤمن منهم والكافر أيضا ، أى دهم سبحانه على الطريق الموصل للغاية . وانقسم الناس بعد ذلك إلى قسمين : قسم قيل هذا المنهج وارتضاه وسار كما يريد الله ، وساعة أن راح هذا المؤمن إلى جناب الله وآمن به ، فكان الحق يقول له : إنك آمنت بى وبمنهجى ، لذلك ستكون لك جائزة أخرى ، وهى أن أعينك وأخفف عليك الأمور ، وهذه هى الهداية الثانية التى يعطيها الله جائزة لمن آمن به وارتضى منهجه وتعنى « المعونة » ، إن الله يعطى عبده المؤمن حلاوة الطاعة ، ويجعله مقبلا عليها بنشاط .

إذن فالهداية تكون مرة « دلالة » وتكون مرة ثانية « معونة » إننى أكرر هذا القول حتى يتضح الأمر فى أذهاننا جميعا ، ولنذكره دائما ، ونقول : من يعين الإنسان ؟ إن الذى يعينه هو من آمن به . أما من كفر بالله ، فلا يعينه الله .

وسبق أن قلت مثلا - ومازلت أضربه - : إن إنسانا ما يسير فى طريق ثم التبس عليه الطريق الموصل للغاية كالمسافر إلى الإسكندرية مثلا ، وبعد ذلك وجد شرطيا واقفا فسأله : أين الطريق إلى الإسكندرية ؟

فيشير الشرطى إلى الطريق الموصل إلى الإسكندرية قائلا للسائل : هذا هو الطريق الصحيح إلى الإسكندرية .

إن الشرطى هنا قد دل هذا الإنسان ، لكن عندما يقول السائل للشرطى : « الحمد لله أننى وجدتكم هنا لأنك يسرت لى السبيل » فهذا القول يأسر قلب الشرطى ، فيزيد من إرشاداته للسائل ويوضح له بالتفصيل الدقيق كيف يصل إلى الطريق ، وينبهه إلى أى عقبة قد تعترضه ، وإن زاد السائل فى شكره للشرطى ، فإن ذلك يأسر وجدان الشرطى أكثر ، ويتطوع ليركب مع السائل ليوصله إلى الطريق ، شارحا له ما يجب أن يتجنبه من عقبات ، وبذلك يكون الشرطى قد قدم كل المعونة لمن شكره .

لكن لنفترض أن رجلا آخر سأل الشرطى عن الطريق ، فكذب الرجل الشرطى ، وفى مثل هذا الموقف يتجاهل الشرطى مثل هذا الرجل ، وقد ضربت

هذا المثل للتقريب لا للتشبيه . إن الحق يدل أولا بهداية الدلالة ، وقد هدى الله الناس جميعا ، أى دلم على المنهج ، فمن ذهب إلى رحابه وآمن به ، أعطاه الله هداية ثانية ، وهى هداية المعونة والتيسير .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ﴾ (١٧)

( سورة محمد )

إن الحق يعطيهم حلاوة الهداية وهى التقوى ، كان الحق يقول للعبد المؤمن : ما دمت قد أقبلت على الإيمان فلك حلاوة الإيمان ، أما الذى يكفر ، والذى يظلم نفسه بالشرك ، فالحق يمنع عنه هداية المعونة ؛ لأنه قد رأى هداية الدلالة ولم يؤمن بها . إذن فلا استفهام فى قوله تعالى : « كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم » هو تساؤل يراد به الإنكار والاستبعاد لا عن الهداية الأولى وهى هداية الدلالة ، ولكنه عن هداية المعونة ، أى : كيف أعين من كفر بى ؟

والمقصود بهذا القول هو بعض من أهل الكتاب الذين جاءهم نعت الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتبهم حتى إن عبدالله بن سلام وهو منهم « يقول : لقد عرفت محمدا حين رأيته كمعرفى لابنى ، ومعرفى لمحمد أشد ، ومصدق ذلك ما يقوله الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ قَالُوا آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۖ ﴾ (١٥٧)

( سورة الاعراف )

والتعبير القرآن الدقيق لم يقل : يجدون وصفه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل إنما يقول الحق :

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأعراف)

كَانَ الَّذِي يَقْرَأُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَرَى صُورَةَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ دَقَّةِ الْوَصْفِ ، لَقَدْ عَرَفْتَهُ التَّوْرَةَ وَعَرَفَهُ الْإِنْجِيلَ مَعْرِفَةً مُفَصَّلَةً وَشَامِلَةً ، مَعَ نَظَرٍ وَقَوْلٍ يُوَكِّدُ ذَلِكَ وَهَنَّاكَ فَرَقَ بَيْنَ أَنْ «تَعْرِفَ» وَبَيْنَ أَنْ «تَقُولَ» ؛ فَقَدْ يَعْرِفُ الْإِنْسَانُ وَيَكْتُمُ مَا عَرَفَ ، وَلَكِنَّهُمْ عَرَفُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاعْتَرَفُوا بِذَلِكَ ، فَقَدْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ بِهِ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ، قَالَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ :

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (٨٩)

(سورة البقرة)

لَقَدْ أَخَذُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ حُجَّتِهِ نَصْرَةً عَلَى الْكَافِرِينَ ، فَقَالُوا : سَيَأْتِي نَبِيٌّ وَتَتَّبِعُهُ وَنَقْتُلُكَ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَارَمَ . فَمَاذَا فَعَلُوا ؟ إِنْ الْحَقُّ يَجِيبُ :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إِذَنْ هُمْ آمَنُوا بِالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَبْلِ حُجَّتِهِ ، فَلَمَّا جَاءَ كَفَرُوا بِهِ . انْظُرْ إِلَى الْعَدَالَةِ مِنَ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، حِينَ يَرِيدُ أَنْ يَدْلُهُمْ عَلَى مَوْقِفِ الصِّدْقِ وَالْحَقِّ وَالْكَرَامَةِ الْإِيمَانِيَّةِ .

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾

(سورة الرعد)

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَهُمْ عِلْمُ الْكِتَابِ هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ، هَؤُلَاءِ يَشْهَدُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِنَّ الْقُرْآنَ بَعْدَالَتِهِ يَنْصِفُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَهِيَ الْكِتَابُ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ،

« كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق » لقد آمنوا به رسولا من منطوق كتبهم ، ثم أعلنوها حينما قالوا : « ياق نبي تتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم » .

فإذا كانوا قد صنعوا ذلك ، فكيف يهديهم الله ؟ إنهم ليس لديهم الاستعداد للهداية ، ولم يقبلوا على الله بشيء من الحب ، لذلك فهو سبحانه لا يعينهم على الهداية ولو أقبلوا على الله لأعانهم قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ﴾ (١٧)

( سورة محمد )

وهؤلاء لم يهتدوا ، فلذلك تركهم الله بدون هداية المعونة ، وهذا يوضح لنا معنى القول الحق :

﴿ وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَنْ نَجِدَ لَهُ مَبِيلًا ﴾

( من الآية ٨٨ سورة النساء )

إن الذين لم يهتدوا بهداية الدلالة فلم يؤمنوا بضلهم الله أي يتركهم في غيهم وكفرهم ، أي أنه مادام هناك من لم يؤمن بالله فهل يحسب الله بيده ليهديه هداية المعونة ؟ لا ، لأنه إذا لم يؤمن بالأصل وهو هداية الدلالة ، فكيف يمنحه الله هداية المعونة ؟ ومادام لم يؤمن بالله أكان يصدق التيسيرات التي يمنحها الله له ؟ لا ، إنه لا يصدقها ، ويجب أن تعلم أن هداية الدلالة هداية عامة لكل مخاطب خطابا تكليفيا ، وهو الإنسان على إطلاقه ، أما هداية المعونة فهي لمن أقبل مؤمنا بالله وكان الحق يقول له : « أنت آمنت بدلائي فخذ معونتي » أو « أنت أهل لمعونتي » أو « ستجد التيسير في كل الأمور » ، أما الذي كفر فلا يهديه الله ..

إن الحق سبحانه لا يعين الكافر ؛ لأن المعونة تقتضي ابتداء فعلا من المؤمن ، والكافر لم يفعل ما يمكن أن ينال به هذه المعونة ، فهو لم يؤمن ، لذلك يكون القول الفصل : « والله لا يهدي القوم الكافرين » ويكون القول الحق « والله لا يهدي القوم الفاسقين » ويكون القول الحق « والله لا يهدي القوم الظالمين » . إن هؤلاء هم

الظالمون الذين ارتكبوا الظلم الأصيل وهو الشرك بالله كما قال الحق :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٦ ﴾

( سورة لقمان )

والحق عندما يتركهم فإنه يزيدهم ضلالا ، ويختم على قلوبهم ، فلا يعرفون طريقا إلى الإيمان :

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٨٦ ﴾

( سورة آل عمران )

لقد جاءهم الرسول بالآيات الدالة على صدق رسالته ، ولكنهم ظلموا أنفسهم الظلم الكبير العظيم ، وهو الشرك بالله ، ولكن هل هذه الآية قد نزلت في أهل الكتاب الذين كان عندهم نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإشارات وبشارات به ؟ أو نزلت من أجل شيء آخر هو أن أناسا آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كفروا به ؟

إن القول الحق يتناول الفئتين ، وينطبق عليهما ، سواء أكانوا من أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول من قبل ولم يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، أم من الذين آمنوا برسالة رسول الله ثم كفروا به ، كما حدث من بعضهم في عهد الرسول ، مثال ذلك طعنة بن أبيرق ، وابن الأسلت والحارث بن سويد ، هؤلاء أعلنوا الإيمان واتجهوا إلى مكة ومكثوا فيها ، تاب منهم واحد وأخذ له أخوه ضمانة عند رسول الله ، والباقي لم يتوبوا .

إن القول الحق يتناول الفئتين ، وينطبق عليهما جميعا قوله تعالى :

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ



الْبَيْتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾

(سورة آل عمران)

وينصل لنا الحق سبحانه جزاء هؤلاء بقوله الحكيم :

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٨٧﴾

واللعنة هي الطرد من الرحمة ، والله يعلم كل ملعون منهم ، وماداموا قد طُردوا من رحمة الله فالملائكة وهم المؤمنون بالله إيمان المشهد يرددون اللعنة ، والمؤمنون من خلق الله يرددون اللعنة ، وكذلك يلعنهم جميع الناس ، وكيف يلعنهم كل الناس سواء أكانوا مؤمنين أم كفارا ؟ كيف يلعنهم الكافرون ؟ إن الكافر عندما يرى إنسانا يرتكب معصية ما فإنه يتزله من نظره ويحتقره وإن لم يكن مؤمنا .

وهب أن كفرا وجد إنسانا يخرج على المنهج ويفعل معصية ويرتكب جرما ألا يلعن الكافر مثل ذلك الإنسان ؟ إنه يلعنه لأن الفطرة المركوزة التي فطر الله الناس عليها ترفض ذلك ولا ترضيه .

وهكذا شاء الحق أن يجعلهم ككفار يتلاعنون فيما بينهم ، ونجد أن جميع الناس يلعنونهم كذلك ؛ لأنهم قد خرجوا عن منهج الله بالكفر بعد الإيمان ، وجرحهم ذلك إلى إقتراف الآثام ، وهكذا تصبح الملاعة من الجميع ، وهم مع ذلك خالدون في اللعنة قال تعالى :

## ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

ومعنى « لا يخفف عنهم العذاب » أى أن العذاب يظل دائماً أبداً وقد يظن بعض الناس أن الكافر مادام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهى أمره. لا إنه يغفل قضية ويذكر قضية ، إنه يتناسى قول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِقَابَتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمًا نَضْجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْسِئِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

( سورة النساء )

إنهم سيدوقون العذاب بأمر من الحق دائماً وأبداً ، وقد يقول بعضهم : إن العلم قد توصل إلى أن الإنسان تقل حساسيته للألم الناتج من الضرب بالسوط بعد العشرين سوطاً الأولى ، وهو بذلك ينسى أن العذاب في الآخرة على نمط آخر ، إن الله يخلق للمعذب إحساساً جديداً ليظل مستشعراً دائماً العذاب ، قال الحق : « لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » أى أن عذابهم مؤكد ولا يتركهم الحق ليستريحوا من عذابهم . وبعد ذلك يقول تعالى :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

والحق سبحانه وتعالى هو الخالق للخلق كلهم ، يجب أن يكونوا على ما يود

ويحب ؛ لأنهم صنعة الله فهو سبحانه وتعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين

وقد أمر عباده أن يتوبوا إليه توبة نصوحاً أى توبة صادقة خالصة لا رجوع فيها هذه التوبة تنسم بالاقلاع عن الذنب والندم على ما فات والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى ورد المظالم لأصحابها إن كانت هناك مظالم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الله ييسر يده بالليل ليتوب مسيء النهار وييسر يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » (١) .

وهكذا أوجد الحق تشريع التوبة بهدف إصلاح الكون ؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة لمن أذنب فإن من غفل عن منهج الله ولو مرة واحدة قد يصير في نظره نفسه ضائعاً فاسداً مرتكباً لكل الحماقات ، فكان الله بتشريع التوبة قد ضمن لصاحب الإسراف على نفسه في ذنب أن يعود إلى الله ، كما يرحم المجتمع من شرور إنسان فاسد ، إذن فتشريع التوبة إنما جاء لصالح الكون ، ولصالح الإنسان لينعم بمحبة الله ، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٩)

(سورة آل عمران)

فبرغم كفرهم السابق إلا أن الله برحمته لا يدخلهم في الوعيد ؛ إنهم مطالبون بالتوبة والإصلاح ، ومعنى كلمة « أصلح » أنه زاد شيئاً صالحاً على صلاحه . والكون ليس فيه شيء فاسد اللهم إلا ما ينشأ عن فعل اختياري من الإنسان وعمل التائب أن يزيد من الإصلاح في الكون ، وهكذا نضمن ألا يحىء التائب إلى الشيء فيفسده ؛ لأن من يريد أن يزيد الصالح صلاحاً ، لن يفسد الشيء الصالح .

وربما كان هؤلاء الذين أسرفوا على أنفسهم في لحظة من لحظات غفلة وعيهم الإيمان ساعة يذكرون الذنب أو الجريرة التي اقترفوها بالنسبة لدينهم ، يحاولون أن يجتنبوا ويسارعوا في أمر صالح حتى يجبر الله كسر معصيتهم السابقة بطاعتهم اللاحقة .

ولذلك نجد كثيرا من الناس الذين يتحمسون للإصلاح وللخير ، هم أناس قد تكون فيهم زاوية من زوايا الإسراف على نفوسهم في شيء ، وبعد ذلك يتجهون لعمل الخيرات في مجالات كثيرة جدا ، كأن الله يقول لكل منهم : أنت اختلست من عارمي شيئا وأنا سأخذك إلى حلال ، إنه الحق يجعل من معصية الفرد السابقة سيطا دائمة تلهب ضميره فيتجه إلى الخير ، فيتصدق على الفقراء ، وربما كان أهل الطاعة الرتبة ليس في حياتهم مثل هذه السياط .

ولكن الذين أسرفوا على أنفسهم هم الذين تلهبهم تلك السياط ، فساعة يرى الواحد منكم إنسانا قد أسرف على نفسه فليدع الله له بالهداية ، واعلم تمام العلم أن الله سيُسخر منه ما يفعل به الخير ؛ لأن أحدا لن يسرق الكون من مخالفه أبدا . وهذا ينطبق على من قال عنهم الله : « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا » ( وأصلحوا ) أى عملوا صلاحات كثيرة لأن حرارة إسرافهم على نفوسهم تلهب ظهورهم دائما ، فهم يريدون أن يصنعوا دائما أشياء لاحقة تستر انحرافاتهم السابقة وتذهبها .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا  
لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾

هذه الآية تحدث عن أولئك الذين كفروا بعد إيمانهم ، وازدادوا كفرا ، وهؤلاء لا تقبل توبتهم وهم الضالون ، وقد جاءت مقابلة للآية السابقة ، أناس تابوا وأناس لم يتوبوا . لكن كيف يزداد الكفر ؟ إنه قد كفر في ذاته ، وبعد ذلك كان عائقا لغيره عن أن يؤمن ، وهو لا يكتفى بخيسته ، بل يحاول أن ينشر خيسته على الآخرين ، وفي ذلك ازدياد في الكفر والعياذ بالله ، وهذا القول قد نزل في بعض من اليهود الذين آمنوا بالبشارات التي تنبأت بمقدم عيسى عليه السلام ، فلما جاء عيسى كفروا به ، ولما جاء محمد ازدادوا كفرا .

لقد كفروا بعيسى أولا ، ثم ازدادوا كفرا بمحمد وادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وهؤلاء ليسوا من الذين تابوا . أو أنهم أعلنوا التوبة باللسان ، ولم يتوبوا التوبة النصوح ، والراجع في توبته كالمستهزئ بربه . « وقانا الله وإياكم هذا المنقلب .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَالَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

لقد كفروا ، ولم يقدر الله لهم أن يتوبوا ، فماتوا على الكفر ، ويريد الله أن يعطينا حكما خاصا بعملهم في الدنيا ، وحكما خاصا بما يتلقونه من عذاب في الآخرة ، والحكم الخاص بعملهم في الدنيا سببه أن لهم اختيارا ، والحكم الخاص بما يتلقونه في الآخرة من عقاب لأنه لا خيار لهم ، وهنا للعلماء وقفة ، فهل ملء الأرض ذهبا أنهم أنفقوا في حياتهم ملء الأرض ذهبا ؟ نقول له : لا يتفكك هذا الإنفاق في أعمال الخير لأن أعمالك حابطة .

هب أن كافرا مات على الكفر وقد أنفق في الخير ملء الأرض ذهبا ، نقول له : هذا الإنفاق لا ينفع ، مع الخيانة العظمى وهي الكفر ، فإدام غير مؤمن بإله ، فهو قد أنفق هذا المال من أجل الناس ، وصار متفقا على من لا يقدر على أن يجازيه بالخير في الآخرة ، لذلك فليس له عند الله شيء ، فالذى يعمل عملا ، عليه أن يطلب أجرا ممن عمل له ، فهل كان الله في بال ذلك الكافر ؟ لا ، لأنه مات على الكفر ، لذلك لو أنفق ملء الأرض ذهبا فلن يقبل منه . لقد صنع ذلك الخير وفي باله الناس ، والناس يعطونه حقه من الثناء ، سواء كان مخترعا أو محسنا أو غير ذلك ، إنه ينال أجره من الإنسانية ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« وفعلت ليقال وقد قيل » (١)

( من حديث شريف )

كان الله يقول له : لم أكن في بالك فلماذا تطلب منى أجرا في الآخرة ، لم يكن في بالك أن الملك لى ، قال سبحانه :

﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦﴾

( سورة غافر )

وبعض الناس يقول : كيف لا ينال ثواب الآخرة من ملئوا الدنيا بالاكشافات والابتكارات وخففوا بها آلام الإنسانية ؟ نقول : لقد أعطتهم الإنسانية وخلدت ذكراهم ، وأقامت لهم التماثيل والمؤلفات والأعياد والجوائز ، لقد عملوا للناس فأعطاهم الناس ، فلا بغض في حقوقهم ، ذلك أنهم لم يعملوا وفي بالهم الله ، وقد صور الحق موقفهم التصوير الرائع فيقول جل شأنه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَتَمَّ لَّهُمْ كَمَرًا بِقِفَةٍ يَحْسَبُ الظُّلُمَاتُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَمِيزْهُ

شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُ ۖ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٧﴾

( سورة النور )

إنه سراب ناتج عن تخيل الماء في الصحراء يتوهمه السائر العطشان في الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء ، فيظل السائر متجها إلى وهم ماء ، إنه يصنع الأمل لنفسه ، فإذا جاءه لم يميزه شيئا ، ويفاجأ بوجود الله ، فيندم ويتلقى العذاب ، وكذلك لن يقبل منه ملء الأرض ذهباً لو أنفق في أى خير في الدنيا ، ويعد ذلك لن يقبل الله منه ملء الأرض ذهباً لو افتدى به نفسه في الآخرة ، إن كان سيجد ملء الأرض ذهباً ، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهباً ، فهل يجد من يقبل ذلك منه ؟ لا ، إنه في الحقيقة لن يجد الذهب ؛ لأنه في الآخرة لم يعد يملك شيئا : يقول الحق :

( ١ ) رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

(سورة غافر)

ويقول سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ  
يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾

(سورة الزمر)

« أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين » أى إن هؤلاء عذابا أليما ، لأن كل حدث من الأحداث إنما يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدث التعذيبى منسوباً إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك فالعذاب لن يطلق . ولن يجد الظالم من بدرا عنه هذا العذاب . لأنه لن يجد ناصرا له ، ولن يجد شفيعا فلن يأتى أحد ويقول : إن فلانا يتعذب فيها بنا ننصره ، لا يأتى أحد لينصره .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لَنْ نَسْأَلَ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا  
مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾

وتؤدى كل مادة الباء والراء المضعفة إلى معنى « السعة » ، فـ « البر » أى الواسع والبر أى الأرض المتسعة ومقابلته « البحر » وإن قال قائل : « إن البحر أوسع من البر » لأن حجم القارات ليس فى حجم البحار والمحيطات التى تفصل بينها : « نقول لمثل هذا القائل » لا ، إن حركتك فى البر - الأرض - موسعة ، وحركتك فى البحر مضيقة ، لأنك لا تتحرك فى البحر إلا على شكل خاص ، إما أن تتحرك بسفينة أو

حق على لوح من الخشب ، أما حركتك في البر - الأرض - فانت تمشي أو تركب .  
تذهب أو تحيى ، فمجالك في البر منسج عن مجالك في البحر .

وه البر هو التقوى ، والطاعة ، أو هو الجنة ، وكلها معان ملتقية ، لأنها تؤدي إلى السعة ، فالطاعة تؤدي إلى السعة ، وكذلك التقوى ، وكذلك الجنة ، كلها ملتقية ؛ لأن كلها سعة ، فأحدهم أخذ معنى الكلمة من مرحلتها الأولى أى بالسبب وهو الطاعة ، وبعضهم أخذها من المرحلة الأخيرة أى بالمسبب وهو الجنة ، وقد يسأل سائل ، لماذا أراد الله أن يحىء بحديث عن النفقة بعد الحديث عن تعذيب الكفار ؟ ونقول : إن الحق حين يتكلم عن بصيه العذاب الأليم لأنه كفر ومات كافرا ، وماله من ناصرين فإن المقابل يأتى إلى الذهن ، وهو من آمن وعمل صالحا ، ومات على إيمانه ، فله عكس العذاب الأليم وهو النعيم ، وسيجد من يأخذ بيده ، بينما الكافر لن يجد ناصرين له . إن المؤمن سيجد جزاء الله على الطاعة وهى البر ؛ لأن البر هو كل خير ، وإن جاء على إطلاقه فإنه ينصرف إلى الجزاء من الله وقمته هو الجنة .

وهكذا نرى المقابل لمعاملة الحق للكفار وهو معاملة الحق للمؤمنين ، لقد جاء هذا القول في القرآن وهو كلام الله المعجز ، وحين يخاطب سبحانه المكلفين بالمنهج . فهو يخاطب بكلامه ملكات إنسانية خلقها هو ، إذن فلا بد أن يفهم هذا الكلام كل الملكات المخلوقة لله ، فلو كان الخالق للملكات غير المتكلم لكان من الممكن ألا ينسجم الكلام مع الملكات ، ولكن الكلام هنا لله الذى خلق ، لذلك لا بد أن تنسجم الملكات مع كلام الله .

وفى النفس الإنسانية ملكات متعددة ، وهذه الملكات المتعددة متشابكة تشابكا دقيقا فتستطيع حين تخاطب ملكة سمعية أن تحرك مواجيد وجدانية ، فإن لم يكن العالم بالملكات عليها لما أمكن أن يحىء المنطق موافقا للذة سمعية ، وموافقا لملكات وجدانية قد تتأتى بها طبيعة تداعى المعانى .

وه تداعى المعانى هو الخاصية الموجودة فى الإنسان ، ومعنى « تداعى المعانى » أن الإنسان يستقبل معنى من المعانى فيشير ذلك المعنى إلى معان خبيثة يستدعيها لتحضر فى الذهن ، فمثلا حين ترى إنسانا تعرفه . فإن تداعى المعانى يعطيك تاريخك معه



وتاريخه معك ، ويصور بخاطرك أيضا مصورا عن أهله وأصدقائه ، ومعارفه ، ويأتى لك تداعى المعانى بالأحداث التى كانت بينك وبينه أو شاهدها أنت وهذا هو مانسيه « تداعى المعانى » أى أن المعنى يدعو المعنى .

وحين يخاطب الله سبحانه وتعالى الإنسان ، فإنه يخاطب كل ملكة فيه فى آن واحد ، حتى لا تأخذ ملكة غذاءها ، دون ملكة أخرى لا تجد لها غذاء إن كلام الله جاء مستوفيا وكافيا لكل الملكات ، ومثال ذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين من أن يطوفوا بالبيت ، وكان المشركون قبل تحريم الله لطوافهم ، يطوفون بالبيت ، ويأتون من أماكن سحيقة بعيدة ليطوفوا فى موسم الحج ، وكانوا يأتون بأموالهم لينفقوها على أهل مكة ، ويشترى كل شئ يلزمهم منها ، فموسم الحج كان موسما اقتصاديا . وحين يريد الله أن يمنع المشركين من الحج فهو يخاطب المسلمين المقيمين بمكة حتى يحولوا بين المشركين وبين الطواف ، وهو سبحانه قد علم - وهو العليم - بما خلق من ملكات ، يعلم سبحانه أن ملكة أخرى ستدخل فى هذا الوقت ، فيقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَمَلِهِمْ هَذَا ۖ ﴾

( من الآية ٢٨ سورة النوبة )

وعندما ينزل هذا الحكم فلا بد أن تتحرك ملكات فى النفس الإنسانية ، والحق قد علم ألا أن ملكة النفعية الاقتصادية عند أهل مكة ستتحرك عند سماع هذا الحكم ، بمعنى أن بعضا من المسلمين المقيمين بمكة وقت نزول هذا الحكم قد يقولون : « وإذا كنا نمنع المشركين الذين ينفقون علينا بالأموال ليشترى بضائعنا وموسمهم الاقتصادى هو الذى يعولنا طيلة العام فإذا نصنع إذن ؟ إن الله يعلم أنه عند نزول حكم بتحريم البيت على المشركين أن يقربوه فلا بد أن تتحرك فى النفس الإنسانية تلك الملكة النفعية ، فيقول - سبحانه - عقب ذلك مباشرة :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۖ ﴾

( من الآية ٢٨ سورة النوبة )

الخوف من العيلة ، أى الخوف من الفقر ، وتلك هى عظمة الكلام الإلهى لأن

رَبًّا يَتَكَلَّمُ إِنَّ الْإِنْسَانَ حِينَمَا يَتَكَلَّمُ قَدْ تَفَوْتَهُ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ قَدْ تَحَدَّثَ ضَجَّةً وَبَلْبَلَةً وَثَوْرَةً بَيْنَ النَّاسِ ، لَكِنَّ الْحَقَّ الْأَعْلَى عِنْدَمَا يَقُولُ : « إِنَّمَا الْمَشْرُكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا » وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ فَوْرًا بِقَوْلِهِ الْمَطْمَئِنِّ : « وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » وَقَدْ فَعَلَ وَجَبَى الْحَقُّ وَجَلَبَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ثِمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَنَا : لَا تَعْتَقِلُوا أَنَّ هَذِهِ الثَّمَرَاتُ قَادِمَةٌ عَنْ طَرِيقِ التَّطَلُّوعِ وَلَكِنَّهَا رِزْقٌ مِنْ لَدُنَّا ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ الْحَقُّ :

﴿ وَقَالُوا إِن تَبِيعَ أَهْلُ الدُّنْيِ مَعَكَ تَخْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَرْتُمْكِنَ لَّهُمْ حَرَمًا إِنَّا نُنْجِي

إِلَيْهِ تَحْمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ وَرِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة الفصص)

أَيُّ أَنَّهُ لَيْسَتْ هُنَاكَ حَرِيَّةٌ لِأَحَدٍ أَنْ يُعْطَى أَهْلُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَوْ لَا يُعْطَى ، إِنَّمَا جَبَايَةٌ ، لَطْمَانَةٌ الْمَلَكَةِ النَّفْعِيَّةِ فِي النَّفْسِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يُعْطَى الْأَمَانَ الْاِقْتِصَادِيَّ الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ قَوَامُ الْحَيَاةِ ، وَعِنْدَمَا نَحْنُ فِي الْبَيْتِ الْقُرْآنِيِّ نَجِدُ أَنَّ هُنَاكَ آيَةٌ قَدْ تَتَّخِذُ وَآيَةٌ قَدْ تَتَأَخَّرُ ، وَآيَةٌ قَدْ تَأْتِي فِي الْوَسْطِ ، وَنَجِدُ أَنَّ الْآيَةَ الْوَسْطَى ، مُرْتَبِطَةٌ بِتَدَاخُلِ الْمَعَانِي بِالْآيَةِ الَّتِي قَبْلُهَا ، وَمُرْتَبِطَةٌ بِتَدَاخُلِ الْمَعَانِي بِالْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا ، وَذَلِكَ لِتَرْتَوِي وَتَتَغَذَّى كُلُّ مَلَكَاتِ الْإِنْسَانِ فَلَا يَأْتِي أَمْرٌ يُوحِي بِأَنَّ هُنَاكَ مَا يَنْقُصُ النَّفْسَ الْبَشَرِيَّةَ ، لِتَتَأَمَّلَ مِثَالًا لِذَلِكَ وَهُوَ قَوْلُهُ الْحَقُّ :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسَ

الْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

إِنَّ الْمَشْرِكِينَ لَمْ يَقُولُوا لِأَحَدٍ : « إِنَّمَا قَالُوا لِأَنْفُسِهِمْ » ، وَيَكْشِفُهُمُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ الْعَلِيمُ فِي أَخْفَى خُبَايَاهُمْ ، وَيُظْهِرُ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ خَفَايَا عِبَادِهِ وَالْكَاشِفُ لِكُلِّ الْمَلَكَاتِ النَّفْسِيَّةِ فِي خَلْفِهِ . وَحِينَ يَقُولُ الْحَقُّ سَبْحَانَهُ : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » . فَإِنَّ الْآيَةَ تَحْرِيطُ عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَجَاءَتْ بَعْدَ آيَةٍ تَفِيدُ أَنَّ هُنَاكَ إِنْفَاقًا لَا يَقْبَلُهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى  
بِهِمْ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (٩١)

( سورة آل عمران )

إذن فهناك لون من النفقة يرفضه الله ، وتداعى المعاني في النفس الإنسانية قد يجعل الإنسان يسأل « ما هي إذن النفقة المقبولة ؟ » لذلك كان لابد وأن يأتي قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » فإذا كانت هناك نفقة مردودة فهناك أيضا نفقة مقبولة ، وهكذا نرى الآية التي تعرض على الإنفاق منسجمة مع ما قبلها . « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، قد يسأل سائل ، ولماذا لا ينال الإنسان البر إلا بعد أن ينفق مما يحب ؟ وله أن يعرف أن طبيعة النفس الإنسانية هي « الشح » ولهذا جاء في القرآن الكريم :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ  
يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٩٢)

( سورة التغابن )

وشح النفس يأتي لأن الإنسان لا يأمن أبدا أن يأتيه العجز من بعد القدرة ، لذلك فإنه يحاول أن كان يملك شيئا أن يؤمن العجز المتوهم ، فيحافظ على ما عنده من حاجات ، ومن هنا جاءت الحيازة والملكية ولم تنشأ هذه الأشياء من أول الخلق ، وإنما نشأت من يوم أن ضاقت الأمكنة المعطية دون الحاجات ، فحين تكون الأمكنة المعطية تسع الحاجات فلا داعي لهذا العجز المتوهم .

لنفترض أن رجلا اشترى صندوقا من البرتقال ، ودخل منزله وعندما يحتاج ابن هذا الرجل لبرتقالة أو اثنتين فإنه يأخذ ما يريد ، لكن لو أحضر الرجل قليلا من البرتقال فإن زوج الرجل تكون حريصة على أن تقسم البرتقال بين الأولاد حتى لا تترك كل ابن على سجيته بما قد يحرم الآخرين .

وهكذا كان الأمر في بدء استخلاف الله للإنسان في الأرض ، فمن أراد الأرض

أخذ ، ومن أراد أكل الثمار فهي أمامه ، وعندما قلت مُعطيات الحاجات وذلك بضيق  
الأمكنة المعطية بدأت في الظهور الرغبة في الملكية ، وامتياز الأشياء ، والحق سبحانه  
يلفتنا في هذه المسألة وكأنه يقول لنا : إن النفقة لو نظرت إليها نظرة واقعية حقيقية  
لوجدت أنك أيها العبد مضارب لله في خير الله . ومعنى « مضارب » أى أنك تعمل  
عند الله بالمقل الذى خلقه لك ، وتخطط به ، وتعمل عند الله بالطاقة التى خلقها  
الله ، والمادة التى خلقها الله لك تفعل معها فهاذا لك أنت ؟

إن كل شيء لله ، وأنت مجرد مضارب لا تملك شيئا وماضمت مضاربا أيها العبد ،  
فأعط الله حقه ، وحق الله لا يأخذه هو ؛ فهو أغنى الأغنياء ، إن حق الله يأخذه أخوك  
غير القادر الذى لا يستطيع أن يتفاعل مع المادة ، ولا تظن أيها العبد أن الله حين  
طلب منك النفقة مما تحب أنه - جل شأنه - قد استكثر عليك ما طلب منك أن  
تنفقه ، إنه ساعة يأخذ منك لأخيك وأنت قادر ، إنما بطمئنتك أنك إن عجزت  
فسيأخذ لك من القادرين ذلك هو التأمين في يد الله .

إن الحق يريد أن يجيبنا في أن نفنق ، لكن الإنسان يحاول أن ينفق مما لا يجب ،  
فيهدي الإنسان الثوب الذى لم يعد صالحا للاستعمال يعطيه لفقير ، أو يعطى الخداه  
المستهلك لواحد محتاج . لكن الله يأمرنا بأن نفنق مما نحب لذلك انفعل صحابة  
رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سمعوا هذا النص : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا  
مما تحبون » هذا أبو طلحة حينما يسمعها يقول : يا رسول الله ، إن أحب  
مالى إلى هو « بريحاء » فأنأ أخرجه في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم : اجعله في أقاربك ، فجعله في أقاربه ، وهذا زيد بن حارثة يسمع الآية  
الكريمة فينفعل بها كذلك ، وكان عنده فرس اسمه « سَبَل » وكان يحبه ، فيقول :  
يا رسول الله أنت تعلم حبى لفرسى ، وأنا أجعله في سبيل الله . فأخذه منه رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بأسامة بن زيد وأركبه الفرس . قال زيد :  
« فوجدت في نفسى » أى أنه حزن ، وقال زيد : يا رسول الله أنا أردت أن أجعل  
الفرس في سبيل الله وأنت تعطى الفرس لابنى ليركبه . فقال رسول الله لزيد : « أما إن  
الله قبله منك » .

وبعد ذلك ينفعل سيدنا أبو ذر رضى الله عنه وكان عنده إبل ، والإبل لها فحل  
يلقح إناث الإبل ، وكان هذا الفحل أحب مال أبى ذر إليه وجاء ضيف إلى أبى ذر ،

فقال له : إني مشغول . فأخرج إلى إبل فاختر خيرها لتذبحه لضيفتك . فخرج الضيف ، ثم عاد وفي يده ناقة مهزولة ، فلما رآها أبوذر قال : ختني ، قلت لك هات خير الإبل ، قال الضيف : يا أباذر لقد رأيت خيرها فحلا لك وقدرت يوم حاجتكم إليه . فقال أبوذر : إن يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرة .

إن الصحابي الجليل أباذر يعرف أن يوم أن يوضع في الحفرة هو اليوم الجليل الذي يستحق من المراء أن يستعد له .

وسيدنا ابن عمر كان عنده جارية جميلة من فارس ، وكان يحبها ، فلما سمع الآية ، قال : ليس عندي أحب إلي من هذه الجارية ، وأعتقها ، وكان من الممكن أن يتزوجها بعد أن أعتقها لكنه قال : لولا أن ذلك يقدح في عتقها لتزوجتها . وسيدنا أبوذر رضي الله عنه يعطينا في مسألة الإنفاق درساً من أروع الدروس المستوحاة للملكة النفسية ، فيقول : في المال شركاء ثلاثة : القدر لا يستأمر أن يذهب بخبره وشره من هلك أو موت . أي أن القدر لا يستأذن عبداً في أن يذهب بالمال حيث يريد ، فتأتي أي مصيبة فتأخذ المال إلى هلك أو موت . هذا هو الشريك الأول في المال ، إنه القدر .

والشريك الثاني في المال يوضحه لنا أبوذر فيقول : إنه الوارث ، ينتظر إلى أن تضع رأسك ، ثم يستاقها وأنت قد سلبت بالموت كل ما غلبك في الدنيا وأصبحت من غير أهلها . إن الوارث يقول لنفسه : « فلاستمع بما ترك لي » ، وهذا هو الشريك الثاني في المال .

ويوضح لنا أبوذر رضي الله عنه الشريك الثالث في المال فيقول : والثالث أنت ، فإن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن أعجزها . أي إياك أن يغلبك على المال القدر أو الوارث ، ينبغي عليك أن تغلب بإنفاق المال في سبيل الله وإلا أخذه منك باقي الشركاء .

إذن لقد انفعنا صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية حينما نزلت حتى عدا الخير المحبوب منهم إلى غيرهم ، وكان جزاء ذلك الجنة . لقد عرفوا قول الحق : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » أي الجنة المترتبة على الطاعة أو

التقوى ، أو سعة البركة أو سعة القوة ، وكلها معان ملتصقة ، ولذلك يقول الله في الحديث القدسي :

« قد كان العباد يكافئون في الدنيا بالمعروف وأنا اليوم أكافئ بالجنة » .

إن الحق سبحانه الذي يعطي البر ثمنا لنفقة مما يحب يعلم هل أنفقت مما يحب فعلا أو تيسمت الخبيث لتنفق منه ، فإياك أيها المؤمن أن تخدع نفسك في هذا الأمر ، لأن الذي يعطي البر ثمنا لنفقة مما يحب يعلم خبايا النفس ، لذلك يقول سبحانه : « وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » .

وعلم الله شامل ، إنه يعلم ما في نيتك ، وكيف أنفقت .

ولقد بين الحق سبحانه النفقة المفروضة حتى ولو كانت ملء الأرض ذهبا ، ثم أوضح لنا أن هناك نفقة مقبولة وجزاؤها الجنة ، وبذلك نرى التقابل بين النفقتين ولماذا جاء هذا الحديث ؟ لقد كذب بعض أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مستهل أمر الدعوة وكذبوا البشارة به ، والنعت والبشارة جاءا في التوراة والإنجيل ، وأنكروا الأوصاف التي ذكرت في كتبهم السماوية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونمادوا ونحووا هذه الأوصاف من كتبهم . حدث ذلك مع أنهم قد تورطوا من قبل في إعلان البشارة به « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

لقد أراد الله أن يفضحهم في التوراة التي يعتقدون أنها كتابهم وقد حرفوا بعض أحكام الله ، وظنوا أن هذه التحريفات ستظل مستورة ، لذلك جاء لهم بأحداث ولم يتبها إليها لتقوم الحججة على أنهم قاموا بتحريف التوراة مثلما قلنا من قبل عن الخبيرية التي ارتكبت فاحشة الزنا ، وأراد رؤساء اليهود أن يخففوا العقوبة عنها ، لأن العقوبة الواردة في التوراة على جريمة الزنى هي الرجم وقال هؤلاء الرؤساء : « نذهب إلى محمد ، لعل لديه حكما مخففا » فلما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وضع لهم أنه الرجم . فقالوا : لا ، إنك لم تنصف في حكمك . فبين رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم إنه يرضى بحكم التوراة التي عندكم وجيء بالتوراة وأمرهم الرسول أن يقرأوا فلما جاءوا إلى آية الرجم أرادوا أن يغفلوها

فقال ابن سلام : إنهم يا رسول الله قد وثبوا وأغفلوا الآية .

وهكذا انتبه الجميع إلى أن رؤساء اليهود أرادوا أن يتخطوا حكمًا لله موجودا عندهم وأرادوا أن ينكروه ، كما فعلوا وأحدثوا في وصف النبي عليه الصلاة والسلام ومحو هذا الوصف ، ولم يتركوا له أثرا ، لكن الله أنساهم بعض الأشياء لتكون بينة وآية على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما أحل الرسول صلى الله عليه وسلم الإبل والبائنا ، قالوا : هذه محرمة من أيام إبراهيم ومن قبله من أيام نوح ، ولا يمكن أن نقبل تحليلها ، فوضح النبي صلى الله عليه وسلم لهم أنها ليست محرمة ، الله أحلها .

وكان يجب أن يفهموا أن الإبل والبائنا حتى وإن كانت محرمة من قبل إلا أن رسولا قد جاء من عند الله بتشريع له أن ينسخ ما قبله مع أن الإبل والبائنا لم تكن محرمة ، لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحتكم إلى التوراة . وهذه هي العظيمة النورانية المحمدية ، فلا يمكن أن يقول صلى الله عليه وسلم : « نحتكم إلى التوراة » إلا وهو واثق أن التوراة إنما تأتي بالحكم الذي يؤيد ما يقول ، مع أنه لا يقرأ ولا يكتب . ويحضرون التوراة ، فيجدون الكلام مطابقا لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قال الله :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ  
إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ۚ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا  
بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٣

وحين يحرم نبي الله يعقوب - إسرائيل - طعاما ما ، فهو حر ؛ فقد يحرم على نفسه طعاما كندر ، أو كوسيلة علاج أو زهانة ، لكن الله لم يحرم عليه شيئا ، وما تحتجون به أيها اليهود إنما هو خصوصية لسيدنا يعقوب « كل الطعام كان حلالا لبني إسرائيل

إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ، فليأذا تقولون : إن الإبل والبانها كانت محرمة ؟  
لقد فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يسترؤا على أنفسهم نقيصة لا يحبون أن يفضحوا  
بها ، وتلك هي النقيصة التي كشفها القرآن بالقول الكريم :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا  
مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ  
وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فهناك أشياء قد حُرمت على اليهود لأنهم ظلموا ، وهذه الآية الكريمة هي التي  
أوضحت أن الحق قد حرم عليهم هذه الأطعمة لظلمهم . ومعنى : « كل ذي ظفر »  
أى القدم التي تكون أصابعها مندجة ومتصلة ، فليست الأصابع منفصلة ، ونجدها  
في الإبل والنعام والأوز ، والبط ، وهذه كلها تسمى ذوات الظفر « إلا ما حملت  
ظهورهما » يعنى الشحم الذى على الظهر . أما « الحوايا » فهي الدهون التي في  
الأمعاء الغليظة « أو ما اختلط بعظم » . أى الشحم الذى يختلط بالعظم إن التحريم  
هنا لم يكن لأن هذه الأشياء ضارة ، ولكن التحريم إنما كان عقابا لهم على ظلمهم  
لأنفسهم وبغيهم على غيرهم .

وأقول ذلك حتى لا يقول كل راغب في الانفلات من حكم الله ما الضرر في تحريم  
الأمر الفلانى ؟ إن محاولة البحث عن الضرر فيما حرمه الله هي رغبة في الانفلات عن  
حكم الله . فالتحريم قد يأتى أدبا وتاديبا ، ونحن على المستوى البشرى - والله المثل  
الأعلى - يمنع الإنسان منا « المصروف » عن ابنه تاديبا ، أو يمنع عنه الحلوى ، لأن  
الابن خرج عن طاعة أمه ، إذن كان التحريم جزاء لهم وعقابا قال تعالى :

﴿ نَظَّيْلِهِم مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٌ أُحِلَّت لَّهُمْ وَبِصَيِّغٍ مِّن سَبِيلِ اللَّهِ



كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا  
لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

(سورة النساء)

وذلك هو الجزاء الذي أراه الله عليهم .

إن التشريع السماوي حينما يأتي لظالم يخرج عن منهج الله فكانه يقول له ما هو القصد من خروجه عن منهج الله ؟ لماذا يظلم ؟ لماذا يأخذ الربا ؟ لماذا يصد عن سبيل الله ؟ لماذا يأكل أموال الناس بالباطل ؟ إن الظالم يفعل ذلك حتى يمتنع نفسه بشيء أكثر من حقه ، لذلك يأتي التشريع السماوي ليفوت عليه حظ المتعة ، وكان هذا الحظ من المتعة حقًا وحلًا له ، لكن التشريع يحرمه . ومثال ذلك القاتل يحرم من ميراث من يقتله ؟ لأن القاتل استعجل ما أخره الله ، وأراد أن يعجل لنفسه المتعة بالميراث ، فارتكب جريمة قتل ، لذلك يأتي التشريع ليحرمه من الميراث .

كان التشريع يقول له : « مادامت نيتك هكذا فأنت محروم من الميراث » والتشريع حين وضع ذلك إنما هي كل مورث ، وإلا لكان كل مورث عرضة لتعدي ورثته عليه بالقتل ليتقل إليهم ما يملك ، فقال : لا . نحرمه من الميراث وكذلك هنا نجد الظلم بأنواعه المختلفة ، الظلم بإنكار الحق ، والصد عن سبيل الله ، وأخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ومادام اليهود قد أدخلوا على أنفسهم أشياء ليست لهم فالتشريع يسلب منهم أشياء كانت حقًا لهم .

وكان اليهود في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغبون ألا يُشاع عنهم هذا الأمر فقالوا : إن هذا الطعام محرم على بني إسرائيل . وبعد ذلك وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا اللون من الطعام حلال في التوراة ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الذي فضحهم .

ولماذا نحىء هذه الآية بعد قوله الحق في الآية السابقة : « لن تتألوا البر حتى تنفقوا عما تحبون » ؟ ونحن نعرف أن آية « لن تتألوا البر » قد جاءت بعد آية توضح النفقة غير المقبولة من الله . ولندكر ما قلناه أولاً ، عن تداعى المعاني في الملكات

الإنسانية : إن في النفس الإنسانية ملكة تستقبل ، فتتحرك ملكة أخرى ، وحين يقول الحق : « كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل » فالذين يسمعون هذا سينفعلون انفعالات مختلفة ، فالشبعان من الناس لن يلتفت إلى هذه المسألة بانتباه بالغ ، ومن عنده بعض الطعام فإن نفسه قد تتحرك إلى ألوان أخرى من الطعام ، أما من ليس عنده طعام فلسوف يلتفت بانتباه شديد ليتعرف على الحلال من الطعام والحرام منه .

إذن فقبل أن يأتي الله بالحكم الذي يحلل ويحرم ، هذا الحكم الذي يثير عند الجائع شجن الافتقار وشجن ذكر الطعام الذي يسيل له لعابه ، إن الحق قبل أن يحرك معدما على غير موجود معه ، فإنه يحرك معطيا على موجود معه ، لذلك فقبل أن يأتي الحق سبحانه ويذكر الطعام ، وقبل أن يُقلب الأمر على النفس الإنسانية التي لا تحب طعاما ، نجد الرسول قد نطق قبلها بما أنزله عليه الحق : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . فتداعى المعاني في النفس الإنسانية يكون - سبحانه - قد حرك ملكة واجدة ومالكة قبل أن يحرك ملكة معدمة . وهكذا يكون التوازن الذي أراحه الله في الكون المخلوق له .

إنه رب يحكم كونه ، فلا ينسى شيئا ويذكر شيئا . « لا يضل ربي ولا ينسى » ، إن كل شيء في علمه كما قلّره وهو الخلاق القدير العليم ، وهو لا يذكر بعضا من الخلق ، وينسى بعضا آخر ، فهو قد كتب العدم لحكمة ، وأعطى النعمة لحكمة .

لقد جعل الفقير عبرة ، ولكنه لم يتركه ، وذلك حتى يرى كل إنسان أن القدرة على الكسب ليست إلا عرضا زائلا ، فمن الممكن أن يصبح القادر الآن عاجزا بعد دقائق أو ساعات ، ومن الممكن أن يصبح القوى ضعيفا ، فإذا ما علم القوى أو القادر ذلك فإنه يتحرك إلى إعطاء الآخرين ؛ حتى يضمن لنفسه التأمين الإلهي لو صار ضعيفا ، فيعطيه الأقوياء ، فعندما يأمر الله الأقوياء بأن يعطوا وينفقوا فإن عليهم أن يستجيروا ؛ لأن الواحد منهم لو صار ضعيفا فسوف يأخذ .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » هذا القول قد خدم قضية سبقتها ، وهي أنه لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ، مادام كافرا ، إنها نفقة مرفوضة لا اعتبار لها ، إنها هدر . ويأتى من بعد ذلك بتحديد النفقة التي ليست هدرا ، ثم يفضح اليهود بقضية توجد عندهم في التوراة

ولكنهم كذبوها ، وهي قضية تتعرض للطعام ، ومادامت القضية تتعرض للطعام فهناك الكثير من الملكات التي يمكن أن تتحرك ، فملكات الواجد حين تتحرك فحركاتها تكون بأسلوب غير الأسلوب الذي تتحرك به ملكات المعدم . فقبل أن يُحرك وجدان المعدم إلى أنه معدم ، حتى لا يتلقى ذلك بحسرة ، فإنه سبحانه يكون قد عمل رصيذا لهذا المعدم ، فيرق قلب الواجد أولا « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » وبعد ذلك يأتي قوله الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

( سورة آل عمران )

ومعنى كلمة « حل » هو « حلال » ، ويقابلها « حرام » وحل هي مصدر ، ومادامت مصدرا فلا نقول « هذان حلالان » بل نقول : « هذان حل » ، ونقول : « هؤلاء حل » وإن شئت فاقرا قوله تعالى :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ ۚ اللَّهُ أَعْلَمُ

بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا مِنْ حِلٍّ لَّهُمْ

وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾

( من الآية ١٠ سورة الممتحنة )

« لا هن » هذه لجماعة النساء ، والحل مفرد ، وعندما يقول الحق سبحانه : « كل الطعام كان حلالا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » فهذا يعني أنه قد حرم بعضا من الطعام على نفسه فهو حرم في أن يأخذ أو يترك ، أو أنه قد حرمه على نفسه فوافقه الله ؛ لأن النافر حين ينذر شيئا لم يفرضه الله عليه فهو قد ألزم نفسه بالنذر أمام الله .

إن الزمن الذي حرم فيه إسرائيل على نفسه بعضا من الأطعمة هو « من قبل أن تنزل التوراة » أي أن هذا التحريم لم يجرمه الله ، ويأتي الأمر لرسوله الكريم أن يخاطب بني إسرائيل : « قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » إنه قد كشف سترهم ، وعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن النص الذي

يؤيد صدقه موجود في التوراة ، ولهذا لم يأت اليهود بالتوراة ، وذلك لعلمهم أن فيها نصا صريحا يصدق ما جاء به رسول الله ، ولا يحتمل اللجاجة ، أو المجادلة ، وماداموا لم يحضروا التوراة فهذا يعنى أنهم غير صادقين . ويقول الحق :

﴿ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ١٤

إن في هذا القول التحذير الواضح ألا يخلق أحد على الله شيئا لم ينزل به رسول أو كتاب فمن يفتري الكذب على الله لا يظلم إلا نفسه . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٥

يأمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا » .

ونعرف أن ملة إبراهيم هي التي سمّت كل المؤمنين بالله المسلمين ، والدعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم هي لإيضاح أن جوهر الإيمان لا يحتمل الخلاف ، فركب الإيمان والرسول والأنبياء هو ركب واحد ، وكلمة « اتبعوا » تعنى أن هناك مقدما كما أن هناك تابعا . و« الملة » تشمل المعتقدات والتشريعات العامة ، كما أن الشريعة تشمل الأحكام ، والدين يكون لبيان العقائد .

وقد عرفنا من قبل أن كلمة « حنيفا » تعنى الذى يسير على خط مستقيم ، ويتبع منهجا قويمًا ومستويا ، ونحن نسمى ملتنا « الحنيفية السمحاء » ومع ذلك فالحنيف هو ميل فى الساقين ، اليمين مقوسة إلى اليمين ، واليسار مقوسة إلى اليسار ، فكيف إذن نقول عن الدين الحق الهادى لمنهج الله وشريعته : إنه حنيف ؟

لقد قلنا : إن السماء لا تتدخل بإرسال الرسل إلا حين يعم الفساد ، ومادام الفساد قد عم فإن الذى يميل منحرفا عن الفساد هو الذى اهتدى إلى الصراط المستقيم ، فالحنيف معناه مائل عن الفساد ، فالمائل عن المعوج معتدل ، « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

« صدق الله » نعم ، لأن الصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلا ، وحين يتكلم الحق وهو العليم أزلا فما الذى يحدث ؟ لابد أن يوافق الواقع ما يقوله سبحانه وتعالى فليس من المعقول أن يتكلم الله كلاما يأتى على لسان رسول ، أو على لسان أتباع الرسول ، وبعد ذلك يأتى واقع الحياة فينقض قول الحق ويخالفه ، إن الحق العليم أزلا ينزل من الكلام ما هو فى صالح الدعوة إلى منهجه .

إذن فحين يطلق الله قضية من قضايا الإيمان فإنه - سبحانه - عليم أزلا أنها سوف تحدث على وفق ما قال ، وإن كان الظرف الذى قيلت فيه لا يشجع على استيعابها وفهمها . إن المؤمنين كانوا فى أول الأمر مضطهدين ، ومرهقين وإن لم يكن للواحد منهم عشيرة تحميه فإنه يهاجر عن البلاد ، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يعذب ويضطهد . وفى هذه الفترة الشديدة القاسية وفى قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق :

﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْتُونَ الدَّبْرَ ۝١٥﴾

(سورة القمر)

وعندما يسمع سيدنا عمر عليه رضوان الله هذا القول يتساءل : أى جمع هذا ؟ إن الواقع لا يساعد على هذا ثم جاءت بدر ، وهزم المؤمنون الجمع وولوا الدبر ، وهذا دليل على أن الله قد أطلق قضية وضمن أنها ستحدث كما قال وكما أخبر ، وهذا مطلق الصدق . إن الإنسان يمكنه أن يستبعد الصدق لو أن الذى قال غير الذى

خلق ، لكن الذى قال ذلك هو الذى خلق ويخلق ويعلم ، فمن أين يأتي التناقض ؟  
وهذا معنى القول الكريم :

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝٤٧﴾

( سورة النساء )

إنه قول حق جاء من عند العليم أزلا ، ومن العجيب أن أهل الكتاب من يهود ونصارى يتمسحون في سيدنا إبراهيم ، فقال بعضهم: إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا ، وبعضهم قال: إن إبراهيم كان نصرانيا . وكان يجب أن يفهموا أن اليهودية والنصرانية إنما جاءتا من بعد إبراهيم ، فكيف يكون يهوديا أو نصرانيا وهذه الملل قد جاءت من بعده ؟ لذلك جاء القرآن الكريم قائلا :

﴿ يٰۤأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أَتَتْهُ الْتَوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٨﴾

( سورة آل عمران )

وقد أوضح الحق بعد ذلك دين إبراهيم عليه السلام :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ ۝٤٩﴾

( سورة آل عمران )

فكيف يمكن أن يختلفوا على إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا ؟ إنه كلام لا يصدر إلا عن قلة فطنة وغفلة بالغة . وعندما يقول الحق عن إبراهيم: « وما كان من المشركين » فهل أهل الكتاب مشركون ؟ نعم ؛ لأنهم حين يؤمنون بالبنوة لعزير ، ويؤمنون بالبنوة لعيسى فهذا إشراك بالله ، وأيضا كان العرب عبدة الأصنام يقولون : إنهم على ملة إبراهيم ؛ لأن شعائر الحج جاء بها إبراهيم عليه السلام ، ولهذا ينزه الحق سبحانه سيدنا إبراهيم عن ذلك ، ويقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » وذلك يدل على أن ملة إبراهيم وما جاء به

موافق لملة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ ١٦

لقد عرفنا من قبل كيف كان تداعى المعاني سبباً في إرواء الحق لكل ملكات الإنسانية ، وقبل هذه الآية التى تتحدث عن بناء البيت الحرام بمكة المكرمة كان هناك حديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال الحق :

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٧

( سورة آل عمران )

ولإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صلة بالبيت الحرام ، وكان رفع قواعد البيت الحرام على يده بعد أن طمر وستر بالطوفان في عهد نوح عليه السلام ، فعين يأتى الكلام فى رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام فلا بد أن تأتى أكبر حادثة فى تاريخ سيدنا إبراهيم ، وهى حادثة بناء البيت الحرام ، كما أن الحق سبحانه حينما تكلم عن المحاجة بين المسلمين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده القرآن ، وبين أهل الكتاب وفى أيديهم التوراة المحرفة والإنجيل المحرف أراد سبحانه أن يردنا إلى شىء واحد هو ملة إبراهيم الذى سماه مسلمين . ومعنى ذلك أن الله يريد منا أن نسيطر قيم السماء على حركة أهل الأرض ؛ لأن حركة أهل الأرض إن اتبعت الأهواء تصادمت الحركات ، ومادامت الحركات قد تصادمت فإن ما يتج عنها هو ضياع مجهود الحركة الإنسانية ، ويصير هذا المجهود مبذوا .

ولكن الإنسان الذى يحمل القيم التى تتركز عقيدة فى قلبه - بعد أن يبحثها بفكره - هذا الإنسان له قالب تنفذ به تشريعات الله ، ولولا وجود القالب هذا لما استطاع

الإنسان أن يطبق تشريعات الله ، ولما استطاع أن يؤدي هذه التشريعات ، ولما استطاع أن يطيع الله بجوارحه ، فالإنسان بغير قلب لا يستطيع أن يؤدي الحركة المطلوبة .

إذن فلا بد للقلب للإنسان - البدن - في التشريع من عملية أخرى وهي أن ينصب القلب ويكون له عمل حين يتوجه إلى بيت واحد لله ، وبذلك يصبح للقلب نصيب في العبادة أيضا .

ولهذا كان لا بد أن يوجد للقلب - أيضا - مَتَجَهٌ وهذا المَتَجَهُ يحكم القلب نفسه ، فكان المؤمن المسلم محكوما قلبا وقلبا ، فحين نأتى للصلاة لنكون في حضرة الله نتحرى أن يكون قلبنا متجها إلى المكان الذي أمرنا الله أن نتوجه إليه ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى ساعة يعطى رحمته وبركته وتنزلاته وإشراقاته يريد أن يكون الجسم في وضع مؤهل لاستقبال هذه التجليات ، ولذلك كان لا بد أن يكون لله بيت يتجه إليه الجميع حتى يعطى للتدين وحدة ، فكما أعطى الحق لموكب الرسائل وحدة ، فإنه يعطى أيضا وحدة في القلب للإنسان والمتجَه ، وكل مكان يعبد الله فيه بالنسبة للإسلام يُعتبر مسجدا ، وقد أمر الله الأمر على أمة سيدنا محمد ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا » (١) .

وكان لقاء الله وعبادته في الديانات السابقة يقتضى مكانا محددا ولكن قد وسع رحمته على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن تراب الأرض طهور ، إننا عندما نفتقد الماء الطهور فإن التراب الذى قد يبدو للوهلة السطحية أنه سبب في عدم النظافة قد جعله الله لنا طهورا .

إن الإنسان يمكنه أن يتيمم ويتطهر بالتراب ، وكان الله قد أراد أن يكون لقاء كل فرد من أمة محمد به ميسرا تيسيرا كبيرا . وكل مكان نعبد فيه الله ويسجد فيه المسلم لله يصير مسجدا .

( ١ ) هذا جزء من حديث شريف أخرجه الإمام البخارى في صحيحه ، والإمام مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، والإمام أحمد في مسنده وغيرهم من أصحاب السنن .



لكن هناك فارقا بين أى مكان نعبد الله فيه والمسجد ، فنحن نرى العامل يعبد الله في المصنع والتلميذ يعبد الله في الفصل ، والفلاح يعبد الله ويؤدى الفروض في الحقل ، ويمكن للسائر في الشارع أن يؤدى صلاته في أى مكان ، وأن يزاول عمله بعد ذلك ، ولكن حين يُمَيِّزُ الإنسان مكانا ليكون بيتا لله ، فمحظور أن يزاول فيه نشاطا آخر من نشاطات الحياة ؛ إنه مكان محيز .

إن العبادة كلها مقبولة ، ولكن هناك فارقا بين مكان تعمل فيه ومكان تخصصه ليصير مسجدا . فالمسجد هو مكان لا يزاول فيه إلا لقاء الله ، ولذلك أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نستغل هذا الحيز في أى أمر يتعلق بدنيانا ، وقد أوضح لنا - صلى الله عليه وسلم - أن الذى يعقد صفقة في المسجد لن يبارك الله فيها ، والذى ينشد فيه شيئا ضاللا له لن يجده . فقد دعا الرسول ألا يرد الله عليه ضالته .

إن أمور الدنيا بكفيها أن تأخذ من الإنسان كل يوم ثلاثا وعشرين ساعة ، فليخصص الإنسان المؤمن ساعة لله وحده ، وليخلع كل أغراض الحياة الدنيا كما يخلع النعال على باب المسجد . فليس من حسن الأدب واللياقة أن ينشغل الإنسان بأى شيء غير لقاء الله في الوقت المخصص للقاء الله ، وفي المكان المخصص لهذا اللقاء .

فساعة تدخل المسجد ينبغي أن تمنع نفسك من أن يتكلم معك أحد في فضول الكلام ولغوهِ ، وأن تنوى الاعتكاف لتستفيد من وجودك في المسجد . وساعة أن نخصص حيزا ما ليكون مسجدا ، فكيف يكون الاتجاه داخل المسجد ؟ أيترك الأمر لكل واحد أن يختار له متجها ؟

لا ، إن المؤمن ملتزم بالاتجاه إلى مكان واحد ، هذا المكان الواحد هو بيت الله باختيار الله بينا المساجد الأخرى هي بيوت لله باختيار خلق الله ، فبيوت الله باختيار خلق الله متجهها جميعا هو بيت الله الحرام .

وحين تنظر هذه النظرة ستجد العالم متواجها ؛ لأن كل عابد سيكون اتجاهاه إلى بيت الله مع بقية العابدين لله ، فيلتف المؤمنون كلهم حول بيت الله ، ويتواجهون ، إن وجوهنا كلها تقابل بعضها بعضا ، ولكن ما ضرورة الاتجاه للكعبة ؟ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُولَؤُنَّ فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١١٥)

(سورة البقرة)

نقول : إن هذه الآية تؤيد ما نقوله ، فإدام الله المشرق والمغرب ، فهذا هو المعنى العام ، فالناس أول ما عرفوا الكون تعرفوا على المشرق والمغرب ثم الشمال والجنوب أيضا ، وبعد أن توصل العلم إلى تحديد الجهات الفرعية بجانب الجهات الأصلية الأربع المعروفة عرفنا « الشمال الشرقي » « الشمال الغربي » « الجنوب الشرقي » « الجنوب الغربي » . إذن فكل المتجهات لله ، والاتجاه للكعبة يحقق هذا القول الكريم .

وعندما يتجه إنسان إلى الكعبة فقد يكون الشرق خلفه ، ويكون الغرب أمامه ، ويتجه إليها إنسان آخر إلى الكعبة ، فيقابل وجهه مع وجه المتجه للكعبة ، وثالث يتجه إلى الكعبة ، فيكون في زاوية أخرى ناظرا إليها ، وهكذا يلتف البشر من الشرق والغرب والشمال والجنوب وكل الجهات الفرعية حول الكعبة .

إذن فقول الحق : « لله المشرق والمغرب » أي جميع الخلق متجه إلى الكعبة ، وبذلك لا تكون هناك جهة أولى بالله من جهة أخرى . وأنا لا أريد أن ادخل في متاهة أن الكعبة مركز الأرض وأن الأرض خلقت منها ؛ لأن الشيء إذا كان مكورا فأي نقطة فيه تكون مركزا للجميع ، لذلك فلنترك مثل هذا الكلام ، لكن ألا يكفي أن يرجحها أن الله قد اختارها ؟ إن ذلك يكفي وزيادة ، وبذلك ينتهي الأمر ، إنها كذلك ؛ لأنها بيت الله باختيار الله ، وهذا يكفي .

لقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأشياء التي تقف فيها العقول وليست من صلب العقائد أو الدين لا يصح أن تكون محل خلاف أو جدل . يقول سيدنا علي كرم الله وجهه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : سأله رجل ، « أذلك أول بيت لله ؟ » فوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكن هو أول بيت وُضع للناس . وهذا إيضاح أن الله قد جعل الكعبة هي أول بيت له يتعبد فيه جنس البشر ، وذلك لقول الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين » . ولكن إن كانت هناك أجناس سابقة على الجنس البشري فمن المؤكد أنه كانت هناك لله بيوت لا نعرفها .

وما آدم في منطق العقل واحد ولكننه عند القياس أواحد

ولذلك فوجود البيت الحرام كبيت الله لا يصطدم مع منطق الناس الذين لا يملكون إلا الثقافة الدينية الضحلة ، فساعة أن يسمع الواحد منهم ، أن هناك اكتشافا لحفريات من كذا مليون سنة فهو يتساءل قائلا : كيف وآدم لم يمر عليه ملايين السنين ؟ لتفترض أن هناك خمسة أجيال لإدريس عليه السلام وثلاثة أجيال لنوح عليه السلام ، وأحد عشر جيلا لإبراهيم عليه السلام وثلاثين جيلا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وهكذا يكون الوجود البشري عددا بآلاف السنوات لا ملايينها .

لهذا الإنسان نقول : وهل قال لك أحد : إن آدم أول من قَمَرَ الأرض ؟ إن الدين لم يقل ذلك ، لكن الدين قال : إن آدم هو أول هذا الجنس البشري ، ولكنه ليس أول من سكن الأرض ، لذلك فليقل العلماء : إن عمر هذه الأرض ملايين السنين ولنسمع جميعا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَاسًا يُذْهِبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ١٥ ﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فلا مجال لهذا البحث ، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام : « لا ، بل قبله بيوت » .

والحق سبحانه وتعالى يقول ما يوضح أن الجن قد سكنوا الأرض قبلنا :

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ٢٧ ﴾

(سورة الحجر)

ألم يقل الحق سبحانه إن الإنسان خليفة ، وردت عليه الملائكة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ١٥ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ

فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ١٦ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

تَعْلَمُونَ ٢٠ ﴾

(سورة البقرة)

إن الذين قالوا ذلك ليسوا من البشر ، إذن فكلام الله يؤكد أن الكعبة هي أول بيت وُضع للناس ، أى للجنس البشرى ، ولذلك فلا داعى أن نتكلم في الأشياء التى يقف فيها العقل حتى لا ندخل في متاعه . ولو كان الله قد أراد أن يعلمنا أن الكعبة هي أول بيت في الأرض لقال لنا : « إنه أول بيت وضع في الأرض » ، ولم يكن قد حدد الجنس الذى وضع البيت من أجله ، لكن الحق سبحانه قال : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » ، ولذلك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكنه أول بيت وضع للناس . إنه جواب يتسع لكل ما يأتى به العلم .

وحين ننظر إلى القول الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » ما معنى « أول » ؟ إنه الابتداء ، وهل كل ابتداء له انتهاء ؟ لا ، إن هناك أموراً لها « أول » وليس لها « آخر » ومثال ذلك العدد « واحد » وما بعده ليس له آخر ، فآخر ما بعد العدد واحد هو ما يمكن الإنسان أن يحسبه عجزاً في التقديرات الدشليونية ، ولكن ما بعد الدشليون هناك أعداد أخرى ، وكان الإنسان قدما يقف عند الألف ، ثم يقول عن المليون « ألف ألف » ، وكذلك الجنة لها أول وليس لها آخر .

إذن فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة . وعندما نرى كلمة « وُضع » نجدها فعلاً ، ونرى أنه قد وُضع للناس . ومادام هذا البيت قد وضع للناس لذلك فمن اللازم حين تأتى كلمة « ناس » أن يكون هناك « بيت » و « آدم » من الناس ، ووالد كل الناس ، وكان له بيت وُضع له . وحين يقال : إن البيت قد تم بناؤه قبل آدم فإننا نقول : نعم ، لأن آدم من الناس ، والله يقول : « إن أول بيت وضع للناس » فلماذا نحرم آدم من أن يكون له بيت عند الله ؟ إذن فالبيت موجود من قبل آدم . وبعض الناس تظن أن إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى البيت ، ولأصحاب هذا الظن نقول : لنفهم القرآن معاً ، إن مثل هذا القول يناقض القرآن ؛ لأن القرآن قد قال : « إن أول بيت وضع للناس » وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قبله أناس سابقون له ، فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت ؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل محمـ إبراهيم عليه السلام لهم الحقوق نفسها عند الله التى وضعها الله لمن بعد إبراهيم ، فلا بد أن الله قد جعل بيته لهم ، والنص القرآن

« إن أول بيت وضع للناس » مؤكد ذلك ، ومادام قد جاء الفعل مَبْنِيًّا للمفعول فواضعه غير الناس ، فـ « وَضِعَ » هو فعل مبني على ما لم يسم فاعله ، فمن الذي وضعه ؟ هل هم الملائكة ؟

قد يصح ذلك وهو أن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه : « هدى للعالمين » وهذا يعني أن البيت هدى للملائكة ، لأنهم عالم وهذا يعني أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك ، إن أحدًا لا يقدر أن يجعل الكون على قدر العقل البشري ، إن على العقل البشري أن يكون في ركاب الكون ، وإليك أن تجعل الكون في ركاب عقلك . أما مسألة أن إبراهيم قد بنى الكعبة أولاً فهذا عدم فهم للنص القرآني القائل :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾

(سورة البقرة)

فما هو الرفع ؟ إنه إيجاد البُعد الثالث وهو الارتفاع ، فالطول والعرض موجودان إذن فهذا دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع البيت . وهكذا نستنتج أن الذي كان مطموساً هو القاعدة والارتفاع ، مع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان ، أما البناء فهو الذي يحدد « المكين » وعندما انهدم البيت الحرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه . ونحن عندما نصلي في الدور الثالث في الحرم ، فإننا نتجه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة ، ولو حفرتنا نفقا تحت الأرض بالـ ألف متر ، وأردنا أن نصلي فإننا سنتجه إلى جذر الكعبة ، وهكذا نعرف أن جو الكعبة كعبة .

إذن فعمل إبراهيم عليه السلام كان في إيجاد المكين لا المكان ، ولنقرأ بالفهم الإيمان ما حدث لإبراهيم عليه السلام . لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل ، وخرج بهما ليضعهما في هذا المكان . « وهاجر » تعرف أن مكونات الحياة هي المياه والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه ، لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم عليه السلام : كيف تركنا هنا ؟ هل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟

فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله ، لذلك قالت : « لقد اطمأنت ، والله لا يضيعنا أبداً » . لم تقلق هاجر لأن إبراهيم المحم إلى ما أمره الله ، وهذا هو الإيمان في قمته ، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأى قلب لأم تترك أب الطفل يذهب بعيدا عنها وتعيش مع ابنتها في هذا المكان الذي لا يوجد به طعام أو ماء ، فهي لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم وعندما تقرأ القرآن الكريم تحمد القول الحق على لسان إبراهيم :

﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت وأن هذا البيت محرم ، وعندما نقرأ عن رفع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضج بصورة تسمع له أن يساعد والده خليل الرحمن في إقامة قواعد البيت الحرام ، وهذا يدلنا على أن إسماعيل نشأ طفلا في هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم ، هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودا من قبل إبراهيم عليه السلام ، وعندما ندقق النظر في معنى كلمة « بكة » التي وردت في هذا القول الكريم : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا » فإننا نعرف أن هناك اسما لمكان البيت الحرام هو « بكة » وهناك اسم آخر هو مكة ، وبعض العلماء يقول : إن « الميم » و « الباء » يتعاونان ، ونلاحظ ذلك

في الإنسان « الأختف » أو المصائب بزكام ، إنه ينطق « الميم » كأنها « باء » . والميم و « الباء » حرفان قريبان في النطق ، والألفاظ منهما تأتي قريبة المعنى من بعضها .

ولننظر إلى اشتقاق « مكة » واشتقاق « بكة » . إننا نقراء « بكّ المكان » أي ازدحم المكان ، وهكذا نعرف من قوله الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا » أي أنه مكان الازدحام الذي يأتي إليه كل الناس وكل الوفود لتزور بيت الله الحرام ، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلط بعضهم ببعض ، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ، ولا يدري أنه يسير وقد يلمس امرأة أثناء الطواف .

و « بكة » هي المكان الذي فيه الطواف والكعبة ، أي هي اسم مكان البيت الحرام ، و « مكة » اسم البلد كلها الذي يوجد به البيت الحرام . و « مكة » مأخوذة من ماذا ؟ إن « مكة » مأخوذة من « مكّ الفصيل الضرع » أو « امتك الفصيل الضرع » ، أي امتص كل ما فيه من لبن ، والفصيل كما نعرف هو صغير الإبل أو صغير البقر . ومادام الفصيل قد امتص كل ما في الضرع من لبن فمعنى هذا أنه جائع ، ومكة كما نعرف ليس فيها مياه ، والناس تجهد وتبالغ في أن تمتص المياه القليلة عندما تجدها في مكة .

وفي كلمة « مباركا » نجد أنها مأخوذة من « الباء والراء والكاف » والمادة كلها تدور حول شيء اسمه الثبات ، فهل هو الثبات الجاهد ، أم الثبات المعطى التامى الذي مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضا ؟ إننا في حياتنا اليومية نقول : « إن هذا المال فيه بركة » . مهما صرفت منه فإنه لا ينتهي ، أي أنه ثابت لا يضيع ، ويعطى ولا ينفد . وكلمة « بركة » في حياتنا تعني أنها تجمع الماء تأخذ منها مهما تأخذ فيأتي إليها ماء آخر .

وكلمة « تبارك الله » تعني « بت الحق » ولم يزل أزلا ولا يزال هو واحداً واحداً ، إنه الثبوت المطلق . وهكذا نجد أن الثبات يأتي في معنى البيت الحرام . إن البيت الحرام مبارك أبداً « كيف » ؟ ألبيت تضاعف فيه الحسنة ؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه ؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تُجئ إليه ثمرات كل شيء ولا تنقطع ؟ فقدما كان الذهاب إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن ، ويأخذ الإبرة والخيط ، والملح ، والآن فإن الزائر لبيت الله الحرام يذهب ليأتي بكماليات

الحياة من هناك . ويقول سبحانه عن هذا البيت الحرام المبارك : إنه « هدى للعالمين » . ما هو الهدى ؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية ، ومن يزور البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فهل اهتدى للجنة أم لا ؟ إنه رف بزيارة البيت الحرام الطريق إلى الجنة . وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى عندما تكلم عن البيت لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه هي مقام إبراهيم مع أن فيه آيات كثيرة .

قال الحق :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (١٧)

إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة في قوله الحق : « فيه آيات » و « بينات » وهي وصف الجمع . وبعد ذلك قال الحق : « مقام إبراهيم » إنه سبحانه لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الآيات ، والمقام آية واحدة ، وهذا يدل على أن مقام إبراهيم فيه الآيات البينات ، ونحن نقرأ « مقام إبراهيم » بفتح الميم الأولى في كلمة « مقام » ولا ننطقها « مقام » بضم الميم الأولى لأن المقام بضم الميم تعني مكان إقامة إبراهيم ، أما مقام بفتح الميم فمكان القيام ، لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام ؟

لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام ، وكان إبراهيم يقوم على « حجر » . وعندما ننظر إلى مقام إبراهيم فإنك تجد فيه كل الآيات البينات ؛ لأن الله طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذي يؤديه طول يديه ، وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب الله - كما قلنا من قبل - لكن إبراهيم عليه السلام تعود مع



إذن فإن إبراهيم خليل الرحمن أراد أن يتخذ أمر الله بالرفع للقواعد لا بقدر  
الاستطاعة البدنية فقط، ولكن بقدر الاحتيال على أن يرفع القواعد فوق ما يطلبه  
الله، وهذا معنى قول الله عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ إِبْرَاهِيمُ رَبُّهُ بِكَلْبَتِهَا فَاثْمَرْتُمْ فَلَبَّيْكُمْ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا بَشَرٌ لَبَّىكَ فِي الْعَالَمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

أي أنه أدى مطلوب الله أداء كاملاً ، ولا أدل على هذا الأداء الكامل من أنه أتى بحجر ليقف عليه ليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر . ونعرف أن الذي ساعده وشاركه في رفع القواعد هو ابنه إسماعيل . ومن أكرمه الله بروية مقام إبراهيم يجد أن الحجر يسع وقوف إنسان واحد ، وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويتناول والده الأحجار ، أما مكان الأقدام الموجودة في هذا الحجر ، فهذا يعني أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجرا من المقروض أن يحمله اثنان فإن هذا يتطلب ثبات القدمين في مكان آمن حتى لا يقع .

فهل يا ترى أن الله سبحانه وتعالى جعلت قدرته ساعة رأى إبراهيم يحتمل هذه الحيلة قال الخليله : سأكفيك مؤنة ذلك . وجعل الحق القدمين تغوصان في الحجر غوصا يسندهما حتى لا تقعا . والذي لا يتسع ذهنه إلى أن الله الآن لإبراهيم الحجر ، نقول له : إن إبراهيم قد احتال ، وخاف أن تزل قدمه ، فنحت مكانا في الحجر على قدر قدمه حتى تثبت قدمه حين يحمل ويرفع الحجر ، وهذه آيات بينات . فخذ ما يتسع ذهنك وفهمك له ، إن الله أعان إبراهيم لأنه فكر أن يبني القواعد ويرفعها أكثر مما تطول يداه ، وقد مكن الله له في ذلك وأعانه عليه ، ونحن نعلم أن الهداية تكون هداية الدلالة وهداية المعونة .

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

وفي آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، والآيات هي الأمور العجيبة ، وعندما تراها فإنك لا تستطيع أن تنكرها . ودخول البيت يعنى الأمن للإنسان الذى يدخله ، ونحن نعلم أن البيت قد تم بناؤه فى هذا المكان . وهذا المكان تجتمع فيه القبائل ، وبين بعض هذه القبائل ثارات ودماء وحروب ، لذلك بين الله الوضع الذى بمقتضاه تحقن الدماء ومن دخله كان آمناً ، لماذا ؟ لأنه بيت الرب ولا يصح أن يدخل واحد بيت الرب ويُعاقب حتى ولو كان قد أجرم جرماً يوجب الله عليه الحد فيه . ولذلك قال سيدنا عمر رضى الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب - والده لم أتعرض له .

ولكن يُضَيِّقُ الخناق على المجرم حتى يخرج . وهذا الأمن محمد بأى أمر اقترفه فى دنياه ، أما من دخله كان آمناً يوم القيامة فالحكم فيه شئ آخر ، إنها درجة عالية من فضل الله ، والآيات البينات الواضحة فى البيت الحرام يراها من زار البيت الحرام ، وليحقق الله أمل كل راغب فى زيارة البيت الحرام ، وأن يكرر الزيارة لمن ذهب وأراد أن يعود للزيارة مرة أخرى . فساعة تدخل البيت الحرام فأنت هنا تتجه إلى مكان فى البيت والمقابل لك فى الكرة الأرضية يتجه إلى المكان المقابل ، إلى أن تصبح الاتجاهات مشتملة على الكعبة كلها . ونحن عندما نكون فى الكعبة فإننا نوجه وجوهنا إلى المبنى لأننا نراها ، ونحن نوجه الوجوه إلى المبنى المقطوع بأنه منها ، والحطيم ، وهو القوس المبنى حول حجر إسماعيل ، هو من الكعبة أيضاً ، ولكن النفقة قصرت ، فجعلوه ليحدد مكان الكعبة ، فظل هكذا ، فإذا غاب الإنسان عن الكعبة واتجه إليها فإنه يكفى أن يتجه إلى جهتها .

ولذلك نجد الصفوف فى الصلاة حول الكعبة تتخذ شكل الدائرة ، لأن الذين يصلون فى داخل الحرم يشاهدونها ، أما الذين يصلون خارجها فيكفى أن يتجهوا إلى جهتها ولو طال الصف إلى ألف متر ، لذلك فالصف للمصلين خارج الحرم يكون معتدلاً ، أما فى داخل الحرم فالصفوف تأخذ شكل الدائرة لأن أقصى بعد فى الكعبة هو اثنا عشر متراً وربع المتر ونجد من الآيات العجيبة أنك إذا ما نظرت إلى الحجر الأسود تجد الناس تنهافت على تقبيله ، والحجر يمثل أدنى أجناس الكون ، ونعلم

جميعا أن الإنسان مستخلف كسيد في الكون ، ومن بعده الحيوان أقل منه في الفكر ومسخر ، ومن بعد الحيوان يكون جنس النبات ، ومن بعد ذلك يأتي جنس الجهاد ومنه الحجر .

إننا نرى هذا الإنسان السيد في الكون لا يقبل الله منه النسك القبول التام الحسن إلا إذا قبل الحجر ، أو حياه ، وهكذا ينقل الحق أهل الأجناس إلى أدناها . والناس تزدحم حول الحجر ، ومن لم يقبل الحجر يحس أنه افتقد شيئا كثيرا ، وهكذا ترى استطرافا وسلوكا من الخلق إلى باب الله ، فالإنسان المتكبر الذي يتوهم أنه سيد على غيره ، يأتي إليه أمر في النسك بتقيل الحجر أو نحيته بالسلام ، وهذا الإنسان برغم أن الحق سبحانه - يقبل منه أن يحس الحجر الأسود بالسلام ولم يفرض عليه أن يقبله ولكنه مع ذلك يحاول أن يقبل الحجر ، وهو أدنى الأجناس ، لأن الله قد عظمه ، وهذا أول كسر لأنف غرور الإنسان ، وحتى لا يظن ظان أنها حجرية أو وثنية ، يأتي الأمر من الحق برجم حجر آخر .

إذن فالحجرية لا ملحظ لها هنا ، فنحن نجد حجرا مقدس ، وحجرا آخر يرجم . نجد حجرا يقبله الإنسان ويعظمه وحجرا آخر يزدرية ويحقره . وذلك يدل على رضوخنا لإرادة الأمر سبحانه وتعالى فقط ، فعندما يأمرنا بأن نعظم حجرا فالمؤمن يؤدي حق التعظيم بالسمع والطاعة ، وعندما يأمرنا سبحانه برجم حجر آخر ، فالمؤمن يرجم هذا الحجر بالسمع والطاعة لله أيضا ، فالذاتية الحجرية لا تدخل لها على الإطلاق . وبعض من أصحاب الظن السيء قالوا: إن الإسلام قد استبقى بعض الوثنية .

ولهؤلاء نقول : ولماذا تذكرون تعظيم الحجر الأسود ، ولم تذكروا رجم إبليس وهو ثلاثة أحجار ؟ لقد عظم المؤمن المؤدى للنسك حجرا واحدا ورجم ثلاثة أحجار ، إن المؤمن إنما يطيع أمر الله ، فليست للحجر أي ذاتية في النسك أو العبادة . لقد رفعنا الحق من حضيض عبادة الأصنام التي هي عين الكفر ، لكنه قال لنا : « قبلوا الحجر الأسود » فقد قبلنا الحجر احتراماً لأمر الأمر ، وذلك هو منتهى اليقين . لقد نقلنا الحق من مساو إلى مساو ، من عبادة الحجر إلى تعظيم وتقديس حجر مثله ، لكن الأصنام كانت منتهى الشرك ، وتقيل الحجر الأسود منتهى اليقين . أليست هذه آيات بينات ؟

وزمزم التي توجد في حوض الكعبة ، ليست آيات بينات ؟ إن « هاجر » ترك الكعبة ونروح إلى « الصفا » وتصعد إلى « المروة » بعد أن تضع « إسماعيل » بجانب الكعبة ، وتدور بحثا عن المياه . وسعت هاجر سبعة أشواط لعلها ترى طيرا أو تجد إنسانا يعرف طريق المياه لأن ابنها يحتاج إلى الشرب ، ولو أنها وجدت على الصفا أو المروة مياها في أول سعيها أكانت تجد تصديقا لقولها لإبراهيم عندما جاء بها للإقامة في هذا المكان « إن الله لا يضيعنا » إنها سمعت .

وكان الله يقول لها ولكل إنسان : عليك بالسعي ، ولكن لن أعطيك من السعي ، إنما أعطيك الماء من تحت رجل إسماعيل . إذن فصدقت في قولها : لن يضيعنا الله ، لقد جعلها الحق سبحانه تسمى سبعة أشواط ، ولا يمكن لامرأة في مثل عمرها أن تقدر على أكثر من ذلك ، وهذا يعلمنا أن الإنسان عليه أن يياشر الأسباب ، ولكن القلب عليه أن يتعلق بمسبب الأسباب ، وهو الله سبحانه وفي هذا ما يعدل سلوك الناس جميعا . فساعة يرى الإنسان أن البئر مكان قدم إسماعيل وعلى البعد تكون الصفا والمروة ، وتسعى بينهما ، وبعد ذلك تجد زمزم مكان ضربة قدم إسماعيل ، أليس في هذا آيات بينات تهدي الإنسان أن يياشر الأسباب ويأخذ بها ، ويتعلق القلب بمسبب الأسباب ؟

إن هذا يعطى المؤمن إيمانية التوكل ، وهي تختلف عن الكسل وهى بلاة التواكل ، فإيمانية التوكل هي أن الجوارح تعمل ، والقلوب تتوكل ، أما الكسل عن الأخذ بالأسباب مع الادعاء بالتوكل فهذه بلاة ، ومثل هذا الكسل المتواكل عندما يأن الأكل أمامه يأكل بنهم وشراهة ، ولو كان صادقا لترك اللقمة تقفز إلى فمه ، ولماذا يعضها إذن ؟ لماذا يختار التواكل والكسل ، وعدم العمل ، ثم يمد يده ليأكل ؟ إن هذه هي « صفات التواكل » .

إننا نأخذ من سعى « هاجر » ونفجر الماء عبرة ، هي الأخط بأسباب الله ، وبعد ذلك فإننا نجد كل إنسان في البيت الحرام مشغولا بنفسه مع ربه ، ومن فرط انشغاله يكون غافلا عما يكون معه ، ولو كان أحب إنسان له فإنه لا يدري به . وساعة تدخل وتنتظر إلى الكعبة ينفض من عقلك كل فكر في أى شيء من الأشياء ، لا تذكر أولادك أو مالك ، لكنك بعد أن تفرغ من المناسك تعود للتفكير في أولادك وعملك ، وإلا لو ظل حبك وشوقك وتعلقك ومواجيدك بهذه البقعة لضاق المكان

بعض الناس يقول : نجدد واقع الحياة غير ذلك ، حيث نجد امرأة طيبة تقع في

عصمة رجل غير طيب وتتزوج . ونجد رجلا طيبا يقع مع امرأة غير طيبة ويتزوجها ، فكيف يقول الله ذلك ؟ ونحن نرد على أصحاب هذا القول : إن الله لم يقل ذلك تأريحا للواقع . ولكنه أمر تكليفي . أتى افعلوا ذلك ، وحكمى وتكليفى أن يكون الطيبات للطيبين والطيبون يكونون للطيبات . فإذا امتثل الخلق أمر الحق فعليهم أن يفعلوا ذلك ، وإن لم يمتثل بعض الخلق لأمر الحق فإن الواقع ينهى بحدوث وجود طيبين لغير طيبات أو العكس .

إذن فقول الحق : « ومن دخله كان آمنا » هو خبر يراد به أمر تكليفى ، فمن أراد أن يكون صادقا فيما كلفه الله به فليؤمن من دخل البيت الحرام . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَفَلْيَعْلَمْ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ  
مِّنَ الْعَاطِينَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وحين تسمع « لـ » و « على » ، فافهم أن الفائدة تقع على ما دخلت عليه « اللام » ، والتبعة تقع على ما دخلت عليه « على » . فحين نقول : « لفلان على فلان كذا » فالنفع لفلان الأول والتبعة على فلان الثانى . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « والله على الناس حج البيت » . فعلى هذا فالنفع هنا تكون لله ، والتبعة هنا تكون على الناس ، لكن لو فطنا إلى سر العبارة لوجدنا أن الله لا يتنفع بشئ من تكليفه لنا ، فالحج لله ، ولكنه يعود إليك ، فما لله عاد إليك ، وما عليك عاد لك .

وكل تكليف عليك فائره لك . فإياك أن تفهم من ذلك القول الكريم : « والله على الناس حج البيت » أن اللام الأولى للنفع ، وإياك أن تفهم أن « على » هى للتبعة ، نعم إن الحج لله ، ولكن الفائدة لا تعود إلا عليك ، وهو تكليف عليك ، وفائدته تعود عليك ، فالحق سبحانه وتعالى منزّه عن أن يفيد من حكم من أحكامه ، وهو سبحانه حين ينزل حكما تكليفيا فعلى العبد المؤمن أن يعرف أن فائدة الحكم عائدة عليه وعلى حياته ، والله يكون القصد والحج ، لا لشيء سواه .

ولماذا يقول الحق : إن على العبد المؤمن أن يحج البيت الحرام ؟ لأنه الخالق وهو

خبير وعليم بأن التكليف شاق على النفس ، ولكن على المؤمن المكلف حين يجد تكليفا شاقا عليه أن ينظر إلى الفائدة العائدة من هذا الحكم ، فإن نظر إلى الفائدة من الحكم وجد أنها تعود عليه ، ولذلك يسهل على العبد المؤمن أمر الطاعة . والذي لا يقبل على الطاعة ويحمل الجزاء عليها ويغفل عنه . تكون الطاعة شاقة عليه . والذي يقبل على المعصية ويحمل الجزاء عليها تكون المعصية هينة عليه . ولكن الطائع لو استحضر غاية الطاعة لعلم أنها له لا عليه .

ولو أن العاصي استحضر العذاب على المعصية لعلم أنها عليه لا له ، فالعاصي قد يحقق لنفسه شهوة ، لكنها شهوة عاجلة ، أمدتها قصيرة ، ولو استحضر العاصي العقوبة على المعصية وقت عملها ما أقدم على معصيته أبدا . ولكن الذين يرتكبون المعصية ينظرون إلى الشهوة الطارئة ، ويعزلون جزاء المعصية عنها ، ولو أنصفوا أنفسهم ، لاستحضروا العقاب على المعصية في وقت الرغبة في ارتكابها . وحين يستحضرون جزاء المعصية مع المعصية فإن شهوة المعصية تنتهي منهم ، وأضرب هذا المثل دائما عن أعنف غرائز الإنسان وهي غريزة الجنس .

هب أن هناك واحدا رأى فتاة جميلة ثم أراد أن يناهها فنقل لهذا المتشرد جنسيا : استحضر العذاب على هذا العمل ، وإن أخذت هذه الفتاة فتعال لنريك بعينيك ما أعده الله لك حين تتمتع بهذه الفتاة خارجا عن شرع الله ، وأوقد له فرنا مسجورا ومحكما ، وقُلْ له : في مثل هذا ستدخل بل وأشد منه إن نلت من الفتاة .

أقبل هذا المتشرد على ارتكاب تلك المعصية ؟ لا ، فشهوة المعصية تضيع عندما يستحضر العذاب عليها . إن الحق سبحانه يقول : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » والسبيل هو الطريق الموصل للغاية ، والطريق الموصل للغاية عادة ما يكون مطروقا ، وعندما يتجه الإنسان لأداء فريضة الحج فهو طارق للطريق ، أى سيسير عليه ، هكذا تعرف أن هناك ثلاثة أشياء :

طارق ، وهو من كتب الله عليه الحج وهو المكلف .

وسبيل مطروق .

وغاية ، وهي حج البيت .

ومادام الطارق سيسلك طريقا فلا بد أن يكون عنده قدرة على أن يسلك هذا الطريق فكيف تتأتى هذه القدرة ؟ إن أول شيء في القدرة هو الزاد ، وثاني شيء في القدرة هو المطية التي يركبها ، وهكذا نتبين أننا نحتاج إلى زاد وراحلة لطارق الحج . والسبيل الذي يطرقه ، أليكون محضوفا بالمخاطر ؟ لا ، بل يُفترض أن يكون السبيل آمنا . إذن فالاستطاعة تلزمها ثلاث حاجات ، هي : الزاد ، والراحلة ، وأمن الطريق . والزاد عادة يخص الإنسان نفسه ، ولكن ماذا يكون الحال إن كان الإنسان يقول أسرة وصغارا ؟

إذا كان الإنسان على هذا الحال فمن الاستطاعة أن يكون قد ترك زادا لمن يعولهم إلى أن يعود . وعلينا أن ننتبه إلى أن الله قال في كل تكليف : « يأيا الذين آمنوا كتب عليكم » . ولكنه سبحانه جاء في فريضة الحج بالقول الواضح ، بأن الحج لله على الناس وليس لمن أسلموا فقط ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل الكتاب الذين كانوا يتمحكون في إبراهيم عليه السلام أن يحجوا البيت الحرام ، فامتنعوا عن الحج ، ولو كان الحج للمسلمين المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لما عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى أن يحجوا ليكون ذلك جمعا لهم على أن يتجه الخلق جميعا إلى بيت الله ويعبدوا إلهًا واحدًا هو رب هذا البيت ، ولكنهم امتنعوا عن الحج . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن لم يحج بدون مرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو فقر وعوز ، يقول في الحديث الشريف :

عن عنى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ، وذلك أن الله تعالى يقول : « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » (١) .

ولذلك نجد التكليف بالحج قد اتبع مباشرة بقول الحق : « ومن كفر ، فهل يقع من لا يحج بدون مانع قاهر في الكفر ؟ هنا يقف العلماء وقفة . العلماء يقولون : نعم إنه يدخل في الكفر ، لماذا ؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان كفر بالله ، أو كفر بنعمة

( ١ ) رواه الترمذى ، والحديث وإن كان في إسناده هلال بن عبد الله مجهول إلا أنه ورد في طرق أخرى حسنة وكلها تدل على أن مساط الوجوب في توافر الزاد والراحلة .



الله ، ومثال ذلك قوله - جل شأنه - :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١٣٢)

(سورة النحل)

أو هو الكفر ، كان يموت الإنسان يهوديا أو نصرانيا ، وهنا نقول : انتبه ، لا تأخذ الحكم من زاوية وتترك الزاوية الأخرى . إن المسألة التكليفية بوضوحها الحق بقوله : « والله على الناس حج البيت » . فهل تعارضون في هذا التكليف ؟ أو تؤمنون به ولكن لا تنفذونه ؟

إن القضية التكليفية الإيمانية هي « والله على الناس حج البيت » فهل أنت مؤمن بها أو لا ؟ سنجد الإجابة من كل المؤمنين بـ « نعم » . ولكن الموقف يختلف بين مؤمن إلى آخر ، فنحن نجد مؤمنا يحرص على أداء الحكم من الله ، وهو الطائع ، ونجد مؤمنا آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصيا .

ونجد في هذا الموقف أن الكفر نوعان ، هناك من يكفر بحكم الحج ، أى من كفر في الاعتقاد بأن الله على الناس حج البيت ، وهذا كافر حقا ، لكن هناك نوع آخر وهو الذى يرتكب معصية الكفران بالنعمة ؛ لأن الله أعطاه الاستطاعة من زاد ، ومن راحلة ، ومن أمن طريق ، ومن قدرة على زاد يكفى من يعولهم إلى أن يعود ، وهنا كان يجب على مثل هذا الإنسان أن يسمى إلى الحج . لذلك قال بعض العارفين لو أن أحدهم أخبر بأن له ميراثا بمكة لذهب إليه حبا .

إذن فقوله تعالى : « والله على الناس حج البيت » هي قضية إيمانية ، فمن اعتقلها يبرا من الكفر ، ومن خالفها وأنكرها فهو في الكفر . ومن قام بالحج فهو طائع ، ومن لم يفعل وهو مؤمن بالحج فهو عاص .

ولنتظر إلى دقة الأداء القرآنى حين يقول الحق : ومن كفر فإن الله غنى عن

العالمين . قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الله غنى عنه ؟ وقال : « فإن الله غنى عن العالمين » ؟ ونقول : إن الله غنى عن كل مخلوقاته ، وإياك أن تفهم أن الذي لم يكفر وآمن ، وأدى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ؛ إن الله غنى عن الذي أدى وعن الذي لم يؤد ، إياك أن تظن أن من أدى قد صنع لله معروفا ، أو قدم لله يدا ، « فإن الله غنى عن العالمين » وعن لا يفعل ، وعن يفعل . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِمَا يَٰٓتُ ٱللَّهُ  
وَأَلَّهُ شَٰهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾

وحين تسمع « قل » فهي أمر من الله لرسوله كما قلنا من قبل ؛ إنك إذا كلفت إنسانا أن يقول جملة لمن ترسله إليه فهل هذا الإنسان يأتي بالأمر « قل » أو يؤدي الجملة ؟ إنه يؤدي الجملة ، ومثال ذلك حين تقول لابنك مثلاً : « قل لعمرك : إن أبي سيأتيك غدا » فابنك يذهب إلى عمه قائلا : « أبي يأتيك غدا » .

وقد يقول قائل : ألم يكن يكفي أن يقول الله للرسول : « قل يا محمد » فيبلغنا رسول الله يا أهل الكتاب لم تكفرون ؟ كان ذلك يكفي ، ولكن الرسول مبلغ الأمر نفسه من الله ، فكانه قال ما تلقاه من الله ، والذي تلقاه الرسول من الله هو : « قل يا أهل الكتاب » وهذا يدل على أن الرسول يبلغ حرفيا ما سمعه عن الله . وهناك آيات كثيرة في القرآن تبدأ بقول الحق : « يا أهل الكتاب » ولا يأتي فيها قول الحق : « قل » . وهناك آيات تأتي مسبقة بـ « قل » « ما الفرق بين الاثنين » ؟

نحن نجد أن الحق مرة يتلطف مع خلقه ، فيجعلهم أهلا لخطابه ، فيقول : « يا أهل الكتاب » إنه خطاب من الله لهم مباشرة . ومرة يقول لرسوله : قل لهم

يا محمد لأنهم لم ينساموا إلى مرتبة أن يخاطبوا من الله مباشرة : فإذا ما وجدنا خطابا من الحق للخلق ، مرة مسبوقا بـ « قل » ومرة أخرى غير مسبوق فلتعلم أن الحق سبحانه حين يخاطب خلقه الذين خلقهم يتلفظ معهم مرة ، ويجعلهم أهلا لأن يخاطبهم ، ومرة حين يجد منهم اللجاج فإنه يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم : قل لهم .

والمثال على ذلك - والله المثل الأعلى - في حياتنا ، نجد الواحد منا يقول لمن بجانبه : قل لصاحب الصوت العالي أن يصمت . إن هذا القائل قد تعالى عن أن يخاطب هذا الإنسان صاحب الصوت المرتفع فيطلب ممن يجلس بجانبه أن يأمر صاحب الصوت العالي بالسكوت . وحين يجرى الخطاب لأهل الكتاب فنحن نعرف أنهم اليهود أصحاب التوراة ، والتصارى أصحاب الإنجيل ، وهؤلاء هم من يقول عنهم الحق : « يا أهل الكتاب » .

ولم يقل أحد لنا : « يا أهل القرآن » لماذا ؟ لأن الحق حين يقول لهم : « يا أهل الكتاب » فنحن نعرف أن الكتاب يُطلق على كل مكتوب ، وكفرهم يعارض ما علم الله أنه موجود في الكتاب الذي أنزل عليهم ؛ لأنه هو الذي أنزل الكتاب ، ويعلم أن ما في الكتاب يدعو إلى الإيمان ، ولا يدعو إلى الكفر . وما دام هو الحق الذي نزل الكتاب ، وهو الشاهد ، فيصبح من الحق من أهل الكتاب أن يوقعوا أنفسهم في فخ الكفر ؛ لأنهم بذلك يكذبون على الله : والله - سبحانه - يسجل عليهم أنهم خالفوا ما هو مكتوب ومنزل عليهم في كتابهم . إنهم - أهل الكتاب - إن استطاعوا تعمية أهل الأرض فلن يستطيعوا ذلك بالنسبة لخالق الأرض والسماء .

والحق حين يقول : « لم تكفرون بآيات الله » فهل نفهم من ذلك أن كفرهم بآيات الله هو سترهم آيات الله سترأ أوليا أو أنهم آمنوا بها ، ثم كفروا بها ؟ لنرى ماذا حدث منهم ، لقد كانت البشارات به صلى الله عليه وسلم مكتوبة في التوراة ، ومكتوبة في الإنجيل وهم قد آمنوا بها قبل أن يجيء سيدنا رسول الله ، فلما جاء رسول الله بالفعل كفروا بها . وفي هذا جاء القول الحكيم :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ

﴿ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ . فَلَعَنَ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ٨٩ ﴾

(سورة البقرة)

لماذا كفروا به صلى الله عليه وسلم ؟ لأنه زحزح عنهم السلطة الزمنية ، فلم تعد لهم السلطة الزمنية التي كانوا يبيعون فيها الجنة ويبيعون فيها رضوان الله ويعملون ما يحقق لهم مصالحهم دون التفات لأحكام الله . وسبق أن قلت : إن قریشا قد امتنعت عن قول : « لا إله إلا الله » وهذا الامتناع دليل على أنها فهمت المراد من « لا إله إلا الله » ، فلو كانت مجرد كلمة تقال لقالوها ، لكنهم عرفوا وفهموا أنه لا معبود ولا مطاع ولا مشرع ، ولا مكلف إلا الله .

إن الحق يقول لأهل الكتاب :

﴿ قُلْ يَتَاَهَلُ الْكِتَابُ لِمَ تُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ  
مَنْ ءَامَنَ تَبَغُّوْهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ  
عَمَّا تَعْمَلُونَ ٩١ ﴾

هب أنكم خبتم في فواتكم ، وحلتم وزر ضلالكم ، فليأذا تحملون وزر  
إضلالكم للناس ؟ . كان يكفي أن تحملوا وزر ضلالكم أنتم ، لا أن تحملوا أيضا  
وزر إضلالكم للناس ؟

إن الحق - سبحانه - قال :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ  
الْأَمَاةَ مَا يَزِرُونَ ٩٥ ﴾

(سورة النحل)

إنه سبحانه قال ذلك مع أنه قد قال :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨، سورة فاطر)

إن الذي لا يحمل وزرا مع وزره هو الضال الذي لم يُضِلْ غيره ، فهذا يتحمل إثمه فقط . أما الذي يحمل وزر نفسه ، ووزر غيره فهو الضال المضل لغيره ، وهنا يسألهم الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن » .

كأنه يقول : «م ماذا تريدون من الدين الذي يربط العبد بربه ؟ . إنكم لا تريدونه ديناً قيمياً ، إنكم تريدونه ديناً معوجاً ، والمعوج عن الاستقامة إنما يكون معوجاً لغرض ؛ لأن المعوج يطيل المسافة . إن الذي يسير في طريق مستقيم ما الذي يدعوه إلى أن ينحرف عن الطريق المستقيم ليَطِيلَ على نفسه السبيل ؟ . إن كان يريد الغاية مباشرة فإنه يفضل الطريق المستقيم . أما الذي ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا يبغي الغاية المنشودة ، بل يطيل على نفسه المسافة ، وقد لا يصل إلى الغاية .

والحق يقول : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً » وساعة تسمع « عوجاً » فإننا قد نسمعها مرة « عوج » بفتح العين . ومرة نسمعها « عوج » بكسر العين . حين نسمعها « عوج » بفتح العين ، فالعَوَج هو الشيء الذي له قيام ، كالحائط أو الرمح ، أما « العوج » بكسر العين فهو في المعاني والقيم ، لذلك يقول لهم الحق عن انحرافهم في المعاني والقيم : « تبغونها عوجاً وأنتم شهداء » .

إن الحق يُلخِصهم : أنتم تبغون الدين عوجاً برغم أنكم شهداء على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ، إنه جاء مبلغاً بالصدق ، وكنتم تبشرون برسالة محمد ، وكنتم تستفتحون على الذين أشركوا من أهل مكة وتقولون : سيأتى نبي نتبعه ثم نقتلكم معه قتل عاد وإرم . أنتم - يا أهل الكتاب - شهود على صدق هذا الرسول .

لقد ارتكبوا سلسلة من المعاصي ؛ هم ضلوا وجهدوا أن يضلوا غيرهم . وبإليت

ذلك يتم عن جهل ، ولكنه أمر كان يتم بقصد وعن علم . وبلغت المسألة منهم مبلغ أنهم شهود على الحق . ويرغم ذلك أصروا على الضلال والإضلال . ومعنى « الشهود » ، أنهم عرفوا ما قالوا وراوه رأى العين ، فالشهود هو رؤية لشيء تشهد به ، وليس شيئاً سمعته ، لذلك يذكرهم الحق سبحانه بقوله : « وما الله بغافل عما تعملون » .

إن الرسالة التي جاء بها محمد مبلغاً واضحة ، وهذا مذكور في كتبكم السماوية . فما الذي يجعلكم - يا أهل الكتاب - لا تلتزمون طريق الحق وأنتم شهود ؟ لابد أنكم قد مستكم شبهة إن الله يغفل عن ذلك ، فقال لهم لا : « وما الله بغافل عما تعملون » .

وبعد ذلك يأتي قول الحق سبحانه :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ  
أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفَرِينَ ﴿١٠﴾

معنى ذلك أن الله نبه الفئة المؤمنة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدأ بهم مادمتم أنتم - أيها المؤمنون - على الجادة ، ومادمتم مستقيمين ، ولن يهدأ للكافرين بآيات الله بال إلا أن يشككوا المؤمنين في دينهم ، وأن يهفوها عوجاً ، وأن يكفروهم من بعد إسلامهم .

وهذه قضية يجب أن يتنبه لها الذين آمنوا ، لأن الذين يهفون الأمر عوجاً قد ضلوا وأضلوا ، وهم يشهدون على هذا ، ويعلمون أن الله غير غافل عما يعملون ، فإذا يكون موقف الطائفة المؤمنة ؟ إن الحق سبحانه يوضحه بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » .

إن أهل الكتاب يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وليس المقصود بالصد ، أن هناك من يمنع المؤمنين من الإيمان ، لا ، بل هي محاولة من أهل الكتاب لإقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد عن الإيمان الذي اعتنقوه ؛ فالمؤمنون هم الطائفة التي تلتزم بالتكليف من الله ، لذلك يمجدهم الحق سبحانه بقوله :

« إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب ، يردوكم بعد إيمانكم كافرين » الحق يحدد قسما من الذين أوتوا الكتاب ، وذلك تاريخ بتزاهة وصدق وحق ودون تحامل . كأن الحق سبحانه يبلغنا أن هناك فريقا من أهل الكتاب سيسلكون الطريق السوى ، ويحيثون إلى المسلمين أرسالا وجماعات وأفرادا مع الإسلام ؛ فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب . لذلك يقول الحق « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إن الحق يؤرخ وهو يحصى الحقيقة ، ويقول سبحانه بعد ذلك :

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ  
وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

إنه استعظام وتعجيب من أن يأتي الكفر مرة أخرى من المؤمنين وهم في نعيم المعرفة بالله ، فأيات الله تلى عليهم ، ورسول الله حق ومعهم وفيهم .

ويقول الحق سبحانه للمؤمنين : « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إن ذلك قصة ؛ فقد كان اليهود في المدينة يملكون السلطة الاقتصادية ؛ لأنهم يجيدون التعامل في المال ، وكل من يريد مالا يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا . وكان لليهود أيضا التفوق والتميز العلمي ؛ لأنهم يعلمون الكتاب ، بينما كان غالبية أهل مكة والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتابا سواها . وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود

هو خبرتهم بالحرب ، فلهم قلاع وحصون . هكذا كان لليهود ثلاثة أسباب للتميز :

المال يحقق الزعامة الاقتصادية ، والعلم .. بالكتاب وهو تفوق علمي ، ثم خبرتهم بفنون الحرب ، وكانوا فوق ذلك يحاولون إيجاد الخلاف بين الناس وتعميقه . مثل محاولتهم إثارة العداوات بين الأوس والخزرج . والمتاجرة بذلك حتى تظل الحروب قائمة ، وبذلك يضمنون رواج تجارة الأسلحة التي يصنعونها ويمدون بها كل فريق من المتحاربين .

ولما جاء الاسلام وحّد الرسول صلى الله عليه وسلم بين الأوس والخزرج وبذلك ضاع منهم التفوق الاقتصادي . وجاء الاسلام بدين وكتاب مهيمن على الكتب ، فضاعت من اليهود المنزلة العلمية . وكذلك ضاعت من اليهود المنزلة الحربية ؛ فقد رأوا قلة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نكراء في بدر ، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود في المدينة ، لذلك أرادوا أن يميلوا الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يجرى الإسلام ، فقالوا فلنتوَجَّع ونشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونهيجها ، وقال شخص اسمه « شأس بن قيس » وقد رأى نور الإيمان يملو وجوه الأوس والخزرج ويشملهم الانسجام الإيماني . وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء ، فهيج ذلك شأس بن قيس وقال : « والله لا بد أن نعيدها جذعة ونرجعهم إلى ما كانوا عليه من أحقاد وعداوات ، فلا استقرار لنا ماداموا قد اجتمعوا » .

فأرسل فقي من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديث منه إلى يوم يسمى يوم « بعث » ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج ، وجلس الفقي اليهودي يذكر ويأتى بالشعر الذي قيل في هذا اليوم فهيج حمية الأوس والخزرج وحدث التنازع ، وحصل التفاخر واستيقظ التباغض ، وقالوا : « السلاح .. السلاح » وهكذا نجحت المكيدة ، ونمى الخبر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام صلى الله عليه وسلم ومعه صحابته ، حتى انتهوا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال على أشد درجات الهياج ، نزاع ، وتباغض ، وسلاح محمول ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أبذقوى الجاهلية وأنا بين أظهركم !



أى كان من الواجب أن تحجلوا من أنفسكم ، لأن رسول الله بينكم ، وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم ، فإذا كانت مواقع كلمات الرسول في نفوس القوم ؟ لقد دفعتم كلماته صلى الله عليه وسلم إلى إلقاء السلاح ، وبكوا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقيح أولا وأحسن آخره من ذلك اليوم .

وعندما نتأمل ما فعله هؤلاء القوم من اليهود لإشعال الفتنة بين الأوس والخزرج نجد أنهم قد أدركوا طبيعة النزاع القديم بين الأوس والخزرج فأرادوا أن يهيجوا تلك العداوات والأحقاد القديمة ، وكذلك نجد أن تهييج المشاعر بين الأوس والخزرج جعل للانفلات بابا فكاد القتال يشتعل ، وعندما تكلم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هدأت المواجه ، وألقوا السلاح ، وندموا على ما فعلوا .

وإذا أردنا أن نرى الأمر بعمق التصوريما حدث فإننا نجد أن إدراك العداوة بين الأوس والخزرج من اليهود هو الذى دفع اليهود لتحريك هذا الإدراك الخاطيء وإحياء الثارات القديمة ، ثم كان انفعال الأوس والخزرج بتلك الثارات القديمة قد فتح الباب لحمل السلاح للاقتتال .

وهكذا نجد أن الإدراك للشئ ، يمر بثلاث مراتب : أولا : الإحساس بالشئ ، ثانيا : انفعال النفس له ، ثالثا : النزوع السلوكى ، وعندما تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أدرك الأوس والخزرج الأمر بطريقة عكسية فألقوا السلاح ، وهدأت مواجه البغضاء ، وتركوا الإدراكات الخاطئة .

لقد ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشياء هى : « أبدهوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية . وألف بين قلوبكم » . وقد استقبلوا ذلك بإلقاء السلاح أولا ، ثم البكاء ثانيا ، وهو أمر حركته المواجه فيهم ثم تعانقوا أى صححوا الإدراكات ثالثا ، وهكذا حدث النزوع بالعكس . ولما حدث ذلك أصاب اليهود الغيظ والحيرة والنكد . وقال المؤرخ لهذه القصة : فما كان يوم فى الإسلام أسوأ أولا وأحسن آخره إلا ذلك اليوم .

لقد بدأ اليوم بعبوس ، وانتهى بإشراق الطمأنينة ، وبعد ذلك وجدت الحلية التي تكون المناعة في نفوس المؤمنين ، بعد أن قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك القول : « أبذعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم » .

لقد صار هذا القول الكريم مستحضرا عند كل نزع لشيطان ، أو كيد لعدو . لقد جعل الحق المناعة ضد فعل الكيد ، ونزع الشيطان عند المؤمنين من الأوس والخزرج ، وهكذا نرى أن الله يسخر الكافر حتى في رفعة شأن الإيمان ، فلم يحدث هذه المسألة ويأتى الرسول صلى الله عليه وسلم بمنطقه المؤثر وهو بين القوم ليقول ذلك القول لما أصبح لدى المسلمين هذه المناعة من الارتفاع عن البغضاء فيما بينهم ، ولو كان أحد من أتباع الرسول قد قال مثل هذه الكلمة فقد كان من المحتمل أن يحدث هذا الأثر ، لكن عندما قالها الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أوجدت المناعة لغيرها من الأحداث التي تآتى وقد لا يكون الرسول موجودا .

ولذلك فانت أيها المؤمن إن نظرت إلى الكافرين . فإنك تجد عقولهم خائبة . لقد نشروا الإسلام - دون إرادتهم - بمواقفهم الحمقاء ، فمثلا حين قالوا : سياتى نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فما الذى حدث ؟

إن الأنصار ساءة أن سمعوا بالدين الجديد قال بعضهم لبعض : اسمعوا يا قوم ، إنه الدين الذى بشرتكم به يهود ، فقبل أن يسبقونا إليه هيا بنا نسبق نحن اليهود إليه .

لقد كان استعلاء اليهود وتفاخرهم على الأوس والخزرج دافعا للأوس والخزرج على الدخول في الإسلام ، وهكذا يجعل الحق سبحانه وتعالى كفر الكافر مؤثرا في تثبيت إيمان المؤمن .

وحين يقول الحق سبحانه : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » نفهم أنه استعظام وتعجب يأتى من الحق . فساعة تسمع : « كيف تكفرون » فذلك أمر عجيب ، لأنه من

المستبعد أن يكفر المؤمنون وكتاب الله يتلى عليهم ، ورسول الله فيهم .

ويجىء من بعد ذلك الدعوة إلى الاعتصام بالله ، ومعنى الاعتصام : التمسك ، ولا يتأتى إلا في علو ، فيقال : « اعتصمت بحبل الإيمان » لأن للإنسان ثقلاً ذاتياً ، هذا الثقل الذاق إن لم يرفعه سواء ، فإنه يقع بالإنسان . وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان معلقاً في الجو ويمسك بحبل ولا يوجد من يدفعه إلى أسفل ، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض . فمن يعتصم بالله ويمسك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهوى والسقوط .

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما نلّي علينا من الآيات ، وما سنّه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فباب الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله ، وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضروري ، لأنهم كانوا منغمسين في حاة الجاهلية ، فلا بد أن توجد إشرقة الرسول بينهم حتى تضيء لهم ، فيروا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور . ولم يقبض الحق رسوله إلا بعد أن أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ورضى لنا الإسلام ديناً . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : ( تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي )<sup>(١)</sup> .

هكذا نرى أن وجود آيات الله ، وسنة رسول الله هي العاصم الذي يهدي إلى صراط مستقيم . والهدى كما نعرف هو ما يوصل إلى الغاية المرجوة ، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين فالذي يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى ، وكل ما يدل إنساناً على الموصل للغاية اسمه هدى . والحق سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعاً ، وجعل بعض الخلق مقهوراً ، وبعض الخلق غييراً .

والمقهور من خلق الله هو كافة المخلوقات في الكون ما عدا الإنسان . إلا في بعض أموره فإنه مقهور فيها أيضاً ولذلك قلنا : إن كل ما عدا الإنسان من خلق الله يؤدي مهمته كما طُلبت منه ، فما امتنعت الشمس أن تشرق على الناس يوماً ، ولا امتنعت الريح أن تهب ، ولا امتنعت السماء عن أن تمطر ، ولم تقل الأرض للإنسان إنك

(١) رواه الحاكم في المستدرک من ابن جریر .

نعصى الله فلا أنبت لك ، ولا جاء إنسان ليركب الدابة المسخرة فقالت : لا ؛ إنك عاصي ، ولذلك سألون فلا أمكنك من ركوب ظهري .

هكذا نرى أن كل شيء ماعدا الإنسان مسخر مقهور للغاية المرجوة منه ، وهو خدمة ذلك الإنسان . والإنسان وحده هو الذي له اختيار . . ولذلك يجب أن نتنبه دائما إلى أن الله قد جعل للخلق تسخيرا وتسييرا ، وجعل الإجماع في كل الأجناس ، ولكن الانقسام جاء عند الإنسان فقال الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ  
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ  
إِلَّا اللَّهُ قَلِيلٌ مِّنْ مُّسْكِرِينَ ۝ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ ۝﴾

(سورة الحج)

إن الجمادات الساجدة المسخرة هي : « الشمس والقمر والنجوم » ، والنبات الساجد المسخر هو « الشجر » ، وكذلك « الدواب » فهي ضمن الكائنات التي عليها حكم الحق بالإجماع ، بأنها كلها تسجد خاضعة مسخرة . أما الإنسان فقد قال الحق عنه : « وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب » .

إذن فالانقسام جاء عند من ؟ لقد جاء الانقسام عند الإنسان . لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان مختارا . ألم يكن من الممكن أن يخلق الله الإنسان مسخرا كبقية الكائنات ؟ ليس التسخير دليلا على قدرة المسخر ، وأن شيئا من خلقه لن يخرج من قدرته ، هذا صحيح ، لكن الحق سبحانه كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير ، أراد أن يثبت المحبوبة بالاختيار . فمن كان مختارا أن يؤمن أو يعصى ، ثم اختار أن يؤمن ، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان المحبوبة لله .

هكذا صنف الله الخلق بين قسم فهورى يثبت القدرة ، وقسم اختياري يثبت المحبوبة ، ولهذا أراد الله للإنسان أن يكون مختارا أن يفعل أو لا يفعل . فلماذا إذن - لا يفعل الإنسان كل أفعاله وهي منسجمة مع الإيمان ؟ لأن للمشهوة طريقا سطحيا ، وهذا الطريق السطحي يجلب الإنسان كما تجذب النار الفرائش .

عندما يوقد الإنسان نارًا ما في الخلاء فضوؤها يجذب الفراش ، ويحترق الفراش بنيران الضوء ؛ فقد جذبته النور وأغراه ، ولكنه لم يعرف أن مصرعه في تلك النار . والحكمة العربية تقول : « رب نفس عشقت مصرعها » كذلك في الشهوات ، تترين الشهوة للإنسان ، فتجذبه إليها فيكون فيها مصرع الإنسان .

لكن ما الحماية للإنسان من ذلك ؟

إن الحماية هي في منهج الله « افعل » . « لا تفعل » فمن يرد أن ينقذ نفسه من كيد الشيطان وكيد النفس فعليه أن يخضع لمنهج الله في « افعل » « لا تفعل » . وقد قلت قديما : إنه من الحق أن يصنع صانع صنعة ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة . والإنسان في حدود صناعته لا ينسى ذلك ، فما بالنا بالحق سبحانه بطلاقة قدرته ؟

إن الخالق سبحانه وتعالى قد صنع الإنسان ، ووضع الحق سبحانه وتعالى قانون صيانة صناعته في الإنسان فقال جل وعلا : افعل كذا ولا تفعل كذا . فمن أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتي له نزغ شيطان أو كيد عدو ولا هوى نفس . فليعتصم بمنهج الله ؛ لأن الله هو الذي خلقه وهو الذي وضع منهجه كقانون لصيانة صناعته ، وهو القانون الموجز في « افعل ولا تفعل » .

ويقول الحق : « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » وكلمة الاعتصام أروع ما تكون عندما يكون الإنسان في الهواء معلقا في الفراغ ، وهو في أثناء وجوده في الفراغ فإن ثقله الذاتي هو الذي يوقعه ويسقطه ، لكن عندما يتمسك الإنسان بمنهج الله فإنه ينقذ نفسه من السقوط والهوى ( بضم الهاء وكسر الواو ) ومهمة الشيطان أن يزين المعصية بالبريق ، فتندفع شهوات النفس هائجة إلى المعصية ، ولذلك يأتي الشيطان يوم القيامة ويأخذ الحجة علينا . يقول الحق :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا

أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ  
الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦٥﴾

(سورة إبراهيم)

والسلطان كما نعرف نوعان : النوع الأول هو أن يقهر الشيطان الإنسان ،  
والشيطان لا قدرة له على ذلك . والنوع الثاني هو أن يقنع الشيطان الإنسان بأن  
يفعل ذلك الخطأ .

ما الفرق بين الإقناع والقهر في هذا المجال ؟

إن القهر هو أن يجبر الشيطان الإنسان على أن يفعل شيئاً لا يريد الإنسان . أما  
الإقناع فهو أن يزين الشيطان الأمر للإنسان فيفعله الإنسان بالاختيار ويعلم الشيطان  
يوم القيامة : لم يكن لي سلطان أقهرك به أيها الإنسان حتى تعصى الله ، لقد زينت  
لك المعصية أيها الإنسان فاستجبت لي .

إن الشيطان يوم القيامة يقول : « ما أنا بمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ » ما معنى  
« مُصْرِخِكُمْ » ؟ إنها مشتقة من « أصرخ » ، أى سمع صراخك فأجبتك وأنجذك ،  
فمُصْرِخٌ : مغيث ومنجد ، والشيطان يعلن أنه لن يستطيع نجدة الإنسان ،  
ولا الإنسان يستطيع أن ينجد الشيطان .

إذن ، فتقتل النفس البشرية هو ما يوقع الإنسان في الهاوية دون أن يلقيه أحد  
فيها ، ولا إنقاذ للإنسان من الهاوية إلا بالاعتصام بحبل الله . كان منهج الله هو  
الحبل الممدود إلينا ، فمن يمتصم به ينجو من الهاوية .

وما دعانا نعتصم بحبل الله وهو القرآن المنزل من خالقنا والسنة النبوية المطهرة ، وسبحانه  
يعلم كيد النفس لصاحبها - فلا بد أن يهديننا الله إلى الصراط المستقيم . وبعد ذلك  
يقول الحق سبحانه :

## ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٠٢)

إن الله قد أعطى المؤمنين المناعة أولا بالأا يسمعون كلام أعداء الدين . وحين نسمع كلمة « اتقوا » فلنفهم أن هناك أشياء تسبب لك التعب والأذى ، فعليك أن تجعل بينك وبينها وقاية ، ولذلك قال الحق :

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٢١)

(سورة آل عمران)

إنه الحق يطلب من الإنسان أن يجعل بينه وبين النار وقاية وحجابا يقيه منها . والحق سبحانه وتعالى حين يقول على سبيل المثال :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

(من الآية ٤ سورة المائدة)

أى اجعل بينك وبين الله حجابا يقيك من غضبه . وقد يقول قائل : كيف يكون ذلك وأنا كمؤمن أريد أن أعيش في معية الله ؟

نقول : إنك تجعل الوقاية لنفسك من صفات جلال الله ، وأنت تستظل بصفات الجلال ، فالؤمن الحق هو من يجعل لنفسه وقاية من صفات الجلال ، وهى القهر والجبروت وغيرها ، وكذلك النار إنها من جنود صفات جلال الله . فحين يقول الحق : « اتقوا النار » أو « اتقوا الله » فالمعنى واحد . وعندما يسمع إنسان قول الحق سبحانه : « اتقوا الله حق تقاته » ماذا تعنى ( حق تقاته ) ؟ إن كلمة « حق » - كما نعرف - تعنى الشيء الثابت الذى لا يزول ولا يتزعزع ، أى لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق .

إذن ما حق التقى ؟ هو أن يكون إيمانك أيها المؤمن إيمانا راسخا لا يهتلك ولا يتذبذب معه ، واتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج

فلا يعصى ، ويُذكر فلا ينسى ، ويُشكر ولا يكفر . وطريق الطاعة يوجد في اتباع المنهج بـ « افعل » و « لا تفعل » ويذكر ولا ينسى ، لأن العبد قد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التي خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر في كل نعمة من أنعم بها ، وإليك أن تنسك النعمة المنعم .

ويشكر العبد الله ولا يكفر بالنعم التي وهبها له الله . ومادمت أيها العبد تستقبل كل نعمة وتردها إلى الله وتقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله » ولا تكفر بالنعم لئى أنك تؤدي حق النعمة ، وكل نعمة يؤدي العبد حقها تعنى أنها نعمة شكر العبد ربه عليها ، ولم يكفر بها .

وقيل في معنى : « حق ثقاته » أى أنه لا تأخذك في الله لومة لائم ، أو أن تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يقال عنه « حق التقى » ، أى التقى الحق الذى يعتبر تقى بحق وصدق . وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة ، استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : من يقدر على حق التقى ؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

( من الآية ١٦ سورة التغابن )

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولا ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك : « فاتقوا الله ما استطعتم » ؟ لا ، إنه الحق سبحانه لا يكلف إلا بما في الوسع ، والناس قد تحطى الفهم لقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيقول العبد : أنا غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف ، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه . لا ، إن هذا فهم خاطئ ، إن قوله الحق : « فاتقوا الله ما استطعتم » أى إنك تتقى الله بما كان في استطاعتك من الوسع ، فيما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به . فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع ، لأن الله يعلم حدود استطاعتك .

وساعة تكون غير مستطيع فهو - سبحانه - الذى يخفف . . إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذى يعلم إذا كان الأمر خارجا عن



استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجاً عن استطاعتك فالله هو الذي يخفف عنك . ولذلك فعل الإنسان ألا يستخدم القول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

في غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدر الوسع ، ثم يبنى التكليف على الوسع . بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذي خلق النفس ، وهو الذي أنزل التكليف لوسع النفس ، ومادام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج . إنه سبحانه الذي كلف ، وهو العليم بأن النفس قد وسعت ، ولذلك فهو لا يكلف نفساً إلا وسعها . فإن كان سبحانه قد كلف فأعلم أيها العبد أنه سبحانه قد كلف بما في وسعك ، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من أداء ما كلف به تماماً فهو - سبحانه - يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرخص . مثال ذلك : المريض أو الذي على سفر ، له رخصة الإفطار في رمضان ، والمسافر له أن يقصر الصلاة .

إذن فالله سبحانه هو الذي علم حدود وسع النفس التي خلقها ، ولذلك لا تقدر وسعك أولاً ثم تقدر التكليف عليه ، ولكن قدر التكليف أولاً ، وقل : مادام الحق قد كلف فذلك في الوسع . وفي تذييل الآية الكريمة بقوله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » نجد أنفسنا أمام شيء من فعل وهو : عدم الموت إلا والإنسان مسلم .

كيف ذلك ؟ أيقول لك أحد : لا تمت ؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار ؛ لأنه أمر نازل عليك . فإذا قيل لك : لا تمت ، فإنك تتعجب ؛ لأن أحداً لا يملك ذلك ، ولكن إذا قيل لك : لا تمت إلا وأنت مسلم ، فأنت تفكر ، وتصل بالتفكير إلى أن الفعل المنهي عنه : لا تمت ليس في قدرة الإنسان ، ولكن الحال الذي يقع عليه الفعل وهو : إلا وأنت مسلم ، في قدرة الإنسان ؛ لذلك تقول لنفسك : إن الموت يأتي بغير عمل مني ، ولكن كلمة : إلا وأنت مسلم ، فهي باستطاعتك ، لأن الإسلام يكون باختيار . صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت ؟ ولذلك تحتاط والاحتياط يكون بأن تظل مسلماً حتى يصادفك الموت في أي لحظة وأنت مسلم .

إذن . . فقول الله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » هو نهي عن الفعل الأول وهو ليس باختيارنا . والحال الذي لنا فيه اختيار هو « وأنتم مسلمون » فكيف نوفق بين الأمرين ؟ إن الموت لا اختيار لأحد فيه ، ولا يعلم أحد منا متى يقع عليه ، ولذلك نأثى إلى الأمر الذي لنا فيه اختيار ، وهو أن نحرص على أن نكون مسلمين ، ويظل كل منا متمسكا بأهداب الإسلام ، فإن صادف الموت في أى لحظة يكون مسلما وكان الحق سبحانه يقول لنا : تمسكوا بإسلامكم ، لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت .

وإخفاء الموت عن الإنسان ليس إبهاما كما يظن البعض ، لا ، إنه منتهى البيان الواسع ، لأن إخفاء الموت ، وميعاده عن الإنسان زمنا ومحالا ، وسنا وسببا ، كل ذلك يوضح الموت أوضح بيان . لماذا ؟ لأن الله حين استأثر بعلم الموت فالإنسان منا يترقب الموت في أى لحظة وملام الإنسان مترقبا للموت في أى لحظة فهذا بيان واسع بل هو أوسع بيان . ويقول الحق بعد ذلك :

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا  
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ  
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا  
حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ  
لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٢٢﴾

جاء هذا القول الكريم لينبه كل المؤمنين ، من خلال التنبيه للأوس والخزرج ، وكأنه يقول : اعلموا أن التفاخر قبل الإسلام كان لأشياء وباشياء ليست من الإسلام

في شيء . لكن حين يحىء الإسلام فالتفاخر يكون بالإسلام وحده فإذا ما تفاضى  
إنسان بما قبل الإسلام بقوله : منا كذا . . . ومنا كذا ، فهنا يأتي الرد : لا ؛ إن ذلك  
قبل الإسلام .

وقد حدث أن قال الأوس من بعد الإسلام : « منا خزيمه » فقال واحد من  
الخزرج : « منا أبي بن كعب وزيد بن ثابت » فقال واحد من الأوس : « منا حنظلة  
ابن الراهب وحنظلة هذا هو غسيل الملائكة » وخزيمة بن ثابت صحابي جليل جعل  
الرسول صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين ؛ لأن خزيمه صاحب إيمان نوراني .  
ونورانية اليقين هدته إلى الحكم الصواب ؛ فقد اشترى النبي صلى الله عليه وسلم  
فرسا من أعرابي وذهب ليحضر له الثمن ، ولكن الأعرابي أنكر البيع لأن بعض الناس زاده في ثمن  
الفرس دون علم أن الرسول قد اشتراه فنادى الأعرابي الرسول وقال له إن كنت مبتاعا هذا الفرس  
فابتنه وإلا بعتنه .

فقال النبي للرجل : « ألسنت قد ابتعت منك » . فقال الرجل هات شاهدا يشهد بذلك . لقد  
انتهز الرجل فرصة أن النبي ابتاع منه دون وجود أحد في هذا الوقت ، وكان سيدنا خزيمه جالسا  
لحظة مطالبته للنبي بشاهد . فقال سيدنا خزيمه : أنا أشهد يا رسول الله أنك قد بايعته .

ولأن الرجل كاذب ، قال لنفسه : لعل خزيمه رآنا وأنا أبيع الفرس للنبي فسكت الرجل  
وانصرف ، وبعد أن انصرف الرجل نادى الرسول خزيمه . وقال له : « يا خزيمه بم  
تشهد ولم تكن معنا ؟ » فقال : أنا أصدقك في خبر السماء ولا أصدقك بما تقول ؟  
أعلم أنك لا تقول إلا حقا قد أمنتك على أفضل من ذلك ، على ديننا . فعلم الرسول  
أن خزيمه نورانية التصديق وحسن الاستنباط ، فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم : « من شهد له خزيمه فحسبه »<sup>(١)</sup> .

فالامر الذي يحتاج شاهدين تكفى فيه شهادة خزيمه ، وبذلك أعطى الرسول صلى  
الله عليه وسلم الوسام لخزيمه وجعل شهادته شهادة رجلين ، ولتر كيف جمع الله بين  
الأوس والخزرج في جمع القرآن ، قال زيد بن ثابت :

(١) رواه أبو داود من طريق الزهري عن عمار بن خزيمة بن ثابت .

فأليت على نفسى ألا أكتب آية إلا إذا وجدتُها مكتوبة وشهد عليها اثنان ، إلا آخر التوبة فوجدتها مكتوبة ولم يشهد عليها إلا خزيمه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال فى خزيمه : « من شهد له خزيمه فحسبه » ولنا أن نعرف أن زيد بن ثابت من الخزرج وأن خزيمه من الأوس . لقد جمعها الله فى جمع القرآن ، فنفع الأوسى والخزرجى ، وذلك ليدلنا الحق سبحانه دلالة جديدة ، وهى أن التفاخر قبل الإسلام كان بخير الإسلام ، لكن ساعة يحىء الإسلام فأى واحد من أى جنس مادام قد أحسن الإسلام ، فله أن يفخر به ، فإياك يا أوسى أن تقول : « منا خزيمه » ، فالخزرجى له الفخر بخزيمه أيضا ، وليس للخزرجى أن يقول : « منا زيد بن ثابت » فللاوسى أيضا أن يفخر به ، لأن كلا منهما قد جمعه الله بالآخر فى القرآن ، والإسلام ، وهكذا يكون الاعتصام بحبل الله .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » إن الحرب ظلت مستمرة بين الأوس والخزرج مائة وعشرين عاما مع أن أصل القيلتين واحد ، هما أخوان لأب وأم وعندما جاء الإسلام ألف الله بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا .

وهذا يدلنا على أن كل نزعة جارحة من الجوارح لابد أن يكون وراءها هبة قلب وثورته وهياجه ، فاليد لا تصفع أحدا من فراغ ، ولكن الصفعة توجد فى القلب أولا « فألف بين قلوبكم » ، إن الحق سبحانه يقول : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » والشفا هى الحافة، ومرة يقال : « شفا » ، ومرة يقال : « شفة » . لقد كانوا على حافة النار ، ومن كان على الحافة فهو يوشك أن يقع . فكان الله يقول : لقد تداركتم بالإسلام ، ولولا الإسلام لحويتم فى النار .

ويقول سبحانه : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » وهكذا نرى نعمة الإسلام فى الدنيا ، ففكرة الإيمان على إنقاذ الإنسان من النار لا تحتاج إلى انتظار بل يستطيع المؤمن أن يراها فى الدنيا . ولقد كان العرب قبل الإسلام مؤرقين بالاختلافات ، وموزعين بالعصبية ، وكل يوم فى شقاق . ولما جاء الإسلام صاروا إخوانا ، وهذه نعمة عاجلة فى الدنيا ، والدنيا كما نعرف ليست دار جزاء ، فما بالك بما يكون فى الآخرة وهى دار الجزاء والبقاء .

وقوله الحق : « لعلكم تهتدون » المقصود به أن تظلوا على هدايتكم . لقد خاطبهم الحق : « إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » وساعة يطلب التشريع منك ما أنت عليه ، فاعلم أن التشريع يريد منك استدامته ، فعندما يقول الحق ( يا أيها الذين آمنوا ) أى مع الإيمان الذى معكم قبل كلامى ، جددوا إيماننا بعد كلامى ليستمر لكم الإيمان دائما . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْمُقْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

وكلمة « أمة » تطلق مرة ، ويراد بها الجماعة التى تتسبب إلى جنس ، كلمة العرب ، أو أمة الفرس ، أو أمة الروم ، ومرة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الملة أى الدين ، ومرة ثالثة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الفترة الزمنية كقول الحق :

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمْ أَذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن الرجل الذى فسر له سيدنا يوسف الرؤيا تذكر سيدنا يوسف بعد أمة أى بعد فترة من الزمن ، ومرة تطلق كلمة « أمة » على الرجل الجامع لصفات الخير .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

لأن خصال الخير ليس من الضروري أن تجتمع فى واحد ، ولكنها قد تجتمع فى عدد من الأفراد فيكون هناك فلان المتميز بالصفة الطيبة ، وغيره متصف بصفة أخرى طيبة ، وثالث فيه صفة طيبة ثالثة ، ومن مجموع الأمة تظهر صورة الكمال ، لكن إبراهيم عليه السلام اجتمعت فيه كل خصال الخير المكتمل .

وساعة أن تأتي لإنسان ونقول له : ليكن منك شجاع فما معنى ذلك ؟ إن معناه ، أن يجرد الإنسان من نفسه ويخرج منها شخصا شجاعا ، وذلك بتدريتها وتعويدها على ذلك حتى يكون الإنسان شجاعا . أو تقول لآخر : ليكن منك كريم ، أي أخرج من نفسك رجلا كريما .  
وقوله الحق سبحانه : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » .

هذا القول يعني أن يكون منكم أيها المخاطبون أمة تدعو إلى الخير ، ومعناه أيضا أن تكونوا جميعا أمة تدعو إلى الخير ، وبعض العلماء يرى أن هذا القول يعني : أن تكون منكم جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولكن هناك فهم أعمق من هذا ، وهو أن هذه الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، أي أن هذه الآية تطالب كل أمة المسلمين بذلك ، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل الواجب أن تكون أمة المسلمين كلها أمرة بالمعروف ، وناهية عن المنكر ، فمن يعرف حكما من الأحكام عليه أن يأمر به .

وهناك من العلماء من قال : إن الذي يأتي المنكر له حكم آخر أيضا وهو أن ينهى غيره عن المنكر ، أي أن الإنسان المؤمن مطالب بأمرين : الأول : ألا يصنع المنكر ، والثاني : أن ينهى عن المنكر . ولذلك إن جاء نصيح من إنسان ينهاك عن المنكر ، وهو قد فعله ، فلا تقل له : أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولا ، لا تقل له ذلك حتى لا يقول لك ما قاله الشاهر :

خذ بعلمي ولا تركزن إلى عمل

واجن الشار واخل العود للنار

لكن الأجدر بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون أول العاملين بقوله حتى لا يدخل في زمرة من قال الله فيهم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ ﴾

إذن فقول الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » أى جردوا من أنفسكم أمة مجتمعة على أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، واستمعوا إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكُفْرٌ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٣ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٤ ﴾

(سورة العصر)

إن السورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها وهو الإيمان والعمل الصالح . وبعد ذلك قال الحق : « وتواصوا » ولم يقل « ووصوا » ما معنى « تواصوا » ؟ أى أن يعرف كل مؤمن أنه من الأغيار ، وكذلك أخوه المؤمن ، وقد يضعف أحدهما أمام معصية فيصنمها ، لكن الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية ، لذلك يكون على غير الضعيف توصية الضعيف ، وعلى الضعيف أيضا ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره . فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم ، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية ، بل كلنا موص - بكسر الصاد - حينما نجد من من يضعف أمام معصية . وكلنا موصى - بفتح الصاد - حين يكون ضعيفا أمام المعصية ، فالتواصى يقتضى التفاعل بين جانبيين . . فمرة تكون موصيا ، ومرة تكون موصى ، وكذلك التواصى بالصبر .

فساعة تحدث كارثة لواحد من المسلمين يأتى أخوه ليصبره ، وكذلك إن حدثت كارثة للأخ المسلم يصبره أخوه المسلم ، فعندما يحتاج مسلم فى وقت ما إلى أن يُصَبَّر ، يجهد من إخوته من يصبره ، فالأمة كلها مطلوبة : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

هكذا نفهم معنى قول الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . والدعوة إلى الخير يفسرها الحق بأن يأمر الإنسان بالمعروف ، وأن ينهى عن المنكر .

ويقول الحق : « وأولئك هم المفلحون » أن كلمة « المفلحون » هى كلمة معها دليلها ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابعة . والكلمة مأخوذة ، من فلح الأرض . فالذى يفلح الأرض ويحرثها ثم يزرعها يجد الثمرة تحييه فى النهاية ، وقد جاء الحق بالمسألة المعنوية من أمر محس . وبعد ذلك يريد الحق أن يعطينا شيئا آخر

فيقول : إياك أن تظن أن المشقة التي تصيبك حين تفعل خيرا لا تعود عليك بالراحة ، أو أن النقص الذي تفعل به الخير لا يعود عليك بالكمال ، فمثلا الإنسان الذي فلع الأرض وأخرج « كيلة » من القمح ويلذرها فيها . هذا الإنسان قد تكون له زوجة حمقاء تقول له : إننا لا نملك إلا أربع « كيلات » من القمح فكيف تأخذ « كيلة » لترميها في الأرض ، إن هذه المرأة لا تعرف أن « الكيلة » التي أخذها الزوج هي التي ستأتي بعدد من الأرباح من القمح . فإياك أن تفهم أن الإسلام يأخذ منك شيئا إلا وهو يريد أن يعطيك أشياء .

إن الفلاح الذي يشقى بالحراث وبالحري ، وتراه وقد علا جبهته العرق وتراب الأرض وتغوص أقدامه في الطين والمياه ، إنك تراه يوم الحصاد وهو فرح مسرور بغلته . أما غيره الذي لم يشق بالحراث ولم تعل جبهته حبات العرق ، فيأتى في هذا اليوم وهو حزين ونادم-فإياك أن تنظر إلى تكاليف الدين على أنها أمور تحرمك النفع ، إنها أمور تربى لك النفع أى تكثر لك النفع . وإياك أن تظن أن حكما من أحكام الله قد جاء ليجور على حريتك بل جاء ليمنع عنك اعتداء الآخرين .

وقلنا من قبل : إن الشرع حين كلف كل إنسان ألا يسرق مال أحد ، فهو تقييد من أجل حفظ أموال الملايين ، وهو أمر ضمنى لكل الناس ألا يسرقوا شيئا من هذا الإنسان ، وهنا نجد الأمان يتشع بالإيمان بين الجميع .

ولو نظرت إلى ما منع الدين الناس أن يمارسوه معك لعرفت قيمة التكاليف الإيمانية . إن التكليف حين يأمر ألا يمد أحد عيونه إلى محارم جاره ، هذا التكليف صادر للناس جميعا حتى يحمى الله لك محارمك من عيون الناس ، لقد قيد التكليف حرية الآخرين من أجلك وهم كثيرون ، وقيد حريتك من أجل الآخرين وأنت واحد . .

إذن فيجب أن نذكر أن كل تكليف يعطى صلاحا وفلاحا ، فالأرض تأخذ الحبة ، وتعطيك سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، فلا تنظر إلى ما أخذك التكليف من حريتك ، لأنه أخذ لك من حريات الآخرين أيضا . ولا تقل : إن التكليف قد نقص حركتى لنفسى ، لأنه سيعطيك ثمرات أكثر مما أفقدك .



ويقول الحق من بعد ذلك :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا  
جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾

وهذا القول الحكيم ينهى عن اتباع الهوى الذى يؤدى إلى الفرقة . برغم وضوح  
آيات الحق سبحانه لهم ، لأن هؤلاء الذين يتبعون الهوى من بعد وضوح قضية الحق  
سيصلهم الله النار ، ولهم عظيم العذاب . وبعد ذلك يقول الحق :

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ  
اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا  
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾

وهنا يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات في  
الدنيا ، فالشخص الأسود يزيد الله في تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب  
البيئة ، لأن المادة الملونة للبشرة في جسده موجودة بقوة ، لتعطيه اللون المناسب  
لمعيشة ظروف البيئة ، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافى من المادة  
الملونة ، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة .

إذن فالسواد في الدنيا لصالح المسود ، أما في هذه الآية ، فهي تتحدث عما سوف  
نراه في الآخرة حيث يكون السواد والبيض مختلفين ، تماماً كما تتبدل الأرض غير

الأرض والسموات غير السموات ، وكذلك يتبدل أمر السواد والبياض ، انه لن يكون سواداً أو بياضاً من أجل البيئات . ولذلك ستتعبج يوم القيامة ؛ لأنك قد ترى إنسان كانا أسود في الدنيا ، وتجد أبيض في الآخر ، وتجد إنساناً آخر كان لونه أبيض في الدنيا ثم صار أسود في الآخرة .

فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود في الدنيا مكروه من الله ، لا ، إن الله يعطى كل واحد ما يناسبه ، بدليل أن الله قد أمده باللون الذي يقويه على البيئة التي يجيا فيها . وفي مجالنا البشرى ، نحن نعطي المصل لاي إنسان مسافر إلى مكان ما ، حتى نحمله من شر مرض في المكان الذي يذهب إليه ، كذلك خلق الله في الأرض فقد أعطى سبحانه لكل إنسان في تكوينه المناعة التي تحفظه ؛ فانه لا يكره السواد لأنه حماية للإنسان من البيئة . وهذه المسألة ستتبدل يوم القيامة كما تتبدل الأرض غير الأرض ، وتبيض الوجوه المؤمنة ، وتسود الوجوه الكافرة .

أو أن البياض والسواد كليهما ، أمر اعتباري ، بدليل أنك ترى واحداً أبيض ولكن وجهه عليه غبرة ترهقه فترة ، وترى واحداً آخر أسود اللون ، ولكن نور اليقين يملأ وجهه ، ويريق الصلاح يشع منه ، وأنت لا تقدر أن تمنع عينيك من أن تديم النظر إليه ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَٰك رَّبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

( سورة التين )

أى أن ما في داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان ؛ وتظهره ملامحه ، فقد يكون الأسود مضوء الوجه بالبشر والإشراق والتجل بالجاهزية الأسرة ، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح .

وهكذا نفهم أن اسوداد بشرة إنسان في الدنيا ، إنما هو لمساعدة الإنسان على التواء مع البيئة ، ومثال ذلك سواد العين وبياضها ، هل يستطيع أحد أن يقول : إن بياض العين أحسن من سوادها ؟ أو العكس ؟ . لا ؛ لأن كل شيء معد لمهمته .

ومثال آخر : عندما يأتى عامل البناء ليبنى عمود الحديد المستقيم ؛ ويلويه ، فهل

يقال : إن هذا الإنسان قد عوج الحديد ؟ لا ؛ إنه يريد أن يشكل عود الحديد ليكون صالحاً لمهمة معينة . وكذلك الاسوداد أو الابيضاض في الدنيا ، إنما أراد الله ليتناسب مع ظروف الحياة في البيئة ، أما في الآخرة فالدنيا قد زالت وفنيت ، والأرض لن تكون هي الأرض والسماء لن تكون هي السماء ؛ فالحق يقول :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٥٥ ﴾

( سورة إبراهيم )

فالمؤمن حين يرى ما أعد الله له من النعم المقيم يقابل عطاء الله باستشراق نفس وصرور وانبساط ، أما الذي يرى مقعده من النار فلا بد أن يكون مظلم الوجه . والحق سبحانه يوجه هؤلاء : « أكفرتم بعد إيمانكم » أو كأن هذا أمر يفاجيء من كان يعرف هؤلاء الناس في الدنيا ؛ فقد رأوهم في الدنيا بيض الوجوه ، ولكن يرونهم يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قفرة ، فيقولون لهم : « أكفرتم بعد إيمانكم » ؟ . وكأن ذلك هو سمة من يكفر بعد الإيمان . هذه هي سمتهم وعلامتهم في الآخرة أي ما الذي صيركم إلى هذا اللون ؟ إنه الكفر بعد الإيمان .

فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان ؟

هذا يعني أن الإيمان قد سبق ثم طرأ على الإيمان كفر ، وماتوا على ذلك الكفر ، وهذا قول ينطبق على الذين ارتدوا عن الإسلام مثل ابن الأسلت وغيره ، وهؤلاء كفروا بعد الإيمان . أو يكون « أكفرتم بعد إيمانكم » يجعلنا نقول : البعدية هنا لا بد أن يكون لها قبلية : ألم يأخذ الله على خلقه عهداً في عالم الذر حين استخرجهم من ظهر آدم ؟ وقال سبحانه :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۖ ﴾

( من الآية ١٧٢ سورة الأعراف )

إنه إقرار إيمان موجود في عالم الذر ، فمن جاء في الواقع لينقض هذه المسألة فقد كفر بعد إيمان . أو أكفرتم بعد إيمانكم بمحمد ، بعد أن جاءكم به البشارات التي

عرفتموها ، وقرأتموها في التوراة والإنجيل . وقد تأكدتم أنه قادم لا محالة ، وأنه رسول هذه الأمة وخاتم الرسل ، وانطبق عليكم قول الحق :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩)

( من الآية ٨٩ سورة البقرة )

إذن فهذا القول ، إما أن يكون في المرتدين ، وإما أن يكون الكفر في واقع الدنيا بعد الإيمان في عالم القدر عندما أخذ الله العهد على الناس جميعا ، أو يكون الكفر بعد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءت به البشارة في التوراة والإنجيل ، أو يكون ذلك من أهل الأهواء الذين أخذوا الدين وجعلوه شيئا ، كالفرق التي خرجت عن الإسلام ، وهي تدعى الانتساب إليه كالبهائية والقاديانية وغيرها . إن الآية تحتمل كل هذا ، وعندما ننظر إلى النص القرآني نجد أنه يستوعب كل هذه المعاني .

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه أورد فقط : « أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهذا قول يختص بالكفار فقط بذوقون العذاب بسبب الكفر ، وذلك يعني أن المؤمن بإيمانه سينال ثواب عمله . يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١٠٧)

ولنلاحظ دائما أن الله حين يبين جزاء لمؤمن على إيمانه وطاعته فسبحانه يقول مرة :

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

( من الآية ٤٢ سورة الأعراف )

ومرة أخرى يقول :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَءَاخِصُوا بِهِۦ فَنَدِخُلْهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَنَخْصِلْهُمْ وَيَتَدَيَّرُ بِٱلْبَيْتِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ١٧٥ ﴾

(سورة النساء)

ما الفرق بين الاثنين ؟ إن الناس فى العبادة صنفان : منهم من يعبد الله ويريد نعيم الجنة ، فيعطيه الله الجنة جزاء لعبادته ولعمله الصالح . وآخر يعبد الله ، لأن الله يستحق العبادة ولا تمر الجنة على باله ، وهذا ينال ذات الرحمة ، إنه ينال لقاء وجه الله .

وما الفرق بين الجنة والرحمة ؟ إن الجنة مخلوقة لله ، فهي باقية بإبقاء الله لها ، ولكن الرحمة باقية ببقاء الله ، وهذا ضمان كاف ، فمن يرى الله فيه حسن العبادة لذاته - سبحانه - يضعه الله فى الرحمة .

وقلنا من قبل : إن هناك جنة من الجنات اسمها « عليون » ليس فيها متعة من المتع التى سمعنا عنها فى الجنة ، كلحم الطير وغير ذلك ، وليس فيها إلا أن ترى الله . ومادام العبد لا يأكل عن جوع فى الآخرة ، فما الأفضل له ، جنة المتع ، أو متعة رؤية وجه الله ؟

أنتمتع بالنعمة أم بالمنعم ؟ لا جدال أن التمتع برؤية المنعم أرقى وأسمى من التمتع بالمتع الأخرى . والدقة الأدائية فى القرآن توضح لنا أن الرحمة تكتنف هؤلاء العباد الصالحين ، وتحيط بهم ، إنهم ظرف للرحمة وداخلون فيها فلا تمسهم الرحمة فقط ، ولكن تحيط بهم ، وهم خالدون فيها ، ويؤكدنا الحق بظرفية جديدة بقوله : « هم فيها خالدون » فكان هناك رحمة يُدخل فيها العباد ، ثم يطمئتنا على أنها لا تنزع منا أبدا . فـ « فيها » الثانية للمخلود ، « وفى » الأولى للدخول فى الرحمة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

## ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٨)

إن آيات الله هي حججه وبراهينه وجزاءاته ، فمن اسود وجهه يوم القيامة نال العذاب ، ومن ابيض وجهه نال الرحمة وهو فيها خالد « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » ، فما الذى يجعل إنسانا لا يخبر بالحق ؟ لابد أن هناك داعيا عند ذلك الإنسان « فلأن الحق يُتعبه ، فهو يخبر بغير الحق . لكن هل هناك ما يتعب الخالق ؟ لا ، فسبحانه وتعالى منزّه عن ذلك وعن كل نقص أو عيب إذن فلا بد ألا يقول إلا الحق ، فلا شيء خارج عن ملكه بعد ذلك . يقول سبحانه : « وما الله يريد ظلما للعالمين » . إنه سبحانه ينفي الظلم عن نفسه كما قال :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ قَعِيدٍ ﴾

( من الآية ٤٦ سورة فصلت )

والحق لا يريد الظلم على إطلاقه ، من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد . وكيف يأتى الظلم ؟ إن مظاهر الظلم هي - كما نعرف - أن تأخذ إنسانا بغير جرم . . هذا ظلم ، أو أن تعاقب إنسانا فوق الجرم . . هذا ظلم . أو ألا تعطى إنسانا مستوى إحسانه . . هذا ظلم . وماذا يفعل من يقوم بالظلم ؟ إنه يريد أن يعود الأمر بالنفع له ، فإن كان يريد أخذ إنسان بغير جرم فهو يفعل ذلك ليروى حفدا وغلا في نفسه ، وقد يلفق لإنسان جرما ؛ لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يهدده في أى مصلحة من المصالح ، وهو يعلم انحرافه فيها ، فيعتقله مثلا ، أو يضعه في السجن حتى لا يفضحه .

إذن لا يمكن أن يذهب إنسان عن الحق إلى الظلم إلا وهو يريد أن يحقق منفعة أو يدفع عن نفسه ضررا ، والله لن يحقق لذاته منفعة بظلم ، أو يدفع ضررا يقع من خلقه عليه ؛ إنه منزّه عن ذلك ؛ فهو القاهر فوق عباده . والحديث القدسي يقول : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى . وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا » (١) .

(١) رواه أحمد في المسند ، ورواه مسلم في البر .

والظالم من البشر جاهل . لماذا ؟ لأنه قَوَّى الذي ظلمه ، ولم يضعفه ، فالظالم يظلم ليضعف المظلوم أمامه ، فنقول له : أنت غيى ، قليل الذكاء ، لأنك قويت على نفسك وفعلت عكس ما تريد . ولنوضح ذلك - والله المثل الأهل - نحن جميعا عيال الله ، سننتقل إلى دائرة حياتنا اليومية ونرى عيالنا ، إن الواحد منا عندما يكون له أولاد ، وجاء ولد من الأولاد وظلم أخاه فقلَّب الوالد يكون مع المظلوم ، ويحاول الوالد أن يترضى ابنه المظلوم . إذن فالولد الظالم ضرر أخاه ضررا يناسب طفولته ، ولكنه أعطاه نفعا يناسب قوة والده ، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه .

ومادامنا جميعا عيال الله فإذا يفعل الله حين يرى سبحانه واحدا من خلقه يظلم آخر من خلقه ؟ لا بد أن الحق يشمل المظلوم برعايته ، وهكذا يقوى الظالم المظلوم ، والظالم بذلك يملن عن غيائه ، فلو كان ذكيا ، لما ظلم ، ولضنَّ على عدوه أن يظلمه ، ولقال : إنه لا يستأهل أن أظلمه ، لأنه عن طريق ظلمي له سيعطيه الله مكافأة كبرى ، وهى أن يجعله فى كتفه ورعايته مباشرة .

وقد نجد واحدا يظلم من أجل نفع عاجل ، وينسى هذا الإنسان أنه لن يشرذ أبدا من خلقه . ونقول لمثل هذا الإنسان : أنت لن تشرذ من خلقك ، ولكنك شرذت من المخلوق وداريت نفسك ، وحاولت أن تحقق النفع العاجل لنفسك ، لكن الخالق قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . وكان الحق سبحانه يطمئنا بأن ننام ملء جفوننا لأنه سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم .

« وما الله يريد ظلما للعالمين » لأن الظلم لا ينشأ إلا عن إرادة نفعية بغير حق ، أو إرادة الضرر بغير جرم ، والله غنى عن ذلك ؛ ولذلك نجد الحق يؤكد غناه عن الخلق وأنه مالك للكون كله فيقول :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ

تُرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿١٨﴾

إنه مالك الملك ، كل شيء له وبه وملكه ، وإليه يُرجع كل أمر . ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد نزل من عند الله بقراءات متعددة وقد ورد وفي بعضها ( تَرْجِعُ الأمور ) بفتح التاء بالبناء للفاعل ، وفي قراءة أخرى : « ترجع الأمور » بضم التاء بالبناء للمفعول ، وكذلك ( ترجعون ) تأتي أيضا بضم التاء وفتحها ، وكلها - كما قلنا - قراءات من عند الله .

وعندما يقول الحق : « وإليه تُرجعون » بفتح التاء فمعنى ذلك أننا نعود إليه مختارين ، لأن المؤمن يُحب ويرغب أن يصل إلى الآخرة ، لأن عمله طيب في الدنيا ، فكانه يجرى ويسارع إلى الآخرة ، ومرة يقول تعالى : « وإليه تُرجعون » بضم التاء . وهذا ينطبق على الكافر أو العاصي . إن كلاً منها يحاول ألا يذهب إلى الآخرة . لكن المسألة ليست بإرادته ، إنه مقهور على العودة إلى الآخرة ولذلك نجد التعبير القرآني :

﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دُعًا ۝١٢٤﴾

(سورة الطور)

هناك من يدفعهم إلى النار دفعا . وفي حياتنا - والله المثل الأعلى - نجد الشرطي يمسك بالمجرم من ملابسه ويدفعه إلى السجن . . ذلك هو الدع . وهكذا يكون قول الحق : « وإليه تُرجعون » بضم التاء وفتح الجيم ، أي أنه مدفوع بقوة قاهرة إلى النهاية . أما المؤمن الواصل فهو يروى إلى آخرته مشتاقا لوجه ربه .

وعندما تقرأ « وإلى الله تُرجع الأمور » . قد يقول قائل : ومتى خرجت الأمور منه حتى ترجع إليه ؟ ونقول : حين خلق الله الدنيا ، خلقها بقهر تسخيرى لنفع الإنسان ، وجعل فيها أشياء بالأسباب ، فإن فعل الإنسان السبب فإنه يأخذ السبب - بفتح الباء - المشددة ، فالشمس تشرق علينا جميعا ، والضوء والدفء والحرارة ، هي - بأمر الله - للمؤمن والكافر معا ، ولم يصدر الله لها أمرا أن تختص المؤمن وحده بمزاياها ، والهواء لا يمر على المؤمن وحده ، إنما يمر على المؤمن والكافر ، وكذلك الماء ، والأرض يزرعها الكافر فيأخذ منها الثمار ، ويزرعها المؤمن كذلك .

إذن ففي الكون أشياء تسفيرية ، ومى التي لا تدخل فيها طاقة الإنسان ، وهناك



أشياء سببية ، فإن فعلت السبب يأت لك المسبب ، والله قد جعل الأسباب للمؤمن والكافر . وعندما يُمْلِكُ الله بعض الخلق أسباب الخلق فهو القيوم فوق الجميع ، لكن في الآخرة ، فلا أسباب ولا مسببات ؛ ولذلك يكون الأمر له وحده ، اقرأوا جيدا :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

إن في الدنيا أناسا - بإرادة الله - تملك أسبابا ، وملك عبدا ، وملك سلطانا ؛ لأن الدنيا هي دنيا الأسباب . أما في الآخرة فلا مجال لذلك . لقد بدأت الدنيا بأسبابها مِنهُ منه ، ورجعت مِنهُ إليه ولَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، ومن يعتز بالسببية نقول له : كن أسير السببية لو كنت تستطيع . ومن يعتز بالقوة لأنها - ظاهرا - سبب للحركة ، نقول له : احتفظ بقوتك إن كنت قادرا . ومن يعتز بالملك نقول له : لتحفظ بالملك لو كنت تستطيع . ولا أحد بقادر عل أن يحتفظ بأى شيء ، فكل شيء مرده إلى الله ، وإن كان في ظاهر الأمر أن بعض الأشياء لك الآن ، وفي الآخرة لله يكون كل أمر ، ويرجع إليه كل شيء ، لقد بدأت به ، ورجعت إليه . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ  
بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ  
خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ  
الْفَاسِقُونَ ﴾

هذه الخيرية لها مواصفات وعناصر : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر

وتؤمنون بالله . فإن تخلف عنصر من هذه العناصر ، انحلت عنكم الخيرية ، فالخيرية لكم بأشياء هي : أمر بالمعروف . نهي عن المنكر . إيمان بالله .

وساعة تسمع كلمة « معروف » وه منكر ، فإنك تجد أن اللفظ موضوع في المعنى الصحيح ، فـ « المعروف » هو ما يتعارف الناس عليه ويتفاخرون به ، وينسب كل إنسان أن يعرفه الآخرون عنه . وه المنكر ، هو الذي ينكره الناس ويخجلون منه ، فمظاهر الخير يحب كل إنسان أن يعرفها الآخرون عنه ، ومظاهر الشر ينكرها كل إنسان .

إن مظاهر الخير محبوبة ومحمودة حتى عند المنحرف ، ومظاهر المنكر مذمومة ومكروهة حتى عند المنحرف . فاللص نفسه عندما يوجد في مجلس لا يعرفه فيه أحد ، ويسمع أن فلاناً قد سرق فإنه يعلن استنكاره لفعل اللص ، إنه أمر منكر ، حتى وإن كان هو يفعله . وهكذا تعرف أن « المعروف » وه المنكر ، يخضعان لتقدير الفطرة . والفطرة السليمة تأتي للأمور الخيرة ، وتجعلها متعارفا عليها بين الناس ، وتنكر الفطرة السليمة الأمور المنكرة ، حتى ممن يفعلها .

ويورد الله مسألة الإيمان بالله من بعد الأمر بالمعروف والنهي المنكر ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أن يوجد إنسان له صفات الأريحية والإنسانية ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويصنع الخير ، ويقدم الصدقات ، ويقوم مؤسسات رعاية للمحتاجين والعاجزين سواء كانت صحية أو اقتصادية ، لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية ، لا من زاوية منهج الله ، فيكون كل ما فعله حابطاً ولا يُعترف له بشيء لأنه لم يفعل ذلك في إطار الإيمان بالله ، ولذلك فلا تظن أن الذي يصنع الخير دون إيمان بالله له أجر عند الله ، فإله يجازي من كان على الإيمان به ، وأن يكون الله في بال العبد ساعة يصنع الخير . فمن صنع خيراً من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال جزاءه من عمل له ، ومادام قد صنع ذلك من أجل أن يقال عنه ذلك فقد قيل ، وهو ما بينه رسول الله صل الله عليه وسلم بقوله :

« إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ،

ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت في سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها . قال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر فسحب على وجهه ثم ألقي في النار<sup>(١)</sup> .

إنه ينال جزاء عمله من قول الناس ، لكن الله يجازى في الآخرة من كان الله في باله ساعة أن عمل . ولذلك فالخلق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٣٣)

(سورة فصلت)

إن المؤمن بفعل العمل الصالح ، ويعلم أنه يفعل ذلك لأنه من المسلمون ، إنه لا يفعل الخير ، لأنه شيعى ، أو وجودى ، أو إنسانى إلخ ، فمهما صنع إنسان من الخير ، وترك الاعتراف بالله فخيانة الكفر تفسد كل عمل . لأنه جمعد وأنكر خالفه وكفر به ، والذي يعمل خيرا من أجل أحد فليزل من هذا الأحد جزاء هذا العمل .

وهنا في هذه الآية ، أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وإيمان بالله . ولكن ما الذى يجعلهم لا يؤمنون بالله وإن عملوا معروفا ؟ إنه حرصهم على الجاه الزائف ، فلما جاء الإسلام ، ظن أهل الجاه في الديانات الأخرى أن الإسلام سيسلبهم الجاه والسلطة والمكانة والمنافع التى كانوا يحصلون عليها ، وكان من حماقة بعضهم أن باعوا الجنة على الأرض وخافوا على المركز والجاه والمنافع ، وكان ذلك من قلة الفطنة ، فالخلق يقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّمَنِ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

فلو آمنوا لظل لهم الجاه والسلطة في ضوء الإيمان بالله ، فلا تجارة بالدين ، وكانوا سيحصلون على أجرهم مرتين ، أجر في الدنيا ، وأجر في الآخرة ، أو أجر على إيمانهم بنبيهم ، وأجر آخر لإيمانهم برسول الله ، ولكن هل معنى هذا القول أن أهل الكتاب لم يؤمنوا ؟ لا ، إن بعضهم قد آمن ، فالحق سبحانه وتعالى يؤرخ لهم تاريخنا حقيقيا فيقول سبحانه : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » وكان القياس أن يأتي وصف بعضهم بالإيمان ، وأن يكون غيرهم من أبناء ملتهم كافرين ، لأن الإيمان يقابله الكفر ، لكن الحق يحدد المعنى المناسب لفعلهم فيقول : « وأكثرهم الفاسقون » .

إنه الحق سبحانه وتعالى الذي يتكلم فيورد كل كلمة بمتسهي الدقة ، فهناك فرق بين أن تكفر وليس عندك مقدمات الإيمان وأدلتك ، وأن تكفر وأنت تعرف مقدمات الإيمان كقراءة التوراة والإنجيل .

لقد قرأ أهل الكتاب التوراة والإنجيل ورواوا الآيات البيّنات وعرفوا البشارات ؛ لذلك فهم عندما كفروا برسول الله ، فسقوا أيضا مع الكفر . إن الذين كفروا برسول الله من أهل الكتاب هم فاسقون حتى في كفرهم ، لأن مقتضى معرفتهم للبشارات والآيات أن يعلنوا الإيمان برسالة رسول الله ، فالواحد منهم ليس كافرا عاديا ، بل هو فاسق حتى في الكفر ؛ لأنه عرف الحق ، ثم خرج وفسق عنه .

ومادام الحق قد قال : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » إذن ماذا يفعل المؤمن منهم مع الفاسق ؟ سيطرهم الفاسقون وهم الأكثرية في اليهودية والنصرانية بالأقلية المؤمنة ليقعوا بهم الأذى والضرر ، ويقول الحق سبحانه :

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَتِّلُوكُمْ

يَوْلُوكُمُ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٣١﴾

لكن الحق سبحانه يطمئن هذه الأقلية من أضرار الأكثرية بهم فيقول : « لن يضروكم إلا أذى » . أى يا أيها الأقلية التى آمنت من أهل الكتاب - مثل عبدالله بن سلام الذى أسلم وترك اليهودية - إياكم أن تظنوا أن الأكثرية الفاسقة قادرة على إنزال العذابىكم ؛ فالحق - سبحانه - يعلن أن محاولة الأكثرية لإنزال الضرر بالأقلية التى آمنت منهم لن يتجاوز الأذى .

ما هو الضرر ؟ وما هو الأذى ؟

إن الأذى هو الحدث الذى يؤلم ساعة وقوعه ثم ينتهى ، أما الضرر فهو أذى يؤلم وقت وقوعه ، وتكون له آثار من بعد ذلك ، فعندما يصنع الإنسان إنسانا آخر صفة بسيطة فالصفة البسيطة تؤلم ، وألمها يذهب مباشرة ، لكن إن كانت الصفة قوية وتتسبب فى كدمات وتورم فهذا هو الضرر . إذن فالأذى يؤلم ساعة يُباشَر الفعل فقط ، وقد يكون الأذى بالكلمة كالاستهزاء ، فالفاسق قد يستهزئ بالذى آمن ، فينطق بكلمة الكفر أو الفجر ، هذه الكلمة ليس لها ضرر فى ذات المؤمن ولكنها تؤذى سمعه . إن الحق سبحانه يطمئن المؤمنين على أن أهل الكفر لن يضرروا المؤمنين إلا أذى ، وهذا أقصى ما فى استطاعتهم ، وليس لهذا الأذى أثر .

إذن فقول الحق : « لن يضروكم إلا أذى » يعنى أنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منكم أبدا اللهم إلا الاستهزاء أو الغمز واللمز ، أو إشارة بحركة تؤذى شعور المؤمن ، أو تمجد الكفر ، ونعظمه أو بنطق كلمة عهر أو فجر لا يوافق عليها الدين ، هذا أقصى ما يستطيعه أهل الفسق ، وهم لا يملكون الضرر لأهل الإيمان . وبعد ذلك نرى أن واقع الأمر قد سار على هذا المنوال مع الدعوة المحمدية ومع جنود سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أطلقها الله كلمة : « لن يضروكم إلا أذى » فصارت الكلمة قانونا . فقد وقعت الوقائع بين جند رسول الله وأهل الفسق ، وثبت أن أهل الفسق لم يستطيعوا ضرر أهل الإيمان إلا أذى .

ولننظر إلى ما حدث لبني قينقاع ، ولما حدث لبني قريظة ، ولما حدث لبني النضير ، ولما حدث لليهود خيبر ، هل ضروا المؤمنين إلا أذى ؟ لقد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يفرنك يا محمد أنك لقيت قوما أغرارا لا علم لهم بالحرب فانتصرت عليهم ، فإذا أنت حاربتنا فستعرف من الرجال . وكان ذلك هو مجرد كلام باللسان .

إن التاريخ يحمل لنا ما حدث لهم جميعا ، لقد هزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد هذا أرادوا أن يرتفعوا عن الأذى إلى الضرر الحقيقي فلم يكتفهم الله ؛ لأن الحق يقول : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون » ، فإن أراد أهل الفسق أن يَصْعُدُوا الأذى للمؤمنين ليقعوا ضررا حقيقيا ، فإن الكافرين يولون الأدبار أمام المؤمنين ، فهزيمتهم أمر لا مناص منه . ونحن نعرف في اللغة أن هناك ما نسميه « الشرط » وما نسميه « الجواب » فـ « إن » حرف شرط تهزم فعل الشرط وجوابه فإن كان الفعل من الأفعال الخمسة فإننا نحذف النون ، ولذلك نجد القول الحق : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار » .

إن « يقاتلوكم » فعل شرط محذوفة منه النون . و « يولوكم الأدبار » أصلها يولونكم الأدبار . وهي جواب شرط حذفت منه النون ، وعندما يأتي العطف بعد ذلك ، فهل يكون بالرفع أو بالجر ؟ إن العادة أن يكون العطف بالجر ١١ لكن الحق يعطف بالرفع فيأتي قوله : « ثم لا ينصرون » . إنها كسرة إعرابية تجعل الذهن العربي يلتفت إلى أن هناك أمرا جللا ، لأن المتكلم هو الله سبحانه . كيف جاءت « النون » ؟

هنا نقف وقفة فلتنطق الآية بكلام البشر : إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصروا . وهذا القول يكون تاريخا لمحنة واحدة ، لكن ما الذي سوف يحدث من بعد ذلك ؟ ماذا يحدث عندما يقاتل المؤمنون أهل الكفر والفسق ؟ وتكون الإجابة هي : « ثم لا ينصرون » إن هذا القول الحكيم يحمل قضية بعيدة عن الشرط والجزاء ، إنها حكم من الله على أهل الفسق بأنهم لا ينصرون أبدا سواء أقاتلوا أم لم يقاتلوا إنها قضية ثابتة منفصلة ، وليست معطوفة على الشرط ، فعلة عدم النصر ، ليست القتال ، ولكنها الكفر .

وإذا دققنا الفهم في العبارة حروفا - بعد أن دققنا فيها الفهم جملا - لوجدنا معنى جديدا ، فقد يظن إنسان أن القول كان يفترض أن يتأتى على نحو مغاير ، هو « يولوكم الأدبار فلا ينصرون » لأن الذي يأتي بعد الـ « فاء » يعطى أنهم لا ينصرون عليكم في بداية عهدكم ، وهذا ما تفيد الفاء لأنها للترتيب والتعقيب . لكن الحق أورد حرف « ثم » وهو يفيد التراخي ، وهذا يعني أنهم لا ينصرون عليكم أيها

المؤمنون حتى لو استعدوا بعد فترة لمعركة يَرُدُّونَ بها على توليهم الأدبار . إنه حكم تأييدي ، لأن « ثم » تأتي للتعقيب مع التراخي ، والفاء تأتي للتعقيب المباشر بدون تراخ . ولذلك فعندما نقرأ القرآن نجد وضع الفاء كالآتي :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَمُ ١٦ ﴾

(سورة عبس)

لأن دخول القبر يكون بعد الموت مباشرة ، وبعدها يقول الحق :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَمُ ١٧ ﴾

(سورة عبس)

فإذا كان هناك تعقيب بعد مدة زمنية فالحق يأتي بـ « ثم » ، وإذا كان هناك تعقيب فوري بلا مدة يأتي الحق بـ « ف » . والتعقيب في الآية التي نتناولها يأتي بعد « ثم » ، وكان هذا حكم مستمر من الحق بأن أهل الفسق لن ينتصروا على أهل الإيمان ، ولو بعد انتهاء المعركة القائمة الآن بينهم ، إنها هزيمة بحكم نهائي ، هذا هو القول الفصل : « ثم لا ينصرون » وهو أشد وقعا عما لو جاء « لا ينتصرون » لماذا ؟ لأن من الممكن ألا ينتصر أهل الكفر بذواتهم ، ولكن الإيضاح يؤكد أنهم - أهل الكفر - لا ينتصرون لا بذواتهم ، ولا ينصرون بغيرهم أيضا .

إن « ثم لا ينصرون » قضية دائمة فليست المسألة مقصورة على عهد رسول الله فقط ، ولكنها مستظل إلى أبد الأبدین .

ومن السطحية في الفهم أن نقول : إن الآية كانت تتطلب أن يكون القول « ثم لا ينصروا » لأن الاعراب يقتضي ذلك . لكن المعنى اللائق بالمتكلم وهو الحق سبحانه وتعالى الذي يعطي الضمان والاطمئنان للأمة المسلمة أمام خصومها لا بد أن يقول : « ثم لا ينصرون » وهي أكثر دقة حتى من « لا ينتصرون » لأن « ينتصرون » فيها مدخلة الأسباب منهم ، أما « ثم لا ينصرون » فهي تعني أن لا نصر لهم أبداً ، حتى وإن تعصب لأهل الفسق قوم غيرهم وحاولوا أن ينصروهم فلن يستطيعوا ذلك .

فإن رأيتم - أيها المسلمون - نصرا للكافرين عليكم منهم أو يتعصب قوم لهم

فاعلموا أنكم دخلتم معهم على غير منهج الله . وقد يأتي إنسان ويقول : كيف ينتصر علينا اليهود ونحن مسلمون ؟ ونقول : هل نحن نتبع الآن منهج وروح الإسلام ؟ وماذا عندنا من الإسلام ومن الإيمان ؟ هل نحسب نفسك على ربك أثناء هزيمتك ؟ وهل دخلت معركتك كمعركة إسلامية ؟

لا ، لقد انتبهنا إلى كل شيء إلا الإسلام . قدمنا الانتهاء لعصبية وقومية وعرقية على الإيمان فكيف نطلب نصرا من الله ؟ لا يحق لنا أن نطلب نصرة الله إلا إذا دخلنا المعركة ونحن من جند الله . والهزيمة تحدث عندما لا نكون جنداً لله ؛ لأن الله ضمن النصر والغلبة لجنوده فقال :

﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ (١٦٧)

( سورة الصافات )

فإذا لم نغلب فتأكدوا أننا لسنا من جنود الله . . ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (١٦٨)

ونحن نستخدم كلمة « ضرب » في النقود ، عندما نقول : ضرب هذا الجنيه في مصر ، ومعنى ذلك أن الصانع يقوم بصنع قالب من مادة أكثر صلابة ، من المادة التي يصنع منها النقد ويرسم فيها الحفريات التي تبرز الكتابة والصورة على وجهي الجنيه ،



ثم يصب المادة في ذلك القالب ، ونخضع للقالب فتبرز الكتابة والصورة ، ولا تتأخر  
المادة على القالب . كأن « ضرب » معناها « ألزم » بالبناء للمجهول فيها ، وكان  
المادة المصنوعة تلزم القالب الذي تصب فيه ولا تتأخر عليه ولا يمكن أن تتشكل إلا  
به .

إذن فالضرب معناه الإلزام والقسر على الفعل . وعندما يقول الحق : « ضربت  
عليهم الذلة » أى لزمته الذلة لا يستطيعون الانفكاك عنها أبدا ، كما لا يستطيع  
المعدن المضروب نقدا أن ينفك عن القالب الذى صك عليه ، وكان الذلة قبة  
ضربت عليهم ، وقالب لهم ، وقول الحق : « أينما ثقفوا » تفيد أنهم أذلاء أينما  
وجدوا في أى مكان . ولكن هناك استثناء لذلك ، ما هو ؟

إنه قول الحق : « إلا بحبل من الله وحبل من الناس » إنهم لا يعانون من الذلة في  
حالة وجود عهد من الله أو عهد من أناس أقوياء أن يقدموا لهم الحماية . فلما كانوا في  
عهد الله أولا وعهد رسوله ساعة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة  
وأعطاهم العهد ، فكانوا آمنين ، ولما خانوا العهد ، ولم يوفوا به ، ماذا حدث ؟  
ضربت عليهم الذلة مرة أخرى .

إذن لقد كانوا في عهد الله آمنين لكنهم خانوا العهد ، وانقطع حبل الله عنهم ،  
فهبجوا الهبة التى عرفناها ونزل بهم ما نزل ، وهو ما حدث لبني قينقاع ولبنى  
النضير وبني قريظة ويهود خيبر .

إذن فهم قبل ذلك كانوا في عهد مع الله . وأنتم تعرفون أن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم أول ما نزل المدينة بنى المسجد وعقد العهد بينه وبين اليهود وعاشوا في  
اطمئنان إلى أن خانوا العهد ، فضربت عليهم الذلة . وطردوا من المدينة ، كما يقول  
الحق : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » .

لقد أخذوا العهد من الله من خلال من له الولاية على الناس ، فالرسول في عهده  
كان قائما على أمر المسلمين ، وكذلك يكون الأمر معهم في ظل القائمين على أمر  
الإسلام ، ويحدث هذا عندما تسير الأمور بمنهج الإسلام .

أما عن حبل الناس فذلك لأنهم لا يملكون أى عزة ذاتية ، إنهم دائماً في ذلة إلا أن يبتغوا العزة من جانب عهد وحبل من الله ، أو من جانب حماية من الناس . ونحن نراهم على هذا الحال في حياتنا المعاصرة ، لا بد لهم من العيش في كنف أحد ؛ لذلك فعندما حاربنا « إسرائيل » في حرب أكتوبر ، انتصرنا عليهم إلى أن تدخلت أمريكا بشقلها العسكري . فقال رئيس الدولة المصري : « لا جَلْدُ لي أن أحارب أمريكا » .

إذن لو كانت الحرب بيننا وبينهم فقط لانتهت قوتهم ؛ فهم بلا عزة ذاتية ، وتكون لهم عزة لو كانوا في جانب حبل من الله ، أو حبل من الناس . يقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك : « وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » ولنا أن نلاحظ أن الذلة لها استثناء ، فهم يتلون العزة لو كانوا بجانب حبل من الله أو حبل من الناس ، أما المسكنة ، فلا استثناء فيها ، وقد قال الحق عنهم في موضع آخر في القرآن الكريم :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

( من الآية ٦١ سورة البقرة )

لأن المسكنة أمر ذاتي في النفس ، إنهم مساكين بأمر من الله ، أما الذلة فقد يأتي لهم من ينصرهم ويقف بجانبهم ؛ فالذلة أمر من خارج ، أما المسكنة فهي في ذاتيتهم ، وعندما تكون المسكنة ذاتية ، فلا إنقاذ لهم منها ؛ لأنه لا حبل من الله بأنهم فينجيهم منها ، ولا حبل من الناس يعصمهم من آثارها . ويقول الحق : « وباءوا بغضب من الله » وهل رأى أحد منا غضبا أكبر من أن الحق قد قطعهم في الأرض ؟ ولنقرأ قول الله :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ آمَمًا ﴾

( من الآية ١٦٨ سورة الأعراف )

المكان الوحيد الذي أوامهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الجزيرة العربية في يثرب ، واستقروا قليلا ، وصارت لهم سيادة علمية ؛ لأنهم أهل كتاب ، وصارت لهم سيادة اقتصادية ، وكذلك سيادة حربية ، وهذا المكان الذي أوامهم من الشتات في الأرض هو المكان نفسه الذي تمردوا عليه . لقد كان السبب الذي من أجله قد جاءوا إلى يثرب هو ما كانوا يجذبونه مكتوبا عندهم في التوراة ؛ ففى التوراة

جاء ما يفيد أن نبيا سيأتي في هذا المكان ولا بد أن يتبعوه كالميثاق الذي قلنا عليه من قبل :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ٨١ ﴾

(سورة آل عمران)

وهذا الميثاق يقضى بأن يتولى الرسل بلاغ الأمم التي يُبعثوا إليها ، وأن يُبلغ أهل الإيمان القادمين من بعدهم بأن هناك رسولا قادمًا من عند الله بالمنهج الكامل . واليهود - لم يأتوا إلى يثرب إلا أهل أمل أن يتلقفوا النبي المنتظر ليؤمنوا به ، ومن بعد ذلك يكونون حربا على الكافرين بالله ، لكن ما الذي حدث ؟ إنه سبحانه يخبرنا بما حدث منهم في قوله :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۖ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فماذا بعد أن بادوا بغضب من الله . وبعد أن ختم الله قلوبهم بالمسكنة ؟ وما السبب ؟ تكون الإجابة من الحق سبحانه : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق » لقد أرسل الله لهم آيات عجيبة ولكنهم كفروا بها ، تلك الآيات التي جاءنا ذكر منها في قوله الحق :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَآتَيْنَاكُمْ مِّنَ الْغَمَامِ مَاءً يَّسْرًا ٥٧ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة البقرة)

كثير من الآيات أرسلها الحق لبنى إسرائيل ، منها ما جاء في قوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَّأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٥٨ ﴾

(سورة البقرة)

ولكنهم تولوا عن الإيمان وأمامهم ضرب موسى عليه السلام الحجر بالعصا فانفجرت منه عيون المياه ليشربوا .

﴿ وَإِذْ أَسْنَقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ قُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشَرَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

وبرغم ذلك فقد قاموا بقتل الأنبياء بغير حق . وادعوا الكذب على أنبيائهم وقتلوهم ، وفي شأنهم يقول الحق : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ، كَانَ الْعَصِيَانِ سَبِيًّا لَّأَن تَضْرِبَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ ، وَأَن يَبْوءُوا بَغْضَبٍ مِنَ اللَّهِ ، وَأَن تَضْرِبَ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، وَكُلَّ ذَلِكَ نَاشِئٌ مِنْ فَعْلِهِمْ . وهناك فرق بين أن يبداهم الله بفعل ، وبين أن يعاقبهم الله على فعل ، وحق نفهم ذلك فلنقرأ قوله الحق :

﴿ فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّيقِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ ﴾

(سورة النساء)

لقد حرم الله عليهم الطيبات بظلم منهم لأنفسهم ، لأن معنى تحريم الطيبات أن الله حرمهم متعة في طيب ، وذلك لأنهم استحلوا متعة في غير طيب ؛ لأن مرادات الشارع تأتي على عكس مرادات الخارجيين عن أمر الشارع . وكما قلنا من قبل : إِنَّ الْحَقَّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُورِخُ لِلْحَقِّ وَلِلْوَاقِعِ وَلَا يَشْمَلُهُمْ كُلُّهُمْ بِحَدِيثٍ يَجْمَعُهُمْ جَمِيعًا ، فَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ أَنَاسٌ تَرَاوَدَّهُمْ فِكْرَةُ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ ، وَفِكْرَةُ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ فَعَلًا ؛ لِذَلِكَ كَانَ مِنْ عَدَلِ اللَّهِ أَنْ يَفْصَلَ بَيْنَ الَّذِينَ يَفْكُرُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالْمَصْرِينَ عَلَى الْكُفْرِ . لِذَلِكَ يَقُولُ سُبْحَانَهُ :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ  
آيَاتِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ أَلَيَّلٍ وَهُمْ يُسْجَدُونَ ﴾

وهذا ما حدث بالفعل ، لكن أى آيات الله كانوا يتلونها ؟ إنها الآيات المهمة ، آيات القرآن ولماذا يقول الحق : « وهم يسجدون » وهل هناك قراءة للقرآن ساعة السجود ؟ حتى نعرف تفسير ذلك لابد لنا أن نعرف أن اليهود لا يصلون العتمة ، أى الصلاة فى الليل ، وحتى يعطيهم الله السمة الإسلامية قال عنهم : « يسجدون » ويُعرفهم بأنهم يقيمون صلاة العتمة ، - العشاء - وهى صلاة المسلمين ، وماداموا يصلون صلوات المسلمين ويسجدون ، إذن فهم مسلمون أو نفهم من قوله : « وهم يسجدون » أن الصلاة عنوان الخضوع ، والسجود أقوى سمات الخضوع فى الصلاة . وماداموا يصلون فلا بد أنهم يتلون آيات الله أثناء الليل وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل . ونعرف أن من حسن العبادة فى الإسلام ، ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلا ، وصلاة التهجد ، وهذه فى مدارج العملية الإيمانية التى يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .

وه أثناء « جمع » إلى « مثلها مثل » أمعاء « جمع » معنى « . وه الأثناء » هى مجموع الأوقات فى الليل ، وليست فى « إلى » واحد . فهناك مؤمن يقرأ القرآن فى وقت من الليل ، ومؤمن آخر يقرأ القرآن فى وقت آخر ، وكان المؤمن يقطعون الليل فى قراءة للقرآن ، والذى يدخل مع ربه فى مقام الإحسان ، فهو لا يصل فقط صلاة العتمة وهى ستأخذ « إلى » واحدا ، أى وقتا واحدا ، ولكنه عندما يصل فى أثناء الليل فذلك دليل على أنه يكرر الصلاة ، وزاد عن المفترض عليه ، ومادام قد زاد عن المفترض ، فهو لا يكتفى بتلاوة القرآن لأنه يريد أن يدخل فى مقام الإحسان ، أى أنه وجد ربه أهلا لأن يصل له أكثر مما افترض عليه ، كأنه قد قال لنفسه : أنت كلفتني يارب بخمس صلوات لكنك يارب تستحق أكثر من ذلك وكان هذا البعض من أهل الكتاب لم يكتفوا بإعلان الإيمان بالإسلام فقط ، ولكنهم دخلوا بثقلهم ، فصلوا أثناء الليل . وأحبوا أن ينطبق عليهم قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٥﴾ خَالِدِينَ مَا أَرَادَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ما معنى « محسن » ؟ إنها وصف للإنسان الذى آمن بربه فعبد الله بأكثر مما افترض

تعبدا لله بخمس صلوات فنزيدها لتصل إلى عشرين مثلاً ، ونحن تعبدا لله بصيام شهر في العام ومنا من يصوم في كل شهر عددا من الأيام .  
العام ومنا من يصوم في كل شهر عددا من الأيام .

وتعبدا بالزكاة بالنصاب ، ومنا من يزيد على النصاب ، وتعبدا سبحانه بالحج مرة ، ومنا من يزيد عدد مرات الحج . فحين يريد العبد أن يدخل في مقام الإحسان فبابه هو أداء عبادات من جنس ما تعبده الله به ، فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التي يعبد بها الله ، ولكنه يزيد فيها افترضه الله . وهؤلاء الذين آمنوا بالله من أهل الكتاب ويتحدث عنهم القرآن ، لقد دخلوا بثقلهم في الإسلام فصلوا آناء الليل وقرأوا القرآن ، ودخلوا مقام الإحسان ، وأرادوا أن يطبقوا القول الحق :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١٧)

( سورة النازعات )

أى أنهم ماداموا قد صلوا في الليل ، وقليل ما هجموا فلا بد أنهم قد أدوا الصلاة في آناء كثيرة من الليل . ونحن حين ندخل في مقام الإحسان ونصل في الليل ، ونكون بارزين إلى السماء فلا يفصلنا شيء عنها وننظر فنجد نجوما لامعة تحت السماء الدنيا ، وأهل السماء ينظرون للأرض فيجدون مثلما نجد من النجوم المتلألئة اللامعة في الأرض ، ويسألون عنها فيقال لهم : إنها البيوت التي يصل أهلها آناء الليل وهم يسجدون ، وكل بيت فيه هذا يضيء كالنجوم لأهل السماء . ويضيف الحق في صفات هؤلاء : « وبالأسحار هم يستغفرون » وهل فرض الله على خلقه بأن يصلوا آناء الليل فلا يهجمون إلا قليلا من الليل ؟ لا ، ولكن من يريد أن يدخل في مقام الإحسان ، فهو يفعل ذلك . أما المسلم العادي فيكتفى بصلاة العشاء ، وعندما يأتي الصبح فهو يؤدي الفريضة . لكن من يدخل في مقام الإحسان فقليل من الليل ما يهجم . وينطبق عليه القول الحق :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَّا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُجْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِلَّا أَتَاهُمْ سَفَرٌ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

( سورة النازعات )

وهذه دقة البيان القرآن التي توضح مقام الإحسان ، فيكون في ما لهم حق للسائل والمحروم ، وليس هناك قدر معلوم للمال الذي يخرج ، لأن المقام هنا مقام الإحسان الذي يعلو مقام الإيمان ، ومقام الإيمان - كما نعرف - قد جاء ذكره في قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۖ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۖ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيِّنَاتٍ ۖ ﴾ (٢٦)

( سورة الماعز )

فالإنسان في مقام الإيمان قد يقيد الإخراج من ماله بحدود الزكاة أو فوقها قليلا ، لكن في مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال . وهكذا نعرف أن أهل الكتاب ليسوا سواء ؛ فمنهم من دخل الإسلام من باب الإحسان ، فقال فيهم الحق : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » ، وكان الحق بهذا الاستثناء الواضح . يؤكد لنا أننا لا يصح أن نظن أن أهل الكتاب جميعهم هم الذين جاء فيهم قوله : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » لا ؛ فأهل الكتاب ليسوا سواء ، ولذلك لا يكون حكم الله منسحبا عليهم جميعا ، فمن أهل الكتاب جماعة قائمة بتلاوة القرآن آناء الليل وهم يسجدون ، إنهم أمة قائمة ، وكلمة « قائم » هي ضد « قاعد » ، والقعود غير الجلوس ، فالجلوس يكون عن الاضطجاع فيقال : كان مضطجعا فجلس .

لكن عندما نقول : « كان قائما » فإننا نقول فقعد ، فالقعود يكون بعد القيام . والقعود في الصلاة مريح ، أما القيام فهو غير مريح ، ونحن نعرف أن الرسول صل الله عليه وسلم كان يقف في الصلاة حتى تتورم قدماء ؛ لأن الثقل كله على القدمين ، ولكن عندما نقعد فنحن نوزع الثقل على جملة أعضاء الجسم . وعندما يصفهم الحق : « من أهل الكتاب أمة قائمة » فمعنى ذلك أنهم أخذوا أمانة أداء الفروض بكل إخلاص ، وكانوا يؤدون الصلاة باستدامة وخشوع . ويستمر الحق في وصفهم في الآية التالية :

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

## بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣١﴾

وهم بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إنما يتصفون بالصفات التي أوردها الله صفة لخير أمة أخرجت للناس وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم . لقد دخل هذا البعض من أهل الكتاب بثقلهم - ومن أول الأمر - في مقام الإحسان ، وماداموا قد دخلوا في مقام الإحسان فهم بحق كانوا مستشرفين لظهور النبي الجديد . وبمجرد أن جاء النبي الجديد تلقفوا الحيط وآمنوا برسالته ، وصاروا من خير أمة أخرجت للناس . ويكمل الحق سبحانه صفاتهم بقوله : « ويسارعون في الخيرات » وهذا كمثل قوله سبحانه وتعالى في حق المؤمنين :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ

لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٢﴾

(سورة آل عمران)

ونحن نعرف أن هناك فرقاً بين « السرعة » و« العجلة » و« السرعة » و« العجلة » يلتقيان في تقليل الزمن بالنسبة للحدث ، ومثال ذلك أن يقطع إنسان المسافة من مكان إلى مكان في زمن معين ، والذي يسرع في قطع المسافة هو الذي يستغرق من الزمن أقل وقت ممكن ولكن هناك اختلاف بين السرعة والعجلة ، وأول خلافاً بينهما يتضح في المقابل ، فمقابل السرعة الإبطاء ، ويقال : فلان أسرع ، وعلان أبطأ ومقابل العجلة هو « الأناة » فيقال : فلان تأن في اتخاذ قراره . فالسرعة ممدوحة ومقابلها وهو « الإبطاء » مذموم ، « والعجلة » مذمومة ، ومقابلها وهو التأن ممدوح ، لأن السرعة هي التقدم فيما ينبغي التقدم فيه ، والعجلة هي التقدم فيما لا ينبغي التقدم فيه ، ولذلك قيل في الأمثال : « في العجلة الندامة ، وفي التأن السلامة » وقال الحق :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)



وهو سبحانه : هنا يقول « ويسارعون في الخيرات » أى كلها لمحت لهم بارقة في الخير فهم يسرعون إليها ، أى أنهم يتقدمون فيها ينبغى التقدم فيه ، إنهم يعلمون أن الإسراع إلى الخير حدث ، وكل حدث يقتضى حركة ، والحركة تقتضى متحركا ، والمتحرك يقتضى حياة ، فما الذى بضمن للإنسان أن تظل له حياة ، لذلك يجب أن تسرع إلى الخيرات ، وسيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وأرضاه كان يتنام القيلولة ، وكان حاجبه يمنع الناس من إيقاظ الخليفة ، فجاء ابن عمر بن عبدالعزيز وقال للحاجب :

أريد أن أدخل على أمير المؤمنين الساعة ، فمنعه الحاجب قائلا : إنها ساعة يستريح فيها وهو لا يستريح من الليل أو النهار إلا فيها ، فدعه ليستريح . وسمع سيدنا عمر بن عبدالعزيز الضجة ، فسأل الحاجب . قال الحاجب : إنه ابنك ، ويريد أن يدخل عليك وأنا أطلبه ألا يدخل حتى تستريح . قال عمر بن عبدالعزيز للحاجب : دعه يدخل . فلما دخل الابن على أبيه ، قال الابن : يا أبى بلغنى أنك ستخرج ضيعة كذا لتقفها في سبيل الله . قال عمر بن عبدالعزيز : أفعل إن شاء الله . غدا نبرمها . قال الابن متسائلا : هل يبيحك الله إلى غد ؟ فقال عمر بن عبدالعزيز وهو يكي : الحمد لله الذى جعل من أولادى من يعينى على الخير .

لقد أراد الابن من أبيه أن يسارع إلى الخير ، فهاضمت هبة الخير قد هبت عليه فعل الإنسان أن يأخذ بها ، لأن الإنسان لا يدري أغيار الأحداث في نفسه ، لذلك فعليه أن يسارع إلى اقتناص هبة الخير ، وما هو ذا ابن عمر بن عبدالعزيز يعين والده على الخير ، لكننا في زماننا قد نجد من الأبناء من يطلب الحُجر على أبيه إن فكر الأب في فعل الخير ، متناسين قول الحق : « ويسارعون في الخيرات ولولئك من الصالحين » .

وهنا يبرز سؤال هو : لأى عمل هم صالحون ؟

والإجابة تقتضى قليلا من التأمل . إننا نقول في حياتنا : « إن فلانا رجل صالح » ومقابله « رجل طالح » . والإنسان صالح للخلافة ، فقد جعل الله آدم وذريته خلفاء في الأرض ، والرجل الصالح يرى الشيء الصالح في ذاته فيترك هذا الشيء على ما هو عليه أو يزيده صلاحا . أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشيء الصالح ليفسده ، ولا يفعل صلاحا .

إن الرجل - على سبيل المثال - قد يجد بثرا يأخذ منه الناس الماء ، فإن لم يكن من أهل العزم فإنه يتركه على حاله . وإن كان طالحا فقد يردم البثر بالتراب . أما إن كان الرجل من أهل الصلاح والعزم فهو يحاول أن يبدع في خدمة الناس التي تستقى من البثر ، فيفكر لبنى خزانة عاليا ويسحب الماء من البثر بألة رافعة ، ويخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت ، فيأخذ الناس المياه وهم في المنازل ، إن هذا الرجل قد استخدم فكره في زيادة صلاح البثر .

إذن فكلمة « رجل صالح » تعنى أنه صالح لأن يكون خليفة في الأرض وصالح لاستعمار الأرض أى أن يجعلها عامرة ، فيترك الصالح في ذاته ، أو يزيد صلاحا ، ويحاول أن يصلح أى أمر غير صالح . الرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أن يجعل عمله عن عمق علم ، فلا يقدم على العمل الذى يعطى سطحية نفع ثم يسبب الضرر من بعد ذلك .

ومثال ذلك حين اخترعوا المبيدات الحشرية ظنوا أنهم تغلبوا على الآفات في الزراعة ، لكنهم لم يعرفوا أنهم قد أضروا بالزراعة وبالبينة أكثر مما أفادوا ، لذلك عادوا يقولون : لا تستعملوا هذه المبيدات ، لأنها ذات أضرار جمة ؟ ولهذا لا بد أن يكون كل عمل قائما على قواعد علمية سليمة ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُورًا ٥١ ﴾

(سورة الإسراء)

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ٥٢ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ٥٣ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد أكرم الله من آمن من أهل الكتاب فوصفهم الوصف الحقيقي ، فهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ، ثم يحكم الحق عليهم حكما عاما بأنهم من الصالحين لعمارة الكون والخلافة في الأرض .

ومن بعد ذلك يضيف الحق :

﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ  
عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ ١١٥

إنه سبحانه يعطيهم الجزاء العادل ، وإن شيئا لا يضيع عنده وهو الحق ، فالخير الذى يفعلونه لن يُحمد لهم أو يُستر عن الناس ، لأنه سبحانه عليم بالمتقين ، فمن الجائز أن يصنع إنسان الأعمال ولا يراها أحد ، أما الحق فهو يرى كل عمل ، وهو الذى يملك حسن الجزاء . وبعد ذلك يعود الحق لبيان حال الذين كفروا فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا  
أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ  
فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ ١١٦

يظن الكافرون أن الأموال والأولاد قد تغني عن الله ، إنهم لا يحسنون التدبير ، فالأموال والأولاد هما من مظان الفتنة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ١٧٨

(سورة الأنفال)

ومادامت الأموال والأولاد فتنة فلا بد أن نفهم الأمر على حقيقته ؛ فالفتنة ليست مذمومة في ذاتها ؛ لأن معناها اختبار وامتحان ، وقد يمر الإنسان بالفتنة ، وينجح .

كان يكون عنده الأموال والأولاد ، وهم فتنة بالفعل فلا يفره المال بل إنه استعمله في الخير ، والأولاد لم يهيبوه بالفرور بل علمهم حمل منج الله وجعلهم ينشأون على النماذج السلوكية في الدين ، لذلك فساعة يسمع الإنسان أى أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيء بل عليه أن يتذكر أن الفتنة هي اختبار وابتلاء وامتحان ، وعلى الإنسان أن ينجح مع هذه الفتنة ، فالفتنة إنما تضر من يخفق ويضعف عند مواجهتها . والكافرون لا ينجحون في فتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتى يوم لا يملكون فيه هذا المال ، ولا أولئك الأولاد ، وحتى إن ملكوا المال فلن يشتروا به في الآخرة شيئاً ، وسيكون كل واحد من أولادهم مشغولاً بنفسه ، مصداقاً لقول الحق :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَارْجِعُوا إِلَيْهِ يُعْطِي السَّعْيَ أَجْرَهُ وَلَا تَتَّبِعُوا الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ الَّذِينَ خَلَقُوا مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَاللَّهُ يَرْجِعُ السَّعْيَ أَجْرَهُ ﴾

(سورة لقمان)

إن كل امرئ له يوم القيامة شأن يلعبه عن الآخرين ، والكافرون في الدنيا مشغولون بأمورهم وأولادهم وعندما تأمل قوله : « لن تغنى عنهم » نجد أننا نقول : أغناه عن كذا أى جعله في استغناء فمن هو الغنى إذن ؟ الغنى هو من تكون له ذاتية غير محتاجة إلى غيره ، فإن كان جائعاً فهو لا يأكل من يد الغير ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » (١) .

والمقصود بالعرض هو متاع الحياة الدنيا قل أو كثر ، ومتاع ، وعرض الدنيا كالماء المالح ، كلما شربت منه ازدادت ظمأ . إن الكافر من هؤلاء يخدع نفسه ويغشها ، ويغتر بالمال والأولاد وينسى أن الحياة تسير بأمر من يملك الملك كله ، إن الكافر يأخذ مسألة الحياة في غير موقعها ، فالفرور بالمال والأولاد في الحياة أمر خادع ، فالإنسان يستطيع أن يعيش الحياة بلا مال أو أولاد . ومن يغتر بالمال أو الأولاد في الحياة يأتى يوم القيامة ويحمد أمواله وأولاده حسرة عليه ، لماذا ؟ لأنه كلما تذكر أن المال والأولاد أبعداه عما يؤمله لهذا الموقف فهو يعاني من الأسى ويقع في الحسرة .

(١) رواه أحمد في المسند ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى وابن ماجه عن أبي هريرة .

ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله : « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وهذا مصير يليق بمن يقع في خديعة نفسه بالمال أو الأولاد . وكيف يكون الإنسان صاحباً للنار ؟ لنعرف أولاً معنى كلمة « صاحب » ، إن صاحب هو الملازم ، فنحن نقول : فلان صاحب فلان أى ملازمه ، لكن من أين تبدأ الصحبة ؟ إن الذى يبدأ الصحبة هو « فلان » الأول . له فلان الثانى « الذى يقبل الصحبة أو يرفضها » وهذا أمر قد نعرفه وقد لا نعرفه ، وعن الصحبة مع النار نرى أن الإنسان يلوم نفسه ويؤنبها على أنه اختار النار وصاحبها .

السنا نرى في الحياة إنساناً قد ارتكب ذنباً وأصابه ضرر ، فيضرب نفسه ويقول : أنا الذى استأهل ما نزل بي واستحقه ، وكذلك الإنسان الكافر يهد نفسه يوم القيامة ، وهو يدخل النار ، ويقول لنفسه : أنا أستحق ما فعلته بنفسي ، وتقول النار لحظتها رداً على سؤال الحق لها :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ٢٠ ﴾

(سورة ق)

وفي الآخرة نرى أبعاض الإنسان الكافر وهي تبغض صاحبها ، فإذا كان للإنسان ولاية على أبعاضه في الدنيا ، وهي خاضعة لإرادته إلا أن هذه الأبعاض تأتى يوم القيامة وصاحبها خاضع لإرادتها . إن الظالم يقول ليده في الدنيا ، « اضربى فلانا وشددى الصفعة » فلم تعصه يده في الدنيا ، لأن الله خلقها خاضعة لإرادته ، والظالم لنفسه بالكفر يأمر لسانه أن ينطق كلمة الكفر ، فلا يعصاه اللسان في الدنيا ، لماذا ؟ لأن أبعاضه خاضعة لإرادته في الحياة الدنيا ، لكن ذلك الكافر يأتى يوم القيامة وتنزع عنه إرادته ، فتحرر أبعاضه ، ولا تكون مرغمة على أن تفعل الأفعال التى لا ترضيها . وتتمرد الأبعاض على صاحبها ، وتشهد عليه . قد يقول قائل : ولكن الأبعاض هي التى تتعذب . نعم ، ولكنها تقبل العذاب تكفيراً عما فعلت .

إذن فالصحبة تبدأ من الأبعاض للنار « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فإن رأينا كفاراً يعملون خيراً في الدنيا فليحذر كل منا نفسه قائلاً : إياك يا نفس أن

تتخذعى بذلك الخير . لماذا ؟ لأن الكافر يعيش كفر القمعة ، وكل عمل مع كفر القمعة هو عمل حابط عند الله ، وإن كان غير حابط عند الناس . وبعد ذلك يقول الحق عن هؤلاء الكافرين :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

إن الحق يصف ما ينفقه هؤلاء الكافرون في أثناء الحياة الدنيا وهم بعيدون عن منج الله إنه - سبحانه - يشبهه بريح فيها صر ، أى شدة ، فهادة ، البصاد والراء ، تدل على الشدة والضجة والصخب ، ومثال ذلك ما قاله الحق عن امرأة إبراهيم :

﴿ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾

( سورة الذاريات )

إنها أنت وجاءت بضجيج ، لأنها عجوز وعقيم ويستحيل عادة أن تلد . ومثل قوله الحق :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾

( سورة الحاقة )

والرياح الصرصر هى التى تحمل الصفيع ولها صوت مسموع .

رقوله الحق : « كمثل ريح فيها صر » أى أن الريح جعلت البرد شائعا وشديدا ، فالبرد قد يكون فى منطقة لا ريح فيها ، ويظل باقيا فى منطقته تلك ، وعندما تأتى

الرياح فإنها تنقل هذا البرد من مكان إلى مكان آخر ، فتتسع دائرة الضرر به . وماذا تفعل الرياح التي فيها شدة برد ؟ إنها تفعل الكوارث ، ويقول عنها الحق : « أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته » وساعة نسمع كلمة « حرث » فنحن نعرف أنه الزرع ، وقد ساء الله حرثا ، ليعرف الإنسان إنه إن لم يحرث فلن يحصل ، يقول الحق :

﴿ أَقْرَبُكُمْ مَّا حَرُّوا ۖ ۝ أَلَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۖ ۝ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ

حُطَمَا فَظَلْتُمْ تَفْكَهُونَ ۖ ۝ ﴾

( سورة الواقعة )

كان الرياح العارمة تفسد الحرث ، وهو العملية اللازمة للإنبات ؛ فالحرث إثارة للأرض ، أي جعل الأرض هشة لتنمو فيها الجذور البسيطة ، وتقوى على اختراقها ، وأخذ الغذاء منها ، وهذه الجذور تستطيع - أيضا - من خلال هشاشة الأرض المحروثة أن تأخذ الهواء اللازم للإنبات .

إن الحق سبحانه يريد أن يضرب لنا المثل وهو عن جماعة غير مؤمنين أنفقوا أموالهم في الخير ، لكن ذلك لا ينفعهم ولا جدوى منه . مصداقا لقوله تعالى : « كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » وهكذا يكون مصير الإنفاق على نية غير مؤمنة ، كهيئة الحرث الذي هبت عليه ريح فيها صوت شديد مصحوب ببرد ، فالـ « صر » فيه الشدة والبرودة والعنف ، وحاتم الطائي كريم العرب يقول لعبده :

أوقد ؛ فإن الليل ليل قر  
والريح يا غلام ريح صر  
غل يرى تارك من يمر  
إن جلبت ضيفا فانت حر

إن هذا الرجل الكريم يطلق سراح العبد إذا ما هدى ضيفا إلى منزل حاتم الطائي . « والليل القر » : هو الليل الشديد البرودة . « والريح الصر » : هي

الرياح الشديدة المصحوبة بالبرد . ونعرف في قرآننا أن الصفيح ينزل على بعض المزروعات ، فيتلفها . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه قد جاء بهذه الآية الكريمة بعد أن أوضح لنا في الآية السابقة عليها أن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا ومصيرهم النار ، وهو سبحانه يدفع أى شبهة تطرأ على السامع ، وهي أن هذه الأموال التى أنفقها الكافرون لعمل الخير ، لن تغنى عنهم شيئا فى الآخرة ؛ لأنهم لا يملكونها . لماذا ؟

لأن العمل إنما يراد للثواب عليه ، والنية دائما هى التى تحدد الهدف من كل حركة . . فهل كان فى نية الكفار حين أنفقوا أموالهم فى الخير الذى يعلمه الناس كالمساعدات ، وتفريج الكرب ، وإنشاء المستشفيات هل كان فى بال هؤلاء الكفار ربُّ هذه النعم ، أو كانوا يعملونها طمعا فى جاه الدنيا ، وتقدير التاريخ وذكر الإنسانية ؟

لاشك أنهم كانوا يعملونها للجاه ، أو للتاريخ ، أو للإنسانية ؛ لأنهم لا يؤمنون بما وراء ذلك ، فهم لا يؤمنون بوجود إله ، ولا يؤمنون بوجود يوم آخر يحاسبون فيه على ما قدموا . وقلنا من قبل : إن الذى يعمل عملا فليطلب أجره من عمل له ، وماداموا قد عملوا للدنيا وذكرها ، وجاهاها ، والفخر فيها ، فقد أعطتهم الدنيا كل شيء .

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلا ، وهو الذى يضرب الأمثال للناس لعلمهم يتذكرون . ومعنى المثل : أن يأتى إلى أمر معنوى قد يغيب عن بعض العقول فهمه ، فيشخصه ويمثله بأمر حسى يعرفه الجميع ، ونحن نعرف أن المحسّات هى أصل المعنويات فى الفهم . ونعرف أن الطفل أول ما تتفتح إدراكاته يدرك الشيء المحسّ أولا ، ثم بعد ذلك يكوّن من المحسّات المعقولات .

فالطفل - على سبيل المثال - يرى نارا فيمسكها فتحرقه ، فيتكون عند الطفل اقتناع بأن النار محرقة . ويشرب الطفل حسلا ، فيجده حلوا ، فيتكون عنده اقتناع بأن الحسل حلو الطعم ، ويأكل الطفل شيئا مرا كالحنظل ، فتتكون عنده قضية معلومة وهى أن هذا الشيء مر الطعم ، فكل المعلومات التى يعرفها الإنسان بوسائل



إدراكه المتعددة إنما تأتي من الأمور المحسة أولاً .

والأمور المحسة - كما علمنا - وسائلها الحواس الخمس الظاهرة ، وهي : العين لترى ، والأذن لتسمع ، والأنف ليشم ، واللسان ليزوق ، والأنامل لتلمس ، وهكذا نعرف أن كل حاسة ظاهرة لها غاية في الإدراك . والإنسان يتمتع بحواس أخرى ندرك أفعالها ، ولكننا لا ندرك أجهزتها أو آلاتها .

مثال ذلك : حاسة البعد وهي أن يعرف الإنسان هل الشيء الذي يراه قريب منه أو بعيد عنه ؟ وكذلك حاسة الثقل فيحمل الإنسان الشيء فيعرف مدى ثقله ، إنه يدرك ذلك الثقل بحاسة غير الحواس الخمس الظاهرة ، هذه الحاسة هي حاسة الثقل يكشف بها الإنسان أن شيئاً أثقل من شيء آخر ، ذلك أن العضلات التي تحمل الشيء تعرف قدر الجهد المبذول في الحمل . وهناك حاسة أخرى غير ظاهرة هي حاسة « البين » فيمسك الإنسان القماش بأنامله ليعرف هل سمك هذا القماش أكبر من سمك قماش آخر ؟ ولمعرفة سمك الشيء لا بد أن يكون واقفاً بين لامين . إذن فهناك حواس كثيرة تربي المعاني عندنا ؛ فكل الإدراكات بنت الحس ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاللَّهُ أَتَرَجِّحُكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨)

(سورة النحل)

هذه هي الوسائل للإدراك ، وقد أورد سبحانه السمع والأبصار أولاً لأنها الوسيلتان الأساسيتان ، وأورد من بعد ذلك « الأفئدة » وهي المختصة بالمعاني والقلبيات وغيرها ، فإذا أراد الله أن يضرب مثلاً في أمر معنوي قد تختلف فيه العقول فهو سبحانه يأتي بأمر حسيّ تتفق فيه الحواس . ونعلم أن في اللغة أمراً اسمه « التشبيه » ، فعندما يجهل إنسان شيئاً يقول لمعلمه : شبه لي الأمر الذي أجهله بأمر أعرفه . والإنسان منا قد يسأل صاحبه : أتعرف فلاناً ؟ فيقول الصاحب : لا أعرفه ، فيقول الإنسان منا لصاحبه : إن فلاناً الذي لا تعرفه يساوى فلاناً في الطول ، ويساوى فلاناً في اللون . وهكذا ينتقل الإنسان من أمر

لا يعرفه إلى أمر يعرفه . والحق سبحانه يضرب لنا المثل بالأمور الحسية ، لفهم الأمور المعنوية ، والله يوضح لنا أن الذين كفروا ساعة تكون لهم آلهة متعددة فملكاتهم تصاب بالاضطراب يقول - سبحانه - :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا  
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٥ ﴾

( سورة الزمر )

إنه سبحانه يوضح لنا بالمثل الواضح مصير وحال رجل مملوك لعدد من الشركاء ، والشركاء الذين يملكون هذا العبد ليسوا متفقين ، بل بينهم نزاع وشقاق ، وبطبيعة الحال لا بد أن يكون هذا العبد مرهقا ، وهكذا تكون قضية الشرك بالله ، إن العبد في مثل هذه الحالة يكون مُشتتا وموزع النفس بين الذين يملكونه وهم متشاكسون ، أما قضية التوحيد فالحق يشبهها بالقول : « ورجلا سلما لرجل » .

وهكذا ينقلنا الحق سبحانه - رحمة بنا - من المعنى العقدي العالي إلى معنى محس من الجميع ، لترى أن الرجل المملوك لسيد واحد يتلقى أوامره من واحد فقط ، وكذلك يريد الله في هذه الآية أن يضرب مثلا لمن ينفق شيئا على غير نية إرضاء الله في طاعته ، فمهما أنفق هذا الإنسان فإن إنفاقه حابط . ونحن عندما نقرأ أمثال القرآن الكريم علينا ألا نأخذ جزئية فقط ، لا ، لكن يجب أن نأخذ الجملة كلها لفهم المثل كله كصورة مؤتلفة مثلما ضرب الله لنا مثلا بالشركاء المتشاكسين الذين يملكون رجلا ، فعلينا إذن ألا نأخذ المثل بحرفيته ، ولكن نأخذ الأمر بمجموع المثل . مثال آخر ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْطَلَتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ  
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ١٦ ﴾

( سورة الكهف )

فهل الحياة الدنيا كالماء ؟ لا ، ولكن قصة الحياة كلها ، تشبه القصة التي يضربها الحق كمثال ، الماء حين ينزل يختلط بالأرض ، وبعد ذلك تهتز ، فتعطى نباتا ، والنبات ينتج الزهر الجميل ، وبعد ذلك ينتهي إلى هشيم ، هكذا هي الدنيا في

زخرفتها ؛ فالبداية مزهرة ، فيها نضارة وخضرة وبهجة ، ونهاية مؤلة ومدمرة .

إذن فالحق سبحانه ينقل لنا معنى الحياة الدنيا ويشبهها بالأزهار والنبات ونهايته أن يصبح هشيما تذروه الرياح ، وهو ما يقوله في موضع آخر من القرآن الكريم .

﴿ فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

( من الآية ٢٤ سورة يونس )

وعندما نمعن النظر في قوله الحق :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۖ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١٧﴾

( سورة آل عمران )

نجد في هذه الآية « مشبها » و « مشبها به » ، المُشَبَّه هم القوم الذين ينفقون أموالهم بغير نية الله ، أى كافرون بالله ، والمُشَبَّه به : هو الزرع الذى أصابته الريح وفيها الصر ، والنتيجة أنه لا جدوى هنا ، ولا هناك .

ولماذا تصيب الريح حرث قوم ظلموا أنفسهم ، وهل لا تصيب الريح حرث قوم لم يظلموا أنفسهم ؟

إن الذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة ، مثلهم في ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧﴾

وَلَا يَسْتَنْشِئُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۝١٩﴾

﴿ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝٢٠﴾

( سورة القلم )

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلا لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك في الحياة ، والرجل الذي لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ، ويصبر على كارثته ، يأخذ الجزاء والثواب من الله ، ولعل الله قد أهلك بها مالا كانت الغفلة قد أدخلته في ماله من طريق غير مشروع .

هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء ، أو تكون تطهيرا للمال . أما الذي يتفق على غير نية الله وهو كافر ، فلا ثواب له .

ويذيل الحق الآية بقوله « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » فهو سبحانه لم يظلم الكافرين حين جعل نفقتهم بدون جدوى ولا حصيد لها عنده ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، لأنهم أنفقوا النفقة على غير هيئة القبول ، وهم الذين صنعوا ذلك عندما ظلموا أنفسهم بالكفر فحبطت أعمالهم ، وتلك هي عدالة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق من بعد ذلك :

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

حين يخاطب الله المؤمنين ويناديهم بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » فلتعلم أن ما يحىء بعد ذلك هو تكليف من الحق سبحانه . فساعة ينادى الحق المؤمنين به ، فإنه ينادى ليكلف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا من آمن به ، أما حين يدعو غير المؤمن به إلى رحاب الإيمان ، فإنه يثير فيه القدرة على التفكير ، فيقول له :

فكر في السماء ، فكر في الأرض ، فكر في مظاهر الكون ، حتى تؤمن أن للكون إلها واحدا . فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد ، فإن الحق سبحانه وتعالى يقول له مادمت قد آمنت بالإله الواحد ، فقل عن الإله الحكم .

إن الحق حين يقول : « يا أيها الذين آمنوا » فهو سبحانه يخاطب بالتكليف المؤمنين به ، وهو لا يكلف به « افعل » و « لا تفعل » إلا من آمن ، أما من لم يؤمن فيناديه الله ليدخل في حظيرة الإيمان : « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » فإذا ما دخل الإنسان في حظيرة الإيمان فالحق سبحانه وتعالى يكرم هذا المؤمن بالتكليف به « افعل » و « لا تفعل » ومادام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق ، القيوم ، فليسمع من الإله ما يصلح حياته . ويحيء في بعض الأحيان ما ظاهره أن الله ينادى مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان كقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » .

ويتساءل الإنسان كيف ينادى الله مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان ؟ وهنا نرى أن المطلوب من كل مؤمن أن يؤدي أفعال الإيمان دائما ويضيف لها ليستمر ركب الإيمان قويا ، فالحق حين يطلب من المؤمن أمرا موجودا فيه ؛ فلتعلم أن الله يريد من المؤمن الاستدامة على هذا اللون من السلوك الذي يحبه الله ، وكأن الحق حين يقول : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » إنما يحمل هذا القول الكريم أمرا بالاستدامة على الإيمان ، لأن البشر من الأغيار . ونحن نعرف أن الله أفسح بالاختيار مجالا لقوم آمنوا فارتدوا ، فليس الأمر مجرد إعلان الإيمان ثم تنتهي المسألة ، لا ، إن المطلوب هو استدامة الإيمان .

وحين نقرأ قول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » فلنفهم أن هناك تكليفا جديدا ، ومادام في الأمر تكليف فعنصر الاختيار موجود ، إذن فحيثية كل حكم تكليفي من الله له مقدمة هي : « يا أيها الذين آمنوا » ولا تبحث أيها المؤمن في علة الحكم ،

وتسأل : لماذا كلفتني يارب بهذا الأمر ؟ فليس من حقت أيها المؤمن أن تسأل :  
« لماذا » مادمت قد آمنت ؛ فالحق سبحانه لم يكلف إلا من آمن به ، فإذا كنت - أيها  
المؤمن - قد آمنت بأنه إنه صادق قادر حكيم فأمن الله على نفسك ، ونفذ مطلوب الله  
به « افعل » و « لا تفعل » سواء فهمت العلة أم لم تفهمها . وسبق أن ضربنا المثل  
ومازلنا نكرره .

إن المريض الذي يشكو من سوء الهضم بعد تناول الطعام يفكر أن جهازه  
الهضمي مصاب بعلّة ، ويفكر في اختيار الطبيب المعالج ويختار طبيباً متخصصاً في  
الجهاز الهضمي ، ويذهب إلى هذا الطبيب . وهنا ينتهي عمل العقل بالنسبة  
للمريض ؛ فقد اختار طبيباً وقرر الذهاب إليه ، والطبيب يجري الفحص الدقيق ،  
ويطلب التحاليل اللازمة إن احتاج الأمر ، ويشخص الداء ، ثم يكتب الدواء ،  
وحين يكتب الطبيب الدواء للمريض « فإن المريض لا يصح أن يقول للطبيب : لن  
أخذ هذا الدواء إلا إذا أقمتني بحكمته . بل عليه أن ينفذ كلام الطبيب ، وهكذا  
يطيع المريض الطبيب . وكلاهما مساوٍ للآخر في البشرية ، فكيف يكون أدب  
الإنسان مع خالفه ؟ إن كل عمل العقل عند المؤمن هو أن يؤمن بالله ، وبعد أن  
آمنت - أيها المؤمن - بالله حكيماً ، فتلق عن الله الحكم ؛ لأنه مأمون على أن يوجهك  
لأنك أنت صنعته .

إن الحق يأمر المؤمن بالصلاة ، وعلى المؤمن أن يؤديها ، ولا يبحث عن علة الصلاة كأنها  
رياضة مثلاً ، لا . إن الأمر صادر من الحق بالصلاة ، وحين تصل ، فإنك تلتفت  
إلى أن نفسك قد انشرفت بالصلاة وشعرت بالراحة ، فتقول لنفسك : ما أحل  
راحة الإيمان ؛ هذه هي علة الحكم الإيماني . إن علة الحكم الإيماني يعرفها المؤمن  
بعد أن ينفذه ، ولذلك نجد الحق من فضل كرمه ، يقولنا لنا :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

( من الآية ٢٨٢ سورة البقرة )

فأنت ساعية أن تتقى الله في الحكم ، يعطيك العلة ، ويعطيك راحة الإيمان ،  
إنك أيها العبد لا تسأل أولاً عن الاقتناع بالعلّة حتى تنفذ حكماً لله . لأن الحق

سبحانه قد يؤجل بعض حيثيات الأحكام لخلق قرونا طويلة ، ومثال ذلك أننا ظلمنا لا نعرف علة حكم من الأحكام لما أربعة عشر قرنا من الزمان مثل تحريم أكل لحم الخنزير ، فهل كان على العباد المؤمنين أن يؤجلوا أكل لحم الخنزير أربعة عشر قرنا إلى أن يمتلكوا معامل للتحليل حتى نعرف المضار التي فيه ؟ تلك المضار التي ثبتت معمليا . . لا .

إن العباد المؤمنين لم يؤجلوا تنفيذ الحكم ، ولكنهم نفذوه ، واكتشف أحفاد الأحفاد أن فيه ضررا ، وهذا يدفعنا إلى تنفيذ كل حكم لا نعرف له علة ، إن هذا الحكم له حكمة عند الله قد لا يستطيع عقل الإنسان أن يفهمها ، ولكن ستأتى أشياء توضح بعض الأحكام فيما لم يكن يعرفه الإنسان ، وتعطينا تلك الإيضاحات الثقة في كل حكم لا نعرف له علة ، ونصبح علة كل حكم هي : « يا أيها الذين آمنوا » .

إن الحق بهذا القول ينادى كل عبد من عباده : يا من آمنت بي إلهي خذ مني هذا التكليف . ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - عندما يقول الطبيب : يا من صدقت أنى طبيب لمرضك خذ هذا الدواء وستشفى بإذن الله .

وعندما يزور الإنسان مريضا ويسأله : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فالمرضى يجيب : لقد كتب الطبيب لي هذا الدواء ، فما بالك بتنفيذ أحكام الله ؟ إنه يجب أن ننفذها لأن الله قالها ، ولذلك فالعاقلون بعمق وجدية يختلفون عن مدعى العقل بسطحية ، هؤلاء العاقلون الجادون يقولون : إن هذا العقل مطية يوصلك إلى باب السلطان ولكن لا يدخل معك عليه . فكان العقل يوصلك إلى أن تؤمن بالله ، ولكنه لا يحشر نفسه فيما ليس له قدرة عليه .

إن الحق سبحانه في هذا التكليف القادم : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخلوا بطة من دونكم » أى إنكم مادمتم قد آمتتم ، فعليكم الحفاظ على هذا الإيمان بأن تبعدوا عنه نزع الشيطان وكيد الأعداء . إن نزع الشيطان وكيد الأعداء إنما يأتي من البطانة التي تتداخل مع الإنسان .

ولنفهم كلمة « بطة » جيدا ، إن بطة الرجل هم خاصته ، أى الناس الذين

يصاحبهم ويجلسون معه ويعرفون أسراره ، وكلمة « بطانة » مأخوذة أيضا من بطانة الثوب ؛ فنحن عندما نمسك أى قطعة من ثياب نرى أن الثوب خشن ، ولذلك فالصانع يضع للثوب الخشن بطانة ناعمة ويختارها كذلك ؛ لأنها متصلة بالجسم ، والبطانة من الأصدقاء تدخل على الناس بالنعومة وتسميهم وتستعبد لهم . ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « الأنصار شعار ، والناس دثار »<sup>(١)</sup> .

« والشعار » هو الثوب الذى يلامس شعر الجسد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يعلى من قيمة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية بمودة وحب . وهكذا نعرف أن كلمة « بطانة » مأخوذة - كما قلنا - من بطانة الثوب ، لأنها التى تلتصق بالجسم حتى تحميه ؛ فنحن نرتدى الصوف نعطينا الدفء ، ونضع بينه وبين الجسم بطانة لنبعد عن الجسم خشونة الصوف ، ويسمون البطانة بالوليعة ، أى التى تدخل فى حياة الناس ، وكل شر فى الوجود من هذه البطانة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معصوم وموحى إليه وله من الصحابة ما يطمح أى عبد مؤمن أن يتخذه قدوة له ، هذا الرسول الكريم نجد بعضا من وصفه فى حوار بين سيدنا الحسين رضوان الله عليه وأبيه سيدنا على كرم الله وجهه قال الحسين :

يا أبى قل لى عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
قال على كرم الله وجهه :

كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . وفى الحديث : « كان رسول الله يكثر الذكر »<sup>(٢)</sup> .

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمن كان قائما ففقد أدى حركة هى القعود ، ومن كان جالسا ففقد أدى حركة هى القيام . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الله فى كل حركة ، شاكرا نعمة الخالق عز وجل ، والإنسان منا يستطيع أن يسأل نفسه : كم عضلة يحركها الإنسان حتى يقعد أو يقوم ؟

( ١ ) رواه البخارى فى المغازى ، ورواه مسلم فى التزكية ، ورواه ابن ماجه فى المقدمة ، ورواه أحمد فى مستدرك .

( ٢ ) رواه النسائى فى الجمعة .



إنها أعداد كبيرة من العضلات تتحرك لتوازن ارتفاع الجسم أو جلوسه ، وهي أعداد لا يعرفها الإنسان . فما الذي جعل هذه الأجهزة الصماء تفهم مراد الإنسان ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القيام ، فإنه يقوم ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القعود ، فإنه يقعد ؟ إنك إذا رفعت يدك لا تعرف ما هي العضلات التي تتحرك لترفع اليد ، وتلك إدارة عالية يقول عنها الشاعر :

«وفيك انطوى العالم الأكبر»

كان العالم الكبير قد انطوى وصار في داخلك أنت . إنك إن أردت أن تنام فإنك تنام ، وتحب أن تقوم فتقوم . ويبين لك الحق أن أوامرك لعضلاتك وتحكمك في مملكة جسدك ، هي من تسخير الله ؛ تدرك ذلك حين تنظر حولك فتجد أنه سبحانه قد سلب أحدا غيرك القدرة على رفع الذراع . وإياك أن تظن أن الحركة قد واثقت لمجرد أن لك يدا ، لا ، إن غيرك قد تكون له يد ؛ ولكنه لا يستطيع أن يأمرها فتتحرك . وهكذا نعرف أن كل الإرادات في النفس إنما تتحرك بتسخير الحق لها لخدمة الإنسان .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا استيقظ أحدكم فليقل : الحمد لله الذي ردّ على روعي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره » (١) .

انه يُوجه الإنسان إلى ذكر خالقه عند كل قيام أو قعود ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أن نذكر الذي خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة .

وليسأل كل منا نفسه : كم حركة يتطلبها أمر من الإنسان بأن يحك ظهره مثلا ؟ إنه عند غير معروف من الحركات . وهكذا علينا أن نحسن الأدب مع الله بأن نذكره في كل حركة فهو الذي خلق كل إنسان منا صالحا لكل هذه القدرات .

ونعود إلى وصف على كرم الله وجهه مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم : كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر .

ولتنبه إلى دقة الرسول في التعامل مع البطانة من البشر ، فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها . ويوطن المكان ، أى أن يخصص مكانا لفلان ليجلس فيه ، لقد كان الرسول يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته ، فلا أحد يجلس دالما بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة ؛ فكلهم سواسية ونحن نرى في عصرنا أن هناك من يتخذ لنفسه مكانا في المسجد ، وهذا منهى عنه . فعن ابن عمرو رضى الله عنها قال : ( نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقرة الغراب وافتراش السبع وأن يوطن الرجل المكان في المسجد كما يوطن البعير <sup>(١)</sup> .

ويضيف على كرم الله وجهه في وصف مجلس رسول الله : وكان إذا ذهب إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، « وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ، يعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك » <sup>(٢)</sup> .

أهناك أدب أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهى به المجلس ، لقد أراد أن يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ؛ فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب مؤمن من مكان بعيد ، وغدا يجلس كلاهما بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

ويقول على كرم الله وجهه : وكان رسول الله يعطى كل جلسائه نصيبهم من مجلسه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعطى نظرة لواحد ، فهو ينظر كذلك لكل

( ١ ) رواه أحمد وأبو داود والنسائي في الصلاة والنهي عن نقرة الغراب أى تخفيف السجود بقدر وضع الغراب منقاره ،

وافتراش السبع : هو بسط الذراعين في السجود وعدم رفعهما ، وأن يوطن المكان : أى يلازمه فلا يهمل في غيره .

( ٢ ) رواه الطبراني

واحد في مجلسه ، وإن تكلم كلمة إلى ناحية فهو يعطى كلمة أخرى إلى الناحية المقابلة ، وذلك حتى يعرف كل جليس للرسول أن المؤمنين سواسية ، وأنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الناس كافة ؛ وليس رسولا إلى قوم بعينهم ، وحتى يعرف كل واحد من جلسائه أنه يجلس إلى رسوله الذي بعثه الله إليه .

هكذا كان سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يعطى القدوة للناس ، وحتى يعرف كل إنسان أن الالتحام بالناس بعضهم ببعض ؛ قد يسبب لواحد استغلال الالتحام في غير صالح الإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه : يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ تَنبِهُوا إِلَى أَنْكُمْ فِي مَعْسَكٍ مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ يَفْتَانُكُمْ وَيَعَانِدُ إِيْمَانَكُمْ ، وهؤلاء لا يمكن أن يتركوكم على إيمانكم ، بل لابد أن يكيدوا لكم ، وهذا الكيد يتجلى في أنهم يدسون لكم أشياء ، وينفذون إليكم .

ونعرف جميعا أن الإسلام عندما جاء كان كثير ممن آمن له ارتباطات بمن لم يسلم ؛ فهناك القرابة ، والصداقة ، والإلف القديم والجوار ، والأخوة من الرضاة ، لذلك يحذر الحق من هذه المسائل ، فلا يقولن مؤمن: هذا قريبى ، أو هذا صديقى ، أو هذا حليفى . أو هذا أخى من الرضاة ، فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كل ذلك ، ولهذا فإياكم أن تتخلوا أناسا يتدخلون معكم بالود ؛ لأن الشرايق من هذا المجال ، وإياكم أن تعتقدوا أن فجوة الإيمان والكفر بينكم مستذهب أو تضيق ؛ لأن الكفار لن يتورعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكل لون من الألوان ، وهم - الكفار - لا يقصرون في هذا أبدا ، لذلك بأن الأمر من الحق :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، احصوا هذا الإيمان فلا تتدخلوا مع غير المؤمنين تدخلوا يفسد عليكم أمور دينكم ؛ لأنهم لن يهدأوا . لماذا ؟ لأن حال هذه البطانة معكم سيكون كما هى : « لا يألونكم خبالا ، أى لا يقصرون أبدا في الكيد لكم ، والخبال: هو الفساد للهيئة المدبرة للجسم وهو الخنزير ، ونحن نسمى اختلال العقل « خبالا » .

إن الحق يقول :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ

قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ  
إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

(سورة آل عمران)

فاللهي عنه ليس أن تتخذ بطانة من المؤمنين ، ولكن المنهى عنه هو أن تتخذ بطانة من غير المؤمنين ؛ لأن المؤمن له إيمان يحرسه ، أما الكافر فليس له ما يحرسه ، والبطانة من غير المؤمنين لا تقصر في لحظة واحدة في أنها تريد للمؤمنين الخيال والفساد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم يحبون العنت والمشقة للمؤمنين ودوا ما عنتهم ، والحق سبحانه وتعالى لا يريد لنا العنت ، وفي هذا يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكُفُوكُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢١ سورة البقرة)

أي أنه سبحانه لو أراد ، لكلفكم بأمور كثيرة تحمل المشقة ، لكن الحق سبحانه يسر لكم أيها المؤمنون ، لكن أهل الكفر لا يودون إلا الخيال للمؤمنين ، ويحبون المشقة لهم .

ومن أين تنشأ المشقة ؟ إنك حين تكون مؤمناً فأنت تقوم بما فرضه عليك الدين ، وهم يحاولون أن ينفخوا في المؤمن بغير ما يقتضيه هذا الدين ، فتتوزع نفس المؤمن ، وبهذا النفع تنقسم ملكات المؤمن على نفسها ، وعندما تنقسم الملكات على نفسها فإن القلق والاضطراب يسيطران على الإنسان ، فالقلق والاضطراب ينشآن عندما لا تعيش الملكات النفسية في سلام وانسجام .

ونحن نرى ذلك في المجتمعات التي وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية وأمورهم المادية ميسرة كلها ، فالشيخوخة مؤمنة ، وكذلك التأمينات الصحية والاجتماعية ، ودخل الإنسان مرتفع ، لكنهم مع ذلك يعيشون في تعب ، وترتفع بينهم نسبة الانتحار ، وينتشر بينهم الشلوذ ، والسبب وراء كل ذلك هو أن ملكاتهم النفسية غير منسجمة ، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يؤمن الإنسان ، ويطبق

تعاليم ما يؤمن به . فالرجل - على سبيل المثال - حين ينظر إلى حلاله ، أى زوجته ، ينظر إليها براحة ويشعر باطمئنان ؛ لأن ملكاته النفسية منسجمة ، أما عندما تنجس عينه إلى امرأة ليست زوجته ، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف هل هناك من يراه أو لا ؟ وهل ضبطه أحد أو لا ؟ وعندما يضبطه أحد فهو يفرغ وتتخبط ملكاته .

لذلك يحذر الحق سبحانه المؤمنين : إياكم من البطانة من غير المؤمنين ، لأنهم لا يقصرون أبدا ولا يتركون جهدا من الجهود إلا وهم يحاولون فيه أن يدخلوكم في مشقة . والمشقة إنما تنشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف والاضطراب النفسي وتشتت الملكات مستغلا القرابة والصداقة ، مطالبا أن يرضيه المؤمن بما يخالف الدين ، ولا يستطيع المؤمن التوفيق بين ما يطلبه الدين وما يطلبه الكافر ؛ لذلك تنقسم ملكات المؤمن ويحس بالمشقة . والكافرون لا يتركون أى فرصة تآنى بالفساد للمؤمنين إلا انتهزوها واغتتموها . يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يآلونكم خبيلا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم .

ومادامت البغضاء قد بدت من أفواههم فكيف تتخذهم بطانة ؟ إنك حين تصنع لنفسك جماعة من غير المؤمنين ، فإنها تضم بعضا من المنافقين غير المنسجمين مع أنفسهم . والمنافق له لسان يظهر خلاف ما يظن . وعندما يذهب المنافق إلى غير المؤمنين فإن لسان المنافق ينقل بالسخرية كلام المؤمن .

هكذا تظهر البغضاء من أفواه المنافقين المذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم لا يتمنون إلى الإيمان ولا يتمنون إلى الكفر ، والذي يصل المؤمنين من بغضاء هؤلاء قليل ؛ لأن ما تحفى صدورهم أكبر . وحين تبدو البغضاء من أفواههم ، فلما أن يقولوها أمام منافقين ، ولما أن يقولها بعضهم لبعض ، فيتبادلوا الاستهزاء والسخرية بالمؤمن ، والله أعلم بمن قيل فيه هذا الكلام ، ولذلك فعندما يتحدث الكافرون بكلام فيما بينهم فالله يكشفهم ويفضحهم لنا نحن المؤمنين .

إن الله تعالى يكشف بطلاقة علمه كل الخبايا ، وكان على الكافرين والمنافقين أن يعلموا أن هناك إلها يرقب عملية الإيمان في المؤمن حتى ينبهه إلى أدق الأشياء ، لكنهم كأهل كفر ونفاق في غباء ، لقد كان مجرد نزول قول الحق قد بدت البغضاء من

أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، كان ذلك فرصة أمامهم ليدفعوا عن أنفسهم لو كانت صدورهم خالية من الحقد . لكنهم عرفوا أن الله قد علم ما في صدورهم . إن الغيظ الذي في قلوب هؤلاء الجاحدين الحاقدين قد نضح على الستهم ، ولكن من الذي نقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ما في صدور الكافرين مما هو أكثر من ذلك ؟

إنه الله - جلت قدرته - قد فضحهم بما أنزل من قوله تعالى : « وما تخفى صدورهم أكبر » إذن لم يعد لمن آمن بالله حجة ، لأن الله أعطاه المناعات القوية لصيانة ذلك الإيمان ، وأوضح الحق للمؤمنين أن أعداءهم لن يدخروا وصفا أبدا في إفساد انتباههم لهذا الدين ، فيجب أن يتبه المؤمنون .

وإذا ما دققنا التأمل في تذييل الآية نجد أن الحق قال : « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » إذن ، فالآيات المنزلة من الله تعالى توضح ذلك ، وقد قلنا من قبل إن الآيات ، إما أن تكون آيات قرآنية ، وإما أن تكون آيات كونية ، فالقرآن له آيات ، والكون له آيات . ولنسمع قول الحق بالنسبة للقرآن :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١١﴾

( سورة الحل )

وفي مجال الكون يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧﴾

( سورة فصلت )

وهكذا نعلم أن الآية هي الشيء العجيب اللافت الذي يجب أن نتبه إليه لناخذ منه دستورنا لحياتنا . وعلى ذلك ، فالآيات القرآنية تعطى المنهج ، والآيات الكونية

تؤكد صدق الآيات المنهجية . ويجب أن تتفطنوا أيها المؤمنون إلى هذه الآيات .  
والذي يدل على أن المؤمنين قد عقلوا وتفطنوا ، أن الآية الأولى بينت أنهم قد نهوا عن  
أن يتخذوا بطلانة من دونهم - أي من غير المؤمنين - وها هي الآية التالية تقول :

هَآأَنَّمْ أَوْلَآءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ  
بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا  
عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا يَعِظُكُمْ  
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

وما زال الحديث والكلام عن البطانة ، وهو يدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوى  
المؤمنين عن الإيمان ، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من  
الكافرين . ولم يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين ، وكذلك لم يفلح الكافرون  
أيضا أن يسيطروا على أنفسهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا النفاق ، لذلك  
قالوا : « آمنا » . إن الآية تدلنا على أن المؤمنين قد عقلوا آيات الحق . ولماذا - إذن -  
جاء الحق بقوله : « تحبونهم ولا يحبونكم » ؟

لقد أحب المؤمنون الكافرين حين شرحوا لهم قضية الحق في منهج الإسلام ،  
وأراد المؤمنون أن يحبوا الكافرين متاعب الكفر في الدنيا والآخرة ، وهذا هو الحب  
الحقيقي ، فهل بادأهم الكافرون الحب ؟ لا ، لأن هؤلاء الكافرين أرادوا أخذ  
المؤمنين إلى الكفر ، وهذا دليل عدم المودة . ولم يستطع الكافرون تحقيق هذا  
المأرب ، ولذلك قالوا : « آمنا » ومعنى قولهم : « آمنا » يدلنا على أن موقف المسلمين  
كان موقفا صلبا قويا ؛ لذلك لم يجد الكافرون بدا من نفاقهم « وإذا لقوكم قالوا  
آمنا » قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء في أقوالهم ، ولم يكن سلوكهم  
مطابقا لما يقولون . وهنا بدأ المسلمون في تحجيم وتقليل مودتهم للكافرين ؛ ولذلك

قال أهل الكفر : لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون . . . وحق يتجنبوا هذا الموقف ادعوا الإيمان في الظاهر ، وينقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم ، ويصور الحق هذا الموقف في قوله : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » فما هو العض ؟

إن العض لغويا ، هو التقاء الفكين على شيء ليقضياه . وما الأنامل ؟ إنها أطراف الأصابع ، والأنامل فيها شيء من الدقة ، وشيء من خفة الحركة المأخوذة من خلية النمل ، ويسمون الأنامل أيضا البنان . وعملية عض الأنامل عندما نراها نجدها عملية انفعالية قسرية . أي أن الفكر لا يرتبها ؛ فليس هناك من يرضى أن يظل مرتكبا لعملية عض أصابعه ، فعرض الأصبع بسبب الألم ، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل في الانفعال . ومن أين يجيء الغيظ ؟

لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين قيد شعرة عن منهج الله ، بل حدث ما هو العكس ، لقد حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان ، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفسدهم ؛ ولذلك وقعوا في الغيظ عندما لم يمكنهم المؤمنون من شيء من مرادهم .

إن الإنسان يقع أحيانا فريسة للغضب حين لا يتمكن من إعلان غضبه على خصمه ؛ ولهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد في فضله على هذا الإنسان ، وهنا يزداد هذا الخصم غيظا ومرارة ، أيضا نجد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يقابل السيئة التي يصنعها فيه آخر بسيئة ، وذلك حتى لا يرتكب الذنب نفسه ، ولكن يتبع القول المأثور :

« إنا لا نكافي من عصي الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه »<sup>(١)</sup>

( ١ ) هذا القول مسند إلى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عندما جاء رجل فقال له : إن لي جاراً يؤذي ويشتكي ويهين علي فقال : « اذهب فإن من عصي الله فأكفك فاطع الله فيه » من كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي - فصل حقوق الجوار .



إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة ، وغيظا وحقدا على الإسلام وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب لقد كانوا جبالا إيمانية راسخة .

فخصوم الإسلام يعصون الله بسوء معاملتهم للمسلمين ، لكن المسلمون يردون على سوء المعاملة بحسن المعاملة ، وساعة يرى خصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق هدفه فإنهم يقومون في بثر وحمأة الغيظ . وعندما يخلو الكافرون لأنفسهم فأول أعمالهم هو عض الأصابع من الغيظ ، وهو كما أوضحت نتيجة الانفعال القسري التابع للغضب والعجز عن تحقيق المآرب ؛ ذلك أن كل تأثير إدراكي في النفس البشرية إنما يطرق مجالا وجدانيا فيها .

والمجال الوجداني لا بد أن يعبر عن نفسه بعملية نزوعية تظهر بالحركة ؛ فالإنسان عندما يسبب لواحد يعرفه لونا من الغضب فهو يفعل بسرعة ويثور بالكلمات ، هذا دليل على طيبة الإنسان الغاضب . أما الذي لا يظهر انفعاله فيجب الحذر منه ؛ لأنه يخزن انفعالاته ، ويسيطر عليها ، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تبدو ؛ ولذلك يقول الأثر : « اتقوا غيظ الحليم » فعندما تتجمع انفعالات جديدة فوق انفعالات قديمة متراكمة في قلب الحليم فلا أحد يعرف متى يفيض به الكيل .

إذن فالإدراك ينشأ عنه وجدان ، فينفع الإنسان بالنزوع الحركي . والتشريع الإسلامي لا يريد من الإنسان أن يكون حجرا أصم لا يفعل ، لكنه يطلب من المسلم أن يفعل انفعالا مهاديا ؛ ولذلك يضع الحق للمؤمن منهجا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالْكَنُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إن القرآن يعترف بأن هناك من الأحداث ما يستدعي غيظ الإنسان ، والذي لا يغضب على الإطلاق إنما يسلك طريقا لا يتوافق مع طبيعة البشر السوية ، والله يريد من الإنسان أن يكون إنسانا ، له عواطفه وشعوره وانفعالاته ، ولكن الله المربي الحق يهذب انفعالات هذا الإنسان ، ولنا في النبي صلى الله عليه وسلم القدوة

الحنة . فحين مات ولده إبراهيم :

قال عليه الصلاة والسلام : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما برضى ربنا . وإنا بفراقك يا إبراهيم نحزون » (١)

إن النبي صلى الله عليه وسلم يمزج بين العاطفة والإيمان ، فالعين تدمع ، والقلب يحزن ، والإنسان لا يكون أصم أمام الأحداث ، إنما على الإنسان أن يكون متفعلاً انفعالاً مهذباً .

وعندما يعبر القرآن عن الإنسان السوى فهو لا يضع المؤمن في قالب حديدي بحيث لا يستطيع أن يتغير فبقول سبحانه .

﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

( من الآية ٥٥ سورة المائدة )

إذن فليس المؤمن مطبوعاً على الذلة ، ولا مطبوعاً على العزة ، لكنه يتفاعل للمواقف المختلفة ، فهذا موقف يتطلب ذلة وتواضعاً للمؤمنين فيكون المؤمن ذليلاً ، وهناك موقف آخر يتطلب عزة على الكافرين المتكبرين فيكون المؤمن عزيزاً ، والحق سبحانه يقول عن المؤمنين :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا  
سُجَّدًا يَسْتَغْفِرُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

( من الآية من سورة الفتح )

إن الرحمة ليست خلقاً ثابتاً ، ولا الشدة خلقاً ثابتاً ولكن المؤمنين يفعلون للأحداث ، فحين يكون المؤمن مع المؤمنين فهو رحيم ، وحين يكون في مواجهة الكفار فهو قوى وشديد . والله سبحانه لا يريد المؤمن على قالب واحد متجمد ،

لذلك يقول الحق :

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وهو سبحانه القائل :

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوِّقْتُمْ بِهِ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

إذن فالحق لم يمنع المؤمن من أن يعاقب أحدا على خطأ ، وذلك لأنه خلق الخلق وعليم بهم ، ولا يمكن أن يصادم طباعهم ، وذلك حتى لا يتهدد المؤمن في إيمانه فيما بعد ، فالمؤمن لو ترك حقوقه فإن الكفار سيصولون ويحولون في حقوق المسلمين ؛ وهذا فالمؤمن يتدرب على توقيع العقاب حتى على المؤمن المخطئ ، وذلك ليعرف المؤمن كيف يعاقب أى مجترىء على حق من حقوق الله . والمؤمن أيضا مطالب بأن يرتقى بعقابه ، فهو إما أن يعاقب بمثل ما عوقب به ، وإما أن يرتقى أكثر ، ويستمع لقول الحق :

﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهَوَّ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

لقد وضع الحق منهج الارتقاء بعد أن أعطى المؤمن الحق في توقيع العقاب قصاصا ، وهكذا لم يقصر الله طبع الإنسان ولو أراد سبحانه ذلك لما خلق هذا الطبع إنه سبحانه يوضح لنا أن هناك انفعالا بالغيظ ، وأن المؤمن عليه أن يحاول كظم الغيظ أى لا يعبر عن الغيظ نزوعيا ، فإن أخرج المؤمن هذا الأمر من قلبه فمعناه أنه قد برىء وشفى منه وارتقى .

إذن فكظم الغيظ هو ألا يعبر المؤمن عن الغيظ نزوعيا ، فإن سبك أحد فانت لا تسبه ، وهذا الكظم يعنى كتمان الانفعال في القلب ، فإذا ارتقى المؤمن أكثر ونجاهل حتى الانفعال بذلك ، فإنه يخرج الغيظ من قلبه ، وهو بذلك يرتقى ارتقاء

أعل ، ويصفه الحق بأنه دخول إلى مرتبة الإحسان ، فهو القائل : « والله يحب المحسنين » وهكذا يحسن المؤمن إلى المسبب للغيظ بكلمة طيبة .

فماذا يكون موقف الذى تسبب فى غيظك أيها المؤمن وأنت قد كظمت الغيظ فى المرحلة الأولى وعفوت فى المرحلة الثانية وإن أخرجت الانفعال من قلبك ، وصلت إلى المرحلة الثالثة وهى التى تمثل قمة الإيمان إنها الإحسان . . « والله يحب المحسنين » لابد أن يراجع المسبب للغيظ نفسه ويتدم على ما فعل .

إن الإسلام لم يتجاهل المشاعر الإنسانية عندما طالب المؤمنين أن يحسنوا لمن أساء إليهم ، فالذى يمعن النظر ويدقق الفهم يعرف أن الإسلام قد أعطى المؤمن الحق فى الطبع البشرى حين قال : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ولكنه ارتقى بالمؤمن . وعندما ننظر إلى هذا الأمر كقضية اقتصادية ونحسبها به منه « وه له » فسنجد أن المؤمن قد كسب . . ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - ساعة يمد الأب ابنا من ابنائه قام بظلم أخ له فإن قلب الأب يكون مع المظلوم . فهب أن إنسانا أساء لعبد من عباد الله فإن الله كرت كرت يغار له ونحن نعرف أن واحدا قال لعارف بالله :

أتحسن لمن أساء إليك ؟ فقال العارف بالله : أفلا أحسن لمن جعل الله فى جانبي ؟

ولنعد الآن إلى غيظ الكافرين من المؤمنين ، إن غيظ الكافر ناتج من أن خصمه المؤمن يحب له الإيمان وليس فى قلبه ضغينة بينها الكافر يغلى من الحقد ، وبسبب هذا الأمر يكاد يفقد صوابه ؛ لذلك يقول الحق : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

وه خلوا ، المقصود بها . أن الكافرين إذا ما أصبحوا فى مجتمع كفرى وليس معهم مسلم أعلنوا الغيظ من المؤمنين ، ولقد فعلوا هذا الأمر - عض الأنامل من الغيظ - فى غيبة الإيمان والمؤمنين بالله ، لو كان عند هؤلاء الكافرين ذرة من تعقل لفكروا كيف فضحهم القرآن ، وهم الذين ارتكبوا هذا الفعل بعيدا عن المؤمنين ؟

ألم يكن لتفكيرهم أن يصل إلى أن هناك رباً للمؤمنين يقول الخافق من الأمور لرسوله ، ويبلغها الرسول للمؤمنين .

لكنهم مع ذلك لم يفهموا هذا الفصح لهم ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، وهنا ينبغي أن نفهم أن هناك أمراً قد يغيظ ، ولكن الإنسان قد يجين أن ينفث غيظه ، فإذا غاظك أحد فقد تذهب إليه وتنفعل عليه ، أو قد تنفعل على نفسك وذلك هو ما يسمى بـ « تحويل النزوع » . فالغاضب يمتلئ بطاقة غضبية ، ومن يغضب عليه قد يكون قويا وصاحب نفوذ ، فيخاف أن ينفعل عليه ، فينفث الغاضب طاقة غضبه على نفسه بأن يعرض على أنامله ، ومادامت المسألة هكذا ، فقد قال الحق :

﴿ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

ومعنى ذلك أن إغابة المؤمنين لكم أيها الكافرون تستمر إلى أن تموتوا من الغيظ ؛ لذلك فلا طائل من محاولتكم جذب المؤمنين إلى الكفر : « قل موتوا بغيظكم » .

ونحن قد عرفنا أنه ساعة يؤمر الإنسان بشيء ليس في اختياره - لأن الموت ليس في اختيارهم - وأن يختار بينه وبين شيء في اختياره كالغيظ ، فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر إليه ليظل أسير الأمر الذي يقدر عليه وهو الغيظ حتى يدركه الموت .

وعندما يقول الحق : « موتوا بغيظكم » فهذا يعنى أن الكافرين لن يستطيعوا الموت ، ولكن سيظلون في حالة الغيظ إلى أن يموتوا ؛ لأنهم لا يعرفون متى يموتون ، وهكذا يظلون على حالهم من الغيظ من المؤمنين ، ومادام الكافرون في حالة غيظ من المؤمنين فهذا دليل على أن المؤمنين يطبقون منهجهم بأسلوب صحيح .

وفي هذه الآية بشارة طيبة للمؤمنين ونذارة مؤلمة للكافرين « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » إن الحق يعلمنا أنه عليم بذات الصدور ، أى بالأمور التي

نظراً على الفكر ، ولم تخرج بعد إلى مجال القول . وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

( من الآية ١١٨ سورة آل عمران )

ومادام هو الحق العليم بما تخفى الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوى ولكنه قادر على أن يجازيهم أيضاً بأن يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة في صدورهم ، وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِنْ تَصِيبَكُمْ

سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا

لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ

مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

والقرآن كلام الله وله - سبحانه - الطلاقة التامة والفنى الكامل ، والعبارة في المعنى الواحد قد تختلف لأن كل مقام له قوله ، وسبحانه يحدد بدقة متناهية اللفظ المناسب . . إنه هو سبحانه الذى قال :

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا

﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَأَىٰ يَمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

( سورة المعارج )

وهو سبحانه الذى قال :

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ  
لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (٧٦)

( سورة النساء )

إنه جل وعلا يتكلم عن المس في الشر والخير ، ومرة يتكلم عما يحدث للإنسان  
كإصابة في الخير أو في الشر ، وفي الآية التي نحن بصدد الخواطر عنها تجد خلافا في  
الأسلوب فسبحانه يقول : « إن تمسكم حسنة تسؤمهم وإن تصيبكم سيئة يفرحوا  
بها » إنه لم يورد الأمر كله مَسًّا ، ولم يورده كله « إصابة » إنه كلام رب حكيم وعندما  
نتمعن في المعنى فإن الواحد منا يقول : هذا كلام لا يقوله إلا رب حكيم .

ولنتعرف الآن على « المس » و« الإصابة » بعض العلماء قال : إن المس والإصابة  
بمعنى واحد ، بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (٧٦) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٧٧) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ  
مَنُوعًا (٧٨) ﴾

( سورة المعارج )

ولكننا نقول إن المس هو إيجاد صلة بين الماس والمسوس ، فإذا مس الرجل  
امرأته ، فنحن نأمره بالوضوء فقط ، لأنه مجرد التقاء الماس بالمسوس ، والأمر ليس  
أكثر من التقاء لا تحدث به الجنابة فلا حاجة للغسل ، أما الإصابة فهي التقاء  
وزيادة ، فالذي يضرب واحدا صفة فإنه قد يورم صدغه ، فالكف يلتقى بالخد ،  
ويصيب الصدغ ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين المس والإصابة ، وحين يقول  
الحق : « إن تمسكم حسنة تسؤمهم » .

فمعنى ذلك أن الحسنة الواقعة بسيطة ، وليست كبيرة إنها مجرد غنيمة أو قليل من  
الخير . . وفي حياتنا اليومية نجد من يمتلئ غيظا لأن خصمه قد كسب عشرة  
قروش ، وقد يجد من يقول له : لماذا لا تدخر غيظك إلى أن يكسب مائة جنيه مثلا ؟  
ومثل هذا الغيظ من الحسنة الصغيرة هو دليل على أن أي خبر يأتي للمؤمنين إنما يسبب

التعب والكدر للكافرين . فمجرد مس الخير للمؤمنين يتعب الكافرين فماذا عن أمر  
السيرة ؟

إن الحق يقول : « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إن الكافرين يفرحون لأي سوء  
بصيب المؤمنين مع أنه كان مقتضى الإنسانية أن ينقلب الحاسد راحاً :

وحسبك من حادث بامرىء  
ترى حاسديه له راحمين

يعنى حسبك من حادث ومصيبة تقع على إنسان أن الذى كان يحسده ينقلب راحاً  
له ويقول : والله أنا حزنت من أجله .

إذن فلما تشتد إصابة المؤمنين أكانت تغير من موقف الكافرين ؟ لا ، كان أهل  
الكفر يفرحون في أهل الإيمان ، وإذا جاء خير أى خير للمؤمنين يحزنون فالحق  
يقول : « أن تمسكم حسنة تؤهم » والحسنة هى أى خير يسهم مساً خفيفاً ،  
« وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » ، فانت  
مهما كادوا لك فلن يصيبوك بأذى .

إن المطلوب منك أن تصبر على عداوتهم ، وتصبر على شرهم ، وتصبر على  
فرحهم في المصائب ، وتصبر على حزنهم من النعمة نصيبك أو تمسك ، اصبر فيكون  
عندك مناعة ، وكيدهم لن ينال منك . اصبر واتق الله : لتضمن أن يكون الله في  
جانبك ، « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » .

وما الكيد ؟ الكيد هو أن تبني وتحتال على إيقاع الضرر بالغير بحيث يبدو أنه كيد  
من غيرك ، أى تدبر لغيرك لتضره . وأصل الكيد مأخوذ من الكيد والكبد ، وهما  
بمعنى واحد ، فما يصيب الكبد يؤلم ؛ لأن الكبد هو البضع القوى في الإنسان ، إذا  
أصابه شيء أعيا الإنسان وأعجزه ، ويقولون : فلان أصاب كبد الحقيقة أى  
نوصل إلى نقطة القوة في الموضوع الذى يحكى عنه .

وما معنى يبيتون ؟ قالوا : إن التبيت ليس دليل الشجاعة ، وساعة ترى واحداً



يبست ويمكر فاعرف أنه جبان ؛ لأن الشجاع لا يكيد ولا يمكر ، إنما يمكر ويكيد الضعيف الذي لا يقدر على المواجهة ، فإن تصبروا على مقتضيات عداواتهم وتتقوا الله لا يضركم كيدهم شيئاً ؛ لأن الله يكون معكم .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « إن الله بما يعملون محيط » . وساعة ترى كلمة « محيط » فهذا يدل على أنه عالم بكل شيء . والإحاطة : تعنى ألا تشرد حاجة منه . وها هي ذى تجربة واقعية في تاريخ الإسلام ؛ يقول الحق فيها مؤكداً : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » وعلى كل منا أن يذكر صدق هذه القضية .

## وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ الْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

إنه في هذه المرة - في غزوة أحد - جاء الكفار بثلاثة آلاف وكان المسلمون قلة ، سبعائة مقاتل فقط ، وحتى يبين الحق صدق قضاياه في قوله : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » وليس المقصود هنا الكيد التبييقي بل عملهم العلني ، أي واذكر صدق هذه القضية :

« وإذ غدوت من أهلك » ، والغدوة هي : أول النهار ، والرواح : آخر النهار ، والأهل : تطلق ويراد بها الزوجة ، والمقصود هنا حجرة عائشة ؛ لأن الرسول كان فيها في هذا الوقت الذي أراد فيه كفار قريش أن يثاروا لأنفسهم من قتلى بدر وأسراهم ، لقد جمعوا حشودهم ، فكل موتور من معركة بدر كان له فرسان وله رجال ، حتى أنهم بعد معركة بدر قال زعيمهم أبو سفيان لأصحابه : قل للنساء لا تبكين قتلاكم فإن البكاء يذهب الحزن ، فالدموع يسمونها غسيل الحزن ، أو ثوب المواجهيد ، فساعة يبكي إنسان حزين يقول من حوله : دعوه يرتاح .

فلو حزنن النساء وبكين على قتل بدر لمبطت جذوة الانتقام ؛ لذلك قال أبو صفيان : قل لمن لا يبكين . إنه يريد أن يظل الغيظ في مسألة بدر موجوداً إلى أن يأخذوا الثار . وفعلوا اجتمع معسكر الكفر في ثلاثة آلاف مقاتل عند أحد ، وبعد ذلك استشار النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة أصحابه وأرسل إلى واحد من أكبر المنافقين هو عبدالله بن أبي بن سلول ، وما استدعاه إلا في هذه المعركة ، فقال عبدالله بن أبي بن سلول وأكثر الانتصار :

يا رسول الله نحن لم نخرج إلى عدو خارج المدينة إلا نال منا ، ولم يدخل علينا عدو إلا نلنا منه ، فإنا نرى ألا نخرج إليهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم ، وقالوا :

« يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أننا نجينا عنهم وضعفنا ، ولم يترك أصحاب هذا الرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وافقهم على ما أرادوا »

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه ، وظن الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أنهم قد استكروهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : استكروناك يا رسول الله ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ينبغي لنبي لبس لأمنته أن يضمها حتى يقاتل »<sup>(١)</sup>.

وخرجوا إلى الحرب ، وهذا هو الذي يُذكر به القرآن صدقاً للقضية التي جاءت في الآية السابقة : « وإن تصبروا وتنتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » .

(١) رواه ابن إسحاق والإمام أحمد ورواه الطبراني بنحوه ، والألمة : هي الدرع .

اذكر يا محمد :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

( الآية ١٢١ سورة آل عمران )

وه تبوء المؤمنین مقاعد للقتال « أى توطن المؤمنین فى أماكن للقتال ، وبوأت فلانا یعنی : وطنته فى مكان یبوء إلیه أى یرجع ، واسمه وطن ؛ لأن الوطن یرجع إلیه الإنسان .

انظر إلى الدقة الأدائية لقول الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنین مقاعد للقتال » أى تجعل لهم مباءة ووطنا . وكلمة « مقاعد » أى أماكن للثبات ، والحرب كثر وفر وقيام ، والذي يحارب يثبت الله فى المعركة ، فكانه موطن فى الميدان ، فكان أمر الرسول إلى المقاتلين يتضمن ألا يلتفت أى منهم إلى موطن آخر غير موطنه الذى ثبتته وبوآته فيه أى إن هذا هو وطنك الآن ؛ لأن مصيرك الإيماني سيكون رهناً به .

إذن فقله : « وإذ غدوت من أهلك تبوئ » أى توطن « المؤمنین » وتقول لهم : إن وطنكم هو مقاعدكم التى ثبتكم بها . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالرماة ؛ وأمر عليهم « عبدالله بن جبير » وهم يومئذ خمسون رجلاً وقال رسول الله لهم :

« قوموا على مصافكم هذه فاحوا ظهورنا فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تتركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا » (١) .

لكنهم لم يقدرُوا على هذه لأن نفوسهم مالت إلى الغنمة ؛ وشاء الله أن يجعل التجربة فى محضر من رسوله صلى الله عليه وسلم : حتى يبين للمؤمنين فى كل المعارك التى تلى ذلك أن اتباع أمر القائد يجب أن يكون هو الأساس فى عملية الجندية . وإنكم إن خالفتُم الرسول فلا بد أن تنهزموا .

(١) رواه ابن سعد وابن هشام والبخارى بنحوه .

وقد يقول قائل : الإسلام انهزم في أحد . ونقول : لا . إن الإسلام انتصر. ولو أن المسلمين انتصروا في « أحد » مع مخالفة الرماة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، أكان يستقيم لرسول الله أمر ؟

إذن فقد انهزم المسلمون الذين لم ينفذوا الأمر ، وكان لابد أن يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحينها هبت ريح النصر على المؤمنين في أول المعركة ، ابتداء المقاتلون في الانشغال بالأسلاب والغنائم ، فقال الرماة : سيأخذ الأسلاب غيرنا ويتركونا ونزلوا ليأخذوا الغنائم ، فانتهاز خالد بن الوليد وكان على دين قومه انتهز الفرصة وطوقهم وحدث ما حدث وأذيع وفشا في الناس خبر قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكفأوا وانهزموا فجعل رسول الله يدعو ويقول : « إلى عباد الله » حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا : يا رسول الله : فدينك بأبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين

إن التحقيق التاريخي لمعركة أحد قد أكد أن المسألة لا تُعتبر هزيمة ولا انتصاراً ؛ لأن المعركة كانت لاتزال ماثلة . وبعدها دعا الرسول من كان معه في غزوة أحد إلى الخروج في طلب العدو ، وأدركوهم في حمراء الأسد وقرأ الكافرون . إن الله أراد أن يعطى المؤمنين درساً في التزام أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال الحق : « وإذا غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال » .

إن الحق يذكر بمسئوليات القائد ، الذي يوزع المهام ، فهذا جناح أيمن وذاك جناح أيسر ، وهذا مقدمة وهذا مؤخرة . ويذيل الحق هذا بقوله : « والله سميع علیم » حتى يعرف المؤمنون أنه سبحانه قد شهد أن رسوله قد بوأ المؤمنين مقاعد القتال . وسبحانه « علیم » بما يكون في النيات ؛ لأن المسألة في الحرب دفاع عن الإيمان وليست انقياد قوالب ، ولكنها انقياد قلوب قبل انقياد القوالب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ

## وَلِيَهُمَا عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

والفشل هو الجبن ، والطائفتان هما « بنو حارثة » من الأوس ، « وبنو سلمة » من الخزرج ، وهؤلاء كانوا الجناح اليمين والجناح اليسار ، فجاءوا في الطريق إلى المعركة ، وسمعوا كلام المنافق ابن سلول ، إذ قال لهم : لن يحدث قتال ، لأنه مجرد أن يرانا مقاتلو قريش سيهربون .

وقال ابن سلول المنافق للرسول : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم . إلا أن عبدا لله ابن حارثة قال : أنشدكم الله وأنشدكم رسول الله وأنشدكم دينكم . فساروا إلى القتال وثبتوا بعد أن هموا في التراجع .

وما معنى « المهم » هنا ؟ إن المهم هو تحريك الخاطر نحو عملية ما ، وهذا الخاطر يصير في مرحلة ثانية قصداً وعزماً ، إذن فالذي حدث منهم هو مجرد هم بخاطر الانسحاب ، لكنهم ثبتوا .

ولماذا ذلك ؟ لقد أراد الله بهذا أن يثبت أن الإسلام منطقي في نظره إلى الإنسان ، فالإنسان تأتبه خواطر كثيرة . لذلك يورد الحق هذه المسألة ليعطينا العلاج . فقال : « إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا ،

وقد قال واحد من الطائفتين : والله ما يسرن أن لم أهم - أي لقد انشرح قلبي لأنى هممت - لأن ضمنت أن من الذين قال الله فيهم : « والله وليهما » ، وحسبى ولاية الله . لقد فرح لأنه أخذ الوسام ، وهو ولاية الله .

وهكذا نلتقط العبر الموحية من الآيات الكريمة حول غزوة أحد ، ونحن نعلم أن هذه الغزوة كانت الغزوة التالية لغزوة بدر الكبرى . وغزوة بدر الكبرى انتهت بنصر المسلمين وهم قلة في العدد والعدة ، ففى بدر لم يذهب المسلمون إلى

المعركة ليشهدوا حرباً ، وإنما ليصادروا أموال قريش في الجير تعويضاً لأموالهم التي تركوها في مكة . ومع ذلك شاء الله ألا يواجهوا الجير المحملة ، ولكن ليواجهوا الفئة ذات الشوكة ، وجاء النصر لهم .

ولكن هذا النصر ، وإن يكن قد ربيّ المهابة للمسلمين في قلوب خصومهم ، فإنه قد جمع همم أعداء الإسلام ليتجمعوا لتسديد ضربة يردون بها اعتبار الكفر ؛ ولذلك رأينا رؤوس قريش وقد منعت نساءها أن يبكين على قتلاهم ؛ لأن البكاء يُريح النفس المتعبة ، وهم يريدون أن يظل الحزن مكتوباً ليصنع مواجيد حقدية تحرك النفس البشرية للأخذ بثأر هؤلاء ، هذا من ناحية العاطفة التي يحبون أن تظل موججة ، ومن ناحية المال فإنهم احتفظوا بمال الجير الذي نجا ليكون وسيلة لتدبير معركة يردون فيها اعتبارهم .

وقد حاولوا قبل أحد أن يفعلوا شيئاً ، ولكنهم كانوا يردّون على أعقابهم . فمثلاً قاد أبو سفيان حملة مكونة من مائة ، وأراد أن يهاجم بها المدينة فلما نعى خبرها إلى سيدنا رسول الله نهض بصحبته إليهم ، فبلغ أبا سفيان خروج رسول الله ، ففرّ هارباً وألقى ما عنده من مؤنة في الطريق ليخفف الحمل على الدواب لتسرع في الحركة ، ولذلك يسمونها « غزوة السوق » لأنهم تركوا طعامهم من السوق . كما حاول بعض الكفار أن يغيروا على المدينة بعد ذلك أكثر من مرة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إليهم على رأس مقاتلين ، فمرة عددهم مائة ومرة مائة وخمسون ومرة مائتان ، وفعلاً شئت الرسول صلى الله عليه وسلم شملهم . وكان من خطته صلى الله عليه وسلم حين يذهب إلى قوم كان يبلغه أنهم يريدون أن يتآمروا لغزو المدينة أن يظل في بلدتهم وفي معسكرهم وقتاً ليس بالقليل .

كل ذلك سبق غزوة أحد . وبعد ذلك تجمعوا ليجيئوا لغزوة أحد ، وكان ما كان ، والآيات التي تعالج هذه الغزوة فيها إجماعات بما جاء في المعركة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم برأ للمقاتلين مقاعد للقتال ، وأمرهم بالثبات في تلك المواقع لكن بعضاً من المقاتلين ترك مكانه ، والبعض الآخر هم بالانسحاب ، لكنه ثبت أخيراً ، وفرّ كفار قريش . وقد تجلّت في هذه المعركة آيات الله الكبيرة .

فحين نصر الله سبحانه وتعالى المسلمين « بيدر » وهم قلة ، لم يخرجوا المعركة وإنما خرجوا لمصادرة غير . وربما ظن أناس أنهم بمجرد نسبتهم إلى الله وإلى الإسلام سينصرون على هذه الوثيرة ، ويتركون الأسباب فأراد الله أن يعلمهم أنه لا بد من استنفاد الأسباب ، إعداداً لعدة ولعدد ، وطاعة لتوجيه قائد .

فلما خالفوا كان ولا بد أن يكون ما كان . والمخالفة لم تنشأ إلا بعد استهلال بالنصر ، ولذلك سيجيء فيما بعد ستون آية حول هذه الغزوة ؛ لتبين لنا مناسط العبرة في كل أطوارها لنستخرج منها العظة والدرس . ونعلم أن المتصرين عادة يكون الجو معهم رخاء . ولكن الكلام هنا عن هزيمة من لا يأخذون بأسباب الله ، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، فجاء القرآن هنا ليفص علينا طرفاً من الغزوة لنستخرج منها العبرة والعظة ، العبرة الأولى :

أنهم حينما خرجوا ، تخلف المنافقون بقيادة ابن أبي ، إذن فالمعركة إنما جاءت لتمحس المؤمنين . والتمحيص يأتي في الشيء الواحد ، أما التمييز فيأتى في شيئين : هذا مؤمن ، وهذا كافر ، إنما التمهيص يأتي للمؤمن ويعرکه عركا ، ويبين منه مقدار ما هو عليه من الثبات ومن اليقين ، والحق إنما يحص الفئة المؤمنة لأنها ستكون مأمونة في التاريخ كله إلى أن تقوم الساعة على حماية هذه العقيدة ، فلا يمكن أن يتولى هذا الأمر إلا أناس لهم قلوب ثابتة ، وجأش قوى عند الشدائد ، وهمة دونها زخارف الدنيا كلها .

وبعد ذلك يعالج النفس البشرية في أوضاعها البشرية ، فعقائد الإيمان لا تنصب في قلوب المسلمين بمجرد إعلان الإيمان ، ولكن كل مناسبة تعطي دفعة من العقيدة يتكون بعد ذلك الأمر العقدي كله . ولذلك يبين لنا الحق أن طائفتين من المؤمنين قد همت بالتراجع ، فهم نفوس بشرية ، ولكن أنفقت الطائفتان ذلك المهم أم رجعت وفاءت إلى أمر الله ؟ لقد رجعت الطائفتان . وهكذا رأينا بين الذين أعلنوا إيمانهم فئة نكصت من أول الأمر ، وفئة خرجت ثم عادت .

لقد تحدثت النفوس ولكن أفراد تلك الفئة لم يقفوا عند حديث النفس بل ثبتوا إلى نهاية الأمر ، ومنهم من ثبت إلى الغاية السطحية من الأمر كالرماة الذين رأوا النصر أولا ، وهؤلاء من الذين ثبتوا ، ما فرّوا أولاً مع ابن أبي ، وما كانوا من الطائفة التي

همت ، ولكنهم كانوا من الذين ثبتوا . لكنهم عند بريق النصر الأول اشتاقوا  
للغنائم ، وخالفوا أمر الرسول ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَتِنْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ  
وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ  
ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

( سورة آل عمران )

وبعد ذلك تأتي لقطة أخرى وهي ألا نفتن في أحد من البشر ، فعالم بن  
الوليد بطل معسكر الكفر في أحد ، وهو الذي استغل فرصة نزول الرماة عن  
أماكنهم ، وبعد ذلك طوق جيش المؤمنين ، وكان ما كان ، من خالد قبل أن يسلم ،  
ألم يكن في غزوة الخندق ؟ لقد كان في غزوة الخندق . وكان في غزوات كثيرة غيرها  
مع جند الشرك ، فإين كانت عبقرية في هذه الغزوات ؟ ..

إن عبقرية البشر تتصارع مع عبقرية البشر ، ولكن لا توجد عبقرية بشرية  
تستطيع أن تصادر ترتيباً ربانياً ، ولذلك لم يظهر دور خالد في معركة الخندق ، لقد  
ظهر دوره في معركة أحد ؛ لأن المقاتلين لخالد خالفوا أمر القيادة فبقيت عبقرية بشر  
لعبقرية بشر ، ولكنهم لو ظلوا في حضن المنهج الإلهي في التوجيه لما استطاعت  
عبقرية خالد أن تطفو على تديرات ربه أبداً .

والتحقيق التاريخي لكل العسكريين الذين درسوا معركة أحد قالوا : لا هزيمة  
للمسلمين ولا انتصار للكفار ؛ لأن النصر يقتضي أن يحل فريقاً عن أرض  
المعركة ، ويظل الفريق الغالب في أرض المعركة . فهل قريش ظلت في أرض المعركة  
أو فرّت ؟ لقد فرّت قريش .

ويُفسر النصر أيضاً بأن يؤسر عدد من الطائفة المقابلة ، فهل أسرت قريش واحداً  
من المسلمين ؟ لا . ولقد علموا أن المدينة خالية من المؤمنين جميعاً وليس فيها إلا من  
تخلف من المنافقين والضعاف من النساء والأطفال ، ولم يؤهلهم فوزهم السطحي لأن



يدخلوا المدينة .

إذن فلا أسروا ، ولا أخذوا غنيمة ، ولا دخلوا المدينة ، ولا ظلوا في أرض  
المعركة ، فكيف تسمى هذا نصراً ؟ فلنقل: إن المعركة ماعت . وظل المسلمون في  
أرض المعركة .

وهنا تتجلى البطولة الحقة ، لأننا كما قلنا في حالة النصر يكون الأمر رخاء ، حتى  
من لم يُبَلِّ في المعركة بلاءً حسناً ينتهز فرصة النصر ويصول ويجول ، ولكن المهزومين  
والذين أصيب قائلدهم صلى الله عليه وسلم ، وضعف أن يصعد الجبل ، حتى أن  
طلحة بن عبيد الله بطأ طيء ظهره لرسول الله ليمنطيه فيصعد على الصخرة . ورسول  
الله يسيل منه الدم بعد أن كسرت رباعيته وثأى حلقتان من حلق المغفر في وجنته ،  
بعد هذا ماذا يكون الأمر ؟ حتى لقد أرجف المرجفون وقالوا : إن رسول الله قد  
قتل .

وكل هذا هو من التمهيع ، فمن يثبت مع هذا ، فهو الذي يؤمن أن يحمل  
السلح لنصرة كلمة الله إلى أن تقوم الساعة . ويتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
بطلاً من أبطال المسلمين كان حوله فلا يجده ، إنه « سعد بن الربيع » .

يقول عليه الصلاة والسلام : « من رجل ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع ؟ أتى  
الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار هو أبى بن كعب : فذهبت  
لأنحسسه ، فرأيتة وقد طعن سبعين طعنة ما بين ضربة سيف وطعنة رمح ورمية  
قوس . فلما رآه قال له : رسول الله يقرئك السلام ، ويقول لك : كيف تحمدك - أى  
كيف حالك - ؟

قال سعد ابن الربيع : قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جزاك الله عنا خير  
ما جزى نبيا عن أمته ، وقل للأنصار ليس لكم عند الله عُذر إن خلص إلى رسول  
الله وفيكم عين تطرف . ثم فاضت روحه .

انظروا آخر ما كان منه ، حين أثنى فى المعركة فلم يقو على أن يجارب

بنصالة<sup>(١)</sup> . انتهز بقية الحياة ليحارب بمقاله ، ولتصير كلماته دويًا في آذان المسلمين .  
وليعلم أن هؤلاء الذين أئخنوه جراحاً ما صنعوا فيه إلا أن قربوه إلى لقاء ربه ، وأنه  
ذاهب إلى الجنة . وتلك هي الغاية التي يرجوها كل مؤمن .

ونجد أيضاً أن الذين يعذرهم القرآن في أن يشهدوا معارك الحرب ، يتطوعون  
للمعارك ! فمثلاً عمرو بن الجموح ، كان أعرج ، والعرج عذر أقامه الله مع المرض  
والعمى ، لأنه سبحانه هو القاتل :

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

( من الآية ٦١ سورة النور )

وكان لعمر بن الجموح بنون أربعة مثل الأسد قد ذهبوا إلى المعركة ، ومع ذلك  
يطلب من رسول الله أن يذهب إلى المعركة ويقول له : يا رسول الله إن بني يريدون  
أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه  
في الجنة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد  
عليك . وقال لبنيه : ما عليكم ألا تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه  
فقتل .

وهذا مؤمن آخر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن ابني  
الذي استشهد بيد رأيته في الرؤيا يقول لى : « يا أبت أقبل علينا » فأرجو أن تأذن لى  
بالمقاتلة فى « أحد » فأذن له فقاتل فقتل فصار شهيداً .

وتتجلى الروعة الإيمانية والنسب الإسلامى فى حذيفة بن اليمان ، لقد كان أبوه  
شيخاً كبيراً مسلماً فأخذ سيفه ولاحق برسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله يرزقه  
الشهادة فى سبيل الله ، فدخل فى المعركة ولا يعلم به أحد فقتله المسلمون

(١) النصال : جمع نصل وهو حديدة السيف والسهم والرمح والسكين .

ولا يعرفونه ، فقال ابنه حذيفة : أبى والله . فقالوا والله ما عرفناه ، وصدقوا ، قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤدى دينه ، فقال له حذيفة بن اليمان : وأنا تصدقت بها على المسلمين .

هذه الأحداث التى دارت فى المعركة تدلنا على أن غزوة أحد كان لابد أن تكون هكذا ، لتمحص المؤمنين تمحيصاً يؤهلهم لأن يحملوا كلمة الله ويعملوها فى الأرض . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ  
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾

لقد نقلهم من معركة فيها شبه هزيمة أو عدم انتصار إلى نصر ، فكأنه يريد أن يقول : إن الأمر بالنسبة لكم أمر إلهكم الذى يرقبكم ويعينكم ويمدكم ويرعاكم . وإياكم أن تعتمدوا على العدد والعدة ولكن اعتمدوا على الحق سبحانه وتعالى وعلى ما يريده الحق توجيهها لكم ، لأن مدد الله إنما يأتى لمستقبل لمدد الله ، ولا يأتى المدد لغير مستقبل لمدد الله .

ونعرف أن فيه فرقاً بين الفاعل وبين القابل ، فالفاعل شئ والقابل للانفعال بالفعل شئ آخر . وضرينا لذلك مثلاً : بأن الفاعل قد يكون واحداً ، ولكن الانفعال يختلف ، وحتى نقرب المسألة نقول : كوب الشاي تأتى لتشرب منه فتجده ساخناً فتتفخ فيه ليبرد ، وفى الشتاء تصبح لتجد يدك باردة فتتفخ فيها لتدفأ ، إنك تتفخ مرة لتبرد كوب الشاي ، ومرة تتفخ لتدفأ يدك ، إذن فالفاعل واحد وهو النافع ، ولكن القابل للانفعال شئ آخر ، ففيه فاعل وفيه قابل ، ومثال آخر : إن القرآن كلام الله ولو أنه نزل على الجبال لحزت خاشعة ، ومع ذلك يسمعه أناس ،

لا يستر الله عليهم بل يكشفهم لنا ويفضحهم بعظمة الوهيته :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ (١٧٣)

(سورة محمد)

إنهم لم يفعلوا بالقرآن ، وقولهم : « ماذا قال آنفا » معناه استهتار بما قيل . ونجد الحق يرد على ذلك بقوله تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾

(سورة محمد)

إن الفاعل واحد والقابل مختلف . ويتابع الحق بلاغه الحكيم في قوله :

﴿ وَلَقَدْ فَصَّرْكُمْ اللَّهُ يَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١٧٤)

)

إذن فعدد الله لكم إنما يتأتى لمستقبل إيمان ، فإن لم يوجد المستقبل - بكسر الباء - فلا يوجد المدد . فإذا كنت لا تستطيع أن تستقبل ما ترسله السماء من مدد نقول لك : أصلح جهاز استقبالك ؛ لأن جهاز الاستقبال كالمذياع الفاسد ، إن الإرسال من الإذاعات مستمر ، لكن المذياع الفاسد هو الذي لا يستقبل . إذن فإن كنت تريد أن تستقبل عن الله فلا بد أن يكون جهاز استقبالك سليما . ويوضح الحق ذلك بقوله جل جلاله :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ

رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزَلِّينَ ﴿١٧٤﴾

وبين سبحانه وتعالى كيفية إصلاح جهاز الاستقبال لتلقى مدد الله فيقول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٧٥﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ضرب المثل بالصبر والتقوى في بدر مع القلة فكان النصر ، وهنا في أحد لم تصبروا ؛ فساعة أن رأيتم الغنائم سال لعابكم فلم تصبروا عنها ، ولم تتقوا أمر الله المبلغ على لسان رسوله في التزام أمانكم . . فكيف تكونون أهلاً للمدد ؟

إذن من الذى يمدد المدد ؟ إن الله هو الذى يعطى المدد ، ولكن من الذى يستقبل المدد ليتفع به ؟ إنه القادر على الصبر والتقوى .

إذن فالصبر والتقوى هما العدة في الحرب . لا تقل عدداً ولا عدة . ولذلك قال ربنا لنا : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ولم يقل : أعدوا لهم ما تظنون أنه يغلبهم ، لا . أنتم تعدون ما في استطاعتكم ، وساعة تعدون ما في استطاعتكم وأسبابكم قد انتهت . . فالله هو الذى يكملكم بالنصر .

والبشر في ذواتهم يصنعون هذا ، فمثلاً - والله المثل الأعلى من قبل ومن بعد -

لنفترض أنك تاجر كبير . وناتيك العربات الضخمة محملة بالبضائع ، صناديق وطرود كبيرة ، وأنت جالس بينما يفرغ العمال البضائع ، وجاء عامل لينزل الطرد فغلبه الطرد على عافيته ، وتجد نفسك بلا شعور منك ساعة تجده سبقع نهب وتقوم لنصرته ومعاونته ، لقد استفد هذا العامل أسبابه ولم يقدر ، فالذى يعنيه الأمر يمد يده إليه ، فما بالناس بالحق سبحانه وتعالى . كأنه يقول ابذل وقدم أسبابك ، فإذا ما رأيت أسبابك انتهت والموقف أكبر منك ، فاعلم أنه أكبر منك أنت ولكنه ليس أكبر من ربك إنه سبحانه يقول :

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ  
وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾

فإياك أن تظن أن المدد بالثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف ، الذين أنزلهم الله وأمدكم بهم أو بالملائكة المدربين على القتال . . إياكم أن تظنوا أن هذا المدد ، هو شرط في نصر الله لك . بذاتك أو بالملائكة ؛ إنه قادر على أن ينصرك بدين ملائكة ، ولكنها بشرى لتونس المادة البشرية ، فساعة يرى المؤمنون أعداداً كبيرة من المدد ، والكفار كانوا متفوقين عليهم في العدد ، فإن أسباب المؤمنين تطمئن وثق بالنصر . إذن فالملائكة مجرد بشرى ، ولكن النصر من عند الله العزيز الذى لا يُغلب . وكل الأمور تسير بحكمته التى لا تدلوها حكمة أبداً . يقول الحق من بعد ذلك :

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُ غَيْرًا  
خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾

وقطع الطرف بتحدد بمعرفة ما هو طرف لماذا ؟ فإن كان الطرف هو العدد الكثير فقطع الطرف أن يقتل بعضه . وإن كان الطرف هو أرضاً واسعة فقطع الطرف أن يأخذ من أرضهم . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَمْحُكُ لَأُمُغِيبَ الْحُكْمِ ۖ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ١١ ﴾

( سورة الرعد )

لقد كانت الأرض الكُفْرِيَّة تخسر كل يوم جزءاً منها لينضم هذا الجزء إلى الأرض الإيمانية ، هذا بالنسبة لسعة الأرض ، وافترض أن الطرف هو المال ، فقطع الطرف هنا يكون بأن نأخذ بعض المال كفنائهم ، ثم هناك المنزلة التي كانت تهابها الجزيرة كلها ، كل الجزيرة تهاب قريشاً ، وقوافلها التجارية للشمال والجنوب لا تستطيع قبيلة أن تتعرض لها ؛ لأن كل القبائل تعرف أنها ستذهب إلى البيت في موسم الحج ، فلا توجد قبيلة تتعرض لها لأنها غداً ستذهب إلى قريش ، إذن فالسيادة والعظمة كانت لقريش ، وساعة تعلم القبائل أن رجال قريش قد كسروا وانهمزموا ، وأن رحلتهم إلى الشام أصبحت مهددة ، فإنهم يبحثون عن فريق آخر يذهبون إليه .

إن قطع الطرف كان على أشكال متعددة ، فإن كان طرف عدد فيقتل بعضهم ، وإن كان طرف أرض فبعضها يؤخذ وتذهب إلى أرض إيمانية ، وإن كانت عظمة وقهرا تأتهم الهزيمة ، وإن كان نفوذاً في الجزيرة فهو يتزلزل ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا .

ولنلاحظ أن الحق قد قال : « ليقطع طرفاً » - لم يقل ليستأصل - لأن الله سبحانه وتعالى أبقى على بعض الكفار لأن له في الإيمان دوراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتلئاً بالمعطف والرحمة والحنان على أمته ، وكان يحسن الظن بالله أن يهديهم ، ولذلك تعددت آيات القرآن التي تتحدث في هذا الأمر . ها هو ذا الحق يقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ ١٢ ﴾

( سورة الكهف )

وفي موقع آخر بالقرآن الكريم يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَدِيعُ نَفْسِكَ إِلَّا بِكُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴿١﴾ إِنْ تَشَاءُ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ  
آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۖ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

والله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَالرَّسُولُ يَحِبُّ أَنْ  
يَهْتَدِيَ إِلَى الْإِيمَانِ كُلِّ فَرْدٍ فِي أُمَّتِهِ ، فَقَالَ الْحَقُّ :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۖ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ  
يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۖ ﴿١٤٨﴾ ﴾

أى ليس لك يا محمد من الأمر شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم ، أو  
يعذبهم ، فلا يجزئك ذلك لأنهم ظالمون أى ما عليك يا محمد إلا البلاغ فقط . أما هم فقد  
ظلموا أنفسهم بالكفر . والظلم كما نعرف هو أخذ الحق من ذى الحق وإعطاؤه لغيره .  
وقمة الظلم هو إضفاء صفة الألوهية على غير الله ، وهو الشرك . ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

إن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ۖ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۖ ﴿١٤٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)



وهذه مسألة لم تخرج عن ملك الله ، لماذا ؟ لأن السماوات والأرض وما فيهن ملك لله : قيل أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد أن خضب المشركون وجهه بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم - أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعو عليهم فنهاه الله لعلمه - سبحانه - أن فيهم من يؤمن وأنزل قوله تعالى :

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

وبما أننا نتحدث عن ملامح في غزوة أحد أريد أن أقول : « جبل أحد رضي الله عنه » ، لأننا سمعنا بعض العارفين بالله حين تذكر كلمة « أحد » قال : أحد رضي الله عنه - فتعجب القوم لقول الشيخ عبد الله الزيدان الذي قال ذلك ، فلما رأى عجبهم قال لهم : ألم يخاطبه رسول الله بقوله : « اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان » (١) ، ألم يقل فيه رسول الله : « أحد جبل يحبنا ونحبه » (٢) أتريدون أحسن من ذلك في الصحبة !، قل : أحد رضي الله عنه .

وقلنا سابقاً : إنك إذا وقف عقلك في حاجة فلا تأخذها بمقاييسك أنت ، بل خذها بالمقاييس الأعلى . ونحن نقول هذا الكلام لأن العلم الآن يجرى ويسعى سعياً حثيثاً مسرعاً حول استخراج بعض أسرار الله في الكون ، فبين لنا أن الحيوانات لها لغات تفاهم بها ، ويحاولون الآن أن يضعوا قاموساً للغة الأسماك . والحق سبحانه وتعالى ذكر لنا حكاية النملة مع سليمان - عليه السلام - فقال :

( ١ ) رواه البخارى في فضائل الصحابة ، وأبو داود في السنة ورواه أحد في المسند .

( ٢ ) رواه البخارى عن سهل بن سعد ، والترمذى ، والطبرانى عن أنس وأحد والطبرانى والبيهاق عن سويد بن عامر

﴿ يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

( من الآية ١٨ سورة النمل )

هذا القول يدل على أنملة خرجت وقامت بعمل ( وردية ) كي تحافظ على من معها ثم عادت لتتكلم مع أبناء فصيلتها ، وسمعها سيدنا سليمان ، فتبسم من قولها . إذن العلم يتسابق ويوجد ويتسارع الآن ليثبت أن لكل جنس في الوجود لغة يفهم بها ، وكل جنس في الوجود له انفعال ، وكل جنس في الوجود له تكاثر ، ولذلك قال الحق لنا على لسان سيدنا سليمان :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْنَا مَنَطِقُ الطَّيْرِ وَأَوْفَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْعَمِيمُ ﴾

( من الآية ١٦ سورة النمل )

وكانت هذه خصوصية لسيدنا سليمان عليه السلام ، إذن للطير منطق . وعندما نتسامى ونذهب إلى الجهاد نسمع قول الحق سبحانه في آل فرعون وعدم بكاء الجهاد عليهم :

﴿ كَرَّزَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَبُودٍ ۝ وَزُرُوعٍ وَمَقَارٍ ۝ كَرِيمٍ ۝ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَتَكِينٌ ۝ كَذَلِكَ ۝ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ۝ آخَرِينَ ۝ قَالَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ۝ ﴾

( سورة الدخان )

هل تبكى السماء والأرض ؟ إنه أمر عجيب ؛ فالجهاد من سماء وأرض لا تفاهم فقط ولكن لها عواطف أيضاً ، لأن البكاء إنما ينشأ عن انفعال عاطفي وجداني .

وهذا يعني أن الجهادات لا تتكلم فقط ، ولكنها تحس أيضاً . فالأرض تخرج أنفاسها ،  
وتحدث أخبارها ، كيف ؟

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾

( سورة الزلزلة )

والسما والارض اتيا الى الله في متهى الطاعة والخشوع :

﴿ ثُمَّ أَسْرَوْنَ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾

( سورة فصلت )

إذن فهناك ما هو أكثر من التفاهم ، إن لها عواطف مثلك تماماً ، وكما تحزنك  
حاجة فالأرض أيضاً تبكى ، ومادامت تبكى إذن فلها مقابل بأن تفرح ، ويقول الله  
تعالى عن أرض فرعون : « فما بكيت عليهم السماء والأرض ، فلو أنها لم تبك مع بعض  
الناس ؛ لما كان لهذا الكلام ميزة .

لذلك قال الإمام على - كرم الله وجهه - : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان :  
موضع مصلاه ؛ لأنه سيحرم من نعمة الإيمان ، ومصعد عمله ، موضع في الأرض  
وموضع في السماء . إذن فلا بد أن نفهم أن لكل شيء شعوراً . وقال صلى الله عليه  
وسلم : « إذا مات المؤمن استبشرت له بقاع الأرض فليس من بقعة إلا وهي تتمنى  
أن يدفن فيها » (١)

لماذا نقول هذا الكلام الآن ؟ نقول ذلك حتى إذا ثبت بالعلم أن لكل شيء لغة ،  
ولكل شيء في أجناس الكون تفاهما ، يقال إن فيه ناساً هبت عليهم نسيات الإيمان  
فأدركوها وأحسوها من القرآن ، فلا يبقى أحد أنه ابتكر من ذات نفسه لأنها في  
القرآن وإن كنا لا نعرف كيف تأتي .

( ١ ) رواه الديلمى عن ابن عمر رض الله عنهما ، وتكملة الحديث : « وإذا مات الكافر انظمت الأرض فليس  
من بقعة إلا وهي تستبذ بالله أن يدفن فيها » .

وهذه المعركة - معركة أحد - التي أخذت ستين آية ، نجد أن الحق تكلم عنها هنا فقال : « وإذ غدوت من أهلك » و« إذ همت طائفتان » ، وقوله : « ولقد نصركم الله بيدروا أنتم أذلة » ، وبعد ذلك يترك الغزوة في حرارتها ويأتينا بأشياء يضعها هنا ، ثم يأتي ليكمل الغزوة . لو أن هذه لفظة من الغزوة وتنتهي ثم يأتي موضوع آخر ، لما شغلنا أنفسنا ، إنما الغزوة ستأتي فيها ستون آية ، فكيف ينهي الكلام في الغزوة ولا يعطينا إلا استهلال الغزوة ، وبعد ذلك ينصب القرآن على معاني بعيدة عن الغزوة ؟ فما الذي يجعله - سبحانه - يترك أمر الغزوة ليقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ مَضَافًا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٢٦ ﴾  
 ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ١٢٧ ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٢٨ ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٩ ﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَالْغَيْبِ وَالْكَافِرِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ١٣٠ ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَرَحٌ وَإِلَّا اللَّهُ وَلَوْ يَصْهَرُ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣١ ﴾ أُولَئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ١٣٢ ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكَ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ١٣٣ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٤ ﴿

( سورة آل عمران )

لماذا لم يعطينا الحق إلا استهلال الغزوة وبعد ذلك انصب على قضايا أولها قضية الربا ، ما العلاقة بين هذه القضايا وتلك الغزوة ؟ . وأقول : رحم الله صاحب

الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب فقد استطاع أن يستخلص من هذه النقلة مبادئ إيمانية عقدية لو أن المسلمين في جميع بقاع الأرض جعلوها نصب أعينهم لما كان لأى دولة من دول الكفر غلب علينا .

ونريد أن نفهم هذه اللقطات . ولماذا استهلكت بمسألة الربا ؟ لأن الذى كان سبباً في الهزيمة أو عدم النصر في معركة أخذ أنهم طمعوا في الغنمة . والغنمة مال زائد ، والربا فيه طمع في مال زائد .

والقرآن حين يعالج هنا قضية حديثة ، والأحداث أغيار تمر وتنتهى ، فهو سبحانه يريد أن يستبقى عطاء الحدث ليشيع في غير زمان الحدث ، وإلا فالحدث قد يمر بعظاته وعبره وينتهى ولا تكون له فائدة . والنفس حين تمر بالأحداث تكون ملكاتها متفتحة ؛ لأن الحدث - كما قال المغفور له الشيخ سيد قطب - يكون ساخناً ، فحين يستغل القرآن الحدث قبل أن يبرد فإن القضية التى تتعرض لها الموعظة تتمكن من النفس البشرية . وهو سبحانه لم يرد أن تمر أحداث أخذ بما فيها من العبر والعظات إلا ويستغلها القرآن الكريم ليثبت بها قضايا إيمانية تشيع في غير أزمنة الحدث من الحروب وغيرها لتتنظم أيضاً وقت السلام . فأية الربا هنا كأنما سقطت وسط النصوص التى تتعرض لغزوة أحد .

والسطحيون قد يقولون : ما الذى جعل القرآن ينتقل من الكلام عن أخذ إلى أن يتكلم في الربا مرة ثانية بعد أن تكلم عنه أولاً ؟

ونقول : إن القرآن لا يؤرخ الأحداث ، وإنما يُريد أن يستغل أحداثاً ليسط ويوضح ما فيها من المعانى التى تجعل الحدث له عرض وله طول وله عمق ؛ لأن كل حدث في الكون يأخذ من الزمن قدر الحدث ، والحدث له طول هو قدر من الزمن ، يكون ساعة أو ساعتين أو ليلة مثلاً ، هذا هو طول الحدث .

والأحداث التى يجريها الله لها طول يحدده عمر الحدث الزمنى ، ولها عرض يعطيها الاتساع ، فبعد أن كانت خطاً مستقيماً صارت مساحة ، ويجعلها الحق شاملة لأشياء كثيرة ، فهو لا يريد للحدث أن يسير كخط مستقيم ، بل يريده طريقاً واسعاً له

مساحة وله عرض . هذا العرض يعطيه رقعة مساحة تأخذ كثيراً من الأشياء ، وهذا أيضاً قد ينتهي مع الحدث ، ولذلك يريد الله أن يعطى للحدث بعداً ثالثاً وهو العمق في التاريخ فيعطى عطائه ، كما نستفيد نحن الآن من عطاء حدث هو غزوة أحد .

إذن فالحدث له حجم أيضاً ، وهذا ما يجعل الناس تقف لتقول : إن صلة الرحم تطيل العمر ، والعمر له حد زمني محدد وهو الخط المستقيم له ، فهناك واحد يزيد من عرض عمره ، فبدلاً من أن ينفع الناس في مجال صغير فهو يعمل وينفع في مجال أوسع ، إذن فهو يعطى لعمره مساحة .

وهناك إنسان آخر يريد أن يكون أقوى في العمر ، فيأخذ يعمل ؟ إنه يعطى لعمره عمقاً ، فبدلاً من أن يعمل لمجرد حياته وينتهي عمره مهما كانت رفعتة واسعة ، فهو يزيد من عمله الصالح ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » (١) .

ولذلك يقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ ٢٥ ﴾

( سورة إبراهيم )

هي كلمة طيبة قيلت ، لكنها مثل الشجرة الطيبة ، لأنها ترسخ في أذن من يسمعها فتصير حركة خاضعة للكلمة ، وكلما فعل السامع هذه الكلمة فعلاً نالها من تأثير هذه الكلمة فإن بعض الثواب يعود إلى من قال هذه الكلمة حتى ولو كان قد مات .

( ١ ) رواه أبو داود والترمذي والنسائي والبخاري في الأدب المفرد .

فكان قائل هذه الكلمة مازال يعيش ، وكان عمره قد طال بكلمته الطيبة . إذن فأعمال الخير التي تحدث من الإنسان ليس معناها أنها تطيل العمر ؛ لأن العمر محدود بأجل ، ولكن هناك إنسان يعطى عمره عرضاً ، وآخر يعطيه عمقاً ويظل العطاء منه موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، فكانه أعطى لنفسه عمراً خالداً . ويقولون : والذكر للإنسان عمر ثان .

والحق سبحانه وتعالى يوضح الدروس المستفادة من غزوة أحد ، إن أول مخالفة كانت سبباً ليس في الهزيمة ، ولكن ذهنا نقل : « في عدم إتمام النصر » ، لأنهم بدأوا متصرين ، ولم يتم النصر لأنه قد حدثت مخالفة ، ودوافع هذه المخالفة أنهم ساعة رأوا الغنائم ، اندفعوا إليها ، إذن فدوافعها هي طلب المال من غير وجه مشروع ؛ لأن النبي قال لهم : ( انضحوا عنا الخيل ولا تؤتينا من قبلكم ، الزموا أماكنكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا نخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم ) وبهذا صارت مبارحة المكان أمراً غير مشروع ، فتطلع النفس إلى شيء في غير ما أمر به رسول الله يعتبر أمراً غير مشروع والتطلع هنا كان للمال ، وهكذا الربا .

وأراد الحق أن تكون سخونة الحدث ، والاثار الذي نشأ من الحدث في أن المسلمين لم يتم نصرهم ، وتعبوا ، وكان مصدر التعب أن قليلاً منهم أحبوا المال الزائد من غير وجه المشروع . فأراد - سبحانه - أن يكون ذلك مدخلاً لبيان الأثر السيئ للتعامل بالربا .

إذن فهذه مناسبة في أننا نجد آية الربا هنا وهي توضح الآثار السيئة للطمع في المال الزائد عن طريق غير مشروع ، والقرآن فيه الكثير من المواقف التي توضح آثاراً تبدو في ظاهرها غير مترابطة ، ولكن النظرة العميقة تؤكد الترابط .

وقلنا من قبل في قول الله تعالى :

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا لُمْتُمْ فَأُذِكُرُّوا أَنَّهُ لَا عَلَيْكُمْ مَالٌ نَّكُوفُوا تَعْلَمُونَ ۖ ﴾  
( سورة البقرة )

قد يقول أحد السطحين : إن الحق سبحانه وتعالى كان يتكلم عن الطلاق قبل هاتين الآيتين فقال سبحانه :

﴿ وَإِنْ خَلَقْتُمُوهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَمْسُوهُمْ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُمْ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَيْنَا حِجَابًا أُولَئِكَ يَكُونُ لَكُمْ مِنْهُ عَقْدٌ إِلَى يَوْمِ تَقْضَىٰ الْأَقْدَامُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ إِنْ أَنْتُمْ تَصِلُونَ بِهِمْ ۖ ﴾

( سورة البقرة )

ويترك الحق الحديث عن الطلاق ويأمر بالحفاظ على الصلاة بقوله الحكيم : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وبعد ذلك يعود الحق لاستكمال حديث الطلاق والفراق بالموت .

﴿ وَالَّذِينَ يَتُوفُونَ مِنْكُمْ وَتَرَكُوا وَرَثَةً لِّأَزْوَاجِهِمْ مَّتَّعْنَا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِتْرَاجٍ فَمَنْ تَرَجَعَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَّعْرُوفٍ ۖ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾

( سورة البقرة )

إنه يتكلم عن الطلاق ، والوفاة ، ثم يتزل بينهما آية الصلاة ، لماذا ؟ ليتضح لنا أن المنهج الإسلامي منهج متكامل . إليك أن تقول : إن الطلاق غير الصلاة ، غير الوفاة ، أبداً ، إنه منهج متكامل . ولأنه .. سبحانه وتعالى - يريد أن ينبهنا إلى أن لطلاق عملية تأن والنفس فيها غضب ، وتأني الزوج والزوجة وأهل الزوج وأهل لزوج في كدر ، فيقول لهم المنهج : لو كنتم تحسنون الفهم لفزعتم إلى الصلاة حين واجهكم هذه الأمور التي فيها كدر .

وساعة تكون في كدر قم وتوضاً وصل ، لأن النبي علمنا أنه إذا خزيه أمر قام



إلى الصلاة ، فساعة نجد الجو المشحون بالتوتر بين الزوج والزوجة وأهلها قل لهم :  
المسألة صارت أكبر من حيلنا ، فهيا نصل ليساعدنا الله على حل هذه المسائل  
الصعبة ، وأنا أتحدى ألا يوجد الله حلاً لمشكلة لجأ فيها المسلم إلى الصلاة قبلها .

وهكذا نفهم أن الحق قال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » لأن  
محافظة صلواتكم عليها هي التي ستنتهي كل الخلافات ؛ لأن الله لا يكون في بالكم ساعة  
ضيقكم وفي ساعة شدتكم فتستسلمون للضيق والشدة وتنسون الصلاة ، في الوقت  
الذي يكون فيه الإنسان أحوج ما يكون إلى الصلاة . إنك في وقت الضيق والشدة  
عليك أن تذهب إلى ربك ، وأقول هذا المثل - والله المثل الأعلى - إن الولد الذي  
يضره أصحابه يذهب إلى أبيه ، كذلك زوجتك إذا أغضبتك تذهب إلى أهلها ،  
فكيف لا تذهب إلى ربك وقت شدتك وكربك ؟ .

وهكذا نجد أن قوله الحق : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » جاء في  
المكان الصحيح ، وهكذا آية الربا ، جاءت في مكانها هنا وخصوصاً أنه تكلم عن  
الربا أولاً ، فتأتى الحادثة ومسخونة الحدث وينزل هذا القول الكريم . كى يعرف كل  
من يريد مالاً زائداً على غير ما شرع الله أنه سيأتى منه البلاء على نفسه وعلى غيره ،  
فالبلاء في أحد شمل الجميع : الرماة وغير الرماة أيضاً .

إذن فكل الدنيا تتعب عندما تخالف منهج الله ، والمال الزائد من غير ما شرع الله  
إن لم يترك فقد اذن الله من يأكله بحرب من الله ومن رسول الله .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا  
مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣﴾

والربا زيادة في المال ، فهل يؤكل ؟ نعم ؛ لأن كل المسائل المالية من أجل اللقمة

التي تأكلها . هذا هو الأصل . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا » (١) .

ونعرف أنه عندما يكون الواحد منا في منطقة ليس فيها رغيف خبز ، فلن تنفعه ملكية جبل من الذهب . « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » وقوله سبحانه : « أضعافاً » و « مضاعفة » هو كلام اقتصادي على أحدث نظام ، فالأضعاف هي : الشيء الزائد بحيث إذا قارنته بالأصل صار الأصل ضعيفاً ، فعندما يكون أصل المال مائة - على سبيل المثال - وسيؤخذ عليها عشرون بالمائة كفاائدة فيصبح المجموع مائة وعشرين . إذن فالمائة والعشرون تجعل المائة ضعيفة ، هذا هو معنى أضعاف .

فإذا عن معنى « مضاعفة » ؟ إننا سنجد أن المائة والعشرين ستصبح رأس مال جديداً ، وعندما تمر سنة ستأخذ فائدة على المائة وعلى العشرين أيضاً ، إذن فالأضعاف ضوعفت أيضاً ، وهذا ما يسمى بالربيع المركب ، وهل معنى هذا أننا نأكله بغير أضعاف مضاعفة ؟ لا ، لأن الواقع في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هكذا .

وقد يقول لك واحد : أنا أفهم القرآن وأن المنهى هو الأضعاف المضاعفة ، فإذا لم تكن أضعافاً مضاعفة فهل يصح أن تأخذ ربحاً بسيطاً يتمثل في نسبة فائدة على أصل المال فقط ؟ . ولكن مثل هذا القائل نرده إلى قول الله :

﴿ وَإِنْ تَبْتِمُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

( من الآية ٢٧٩ سورة البقرة )

إن هذا القول الحكيم يوضح أن التوبة تفتضي أن يعود الإنسان إلى حدود رأس ماله ولا يشوب ذلك ربح بسيط أو مركب . وعندما نجد كلمة « أضعافاً مضاعفة » فهي قد جاءت فقط لبيان الواقع الذي كان سائداً في أيامها .

ويعد ذلك يقول الحق تذيلاً للآية : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » ونقول دائماً

(١) رواه البخاري في الأدب ، والترمذي وابن ماجه عن عبدالله بن محسن .

ساعة نرى كلمة « اتقوا » يعنى اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، وهل تكون الوقاية بينكم وبين الله بكل صفات جماله وجلاله ؟ لا ، فالوقاية تكون مما يتعب وما يؤلم ويؤذى ، إذن فاتقوا الله يعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلالة من جبروت وفهر وانتقام وقاية ، وعندما يقول الحق : « واتقوا النار » فهي مثل قوله : « واتقوا الله » ، لأن النار جند من جنود صفات الجلال .

وعندما يقول الحق : « لعلكم تفلحون » نعرف أن كلمة « الفلاح » هذه تأتى لترغيب المؤمن فى منهج الله ، وقد جاء الحق بها من الشئ المحسن الذى نراه فى كل وقت ، ونراه لأنه متعلق ببقاء حياتنا ، وهو الزرع والفلاحة ، أنت تحرث وتبذر وتروى ، وبعد ذلك تحصد .

إذن فهو يريد أن يوضح لك أن المتاعب التى فى الحرث ، والمتاعب التى فى البذر ، والمتاعب التى فى السقى كلها متى ترى نتيجتها ؟ أنت ترى النتيجة ساعة الحصاد ، فالفلاح يأخذ ( كيلتين ) من القمح من مخزنه كى يزرع ربع فدان ، ولا نقول له : أنت أنقصت المخزن ، لأنه أنقص المخزن للزيادة ، ولذلك فالذى لم ينقص من مخزنه ولم يزرع ، يأتى يوم الحصاد يضع يده على خده نادماً ولا ينفع الندم حينئذ !

إن الحق يريد أن يقول لنا : إن المنهج وإن أتعبك ، وإن أخذ من حركتك شيئاً كثيراً إلا أنه سيعود عليك بالخير حسب نيتك وإقبالك على العمل ، ولقد ضرب لنا الله المثل فى قوله :

﴿ كُنْزٌ حَبَّةٌ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

( الآية ٢٦١ سورة البقرة )

هذا أمر واضح ، حبة نأخذها منك فتنقص ما عندك ، لكنها تعطيك سبعمائة ، إذن فساعة تؤخذ منك الحبة لا تقل : إنك نقصت ، إنما قَدَّرَ أنك ستزيد قدر كذا . ويعطينا الله ذلك المثل فى خلق من خلقه وهو الأرض ،

الأرض الصماء ، أنت تعطيها حبة فتعطيك سبعائة . فإذا كان خلق من خلق الله وهو الأرض يعطيك أضعاف أضعاف ما أعطيت . أفلا يعطيك رب هذه الأرض أضعافاً مضاعفة ؟ إنه قادر على أجزل العطاء ، هذا هو الفلاحُ على حقيقته ، وبعد ذلك فإنه ساعة يتكلم عن الفلاح يقول لك : إنك لن تأخذ الفلاح فقط ولكنك تنقى النار أيضاً .

فيقول الحق سبحانه :

﴿وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (١٢١)

إذن ففيه مسألتان : سلبٌ لمضرة ، وإيجابٌ لمنفعة ، إنه يوجب لك منفعة الفلاح ويسلب منك مضرة النار . ولذلك يقول تعالى :

﴿مَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾

( من الآية ١٨٥ سورة آل عمران )

لأنه إذا زُحِرَ عن النار ولم يعد في نار ولا في جنة فهذا حسن ، فما بالك إذا زُحِرَ عن النار وأدخل الجنة ؟ إن هذا هو الفوز الكبير ، وهذا السبب في أن ربنا سبحانه وتعالى ساعة السير على الصراط سيرنا النار ونغر عليها ، لماذا ؟ كي نعرف كيف نجانا الإيمان من هذه ، وما الوسيلة كي نفلح وتنقى النار ؟ إن الوسيلة هي اتباع منهج الله الذي جاء به على لسان رسوله :

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٢٢)

وه الرحمة ، تنجلي في ألا يوقعك في المتعة ، أما الشفاء فهو أن تقع في المتعة ثم تزول عنك ، لذلك فنحن إذا ما أخذنا المنهج من البدء فسنأخذ الرحمة .

﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾

( من الآية ٨٢ سورة الإسراء )

إن الشفاء هو إزالة للذنوب الذي تورطنا فيه ويكون القرآن علاجاً ، والرحمة تنجلي إذا ما أخذنا المنهج في البداية فلا تأني لنا أية متاعب . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَارِعُوا إِلَىٰ مَقْفِرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ

أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٢﴾

والسرعة - كما عرفنا - مقابلها العجلة ، إن السرعة هي : التقدم فيما ينبغي ، ومعنى أن تتقدم فيما ينبغي : أنك تجعل الحدث يأخذ زمناً أقل ، والمثال على ذلك عندما يسرع الإنسان بسيارته من القاهرة إلى الإسكندرية فهو يحاول أن يقطع المائتين والعشرة كيلو مترات في زمن أقل ، فبدلاً من أن تأخذ منه ثلاث ساعات في السيارة فهو يسرع كي تأخذ منه ساعتين . إذن فالسرعة هي : التقدم فيما ينبغي ، وهي عمودة ، وضدها : الإبطاء . فالسرعة محمودة ، والإبطاء مذموم .

لكن « العجلة » تقدم فيما لا ينبغي ، وهي مذمومة ، مقابلها « التأني » ، والتأني مدح ، إذن فالسرعة محمودة ، ومقابلها الإبطاء مذموم ، والعجلة مذمومة ، ومقابلها التأني مدح ، والمثل الشعبي يقول : في التأني السلامة وفي العجلة الندامة .

إن الحق يقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » أى : خذوا المغفرة وخذوا الجنة بسرعة ، لأنك لا تعرف كم ستبقى في الدنيا ، إياك أن تؤجل عملاً من أعمال الدين أو عملاً من أعمال الخير ، لأنك لا تعرف أبقى له أم لا . فانتهاز فرصة حياتك وخذ المغفرة وخذ الجنة ، هذا هو المعنى الذى يأتى فيه الأثر الشائع « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

الناس تفهمها فهماً يؤدي مطلوباتهم النفسية بمعنى : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً : يعنى اجمع الكثير من الدنيا كي يكفيك حتى يوم القيامة ، وليس هذا فهماً صحيحاً لكن الصحيح هو أن ما فاتك من أمر الدنيا اليوم فاعتبر أنك ستعيش طويلاً وتأخذه غداً ، أما أمر الآخرة فعليك أن تعجل به .

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » ونحن نعرف أن المساحات لها طول وعرض ، لأن الذى طوله كعرضه يكون مربعاً ، إنما الذى عرضه أقل من طوله فنحن نسميه « مستطيلاً » ، ونحن يقول الحق « عرضها السموات والأرض » نعرف أن العرض هو أقل البعدين ، أى أنها أوسع مما نراه ، فكانه شبه البعد الأقل في الجنة بأوسع البعد لما نعرفه وهو السموات والأرض ملتصقة مع بعضها بعضاً فأعطانا أوسع مما نراه . فإذا كان عرضها أوسع مما نعرف فما طولها ؟ أنه حد لا نعرفه نحن .

قد يقول قائل لماذا بين عرضها فقال : « عرضها السموات والأرض » . فإين طولها إذن ؟ ونقول : وهل السموات والأرض هي الكون فقط ؟ إنه سبحانه يقول :

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾

( من الآية ٢٥٥ سورة البقرة )

ويقول صلى الله عليه وسلم : ( ما السموات والأرض وما بينهما إلا كحلقة ألغاهها ملك في فلاة ) . اليس هذه من ملك الله ؟

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أعدت للمتقين ، ومعنى « أعدت » أى هيئت وصنعت وانتهت المسألة ! يؤكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

( عرضت على الجنة ولو شئت أن أتیکم بقطاف منها لفعلت )<sup>(١)</sup> .

لماذا ؟ لأن الإخبار بالحدث قد يعنى أن الحدث غير موجود وسيوجد من بعد ذلك ، ولكن الوجود للحدث ينفى أن لا يوجد ؛ لأن وجوده صار واقعاً ، فعندما يقول : « أعدت » فمعناها أمر قد انتهى الحق من إعداده ، ولن يأخذ من خامات الدنيا وينتظر إلى أن ترتقى الدنيا عندكم ويأخذ وسائل ومواد مما ارتقيتم ليعدها الجنة ، لا .

لقد أخبر سبحانه عنها فقال : فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأعد سبحانه الجنة كلها بـ « كن » ، فعندما يقول : « أعدت » تكون مسألة مفروغاً منها . ومادامت مسألة مفروغاً منها إذن فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه ، والجنة أعدت للمتقين ، فمن هم المتقون ؟

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ

النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٤﴾

هذه بعض من صفات المتقين « والكاظمين الفيظ » لأن المعركة - معركة أخذ - ستعطينا هذه الصورة أيضاً . فحمزة وهو سيد الشهداء وجم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقتل . ولينه يُقتل فقط ولكنه مُثل به ، وأخذ بضع منه وهو الكبد فلاكه « هند » ، وهذا أمر أكثر من القتل . وهذه معناها ضغن دن .

وحينها جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مقتل حمزة وقالوا له : إن « هنداً »

أخذت كبده ومضغتها ثم لفظتها ، إذ جعلها الله غصية عليها ، قال : « ما كان الله ليعذب بعضاً من حمزة في النار ، كأنها ستذهب إلى النار ، ولو أكلتها لتمثلت في جسمها خلأيا ، وعندما تدخل النار فكان بعضاً من حمزة دخل النار ، فلا بد أن ربها يجعل نفسها تحبش وتنهيا للقيء وتلفظ تلك البضعة التي لاكتها من كبد سيد الشهداء .

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة بأنها أظلم ما لقي . إنها مقتل حمزة فقال : ( لئن أظفرك الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ) .

وهنا جاء كظم الغيظ ليأخذ ذروة الحدث وقمته عند رسول الله في واحد من أحب البشر إليه وفي أكبر حادث أغضبه ، وينزل قول الحق :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (١٦٥)

( سورة النحل )

كي نعرف أن ربنا - جل جلاله - لا يفعل لأحد ؛ لأن الانفعال من الأغيار ، وهذا رسوله فأنزل - سبحانه - عليه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ويأتى هنا الأمر بكظم الغيظ ، وهو سبحانه يأتي بهذا الأمر في مسألة تخص الرسول وفي حدث « أحد » . وبعد ذلك يُشيعها قضية عامة لتكون في السلم كما كانت في الحرب . وتكون مع الناس دون رسول الله ؛ لأنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« والكاذمين الغيظ » ونعرف أن كل الأمور المعنوية مأخوذة من الحسيات . وأصل الكظم أن تملأ القربة ، والقرب - كما نعرف - كان يحملها « السقا » في الماضي ، وكانت وعاء نقل الماء عند العرب ، وهي من جلد مذبوغ ، فإذا ملئت القربة بالماء شد على رأسها أى ربط رأسها ربطاً محكماً بحيث لا يخرج شيء مما فيها ، ويقال عن هذا الفعل : « كظم القربة » أى ملأها وربطها ، و القربة لينة وعندما توضع على ظهر واحد أو على ظهر الدابة فمن ليونتها تخرج الماء فتكظم وترتبط بإحكام كي لا يخرج منها شيء .



كذلك الغيظ يفعل في النفس البشرية ، إنه يبيجها ، والله لا يمنع الهياج في النفس لأنه انفعال طبيعي ، والانفعالات الطبيعية لو لم يردها الله لمنع أسبابها في التكوين الإنسان . إنما هو يريد لها لأشياء مثلاً : الغريزة الجنسية ، هو يريد لها لبقاء النوع ، ويضع من التشريع ما يهديها فقط ، وكذلك انفعال الغيظ ، إن الإسلام لا يريد من المؤمن أن يُصب في قالب من حديد لا عواطف له ، لا ، هو سبحانه يريد للمؤمن أن يفعل للأحداث أيضاً ، لكن الانفعال المناسب للحدث ، الانفعال السامي الانفعال المثمر ، ولا يأتي بالانفعال المدمر .

لذلك يقول الحق :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا  
سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

( من الآية ٢٩ سورة الفتح )

فالمؤمن ليس مطبوعاً على الشدة ، ولا على الرحمة ، ولكن الموقف هو الذي يصنع عواطف الإنسان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

( من الآية ٥٤ سورة المائدة )

وهل هناك من هو ذليل عزيز معاً ؟ نقول : المنهج الإيمان يجعل المؤمن هكذا ، ذلة على أخيه المؤمن وعزة على الكافر . إذن فالإسلام لا يصب المؤمنين في قالب كي لا يفعلوا في الأحداث .

ومثال آخر : ألم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم ؟ لقد انفعال وبكى وحزن . إن الله لا يريد المؤمن من حجر . بل هو يريد المؤمن أن يفعل للأحداث ولكن يجعل الانفعال على قدر الحدث ، ولذلك قال سيدنا رسول الله عند فراق ابنه : ( إن العين تدمع وإن القلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا بفراقك

يا إبراهيم لحزونون (١).

ولا نقول لحظة الانفعال ما يسخط الرب . بل انفعال موجه ، والغيظ يحتاج إليه المؤمن حينما يهيج دفاعاً عن منهج الله ، ولكن على المؤمن أن يكظمه . . أى لا يجعل الانفعال غالباً على حسن السلوك والتدبير . والكظم - كما قلنا - مأخوذ من أمر محس . مثال ذلك : نحن نعرف أن الإبل أو العجاوات التى لها معدتان ، واحدة يُخْتَزَن فيها الطعام ، وأخرى يتغذى منها مباشرة كالجمل مثلاً ، إنه يجتر .

ومعنى : يجتر الجمل أى يسترجع الطعام من المعدة الإضافية ويضمغه ، هذا هو الاجترار . فإذا امتنع الجمل عن الاجترار يقال : إن الجمل قد كظم . والحق سبحانه يقول : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الانفعال فى ذاته ، فقد يبقى فى النفس وتكظمه ، ومعنى كظم الانفعال : أن الإنسان يستطيع أن يخرج إلى حيز النزوع الانفعالى ، ولكنه يكبح جماح هذا الانفعال . أما العفو فهو أن تخرج الغيظ من قلبك ، وكان الأمر لم يحدث ، وهذه هى مرتبة ثانية . أما المرتبة الثالثة فهى : أن تنفعل انفعالاً مقابلاً ، أى أنك لا تقف عند هذا الحد فحسب ، بل إنك تستبدل بالإساءة الإحسان إلى من أساء إليك . إذن فهناك ثلاث مراحل : الأولى : كظم الغيظ . والثانية : العفو . والثالثة : أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسيء إليه .

وهذا هو الارتقاء فى مراتب اليقين ؛ لأنك إن لم تكظم غيظك وتنفعل ، فالمقابل لك أيضاً لن يستطيع أن يضبط انفعاله بحيث يساوى انفعالك ، ويمتلئ تجاهك بالحدة والغضب ، وقد يظل الغيظ نامياً وربما ورث أجيالاً من أبناء وأحفاد . لكن إذا ما كظمت الغيظ ، فقد ينجل الذى أمامك من نفسه وتنتهى المسألة .

« والعافين عن الناس » مأخوذة من « عفى على الأثر » والأثر ما يتركه سير الناس

(١) رواه البخارى فى الجنائز ، ومسلم فى الفضائل ، وابن ماجه فى الجنائز ورواه أحمد فى المسند .

في الصحراء مثلاً ، ثم تأتي الريح لتمحو هذا الأثر . ويقول الحق في تذييل الآية :  
« والله يحب المحسنين » .

وقلنا في فلسفة ذلك : إننا جميعاً صنعة الله ، والخلق كلهم عيال الله . وما دمنّا  
كلنا عيال الله فعندما يسيء واحد لآخر فالله يقف في صف الذي أسىء إليه ، ويعطيه  
من رحمته ومن عفوه ومنحنائه أشياء كثيرة . وهكذا يكون المساء إليه قد كسب .  
أليس من واجب المساء إليه أن يمحسّن للمسيء ؟ .

لكن العقل البشري يفقد ذكاءه في مواقف الغضب : فالذي يسيء إلى إنسان  
بحسبه عدواً . لكن على الواحد منا أن يفهم أن الذي يسيء إليك إنما يجعل الله في  
جانبك ؛ فالذي نالك من إيذائه هو أكثر مما سلبك هذا الإيذاء . هنا يجب أن تكون  
حسن الإيمان وتعطي المسيء إليك حسنة .

ويضيف الحق من بعد ذلك في صفات أهل الجنة :

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا  
أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ بِهِمْ وَمَنْ  
يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا  
فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾

والفاحشة هي: الذنب الفظيع . فهل معنى ذلك أن الرماة في غزوة أحد حين تركوا  
مواقعهم ، قد خرجوا من الإيمان ؟ لا ، إنها زلة فقط ، لكنها اعتبرت كبيرة من  
الكبائر لمن أشار على المؤمنين أن ينزلوا ، واعتبرت صغيرة لمن حُرّض - بالبناء للمفعول -  
على أن ينزل من موقعه .

إذن فهو قول مناسب : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » وجاء الحق هنا بـ « ذكروا الله » كتنبيه لنا إلى أن من يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه هو من نسي الله ، فلحظة فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يكون الله على بال الإنسان الفاعل للفاحشة أو على بال من ظلم نفسه ، والذي يُجرى الإنسان على المعصية ليحقق لنفسه شهوة ، أنه لم ير الله ولم ير جزاءه وعقابه في الآخرة ماثلاً أمامه ، ولو تصور هذا لامتنع عن الفاحشة .

وكذلك الذي يميل في الطاعة أيضاً ، لم يذكر الله وعطاءه للمتقين . ولو ذكر الله وعطاءه للمتقين لما تكامل عن طاعة الله . ولذلك يقول الحق : « ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » فمن يستغفر لذنبه فقد ذكر الله .

وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف . بعض العلماء قال : إنها الكبيرة من الكبائر ، وظلم النفس صغيرة من الصغائر . وقال بعض آخر من العلماء : إن الفاحشة هي الزنا ؛ لأن القرآن نص عليها ، ومادون ذلك هو الصغيرة .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( لا كبيرة مع الاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار )<sup>(١)</sup>

فلا يجوز للإنسان أن يتجاوز عن أخطائه ويقول : هذه صغيرة وتلك صغيرة لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة . وحين ننظر إلى قول الله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم » نجد أن الذي فعل الفاحشة ظالم لنفسه أيضاً لأنه حقق لنفسه شهوة عارضة ، وأبقى على نفسه عذاباً خالداً .

ولماذا لم يقل الحق إذن : والذين ظلموا أنفسهم فقط ؟ أى يكون العطف بـ ( الواو ) لا بـ ( أو ) ؛ لأن الحق يريد أن يوضح لنا الاختلاف بين فعل الفاحشة وظلم النفس .

لأن الذي يفعل الفاحشة إنما يحقق لنفسه شهوة أو متعة ولو عاجلة ، لكن الذي

( ١ ) رواه أبو الشيخ والديلمي عن ابن عباس رفته ، ورواه البيهقي - عن ابن عباس - موقوفاً ، وله شاهد عند

البغوي ، ومن جهة الديلمي عن أنس مرفوعاً ، وأخرجه الطبراني عن ابن هريرة ، ورواه في آخره : فطوب لمن وجد في

كتابه استغفاراً كثيراً ، لكن في إسناده بشر بن عبيد الفارسي متروك .

يظلم نفسه بذنب الذنب ولا يعود عليه شيء من النفع ؛ فالذي يشهد الزور - على سبيل المثال - إنه لا يحقق لنفسه النفع ، ولكن النفع يعود للمشهود له زوراً . إن شاهد الزور يظلم نفسه لأنه لم يلب حاجة عاجلة لغيره ، ولم يتخذ نفسه من عذاب الآخرة . أما الإنسان الذي يرتكب الفاحشة فهو قد أخذ متعة في الدنيا ، وبعد ذلك ينال العقاب في الآخرة .

لكن الظالم لنفسه لا يفيد نفسه ، بل يضر نفسه ؛ فالذي هو شر أن تبيع دينك بدنياك ؛ إنك في هذه الحالة قد تأخذ متعة من الدنيا وأمد الدنيا قليل . والحق لم يته عن متاع الدنيا ، ولكنه قال عنه : « قل متاع الدنيا قليل » . وهناك من يبيع دينه بدنيا غيره ، وهو لا يأخذ شيئاً ويظلم نفسه .

ويقول الحق : « فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله » . ومعنى « ذنب » هو مخالفة لتوجيه منهج . فقد جاء أمر من المنهج ولم ينفذ الأمر . وجاء نهي من المنهج فلم يلتزم به . ولا يسمى ذنباً إلا حين يعرفنا الله الذنوب ، ذلك هو تقنين السماء . وفي مجال التقنين البشري نقول : لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم .

وهذا يعني ضرورة إيضاح ما يعتبر جريمة ؛ حتى يمكن أن يحدث العقاب عليها ، ولا تكون هناك جريمة إلا بنص عليها . أى أنه يتم النص على الجريمة قبل أن ينص على العقوبة ، فما بالنا بمنهج الله ؟ إنه يعرفنا الذنوب أولاً ، وبعد ذلك يحدد العقوبات التي يستحقها مرتكب الذنب .

ولنتنبه إلى قول الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » إذن فالاستغفار ليس أن تردف الذنب بقولك : أستغفر الله لا . إن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله : أستغفر الله وأن يصير على ألا يفعل الذنب أبداً .

وليس معنى هذا ألا يقع الذنب منك مرة أخرى ؛ إن الذنب قد يقع منك ، ولكن ساعة أن تستغفر تصر على عدم العودة ، إن الذنب قد يقع ، ولكن بشرط ألا

يكون بنية مُسبقة ، وتقول لنفسك : سأرتكب الذنب ، واستغفر لنفسي بعد ذلك .  
إنك بهذا تكون كالستهزيء بربك ، فضلا على أنك قد تصنع الذنب ولا يهلك الله  
لستغفر . وقوله الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » يوضح لنا أنه  
لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص .

إن الحق يعلمنا ويعرفنا أولاً ما هو الذنب ؟ وما هو العقاب ؟ وكيفية الاستغفار ؟  
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتٌ  
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ  
أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١٣٦)

« أولئك » إشارة إلى ما تقدم في قوله سبحانه :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمُوتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ  
لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٧)

( سورة آل عمران )

مع بيان أوصاف المتقين في قوله :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ عَنِ الْإِحْسَانِ  
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

( الآية ١٣٤ سورة آل عمران )

إنهم ينفقون في السراء نفقة الشكر . وينفقون في الضراء نفقة الذكر والتضرع ،

لأن النعمة حين توجد بسرائر محتاج إلى شكر هذه النعمة ، والنعمة حين تنفق في الضراء تقتضى ضراعة إلى الله ليخرج عن المنفق آثار النعمة والضراء . إذن فهم يتفقون سواء أكانوا في عسر ، أم كانوا في يسر .

إن كثيراً من الناس ينسبهم اليسر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءت عن علم منهم . وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أن يحسوا بالآلام الغير ويشغلوا بالآلام أنفسهم . لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً . وأمره بالإلتفات في العسر واليسر . ولذلك قالوا : فلان لا يقبض يده في يوم العرس ولا في يوم الحبس .

وتتابع أوصاف المتقين :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣٥)

( سورة آل عمران )

وفي ذلك لون من تطمين المؤمن على أغيار نفسه ، وعلى أنه عندما يستحب مرة لتزغات الشيطان ، فهذه لا تخرجه من حظيرة التقوى ، لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين . فالفاحشة التي تكون من نزغ الشيطان وذكر العباد لله بعدها ، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة ، لا تخرجهم أبداً عن وصفهم بأنهم متقون . لأن الحق هو الغفور : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .

إنهم قد أخبروا بذلك ، فلم يحرم الحق أحداً إلا بنص ، ولم يعاقب إلا بجريمة . وقول الحق سبحانه : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » هو إشارة لكل ما سبق . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل للعاملين بهذا العمل من التقوى قوسين : القوس الأول الذي ابتداء به هو قوله الحق : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

والقوس الثاني هو الذي أنهى الأمر : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار » .

فالجنة الأولى التي ذكرها الله إلهاباً للمواطف النفسية لتقبل على ما يؤدي لهذه الجنة ، وبعد ذلك ذكر الأوصاف والأصناف وجعل الجنة أجراً . « ونعم أجر العاملين » .

والأجر عادة هو ما يأخذه العامل نتيجة العمل . والأجر حين يأخذه العامل نتيجة لعمل يتوقف على تقييم العمل عند صاحب العمل نفسه . فزيادة الأجر ونقصه تقدير من صاحب العمل ، وأيضاً تقدير للعامل . فإن طلب أصحاب عمل متعددون عاملاً محدداً فله أن يطلب زيادة ، وإن لم يطلبه أحد فهو يقبل أول عرض من الأجر نظير أداء العمل .

إذن فالمسألة مسألة حاجة من صاحب عمل ، أو حاجة من عامل ، وحين ننظر إلى الصفقة في الآخرة نجد أنها بين إله لا يحتاج إلى عملك . ومع أنه لا يحتاج إلى عملك جعل لعملك أجراً .

ما هذه المسألة ؟ . هو ليس محتاجاً إلى عملك ، ويعطيك أجراً على عملك ويقول لك : إن هذا الأجر هو الحد الأدنى ، لكن لي أنا أن أضعف هذا الأجر ، ولي أن أتفضل عليك بما فوق الأجر . فكم مرحلة إذن ؟ إنها ثلاث مراحل ، مع أنه سبحانه لا يستفيد من هذا العمل إلا أنه وضع ثلاث مراتب للأجر .

إذن فالمحاجة من جهة واحدة هي جهتك أنت أيها العبد ، أنت تحتاج إلى خالقك وهو لا يحتاج إليك ، ومع ذلك يعطيك الإله الحق الأجر لا على قدر العمل فقط ، ولكن فوق ذلك بكثير . إن الذي تعمل له يوماً من العباد قد يعطيك - على سبيل المثال - ما يكفيك قوت يوم ، أو قوت يوم ونصف يوم . ولكنك حين تأخذ الأجر من يد الله فإنه يعطيك أجراً لا تنتهي مدة إنفاقه ، فهو القائل : « ونعم أجر العاملين » .

هذا هو الأجر الذي يقال فيه : نعم هذا الأجر ؛ لأنه أجر لا يتناسب مع مجهودي ، بل يفوق كل ما بذلت من جهد وقادم من جهة لا تحتاج إلى هذا المجهود .



إنه سبحانه متفضل على أولاً . ومتفضل على أخيراً ، ليدل الحق سبحانه وتعالى على أنك - أيها العبد - حين تعمل الطاعة يعود أثر الطاعة على نفسك ومع ذلك فهو يعطيك أجراً على ما فعلت .

وأوضحنا أن هذه الآيات جاءت بين آيات معركة أحد إرشاداً واستشاراً للأحداث التي وقعت في أحد ، حتى إذا عاش الإنسان في تصور الأحداث فالأحداث تكون ساخنة ، ويكون التقاط العبرة منها قريباً إلى النفس ، لأن لها واقعاً يحتملها ويؤكددها . والحق سبحانه وتعالى يقول من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (١٣٧)

أي أنتم لستم بدعاً في هذه المسألة . « خلت » تعني « مضت » ، أي حصلت واقعاً في أزمان سبقت هذا الكلام . وعادة فالأخبار التي يتكلم بها الإنسان مرة تكون خبيراً يحتمل الصديق والكذب ، لكن هذه المسألة لا تحتاج إلى صديق أو كذب ، لأن الواقع ليس أمراً مستقبلاً ، ولكنه أمر قد سبق ، فبمجرد أن يبيء الكلام لا تنتظر واقعاً يؤكد صديق الكلام ، لأن الواقع قد حدث من قبل ، فيقول سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » .

والسنن هي الطرق التي يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون ، ليضمن للإنسان - السيد في هذا الكون - ما يحقق مصلحته ، ومصلحة الإنسان تتمثل في أن يسود الحق في حياة الإنسان المختار كما ساد الحق في الكون المسير قبل الإنسان .

وقد قلنا إن في هذا الكون تسخييراً : أي لا إرادة له ، لا إرادة للجهاد ولا للنبات .

ولا للحيوان في أن تفعل الخير لك أو لا تفعل . فلم يحدث أن جاء إنسان لأرض صالحة للزراعة ، ووضع فيها بذوراً ، فلم تنبت الأرض وقالت له : لن أعطيك ، ولم تقل الأرض يوماً عن إنسان : إنه كافر فلن أعطى له الرزق .

إن الأرض مسخرة لخدمة الإنسان مادام يأخذ بأسبابها ؛ فهي تؤدي له . والحيوانات أيضاً مسخرة لخدمتك لا باختيارك ، ولا بقدرة تسخيرك لها ، ولكن بتسخير الله لها أن تفعل .

وقلنا: إن الإنسان قد تكون عنده مطية ، مثل بعض الفلاحين ، فمرة يجعلها صاحبها تحمل أكوام السباخ من روث الحيوان وفضلاته ، وبعد ذلك يلوح له أن يخرجها من عملها هذا ويجعلها ركوبة له ، ويدللها بالأشياء التي تعرفونها من لجام جميل وسرج أجمل ، ويرفها في حياتها وينظفها .

هل في الحالة الأولى امتنعت المطية عن حمل السباخ أو امتنعت في الحالة الثانية عن حمل الإنسان ؟ لا ؛ أنت تسيرها مثلما تريد أنت ، فليس لها اختيار . ولا النبات له اختيار ، ولا الجهاد له اختيار ، ولا الحيوان أيضاً ، إنما الاختيار للإنسان .

وقد حكم الله اختيار الإنسان بمقادير يكون الإنسان مسخراً فيها حتى لا يظن أنه استقل بالسيادة فأصبحت له قدرة ذاتية . والحق يحكم الإنسان بأشياء يجعلها قهرية على الإنسان كي يظل في إطار التسخير . ويرك الحق للإنسان أشياء ليبقى له فيها الاختيار . فإذا ما نظرنا إلى الكون وجدنا أن ما لا اختيار فيه شيء يسير على أحدث نظام ولا تصادم فيه ، والذي فيه اختيار للإنسان هو الذي يختلف ، لماذا ؟

لأن الإنسان قد يختار على غير منهج الذي خلق وهو الله - سبحانه وتعالى - فإذا أردت أن يستقيم لك الأمر أيها المختار فاجعل اختيارك في إطار منهج الله . وحين تجعل اختيارك في إطار منهج الله تكون قد أصبحت سوية كبقية الأجناس وتسير الأمور معك بانتظام .

وعندما تقارن بين شيء للإنسان فيه اختيار وعمل ، وشيء لا اختيار للإنسان فيه

ولا عمل ، فأنت تجد أن الشيء الذي لا اختيار للإنسان فيه مستقيم الأمر ، ولا خلاف فيه أبداً ، أما الشيء الذي فيه اختيار للإنسان ، فأنت تجد فيه الخلاف .

مثال ذلك : لو نظرنا إلى وسيلة مواصلات من الحيوانات كالجمال أو الخيل أو الحمير ، فإننا نجدها تسير في طريق واحد ، وتتقابل جيئة وذهاباً فلا يحدث تصادم بين حمار وحمار ، ولا قتل لراكب أحد الحمارين .

إن الحيوانات يتفادى ويتحامي بعضها بعضاً حتى لو كان الراكب نائماً . ومهما كان الطريق مزدحماً فالحيوانات لا تصادم ؛ لأن ذلك من نطق تسخير الحق للحيوان .

ولنتظر إلى الإنسان حين تدخل ليصنع وسيلة مواصلات ، صنع الإنسان ألوان السيارات ، يقودها الإنسان ، ومع أن الإنسان هو الذي يقود السيارات ، وبرغم ذلك بدأت تأتي المخالفات والمصادمات والحوادث ؛ لأن للإنسان بدءاً في ذلك .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يدللك على أن ما خلق مسخراً بأمر الله وتوجيهه لا يتأتى منه فساد أبداً ، إنما يتأتى الفساد مما لك فيه اختيار ، فحاول أن تختار في إطار منهج الله . فعندما يقول الحق لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فعليك أن تصدق وتطيع ؛ لأن الحق سبحانه عندما سخر الأشياء للإنسان سارت بانتظام رائع ، وأنت أيها العبد عندما تطيع الله فإن الأمور في حياتك تمشي بيسر .

ولذلك قلنا : إن الناس لم تشتك قط أزمة شمس ، ولم يشتكوا أزمة هواء ، لكن لماذا اشتكوا أزمة طعام ؟ إن الإنسان له دخل في إنتاج الطعام . فما للإنسان فيه دخل يجب أن يحكمه قانون التكليف من الله : « افعل كذا ولا تفعل كذا » .

الكون مخلوق بحق . ومعنى أنه مخلوق بحق أن كل شيء في الوجود يؤدي مهمته كما أراده الله ، وكما سخر من أجله . وإذا ما قام الإنسان بتنفيذ التكليف فكل شيء يسير بحق . وإن ترك الإنسان التكليف وأخذ باختياره فإنه يصير إلى باطل ونتج ما هو باطل ، والكون مبني على الحق .

﴿ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦)

( سورة الدخان )

إن الحق جعل للكون قضايا ثابتة ، فلا شيء يعتدى على شيء آخر أبداً . واختيار الإنسان هو الذى يأتى بمقابل الحق وهو الباطل ، ولذلك يصون الله الكون بأن يبين أن الحق يصطدم بالباطل ، والباطل يصطدم بالحق لكن الحق يحمى ويبقى ، والباطل يزهر ويذوق ، ويظهر الله لنا ذلك أمام أعيننا بقول تعالى :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ (٢٧)

( سورة الإسراء )

إذن فقوله سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » يعنى : اعتبروا بما سبقكم وانظروا إلى اصطدام الباطل بالحق ، أدام وبقي اصطدام الباطل بالحق ؟ لا ، لأن الباطل كان زهوقاً . ولذلك نحن نرى أمثلة عملية لذلك لا أقول فى مواكب الناس بعضهم مع بعض ، ولكن فى مواكب الباطل مع حق السماء . وحق السماء يمثل الرسل والمناهج التى جاءت من عند الله وكل حق جاء من السماء وجاء من مناهج الله قابله قوم مبطلون .

لماذا ؟ لأن السماء دائماً لا تتدخل إلا حين يشيع الفساد ، ومادام الفساد يشيع فإن هناك طائفة منتفعة بالفساد ، وهذه الطائفة المنتفعة بالفساد وبالباطل تدافع عنه وبعد ذلك يأتى مواكب السماء ليصدم هذا الباطل والفئة المنتصرة للباطل ، فتشأ معركة ، فقال الحق حينئذ : « قد خلت من قبلكم سنن » . قالها الحق لنعرف أن الباطل زهوق ، وأن كل معارك أهل الأرض مع منهج السماء قد انتصر فيها الحق . ولذلك تأتى سورة العنكبوت لتبين لنا ذلك ، بداية من قوله سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴾ (٢٨)

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جَنَّتِمْ ﴾ (٢٩)

( سورة العنكبوت )

هذه هي الصورة الأولى ، وتأتى الصورة الثانية :

﴿ وَعَادًا وَنَحْمُودًا وَقَدْ ثَبَّيْنَا لَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ ۖ وَزَيْنًا لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ  
فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْتَبِرِينَ ۝٢٨﴾

( سورة النكبات )

إذن فانظروا إلى مساكنهم الباقية لتدلكم على ما حدث لهم . والصورة الثالثة :

﴿ وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ  
وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ۝٢٩﴾

( سورة النكبات )

وساعة تسمع « وما كانوا سابقين » . أى كان هناك حاجة تلاحقهم ، والذي  
يلاحقه شيء فإنه يحاول أن يسبقه ، لكنهم لا يستطيعون . وتأتى السنن واضحة بعد  
ذلك :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ  
وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ  
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٣٠﴾

( سورة النكبات )

إذن فصراع الحق والباطل قد تقدم ووقع فى أمم قد سبقتكم وبقيت لها مساكن ،  
فمن شاء أن يذهب إليها ليتأكد فليذهب ، ولا تزال مدائن صالح ، ولا تزال هناك  
آثار عاد ، وكل مكان فيه أثر من الآثار . ولذلك يوضح الحق : فإن كنتم تريدون  
التأكد من ذلك فانا قد أخبرت ، ومن آمن بى فليصدق خبرى ، ولغير المؤمن ولن  
يريد اطمئنان قلبه يقول سبحانه :

## ﴿ فَيَرَوْا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

( الآية ٣٦ سورة النحل )

إن الحق سبحانه وتعالى يمثل صراع الحق - وهو الشيء الثابت - مع الباطل ، وهذه القضية موجودة حتى فيما لا اختيار له . ويصنعها الحق فيهم ، صراعاً بين حق وباطل فيما لا اختيار له لمصلحة الإنسان أيضاً . وقد جعل سبحانه الصراع بين الحق والباطل في أشياء ليست من الإنسان ولكنها تخدم الإنسان ، وهذه نراها في الأمور المادية . أما في القيم فالحق يقول :

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرْدٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ٣٦ ﴾

( سورة الرعد )

إنه سبحانه أنزل من السماء ماء فسال في الأودية ، والأودية كما نعرفها هي المكان المنحصر بين جبلين ، فإذا نزلت الأمطار على الأعالى فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل في الأودية . والوديان هي محل الخصب ؛ لأن الغرين والطمي الذي يتزل من الجبال مع مياه المطر وترسب ويصير تراباً خصباً يخرج منه الزرع . وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته ، وباقي المياه يبحث له عن مسلك آخر ، ولو إلى باطن الأرض ، وذلك كان مظهراً مألوفاً في الجزيرة العربية ، فعندما يأتي السيل فإن الأودية تمتلئ ماءً ، كل وادٍ يأخذ على قدر سعته . « فاحتمل السيل زبداً رابياً » ونحن نراه في الحقول ونسميه « الريم » الذي يطفو على سطح الماء ، ما الذي يحدث لهذا الريم ؟ إنه يتجمع ويطفو ثم يركن ويميل جانباً . ألم تر القدر بها لحم تفور ؟ . إننا نجد الريم قد طفا على السطح . وهذا الريم فيه أشياء خارجة عن عنصر الشيء الموجود في القدر ، فإذا ما جاءت حرارة النار أخرجه على السطح ، فإما أن يخرج الإنسان خارج القدر ، وإما أن يتركه فيتجمد على الجوانب وينتهي .

ومن أين جاء هذا الزبد ؟ إنه يأتي من الأرض ، والأرض فيها أشياء كثيرة ، كجذور النبات وبقايا ما حمله الهواء وتتخلل هذه الأشياء مسام الأرض ، هذه الأشياء عندما توجد في المسام ، وتأق الجذور الصغيرة لتنمو فتعوقها عن أخذ غذائها ، لذلك فعندما ينزل الحق الماء من السماء فإن الماء يجعل هذه الأشياء تطفو على السطح ، ليجمع هناك منفذاً للجذور الصغيرة .

وينزل الله المطر ليغسل التربة كلها ، ويجعل هذه الأشياء تطفو ، لأنها غشاء ، ويطفو الغشاء . وساعة أن يطفو الغشاء فيأكل أن تفهم أن ذلك علو ، إنه علو إلى انتهاء ، كذلك فورة الباطل .

إياك أئن نظن أن الزبد له فائدة ، أو أن ارتفاع الريم كان علواً على ما في القدر ، لا . إنه تطهير لما في القدر أو الإناء ، ولهذا قال الحق : « فاحتمل السيل زبداً رابياً » .

وإن لم تذهب آثار الريم بحركة الماء التمرجية فإنها ستذهب بطريقة أو بأخرى . ولننظر إلى الأشياء القذرة التي تلقى في البحر نجد أنها بعد مدة قد خرجت إلى الشاطئ .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

إنها تخرج على الشاطئ . ويجمعها المكلفون بتنظيف الشاطئ . وإلا كيف تتم صيانة الماء ؟ إنه سبحانه يجعل الماء ينظف نفسه بحركته الذاتية . إذن فالماء عندما ينزل سيلاً ، فإنه ينقى التربة من العوائق التي تعوق غذاء الجذيرات الصغيرة ، وقد لا يكفى بعضنا بهذا المثل ، فيضرب لنا الله مثلاً آخر :

﴿ وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَخَارٍ كَذَلِكَ بَصُرَ اللَّهُ الْخَلْقَ

وَالْبَاطِلَ قَامًا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ونحن نرى هذه الحكاية عندما يضعون أى معدن فى النار ، فإن المعدن ينصهر ويصير كالعجينة وتخرج منه فقائيع ونحن نسميها خبث المعدن ، وعندما نخرج الخبث من المعدن فإنه يصير قوياً ، إذن فالنار قد صهرت المعدن ، وأخرجت منه الخبث الضار فيه ، أو الذى يجعله لا يؤدى مهمته بكفاءة عالية ، فأنا قد أصنع من الحديد درعاً قوية أو أريد أن أستخرج منه الصلب ، وهذه العمليات معناها أننا نصهر الحديد بالنار لنزيل خبثه ليزداد قوة . وكذلك الذهب والفضة ساعة نريد أن نخلصهما من هذه الآثار فإننا نصهرهما لنخرج منهما الأشياء الخارجة عنها أى التى تختلط بهما وتشويهها وهى ليست منها .

لماذا إذن ياربى هذا التمثيل الحسى فى المياه ؟ والحلية التى لا تؤدى ضرورة ، والمتاع وهو الذى يؤدى ضرورة ؟ إنه سبحانه يقول : « كذلك يضرب الله الحق والباطل » .

إن الحق كالماء ، والحق كالنار ، والماء يحمل الزيت الراى بعيداً عن مسام الأرض ، والنار تخرج الزيت والخبث من المعادن ، وتحمل المعادن خالصة للمنفعة المطلوبة لنا ، كذلك يضرب الله الحق والباطل : « فأما الزيت فيذهب جفاء » .

وجفاء أى مطروحاً مرمياً ، « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » . ذلك هو صراع الحق والباطل فى المبادئ والقيم ويصوره الله فى الأمور المادية . ومن العجيب أنه يصوره بمتناقضين ولكنها متناقضان يؤديان مهمة واحدة ، ماء ونار ، فإياك حين ترى شيئاً يناقض شيئاً أن تقول : هذا يناقض ذاك ، لا. لأن هذا الشيء مطلوب لمهمة ، وذاك الشيء مطلوب لمهمة أخرى .

إذن فقول الحق سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » هو لفت لنا إلى صراع الحق مع الباطل ، وأن الإنسان قد يرى الباطل مرة وله فورة وعلو ، ونقول : هذا إلى جفاء . وهذه سنة من سنن الحياة . وإن أردتم أن تتأكدوا منها ، فالتفتوا إلى دقة قول الحق تعالى :

« فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .



وهنا ملحظ عام ، وملحظ خاص ، الملحظ العام : أننا نفهم أن المقصود بذلك السير على الأرض ، وتلك هي حدود رؤيتنا ، لكن حين يتكلم الله فرؤية الله أشمل فهو الخالق لهذا الكون ، ونحن مازلنا نجهل جزئيات في هذا الكون ، ولم نعرف بعضها إلا أخيراً ، وخالق الكون هو الذي يعلم كل الخبايا .

نحن نقول : إننا نسير على الأرض ؛ لأننا كنا نفهم أن هذه الأرض ليس عليها إلا نحن فقط ، ثم تبين لنا - بعد أن أخذ العلم حظه - أنه لولا وجود الهواء في الأرض لما صلحت للحياة . ولذلك فعندما تدور الأرض . قلهواء الذي حولها يدور معها ويسمونه الغلاف الجوي . إذن فالغلاف الجوي جزء من الأرض وله امتداد كبير ، فالإنسان عندما يسير فإنه يسير في الأرض ، أما الذي يسير على الأرض فهو الذي يسير فوق الغلاف الجوي ، أما السائر على اليابسة ، والغلاف الجوي مازال فوقه فهو يسير في الأرض لا على الأرض .

ومادامت المسألة هي سنن تقدمت ، ويريد الله منا أن نعتبر بالسنن المتقدمة ، لذلك يقول لنا : « فسيروا في الأرض » نسير بماذا ؟ . إما أن نسير بالانتقال ، أو نسير بالأفكار ؛ لأن الإنسان قد لا يملك القدرة على السير ويترك هذه المهمة للرحالة ، والرحالة - مثلاً - هم الذين ذهبوا إلى جنوب الجزيرة ، ورأوا وادى الأحقاف ووجدوا أن عاصفة رمل واحدة تطمر قافلة بتمامها .

إذن ففيه عواصف وارت الكثير من الأشياء ، فعاصفة واحدة تطمر قافلة . فكيف من العواصف قد هبت على مر هذه القرون ؟ والحق سبحانه يخبرنا بإرم ذات العماد فيقول :

﴿الرَّكَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۚ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۚ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۚ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۚ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۚ الَّذِينَ ظَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ۚ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۚ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۚ﴾

إنه سبحانه يجبرنا أن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد أى متفوقة على حضارة مصر القديمة . وهى عجيبة وفيها أكثر من عجيبة فأين هى الآن ؟ .

ومادامت الرمال بعاصفة واحدة - كما قلنا - تطمر قافلة ، فكم عاصفة مرت على هذه البلاد ؟ . ولذلك نجد أننا لا نزال جميعاً إلى الآن حين نريد أن ننقب عن الآثار فلا بد أن نحفر تحت الأرض . لماذا هذا الحفر وقد كانت هذه الآثار فوق الأرض ؟ لقد غطتها العواصف الرملية .

والمثال على ذلك : أنك تغيب عن بيتك شهراً واحداً وتعود نتجدد من التراب الناعم ما يغطي أرض البيت على الرغم من إغلاق النوافذ . فإذا تجد من حجم التراب لو غبت عن بيتك عاماً ، أو عامين ، أو ثلاثة أعوام ، رغم إحكام وإغلاق النوافذ والفتحات بالمطاط وخلافه ؟ ولكن التراب الناعم يتسرب ويغطي الأثاث والأرض . وإذا كانت هذه الأمور تحدث في منازلنا فما بالك بالمنطقة التى فيها أعاصير وعواصف رملية ؟ هل تطمر المدن أو لا ؟

إن المدن والحضارات تطمر تحت الرمال ؛ لذلك فعندما ننقب عن الآثار فنحن نحفر فى الأرض ، وهذا لون من السير فى الأرض للرؤية والعظة . وحين يقول الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » فإذا يعنى بعاقبة المكذبين ؟ حين تكون أمة قد تحضرت حضارة كبيرة يقول عنها الحق :

﴿الرَّكَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۚ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ۚ وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ ۚ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۚ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ۚ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۚ﴾

( سورة الفجر )

إن الذى أقام هذه الحضارات ألا يستطيع أن يجعل لهذه الحضارة ما يصونها ؟ كيف يتم القضاء على هذه الحضارات الواسعة واندثارها وذهابها ؟ .

لا بد أن ذلك يتم بقوة أعلى منها ، فهذه الحضارات رغم تقدمها الرهيب لم تستطع أن تحفظ نفسها من الفناء . إنها القوة الأعلى منها ، وهكذا نصدق قوله الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . إنه القيوم الذي يرى كل الخلق ، فمن يطفى ويفسد فليلق النهاية نفسها . إذن فقوله سبحانه يحمل كل الصديق :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

وبعد ذلك يقول الحق :

### هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾

انظر إلى الكلمة « هذا بيان للناس » إن البيانات عندما تتأق تأخذ قوتها وسطوتها وعظمتها من قوة من أصدر البيان ، أنت ساعة تجد ثورة في مجتمع ما فإننا نسمع كلمة « بيان رقم واحد » تهتز له الدنيا وهو بيان قادم من بشر فما بالنا بالبيان القادم من الله ؟

إنه إيضاح من الله : أنا لن آخذكم على غرة « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » وه الهدى : كما نعرف هو الطريق الموصل للغاية المرجوة . وه الموعظة : معناها : هل النفس ترغيباً وترهيباً ، لعمل الخير بالترغيب ، والبعد عن الشر بالترهيب ، تلك هي الموعظة .

وكل هذه الأشياء عندما جاءت في ثانيا آيات أخذ بعد أن أخذنا منها العبرة والحدث مازال ساخناً . ولذلك فقبل أن يكمل لنا قصة أخذ استثار النفوس بهذه المسألة ، ووضع لنا الأشياء المادية والقيمية ، لناخذ بها في حياتنا ، وحق لا تنتهي قصة أخذ وينصرف الناس عن العظاات التي كانت فيها .

ومادامت المسألة هكذا ، وكان المقاتلون في سبيل الله هم جنود الحق ، وعرفوا ذلك بتأييد الله لهم ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بينهم . وهو حامل المعجزة الدالة على صدقه ؛ لذلك فالذى حدث في معركة أحد لا يصح أن يضعفكم ؛ لأنكم تعرفون كيف يسند الله الحق ويقويه . وتعرفون حملة الله على الباطل . وقد أوضحنا لكم السن والبيان ، ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

والمقصود بقوله : « ولا تهنوا » أى لا تضعفوا ، وهى أمر خاص بالمسألة البدنية ؛ لأن الجراحات أنهكت الكثيرين في موقعة أحد لدرجة أن بعضهم أقعد ، ولدرجة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقدر أن يصعد الجبل ، وحمله طلحة بن عبيد الله على ظهره ليقوم ، لذلك قال الحق : « ولا تهنوا » ، لأنك عندما تسنحضر أنك مؤمن وأن الله لن يخل بينك وبين جنود الباطل لأنك نصير للحق ، والحق من الله وهو الحق لا يسلم نبيه وقومه لأعدائهم فيوم تأتى لك هذه المعانى إياك أن تضعف . والضعف هو نقصان قوة البدن .

« ولا تحزنوا » والحزن مواجهة قلبية . وهم قد حزنوا فقد مات منهم كثير . مات منهم خمسة وسبعون شهيداً ، خمسة من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار ، وهذه عملية صعبة وشاقة . وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء ، وغضب لمقتل حمزة - رضى الله عنه - وقال : « لن أصاب بمثلك أبداً ! وما وقفت موقفاً قط أغيظ إلى من هذا » ثم قال : « لئن أظهرنى الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم مكانك » .

فقال الحق : « ولا تحزنوا » ؛ لماذا ؟ لأنك يجب أن تفارق الحدث بالغاية من الحدث .

صحيح أن القتل صعب وإزهاق للنفس ، ولكن انظر إلى أين ذهب . وانظر ماذا خلف من بعده . أما هو فقد ذهب إلى حياة عند ربه وهي ليست كالحياة عندكم . إن الحياة عندنا لها مقياس ، والحياة عند ربنا لها مقياس ، فهل مقاييسنا أعلى من مقاييسه ؟ لا ، حاشا لله .

إذن فإذا نظرت إليه هو فاعلم أنه ذهب لخير مما ترك ، فلا تحزن عليه بل تفرح له ؛ لأنه مادامت الغاية ستصل إلى هذه المسألة . إذن فقد قصر له مسافة الحياة ، ومادامت الغاية أن يصل إلى رحمة الله وإلى حياة عند الله بكافة معانيها ، فهو سعيد بجوار ربه ، ونحن في الغايات الدنيوية عندما نريد أن نذهب إلى مكان نسرّ من يجعل لنا الزمن لنصل إلى هذا المكان .

فبدلاً من أن أذهب إلى الإسكندرية ماشياً أذهب راكباً حصاناً أو أذهب راكباً سيارة ، والمتفرغ يذهب راكباً طائرة ، فإذا كانت الغاية مرجوة ومحبة إلى النفس ، وبعد ذلك يحىء لك حدث يقرب لك المسافة من الغاية ، فلماذا تحزن إذن ؟ لقد استشهد . إياك أن تقول : إن الله حرمني قوته في نصرة الحق ، لا . هو أعطى قوة أخرى لكثير من خلقه نصر بهم الحق ، إنك عندما تعرف أن إنساناً باع نفسه لله ، لا بد أن تعرف أن الغاية عظيمة ؛ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة بدر ، يقدم أهله ؛ لأنه يعرف أنه إن قُتل واحد منهم إلى أين سيذهب ، إذن فهو يحب أهله ، لكنه يحبهم الحب الكبير ، والناس تحب أهلها هنا أيضاً لكن الحب الدنيوي .

« ولا تحزنوا » على ما فاتكم من الغنائم أو لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر لماذا ؟ وتأتى الإجابة ، « وأنتم الأعلون » . . . ولذلك جاء مصداق ذلك حينما نادى أبوسفيان فقال : « اعل هبل » أى أن إلههم صار عالياً ، فقال الرسول لأصحابه : ألا تردون عليهم ؟ ، قالوا : بماذا نرد قال : قولوا لهم : الله أعلى وأجل فقال أبوسفيان : « لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » ثم قال أبوسفيان : إن موعدكم « بدر » العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

لرجل من أصحابه : « قل نعم هو بيننا وبينك موعد »<sup>(١)</sup>

فـ « وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين » . فما دمت على الإيمان فأنتم الاعلون ، وإذا أردتم أن تعرفوا معنى « الاعلون » حقاً ، ففارقوا معركة « أحد » بمعركة « بدر » ، هم قتلوا منكم في أحد ، وأنتم قتلتم منهم في بدر . ولكنكم أسرتم منهم في بدر ، ولم يأسروا منكم أحداً في « أحد » . وأنتم غنمتم في بدر ، ولم يغنموا شيئاً في أحد .

وأنتم الاعلون لأن الله حمى مدينتكم مع أنه لا حامية فيها ممن يكون فيه معنى الجندية . كل ذلك وأنتم الاعلون ، هذا إذا نظرنا إلى معركة بمعركة . وإن نظرنا إلى المعركة نفسها « أحد » وندع بدرأ وحدها ، في ظل قوله تعالى : « وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين » لقد ثبتت تلك القضية لأنكم حينها كنتم مؤمنين - ومن شرط الإيمان اتباع أمر الذي لا ينطق عن الهوى - انتصرت . وانتصرت انتصاراً رائعاً ؛ لأنكم قتلتم في أول جولة للحرب بضعا وعشرين من صناديدهم وفيهم صاحب الراية . ولكنكم حينها خالفتم أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، تلخلخ الإيمان في قلوبكم .

إذن فالعملية التي حدثت تؤكد صدق « وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين » . فأنتم علوتم في أول الأمر ، وعندما خالفتم الأمر صار لكم ما صار ؛ فقد صدقت القضية في قول الله : « وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين » .

وأيضا فإنكم لو نظرتم إلى المعركة نفسها لوجدتم أن عدوكم لم يبق في أرض المعركة ، بل أنتم الذين بقيتم في موضع المعركة . وأين ذهب هو ؟ أذهب إلى موقع آخر ينال فيه غلبة ونصرا ؟ لم يكن هناك إلا المدينة ، والمدينة ليس فيها أحد ، ولم يذهب عدوكم إلى هناك ، وإنما ذهب ناحية مكة ، إذن فهو الذي هرب .

وبعد ذلك ماذا حدث ؟ ألم يؤذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ويطلب العدو مرهباً له ليظنوا به القوة ، وإن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ؟

(١) رواه ابن إسحاق وأحمد والبخاري ومسلم .

ولقد خرج رسول الله ، مع من ؟ أجاء بحامية لم تشهد المعركة ؟ لا . بل قال عليه الصلاة والسلام مناديا المسلمين : « إلى عباد الله » ، فالذين شهدوا المعركة سبعائة ، جرح منهم الكثير وقتل منهم خمسة وسبعون ، فيهم حمزة ، ومصعب بن عمير ، وعبدالله بن جحش ، وشيأس بن عثمان ، وسعد مولى عتبة ، هؤلاء خمسة من المهاجرين ، والباقي من الأنصار ، هؤلاء مطروحوون من العدد الذي شاهد أول الموقعة ، حتى أن رسول الله لم يأخذ بدلاً منهم من المدينة من القوم الذين عرضوا أنفسهم ليكونوا مع الجيش الذي يطارد قريشاً ، بل أثر الرسول أن يذهب بمن ذهب معه إلى المعركة أنفسهم ، ولم يكن منهم بطبيعة الحال الشهداء أو الجرحى .

لم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ممن لم يشهد المعركة إلا واحداً . وهو سيدنا جابر بن عبدالله . الذي لم يخرج في معركة أخذ واعتذر إلى رسول الله بأن أباه عبدالله بن عمرو بن حرام قد خلفه على بنات له سبع وقال له :

يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي فتخلف على أخواتك فتخلف عليهن فقبل رسول الله عذره، وأذن له فخرج معه وطاردهم رسول الله ومن معه إلى حمراء الأسد ، أما والده عبدالله بن عمرو فقد استشهد في أخذ ومع ذلك فقد طلب من رسول الله على الرغم من استشهاد أبيه أن يخرج إلى حمراء الأسد . وذلك لنعلم أن الله يقول :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

هذا وإن واحداً من المشركين الذين كانوا موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حلفائه وهو معبد الخزاعي ، مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أخذ وقال له : يا محمد : أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ثم لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء<sup>(١)</sup> وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلاً من المدينة - القاموس المحيط .

وسلم وأصحابه فقال له أيوسفان: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله، ولم يزل بهم حتى نفى أباسفيان ومن معه فولوا وجوههم إلى مكة خائفين مسرعين، وقد ذهب رسول الله إلى حمراء الأسد فلم يجد أحداً فعسكر رسول الله ثلاثة أيام هناك، ومعنى ذلك أنهم هم الذين فروا من المعركة. إذن فأنتم الأعلون، ولكن لاحظوا الشرط «إن كنتم مؤمنين». ثم بعد ذلك يُسأل الله المؤمنين فيقول:

﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾

وقد تكلمنا - من قبل - عن «المس» وهو: إصابة بدون حس. أي لمس لكنك لا تحس بحرارة أو نعومة مثلاً، إنما اللمس هو أن تحس في الشيء حرارة أو نعومة ويحتاج إلى الالتصاق المؤقت، إنما «المس» هو ما لا تكاد تدرك به شيئاً، و«القرح» هو: الجراح. وفي لغة أخرى تقول «القرح» - بضم القاف - وأقول: القرح وهو الألم الناشئ من الجراح، كي يكون لكل لفظ معنى.

وأنت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أن معناها واحد في الجملة، إلا أن لكل معنى منها ملحظاً، أنت تسمع مثلاً: رأى، ونظر، ولمح، ورمى، ورنأ. كل هذه تدل على البصر. لكن كل لفظ له معنى:

رمى: رأى بمؤخر عينيه، ولمح: رأى شاهد من بعد، ورنأ: نظر بإطالة، وهكذا.



ويقال أيضاً : جلس ، وقعد ، فالمعنى العام يكاد يكون واحداً ، لكن المعنى الدقيق يوضح أن الجلوس يكون عن اضطجاع . والقعود عن قيام ، كان قائماً فقعد ، والاثنان ينتهيان إلى وضع واحد ، فكذلك « قرح » و« قرح » كل لفظ له معنى دقيق .

ويقولون - مثلاً - إن للأسد أسماء كثيرة ، فيقال : « الأسد » و« الغضنفر » و« الرئبال » و« الوُرد » و« القشورة » . صحيح هذه أسماء للأسد ، ولكن لكل اسم معنى محدد ، فـ « الأسد » هو اللفظ العام والعلم على هذا الحيوان ، و« الغضنفر » هو الأسد عندما ينفش لبدته ، و« الوُرد » هو حالة للأسد عندما يكون قد مط صلبه ، فكل موقف للأسد له معنى خاص به .

وقوله الحق : « إن يحبسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » لاحظ أن المتكلم هو الله فافطن جيداً إلى مرادات كلامه . ونعرف أنه في الشرط والجواب ، أن الشرط يأتي أولاً ثم يأتي الجواب من بعد ذلك مرتباً عليه ونتيجة له ، كقولنا « إن تذاكر تنجح » إن النجاح هو جواب لشرط وهو الاستذكار .

وقوله الحق : « إن يحبسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » فهل المعنى المراد من هذه الجملة الشرطية أن مس القرح للكافرين الذي حدث في بدر كان كجزاء لمس القرح للمؤمنين في أحد ؟ لا ، إنه لا يكون أبداً جواباً لشرط ؛ لأنه لو كان جواب شرط لقال الحق : « إن يحبسكم قرح فسيمس القوم قرح مثله » ولكنه لم يقل ذلك لأن القرح الذي أصاب المشركين في بدر كان أسبق من القرح الذي أصاب المؤمنين في أحد .

وكان الحق يقول : « إن يحبسكم قرح فلا تبتسوا » فقد مس القوم قرح مثله ، وليس ذلك جواب الشرط ، ولكنه جاء ليُستدل به على جواب الشرط ، أي أنه تعليل لجواب الشرط ، أقول ذلك حتى لا يتدخل دعوى من الأدعياء ويتهم القرآن - والعياذ بالله - بما ليس فيه . إنه - سبحانه - يثبت المؤمنين ويسليهم . ومثال ذلك ما نقوله نحن لوأحد إذا أصابته كارثة :

إن كان قد حدث لك كذا ، فقد حدث لخصمك مثله . إذن فنحن نسليه . والمقصود هنا أن الحق يسأل المؤمنين : إن يمسكم قرح فلا تبتسوا ، فليكن عندكم سلو ولتجتازوا هذا الأمر ولترض به نفوسكم ؛ لأن القوم قد مسهم قرح مثله .

والأسوة والتسلية ، هل تأتي بما وقع بالفعل أم بما سيقع ؟ . إنها تأتي بما وقع بالفعل ، إذن فهي تعلل تعليلًا صحيحًا : « إن يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » .

وأطلق الحق سبحانه من بعد ذلك قضية عامة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . ما معنى المداولة ؟ . داول أى نقل الشيء من واحد لآخر . ونحن هنا أمام موقعتين ؛ غزوة بدر وغزوة أحد . وكان النصر للمسلمين في غزوة بدر بالإجماع ، أما غزوة أحد فلم يكن فيها هزيمة بالإجماع ولم يكن فيها نصر .

إذن فقوله الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أى مع التسليم جدلاً بأن الكفار قد انتصروا - رغم أن هذا لم يحدث - فإننا نقلنا النصر منكم أيها المؤمنون إليهم .

وإياك أن تفوتك هذه الملاحظة ، بأن النصر لم ينتقل إليهم إلا بمخالفة منكم أيها المؤمنون . ومعنى مخالفة منكم ، أى أنكم طرحتم المنهج . ومعنى أنكم طرحتم المنهج ، أى أنكم أصبحتم مجرد « ناس » مثلهم .

وماحتم قد صرتم مجرد ناس بدون منهج مثلهم ومتساوين معهم ، فإن النصر لكم يوم ، ولهم يوم . ولنلاحظ أن الحق لم يقل : إن المداولة بين الناس هي مداولة بين مؤمنين وكافرين .

فإن ظللتم مؤمنين فلا يمكن أن ينتقل النصر إلى الكفار ، إنما النصر يكون لكم . انظر ماذا قال : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ولم يقل بين المؤمنين والكافرين ، أى بينكم وبين قريش .

وليس المقصود بالأيام ما هو معروف لدى الناس من أوقات تضم الليل والنهار ، ولكن المقصود به الأيام ، هنا هو أوقات النصر أو أوقات الغلبة . ويقال أيضاً : « يوم فلان على فلان » إذن « تلك الأيام نداؤها بين الناس » لم تتضمن المداولة بين المؤمنين والكافرين ، ولكنها مداولة بين الذين مالت أبصارهم إلى الغنائم فتخلخل إيمانهم ، فهازت قريش ظاهرياً . فلو ظللتهم على إيمانكم لما حدث ذلك أبداً . لكنكم تخليتم عن منهج ربكم ، وبذلك استويتم وتساويتم مع غير المؤمنين ، وبذلك تكون الأيام لذلك مرة ولهذا مرة أخرى ، إنها مطلق عدالة .

علينا أن نتذكر الشرط السابق ، لا لعدم الهزيمة . بل للعلو والنصر :

« وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين » .

إن الحق سبحانه في مسألة مداولة الأيام بين المؤمنين الذين تخلخل إيمانهم : مادمتم اشركتم معهم في كونكم مجرد « أناس » فيصبح النصر يوماً لهم ويوماً لكم ، والذكرى العبقري الفطن الذي يحسن التصرف هو من يغلب ؛ لأن المعركة هنا تدور بين قوة بشر مقابل قوة بشر . ومادام المسلمون قد تخللوا عن منهج الله فقد صاروا مجرد بشر في مواجهة بشر . ولذلك قلنا : إنه عندما تحل الرماة عن إنفاذ أمر القائد الأعلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهرت عبقرية خالد بن الوليد على عبقرية المقاتلين المسلمين .

ويجب أن نلاحظ في قوله الحق : « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » أننا لا يمكن أن نقول : إن مداولة الأيام تكون بين المؤمنين والكافرين ، إنما هي بين الناس ؛ لأن الناس هم مجموعة الإنسان ، فإن تجردوا عن منهج السبأ فهم سواسية ، وصاحب الحيلة يغلب ، أو صاحب القوة يغلب ، أو صاحب العدد أو العدة يغلب .

ولكن ما الذي يعرض كل تلك الإمكانيات ويحقق النصر ؟ إنك إن تأخذ الله في جانبك فلن يجرؤ مخلوق أن يكون في مواجهة الحق في معركة . لقد قلنا قديماً وعلينا أن نعيها جيداً : إن الولد الصغير حينما يضطهده زملاؤه فيلجأ إلى حضن أبيه ، عندئذ ينصرف كل منهم إلى حاله ، لكن أقرانه يستطيعون أن يهزموه عندما يتعد

عن أبيه . فما بالنا ونحن عيال الله ؟ وكذلك شأن الكفار مع المؤمنين .

إن الكفار قادرون على الانفراد بالمؤمنين حينما يتخلى المؤمنون عن منهج الله ؛ لأن الله لن ينصر أناساً ليسوا على منهجه ، فلو نصر الله أناساً على غير منهجه فإن ذلك يبطل قضية الإيمان . وعندما نستقرئ القرآن الكريم ؛ نجد أن كل خبر عن الإنسان وهو معزول عن المنهج الإلهي هو خبر كله شر .

فسبحانه يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ ﴾

( سورة العصر )

إن الإنسان على إطلاقه لفي خسر ، ولكن من الذي يتجو من الخسران ؟ وتأتي الإجابة من الحق فيقول :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

( سورة العصر )

وتؤكد القضية في موضع آخر من القرآن الكريم فيقول - سبحانه -

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ﴾

( سورة المعارج )

إذن كل كلام - في القرآن - عن الإنسان على إطلاقه يأتي من ناحية الشر . وما الذي ينجيه من ذلك ؟ إنه المنهج الإلهي .

إذن فقول الحق : « وتلك الأيام نداؤها بين الناس » تحمل تأنيهاً ولذعة خفيفة لمن أعلنوا الإيمان ولكنهم تخلفوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » .

ففي وقت النصر نجد حتى الذي لم يشترك في المعركة يريد أن يُدخل نفسه ضمن المتصرين . لكن وقت الهزيمة فالحق يظهر ، والذي يظل في جانب الهزيمة معترفا بأنه شارك في نزولها بالمسلمين وان لم يكن شارك فقد عذر أو لام من كان سببا فيها ، وهو مع ذلك يسهم في حمل أوزارها وآثارها الضارة ، ويتحمل ويشارك في المسئولية ، إنه بذلك يكون صادقا .

وقد يقول قائل : هل الله لا يعلم الذين آمنوا ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى يعلم الذين آمنوا سواء حدثت معركة أو لم تحدث . لكن علم الله الأزل الغيبي لا يرى نحن به الحجة ، ولذلك لا تكون الحجة ظاهرة بيننا ، ولكن حين يبرز علم الله إلى الوجود أمامنا فإنه علم تقوم به الحجة واضحة على من آمن ، وعلى من لم يحسن الإيمان ، وذلك حتى لا يدعى أحد لنفسه أنه كان سيفعل ، لكن الفرصة لم تواته .

وهكذا تأتي المواقف الاختبارية والابتلاءات ليعلم كل منا نفسه وتبرز الحجة علينا جميعا . إذن : فهناك فرق بين علم الله الأزل للأشياء كما سوف تحدث ، ولكن لا تقوم به الحجة علينا . فقد يدعى البعض أنه لو قامت معركة شديدة فإنهم سوف يصمدون ، ولكن عندما تقوم المعركة بالفعل فنحن نرى من الصامد ومن هو غير ذلك من المتخاذلين الفارين ؟ ولنضرب لذلك مثلا والله المثل الأعلى : نحن في حياتنا العادية نجد أن عميد إحدى الكليات يأتي إلى المدرس ويقول له : نحن نريد أن نعقد امتحانا لتعرف على المتفوقين من الطلاب ، ونمنح كلاً منهم جائزة .

فيرد المدرس : ولماذا الامتحان ؟ إني أستطيع أن أقول لك : من هم المتفوقون ، وأن أرتبهم لك من الأول ومن الثاني وهكذا .

لكن عميد الكلية يصبر على أن يعقد امتحانا حتى لا يكون لأحد حجة ، ويختار العميد مدرسا آخر ليضع هذا الامتحان . وتظهر النتيجة ويكون توقع المدرس الأول

هو الصائب ، وهكذا يكون تفوق هؤلاء الطلاب تفوقاً بحجة . وإذا كان ذلك يحدث في المستوى البشرى فما بالنا بعلم الله الأزلى المطلق ؟

إن الحق بعلمه الأزلى يعلم كل شيء ويحيط بكل شيء ، وهو سبحانه لا يقول لنا : أنا كنت أعلم أنكم لودخلتم معركة ستفعلون كذا وكذا ..

وكان يمكن أن يجادلوا ويدعوا لأنفسهم أشياء ليست فيهم ، لكن الحق يضع المعركة وتكون النتيجة مطابقة لما يعلمه الله أزلاً . إذن فالتغيير هنا لا يكون في علم الله ، لكن التغيير يكون في المعلوم لله ، ليس في العالم بل في المعلوم بحيث نراه حجة علينا .

ويقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » وساعة تسمع كلمة « يتخذ » هذه ؛ اعرف أنها اصطفاة واختيار . وسبحانه يقول :

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾

( من الآية ١٢٥ سورة النساء )

أى أنه جل وعلا قد أقر إبراهيم واصطفاه ، إذن فالإتخاذ دائماً هو أن يأخذه إلى جانبه لمزية له ورفعة لمكانته .

وحين يقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » فنحن نعرف أن « شهداء » هي جمع شهيد ، وكلمة شهيد لها معاني متعددة ، فالشهيد في القتال هو الذى يُقتل في المعركة ، وهذا سيكون حياً ويرزق عند ربه . وإياك أن تقول : إننا عندما نفتح قبر الشهيد سنجد عظاماً وتراباً . وهذا يعنى أنه سلب الحياة . لا ، إن الله وضع أن الشهيد حىً بجنته ، وليس حياً عند البشر . وإذا فتح أحد من الناس القبر على الشهيد فسيرا عظاماً وتراباً ؛ فقد جعل الله سبحانه للشهيد حياة عنده لا عندنا .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاكُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (١٥٨)

( سورة آل عمران )

إذن فللشهداء عند ربهم حياة لا تعرف كتبها ، ويوم نفتح عليهم قبورهم نصير أمرا محسا ، ولكن الله نبهنا أن الشهداء أحياء عند ربهم . وعندما نتأمل كلمة « شهداء » نجد أنها تعني أيضا الشهادة على الحق الذي قامت من أجله المعركة ، وكل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلو لم يعلم هؤلاء أن إقدامهم على ما يؤدي إلى قتلهم خير لهم من بقائهم على حياتهم لما فعلوا .

وبذلك يكون الواحد منهم شاهدا للدعوة وشهيدا عليها . وقد ينصرف المعنى في « شهداء » إلى أنهم بَلَّغُوا الدعوة حتى انتهت دماؤهم . ويذيل الحق الآية بقوله : « والله لا يحب الظالمين » .

ومعنى هذا التذييل أن المعركة يجب أن تدور في إطار الحق ، ومثلما قلنا : مادام الناس متخلفين عن المنهج فإن الله لا يظلمهم بل مستدور المعركة صراع بشر لبشر ، والقادر من الطرفين هو الذي يغلب . فالحق سبحانه بالرغم من كراهيته للكفر إلا أنه لا يجانب المسلم الذي لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، لذلك قد يغلب الكافر المسلم الذي لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، ولكن إن تمسك المؤمن بمطلوب الإيمان فالنصر مضمون لهم بأمر الله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾

والتمحيص يختلف عن المحق ، لأن التمحيص هو تطهير الأشياء وتخليصها من العناصر الضارة ، أما المحق فهو الذهاب بها كلها . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ

الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾

إن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال هكذا ، بل لابد من تجربة تثبت أنكم قُيِّمْتُمْ ونجحتم في الفتنه ، والفتنة هي الامتحان . إذن فلا تحسبوا أن المسألة سوف تمر بسهولة ويكتفى منكم أن تقولوا نحن نحمل دعوة الحق ، لا . إذا كنتم صادقين في قولكم يلزمكم أن تكونوا أسوة حين يكون الحق ضعيفا ؛ فالحق حين يكون قويا فهو لا يحتاج إلى أسوة . بل قضية الإيمان الحق تحتاج إلى الأسوة وقت الضعف . ودخول الجنة له اختبار يجب أن يجتازه المؤمن .

والحق يقول : « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » وعندما نسمع ذلك فعلينا أن نعرف أن الله يعلم علما أزليا من المجاهد ومن الصابر ، ولكنه علم لا تقوم به الحجة على الغير ، فإذا حدث له واقع صار حجة على الغير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ  
فَقَدْ رَأَيْتُمْوْهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴾

وكان القوم الذين فاتهم شرف الاشتراك في بدر قد أرادوا أن يذهبوا مع الرسول للمشاركة في غزوة أحد ، ويوضح لهم الحق : أكنتم تظنون أن تمخى المعارك وحده يحقق النصر ، وهل كنتم تظنون أن كل معركة يدخلها المؤمنون لابد أن تكون منتصرة ؟ وإن كنتم تظنون أن المسألة هي نصر لمجرد التمسق ، فمعنى ذلك أنكم دخلتم إلى معسكر الإيمان من أجل الفال واليُمن والنصر ، ونحن نريد أن نعرف من الذي يدخل معسكر الإيمان وهو بائع روحه وهو محتسب حياته في سبيل الله .

فلو أن الأمر يمر رخاء ، لدخل كل واحد إلى معسكر الإيمان ، لذلك يقول الحق : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » . فهل ظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون أن يُخرج الحق على الملأ ما علمه



غيبا ، وترجمه الأحداث التي يُجرىها سبحانه فيصير واقعا وحجة عليكم ، وبرز الله سبحانه من الذين جاهدوا ؛ أي دخلوا في زُمرة الحق ، والذين صبروا على الأذى في الحق .

ويقول سبحانه : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » أي إن ما كنتم تتمنونه قديما صار أمامكم ، فلو أن التمني كان صحيحا لأقبلتم على الموت كما تقبلون على الحياة . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ  
أَفَايُنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ  
يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي  
اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ١٤٤

ونحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه الأول هو « محمد » ، وله اسم ثان عرفناه من القرآن وجاء في الإنجيل هو « أحمد » :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا  
بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا  
جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا أَجْرٌ مِمَّنْ ﴾ ٦

(سورة الصف)

وقد ورد اسمه صلى الله عليه وسلم « محمد » في القرآن أربع مرات ، و« أحمد » وردت مرة واحدة .

والاية التي نحن بصدددها ، وهي آية ذكر فيها اسم محمد : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » . ولنقرأ قول الحق :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝١٠ ﴾

( سورة الاحزاب )

وقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝١١ ﴾

( سورة محمد )

وها هو ذا القول الكريم :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكُوعًا مُّجْدًا يَتَنَفَّسُونَ فَضْلًا مِّنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۝١٢ ﴾

( من الآية ٢٩ سورة الفتح )

والاسم هو ما وضع علماً على المسمى ، بحيث إذا ذكر الاسم جاء إلى الذهن المسمى ، فإذا اشترك اثنان في بيئة واحدة في اسم ، فلا بد من التمييز بينهما بوصف . فإذا كان في أسرة واحدة ولدان اسم كل واحد منهما محمد ، فلا بد أن يميز بين الاثنين بصفة ، وفي الريف نجد من يسمى « محمدًا الكبير » و « محمدًا الصغير » .

وكلمة « محمد » وكلمة « أحمد » مشتركتان في أصل المادة ؛ لأنها من « الحاء والميم والدال » ، فالمادة هي الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقي في محمد غير التوجيه الاشتقاقي في أحمد ، لأن الاسم قبل أن يكون علماً إذا خرجت به عن معناه الأصلي ، انحل عن معناه الأصلي ، وصار علماً على الشخص .

ولذلك قد نجد رجلا له جارية سوداء فيسميها « قمرا » وقد يكون للرجل عبد شقى فيسميه : « سعيدا » . فإذا صار الاسم علما على شيء فإنه ينتقل من معناه الاصل ويصير علما على المسمى ، لكن الناس حين تسمى أبناءها تلمح التفاؤل في أن يصير المعنى الاصل واقعا .

والدميمة التي يسميها صاحبها « قمرا » افتقدت جمال المسمى ، ولذلك فهو يريد لها أن تأخذ جمال الاسم . وكلمة « محمد » حين ننظر إليها في الاشتقاق نجد أنها ذات يقع عليها الحمد من غيرها ، مثلما تقول : فلان مكرم أى وقع التكريم من الغير عليه .

وكلمة « أحمد » نجدها ذاتا وقع عليها الحمد لغيرها . وعندما نقول : مكرم - بضم الميم وفتح الكاف مع تشديد الراء مكسورة - أى وقع التكريم منه لغيره . ونحن عندما نسمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، في القرآن وكلاهما من مادة « الحمد » فـ « محمد » ملحوظ فيه أن الحمد وقع عليه كثيرا من غيره . لكن لو كان المراد أن الحمد وقع عليه دون الكثرة فيه لكان اسم « محمود » هو الذى يطلق عليه فقط .

أما « أحمد » فقد قلنا إنه ملحوظ فيها أن الحمد وقع منه لغيره . و « أحمد » تتطابق مع أفعال التفضيل فنحن نقول : « فلان كريم وفلان أكرم من فلان » . إذن فـ « أحمد » أى وقع منه الحمد لغيره كثيرا ، فلو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا « حامدا » . إذن فـ « أحمد » مبالغة في « حامدا » وقع منه الحمد لغيره كثيرا فصار أحمد . و « محمد » مبالغة في « محمود » ، وقع عليه الحمد من غيره كثيرا فصار محمدا .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له الله بين الأمرين ؛ فهو محمد من الله وحامدا لله ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله له بين مقامين : مقام الاصطفاء ومقام المجاهدة ، فبالاصطفاء كان « محمدا » و « محمودا » ، وبالمجاهدة كان « حامدا » و « أحمد » . إذن نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله صلى الله عليه

وسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبي التوبة ونبي الرحمة » (١) .

وسيكون لذلك كلام ونحن نتناول هنا بالخواطر معركة أحد ، فبعد أن انحل القوم من الرماة عن أمره ، وحدثت الكرة عليهم من المشركين القرشيين ، بعد ذلك يتجه الصحابة هنا وهناك ليفروا ، ويتكفل المشركون على رسول الله لدرجة أن ابن قمئة يمسك حجرا ويضرب به حضرة النبي عليه الصلاة والسلام فيكسر رِجْلَيْهِ . وتنفر في وجتي الرسول حلقتا المغفر ، ويسيل منه الدم ، ويحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصعد على صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وكلها مجاهدات بشرية .

أما كان الله بقادر أن يُجَنِّب رسوله كل ذلك ؟ إنه سبحانه قادر . ولكن كل ذلك كان تكريما من الله ، ولم يرد سبحانه أن يحرم رسوله من لذة المجاهدة ، وحتى يعرف الله المؤمنين بمحمد نقول : إن الله لم يأت بمحمد ليدلله على خلقه ، ولكن ليدل كل مؤمن على أن رسول الله حينما حدث له ما حدث قد ذاق المجاهدة ، فقد فر بعض المقاتلين من المعركة في أحد ، وكادت ريح الهزيمة تهب على معسكر الإيمان ، هاهو ذا سيدنا أبو عبيدة رضى الله عنه يذهب إلى رسول الله فيجد حلقي المغفر في وجنتيه صلى الله عليه وسلم ، فيحاول سيدنا أبو بكر أن يخلع حلقي المغفر ، فيتألم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول سيدنا أبو عبيدة : - إليك يا أبا بكر . بالله دعني .

ومسك أبو عبيدة بإحدى الحلقتين وينزعها من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته ، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى فكان أبو عبيدة - رضى الله عنه - ساقط الثنيتين ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . وينزف دمه صلى الله عليه وسلم ، وسيدتنا فاطمة يلهمها الله أن تأق بقطعة من حصير وتحرقها ، وتأخذ

(١) رواه أحمد وسلم عن أبي موسى الأشعري .

التراب الباقي من الحريق وتضمد به الجرح . إن الله لم يشأ أن يحرم رسوله للجهاد .

ويأتى أنس بن النضر ويمجد الصحابة وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله وقد ألقوا ما بأيديهم ، فيسألهم أنس : ما يجلسكم ؟ فيقولون : قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : فإذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم استقبل القوم من المشركين فقاتل حتى قُتل .

هذه كلها مواقف لم تكن تاتي وتظهر إلا بهذه المعركة . « وما محمد إلا رسول ، آي اسمعوا . هذا محمد وهذه منزلته ، هو رسول من الله جاء بعد عيسى بن مريم ، وكان من الواجب أن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مؤكد على بشريته . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » .

وهل انقلب أتباع الرسل السابقين على أعقابهم حينما ماتت رسلهم ؟ فكيف تكونون أقل شأنا من هذه الأمم ؟ هبوا أن ذلك قد حدث ، فلماذا لا يبقى الخير الذي بلغه فيكم رسول الله إلى يوم القيامة ؟ الرجل الذي يكون قد صنع خيرا يموت بموته ، أيكون قد صنع شيئا ؟ لا ؛ فالذي يريد أن يصنع خيرا فعليه أن يصنع خيرا بخلفه .

لذلك فالزعامات الفاشلة هي التي يكون الفرد فيها زعيما ، ثم يموت وتبحث عن زعيم بعده فلا نجد ونسأل : لماذا نخلق الزعيم أصحابه وزملاءه ؟ أكان خائفا منهم ؟ ونظّل نتخى أن يكون قد ربى الزعيم أناسا ، فإذا ما ذهب نجد من يخلفه ، فلا يوجد إنسان يضمن حياته ؛ لذلك يقول الحق : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » .

وساعة تسمع القول الكريم : « وما محمد إلا رسول » فهذا أسلوب اسمه أسلوب

القصر . إنه سبحانه وتعالى يقصر محمداً على الرسالة . فإذا قصر محمد صلى الله عليه وسلم على الرسالة فهذا يعنى أن بعض المعاصرين له كانوا يعتقدون أن محمداً أكبر من رسول ولا يموت . فأوضح الله سبحانه أن محمداً رسول ، وقد نزلت من قبله الرسل ، ولن يخلد الله أحداً .

وهل غاب ذلك عن الدهن ؟ نعم كان ذلك يغيب عن الدهن بدليل أنه حتى بعد أن نزلت هذه الآية وصارت قرآناً يُتلى ، نجد أن سيدنا عمر رضى الله عنه وكانت له فطرة صافية توافق رضى الله ، إنه محدث ملهم .

ها هو ذا عمر بن الخطاب حينما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى رحاب الله يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يموت حتى يقطع أيدي أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . قال عمر بن الخطاب ذلك من هول المفاجعة ونسى الآية فيأى سيدنا أبو بكر فيقول : من كان يعبد الله فإن الله حي لم يموت ، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . وتلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » . فقال عمر بن الخطاب : « فلكنى لم أقرأها إلا يومئذ » .

ثم إن عمر بعد أن بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة قال : أما بعد فإنى قلت لكم أمس مقالة ، وإنها لم تكن كما قلت ، وإنى والله ما وجدت المقالة التى قلت لكم فى كتاب أنزله الله ، ولا فى عهد عهد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يذبرنا<sup>(١)</sup> فاختار الله عز وجل لرسوله الذى عنده على الذى عندكم ، وهذا الكتاب الذى هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا كما هُدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه تعطينا أمرين اثنين :

الأمر الأول : هو عشق الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) يذبرنا : يكون آخرنا موتاً .

والأمر الثاني : هو حاجة إيمان ، فالمعشوق لا يستقيم ولا يصح أن يخرجنا عن طور التصور الإيماني ، فعمد بن الخطاب قال : عندما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية عرفت حق ما تقلني رجلاي ، وحق هويت على الأرض .

إذن لقوله سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » يعنى لا ترتفعوا به أنتم أيها المؤمنون برسالته فوق ما رفعتة أنا .

ومعنى « ينقلب على عقبيه » أى يرجع . فهل هذا الرجوع رجوع عن المعركة ؟ أو رجوع عن أصل التشريع وأصل الديانة وأصل الرسالة التى جاء بها محمد ؟ إن هذا يصح ، وذلك يصح . وقوله الحق : « أفان مات أو قتل » قول واضح ، وسبق أن تعرضنا إلى الموت وإلى القتل ، وقلنا : إن الموت والقتل مؤداهما واحد ، وهو الذهاب بالحياة ، إلا أن الذهاب بالحياة مرة يكون بنقض البنية التى لا تسكن الروح فيها إلا بمواصفاتها ، فإن نقضت البنية ولم تجد الروح المسكن الملائم لها فتركه ، لكن الموت على إطلاقه : هو أن تذهب الحياة بدون نقض البنية ، فالإنسان يذهب حتف أنفه ، أى نجده قد مات وحده .

إذن فنقض البنية يؤدى إلى ذهاب الحياة بالقتل ، لأن الروح لا تسكن فى مادة إلا بمواصفات خاصة ، فإذا انتهت هذه المواصفات ذهبت الروح . لكن عندما تذهب الروح بمفردها بدون نقض للبنية فهذا هو الموت لا القتل .

والله سبحانه يقول : « أفان مات أو قتل » ذلك أنهم أشاعوا أن النبى قد قتل . وكيف يجوز ذلك على الصحابة والله قد قال :

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَنَ النَّاسِ ﴾

( من الآية ٦٧ سورة المائدة )

وهنا نقول : هل أنت علمت أن هذه الآية قد نزلت قبل أحد أو بعدها ؟ وهل أنت حسن الظن بأن كل صحابى يكون مستحضرا لكل آيات القرآن فى بؤرة

شموره ؟ ألا ترى أنهم عندما سمعوا خبر قتله هربوا ، وإذا كان سيدنا عمر قد نسي هذه الآية : « أفان مات أو قتل ، كما أنه يحتمل أن يكون المراد من عصمة الله رسوله من الناس أنه - سبحانه - يحفظه من فتنة الناس وإذلالهم .

وهكذا أراد الله أن تمثل لنا معركة أحد كل الطوائف والأصناف التي تُنسب إلى الإيمان تمثيلاً يتضح في موقف ابن أبي حيث انخزل وانقطع عن رسول الله بثلاث القوم ، ومرحلة أقل منها ، تتمثل في طائفتين قُتلتا ، ثم شاء الله أن يربط على قلوبهما فيظلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما نشبت المعركة كان للرماة موقف في المعركة الأحديّة .

فحين رأوا النصر أولاً ورأوا الغنائم سأل لعاب بعضهم على الغنائم ، فحصل انشقاق فيهم ، فعبداً لله بن جبير وهو رئيس الرماة ومعه من معه من القلة يُصر على تنفيذ أمر رسول الله فيقاتل حتى استشهد ، واستشهدوا وهؤلاء هم الذين أرادوا الآخرة . بينما كان هناك قوم آخرون أرادوا الغنائم ، وحينما أشيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتل فرت البقية الباقية من الرماة وغيرهم من المعركة ، ورسول الله يتنادى القوم : « إلى عباد الله إلى عباد الله » (١) .

كل هذه مصاف إيمانية تمثل لنا كيف يُصفي الله مواقف المنسوين إليه . وتظهر وتوضح موقف كل واحد ، وأنه مفضوح إيماناً إن وقف موقفاً يخالف منهج الله . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - في هذا الوقت - في موقف الإنهاك لقوته البشرية لدرجة أننا قلنا : إنه أراد أن يصعد فلم تقو مادته البشرية ، فطأطأ طلحة ظهره ليصعد النبي عليه ، وهو في هذه المرحلة من الإنهاك المادي البشري يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطيه من القوة في هذا الضعف وفي هذا الإنهاك ما يقف به أمام جبار من جبابرة قريش . كان هذا الجبار يتهدده .

ولو أن الموقف كان موقف قوة لرسول الله أكان من المعقول أن يتصر رسول الله على جبار قريش ؟

(١) رواه الحافظ ابن كثير في التفسير .



ولكن الله يريد أن يُرينا تأييد الله لرسوله ، في موقف إنهاكه وكيف يقف من جبار قريش هذا الموقف ، هذا الجبار هو « أبى بن خلف الجمحي » وكانت عنده رَمَكَةٌ (١) فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الرمكة أنا أعلفها كل يوم فرَقًا (٢) من ذرة لأقتلك عليها . فيقول له رسول الله قولة الواصل من أن ربه لن يخذله : « بل أنا أقتلك إن شاء الله » .

لم يلتق هذا الرجل مع رسول الله وهو في قوته ، ولكنه جاء لرسول الله وهو في هذا الموقف الذي أثختته فيه الجراح وكسرت رِباعيته ودخلت حلقتنا المغفرة في وجنتيه وسال دمه . وبعد ذلك يأتى إليه هذا الرجل - أبى بن خلف الجمحي - وهو يقول : أين محمد ؟ لانجوت إن نجا ، فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟

فيشير إليهم رسول الله أن اسكتوا . إنه - رسول الله - لا يريد قوة لقوة ، ولكنه علم أن أَيْتًا قد عرف أن رسول الله منهك فجاء في هذا الوقت ، فأخذ رسول الله الحرب ، وضرب أبى بن خلف بها فنالت منه ، فسقط من على فرسه بخور كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : « لا بأس عليك يا أبى » ، ما أجزعك : إنما هو خدش (٣) .

وهذا الذى قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى اشتد عليه غضب الله تعالى لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال : « اشتد غضب الله على من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده في سبيل الله واشتد غضب الله على قوم ذموا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم » (٤) .

ولننظر كيف أن الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استكبارا وعنادا ، ولم

( ١ ) الرمكة : أنثى البرذون ويطلق على غير العربى من الخيل . عظيم الخلفة غليظ الأعضاء قوى الأرجل عظيم الخوافر .

( ٢ ) الفرقى : مكيال بسع ستة عشر رطلاً = ٧ كج تقريبا .

( ٣ ) ابن كثير في التفسير .

( ٤ ) رواه البخارى .

يعادوه عقيدة قلبية ، إنهم يعتقدون صدقه ، ويعتقدون حسن بلاغه عن الله ،  
ويتحقق ذلك من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَحَمِّدُوا بِهَا وَأَسْتَفِيتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ  
الْمُفْسِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

( سورة النمل )

فما هو الاستيقان هنا ؟ لقد قال أصحاب أبي له : ما أجزعك إنما هو خدش  
فقال أبي : والذي نفسى بيده لو كان الذى بي بأهل الحجاز لماتوا جميعا . لكن  
أصحاب أبي قالوا له مرة أخرى : لا بأس عليك يا أبي إنه خدش بسيط . لكن  
أبي يقول :

« لا والله لقد علمت أنه يقتلنى ؛ لأنه قال لى بمكة : « أنا قاتلك إن شاء الله » فوالله  
لو بصبق على لقتلنى . فمات وهم قافلون به إلى مكة .

هذا يحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى موقف الضعف والإنهاك ،  
ويشاء له الله أن يقتل جبارا من جبابرة قريش وهو فى هذه الحالة . إن كل ذلك لأدلة  
تثبت لهم أن البشرية المادية لا علاقة لها مطلقا بمجد النصر من الله ؛ فالله يمد رسوله  
حتى فى وقت الضعف . ومدده سبحانه لرسوله وقت ضعف الرسول هو إعلام  
بقيومته سبحانه على جنوده ؛ لأنهم لو ظلوا أقوياء لقبل فى عرف البشر : أقوياء  
وغلبوا .

لكن هاهو ذا الرسول يصيب الجبار من قريش فى مقتل والرسول ضعيف ، وبعد  
ذلك يعطى الحق سبحانه لرسول الله أشياء إيمانية تزيد ثقة بأنه هو رسول الله ،  
وتزيد المؤمنين ثقة بأنه رسول الله . لقد خرج إلى المعركة وهو يعلم بما سيكون فيها ؛  
لأنه قال : ( إني قد رأيت والله خيرا رأيت بقرا تذبح ورأيت فى ذباب سيفى ثلثا ،  
ورأيت أنى أدخلت يدي فى درع حصينة فأولتها المدينة ) (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : ( لقد رأيتني يوم أحد وما في الأرض قرى مخلوق غير جبريل عن يميني وطلحة عن يساري )<sup>(١)</sup> .

إذن فالمعركة بكل أحوالها عُرِضَتْ عليه ، ومع ذلك أقبل رسول الله على المعركة ليستدل من ذلك على أن الله أعطاه المناعة قبل أن يخوض المعركة . هذا ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم ، لقد رأى فأول ، وأما الذي يتعلق بالناس ، فيأتى إلى واحد من قتل المعركة - وقتل المعركة ، لا يُفْسَلُونَ ، لأن الذي يغسل هو من يموت في غير معركة - يأتى الرسول إلى واحد من هؤلاء الشهداء فيقول :

« إن صاحبكم لتغسله الملائكة » - يعنى حنظلة - المؤمنون يرون أنه صلى الله عليه وسلم قد خرج عن القاعدة في الشهداء . كيف ؟ . لقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخبر بعد ذلك . . ولا يُخْرَج حنظلة عن قانون الشهداء أنه يُغَسَّل . . ولكن الذى يغسله هم الملائكة . . إن الملائكة تغسل حنظلة .

وبعد أن رجع رسول الله إلى المدينة يسأل أهله ما شأنه . . فيعلم أن حنظلة قد دخل بعروسه . . ثم نودى للمعركة . . فأعجله نداء المعركة . . فذهب إلى المعركة جنبا . . فذلك غُسل الملائكة له ، لقد تأكد الخبر من زوجة حنظلة . . إذن فهذه شهادة أخرى أن الله سبحانه وتعالى لم يتدخل عنهم في أوقات الضعف ، وأن تلك العملية كانت عملية مقصودة .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى الرسول صلى الله عليه وسلم أشياء لتؤكد لنفسه أنه رسول الله . ألم نقل سابقا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء له صحابته فقالوا : يا رسول الله : إن جابر بن عبد الله عليه دين ليهودى وأجل الدين إلى جَزَر التمر وعمره خمس هذا العام أى فسد من آفة مثلا فنحب يا رسول الله أن تطلب من اليهودى أن يُنظر جابرا - أى ينتظر عليه ويؤخره إلى وقت آخر - فذهب رسول الله إلى اليهودى وطلب منه أن يُنظر جابرا ، فلم يرض اليهودى وقال : لا يا أبا القاسم . .

فأعاد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اليهودي : لا يا أبا القاسم .  
فأعاد عليه الرسول مرة ثالثة فقال اليهودي : لا يا أبا القاسم . . فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بثقة الإيمان بالله ما معناه : يا جابر اذهب بي إلى بستانك .

وذهب رسول الله فجاس خلال النخل ، ثم ذهب إلى عريش جابر الذي يجلس  
فيه ، واضطجع وقال : يا جابر جز واقض . قال جابر : فذهبت فجزرت ، فإذا  
ما جززته يؤدي ما على لليهودي ويبقى لي ما لم يبق لي وأنا غير مدين . فلما بلغ ذلك  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أشهد أني رسول الله » . إن الحق سبحانه يعطى رسوله بينات توضح أنه رسول  
الله ، فاليهودي لم يرض بشفاعته النبي ، فيعطى الله رسوله ما يؤكد أنه رسول الله .  
وهكذا نرى أن الله يعطى رسوله في وقت الضعف الأدلة التي تؤكد له أنه رسول  
الله . والذي يدل على ذلك هؤلاء الذين أحبوا أن يؤذوه في اسمه . إن اسمه محمد  
كما نعرف ، وه محمد أي الممدوح من الكل ، وبكثرة ، فيأتى خصومه ويريدون أن  
يهجوه وأن يلعنوه ، فيصرفهم الله سبحانه وتعالى حتى عن شتم الاسم لا المسمى  
فقط .

إن الله أراد أن يصعد العصمة ، وأراد - سبحانه - ألا يتألوا بالسباب من اسم  
رسول الله ، فألهم الله خصوم رسول الله أن يسموا المشتوم عندهم « مذمما » بدلا من  
« محمد » . وعندما يريدون اللعن « فهم لا يلعنون الاسم محمداً ولكنهم يسبون  
الاسم الذي اختاروه وهو « مذمم » ، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
عندما سمع ما قالته أم جميل امرأة أبي لهب :

« مذمما عصينا . . وأمره آيينا . . ودينه قلوبنا » (١) . وهي تقصد رسول الله صلى  
الله عليه وسلم فقد حدث أن حمالة الحطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو  
جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها حجر فلما وقفت عليهما  
أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر فضالت :

يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجوني والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر  
فاه أما والله إني لشاهرة وقالت ما قالت .

ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أذى  
قريش يشتمون مُدْمِماً ويلعنون مُدْمِماً وأنا محمد »<sup>(١)</sup> .

هكذا نرى من أفواه الخاقدين على رسول الله أنه معصوم بإرادة الله ، حتى الاسم  
أبعده الله عن اللعن ، أما المسمى فلن يلعن ولن يشتم .

إن ما حدث في غزوة أحد كان هو التربية الأولى لصحابة رسول الله ، والتأكيد  
على صدق بلاغه عن الله . إن هذه المعركة قد صورت ذلك وجسده ، ولذلك حين  
نلاحظ المعارك التي جاءت بعد هذه المعركة فإننا لانجد للمؤمنين هزيمة أبدا ، لأنهم صُفُوا  
التصفية ورَبُّوا التربية التي جعلت كل واحد منهم عارفاً أن الله يعلم ما يخفيه وإن لم  
يحسن البلاء والجهاد نسيضع الله ما في نفسه ، وسيعلم الله عنه ، لذلك دخل كل  
مؤمن منهم المعارك وهو مقبل على الجهاد ، وكل المعارك بعد أحد جاءت نصرا  
وجاءت سلاما .

وهنا يعلمنا الحق أن البقاء على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النجاة  
وهو النصر ، ونحذرننا سبحانه ألا ينقلب المؤمن على عقبيه ، قال لنا : ( أفلان مات أو  
قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله  
الشاكرين ) .

« ومن ينقلب على عقبيه » هي صورة حركية مادية مرئية . وقد حدث ذلك من بعض  
الصحابة في معركة أحد ، لقد فر البعض وانقلب بعضهم إلى المدينة ، ومعنى  
« انقلب » أي أعطى ظهره للمعركة بعد أن كان مواجهها لعدوه ، وهي مثل قوله :  
« ولَوْ الْأَدْبَار » .

(١) رواه البخاري في المثلث ، والنسائي في الطلاق ورواه أحمد في المسند .

ولكن في قوله : « انقلبتم على أعقابكم » فيه انقلاب حسي أيضا ، وفيها كذلك انقلاب نفسي ، وهو الانصراف عن أصل الدين ، ولذلك سيعرفنا الحق أن المنافقين بعد حدوث تلك الواقعة وبعد ما فشا وذاع في الناس قتل الرسول كان لهم كلام ، وضعاف الإيمان كان لهم كلام آخر ، فالمنافقون الذين هم أكثر شرا من الكفار قالوا : لو كان نبيا لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

أما الذين آمنوا إيمانا ضعيفا فقالوا : سنذهب إلى ابن أبي ليلى لئلا يأخذ لنا أمانا من أبي سفيان . فيقف أنس بن النضر قائلا : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - أي المنافقون - واعتذر إليك مما يقول هؤلاء - أي ضعاف الإيمان - .

لقد وزعها بالحق ، فهو يبرأ إلى الله من قول المنافقين الذين قالوا : إنهم سيعودون إلى دينهم القديم ، ويعتذر ويستغفر عن ضعف الإيمان . ويقول سبحانه : « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » . لماذا؟ لأن الله أولاً وقبل أن يخلق شيئا من خلقه له كل صفات الكمال ، إذن فأى صفة من صفات الكمال لم تطرأ عليه - سبحانه - من خلقه ، إنه - سبحانه - أوجد الكون بما فيه الخلق لأنه قادر ، وأوجده لأنه حكيم ، وأوجده لأنه عالم ، إذن فخلق الخلق لم يزد الله صفة من صفاته ، فحين خلقكم وصنعكم أعطى لكم المنهج لتكونوا خلقا سويا . إذن فالمصلحة تعود علينا نحن الخلق ، فكان يجب أن تنظروا إلى المناهج التي تأتي من الله على أنه لا نفع فيها لله ، ولكن النفع فيها عائد عليكم . ولذلك فمن يلحظ هذه « فهو يعرف أن ربنا يستحق الشكر على أنه كلفنا بالمنهج . ولذلك جاءت الآية من بعد ذلك لتقول : « وسيجزي الله الشاكرين » لأن الشكر إنما يؤديه العبد على نعمة ، نعمة تمحيص وتعليم وبيان مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه . لقد تعلم المؤمنون أن الله يستحق منهم الشكر على هذه النعم .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى قضية عامة ، القضية العامة للناس جميعا هي :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

## كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

وساعة تسمع « ما كان » أى « ما ينبغي » . فنحن فى حياتنا نقول : ما كان لك أن تضرب زيدا ، ونقصد أنه ما ينبغي أن تضرب زيدا . فقوله : وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ، هذا القول قد يدفع إلى التساؤل : وهل الموت أمر اختياري ؟ لا ، ولكن تعبير الحق سبحانه له إجماع : لأنك عندما تقول : ما كان لفلان أن يفعل كذا ، فهذا معناه أن لفلان أن يختار أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفى قدرة فلان أن يفعل أو لا يفعل . أما عن قدرة الله فلا يمكن أن يقول أحد ذلك .

إننا نفهمه على فرض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، فما لها أن تموت إلا أن يأذن الله . فإذا كانت النفس هى التى تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، ومع ذلك لا تملك أن تموت ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلكة . إذن فالموت إن أرادته النفس فلن يأتى إلا أن يكون الله قد أذن بذلك . وإننا نجد فى واقع الحياة صورا شتى من هذه الصور .

نجد من يضيق ذرعا بهذه الحياة ؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسع للبلاء والكدر فى الدنيا فيتسحر ، إنه يريد أن يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه . أما الذى يملك الطاقة الإيمانية الرحبة فأى شقاء أو بلاء يقابله يقول : إن لى ربا ، وما أجراه على ربي فهو المربى الحكيم الذى يعرف مصلحتى أكثر مما أعلم ، ولعل هذا البلاء كفارة لى عن ذنب .

وهذا عكس من يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتل نفسه ، وكل منا قد رأى أو سمع من بعض الذين يريدون ذلك لكن يتم إنقاذهم ويبركهم من ينفذ

مشيئة الله في إنقاذهم ، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصا سامة ، أو إطفاء حريق من أشعل في نفسه النار . فالمتحرير يريد لنفسه الموت ولكن الله إذا لم يأذن ، فلا يبلغه الله هذا ، فقد تجد مُتَحَرِّرا يريد أن يطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد متحررا آخر يريد أن يشق نفسه بحبل معلق في السقف فينقطع الحبل . لماذا ؟ لأنه لا يقبض الحياة إلا من وَهَبَ الحياة .

قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذي يقتله إنسان آخر . وهنا يرد المثل الشعبي : لو صبر القاتل على المقتول مات بمفرده . إن اللحظة التي تفارق الروح مادة الجسد موقوتة بأجل محدود ، فمرة تأتي اللحظة بدون سبب ، فيموت الإنسان حتف أنفه ، ويقول أصدقاؤه : لقد كان معنا منذ قليل . إنهم ينسون أنه مات لأنه يموت بكتاب مؤجل .

ولذلك نجد إنسانا يسمى إلى عافية الحياة ، فيذهب إلى إجراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت . ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حين يقول في ذلك :  
 في الموت ما أعيا وفي أسبابه  
 كل امرئ رهين بطن كتابه  
 أسد لعمرك من يموت بظفره  
 عند اللقاء كمن يموت بنابه  
 إن نام عنك فكسل طب نافع  
 أو لم ينم فالطب من أذنبه

إن الكتاب إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقي الإنسان بأسد ، فيستوى الموت بالناب ، كالموت بظفر الأسد . فإن نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قرص دواء أو جرعة ماء . أما إن استيقظ الموت فالطب والعلاج قد يكون دُنياً أو أداة للموت ، والقاتل كل ما فعله أنه نقض بنية المقتول ، وهذا هو ما يعاقب عليه .

إذن فقول الحق : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » يطلق قضية



عامة . والكتاب المؤجل يطلق مرة على زمن العمر كله ، ومرة يطلق على النهاية النهائية منه ، والنهاية النهائية هي الموت الحقيقي . فالقاتل حين ينقض بنية القتل إنما يوافق الأجل المكتوب الذي أراده الله . لكن لماذا نعاقب القاتل إذن ؟ نحن نعاقبه لأنه نقض بنية إنسان آخر .

والحق يقول : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . ولنلاحظ قوله : « بإذن الله » فهي تدلنا على أن الله هو الذي يطلق الإذن . والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة . ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مرة هذه العملية لله فيقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ١٥ ﴾

( سورة الزمر )

ومرة أخرى يسند القرآن هذه العملية للملك واحد :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي ذُكِّرْتُمْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ رَجَعُونَ ١٦ ﴾

( سورة السجدة )

ومرة يسندها الحق سبحانه إلى رسل من معاونين الملك الموت :

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ . وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ١٧ ﴾

( سورة الأنعام )

والحق سبحانه وتعالى صادق في كل بلاغ عنه ، لأن كل أمر بمحدد الأجل ليس مجرد الموكل بإنهاء الأجل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذي يحدد ذلك . وما دام كل أمر قد صدر منه فهو سبحانه الذي يتوفى الأنفس ، وبعد ذلك فالملك الذي يتوفى

الأنفس - عزرائيل - له أعوان ؛ فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشروا كل واحد مهمته . إذن فصيروا الأمر بالموت نهائيا إلى الله .

وصيروا الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإذن ، والإذن يقتضي مآذونا ، والمآذون هم ملائكة الموت الذين أذن لهم ملك الموت بذلك ، وملك الموت تلقى الإذن من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يرد ثواب الدنيا فؤده منها » فالذى يريد جزاء الدنيا وهو الذى يطلب جزاء حركته فيها ، يأخذها ، ولو كان كافرا :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ١٨ ﴾

( سورة الإسراء )

ويقول سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ٢٠ ﴾

( سورة الشورى )

وهذا ينهى عملية أن تقول : إن الكفار حالتهم أفضل من حالتنا ، الكفار متقدمون ؛ ونحن متخلفون . وهل لم تأت فترة كان فيها المؤمنون متقدمين جدا ؟ لقد جاءت فترة تقدم فيها المؤمنون ، وكانوا متقدمين لآلاف سنة ، وهم الدولة الأولى في العالم . وكان الكفار يسمون زمانهم ودولهم بأنها تحيا في عصور الظلمات . لماذا أنكرتم هذه ؟ لأن التاريخ جاء لنا من ناحية هؤلاء وقد شوهموه ، ولذلك نقول لهم : نحن كنا متقدمين وأنتم والتاريخ يشهد بذلك .

ولذلك قلنا : يجب على المؤمن بالله أن يكون غيورا على أسباب الله ، فلا يدع

أسباب الله للكافر بالله ، يأخذ الكافر بأسباب الله وأنت يا مؤمن بالله تترك الأسباب ليأخذها هو ؟ لا ؛ لأن من يعبد الله أولى بسرّه في الوجود ، فكوننا نتركهم يأخذون الأسرار العلمية ولا ننافسهم في هذا المجال هذا تقصير منا .

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » ونلاحظ أن الحق قد جاء بلفظ « الشاكرين » مرتين ، والقرآن يؤكد هذا المعنى . إنه سبحانه أعطاكم أسبابا فإن كانت الأسباب قد جاءت لكم بمسائل الدنيا فهي تستحق الشكر ، وإن كانت ستعطيك تكليفا مع الأسباب فهذا التكليف سيعطيك خبر الآخرة ، وهو أمر يستحق الشكر أيضا .

وبعد هذا الكلام النظري « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . . يقول ما يؤكد وجوده في موكب الإيمان الذي سبقكم ؛ لأن فيه فرقا بين الكلام وبين أن يقع مدلول الكلام ، فواقع الكلام سبقكم فيقول :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَفْسٍ قَتَلَتْ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾

« وكأين » هذه يقولون : إنها للتكثير ، مثل « كم » ؛ فعندما يقول لك إنسان مثلا : لماذا تحافني ؟ فتقول له : كم زرتك ؟ إن قولك : « كم زرتك » في ظاهرها أنها استفهام ، وأنت لا تريد أن تقول له مستفهما كم مرة زرتك فيها ، بل تقول له : أنت الذي عليك أن تقول - لأنك بقولك ستعترف أن زرتك كثيرا ، فيكون الجواب موافقا لما فعلت . وأنت لا تقول « كم زرتك » إلا وأنت واثق أنه إذا أراد أن يجيب فسيقول : « زرتني كثيرا » ولو كنت لا تتق أنه سيقول : زرتني كثيرا ، لما قلتها ،

فعندما تقول له : كم زرتك ، كم تفضلت عليك ، كم واسيتك ، كم أكرمتك ؟ فإن « كم » تأتي للتكثير ، وتأتي مثلها « كأيمن » إنها للتكثير أيضا ، عندما تقول مثلا : « ياما حصل كذا » و « ياما » هذه معناها « كأيمن » .

وقد يسألك صديق : كيف حدثت هذه الحكاية ؟ فتقول له : كأي رجل يفعل كذا ويحصل له كذا ، أي أن المسألة ليست غريبة ، إن قولك : كأي رجل معناها أنها شاعت كثيرا ، وعندما تقول : كم مرة زرتك ، وكم من مرة زرتك فهذان الاستعمالان صحيحان والمعنى : كثير من نبي قاتل معه مؤمنون برسالة كما حدث وحصل مع رسول الله . وقوله الحق « ربيون » أي ناس فقهاء فاهمون سبل الحرب ، و « ربيون » أيضا تعني : أتباعا يقاتلون ، و « ربيون » يمكن أن ينصرف معناها إلى أن منهجهم إلهي مثل « الربانيين » .

وقول الحق « فما وهنوا » أي ما ضعفوا ، إذن فهو يريد أن يأتي بالأسوة ، وكأنه سبحانه يقول : أنتم لماذا ضعفتكم في موقفكم في غزوة أحد وأنتم تقاتلون مع رسول الله . لقد كان الأولى بكم أن يكون حماسكم في القتال معه أشد من حماس أي أتباع نبي مع نبيهم ؛ لأنه النبي الخاتم الذي سيضع المبدأ الذي ستقوم عليه الساعة ، ولن يأتي أحد بعده ، فكان يجب أن تتحمسوا ؛ فأنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنا ادخرتكم لذلك .

إن الحق يعطيهم المثل وفيه تعريض بهم وعتاب لهم ، وفي هذا القول تعليم أيضا ، فيقول : « وكأيمن من نبي » أي وكثير من الأنبياء « قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم » ونستوحى من كلمة « وهنوا » أي ما ضعفوا . فكانه قد حدث في القتال ما يضعف ، « فما وهنوا لما أصابهم » أي ما حدثت لهم نكسة مثلما حدثت لكم .

« وما ضعفوا وما استكانوا » . وكل من « وهنوا » و « ضعفوا » و « استكانوا » هذه جاءت في موقعها الصحيح ، لأن « الوهن » بداية الضعف ، و « الوهن » محله القلب وهو ينضج على الجوارح ضعفا . و « استكانوا » ماذا تعني ؟ إنها من « سكن » . والسكون تقابله الحركة .

والحرب محتاج إلى حركة ، والذي يأبى للحرب فهو محتاج إلى كَرّ وفر . أما الذي لا يتحرك فهذا معناه أنه ليس لديه قدرة على أن يتحرك ، وساعة تسمع - الألف والسين والتاء - وتأق بعدها كلمة ، نعلم أن ( الألف والسين والتاء ) للطلب ، « فاستفهم » أى طلب أن يفهم ، وهى تأق لطلب المادة التى بعدها . كأن نقول : « استعلم » أى طلب أن يعلم ، أو نقول : « استخير » أى طلب الخبر ، و« استكان » يعنى طلب له كَوْنًا أى وجودًا ، فكأنهم بلغوا من الوهن ومن الضعف مبلغًا يطلبون فيه أن يكون لهم مجرد وجود ؛ لأن الوجود مظهره الحركة ، والحركة انتهت ، هذا هو معنى « استكانوا » .

ومادامت من الكون يكون وزنها - مثلما يقول الصرفيون - « استعمل » يعنى طلب الكون ، وطلب الوجود ، وقد يكون وزنها ليس كذلك ؛ إذا كانت من سكن ، وهى بهذا الاعتبار لا يكون فيها طلب ؛ لأن السين ستكون أصلية ، فوزنها ليس « استعمل » بل هو « افتعل » فـ « استكانوا » هل تعنى أنهم طلبوا السكون ؟ لا ؛ لأنهم كانوا ساكنين ، إذن فالأولى أن يكون معناها أنهم طلبوا مجرد الوجود ، هذا ما أميل إليه وأرجحه ، وقيل فى معناها : فما خضعوا وما ذلوا من الاستكانة ؛ وهى الدلة والخضوع .

« فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » فما يصيب العبد ابتلاء من الله ، وفى الحديث : « إذا أحب الله قوما ابتلاهم »<sup>(١)</sup> . وكل ذلك الوهن والضعف ، لا يشغلهم عن المعركة ، لأنهم لو صبروا على التحمل لأمدهم الله بمدد من عنده ؛ لأنه حين تفرغ أسباب الخلق وتنتهى يأق إمداد الخالق .

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى بتذليل الآية : « والله يحب الصابرين » أى وكفى جزاء عن الصبر أن تكون محبوباً لله ؛ لأننا قلنا سابقاً : قد نحب الله لنعمه التى أنعمها علينا ، ولكن المسألة ليست فى أن نحب الله أنت ، وإنما فى أن نصير بتطبيق

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، والبيهقى فى شعب الإيمان . والضياء المقدسى عن أنس . ومصححه السيوطى .

منهجه لك محبوباً . وقد أثر عن بعضهم قوله :

والألم تر كثيراً أحب ولم يُحب !!؟

أنت أحببت للنعم ، ولكنك تريد أن تكون محبوباً من الله ؛ لأن حبك للنعم لا يكفي ، فمثل هذه النعم أخذها الكافر أيضاً ، إذن فهناك حاجة أخرى . هناك مقدم وهناك مؤخر ، فالمقدم هو نعم الحياة وكل البشر شركاء فيها مؤمنهم وكافرهم ، ولكن المؤخر هو جزاء الله في الآخرة وهو الأصل .

إذن ، فلو أن الناس فطنوا إلى قول الله : « والله يحب الصابرين » لقالوا : كفى بالجزاء عن الصبر أن نكون محبوبين لله ، حين أصابهم ما أصابهم . صحيح أن الإصابة لم تصنع فيهم وهنا أو ضعفاً أو استكانة ، وهذا معناه أن فيهم مُسكة اليقين بالله . ومُسكة اليقين بالله تجعلهم أهلاً لإمداد الله . فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مند الله لك . ومند الله لك لا يتجلى بحق إلا وقت الضعف ؛ لأنك وقت قوتك قد تعمل مثل الذين قيل فيهم :

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَتْهُ نِعْمَةٌ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أَتَيْتُهُ بِعَلَىٰ طَعْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٥ ﴾

(سورة الزمر)

لكن المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم « فما وهنوا » ؛ لأنهم كانوا متيقظين إلى قضية إيمانية : إن الله لا يسلمك لنفسك إلا حين تغيب عنه ، فقالوا : ولماذا حدث لنا هذا ؟ لم يقولوا : ربنا انصرونا كي نخرج من الضعف ، لا . بل فكروا في الأسباب التي أدت بهم إلى هذا :

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا  
دُفُوعَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا ١٦ ﴾

## عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾

فكان ما حدث نتيجة للذنوب تقدم ففطنوا إلى السبب ، كان المفروض أنهم في معركة ، وهذه المعركة أجهدتهم وانهكتهم ، صحيح أنهم لم يضعفوا ، وكان المفروض أن يقولوا: « يارب انصرنا أولا » لا . بل قالوا : لا بد أن نعرف السبب في النكسة الأولى . السبب في هذه النكسة أن الله لم يسلمني إلى نفسي إلا لأن نسيته .

« وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا ، ، ربنا ، ، وانظر لكلمة النداء في « ربنا » ، كان يمكن أن يقولوا : يا الله إنما جاءوا بكلمة « ربنا » لماذا ؟ لأن علاقة العبد بالربوبية هي قبل علاقته بالالوهية ، فالالوهية مكلفة ، فمعنى « إله » أى : معبود ، ومادام معبودا فله تكليف يطاع فيه ، وهذا التكليف يأتي بعد ذلك ، هو سبحانه له ربوبيته في الخلق . قبل أن يكلفهم ، ومادام الرب هو الذى يتولى التربية ، فالأولى أن يقولوا : يارب ، إذن قولهم : « ربنا » يعنى أنت متولى أمورنا ، أنت الذى تربينا .

« ربنا اغفر لنا ذنوبنا » فكانه لا شئ يصيبنا إلا بذنوب من الغفلة ارتكبناه . ونعرف من كلمة « ذنب » أن الذى يفتن إلى معناها لا يفعلها أبدا ، لأن كلمة « ذنب » مأخوذة من مادة « الذَّنب » . والذَّنْبُ سيأتى بعده عقوبة . فاللفظ نفسه يوحى بأن شيئا سيأتى ، وعندما تتذكر عقاب الذنب فانت لا تفعله .

« اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا » لأن كل معصية تكون تجاوزا عما أحله الله لك ، وزيادة غير مشروعة وإن كانت من نوع ما أحله الله ، ولكنها زيادة عن مقومات حياتك : فالله شرع لنا الزواج لتأتى بالأولاد ، وعندما تأخذ أكثر من هذا من غير زواج نكون قد أسرفنا ، والله أعطانا مالا بقدر حركتنا ، فإن طمعنا فى مال غيرنا فقد أسرفنا . « وأسرفت » يعنى أن تأخذ حاجة ليست ضرورية لقوام حياتك . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ يَحْيَايَ الَّذِينَ أُسْرِفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ  
الذُّنُوبَ بِمَجْمَعٍ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥٢)

( سورة الزمر )

إنه سبحانه يوضح : أنا حللت لك كذا من النساء فما الذي جعل عينيك تزوغ  
وتميل إلى غير ما أحله الله لك ؟ أنا أحللت لك كسب يدك وإن كنت فقيراً فستأخذ  
صدقة ، لماذا أسرفت ؟ إذن فكل أمر زائد على الحد المطلوب لبقاء الحياة اسمه  
« إسراف » . وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا . لقد بدأوا يدخلون في الحق ، لكنهم  
في البداية رأوا الباطل ، والباطل هو من أسباب تحمل الحق عن نصرتنا أولاً ، لكن  
عندما يغفر سبحانه الذنب ويغفر الإسراف في الأمر نكون أهلاً للمدد وأهلاً لتثبيت  
الله .

« وثبت أقدامنا » كيف يقول الحق ذلك والمفهوم في المعركة أن الأقدام لا تثبت ؟  
المعركة تطلب من المقاتل أن يكون صواباً جوالاً متحركاً ، إذن فما معنى « وثبت  
أقدامنا » ؟ إن قول الحق : « وثبت أقدامنا » يعني لا تجعلنا نفر من أرض المعركة ،  
ولا نترك أرض المعركة أبداً . ولذلك قلنا : إن الكفار عندما حدث منهم ما حدث لم  
يظلموا في أرض المعركة ، بل تركوا أرض المعركة وانصرفوا ، وهؤلاء المؤمنون ولو أنهم  
انهزموا إلا أنهم مكثوا في أرض المعركة مدة ، وكروا وراء أعدائهم وطاردهم . وقد  
اهتدى البشر أخيراً إلى هذا المعنى ، ففي فرنسا نيشان يسمونه « نيشان الذبابة » لماذا  
الذبابة ؟ لأن الذبابة إن طردتها عن مكان لا بد أن تعود إليه ، فكذلك المفروض على  
القائد - مادام انسحب من منطقة - أن يوطن نفسه على العودة إليها ، فيعطوه نيشان  
الذبابة .

فقوله : « وثبت أقدامنا » في أي منطقة ؟ وفي أي معركة ؟ علينا ألا نبرح أماكننا ؛  
لأننا ساحة أن نبرحها فهذه أول الهزيمة ، وهذا أمر يُجَرِّى العدو علينا .

« وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . كلمة « وانصرنا على القوم  
الكافرين » هي حيثة ، فإداموا قد قالوا : « وانصرنا على القوم الكافرين » فهم إذن



مؤمنون ، ومؤمنون بحق ؛ ولذلك فإن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول قولته المشهورة : إنكم تنتصرون على عدوكم بطاعة الله ، فإن استويتم أنتم وهم في المعصية غلبوكم بغدتهم وغددهم .

ولذلك فالإيمان يتطلب أن تنبها إلى موطن الضعف فيكم أولا ، والذي استوجب أن يصيبكم ما أصابكم ، حقا إنكم لم تضعفوا ، ولم تستكينوا وأصابكم من المعركة شيء من التعب والألم . وكان الحق يوضح لنا أنهم قد تنبها فاحسنوا البحث في نفوسهم أولا . لقد تكلموا عن الذنوب وطلبوا المغفرة وتكلموا عن الإسراف على النفس ، وبعد ذلك تكلموا عن المعركة . فإذا كان العطاء من الله ؟

وبأينا الجواب في قوله الحق :

﴿ فَتَأْتِيهِمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ تَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٨﴾

أى أن الذى يريد الدنيا فانه يعطيه من الدنيا غنائم وأشياء ، ولنا أن نلاحظ أن الحق عندما يتكلم هنا عن الدنيا فهو لم يصفها بحسن أو بشئ ، فقط قال : « ثواب الدنيا » . لكن عندما تكلم عن الآخرة فهو يقول : « وحسن ثواب الآخرة » وهذا هو الجمال الذى يجب أن يُعشق ؛ لأن الدنيا مهما طالمت فهي متاع وغرور وزخرف زائل ، ومهما كنت منعم فيها فأنت تنتظر حاجة من اثنتين : إما أن تزول عنك النعمة ، وإما أن تزول أنت عن النعمة .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله يحب المحسنين » وقد أحسنوا حين نالوا ربهم بعدما أصابهم . إنهم سألوا المغفرة ، وسألوا أن يغفر لهم إسرافهم في أمرهم ، وأن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على القوم الكافرين ؛ لأنهم رأوا أن قوتهم البشرية حين

يتخل عنهم مدد الله نصبح هباء لا وزن لها .

• فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين • ومثلنا قلنا في الصبر : • والله يحب الصابرين • كفى بالجزاء على الصبر أن تكون محبوباً لله ، كذلك كفى بالجزاء على الإحسان أن تكون محبوباً لله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَتَّيْنَهَا الَّذِينَ أَمْنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾

ومادمتهم مؤمنين وهم كفار فكيف يتأتى منكم أن تطيعوا الكافرين ؟ إنكم وهم من أول مرحلة مختلفون ، أنتم مؤمنون وهم كفار ، والكافر والمنافق يستغل فرصة الضعف في النفس الإيمانية المسلمة ، ويحاول أن يتسلل إليها ، مثلما قلنا : إن جماعة من المنافقين قالوا : قتل محمد ، ولم يعد فينا رسول فلنلجأ إلى دين آبائنا . والمؤمنون الذين أصابتهم لحظة ضعف قالوا : نذهب إلى ابن أبي - المنافق الأول في المدينة - ونطلب منه أن يتوسط لنا عند أبي سفيان ليأخذ لنا الأمان .

ولذلك يقول الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ ، فإن كان الموقف يحتاج إلى ناصر فلا تطلبوا النصير من الكافرين ، ولكن اطلبوه ممن آمنتم به . وينزل القول الحق :

﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّصِيرِينَ ﴾

الم يقل أبو سفيان : « لنا العزى ، ولا عزى لكم » ، فقال لهم النبى قولوا لهم :  
الله مولانا ولا مولى لكم . وعندما قال : يوم بيوم . أى يوم أحد بيوم بدر ، الحرب  
سجال . فرد عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : لا سواء ، أى نحن لسنا  
مثلكم ، قتلنا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار ، فكيف نكون سواء وكيف نكون  
سجالا ؟

« بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » ونفهم قول الحق : « خير الناصرين » أى  
يجوز أن يوجد الله بشرا كافرين أو غير كافرين وينصركم نصرا سطحيا ، لا نقول إن  
هذا نصر إنما النصر الحقيقى هو النصر الذى يأتى من الله ، لماذا ؟ لأن النصر أول  
ما يأتى من ناحية الله فاطمن على أنك خالص وخلص لله وإلا ما جاءك نصره ،  
فساعة يأتيك نصر الله فاطمن على نفسك الإيمانية ، وأنت مع الله .

وقول الحق : « خير الناصرين » دليل على أنه من الممكن أن يكون هناك ناصر فى  
عرف البشر . وقد قال المؤمنون : يارب نحن ضعاف الآن وإن لم نذهب لأحد  
ليحمينا ماذا نصنع ؟ فيوضح لهم الحق : كونوا معسكرا إيمانيا أمام معسكر الكفر ،  
ولياكم أن تلجأوا إلى الكافرين بربكم ، لأنهم غير مأمونين عليكم . وإن كنتم  
تريدون أن تعرفوا ماذا سأفعل : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » . فإذا  
لقى الرعب فى قلوب الكافرين فإذا يفيدهم من غديهم وغديهم ! عددهم  
وأموالهم تصير ملكا لكم وتكون فى السلب والغنيمة .

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ  
يَمَّا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَهُمْ يُنْزِلُ بِهِ سُلْطَانًا  
وَمَا وَنَهُمُ الشَّاكِرُونَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ

وألقي الحق في قلوبهم الرعب بالفعل . فساعة قالوا لأبي سفيان : إن محمداً قادم إليك بجيش كثيف من المدينة ، وانضم له مقاتلون لم يجاربوا من قبل ، وقادم إليكم في حمراء الأسد . ماذا صنع أبو سفيان وقومه ؟ ألقي الله الرعب في قلوبهم وفروا .

وكلمة « سنلقى » مأخوذة من « الإلقاء » وهو لا يكون إلا لمادة وعين . وبين لنا القرآن هذا الأمر حين يقول : « فلقى الألواح » ، هذه حاجة مادية . قال تعالى :

﴿ وَآتَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي ۖ ﴾

( من الآية ١٥٠ سورة الأعراف )

إنه أمر مادي . . ونحن نقول : ألقي الحجر . والحق سبحانه يقول :

﴿ فَالْقَوَّاهُ حَبَالُهُمْ وَعَصِيُّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ۝ ١١ ﴾

( سورة الشعراء )

إنها حبال ، أي أمر مادي . وسبحانه وتعالى يقول عن الوحي لأم موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِي ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِي فِي آثِمٍ وَلَا تَخَافِ ۖ ﴾

﴿ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا نَارَادُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ ٧ ﴾

( سورة القصص )

فالإلقاء أمر مادي ، كأن الله يريد أن يجعل المعنى وهو الرعب شائعا ، فقال : أنا ساجع الرعب وأضعه في القلب ، ويكون عمله ماديا . فإذا ما استقر الرعب في القلب جاء الخور ، وإذا سكن الخور القلب نضح على جميع الجوارح تخاذلا ، فيقول : « سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب » فكأنه مثل لنا الرعب ، والرعب أمر معنوي وهو التخوف من كل شيء ، فأوضح : بأنه سيأتيهم بالرعب ويلقيه في القلب ، فيبقى به ليصنع الخور والتخاذل .

« سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب » انظروا إلى التعابير الصادرة عن الله . إنه هنا يأتي بـ « نون العظمة » ، « سنلقى » ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ساعة

يتكلم عن أمر يحتاج إلى فعل فهو سبحانه يأتى بـ «نون العظمة» كقوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ① ﴾

( سورة الحجر )

ولأن إنزال الذكر عملية عظيمة ، فنأتى بـ «نون العظمة» . لأننا سننزله بقدرة وسننزله بحكمة ، وننزله بعلم وننزله بسمع ، وننزله ببصر ، وننزله بقيومية ، وننزله بقبض ، وننزله ببسط ، فقوله : « إنا نحن » فكان نون العظمة تأتى هنا ، لكن ساعة يتكلم سبحانه عن الذات العلية فهو يقول : « إني أنا الله » . لم يقل إنا ، ولكن فى الإنزال يقول :

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① ﴾

( سورة القدر )

لأن هذه عملية عظيمة جليلة ، فهـ «نون العظمة» تأتى فيما يكون من شأنه حدث يفعل ، وهذا الحدث الذى يفعل يحتاج لصفات كثيرة ، ولذلك قلنا ساعة تبتدىء أى عمل تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » لماذا ؟ لأن العمل الذى ستعمله يحتاج إلى قدرة عليه ، ويحتاج إلى علم قبل أن تعمله . ويحتاج إلى حكمة ، أى أنه يحتاج إلى صفات كثيرة ، فأنت تدخل على العمل باسم القادر الذى يُقَدِّرُك ، وباسم العليم الذى يعلمك ، وباسم الحكيم الذى يحكمك . وكل هذه الصفات ستتكاثر فى إبراز العمل كى يرحمك حتى فى الاستعانة ، فلا يقول لك : هات الصفات كلها التى يحتاج إليها فعلك ؛ لأن هناك صفات أنت لا تعرفها ، فيقول لك : هات الاسم الجامع لكل صفات الكمال . قل : « باسم الله » ، وهى تضم كل صفات الكمال .

إذن فأنت تلاحظ أنك إذا رأيت « نون العظمة » التى نسميها « نون الجمع » نجد أننا نقول : « نحن » للجماعة . أو للمتكلم الواحد حين يعظم نفسه ، ولذلك نلاحظها حتى فى قانون البشر ، ألم يقولوا فى الملكية : « نحن الملك » ، وهذه النون بالنسبة لله ليست نون الجماعة . إنما هى « نون العظمة » ، العظمة الجامعة لكل صفات الكمال التى يطلبها أى فعل من الأفعال ؛ لذلك قال سبحانه : « سنلقى فى

قلوب الذين كفروا الرعب ، فكل قلب به كفر يحتاج إلى إلقاء الرعب فيه . إذن فتأتى نون العظيمة لتستوعب كل هذه القلوب الكافرة .

وهو سبحانه لا يتجنى عليهم بإلقاء الرعب ، ولكن هم الذين استحقوا أن يلقي في قلوبهم الرعب ، لماذا ؟ بما أشركوا . إن الإشراف بالله هو الذى جاء لهم بالرعب ، لأن الله يفعل ، والشركاء لا يفعلون . ولو أن شركاءهم حق لما تخلوا عنهم . فلماذا لم يأتوا بشركائهم لينصروهم ؟ لقد جاءهم الرعب لأنهم ليس لهم مولى ، ولو كان لهم آلهة قادرة - كما يدعون - لقالوا لتلك الآلهة : رب محمد يعمل معنا هكذا فلماذا لا تقفون له يا أربابنا ؟ لكنهم أشركوا بالله ما لا يضر ولا ينفع ، بل ضره أقرب من نفعه .

« بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » والسلطان هو القوة والحجة والبرهان مأخوذة من مادة « السين واللام والطاء » ونقول : فلان تسلط على فلان ، أى أرغمه بقدرته عليه . ويقولون : فلان سيطر اللسان ، أى قادر أن يسب ، إذن فالسلطة هى : القهر ، والقوة التى ترغم على الفعل ، وفى المعنويات هى الحجة والبرهان . والمؤمنون دائماً ذوو سلطان من الله ، لأنهم إن انتصروا مادياً فذلك سلطان القهر ، وإن انهزموا مادياً فعندهم سلطان الحق والدليل ؛ ولذلك قلنا سابقاً : إن إبليس يأتى يوم القيامة ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي  
وَلَوْ مَوَّانُفُكُمْ ﴾

( من الآية ٢٢ سورة إبراهيم )

وقلنا إن السلطان نوعان : إما قوة تقهرنا على أن نفعل المعصية ، وإما برهان ودليل يجعلنا نفعل المعصية .

والفرق بين القوة القاهرة وبين سلطان الدليل هو أن القوة القاهرة تجعلك تفعل وأنت مرغم غير راض عن الفعل . أما سلطان الدليل فيقنعك بأن تفعل ؛ فتكون قد فعلت برضاك ، فمرة يأتى السلطان بمعنى : قوة تقهرك على أن تفعل الفعل وأنت

مرغم . إنما قوة الدليل تقنعك أن تفعل ، فيأتى الشيطان ليقر على نفسه فى الآخرة ويقول : « وما كان لى عليكم من سلطان » أى ليس معى قوة تقهركم على المعصية ، وليس معى دليل يقنعكم حتى تفعلوا المعصية ، لا هذا ولا ذاك ، فما الحكاية إذن ؟ قال : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » . أى إنكم أطمعنون واستجبتم لدعوى بلا سلطان قوة أقهركم به على شئ . ولا سلطان دليل أقنعكم به .

ويذيل الحق الآية بقوله : « وماواهم النار وبئس مثوى الظالمين » أى أن المرجع الذى يؤولون إليه هو النار ، والمأوى ، هو الموضع الذى ترجع أنت إليه . وكان فى هذا المرجع ذاتية من الكافر تلقىه على النار فهو - أى الكافر - مأواه ومثواه الذى يرجع إليه . ولذلك يجب أن نفطن إلى قوله الحق فى بعض الأساليب : « وإليه ترجعون » وقوله : « وإليه ترجعون » . « وبئس مثوى الظالمين » . . أى مثوى لا مفر بعده أبدا ، فكل مثوى من الجائز أننا نرحل عنه ، لكن المثوى الذى سيقى خلودا للظالمين هو النار وهو بئس المثوى . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذَا  
تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ ثُمَّ إِذَا فُشِلْتُمْ  
وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا  
أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ  
الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ  
صَرَفَكُم عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا

## عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

ونعرف أن في « صدقكم الله وعده » مفعولين : الأول هو ضمير المخاطبين في قوله : « صدقكم » ، والثاني هو قوله « وَعَدَ » المضاف إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة « الله » فهو - سبحانه - قد أحدث وعداً ، والواقع جاء على وفق ما وعد . لقد قال الحق :

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُم وَيُخْرِجْ أَعْدَاءَكُمْ ﴾

(سورة محمد)

وقال سبحانه :

﴿ وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ﴿١٧٣﴾

(سورة الصافات)

والآيتان تؤكدان قضية وعديّة ، بعد ذلك جاء التطبيق العمل . . فهل وقع الوعد أو لم يقع ؟ لقد وقع ، ومتى ؟ فهل يشير الحق في هذه الآية إلى موقعة بدر ؟

« إذ تحسونهم بإذنه » . و « تحسونهم » أي تذهبون الحس منهم ، والحس : هو الحواس الخمس ، ومعنى أذهبت حسه يعني أفقدته تلك الحواس . « إذ تحسونهم » وقد حدث ، وتمكنتم منهم ؛ تقتلونهم وتأسرونهم ، أو الحس : هو الصوت الذي يخرج من الإنسان ، ومادام فقد الحس يعني انتهى ، « إذ تحسونهم بإذنه » فحينما صدقتم لقاءكم لعنوكم على منهج الله صدق الله وعده ؛ هذا في بدر .

أما هنا في أحد فقد جاء فيكم قوله : « حتى إذا فشلتم » أي جبتم . « وتنازعتم في الأمر وعصيتم » أمر الرسول « من بعدما أراكم ما تحبون » وهي الغنائم ، « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . كأنه سبحانه يعطينا العبرة من معركتين : معركة فيها صدق وعد الله ، وفعلنا انتصرتهم ، وأيضاً صدق وعد الله حينما تخليتكم



عن أمر الرسول فحدث لكم ما حدث . إذن فالمسألة مبسطة أمامكم بالتجربة الواقعية ، ليس بالكلام النظري وليس بالآيات فقط ، بل بالواقع .

أو أن الأمر كله دائر في أحد ، نقول فرضا : هو يدور في أحد ودع بدرا هذه ، حينما دخلتم أيها المسلمون أول الأمر انتصرتم أم لم تنتصروا ؟ لقد انتصرتم ، وطلحة بن أبي طلحة الذي كان يحمل الراية للكفر قتل هو وبضعة وعشرون ، الراية الكافرة قد سقطت في أول المعركة ، وحامل الراية يقتل وهذا ما وضعه قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، فجماعة تقول : لنبق في أرض المعركة ، وجماعة تقول : ننسحب . ورأيتم الغنائم فحدث منكم كذا وكذا . فتأني النكسة ، ولو لم يحدث ما حدث لكان من حقكم أن تشككوا في هذا الدين ، إذن فما حدث دليل على صدق هذا الدين ، وأنكم إن تخليتم عن منهج من مناهج الله فلا بد أن يكون مآلكم الفشل والخيبة والهزيمة .

« حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر » ، فجماعة قالوا : نظل كما أمرنا الرسول ، وجماعة قالوا : نذهب إلى الغنائم « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . . . ومادمت قد تنازعتم وقالت جماعة : لنتمسك بمواقعنا ، وقالت جماعة أخرى : لنذهب إلى الغنائم ، إذن فالذي أراد مواصلة القتال إنما يريد الآخرة ولم تلهه الغنائم ، والقسم الذي أراد الدنيا قال : لنذهب إلى الغنائم . وفي هذه المسألة قال ابن مسعود رضي الله عنه : والله ما كنت أعلم أن أحدا من صحابة رسول الله يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد .

أي أنه لم يكن يتصور أن من بين الصحابة من يريد الدنيا ، بل كان يظن أنهم جميعا يريدون الآخرة ، فلما نزل قول الله : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » عرف ابن مسعود أن من الصحابة من تتقلب به الأغيار . وذلك لا يقدر فيهم ، لأنهم رأوا النصر « فظنوا أن المسألة انتهت » ، لقد سقطت راية الكفر ، وقتل المؤمنون عددا من صناديد قريش . ولقد عفا الله عن المؤمنين وغفر لهم ما بدر منهم من مخالفة لأمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » نعم لأنكم كنتم مشغولين بقتالهم قبل أن تنظروا إلى الغنائم ، فلما نظرتم إلى الغنائم انجھ نظركم إلى مطلوب دنياكم ، فانصرفتم عنهم ، ولم تجهزوا عليهم ولم تتم لكم هزيمتهم وقهرهم ، « ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » وابتلاؤكم في هذه الغزوة إنما هو رياضة وتدريب على المنهج « كأنها غزوة مقصودة للابتلاء ، فترون منها كل ما حدث . وبعد ذلك نجحت التجربة ، فبعد هذه المعركة لم ينهزم المسلمون في معركة قط .

ولذلك يقولون : الدرس الذي يعلم النصر في الكثير لا يعتبر هزيمة في القليل . والمثال على ذلك : لنفرض أن ولداً من الأولاد رسب سنة ، ثم حل ذلة الرسوب ، نجده ينال بسبب ذلك مرتبة متميزة بعد ذلك بين العشرة الأوائل ، إذن فالرسوب الأول له كان خيراً .

« ولقد عفا عنكم » لأنه كان لكم وجهة نظر أيضاً عندما تصورتهم أن المعركة انتهت بسقوط راية الكفر ومقتل طلحة بن أبي طلحة ومقتل بعض من الصناديد في معسكر الكفر ، فظننتم أن المسألة انتهت . لكن كان يجب أن تذكروا أن الرسول قال لكم : اثبتوا في مراكزكم وأماكنكم حتى لو رأيتمونا نتبع القوم إلى مكة ، ولو رأيتموهم يدخلون المدينة .

أوجد تحذير أكثر من ذلك ؟! « والله ذو فضل على المؤمنين » وسبحانه جل وعلا لم يخرجهم من الخطيئة الإيمانية بهذا القول الحكيم . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى  
أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَابِكُمْ  
فَأَثْبِتْكُمْ عَمَّائِمٍ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا  
عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ

## خَيْرُيَعْمَلُونَ ﴿١٨٣﴾

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد » هنا جاء لهم بلفظة من المعركة ، حتى إذا سمع كل واحد منهم هذا الكلام يستحضر الصورة المخزية التي ما كان يصح أن تحدث ، « إذ تصعدون » ، فيه « تصعد » ، وفيه « تصعد » وهنا « تصعدون » من « أضعد » ، و « أضعد » أى ذهب فى الصعيد ، والصعيد الأرض المستوية حتى تعينه على سرعة الفرار . إنما « صعد » تحتاج إلى أن يكون هناك مكان على يصعدون إليه . وهم ساءة أرادوا أن يفروا جزوا إلى الأرض السهلة ومثوا ، فكل منهم لا يريد أن يتعثر هنا أو هناك ، إذن فالمناسب لها « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد » والفار لا ينظر هنا أو هناك ؛ ليس أمامه إلا الأرض السهلة .

« ولا تلوون على أحد » أى لا تعرجون على شيء . والأهم من ذلك أن هناك تنبيه من القائد الأعظم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يدعوكم « والرسول يدعوكم فى أخراكم » أى بناديبكم من مؤخرتكم طالباً منكم العودة إلى ميدان القتال « فأتابكم غما بغم » . أنتم غمتم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنكم خالفتم أوامره ، فوقفكم الله هذا الموقف .

كلمة « فأتابكم غما بغم » كأنه يقول : عاقبكم . ولكنه سبحانه يأن بها مغلفة بحنان الألوهية « فأتابكم » . إذن فهى ثواب . . أى أن الحق سبحانه وتعالى بربوبيته وبألوهيته ، يعلم أن هؤلاء مؤمنون فلم يقس عليهم ، قال : « فأتابكم غما بغم » فكان ما حدث لكم تخليص حق .

« لكيلا تحزنوا على ما فاتكم » ولولم تحدث مسألة الحزن والحزى والغلة لشغلتكم مسألة أنكم فاتتكم الغنائم والنصر ، ولظل بالكم فى الغنائم ، لأنها هى السبب فى هذا . كان الغم الذى حدث إنما جاء ليخرج من قلبكم لقطعة سيل اللعاب على الغنيمة . وما أصابكم من القتل والهزيمة ، « فأتابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خير بما تعملون » أى أنه سبحانه يقدر ما الذى استولى

عليكم ، لأن من الجائز « والرسول يدعوكم في أخراكم » أنهم لم يسمعوا النداء من هول المعركة ، « والله خير بما تعملون » وهو سبحانه خير بكل فعل وإحساس . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نَّعَاسًا يَفْتَنِي طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

وكلمة « أنزل » تدل على أن هذا عطاء علوي ليس له شأن بالأسباب المادية ولا بالقوانين البشرية ؛ لأن النوم عرض من الأعراض التي تطرأ على الأحياء ، هذا العرض تستوجبه عمليات كيميائية في نفسك ، وهذه العمليات الكيميائية حتى الآن لا يعرفون ما هي ، وأقصى ما فهم منه أنه ردع ذات الجسم الإنسان . فكان الجهاز لتحرك المكون من مخ يعمل ، وعين ترى ، وأذن تسمع ، وحواس وحركة هذا الجهاز له طاقة ، ساعة تنتهي منه الطاقة ، لا يقول لك : أنت الذي نترك العمل . لا ، بل

يقول لك : أنا لم أعد صالحا للعمل . إنه ردع ذاتي ، مثلما يريدون أن يصلوا إليه الآن في مجال الآلات بمجرد فصل تيار الكهرباء آليا عن تلك الآلات فهي تتوقف .

فالردع الذاتي هو في النوم ويأتيك النعاس . وتبين بالبحث العلمي أن هناك أشياء في الجسم لا تخرج كفضلات . بل تحتاج إلى التعادل والتوازن الكيميائي . ونحن نعلم أن هناك بقايا كنتيجة للحركة ، وهناك احتراق للطاقة ، وكل حركة فيها احتراق . وبقايا هذا الاحتراق تخرج مرة على هيئة بول ، ومرة يخرج غائطا ومرة يخرج مخاطا . وهكذا ، إذن كثير من هذه الفضلات هي نتيجة عمليات الاحتراق ، لكن هناك أشياء لا نريد لها أن تخرج ولكن نريدها أن تتعادل ، فعندما تنام لا يوجد لك حركة وتبتدىء الكيمياء داخل الجسم في التعادل ، وهذا هو ما يفعله لك النوم الذي تستجبه أسبابك المادية .

وصاحب الهم والغم لا ينام أبدا ، فهو يسهو عن نفسه ويرهق جسمه أكثر وتكون المصيبة كبيرة عليه ، وهنا ينزل الحق فضله عليكم بالنوم لأن أسبابكم لا تساعد أيا منكم على أن ينام .

وانتم تذكرون قديما أننا قلنا : إن الإمام عليا كرم الله وجهه لما اشتهر بالفتيا ، وكلما سأله عن أمر أفتى فيه ، فقالوا : نأق له بمسألة معقدة ونرى كيف يأتي بالفتيا ، وكأنهم نسوا أنه يُفتى لأنه تربي في حضن النبوة ، فقد جاءت النبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا علي مازال صغيرا ، أما الصحابة الآخرون فقد جاءت النبوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كبار في السن ، فهناك معلومات دخلت عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن سيدنا عليا كرم الله وجهه لم تدخل عليه معلومة من معلومات الجاهلية . كل المعلومات التي عنده نبوية ، فكل هذا التفاعل ينشأ عنه فتيا ، لذلك كان سريعا في الإفتاء .

على سبيل المثال ، نأق له امرأة فتقول : يا ابن أبي طالب كيف يعطونني دينارا من ستمائة ؟ مورثي خلف ستمائة دينار فأعطوني دينارا واحدا . فقال لها : لعله مات عن زوجة ، وعن بنتين ، وعن أم ، الزوجة تأخذ الثمن ( خمسة وسبعين دينارا )

والبستان تأخذان الثلاثين (أربعمئة دينار) وللأم السلس وهو مائة دينار، ولعل له اثني عشر أخا وأختا واحدة، أشقاء أو لأب، موأنت هذه الأخت وقد بقي من التركة خمسة وعشرون دينارا توزع على الاثني عشر أخا والأخت ؛ فيكون نصيبك دينارا . كيف عرف ذلك ؟ إنها دقة الحساب عند من تعلم في بيت النبوة .

والى الآية التى نحن بصدد خواطرننا عنها نجد أن الحق قد أنزل عليهم نعاسا ليؤمنهم فلم ينشأ النوم هنا من حركة الاختيار ، ولكن الله أنزله ، ومعنى « أنزله » ؛ أنه بعث رحمة جديدة من السماء ليُخرج القوم الذين أصابهم الغم على ما فعلوا مما هم فيه . ولذلك قال أبو طلحة : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه .

إذن فهي عملية قسرية . والنعاس حينما ينزل من الحق سبحانه وتعالى يكون عملية إنقاذ من حركة فانت فرصتها على النفس البشرية فعوضها الله ، ولكن القوم الذين نافقوا ماذا كان حالهم ؟ لاشك أن الذين جاءوا نفاقا لم يصيبهم غم على ما حدث . بل بالعكس ، لا بد أن يكون قد أصابهم فرح أو اطمئنان على ما حدث ، وهؤلاء لا يكونون أهلا لأن ينزل الله عليهم أمانة النعاس . بل يتركهم الله لذواتهم ؛ لأنهم لم يكونوا في حصن الله باتباع منهج الإسلام أو بالاخلاص - على الأقل - لفكرة الإسلام ، هؤلاء يسلمهم الله لذواتهم .

إذن فلن ينزل عليهم أمانة النعاس . ومادام لن ينزل عليهم أمانة النعاس ، فقد أصبحوا في قلق ، لماذا ؟ لأن نفوسهم قد أمتهم . والإنسان حين يؤمن ويتقبل الإسلام من ربه يكون قد باع نفسه لربه ، ومادام قد باع نفسه لربه فالصفة الإيمانية لا بد أن تستمر . وإذا استيقظ المسلم مرة لنفسه نقول له : لقد رجعت في عقد الصفة . ومادمت قد رجعت في عقد الصفة فאלله الذى كان قد اشتراك يتركك لنفسك ، فقلوه : « أمتهم أنفسهم » أى خرجوا عن صفة الإيمان ؛ لأن الذى يعقد صفة بالإيمان مع ربه ، هو من قال الله فيه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ بِالْجَنَّةِ يَقْتُلُونَ ﴾

فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ  
وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ  
وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴿

( سورة التوبة )

ومادام الله قد اشترى من المؤمن نفسه فيجب على المؤمن ألا تهمة نفسه ، فيدخل  
المعركة بالصفقة الإيمانية ، فإذا أهتته نفسه يبدأ القلق ، والبلبله ، والاضطراب ،  
وتوهم الأشياء ، والشئ الواحد يتوهمه على ألف لون . إذن فنفسه تكون غير  
مطمئنة ، ومادام الإنسان قد شغله هم نفسه حتى لو كان الناس استجابة لأمر  
طبيعى من ذات النفس فلا يأتى الناس أبدا .

ولذلك نجد أن الإمام علياً - رضوان الله عنه وكرم الله وجهه - حينما سُئل عن  
أشد جنود الله؟ بسط يديه وقال : أشد جنود الله عشرة : الجبال الرواسي ، والحديد  
يقطع الجبال ، إذن فالحديد أشد من الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء  
النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ،  
وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشئ ويمضى لحاجته ، والسكر يغلب ابن  
آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله « الهم » .

فساعة يدخل الهم على النفس البشرية ، هذا أشد جنود الله ؛ لأن الهم يدخل  
على النفس البشرية بألوان متعددة للخطب الواحد ، فيتصور أموراً معقدة في أمر  
واحد ، وواقعة على لون واحد ، ولكن الهم يجول به في كل لون ؛ فهؤلاء قد أهتتهم  
أنفسهم وماداموا قد أهتتهم أنفسهم فقد خرجوا عن صفقة الإيمان . وماداموا قد  
خرجوا عن صفقة الإيمان الذى بوساطته اشترى الله من المؤمنين أنفسهم ، فالله  
يتخلل عنهم . ومادام الله قد تخلى عنهم فعليهم مواجهة المصير .

إن القلق والاضطراب يستبدان بهم ويصابون بالفرع من كل شئ . لكن حال  
الصف الأول والطائفة الأولى يختلف ؛ فالله سبحانه وتعالى يعاملهم معاملة من بقى

في الصفقة الإيمانية وإن كانت نفوسهم البشرية قد فسرت الأحداث تفسيراً خاطئاً ، فظنوا أن المسألة في المعركة انتهت ، فذهبوا لأخذ الغنيمة ، إن هؤلاء قد أحترم الله بقاءهم على الإخلاص للإسلام ، وأدبهم على تفسيرهم للأحداث تفسيراً غير حق ، فأثابهم غماً لما خالفوا فيه ، وأنزل عليهم أمته لإخلاصهم في قضية الإسلام .

« وطائفة قد اهتمهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » وإذا سمعت كلمة « طائفة » فاعلم أنها جماعة ، لكن هذه الجماعة لها مواصفات خاصة هي التي تجمعها على فكرة واحدة كأنهم يطوفون حولها ، إنها ليست مطلق جماعة لكنها جماعة تدور حول فكرة واحدة ، ويأتى القول الحكيم هنا ليبين لك ما قالوه في نفوسهم ، وماداموا قد قالوا في نفوسهم ، أسمعهم أحد ؟ لا ، ولكن الله أخبر به ، وأخبر بما في نفوسهم جميعاً بقول واحد ، مما يدل على أنهم يطوفون حول فكرة واحدة ، فالنصح الوجداني يجعلهم يقولون جملة واحدة هي : « هل لنا من الأمر من شيء » وماداموا سيقولون في نفوسهم فمن الذى سمعهم وهم جماعة ؟ إنه الله - سبحانه - « والله عليم بذات الصدور » .

وأنت إذا قلت « طائفة » تجد أنها في عرف اللفظ « مفرد » ، وعندما تجمعها تقول : « طوائف » ، لكن هي لفظ مفرد يدل على جمع ، فمرة يلحظ المفرد ، ومرة يلحظ ما يؤديه المفرد من الجمع . وهذه لا يتنبه إليها إلا البليغ ، فيفرق بينها كلفظ مفرد وبين ما تدل عليه كجمع ، ولذلك تجد هذا في إعجاز القرآن ، فالحق يقول :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاتًا فَاصْلَحُوا بِهِمَا وَالْعَدْلُ وَأَقِمْ وَإِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٥١ ﴾

(سورة المجزات)

وحينها يقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » فهو هنا يأتي بالخبر ، اقتتلنا أو اقتتلوا ؟ إنه سبحانه يقول : « اقتتلوا » ، اللفظة طائفتان لكن الدقة البلاغية لاحظت أن كل طائفة مكونة من جماعة . « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » فهذا



نفعل ؟ « فأصلحوا بينها » . فمرة رجع للمجاعة ومرة رجع للثنتين ، ففي ساعة الاقتتال لا تقف الطائفة بسيف واحد وتضرب ضربة واحدة ، لا ، ففي ساعة القتال كل فرد من الطائفة له عمل ، إذن فالفردية المكونة للطائفة متعددة .

لكن عندما نُصلح هل نأق بكل فرد من هذه الطائفة وبكل فرد من الطائفة الأخرى أو نأخذ هذه الطائفة ممثلة في رؤوسها والطائفة الأخرى ممثلة في رؤوسها ونعقد الصلح بين الطائفتين ؟ فدقة القرآن تقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » وبعد ذلك يعود الحق للثنية فيقول : « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما » والصلح يكون بين جماعة ممثلة في قيادة وجماعة أخرى ممثلة في قيادة .

وقوله الحق : « وطائفة قد أهنتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ماقتلنا هاهنا » هذا القول يدل على أنها طائفة تدور حول حركة واحدة ، ويدل على أن التفاف نفاق متفق عليه ، وليس كل واحد منهم يتفق في نفسه ، لا ، إنها طائفة المنافقين ، وقد كُونوا جماعة ، ولهم سياسة مخصوصة ، ولهم كلام مخصوص ولهم وحدة فكر ، ولهم وحدة قول ، تعرفهم من قول الحق : « وطائفة قد أهنتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » .

ونعرف أن الحق هو الشيء الثابت ، ومادام ثابتاً فهو لا يتغير ، وقضية الحق فيه تكون مطردة ، فالحق حق ، خلق السماوات والأرض ، وكل الكون بالحق ، أنزل كتابه بالحق ، كله حق ، فهم يظنون بالله غير الحق مع أنه حق ، ونشأ الكون منه بقانون حق ، واستمرت سنن الله في الكون بالحق ، وهو دائماً ينصر الحق ، وهم يظنون بالله غير الحق ، يقولون : ربنا لم ينصرنا على الرغم من أنه وعدنا بالنصر ، وتناسوا العناصر التي جعلها الله أسباباً للنصر ، إنها سُنَّة الله وسُنَّة الله تتحقق ولو على أحبائه ، لقد خالفوا أمر الرسول ، فلا بد أن ينهزموا ، فلا بمجاملة لأحد ، فالذي يخالف لا بد أن يأخذ جزاءه ، لأن هذا هو الحق .

كان يجب أن يقولوا إن الحق واضح لدرجة أن أحبائه ومعهم رسوله حينما خالفوا

عن أمر الله الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم طبق الله عليهم سنته ، إذن فهي سنة بالحق ، لكنهم ظنوا بالله ظن الجاهلية ، والمقصود به إما ظن أهل الجاهلية ؛ وإما أن تكون الجاهلية علماً على الشفه كله ، وهذا الظن له نضج سلوكي .

« يقولون هل لنا من الأمر من شيء » أي هل انتصرنا أو ظفرتنا أو غلبنا أو أخذنا غنائم ؟ أو يكون قولهم : « هل لنا من الأمر من شيء » مقصوداً به : أننا خرجنا إلى المعركة بدون رأينا ؛ فقد كان من رأينا ألا نخرج وأن نظل في المدينة وعندما يدخلونها علينا نحاربهم . « يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله » هم لم يمتلكوا البصيرة الإيمانية ولم يعرفوا لماذا لم ينصرهم الله ، هم فهموا أنهم لم يتصروا ؛ لكن في عرف الحق أنه انتصار ؛ لماذا ؟ لأن المعركة أثبتت أن المبدأ إن خولف فلا نصر ، إذن فالإسلام قد انتصر ، ولكن الذي انهزم هم المتخاذلون عن منهج الإسلام ، وهذا نصر للإسلام في ذاته . ولذلك يجب أن نفرق دائماً بين المبدأ الإسلامي والمنسوين للمبدأ .

إياك أن تأخذ الحكم على المبدأ من المنسوين للمبدأ ، فلا يكون المنسويون للمبدأ حجة على الحكم في ذاته إلا إذا كانوا ملتزمين به ؛ لأن الله حينما شرع ديناً سماه الإسلام ليحكم حركة الحياة في الناس فهو قد قنن وحرّم فيه أفعالاً ، ومادام قد قنن وحرّم فيه أفعالاً فمعناه أن المؤمنين المسلمين الذين انتسبوا له من الممكن أن يخالفوا بأفعالهم تلك الأحكام ، فعندما يقرر الإسلام جلد أو رجم الزاني والزانية ، وحينما يشرع الإسلام قطع يد السارق أو السارقة ، وحين يشرع الإسلام تلك العقوبات للجرائم ، فمعنى ذلك أنه من الجائز أن تحدث تلك الجرائم ، فإذا ما حدثت فأنت لا تأخذها من واقع مجرم لتحكم به على الإسلام ، لا تقل إن الإسلام أباح السرقة بل قل : سرق مسلم ووضع الإسلام عقوبة صارمة عليه وهي قطع يده .

« يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هَٰهُنَا » وهذه هي الفضيحة لهم ، فإذا كانوا يريدون أن يكون لهم ؟ كانوا يريدون ألا يخرجوا للمعركة فقالوا : لو كان لنا من الأمر شيء واتبعنا منطقنا ، لما جئنا الموقعة هنا وحصل لنا ما حصل ، هذه واحدة ، أو لو كان لنا شيء من الظفر الذي وعد الله به محمداً وأصحابه ما قتلنا هاهنا ، فعل الرايين يصح المعنى ، فكأنهم أرادوا أن

يعللوا القتل أو الموت بأسباب ، ومن الذى قال إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب ؟  
إن الموت قضية نظراً لإعدام الحياة ، وهى مجهولة السبب ومجهولة الزمان ومجهولة  
المكان ومجهولة العمر .

إذن فإدامت المسألة مجهولة فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً  
مات وليس فى موقعة ؟ ألم تروا إنساناً قد قُتل وليس فى موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ  
إلا فى مواقع قتال وحرب لكان لكم أن تقولوا هذا ، وإنما القتل والموت قضية عامة  
لها واقع فى حياتكم . هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط  
بسن ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتى لأنك تموت ، انتهت المسألة .

إذن فهم عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية .  
ولذلك يأتى الرد من الحق بأمر واضح للرسول صلى الله عليه وسلم : « قل لو كنتم  
فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . فكانك أيها الميت قد  
تكون أحرص على لقاء الموت من جرح من الموت عليك . بدليل أننا قلنا : إن الإنسان  
يكون مريضاً ، ويلجأ إلى أن تُجرى له عملية جراحية فيمضى الطبيب قائلاً : عندى عدد  
كبير من الجراحات فانتظر شهراً ، فبأنى له المريض بوساطة لكى يقبل الطبيب إجراء  
العملية الجراحية ويلجأ إليه . ويعمل أجر الطبيب وقد يموت المريض . إذن فهو يلجأ  
على الموت أو لا ؟ إنه يلجأ على الموت .

يقول الحق : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى  
مضاجعهم » وكلمة « بَرَزَ » تدل على اندفاع حركى ، فمعنى : بَرَزَ من الصف ؛ يعنى  
أن الصف له الشام واقعى ، والذى يبرز إنما يقوم بحركة مخالفة للصف ، هذه  
حركة .

« قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ولينبأ الله  
ما فى صدوركم وليمنحصر ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » والذى يبرز إلى  
المضجع هو من يخرج من مكان الاستقرار ، وإلا فكيف يكون الابتلاء لمن يقدر الله  
سبحانه أن يحملوا معركة الإسلام إلى أن تقوم الساعة إذا لم تكن هذه المسائل ؟ لا بد  
أن يكونوا قوماً قد عركتهم التجربة ، مُحَصِّنِينَ بالأحداث حتى لا يكون مأموناً على

حمل السلاح في الإسلام إلا هؤلاء الصفوة المختارة .

فساعة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج ، وتتهيأ إلى أن يخرج إلى أحد ، نجد جماعة يتخاذلون بوساطة ابن أبي ، هذه أول تصفية ، وبعد ذلك ينقسم الرماة ، وهذه تصفية أخرى ، فريق يظل وفريق ينزل للغنائم ، وبعد ذلك يُشاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قُتل ، هذه تصفية ثالثة .

« وليست الله ما في صدوركم وليمحس ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور » وكلمة « ذات الصدور » معناها صاحبة الصدور . وفي الصدر يحرس الإنسان على إخفاء الأمر الذي يجب أن يحتفظ به لنفسه يحرس كحرس صاحب على صاحبه ، كان الصدر حريص على ألا يسلم ما فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى يفضحهم أمام الناس ، ويفضحهم أمام نفوسهم ؛ فقد يجوز أن يكونوا مغشوشين في نفوسهم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (١٥٥)

وعندما نقرأ كلمة « اسْتَزَلَّهُمْ » نعرف أن ( الهمزة والسين والتاء ) للطلب ، تطلب ما بعدها ، مثل : استفهم أي طلب الفهم ، استعلم يعني طلب العلم ، استقوى يعني طلب القوة ، وه « اسْتَزَلَّ » يعني طلب الزلل ، ومعنى « الزَّلْزَل » هو العثرة والهفوة ، أي أن الإنسان يقع في الغلط ، إذن فالشيطان طلب أن يزلوا ، « ببعض ما كسبوا » ، كأن الشيطان لا يجترئ على أن يستزل أحداً من آمن إلا إذا صادف فيه

تحللاً في ناحية ، لكن الذى ليس عنده تحلل لا يقوى عليه الشيطان ، ساعة يأتى الإنسان ويعطى لنفسه شهوة من الشهوات فالشيطان يرقمه ويضع عليه علامة ويقول : هذا ضعيف ، هذا نقدر أن نستزله . لكن الذى يراه لا يطاوع نفسه في شيء من التحلل لا يقترب ناحيته أبداً .

ولذلك فالنفس هي مطية الشيطان إلى الذنوب ، وفي الحديث الشريف : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »<sup>(١)</sup> وعندما يرى الشيطان واحداً تغلبه نفسه في حاجة فالشيطان يقول : هذا فيه أمل ! وهو الذى يجري منه مجرى الدم كما سبق في الحديث ، أما الملتزم الذى ساعة تحدثه نفسه بشيء ويأبى فالشيطان يخاف منه ، إذن فالشيطان لا يستزل إلا الضعيف ، ولذلك فالذى يكون ربه على ذكر منه دائماً لا يجترأ عليه الشيطان أبداً .

إن الله - سبحانه - قد سمي الشيطان « الوسواس الخناس » ، إنه يوسوس للناس ، لكنه خناس فإذا ذكر الله يخنس ، أى يتأخر ويختفى ولكنه ينفرد بك حين يراك مُنعزلاً عن ربك ، لكن حين تكون مع ربك فهو لا يقدر عليك بل يتوارى ويكتمع عن الوسوسة إذا استعذت عليه بالله .

إذن فقله : « إنما استزلم الشيطان » يعنى طلب منهم أن يزولوا نتيجة لأنه عرف أنهم فعلوا أشياء أبذوا وأظهروا فيها ضعفهم ، « إنما استزلم الشيطان ببعض ما كسبوا » . وكلمة « ببعض ما كسبوا » . . . كأن قول الله « ولقد عفا الله عنهم » أنه لم يأخذهم بكل ما كسبوا ؛ لأن ربنا يعفو عن كثير . « إنما استزلم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم » .

« عفا الله عنهم » لماذا ؟ عفا عنهم تكريماً لمبدأ الإسلام الذى دخلوا فيه بإخلاص ، ولكن نفوسهم ضعفت في شيء ، فعطيتهم عقوبة في هذه ولكنه يعفو عنهم فهذا هو حق الإسلام ، « إن الله غفور حلیم » .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا  
وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا  
غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ  
ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَمَا  
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

والضرب في الأرض هو السعى واستنباط فضل الله في الأرض وفي سبيله لإعلاء كلمته ، فالذين كفروا يرتبون الموت والقتل والعمليات التي يفارق الإنسان فيها الحياة على ماذا ؟ على أنه ضرب في الأرض أو خرج ليقاتل في سبيل الله ، وقالوا : لو لم يخرجوا ما حصل لهم هذا ! سنرد عليهم ، ونقول لهم : كأنكم لم تروا أبداً ميتاً في فراشه . كأنكم لم تروا مقتولاً يسقط عليه جدار ، أو يصول عليه جمل ، أو نصيبه طلقة طائشة ، هل كل من يموت أو يقتل يكون ضارباً في الأرض لشيء أو خارجاً للجهاد في سبيل الله ؟

إذن فهذا مُحَقٌّ في استقراء الواقع ، وجاء الحق بذلك ليعطينا صورة من حكمهم على الأشياء ، إنه حكم غير مبني على قواعد استقرائية حقيقية . فإذا عرفنا أنهم كفروا نقول : هذه طبيعتهم ، لأننا نجد أن حكمهم ليس صحيحاً في الأشياء الواضحة ، ومادام حكمهم ليس صحيحاً أو حقيقياً في الجزئيات التي تحدث - فإذا عرفتم أنهم كفروا فهذا كلام منطقي بالنسبة لهم - فشأنهم أنهم لا يشتبهون في أحكامهم فلا عجب - إذن - أن كانوا كافرين .

« أو كانوا غُزًى » ، وغُزًى : جمع غَزًى ، مثل : صَوْمٌ وَقَوْمٌ ، بمعنى جمع : صائم

وقائم . « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » .  
إذن فالله سبحانه وتعالى يصور سم ما يقولونه ليعذبهم به ، كيف ؟ لأنهم عندما  
يقولون : لو كانوا عندنا لكنا منعناهم أن يخرجوا أو يقتلوا ، إذن فنحن السبب .

وهكذا نجد أنهم كلما ذكروا قتلهم أو موتهم يعرفون أنهم أخطأوا ، وهذه  
حسرة في قلوبهم ، ولو أنهم ردوها إلى الحق الأعلى لكان في ذلك راحة لهم ولما كانوا  
قد أدخلوا أنفسهم في متاهة ، ويحدث منهم هذا حتى تعرف غيائهم أيضاً ، فهم  
أغبياء في كل حركاتهم وفي استقراء الأحداث الجزئية ، وأغبياء في استخراج القضية  
الإيمانية الكلية ، أغبياء في أنهم حشروا أنفسهم وأدخلوها في مسألة ليست من  
شأنهم ، فأراد ربنا سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك حسرة عليهم .

« لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » إن القضية  
الإيمانية هي « والله يحيى ويميت » أى هو الذى يهب الحياة وهو الذى يهب الموت ،  
فلا الضرب في الأرض ولا الخروج في سبيل الله هو السبب في الموت ، ولذلك يقول  
خالد بن الوليد - رضى الله عنه - : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدى  
موضع شبر إلا وفيه ضربة سيف أو طعنة رمح ، وهانذا أموت على فراشي كما يموت  
الغیر - أى حتف أنفه - فلا نامت أعين الجبناء .

والشاعر يقول :

الأيها الزاجرى احضر الوضى

وأن أشهد اللذات هل أنت تخليدي؟

أى يا من تمنى أن احضر الحرب هل تضمن لى الخلود ودوام البقاء إذا أحجمت  
عن القتال . ويكمل الشاعر قوله :

فلئن كنت لانسطيع دفع منيق

فدعى أبادرها بما ملكت يدي

ويختم الحق الآية بقوله : « والله بما تعملون بصير » فكأنهم قد بلغوا من الغباء أنهم

لم يستروا حق في المعصية ، ولكنهم جعلوها حركة تُرى ، وهذا القول هنا أقوى من « عليهم » ، لأن « عليهم » تؤدي إلى أن نفهم أنهم يملكون بعضاً من حياة ويسترون الأشياء ، ولكن علم الله هو الذي يفضحهم . لا ، هي صارت حركة واضحة بحيث تُبَصَّر . فجاء قوله : « والله بما تعملون بصير » . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ١٥٧

والذي يحرص على ألا يخوض المعركة مخافة أن يُقتل ، فما الذي يرجح عنده هذا العمل ؟ إنه يتغنى بالخير بالحياة . وما دام يتغنى الخير بالحياة ، إذن فحركته في الحياة في وهمه ستأتيه بخير ، فهو يخشى أن يموت ويترك ذلك الخير ، إنه لم يمتلك بصيرة إيمانية ، ونقول له : الخير في حياتك على قدر حركتك : قوة وعلمها وحكمة ، أما تمتلك حين تلتقي بالله شهيداً فعل قدر ما عند الله من فضل ورحمة وهي عطاءات بلا حدود ، إذن فأنت ضيعت على نفسك الفرق بين قدرتك وجكمتك وعلمك وحركتك في الكسب وبين ما يُنسب إلى الله في كل ذلك ، ولذلك يقول الحق :

« وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ »

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ١٥٨



ولنا أن نلاحظ أن قول الحق في الآية الأولى جاء بتقديم القتل على الموت قال تعالى : « ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم » وجاء في هذه الآية بتقديم الموت على القتل قال - جل شأنه - : « ولئن متم أو قتلتم » فقدم القتل على الموت في الآية الأولى لأنها جاءت في المقاتلين ، والغالب في شأنهم أن من يلقي الله منهم ويفضي إلى ربه يكون بسبب القتل أكثر مما يكون بسبب الموت حتف أنفه ، أما هذه الآية فقد جاءت لبيان أن مصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله - تعالى - وأن أكثرهم تزهق نفسه وتخرج روحه من بدنه بسبب الموت ، فلذا قدم الموت هنا على القتل . إذن فكل كلمة وجلة جاءت مناسبة لموقعها . إنه قول الحكيم الخبير . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ  
الْقَلْبِ لَأَنَّفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ  
وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ  
يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

إن الآية كما نرى تبدأ بكلام إخباري هو « فيها رحمة من الله لنت لهم » . فكانه - سبحانه - يريد أن يقول : إن طبيعتك يا محمد طبيعة تتناسب لما يطلب منك في هذه المسألة ، هم خالفوك وهم لم يستجيبوا لك حينما قلت : إلى عباد الله ، إلى عباد الله إلى رسول الله ، وهذا شيء يُحفظ ويُغضب . ولكنه لا يُحفظ طبيعتك ولا يُغضب سجينك لأنك مفطور مع امتك على الرحمة . فكانه يريد أن يحث رسول الله على أمته التي أصابته بالغم ، فقال له : إياك أن تجازيا على هذا ، لأن طبيعتك أنك رحيم ، وطبيعتك أنك لست فظاً ، طبيعتك أنك لست غليظ القلب ، فلا تخرج عن طبيعتك في هذه المسألة ، مثلما تأتي لواحد مثلاً وتقول له : أنت طبيعة أخلاقك حسنة ، يعني اجعلها حسنة في هذه .

« فيها رحمة من الله لنت لهم » أى بأى رحمة أودعت فيك . ساعة نقول : بأى رحمة فانت تبهم الأمر ، وعندما تبهم الشيء فكأنه شيء عظيم ، لأن الشيء يُبهم إما لأنه صغير جدا ، وإما لأنه كبير جدا ، فالشيء إذا كان كبيرا يكون فوق المستوى الإدراكي ، وإذا كان صغيرا جدا يكون دون مستوى الإدراك . ولذلك فالأشياء الضخمة جدا نرى منها جانبا ولا نرى الجانب الآخر ، والشيء الدقيق جدا لا نراه ، ولذلك يقولون : هذا الشيء نكرة ، وذلك يدل مرة على التعظيم ويدل مرة على التحقير ، ومرة يدل على التكثير ، ومرة يدل على التقليل . فإن نظرت إلى أن الإدراك لا يستوعبه لضخامته إذن فهو كثير ، وإن رأيت أن الإدراك لا يستوعبه لِدَقِيقِهِ فإنه ليس في متناول البصر يكون قليلا أو دقيقا .

إذن فقول الحق : « فيها رحمة » أصلها هو : برحمة من الله طُبعت عليها لِنَتْ لهم ، وهـ ما ، لماذا جاءت هنا ؟ إنك إما أن تأخذها إيهامية . . . يعنى بأى رحمة فوق مستوى الإدراك ، رحمة عظيمة . أو تقول : « فيها رحمة » أى أن « ما » تكون اسماً موصولا . وكان الحق يقول له : فبالرحمة المودعة من خالقك فيك والتي تناسب مُهمتك في الأمة لِنَتْ لهم ، ومادامت تلك طبيعتك فليُنْ لهم في هذا الأمر واعف عنهم واستغفر لهم .

وهذه الآية جاءت عقب أحداث حدثت في أحد : الحدث الأول : أنه صلى الله عليه وسلم رأى ألا يخرج إلى قتال قريش خارج المدينة بل يظل في المدينة ، فأشار عليه المحبون للشهادة والمحبون للقتال والمحبون للتعويض عما فاتهم من شرف القتال في « بدر » أن يخرج إليهم ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رأيهم ، ولبس لأمته ، فلما أحسوا أنهم أشاروا على رسول الله بما يخالف ما كان قد بدر منه ، تراجعوا وقالوا : يا رسول الله إن رأيت ألا نخرج ، فقال : « ما ينبغي لنبى إذا ليس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » فإدام قد استعد للحرب انتهى الأمر ، هذه أول مسألة وهى مسألة المشورة .

وبعد ذلك تخلف ابن أبى بثلث الجيش وهذه مسألة ثانية ، أما المسألة الثالثة فهى مخالفة الرُماة أمره صلى الله عليه وسلم وتركهم مواقعهم على الرغم من أنه صلى الله

عليه وسلم قد حذرهم من ذلك وقال لعبدالله بن جبير الذى أمره على الرماة :  
« أنضح عنا الخيل بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فأثبت مكانك  
لا تؤذين من قبلك »<sup>(١)</sup> ، ولكنهم خالفوا عن أمر رسول الله . والمسألة الرابعة هي :  
فرارهم حينما قيل : قُتِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسألة الخامسة : أنه  
حين كان يدعوهم ، فروا لا يلوون على شيء .

كل تلك أحداث كادت تترك في نفسه صلى الله عليه وسلم آثاراً ، فكان الله  
سبحانه وتعالى يقول : أنا طبعتك على رحمة تسع لكل هذه الهفوات ، والرحمة منى ،  
وملأمت الرحمة موهوبة منى فلا بد أن جعلت فيك طاقة تتحمل كل مخالفة من أمتك  
ومن أتباعك . ولا تظن أنك قد أرسلت إلى ملائكة ، إنما أرسلت إلى بشر ، والبشر  
خطاءون . البشر من الأغيار ، فلماذا اجعل المسألة درساً ، وأنا فطرتك على الرحمة ،  
وأنت بذاتك طلبت منى كثيراً من الخير لأمتك ، ومن رحمة أن جبريل نادى رسول الله صلى  
الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله  
إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فتأداني ملك الجبال فسلم على ثم قال :  
يا محمد إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرن بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن  
أطبق عليهم الأحشيين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من  
أصلاهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً »<sup>(٣)</sup> .

فأنا أطلب منك الرحمة التي أودعتها في قلبك فاستعملتها في كل مجال ، وهذه  
الرحمة لنت لهم ، وهذه الرحمة اتقوا حولك ، اتقوا حولك لأدبك الجسم ،  
ولتواضعك الوافر ، لجمال خلقك ، لبسمتك الحانية ، لنظرتك المواسية ، لتقديرك  
لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أى واحد منهم يده في يدك لم تسحب يدك أنت  
حتى يسحبها هو ، خلق عالٍ ، كل ذلك أنا أجعله حيثة لتتنازل عن كل تلك  
الهفوات وليسعها خلقك وليسعها حلما ، لأنك في دور التربية والتأديب . والتربية  
والتأديب لا تقتضى أن تغضب لأى بادٍ تبدر منهم ، وإلا ما كنت مربياً ولا مؤدباً .

(١) الدر المنثور للسيوطي ج ٢ ص ٦٨ . (٢) عند عودته من الطائف وقد أذاه أهلها .

(٣) رواه البخارى في بدء الخلق ، ورواه مسلم في الجهاد ، [ الأحشيان ] جبالان في مكة ، أبو قيس والذي يقاتله  
وسمى قبيصان أو هو الجبل الأحمر الذى يشرف عليه وسمى الجبالان بالأحشيين لصلابتها وغلظ حجارتهما .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » لماذا ؟ لأنك تُخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية . والذي يخرج واحدا عما ألف لا يصح أن يجمع عليه إخراجهم عما اعتاد بالأسلوب الخشن اللفظ ؛ لأنه في حاجة إلى التردد وإلى الرحمة ، لا تجمع عليه بين أمرين تقبيح فعله ، وإخراجهم عما ألف واعتاد ، ولذلك يقولون للذي ينصح إنسانا ، النصيحة ثقيل ؛ لأن النصيحة معناه تحريم الفعل في المنصوح ؛ فعندما تقول لواحد : لا تفعل هذا ، ما معناها ؟ معناها أن هذا الفعل سيء ، فهادمت تحريم فعله فلا تجمع عليه أمرين : إنك قبحت فعله وأخرجته عما ألف ، وبعد ذلك تنصحه بما يكرهه لا ، إنه في حاجة إلى ملاطفة وملاينة لتستل منه الخصال القبيحة ، نحن نستعمل ذلك في ذوات أنفسنا حين نجد مرضا يحتاج إلى علاج مر ، فنغلف العلاج المر في غلاف من السكر بحيث يمر من منطقة الذوق بلا ألم أو نقص ، حتى يتزل في المنطقة التي لا نحس بهذه المرارة ؛ لأن الإحساس كله في الفم .

فإذا كنتم تفعلون ذلك في الأمور المادية ، فلا بد إذن أن نطبق ذلك أيضا في الأمور المعنوية ، ولأن النصيحة ثقيل فلا نجعله جدلا ولا ترسله جبلا ، وجفة البيان تؤدي عنك بدون إثارة أو استشارة ، ويلطف بحمل على التقبل . .

بهذا فنصل إلى ما تريد ، ومثال ذلك حكاية الملك الذي رأى في منامه أن أسنانه كلها وقعت ، فجاء للمعبر ليعبر ، فقال له : أهلك جميعا يموتون ، التعبير لم يُسر منه الملك ، فذهب لواحد آخر فقال له : ستكون أطول أهل بيتك عمرا ، إنه التعبير نفسه ، فهادام أطول أهل بيته عمرا ، إذن فسيموتون قبله ، هي هي ، ولذلك قالوا : الحقائق مرة فاستعبروا لها خفة البيان .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » إذن فبالرحمة إئت لهم وبلين القول تبعوك والفوك وأحبوك . وه اللفظ هو : ماء الكرش ، والإبل عندما تجد ماء فهي تشرب ما يكفيها مدة طويلة ، ثم بعد ذلك عندما لا تجد ماء فهي تهتر من الماء المخزون في كرشها وتشرب منه ، في موقعة من المواقع لم يجدوا ماء فذهبوا الإبل وأخذوا الماء من كرشها ، الماء من كرش الإبل يكون غير مستساغ الطعم ، هذا معنى « اللفظ » ، ونظروا لأن هذا يورث غضاظة فسموا : « خشونة القول » فظاظة ، والغلاظ في القلب هو ما ينشأ عنه الخشونة في الألفاظ .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . إنها رحمة طُبِعَتْ عليها  
يا رسول الله من الحق الذي أرسلك . وبالرحمة إئت لهم وظهر أثر ذلك في إقبالهم  
عليك وحُبهم لك ؛ لأنك لو كنت على نقیض ذلك لما وجدت أحداً حولك . إذن  
فالسوابق تثبت أن هذه هي طباعك ، وخلقتك ، هو الرحمة واللين .

وبعد ذلك اعف عنهم ، وقلنا : إن « العفو » هو : محو الذنب محو تاماً وهو يختلف  
عن كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ يعنى أن تكون المسألة موجودة في نفسك أيضاً  
إلا أنك لا تعاقب عليها ؛ لأنك كففت جوارحك وصنت لسانك ، أما المسألة  
فما زالت في نفسك ، لكن العفو هو أن تمحو المسألة كلها نهائياً ، وتأكيداً لذلك العفو  
فأنت قد تقول : أنا من ناحيتي عفوت . لا . المسألة لا تتعلق بك وحدك ، لأنك  
رسول من الله ، أنت ورامك إله يغار عليك ، فلا يكفي أن تعفو عنهم . بل لابد أن  
تستغفر الله لهم أيضاً ، فمن الممكن أن يعفو صاحب الذنب ، ولكن ربي ورب صاحب  
الذنب لا يعفو ، فيوضح الحق : أنت عفوت فهذا من عندك ؛ لكنه يطلب منك أن  
تستغفر لأجلهم . كي لا يعذبهم الله عما بدر منهم نحوك .

« فاعف عنهم » هذه خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم . . . « واستغفر لهم »  
بسبب ما فعلوه ، وترتب عليه ما ترتب من هزيمتكم في « أحد » ، وشجك  
وجرحك . ولا تقل : استشرتهم وطاوعتهم في المشورة ، وبعد ذلك حدث  
ما حدث ، فتكره أن تشاورهم ، لا تغفل هذا الباب برغم ما حدث نتيجة تلك  
المشورة وأنها لم تكن في صالح المعركة ، فالعبرة في هذه المشقة هي أن تكون « أحد »  
معركة التأديب ، ومعركة التهذيب ، ومعركة التمهيص ، إذن فلا ترتب عليها أن  
تكره المشورة ، بل عليك أن تشاورهم دائماً ، فإدام العفو قد رضى به نفسك ،  
ومادمت تستغفر لهم ربك ، واستغفارك ربك قد تستغفره بعيداً عنهم ، وعندما  
تشاورهم في أى أمر من بعد ذلك فكان المسألة الأولى انتهت ، ومادامت المسألة  
الأولى قد انتهت ، فقد استأنفنا صفحة جديدة ، وأخذنا الدرس والعظة التي  
ستفنعنا في أشياء كثيرة بعد ذلك .

ولذلك نحمد بعد هذه المعركة أن الأمور سارت سيرها المتتصر دائماً ؛ لأن التجربة

والتعليم والتدريب قد أثر وأثمر ، للدرجة أن سيدنا أبا بكر - رضي الله عنه - عندما جاءت حروب الردة ، ماذا صنع ؟ شاور أصحابه ، فقال له بعضهم : لا تفعل . فهل سمع مشورتهم ؟ لا . لم يسمع مشورتهم ، إنما شاورهم . فلإنفاد المشورة حُكم ، ولرد المشورة حُكم ، المهم أن تحدث المشورة ؛ ونعمل بأفضل الآراء فالمشورة : تلقح الرأي بأراء متعددة ، ولذلك يقول الشاعر :

شاور سواك إذا نابتك نائبة  
يوما وإن كنت من أهل المشورات

لقد اهتمنى الشاعر إلى كيفية تقريب المعنى لنا ، فعلى الرغم من أن الإنسان قد يكون من أهل المشورة والناس تأخذ برأيه ، فعليه أن يسأل الناس الراى والمشورة ، لماذا ؟ هاهوذا الشاعر يكمل النصيحة :

فالعين تنظر منها مادنا ونأى  
ولا ترى نفسها إلا بمرآة

إن العين ترى الشيء القريب والشيء البعيد ، لكن هذه العين نفسها تعجز عن رؤية نفسها إلا بمرآة ، وكذلك شأن المسألة الخاصة بغيرك والتي تعرض عليك ، إن عقلك ينظر فيها باستواء ودون انفعال ؛ لأنه لا هووى لك ، والحقى هو الذى يجذبك . لكن مسائلك الخاصة قد يدخل فيها هواك ويغلبها لك ويغسها .

إذن فالمشورة فى أحد كانت نتيجةها كما علمتم ، وكان الله يقول لرسوله : إياك أن تأخذ من سابقة المشورة أن المشورة لا تنفع ، فتقاطعهم ولا تشاورهم ؛ لأنك لن تظل حيا فيهم ، وسيأتى وقت يحكمهم بشر مثلهم ، ومادام يحكمهم بشر مثلهم فلا تهرمه أن يأخذ آراء غيره ، وعندما يأخذ الآراء وتكون أمامه آراء متعددة فهو يستطيع أن يتوصل إلى الحكم الصحيح بحكم الولاية ويحكم أنه الإمام ، ويستطيع أن يفاضل ويقول : هذه كذا وهذه كذا ، إلا أن يُفوض غيره .

« وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » ، وقد عزم رسول الله أيضا على

الحرب ولبس لأمته ، أكان يلبس اللأمة - وهى عُدّة الحرب - وبعد ذلك يقولون له : لا تخرج فيدعها ؟ لا ؛ فالمسألة لا نَحْتَمِلُ التردد . « فإذا عَزَمْتَ فتوكل على الله » وهذه فائدة الإيمان ، وفائدة الإيمان : أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، معادلة جميلة ! الجوارح تقول : نزرع ، نحراث ، نأق بالبنر الجيد ، نروى ، نضع سمادًا ونفترض أن الصقيع قد يأتى ونخشى على النبات منه فنأق بقش ونحوه ونغطيه ، كل هذه عمل الجوارح . وبعد ذلك القلوب تتوكل .

فإياك أن تقول : المحصول آتٍ لأنى أحسنت أسبابى ، لا . لأن فوق الأسباب مُسَبِّهَا . فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، هذه فائدة الإيمان لأنى مؤمن بإله له طلاقة القدرة ، يخلق بأسباب ويخلق بغير أسباب . الأسباب لك يا بشر ، أما الذى فوق الأسباب فهو الله ، فأنت حين تعمل أخذت بالأسباب ، وحين تتوكل ضمنت المسبب وهو الله - سبحانه - .

إذن فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل . إياك أن تظن أن التوكل يعنى أن تترك الجوارح بلا عمل ، لا ، فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب من يقول ذلك أنه يجب أن يتوكل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يتوكل فيه ، ونقول للرجل الذى يدعى أنه يتوكل ولا يعمل : أنت لست متوكلا ، ولو كنت صادقًا فى التوكل إياك أن تمد يدك إلى لقمة وتضعها فى فمك . كن متوكلا كما تدعى ، ودع التوكل يضع لك اللقمة فى فمك واترك التوكل ليمضفها لك !

وطبعا لن يفعل ذلك ، ولهذا نقول له أيضا : إن ادعاءك التوكل هو بلادة حس إيمان وليس توكلا .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عَزَمْتَ فتوكل على الله » وه عَزَمْتَ « تقتضى هزيمة ، والتوكل يقتضى إظهار عجز ، فمعنى أنى أتوكل على الله أنى استغفرت أسبابى ، ولذلك أرجع إلى من عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التوكل المطلق .

وفي حياتنا اليومية نسمع من يقول : أنا وكلت فلانا ، أى أننى لا أقدر على هذا الأمر فوكلت فلانا . ومعنى توكيله لفلان أنه قد أظهر عجزه عن هذا الأمر . ولهذا ذهب إلى غير عاجز . كذلك التوكل الإيمان ، فالتوكل معناه : تسليمك زمام أمورك إلى الحق ثقة بحسن تدبيره ، ومن تدبيره أن أعطاك الأسباب فلا ترد يد الله المحدودة بالأسباب ثم تقول له اعمل لى يارب ، لأننا قلنا فى سورة الفاتحة: إن الإنسان يدعو قائلاً :

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

( سورة الفاتحة )

ومعنى « نستعين » أى نطلب منك المعونة التى نتقن بها العمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

الحق يقول هنا : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، المؤمنون بمن ؟ بالله . وماداموا مؤمنين به فمن إيمانهم به أنه إله قادر حكيم عالم بالمصلحة ، ولا يوجد أحسن من أنك توكله .

وعندما نقرأ « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فقد نسال : وما هو المقابل ؟ المقابل هو « وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » . إذن فأنت دخلت بالأسباب التى قالها الحق سبحانه وتعالى مؤتمراً بأمر القيادة السبائية التى مثلت فى الرسول المبلغ عن الله ، وقد أخذت عذتك على قدر استطاعتك ، إياك أن تقارن



عَدَدُكَ بِعَدَدِ خَصْمِكَ أَوْ تَقَارَنَ عُدَّتُكَ بِعُدَّةِ خَصْمِكَ ؛ فَاطَّ لا يَكْلِفُكَ أَنْ تَقَابِلَ  
الْعَدَدَ بِالْعَدَدِ وَلَا الْعُدَّةَ بِالْعُدَّةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : أَنْتَ تُعَدُّ مَا اسْتَطَعْتَهُ ، لِمَاذَا ؟ لِأَنَّ اللَّهَ  
يُرِيدُ أَنْ يَصْحَبَ رَكِبَ الْإِيمَانِ مَعُونَةَ الْمُؤْمِنِ بِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ الْمَسَائِلُ قَدْرَ بَعْضِهَا ،  
لَكَانَتْ قُوَّةُ لِقْوَةِ . لَكِنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْعَدَدُ قَلِيلًا وَتَكُونَ الْعُدَّةُ أَقْلَ وَأَنْ نَعْتَرِفَ  
وَنَقُولَ : هَذَا مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ يَا رَبِّ . وَمَادَامَ هُوَ الَّذِي قَدَرْنَا عَلَيْهِ ، فَتَكُونَ هَذِهِ هِيَ  
الْأَسْبَابُ الَّتِي مَكَّنْتَنَا مِنْهَا ، وَنَتَّقُ بِأَنَّكَ يَا رَبِّ سَتَضَعُ مَعَ الْعَدَدِ الْقَلِيلِ مَدَدًا مِنْ  
عِنْدِكَ ، فَأَنْتَ الْمَعِينُ الْأَعْلَى ، فَسَبِّحَانِكَ الْقَائِلُ :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (١)

( سورة محمد )

والحق هنا يقول : « إن بنصركم الله فلا غالب لكم » فأنتم تضمن نصر الله لك  
إن كنت قد دخلت على أن تنصره .

كيف نعرف أننا ننصر الله ؟ نعرف ذلك عندما تأتى النتيجة بنصرنا ، لأنه سبحانه  
لا يعطى قضية في الكون وبعد ذلك تأتى بالواقع ليكذبها ، وإلا فالمسلمون يكونون  
قد انخدعوا - معاذ الله - لأنه لو جاء الدين بقضية ثم تأتى الواقع ليكذبها ، فلا بد أن  
يقولوا : إن الواقع كذب تلك القضية . لكن الحق قال : « إن تنصروا الله  
بنصركم » ويعنى الواقع مؤكدا لهذه القضية ، عندئذ نحن لا نصديق في هذه القضية  
فقط ، بل نصديق كل ما غاب عنا ، فعندما تظهر جزئية مادية واقعة محسوسة لتثبت  
لى صدق القرآن في قضية ؛ فأنا لا أكتفى بهذه القضية ، بل أقول : وكل ما لا أعلمه  
داخل في إطار هذه القضية .

ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى ترك بعض أسرارهِ في كونه ، وهذه الأسرار  
التي تركها في كونه هي أسرار لا تؤدي ضرورات ؛ إن عرفناها فنحن ننتفع بها قليلا  
في الكماليات ، ويترك الحق بعض الأسرار في الكون إلى العقول لتستنبطها ، فالشيء  
الذى كان العقل يقف فيه قديما يصبح باكتشاف أسرار الله مقبولا ومعقولا ، كان  
الشيء الذى وقف فيه العقل سابقا أثبتت الأيام أنه حق ، إذن فما لا يُعرف من  
الاشياء يُؤخذ بهذه القضية أو بما أُخذ من الغير .

يقولون - مثلاً - اكتشف الميكروب على يد « باستير » ، لكن ألم يكن الميكروب موجوداً قبل « باستير » ؟ كان الميكروب موجوداً ، ولم يكن أحد يراه ؛ لأن الشيء إذا دق ولطف لا تقدر أن تدركه ؛ فليس عندنا الآلة التي تدركه ، ولم تكن قد اخترعنا المجهر الذي يكبر الأشياء الدقيقة آلاف المرات . وكذلك اخترع الناس التلسكوب ، فبعد أن كان الشيء لا يرى لبعده ، أصبح يرى بواسطة التلسكوب ، وإن كان الشيء ضئيلاً جداً ولا نراه . فقد استطعنا أن نراه بواسطة المجهر المسمى « الميكروسكوب » .

والتلسكوب « يقرب البعيد » والميكروسكوب « يكبر الصغير فنرى له حركة وحياة ، ونجد له مجالاً يسبح فيه ، وهذا جعلني إذا حدثني القرآن أن الله خلقنا غاب عن الحس لا يدرك من جن وملائكة ، فلا أكذب ذلك ، لأن هناك أشياء كانت موجودة ولم تدخل تحت حسي ولا إدراكي مع أنها من مادي ، فإذا كانت الأشياء الأخرى من مادة أخرى مثل الملائكة من نور ، أو الجن من النار ، ويقول لي سبحانه إنهم مخلوقون وموجودون فأننا لا أكذب ما جاء من الحق ؛ لأن هناك أشياء من جنسي كانت موجودة ولم أستطع أن أراها .

إذن فهذه قربت لي المسألة ، فعندما يقول الحق : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فنحن نعرف أن نصر الله مترتب على أن تدخل المعركة وأنت تريد أن تنصر الله ، وتنصره بماذا ؟ بأنك تحقق كلمته وتجعلها هي العليا ، وليس هذا فقط هو المطلوب ، بل لتجعل - أيضاً - كلمة الذين كفروا السفلى .

« وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده » إنه في ظاهر الأمر يكون معنا ، لكننا نشعر أنه تخلى عنا ، لماذا ؟ لأننا نترك بعضها من تعاليم الله ، إذن فهو في المظهر العام معكم كمسلمين ، ومن معيته لكم أن يؤذبكم على المخالفة فيخذلكم عندما تخالفون عن أمره .

ونعظم الحق سبحانه الآية بقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » وفي الآية السابقة قال سبحانه : « إن الله يحب المتوكلين » ، والذي لا يتوكل على الله عليه أن يراجع إيمانه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ  
يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ  
لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ما معنى « يغُل » ؟ أولا : « الغلول » هو الأخذ في الخفاء . وهو مأخوذ من « أغل الجازر » - أى الجزار - أى عندما يسلم الجلد يأخذ بعض اللحم مع الجلد ، ثم يطوى الجلد مخفيا ما أخذه من اللحم ، هذا هو الأصل ، وأطلق شرعا على الخيانة فى الغنائم ، ففى هول المعارك قد يهدد المقاتل شيئا ثمينا فيأخذ هذا الشيء خفية ، وهذا اسمه « الغلول » ، وأيضا كلمة « الغل فى الصدور » أى إخفاء الكراهية ، وكل المادة إخفاء .

والحق يقول : « وما كان لنبي أن يغُل » لماذا ؟ لأن من الجائز أن الرماة - فى غزوة أحد - ساءة رأوا الغنائم أقبلوا عليها ، لأن غنائم بدر لم تكن قد قسمت بين كل من اشتركوا فى القتال ، فالذى كان يعثر على غنيمة كان يأخذها ، وكانت بدر أول معركة ، وكان الهدف من ذلك تشجيع المقاتلين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : قد قال : « من قتل قتيلا فله سلبه » .

وظن المقاتلون فى أحد أن المسألة ستكون مثل بدر ، وظن البعض أن الرسول لن يعطيهم غنائم ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى : بأن هذه مسألة وتلك مسألة أخرى ، فمن يفعل مثل هذا يكون قد غل . وساعة تسمع : « وما كان لنبي أن يغُل » أى أن من طبعه صلى الله عليه وسلم ومن فطرته وسجيته ألا يتأق ذلك منه أبدا ، لكن من الجائز أن يحدث مثل ذلك من واحد من أمته ، إذن فهناك فرق بين امتناع

المؤمن أن يكون غالاً ، أى يأخذ لنفسه شيئاً من الغنيمة ، وامتناع الرسول أن يكون غالاً ، لأن طبعه وسجيته لا تستقيم مع هذه ، لكن الأمر يختلف مع المقاتلين ؛ فمن الممكن أن يكون أحدهم كذلك . فسيدنا عمر في معركة الفرس ، حينها جاء جماعة بتاج كسرى ، والتاج فيه كل النفائس وتلك سمة عظمة الملوك ، فقال الفاروق عمر : إن قوما أودوا إلى أميرهم هذا لأمناء . فقد كان من الممكن أنهم يخفونه .

« وما كان لنبي أن يغفل ، وساعة تسمع » وما كان : أى : وما ينبغي ولا يصح أن يكون ذلك الأمر ، وبعد ذلك يأتي بالحكم العام فيمكن أن يحدث غلول من أحد فيقول : « ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة » فالذى غل في حاجة وخان فيها يأت بها يوم القيامة كما صورها الرسول صلى الله عليه وسلم :

« والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حله إلا لقي الله بحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحداً منكم لقي الله بحمل بغير له رغاء أو بقرة لها خوار ، أو شاة تخر ، ثم رفع يديه حتى رقى بياض إبطيه يقول : اللهم قد بلغت » (١) .

إن من يأخذ حراماً في خفية يأت يوم القيامة وهو يحمل البعير أو البقرة أو الشاة مثلاً . وآه لو كان ما أخذه حراماً فله نهيق !!

فلذا كان سيأتى بما غل يوم القيامة - فالذى أخذه سيفضحه - ولذلك تسمى الفاضحة ، « و الطامة » . إذن فمن الممكن في الدنيا أن يأخذها خفية ويغفل . لكنه سيأتى في يوم القيامة وهو يحمل ما أخذه على ظهره ، ثم يقول منادياً رسول الله : يا محمد . . يا محمد ، لأن كل مسلم قد علم وأطمأن إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رعوف ورحيم وأنه لن يرضى بهذه الحكاية ، لكن رسول الله أبلغ عن عقاب من يفعل ذلك في حياته ، وحل كل المؤمنين به ألا يفكروا في الغلول وأخذ الغنيمة خفية .

ولذا تكون الغنيمة في الحرب شراً ؟ لأن المقاتل يحرص أثناء القتال في مهمة أن

( ١ ) رواه البخاري ومسلم « و رغاء » يغم الراء صوت البعير ، و ( خوار ) يغم الحاء صوت البقرة ، و ( تخر ) :

نصح والهمار : صوت الغنم .

تكون كلمة الله هي العليا فكيف يرضى لنفسه بهذه المهانة وهي إخفاء الغنمة ؟ إنه يجارِب من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ، ويجب أن يكون في مستوى ذلك .

وبعد ذلك يأتي الحق بالقضية العامة : « ثم توفي كل نفس ما كسبت » ، وهي تشمل الغلول في الغنمة والغلول في غير الغنمة ، ولتصور هذه بالنسبة لكل من يخون أمانة أو يمن عليها ، وأنه سيأتي يوم القيامة يحمل عبارة - مثلاً - لأنه بناها بغير أمانة أو يحمل أطنانا من سمك لأنه سرقها ، أو يحمل أطنانا من الجبن الفاسد التي استوردها . فكل من سرق شيئا سيأتي يوم القيامة وهو يحمله ، وإذا كنا نشهد أن الناس لا تطيق أن تفضح بين الخلق ، والخلق محدودون لأنهم المعاصرون ، فما بالك بالفضيحة التي ستكون لعموم الخلق من أول آدم إلى أن تقوم الساعة . إذن فعل كل إنسان أن يحرس نفسه لأن المسألة ستفضح .

« ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » ومادام سبحانه سيوفي كل نفس ما كسبت فكل سيأخذ قدر ما فعل ، فلا ظلم ، فلو ترك الأمر بلا حساب لكان هذا هو الظلم وحاشا لله أن يظلم أحدا . وبعد تلك التهيئة والإيضاح يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَن أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٦٢)

والحق سبحانه وتعالى حين يطرح بعض القضايا طرح الاستفهام ، فهو يطرحها لا يعلم هو فهو عالم ، ولكن ليستنطق السامع ، ونطق السامع حجة فوق خبر المخبر ، فلو قال : إن الذي يتبع رضوان الله لا يساوى من ذهب إلى سخط الله لكان ذلك إخبارا منه وهو صادق فيها يقول ، لكنه سبحانه يريد أن يستنطق عباده بالقضية ، « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء » ، « باء » أى : رجع « بسخط من الله » .

لا شك أن كل من يسمع عن الفارق بين اتباع الرضوان ، أو الرجوع بالسخط يقول : إن اتباع الرضوان يرفع درجة الإنسان ، والذي ييؤ بالسخط يهبط إلى درك الخسران ، فالقضية قاطبة السامع . . فكأن الحق يستنطقنا بالقضية لتكون حجة علينا ، والذي يتبع رضوان الله بالطاعة ، أهساويه من يرجع إلى سخط الله بالمعصية ١٩

أفمن يتبع رضوان الله فلا يغفل في الغنمة ولا يخترن في الأمانة كمن غل في الغنمة وخان في الأمانة ؟

أفمن اتبع رضوان الله بأن استمع لأوامر الله حين استغفره لجهاد العدو ، كمن لم يذهب لنداء الله ليكون في جند الله مقاتلا لعدو الله ، لا ، فالذي لا يستجيب لنداء الله هو من ييؤ بسخط الله .

و« السخط » هو : إظهار التقبيح ، لكن إظهار التقبيح قد لا يؤثر في أناس غليظي الإحساس ، لا تنفع فيهم اللعنة أو الشتائم ؛ لذلك جاء سبحانه بالحكم : « وماوا جهنم وبئس المصير » و« ماوا » أى المكان الذى يأوى ويرجع إليه هو جهنم وبئس المصير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرُورِمَا

يَعْمَلُونَ ﴾

« هم درجات » أى ينزلون في الآخرة منازل على قدر أعمالهم ، فكما ترى الدرجات موصلة إلى المراقي العالية كذلك في الآخرة كل إنسان محاسب بعمله ، ويأخذ عليه درجة ، ولنا أن نلاحظ أن الحق يستخدم كلمة « درجات » بالنسبة للجنة ، لأن فيها منازل ورتبا ، أما فيما يتعلق بالنار ، فيأتى لفظ « دركات » ،

فالدركة تنزل ، والدرجة ترفع .

« هم درجات عند الله » فالله هو العادل الذي ينظر لحلقه جميعا على أنهم خلقه ، فلا يعادي أحدا ، إنه يحكم القضية في هذه المسألة سواء أكانت لهم أم كانت عليهم ، وبعد ذلك يردفها - سبحانه بقوله : « والله بصير بما يعملون » ليظمن هؤلاء على أن الله بصير بما يعملون فلن يضيع عنده عمل حسن ، ولن يهدر عنده سيئة بدرت منهم . « والله بصير بما يعملون » . ونحن نسمع كلمة « يعمل » وكلمة « يفعل » وكلمة « يقول » والعمل أهم الأحداث ، لأن العمل هو تعلق الجارحة بما نيظت به ، فالقلب جارحة عملها النية ، واللسان جارحة عملها القول ، والأذن جارحة وعملها الاستماع ، والعين جارحة وعملها أن تنظر . إذن فكل جارحة من الجوارح لها حدث تنبئ به لتؤدي مهمتها في الكائن الإنساني ، إذن فكل أداء مهمّة من جارحة يقال له : « عمل » .

لكن « الفعل » هو تعلق كل جارحة غير اللسان بالحدث ، أما تعلق اللسان فيكون قولاً ومقابله فعل ، إذن ففيه قول وفيه فعل وكلاهما « عمل » إذن فالعمل يشمل ويضم القول والفعل معا ، لأن العمل هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها ، لكن الفعل هو : شغل جارحة غير اللسان بالعمل المطلوب منها ، وشغل اللسان بمهمته يسمى : قولاً ولا يسمى فعلاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان يتكلم كثيرا ، لكن أن يحمل نفسه على أن يعمل ما يتكلمه فهذه عملية أخرى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ بَنَاتِهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُونَ مَالًا تَفْعَلُونَ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ

أَنْ تَقُولُوا مَالًا تَفْعَلُونَ ۖ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله الفعل ، والكل عمل « والله بصير بما يعملون » قولاً أو فعلاً وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ  
رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ  
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا  
مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١٦٥)

والذي يمن على الآخر هو الذي يعطيه عطية يحتاج إليها هذا الأخذ ، فكان الحق يقول : وهل أنا في حاجة إلى إيمانكم ؟ في حاجة إلى إسلامكم ؟ أصفة من صفات معطلة حتى تأتوا أنتم لتكملوها لي ؟ لا ، إذن فحين أبعث لكم رسولا رحيا بكم ، فالمنة تكون لي وحدي .

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » .

أكان يبعثه ملكا ؟ لا . بل بعثه من البشرية ؛ كي تكون الأسوة فيه معقولة . فعندما يقول لكل مسلم افعل مثل ، فالمسلم عليه أن يطبق ما يأمره به الرسول ، لكن لو كان ملكا أكانت تنفع فيه الأسوة ؟ لا ، فقد يقول لك : افعل مثل ، فتقول له : لا أقدر لأنك ملك ، ومن يدعى الألوهية لرسول ، فهو ينفي عنه الأسوة ؛ لأنه عندما يقول : كن مثل ، يمكنك أن تقول : وهل نقدر ؟ أنت طبيعتك مختلفة ، فهل فصل لذلك ؟ لا نقدر ، ولذلك فالذين يقولون بالوهمية رسول ، إنما يفقدون الأسوة فيه ، والمفهوم في الرسول أن يكون أسوة سلوكية ، وأن يكون مبلغا عن الله منهجه ، وأن يعلن بشريته ويقول : أنا بشر وأستطيع أن أمثل وأطبق المنهج . إذن فهو أسوة سلوكية تطبيقية .

والرسول مبعوث لكل ، فلماذا كانت المنة على من آمن فقط ؟ لأنه هو الذي انتفع بهذه الحكاية ، لكن الباقيين أهدروا حقهم في الأسوة ولذلك تكون المنة على من آمن .



« لقد من الله على المؤمنين » وما هي المنّة ؟ المن : الأصل فيه أنه القطع ، لكن حين نسمعها نجد أنها تستعمل في أشياء متقابلة ، فمثلا : المن هو العطاء بلا مقابل ، والمن هو : تكدير النعمة بالتحدث بها ، مثل قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ لِيَرْحَمَهُمُ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٢١)

( سورة البقرة )

إذن فالمن الذي نحن بصدده هو العطاء بلا مقابل ، ولكن المن قد استعمل في تكدير النعمة بكثرة الكلام فيها ، فقد يقول الإنسان لمن يمن عليه : لا أريد النعمة التي تتكلم عنها دائما ، إذن فالمن استعمل في النعمة وفي تكدير النعمة ، تقول : مَنْ على فلان إذ أنقلني من ضيق كنت فيه ، ويقال : فلان ليس فيه منّة ، أى ليس فيه قوة ، وكلها تلحور في معنى القطع ، فإذا استعمل في النعمة والعطاء نقول : نعم فيها قطع ، لأن النعمة جاءت لتقطع الحاجة ، ففيه حاجة ثم جاء عطاء ، والعطاء قطع الحاجة . فاستعملت في معناها .

فإذا جاءت نعمة بعد حاجة والحاجة انقطعت بالنعمة فلا بد أن تأتى بفعل بعدها وهو أن تشكر من أنعم عليك ، وخصوصا أنه الله ، فالمن بقطع الشكر لأنك إن مننت بالنعمة وأظهرت تفضلك بها على من أسديتها إليه فقد تسببت في أن الأخذ لا يشكرك بل إنه يتضايق من نعمتك وقد يرذها عليك . فإذا : هنا قطع للشكر ، فإن قطعت حاجة محتاج فهذا يسمى « نعمة » وإن فخرت بنعمتك عليه حتى كدرتها فقد قطعت ومنعت شكره لك ، وهذا يسمى « منّا » أى أذى لأنه يؤذى مشاعر وإحساس الأخذ . وإن قطعت مطلقا اختصت باسم « المنّة » ، يقولون : فلان لا منّة فيه أى لا قوة عنده تقطع في الأمور ، وهنا يقول : « لقد من الله على المؤمنين » وه « مَنْ » هنا بمعنى أعطى نعمة ، والنعمة في الدنيا تعطيك على قدر دنياك ، وه منّة « الله برسوله صلى الله عليه وسلم تعطينى عطاء على قدر الدنيا وعلى امتداد الآخرة ، فتكون هذه منّة كبيرة .

« لقد من الله على المؤمنين إذ » ، وه إذ ، بمعنى ساعة أى حين بعث فيهم رسولا

منهم فقد عمل فيهم منة وقدم لهم ومنحهم جيلا كبيرا وأنعم عليهم نعمة ، « إذ بعث فيهم رسولا » . فإذا كان مطلق بعث رسول كي يهدي الناس إلى منهج الله يكون نعمة فلماذا إذا كان الرسول من أنفسهم ؟ إن هذه تكون نعمة أخرى لأنه مادام من أنفسهم ومن رعايتهم ومن جماعتهم ، هو معروف نسباً وحسباً ومعروف أمانة ، فلا يخون ، ومعروف صلتاً فلا يكذب ، كل هذه « منة » ولم يتعب أحداً في أن يبحث وراءه : أكذب قبل ذلك حتى نعتبر ذلك كذبا ؟ أخان قبل ذلك حتى نعتبر ذلك خيانة ؟ لا ، هل هو من الناس المدعين الذين يريدون أن يقيموا ضوضاء من حولهم ؟ لا . بل هو في الحسب والنسب معروف ، جده عبدالمطلب سيد البطحاء ولا يوجد واحد من أهله نافها .

وعرف الجميع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانة منذ صغره ، إذن فالمقدمات تجعل الناس لا تجهد نفسها في أن تتحرى عنه أصادق هو أم غير صادق ؟ إذن فهو منة ، ولذلك حينما بعث الله سيد الخلق إلى الخلق ، كان هناك أناس بمجرد أن قال لهم : إني رسول الله ، آمنوا به ، لم يقدم معجزة ولم يقولوا له : ماذا ستقول أو ماذا تعمل ؟ بل بمجرد أن قال : إنه رسول الله صدقوه ، فعل أي حثية استندوا في التصديق ؟ لقد استندوا على الماضي .

لقبتموه أمين القوم في صغر

وما الأمين على قول بئتهم

ها هو ذا سيدنا أبو بكر رضي الله عنه يقول : إن كان قد قال فقد صدق - إذن فالمقدمات التي يعرفونها عنه كانت هي الحجة في تصديق الرسول ، وخديجة - رضي الله عنها - عندما آمنت به ، أقال لها المعجزات والقرآن ؟ لا . بل بمجرد أن قال لها : أنا رسول الله . قالت له : صدقت فلا بد أن تكون رسولا ، هو نفسه كان يشكك وهي مؤمنة به ، هو نفسه يتساءل : لعل ذلك يكون كذا ، وذهبت به خديجة - رضي الله عنها - إلى ورقة بن نوفل لتطمئنه على الرغم من أنها كانت قد توصلت إلى الحكم في القضية التي سألت عنها ورقة بن نوفل وأوضحت لرسول الله أن ما نقوله لا يمكن أن يوقعك في بلية أو خزي أو ذلة ، لأن صفاتك جاءت كمقدمات لهذه النتيجة ، وهي أنك رسول كريم « إنك لتحمل الكل وتكسب المعلوم وتعين على نوائب

الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً ،<sup>(١)</sup> ، إنسان بهذه الصفات لا يمكن أن يأتيه شيطان ، وتعال نذهب معا لأهل الكتاب الذين لهم علم بهذه المسألة . كأنها آمنت برسالة رسول الله قبل أن يقول لها ورقة بن نوفل شيئاً .

إذن فقله : « من أنفسهم » أى معروف لهم ، فلم يأت لهم بواحد سقط عليهم من السماء ، وقال : هذا رسول ، لا . إنه رسول « من أنفسهم » ، وهذه أول بينة ، « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ، هذا إذا أخذت المحيط القريب أنه من الرهط ومن القبيلة ومعروف لهم ، « من أنفسهم » أو من جنس ونوع العرب ، وهذه أيضاً بينة ، فساعة أن يتكلم سيفهمونه ولا يحتاجون إلى وساطة أو ترجمة ، والرسول عندما يأتي ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، يريد أناساً تفهم عنه ، فأوضح لهم : لم أكلفكم لتقولوا ماذا يريد ، لا ، هو من أنفسكم ، وهو إنسان له مواصفاتكم ، ولكنهم لفرط عنادهم لم يؤمنوا مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا ۖ ﴾

رَسُولًا ﴿١٨﴾

(سورة الإسراء)

إنهم يستكثرون كيف يبعث الله بشراً ويعمله رسولا ، وهذا غباء في الاعتراض ، ويبقى الرد الجميل من الله .

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا ۖ ﴾

رَسُولًا ﴿١٩﴾

(سورة الإسراء)

أنتم من البشر ، فلا بد أن نأتيكم برسول من جنسكم ، حتى إذا قال لكم : افعلوا كذا تقولون : نعم ؟ لأنه بشر ويعمل ونحن بشر نستطيع أن نعمل مثله . . لكنه لو كان ملكاً لقال الواحد منكم : وهل أنا أقدر أن أكون كالملك ؟ إذن فلا تنفع

هذه الحكاية ، وهكذا من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا . « من أنفسهم » ، إن أخذتها على أساس أنها قبيلة محدودة ومعروفة فهي مئة ، وإن أخذتها على أنه من جنس عربى فيكون اللسان واحداً فهي مئة ، وإن أخذتها من الجنس العام وهو الإنسان فهي مئة أيضاً .

وهل اعتبار معنى واحد من المعاني ينقض المعاني الأخرى لو تأتى كلها فى سلك واحد ؟ إنها معاني تأتى كلها فى سلك واحد ، لأن التكلم هو الله ، ومادام التكلم هو الله فيكون عطاء اللفظ أكثر من عطاء الفاظ الخلق ، « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ، وهنالك قرأمة - وإن كانت قرأمة شاذة - تقول : « من أنفسهم » ( بفتح الفاء ) أى من أشرفهم لأنه من بنى هاشم وهم أفضل قريش ، وقريش أفضل العرب .

وماذا يعمل الرسول ؟ يفهم من قوله : « رسولا » أنه لا يأتى بشيء من عنده ، بل هو - مع هذه المنزلة الحسنة بخلقه الجميل وماضيه الناصح - هو مع هذا رسول وليس له فى الأمر شيء ، إذن فمرسله خير منه ، فلا تنبه إلى هذا الرجل العظيم فحسب بل يجب عليك أن تسأل : من أين جاء ؟ لابد أن تلتفت إلى أن الذى بعثه أعظم منه .

« رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته » ، وكلمة « يتلو » معنى يقرأ لأن الكلمة تتلو الكلمة ، فالذى يقرأ أى ينطق كلمة بعد كلمة ، كلمة تالية بعد أخرى « يتلو عليهم آياته » وكلمة « الآيات » - كما نعرف - تستعمل للأمور العجيبة ؛ اللافنة للنظر ، تقول مثلاً : فلان آية فى الحسن . أى حسنه لافنت للنظر ، وتقول : فلان آية فى الذكاء ، صحيح أن هناك أذكاء كثيرين ، لكنه آية فى الذكاء . . أى أن هذا الإنسان أمره عجيب فى الذكاء ، إذن فكلمة « آية » معناها : الأمر العجيب ، وهو الذى يقف الإنسان عنده وقفة طويلة ليتأمل فى عجائبه .

والآيات نوعان : آيات منظورة فى الكون مثل قول الحق :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِلَيْهِ تَعْبُدُونَ ﴿٦٧﴾

(سورة فصلت)

وكل ظواهر الكون تعتبر أشياء عجيبة . والنوع الثاني : هو آيات القرآن مثل قوله الحق :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانًا آيَةً وَآلَهُ أَطْمَمَ بِمَا تُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَّا آتَتْ مَفْزَٔٔ  
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فالآيات هي الأمور العجيبة وهي قسمان : منظور ومقروء ، المنظور : كل الكون ، والمقروء : هو القرآن ، فالقرآن يفسر آيات الكون ، وآيات الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء بتلو آيات القرآن ، وكانت عجيبة عليهم ، لكن الآيات الأخرى التي في الكون يشاهدونها ويرونها ، لقد جاء الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة ، وبذلك الآيات المنظورة يكون العجب من دقة خلق الكون ؛ فيستهي الإنسان إلى الإيمان بمن خلق هذا الكون .

إن الحق يقول عن الرسول : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم » والمسألة ليست أنه يتلو الآيات ليعجبوا منها فحسب ، لا . فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كل سامع للقرآن إلى من خلق ذلك الكون الجميل البديع الذي فيه الآيات العجيبة . ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذي يناسب جمال الكون ، إذن فالرسول ينفل المؤمنين إلى المنهج الذي يزكى الإنسان ، وأنت إذا سمعت كلمة « يزكيهم » فأنت تعرف أنها من الزكاة . والزكاة أول معانيها : التطهير ، والتنقية ، والنماء . والآيات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاءت لتركيهم .

وهذا التطهير لمصلحة المظهر أو المظهر ، إنه لمصلحة المظهر . التنقية والنماء لمصلحتكم أنتم وهذا لا يشكك في التكليف ؛ لأن التكليف لم يأت للمكلف ، إنما جاء للمكلف ، وأضرِبَ هذا المثل - وفيه المثل الأعلى - فالرجل يكون مهسور الحال وعنده مال وعنده عفارات وأطيان ، وبعد ذلك يجب لأولاده أن ينجحوا في المدارس

فيشجعهم قائلا لكل منهم : إن نجحت فسأفعل لك كذا . هو لا يريد منهم شيئا لنفسه ، فعنده النعمة الكافية ، هو يريد - فقط - مصلحتهم هم .

إذن فالمكلف لن يتقنع بتكليفنا أبدا ، فالتنقية لصالحنا والتطهير لصالحنا والنهاء لصالحنا - والتزكية هي : تطهير وتنقية وغناء - ولننظر إلى الحالة التي كانت الجاهلية عليها ، هل كانت طاهرة ؟ هل كانت نقية ؟ هل كانت نامية ؟ لم يكن بها وصف من تلك الأوصاف ، لأنها جاهلية ، فكلهم محكومون بالهوى والجبروت والسلطان والقهر ، ونعرف أن أول ما يهتم به الإنسان هو أن يستبقى حياته وبعد ذلك يستبقى نوعه ، وبعد ذلك يستديم ما حوله ، والتزكية شملت كل أمر من هذه الأمور ، تزكية في الإنسان نفسه ، في ذاته ، بدلا من أن يكذب لسانه طهره عن الكذب ، بدل أن تمتد عينه إلى محارم غيره طهر عينه من النظر للمحرمات ، وبدلا من أن تمتد يده خفية وتسرق فهو لا يفعل ذلك .

والسرقة - كما نعلم حتى عند من يسرق - نقيصة ، بدليل أن اللص يتوارى ويحاول أن يسترها ولا يراه أحد ، لأنها رذيلة ونقيصة . ويأتى المنهج فيقول له : لا تسرق ، ويظهر المنهج حركة جوارح الإنسان في الأرض ، ويظهر قلبه من الحقد كي يعيش مرتاحا ، وتبقى قوته مصونة للعمل الجاد المثمر ، فلم يبدد قوته ، ولم يبدد نظراته ، ولم يبدد علاقاته بالناس ؟

إذن فالمنهج ينمى الإنسان ، إنه تطهير وتنقية وغناء له ، وبعد ذلك عندما يصاب الإنسان بالعجز وعدم القدرة ، فلن يستذله الغير لكي يعطيه لقمة . لقد زكاه المنهج من هذه ونقاها من الذلة وجعل له في مال القادر حقا ، والقادر هو الذى يبحث عن الضعيف ليعطيه حقه ؛ لأن العاجز عندما يرى كل المؤمنين حوله قادرين يبحثون عنه ليعطوه حقه وليس مجرد صدقة يتصدقون بها عليه حينئذ يقول : أنا لست وحدى في الكون . أنا في الكون بفلان وبفلان ، فتكون تنمية له ، مادام الكل يعطيه .

أما عن بقاء النوع فإذا يعنى ؟ إن الحق يريد طهارة الإنسان والذرية التي تاتي وأن يجعل لها وعاء شريفا عفيفا ، وإطارا لا تشوبه شائبة فجاء المنهج ليزكيكم في كل

شيء ، يزكى حركات جوارحكم فلا تنجى الحركة إلا لتحقيق المطلوب منها عند من خلقها ، فالخالق قد أوضح : يا عين حدودك كذا ، يا لسان حدودك كذا ، يا يد حدودك كذا ، يا رجل حدودك كذا ، يا قلب حدودك كذا ، فللذى خلق كل جوارحة هو الذى أعطى لكل منها حدودها فلا تتجاوز ولا تتأون ولا إفراط ولا تفريط ، فإن خرجت عن غير ما وضع لها فى منهج الله فقد خالفت . وهكذا نرى أن النهج قد جاء يزككم أى يطهركم وينقيكم وينميكم فى كل مجال من مجالات الحياة .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » وساعة يقول الحق : « الكتاب » فهو يقصد الكتاب المنزل إنه القرآن ، والحكمة هى السنة . والحق يقول :

﴿ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَنْتَلَىٰ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا

خَبِيرًا ﴿٣٨﴾

( سورة الأحزاب )

وآيات الله معروفة وهى آيات القرآن ، والحكمة هى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب » ، إذن فالكتاب هو القرآن ، سيتلو عليهم آيات القرآن وبعد ذلك يعلمهم ما جاء فى هذا الكتاب . بعض المفسرين قال : لا بد أن نحمل « الكتاب » هنا على معنى آخر غير القرآن ، فقالوا : الكتاب يعنى الكتابة ، وأول عمل زاولوه فى الكتابة كتابة المصحف . إذن فالتقى المعنيان ، ولذلك فى غزوة « بدر » كان يتم فداء الأسرى إما بالمال وإما أن كل أسير يجيد القراءة والكتابة إذا أراد أن يفدى نفسه فعليه أن يقوم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فقد كانت الأمة أمية . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴿٢﴾

( من الآية ٢ سورة الجمعة )

لذلك نجد أن تفسير الكتاب بالكتابة هو المناسب للامية ، أوخذ هذه اللفظة على أساس أن هناك فرقا بين التلاوة والتعليم ، التلاوة : يتلو عليهم ، أى أن الرسول هو الذى يتلو ، والتعليم يكون بأن يتلوا هم القرآن . « ويعلمهم الكتاب والحكمة » « وعلم » أى نقل العلم من مُعلم إلى مُعلم .

ويختتم الحق هذه الآية بالقول الكريم : « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » وهناك أساليب تأتي فى القرآن فيها « إن » وتجد كل « إن » فى موضع لها معنى يختلف عن الآخر ، فمثلا تأتي « إن » شرطية ، يعنى يأتى بعدها فعل شرط وجواب شرط مثل قوله الحق :

﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلَهُ ﴾

( من الآية ١٤٠ سورة آل عمران )

أى إن يمسكم قرح فلا تيأسوا ولا تبتسوا . فقد مس القوم قرح مثله ، وقوله الحق :

﴿ إِنْ تَبَدُّوا لَأَسْأَلَنَّ عَنْهُمْ ﴾

( من الآية ٢٧١ سورة البقرة )

إننا هنا نجد أن « إن » شرطية ، ففيه شرط وجواب شرط . ومرة تأتي « إن » وبعدها « إلا » :

﴿ إِنْ أَمْسَتْهُمْ إِلَّا أَلْتَمِسْ وَلَدَتَّهُمْ ﴾

( من الآية ٢ سورة المجادلة )

وهو سبحانه يتكلم هنا عن الذين يظاهرون من نساءهم ، أى يقول الرجل لامراته : أنت على كظهر أمى ، إن أمك هى التى ولدتك وامراتك لم تلدك ، فلو كانت أمك لكنت محرمة عليك ، « إن أمهاتهم إلا اللاتى » ، فعندى هنا « إن » وبعدها « إلا » ومادام جاءت « إلا » فالذى بعدها يكون مشبها ، والذى قبلها يكون منفيا ، مثل قولنا : « ما قام القوم إلا زيدا » إن زيدا مختلف عنهم . « إن أمهاتهم إلا اللاتى ولدتهم » أى : ما أمهاتهم إلا اللاتى ولدتهم ، إذن فهنا « إن » هنا ليست



شرطية لكنها هنا « إن » النافية وتعرفها بوجود « إلا » .

ومرة ثالثة تأتي « إن » لا هي شرطية ، ولا هي نافية مثل آيتنا هنا « وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » . ونقول : هذه « إن » التي هي تخفيف « إن » أي « إن » هنا مخففة من الثقيلة ويكون المعنى وإن الحال والشأن والقصة والواقع أنهم كانوا في ضلال مبين . ويقول النحاة : اسمها ضمير الشأن - أي الحال والقصة - وهو محذوف .

وما هو الضلال ؟ يقولون : ضل فلان الطريق أي مشى في مكان لا يوصله للغاية ، أو يوصل إلى ضد الغاية ، لأن الضلال في الدنيا والأمور المادية قد لا يوصلني لغايتي المرجوة ، وقد لا يوصلني لشر منها أو لمقابلها ، لكن في الأمر القيمي ماذا يفعل ؟ إنه لا يوصلك إلى الغاية المرجوة وهي الجنة فحسب ولكنه يوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين ، إنه ضلال واضح ، بدليل أن الفتناء التي جاء الإسلام ليظهر الإنسان منها ، يحب مرتكبها ألا تعلم عنه وسط الناس ، فالسارق يسرق لكن لا يجب أن يعرف الناس أنه لص ، والكاذب يكذب لكن لا يجب أن يعرف الناس أنه كذاب ، بدليل أنك عندما تقول له : يا كذاب تكون له صاعقة . إذن فالنقيصة تفعل وصاحبها لا يريد أن يراها أحد لو يعرف بها .

« وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » أي ضلال ظاهر وهو ضلال يعرفه صاحبه بدليل أننا قلنا في قصة سيدنا يوسف : حيث نجد في القصة اثنين من الفتيان قد دخلا السجن ، وماذا حدث لهما :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَلْوِينِهِ  
إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

( سورة يوسف )

لقد رأوا في يوسف عليه السلام كان عنده ميزان الإحسان فهو يعرف الحسن والقيح . ولأنها يعرفان ميزان الإحسان فلا بد أن تكون المسائل بالنسبة لهما واضحة . ولماذا لم يقلها واحد منها من قبل ؟

لقد شهدا هذه الشهادة لسيدنا يوسف لأنها يطلبان الآن مشورته في تأويل الرؤى . كان يوسف عليه السلام مسجوناً ، ولم ينظر إليه أحد إلا كمسجون . ومن سلوكه معها في السجن عرفا أنه طيب ومحسن . ولذلك التفتا إليه ورأيا فيه أنه قادر على تأويل رؤيا كل منهما . مثلما قلنا : إن المنحرف نفسه يعرف قيمة الفضيلة ، وهكذا نجد أن الفضيلة مسألة ذاتية وليست نسبية ، أى أنه حتى المنحرف عن الفضيلة يرى الفضيلة فضيلة .

وبعد ذلك يعود الحق إلى قضية عجيبة ، فإذا كان الله سبحانه قد من على المؤمنين بالرسول ، ومن أنفسهم ، وجاء يتلو عليهم آيات الله ، وجاء يزكيهم طهارة ونقاء وغناء ، وجاء ليعلمهم الكتاب والحكمة وهي وضع الشيء في موضعه ، أو البحث عن أسرار الأشياء كان يجب عليكم - إذن - أنه إذا قال قولة لا تحالفوا عنها أبداً ، وعندما يجرى على يديه أمر فهو لا يحتاج إلى مناقشة ، إذن فما حكايكم ؟

يقول الحق :

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْنِهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦٥)

لماذا تقولون : كيف يهزمتنا الكفار ؟ لقد حدث لكم ذلك لأنكم خالفتم الرسول الذي من ربكم به عليكم ، وأناكم ، وزكاكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، كان

مقتضى ذلك أن كل ما يقوله الرسول الذى هو بهذه المواصفات أن تطيعوه ، ولا تقولن أحدكم : لماذا تحدث هذه الهزيمة ؟ ولا تقولن أحد لماذا حكاية أحد وكيف يهزمنا الكفار ؟ إن هذا لا ينسجم مع ما قيل من أن الله من عليكم ويبعث فيكم رسولا ، ثم إن أحدًا ليست مصيبة بادرة ، بل مصيبة جاءت بعدما أصبتم من أفعالكم مصيبة ، ونلتهم منهم ضعف ما نالوا منكم .

فأنتم بدأنتم بيدرو وأعطاكم الله الخير . أنتم قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ، وهم قتلوا سبعين ولم يأسروا أحدًا فى « أحد » ، أنتم أخذتم غنائم فى بدر ، وهم لم يأخذوا أى غنيمة فى أحد ، ما العجبية فى هذه ! ! كان يجب أن تبحثوا فى ذواتكم وفى نفوسكم ، هل كنتم منطقيين مع إيمانكم ومع قيادة الرسول لكم ؟ ! أياكون منكم ذلك السؤال وهو « أنى هذا » ، لأن « أنى » معناها استنكار أن هذا يحدث أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل فى سبيل الله وفيما النبى والوحى وهم مشركون ونقول لكم : وهل كنتم على مستوى الإيمان المطلوب ؟ إن مستوى الإيمان المطلوب يقتضى منكم أن تنفذوا ما قاله الرسول ، وأنتم لم تكونوا على هذا المستوى ، الذى كنتم عليه فى بدر .

وساعة تسمع « أولما » فهناك همزة الاستفهام ثم « واو عطف » ، « أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا » ، « ولما » هنا هى الحينية ، فإذا يكون المعنى ، لقد أمتم بالله إلها وأمتم بالرسول مبلغا ، أحيى نصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها تقولون أنى هذا ؟

كان المنطق ألا تسألوا هذا السؤال أبدا لأنكم أمتم بإله عادل له سنن لا تبدل ولا تتحول . أكان يترك السنن من أجلكم ؟ !

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

(سورة الأحراب)

وفى موقع آخر من القرآن يقول سبحانه :

﴿ وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْلَاهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن يَحْدِلْ  
 سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن يَحْدِلَ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

( من الآية ٤٣ سورة فاطر )

فلو أنكم استحضرتُم الإيمان بالإله الذي أطلق السنن في الكون ليسوس به أمر ملكه بما يحقق أمر المصلحة لما قلتم هذا ومادمتُم قد آمنتُم بأن الإله هو الذي صنع تلك السنن فكان الواجب عليكم أن تعلموا أن الإله لن يهاملكم بإبطال سننه من أجل أنكم نسبتم إليه أولا بأنكم مسلمون ، فإنكم إن خالفتم فسُنن الله واقعة ، وكان يجب أن تفهموا هذا الأمر ، وكان يجب ألا تسألوا هذا السؤال ، وقد آمنتُم بالله إلهاله سنن ، وآمنتُم بالرسول المبلغ عن الله . أحين تصيبكم مصيبة مع هذا الإيمان قد أصبتم مثلها ، تقولون : أنى هذا ؟ أنتم حدث منكم أنكم أصبتم خصومكم ، وباليتم أصبتموهم بمثل ما أصابوكم به بل أنتم أصبتم مثلها ، كان يجب أن تقارنوا : لماذا أصبتم مثلها من قبل ، ولماذا أصبتم الآن ؟ كان يجب أن تعرضوا حملكم على الموازين الإيمانية ، فإن عرضتموه على الموازين الإيمانية لما سألتُم هذا السؤال : « أنى هذا » ..

وساعة تسمع « أنى هذا » فلها معنيان : إما أنها تأتي بمعنى ( كيف يحدث هذا ) ؟ وإما بمعنى ( من أين يحدث هذا ) ؟ فإن كانت لأعيان وتجب أن تعرف ، مثلها أحب سيدنا زكريا أن يعرف : من أين يأتي الرزق لسيدتنا مريم وهي في المحراب :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهِمَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهُمَا رِزْقًا قَالَ يَسْمَرَيْنِ إِنَّ لَكَ هَذَا  
 قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

( من الآية ٣٧ سورة آل عمران )

أى من أين ؟ وثانى مرة أخرى بمعنى « كيف » :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أى كيف يحيى ؟ إذن فمرة تكون بمعنى « من أين » ، ومرة تكون بمعنى « كيف » ، والذين دخلوا معركة أحد كانوا ينكرون ويستعجبون لعدم انتصارهم . . . ف أوضح لهم الحق : لو كنتم مستحضرين قضية الإيمان بالله عادل وضع في كونه سنا وهو لن يغير سنه ولن يحولها من أجلكم أنتم ، إن عليكم أن تعرفوا أن الله لا يتغير من أجل أحد ، ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله .

« أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا » : ود لَمَّا « معنى : حين ، واسمها : « لما الحينية »  
 ود لَمَّا « تكون أيضا من أدوات وهوامل الجزم مثل : لَمَّا « تنفى ، ود لَمَّا « أيضا تنفى مثل  
 قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحجرات)

أى أن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد . إنما من الجائز أنه قد يدخل بعد ذلك ،  
 هذه اسمها « لَمَّا » الجازمة . وهناك « لَمَّا » الشرطية مثل قولنا : لَمَّا يقوم زيد يحدث  
 كذا ، وهذه فيها شرط ، وفيها الزمن. أى حين يقوم يحدث كذا ، مثل قوله الحق :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَدَّيْنَاهُ أَنْ يَتْلُمُ إِبْرَاهِيمَ ۝ قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا ﴾

(سورة الصافات)

أى حين أسلم وتله للجبين ونادينا أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أى نادينا ،  
 والواو هنا مقحمة مثلها في قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم  
 خزنتها » أى قال لهم . ومعنى مقحمة : جىء بها للتوكيد والتقوية . أو جاءت الواو  
 هنا لتفيد أن نداء الله لسيدنا إبراهيم جاء مصاحبا للإلقاء ابنه إسمايل على وجهه  
 ليذبحه .

فـ « لَمَّا » هذه وفي الآية التي نحن بصددناها هي « لما الحينية » ، حين تصيبكم  
 أى : أوقت تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثلها « قلتم أن هذا » كان يجب أن تقارنوا  
 لماذا أصبتم في بدر من عدوكم ضعف ما أصاب منكم ، ولماذا أصاب عدوكم منكم  
 يوم أُحُدٍ هذا ؟ كان يجب أن تسألوا أنفسكم هذا السؤال ، لأن الميزان منصوب  
 وموضوع « ومادمت تغافلتم عن هذا فسيأتى لكم الرد . . قل يا محمد لهم رداً على  
 هذا : « هو من عند أنفسكم » . لقد خالفتم عن أمر الرسول ، ومادمت خالفتم عن  
 أمر الرسول فلا بد أن يحدث هذا بمقتضى إيمانكم بإله له سنن لا تتحول ولا تبدل .  
 « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أن هذا قل هو من عند أنفسكم » .

وبعد ذلك تذييل الآية بقوله سبحانه : « إن الله على كل شيء قدير » .  
 فلما وضعها هنا ؟ موضعها أنه مادامت لله سنن ، وسنن الله لا تبدل ، والله  
 موصوف بالقدرة الفريدة له فلن يأتى إله آخر ويقول : يبطل هذه السنن . ومادام  
 لا يوجد إله آخر يقول ذلك فهو سبحانه قدير على كل شيء ، وهو قدير على أن تظل  
 سننه دائمة ، ولا توجد قوة تزحزح هذه القضية ، لأن السنن وضعها الله . فمن  
 الذى يغيرها ؟ إنها لن تتغير إلا بقوة أعلى ومعاذ الله أن تكون هناك قوة أعلى من قوة  
 الله ؛ لذلك يوضح سبحانه : أنا قدير على كل شيء وقدير على أن أصون سننى في  
 الكون ، فلا تتخلف ولا توجد قوة أخرى تحول هذه السنن أو تبدلها .

ولا تظنوا أن ما أصابكم جاء فقط لأن السنن لا تتغير ، لا ، فهذا قد حدث بإذن  
 من الله ، فالله أوضح للكون : من يخالف أمرى أفعل فيه كذا . إذن فالكون لم  
 يحدث فيه شيء دون علم الله وإذنه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ

وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

أى أنه سبحانه قد جمع المؤمنين وجمع الكافرين فى أحد بإذن منه ويعلمه والنتيجة معروفة عنده ، وأنه سيحدث منكم كذا وكذا ، إذن فهذا أمر معلوم ، أو « بإذن الله » أى فى السنن التى لا تتخلف ، فالمسألة لم تأت بغير علم الله ، لا . لقد جاءت بإذن الله ولا تتخلف - تطبيقاً - عن أحد من خلقه أبداً مهما كانت منزلته .

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان بإذن الله وليعلم المؤمنين » ساعة ترى أمراً أجراه الله ليعلم الذين نافقوا ، وليعلم المؤمنين ، نعرف أن الله عالم بهم قبل أن تقع الأحداث ، ولكن علمه لا يكون حجة على الغير إلا إن حدث منه بالفعل ، لجواز أن يقول : يارب أنت حاسبتنى بعلمك أن هذه سيحدث ، لكن ما كنت لأفعله . فيوضح الحق : لا . أنت قد علمته لأنك فعلته وصار واقعاً منك وتقوم به الحجة عليك .

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - أنت كمعلم تقول لواحد من الطلبة : أنت راسب ، فيقول لك : لا ، لا بد أن أمتحننى . تقول له : أنا أعرف أنك راسب . فيقول لك : أنا لا آخذ بعلمك بل لا بد أن أمتحننى . تقول له : تعال أمتحنك . وتعطيه بعض الأسئلة فيراسب . وهنا يصير علمه بمرسوبه أمراً واقعاً ، وهو كان يعلمه بسبق علم ، لكنه الآن لا يقدر أن يجادل لأنه صار واقعاً محسوساً .

ويقول الحق : « وليعلم المؤمنين » ومنهم الثابت الإيمان الذى لا يترزع ويعلم أنه إذا أصابه مصيبة بما قدم لنفسه ، هذه المصيبة تزيد إيمانه بالله .  
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبَعَنَّاكُمْ هُمُ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ

## يَأْفَوْهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٢٧﴾

وقوله: «وليعلم الذين نافقوا» أى يجعلهم يظهرون وينكشفون أمام الناس، وإلا لو لم تحدث هذه الأحداث فكيف كنت تعرف المنافق؟ سيستر نفسه. لابد إذن أن تاق أحداث لتظهره ونفضحه، فالمنافق يراوغ؛ لذلك يأتيه الحق بأحداث ليظهر على حقيقته، وقد كان.

«وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا».. وكانت المدينة مهاجمة، وإذا انتصر الكفار فسيدخلون ويشبّون ويأخذون المسلمين أسرى ويفعلون كل منكر!! فقال عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصارى للمنافقين: اخرجوا وقاتلوا معنا، وإن لم تخرجوا لتقاتلوا معنا.. اخرجوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن أموالكم وعن نسائكم، لأنهم إذا انتصروا على المسلمين فسيدخلون ويفعلون كذا وكذا، إنه دعاهم إلى القتال على طريق إثارة الحمية والأنفة فيهم وذلك بعد أن يش من أنهم لم يقاتلوا في سبيل الله، ولما رأى اصرارهم على عدم الخروج قال لهم عبدالله: اذهبوا أعداء الله فسيغنى الله رسوله عنكم.

إذن ففيه فرق بين القتال في سبيل الله وبين الدفاع عن النفس فقال: «قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا».. أو ادفعوا هنا ولو بتكثير سوادنا وإظهار كثرتنا حتى يظن المشركون أن معنا أناسا كثيرين. «قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم».. وعندما نتابع هذا المنطق في القصة في ذاتها نجد أن «ابن أبي» كان من رآيه أن يظل رسول الله في المدينة لماذا؟ لأنه قد ثبت بالتجربة أنه إذا جاء قوم ليغيروا على المدينة ودخلوها فأهل المدينة ينتصرون عليهم، وإذا خرج لهم أهل المدينة فهم ينهزمون.

إذن فالقضية واضحة في ذهن ابن أبي، فهو لم يرض أن يخرج لأن التجارب أثبتت له أنهم إذا خرجوا عن المدينة ليحاربوا العدو فعدوهم ينتصر عليهم، وإذا ظلوا انتصروا، إذن فهو واثق من نتيجة الخروج، ولكن مادامت المسألة قد صدرت من رأس النفاق عبدالله بن أبي فانت لا تستطيع أن تحكم أين الحق، فمن الجائز أن آثار



يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة هذه الآثار كانت باقية في نفس « ابن أبي » ففي ذلك اليوم الذي جاء فيه الرسول إلى المدينة كان هو اليوم الذي كان سيتوج فيه المنافق « ابن أبي » ليكون ملكاً على المدينة ، فلما جاء الرسول بهذا الحدث الكبير تغير الوضع وصار التاج من غير رأس نلبسه ، فهذه قد حملها في نفسه .

« قالوا لو نعلم قتلاً لا تبعناكم » لقد ادعى ابن أبي أن الخروج من المدينة هو كإلقائه إلى التهلكة وليس قتلاً ؛ لأن القتال تدخله وعندك مظنة أن تنتصر ، إنما هذا إلقاء إلى تهلكة وليس قتلاً ، لكن أقال : « لو نعلم قتلاً لا تبعناكم » وهو صادق ؟

إن الحق يفضحهم : « هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان » ، فقبل ذلك كانوا في نفاق مستور ، ومادام النفاق مستوراً فاللسان يقول والقلب ينكر ويجهل ، فهم مذبذبون بين ذلك ؛ لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، هذه المسألة جعلته قريباً من الكفر الظاهر .

« يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » . . إذن فالقلب عمله النية الإيمانية ، واللسان قد يقول ولا يفعل ما يقول ، ولذلك قلنا : إن المنافق موزع النفس ، موزع الملكات ، يقول بلسانه كلاماً وقلبه فيه إنكار ، ولذلك سيكونون في الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم غشاشون ، ونفوسهم موزعة .

« يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » والقول ضروري بالفهم ؛ لأن القول يُطلق ويراد به البيان عما في النفس ، فتوضيح الإنسان لما في نفسه كتابة ، يعتبر قولاً - لغة - ولذلك فالذي يستحي من واحد أن يقول له كلاماً فهو يكتبه له في ورقة ، فساعة يكتب يكون قد قال ، وهؤلاء المنافقون يقولون كلماتهم لا بوساطة كتاب بل بوساطة أفواههم وهذا تبجح في النفاق ، فلو كانوا يستحيون لهمسوا به : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » إذن فاللسان لم يتفق مع القلب . فالقلب منعقد ومصر على الكفر - والعياذ بالله - واللسان يتبجح ويعلم الإيمان .

ونعرف أن « الصديق » هو أن يوافق القول الواقع ، والواقع في القضية الإيمانية نية في القلب وحركة تثبت الإيمان ، أما المنافقون فلسانهم لا يوافق قلبهم ، فلما كان ما في القلب مستورا ثم ظهر إلى الجوارح انكشفوا . وهذا هو السبب في أنهم كانوا أقرب إلى الكفر . « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » وهذا لون من نقص التصور الإيماني في القلب ، كأنهم يعاملون الله كما يعاملون البشر مثلهم .  
وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِلْإِخْوَانِ قَعِدُوا لَوَ أَطَاعُونَا مَا قَتَلُوا قُلَّ فَأَدَرَهُ وَأَعَنَ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

فعندما أراد ابن أبي أن يخذل الجيش ، وافقه بعض المنافقين ولم يوافقهم البعض . هؤلاء الذين خرجوا للقتال والجهاد ولم يوافقوهم ثم قتلوا فرحوا فيهم ، وقالوا : لو كانوا أطاعونا ومكثوا في المدينة لم يخرجوا لما انهزموا ولما قتلوا ، وكان الحق يوضح لنا أسلوبهم ؛ لذلك سناخذهم من منطقهم . . هم قعدوا وقالوا عن إخوانهم الذين قتلوا في المعركة والذين هم من جماعتهم : « لو أطاعونا » كأن قولا صدر منهم : « أن افعدوا » ولكن القوم الآخرين الذين هم أقل نقاشا . لم يطاوعوهم وخرجوا ، فحدث لهم ما حدث .

فكيف يرد الله على هذه ؟ انظروا إلى الرد الجميل : أنتم تقولون : « لو أطاعونا » ، فكان طاعتكم كانت وسيلة لسلامتهم من القتل . إذن فأنتم تعرفون طريق السلامة من القتل . والذي يعرف طريق السلامة من القتل هل يعرف طريق السلامة من الموت ؟ ولذلك يقول الحق سخرية بهم : « فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » وفي ذلك رد عليهم من كلامهم « لو أطاعونا ما قتلوا »

ومادمت تعرفون وسيلة للسلامة من القتل فاستعملوا هذه الوسيلة في أن تدفعوا عن أنفسكم الموت . وأنتم مع المتقدمين منكم والحاضرين تموتون ولا تستطيعون رد الموت عنكم ، إذن فأنتم لا تعرفون طريق السلامة من الموت ؛ فكم من محارب عاد من الحرب سليماً ، وكم من حارب من القتال قد مات وانتهى ، وهب أن بعضاً من المؤمنين المقاتلين قد قتل ، إن الذي قتل في المعركة ليس أهون على الله ممن سلم من المعركة ، هؤلاء أحب إلى الله وقد عجل الله لقاءهم وأنزلهم المنزل المقرب عنده .

ونعرف أن الحدث إنما يُحمد ويُلم بالنسبة للغاية منه ، فكل حدث يُقربك من الغاية يكون محموداً ، وكل حدث يُبعدك عن الغاية يكون غير محمود ، فإذا كانت الغاية أن تذهب إلى الاسكندرية مثلاً ، فقد تذهب إليها ماشياً فتحتاج إلى عدة أيام ، وقد تذهب إليها راكباً دابة فتحتاج إلى زمن أقل ، أو تذهب إليها راكباً عرباً فيقل الزمن لساعات ، أو تذهب إليها راكباً طائرة فتصلها في نصف الساعة ، فكلما كانت الوسيلة قوية كان الزمن قليلاً ، لأننا نعلم أن القوة الفاعلة في النقلة تتناسب مع الزمن تناسباً عكسياً . وكلما زادت القوة قل الزمن ، ومادامت غاييتي أن أذهب إلى الاسكندرية . فالذي يُعجل لي الزمن ويقلله لأذهب إليها أفضل أم لا ؟ إنها الوسيلة الأفضل .

فمادامت الغاية أن تذهب إلى لقاء الله وأن تمشي في جواره ومعيته ، فحين يُعجل الله ببعضنا فيأخذهم من أقصر طريق فهذا أفضل بالنسبة لهم أم لا ؟ هذا أفضل ، وهكذا نرى أن الناس تنظر للموت نظرة حقاء ، إن موت المؤمن الحق الصادق الإيمان إنما يقربه إلى الغاية ، فما الذي يُحزنني !

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْ مَوْتَهُمْ بَل

أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

أنتم تخافون الموت ، ولكن هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله ليسوا بميتين ، لأن حياتهم حياة موصولة ؛  
إن هناك فارقا كبيرا بين الموت والشهادة ، فالذى يقتل شهيدا تكون حياته موصولة ، ولن يمر بفترة موتنا نحن ، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم ، أى بقانونه سبحانه ، فلا تخفكم قانونك أنت ، فانت - كما قلت - لو فتحت القبر ستجد هؤلاء القتلى مجرد أشلاء . هم عندك أشلاء وأموات في قانونك أنت . لكنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

فالحياة تختلف عن الموت في ماذا ؟ إن الإنسان إذا زهقت روحه وفارقت جسده انقطعت حياته ، في ظاهر الأمر انتهى ولم يعد ينتفع برزق ولا بأكل ، لأن الرزق يجعل لاستبقاء الحياة ، ومادام الرزق قد صُنِعَ لاستبقاء الحياة وليس فيه حياة إذن فلا رزق ، لكن الله سبحانه يهد أن يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حي . ومن ضروريات الحياة أنه يرزق أى ينتفع باستبقاء الحياة ، وعلينا أن نفهم أن العندية عندك غير العندية عند الله . فالشهيد حي عند ربه ويرزق عند ربه رزقا يناسب الحياة التى أرادها له ربه . ونعلم أن الرزق هو الخاصية التى توجد للأحياء . وعندما نقرأ قول الله : « أحياء عند ربهم يرزقون » قد يقول قائل : من الجائز أنك تأخذ إنسانا وتُبقّيه حيا وتعطيه طعاما وشرابا لكن أهو فرح بموقعه ؟ لا . لذلك يجب أن ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست في قبره ولكنها عند ربه وهو فرح بموقعه لذلك يقول الحق :

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ  
بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا  
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٧٠)

والعدل يتحقق بين البشر بأن كلا منهم يموت . ولكن الفضل أن يجعل الله انقضاء الحياة في الدنيا لمن يحبهم بالاستشهاد وينقلهم إلى رضوانه ونعيمه « فرحين بما آتاهم الله من

فضله « وليس هذا فقط ، بل إننا نجد الأخوة الإيمانية قد بقيت فيهم وليست كخاصية الأحياء بل أنقى وأبقى من خاصية الأحياء ، فالخاصية الإيمانية تقتضي أن يُحب المؤمن لأخيه ما يُحب لنفسه ، والشهداء في حياتهم عند ربهم كذلك ، مما يدل على أن الحياة التي يحياها الشهداء هي حياة نامية فيها رزق ومواجد وفرح ، وكل شهيد يعتبر أن هذا فضل من الله قد فضله به . ولذلك فالشهيد يستبشر بالذي لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين ويقول : يا ليتهم يأتون ليروا ما نراه .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » : « ويستبشرون » من البشرى ، والبشرى هي الخبر السار « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » ويلحقوا أى يأتوا بعدهم ، فالشهداء يقولون : إنهم سيأتون لنا وماداموا سيأتون لنا فنحن نُحب أن يكونوا معنا في النعيم والخير الذي نحيا فيه . وكل منهم يشمر بالمحبة لأخيه ، لأنه يعلم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحبه لنفسه » . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى فتاديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن فضلهم قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهّدوا في الجهاد ولا يتركوا من الحرب . فقال الله - عز وجل - : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هذه الآيات : « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » وما بعدها<sup>(١)</sup> .

ونعرف أن « البشر » عادة هو الفرحة ، وهي تبدو على بشرة الإنسان ، فساعة يكون الإنسان فرحاً ، فالفرحة تظهر وتشرق في وجهه ولذلك نسميها « البشارة » ، لأنها تصنع في وجه البشر شيئاً من الفرح مما يعطيه بريقاً ولعناً وجاذبية .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى أن الذين خلفوا عن الشهادة لا خوف عليهم ، فهؤلاء الذين لم يستشهدوا بعد قد يخوضون معركة ما ، فيقول الحق على لسان الشهداء لكل منهم : لا تخف لأنك ستذهب لخير في الحياة « ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١)

إن الحق سبحانه لا يضيع أجر هؤلاء الذين قاتلوا في سبيل الله ، وها هو ذا سبحانه وتعالى يقول :

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (١٧٢)

انظر إلى المنزلة العالية كي تعلم أن الهزة التي حدثت في أحد أعادت ترتيب الفرات الإيمانية في نفوس المؤمنين . ولذلك أراد الله ألا يطول أمد الغم على من ندموا بسبب ما وقع منهم ، وألا يطول أمد الكفار الذين فرحوا بما ألحق بالمؤمنين من الضرر في المعركة الأخيرة ، هؤلاء المشركون فرحون ، وهؤلاء المسلمون في حزن ، لأننا قلنا : ماداموا مسلمين ومؤمنين فلهم حق ، وإن قصرُوا فعليهم عقوبة ، وسبحانه قد أنزل بهم العقوبة لكن بقي لإسلامهم حق على الله ، لأنه أجرى تلك الأقدار ليُهذب ويحص ويؤبر ، فلا يطيل أمد الغم على المؤمنين ولا يمد الفرحة للكافرين . فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم والحالة كما تعلمون هكذا ، ويؤذن مؤذنه صلى الله عليه وسلم في الناس يطلب قريش قائلا : « لا يخرجن معنا إلا من حضر معنا القتال » .

ويخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم بعدد لا يزيد على عدد المقاتلين الذين كانوا يواجهونهم حتى لا يقال إنهم جاءوا بمجدد إضافي ، بل بالعكس ، فالذين خرجوا لمطاردة الكفار هم الذين بقوا مع الرسول في أحد ، ونقص منهم من قُتل ونقص منهم أيضا كل من أثقلته جراحه . لقد كانوا أقل من كانوا في المعركة ، وكان الله يريد أن يبين لنا أن التمحيص قد أدى مطلوبه .

هم في هذه الحالة استجابوا للرسول ، كان المسألة جاءت رد اعتبار لمن شهدوا المعركة ، حتى لا يضعفوا أمام نفوسهم ؛ وحتى لا يجعلوها زلة تطاردتهم ونلاحقهم في تاريخهم الطويل ، بل يعلمون أن معركة أحد قد انتهت وعرفوا آثارها .

وبمجرد أن أذن مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بالنداء السابق استجابوا جميعا ، ولم يُسمع إلا لجابر بن عبد الله أن يكون إضافة لهم ؛ لأنه أبدى العذر في أنه لم يكن مع القوم ؛ لأن له أخوات سبعة من البنات وأمره أبوه أن يمكث مع أخواته لرعايتهن ، فسمح له رسول الله .

- وكما قلنا - فإن الله أراد بكل أحداث أحد أن يُعيد ترتيب الذرات الإيمانية ، ومادامت الذرات الإيمانية قد انتظمت فقد تم إصلاح جهاز الاستقبال عن الله ، وفي لحظة واحدة يستجيبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أنهم يلاحقون الكفار ، وذهبوا إلى حمراء الأسد وكان ما كان . وبعد ذلك أرسل الله لهم من جنوده من يُنْذِلُ هؤلاء القوم الكافرين ، ويقول لهم : إن عمدا قد خرج إليكم بجيش كبير .

ونلاحظ أن الحق سبحانه يبيّن هنا بقوله : « الذين استجابوا » وهي تقابل « من خالفوا » أمر رسول الله وهم الرماة ، « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح » .

لقد استجابوا وهم مُرهقون ومُتألون ومشغولون بالجراح ، فكل واحد منهم قد ناله

نصيب من إرهاب القتال ، ومع ذلك استجابوا لله وللرسول ، وكل منهم أصابه  
الفرح أو الفرح . . . يعني الألم أو الجرح ، « من بعد ما أصابهم الفرح للذين أحسنوا  
منهم واتقوا أجر عظيم » وهم قد أحسنوا في الاستجابة ؛ لذلك فلهم الأجر  
العظيم ، « أجر عظيم » لأن ما حدث منهم من أمر المخالفة قد أخذوا عليه  
العقوبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا  
لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ  
وَيَعْمَلُ الْوَكَيلُ ﴾

المسألة ليست ذلك فقط ، المسألة أن المنافقين راحوا يُروجون إشاعات كاذبة بأن  
المشركين قد استدعوا عددا جديدا من كفار مكة وذلك ليخيفوا المؤمنين ، فلم يخف  
مؤمن واحد « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » وساعة ترى  
كلمة « الناس » فاعرف أن الإيمان بعيد عنها ، وما داموا « أناسا » فهم يقابلون أناسا  
آخرين ، ومن يغلب فهو يغلب بجهده وشطارته وحسن تصرفه ، لكن المؤمن يقابل  
الكافر ، والمؤمن يتلقى المدد من ربه .

قيل : إن الشيطان قد يتمثل على هيئة حشد من الناس ليرهب المؤمنين ،  
والشيطان من عالم الجن ، وعالم الجن يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، وقد  
أعطاه الله القدرة على أن يتشكل بما يحب . فله أن يتشكل في إنسان ، في حيوان ، أو  
كما يريد ، ولكن إذا تشكل فالصورة تحكمه لأنه ارتضى أن يخرج عن واقعه ليتشكل  
بهية أخرى ، فإذا ما تشكل على هيئة إنسان ، ففانون الإنسان يسرى عليه ، بحيث



إن كان معك مسدس أو سيف أو خنجر وتمكنت منه وطعته بموت . وهذا هو ما رحنا من تخويفهم لنا .

ولذلك تجد أن الشيطان يظهر لمحة خاطفة ثم يختفي ، لأنه يخاف أن يكون الإنسان الذي أمامه واعيا بأن الصورة تحكمه ، فعندما يتمثل لك بأى شكل تخنقه فيُخنق ، لذلك يخاف من الإنسان ، فلا يظهر إلا في لمحات خاطفة .

ويمكن أن نفهم أيضا قول الحق : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » أن هناك بعضا من الكفار أشاعوا أن أباسفيان وصحبه قد حشدوا حشودهم ، فكلمة « جمعوا » تعطى إجماع بأنهم جاءوا بمقاتلين آخرين ، أو أن فلولهم قد تجمعت ، وسواء هذا أو ذاك فهم عندما فروا فروا فلولاً ، لأن القوم المنهزمين لا يسرون سيرا منتظما يجمعهم ، بل يسير كل واحد منهم حسب سرعته ، ويصح أن يتجمعوا ثانية ، أو جاءوا بناس آخرين ، ولنا أن نلاحظ أن الأسلوب يحتمل كل ذلك .

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » ومثل هذا القول قد يفت في عهد المؤمنين ، لكن التمهيص بالإيمان قد صقل معسكر الإيمان فلم يهتموا بهذا الكلام ، وهكذا أثمر الدرس الأول ، لقد تعلموا أن المخالفة عن أمر الله الممثل في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد المخالفة تجعل الضعيف يسرى في النفس ، لكن الثبوت والتمسك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم يعزز الإحساس بالقوة ، لذلك لم يابهوا لهذا التهديد بل قالوا : إن العدد هذا ليس فينا ، لأننا نعتمد على الله وحسن الإيمان ، إنهم قالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » فلم يهتموا بالعدد وفهموا أن الإيمان يقتضى أن يقاتلوا الكافرين حتى يُعذبهم الله بأيديهم ، وفي هذا درس لكل محارب ، فعندما تحارب ، فأنت إما أن تكون منصورا بإيمانك بالله وإما أن تكون على عكس ذلك :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾

لقد فطنوا إلى أنفسهم ، وتغير الترتيب الإيمان في أصاقيهم ، ونلمس ذلك في أن بعضا من الناس جاءوا يصدونهم ويخذلونهم ، فلم يستطيعوا بل زادهم هذا القول إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، ، لقد فطنوا إلى أن قوة الله هي التي تنصرهم والله حسبهم وكافهم عن أي عدد من الأعداد وهو نعم الوكيل ، ومعنى « الوكيل » أنى عندما أعجز عن أمر أو كُِّل أحدا فهو وكيل عني ، وعندما نوكل الله فيما عجزنا عنه فهو نعم الوكيل ، لماذا ؟ وتأتينا الإجابة : « فانقلبوا بنعمة من الله ، ، ولقد نصروا بالرعب الذي أنزله الله في قلوب أعدائهم ولم يشبكو مع الكفار ، فصديق قول الله :

﴿ سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

ويأتى الحق من بعد ذلك بما يصدق القضية :

فَانْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّٰهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهٖمْ  
سُوٓءٌ وَّاَتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ ذُو فَضْلٍ  
عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

وهذه القضية يجب أن يستشعرها كل مؤمن بتعرض لتمحيص الحق له ، وعلى كل مسلم أن يتذكر تلك تجربة ، تجربة أحد ، قليلة واحدة كانت هي الفارق بين يوم معركة أحد ويوم الخروج لملاحقة الكفار في حمراء الأسد ، ليلة واحدة كانت في حضانة الله وفي ذكر لتجربة التمحيص التي مر بها المؤمنون إنما قد فعلت العجب ؛ لأنهم حينما طاردوا الكفار ، لم يأبها لمحاولات الحرب النفسية التي شنّها عليهم الأعداء ، بل زادهم ذلك إيمانا وقالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

إذن فقد تجردوا من نفوسهم ومن حولهم ومن قوتهم ومن عددهم ومن أى شيء إلا أن يقولوا : الله كافينا وهو نعم الوكيل لمن عجز عن إدراك بغيته . لقد عرفوا الأمر المهم ، وهو أن يكون كل منهم دائماً في حضانه ربه ، وقد أخذ صحابة رسول الله وآل بيت رسول الله هذه الجرعة الإيمانية واستنبطوا منها الكثير في حل قضاياهم .

وقول الله سبحانه : « حسبنا الله ونعم الوكيل » يذكّرنا بالإمام جعفر الصادق ابن سيدى محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين وكان من أئمة الناس بالقرآن ، وكان من أعلمهم في استنباط أسرار الله في القرآن ، إنه كان يجد في قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » استنباطاً رائعاً ، فهو يتعجب لأى إنسان أدركه الخوف من أى شيء يخيف ، والإنسان لا يخاف إلا أمراً يتقضى عليه رتبة راحته ، ويقلقه ويهدده في سلامه وأمنه وأطمئنانه ، ويكون لهذا الخوف مصدر معلوم ، فإذا ما تعرض المؤمن لمثل هذا الخوف فعليه أن يتذكر قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » لأنها قضية نفعت الجيش كله في معركته مع الكفار ، فحين يأخذ الفرد هذه الجرعة فهو يستعيد رباطة الجأش . واشتداد القلب فلا يفر عند الفزع .

وينبها سيدنا جعفر الصادق إلى هذه القضية لنفزع إليها عند كل ما ينجينا فيقول : عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله : « حسبنا الله ونعم الوكيل » إنه ينظرته الإيمانية يتعجب لإنسان أدركه الخوف ثم لا يفزع إلى هذا القول الكريم « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ثم يستنبط بإشراقاته سر هذا فيقول : لأن سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء » وانظروا إلى قول سيدنا جعفر الصادق : « فإن سمعت الله بعقبها » هو قرأ بنفسية المؤمن الصادق ، فالمؤمن حين يقرأ كلام الله إنما يستحضر أنه يسمع الله يتكلم إنه يقول : فإن سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء » ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢١)

( سورة الأعراف )

فانت حين تستمع إلى القرآن فالله هو الذى يتكلم ، ومن العيب أن يتكلم ربك

في أذنك ثم تشغل عنه وهو ربك ، إذن فعلاج الخوف هو أن تقول من قلبك : « حسبنا الله ونعم الوكيل » وأن تقولها بحقها ، فإن قلتها بحقها كفاك الله شر ذلك الخوف ، لأن الله يقول بعد « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » انظر إلى النعمة والفضل ، إنها من الله وقد نصيبك النعمة والفضل ولكن تقدر ذلك في آخريات الأمور ، فأوضح الله أن النعمة زادت في أنها غنمة باردة ، ولم يحدث فيها أن مسنا سوء ، إن ذلك هو قمة العطاء ورأسه وسنامه ، فإذا قدرته في آخريات الأمور فقد أخطأت التقدير « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ونتيجة لتلك التجربة النافعة هي أن « اتبعوا رضوان الله » ، وقد نجحت التجربة مع المؤمنين .

ويقول الإمام جعفر الصادق ليكمل العلاج لجوانب النفس البشرية ، ويصف الدواء . فالنفس البشرية يفرعها ويقلقها ويجعلها مضطربة أن تخاف شراً يقع عليها ، وعلاج هذا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ويضيف : وعجبت لمن اغتم ولم يفرع إلى قول الحق سبحانه :

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

( من الآية ٨٧ سورة الأنبياء )

وه الغم ، قلق في النفس ، ولكنك لا تدرك أسبابه ، فأسبابه معقدة ، صدر يضيئ ، ولذلك تقول : أنا صدري ضيق ، أنا متعب ولا أدري لماذا ؟ أى لم يربك الآن أشياء تستوجب هذا ، إنما قد تكون حصيلة تفاعلات لأحداث وأمور أنت لا تتذكرها الآن ، هذا اسمه « غم » ، فإذا ما فرغ العبد إلى قول الحق سبحانه : « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » فالعبد يقر بذنبه ويقول : هذا الغم لم يأتني إلا لأنني خرجت عن المنهج ، ويذكرنا سيدنا جعفر الصادق بأنه سمع بعدها قول الله :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُخَيِّضُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

( سورة الأنبياء )

والذي قال ذلك هو سيدنا يونس « فاستجبنا له ونجيناه من الغم » .

وهذه الاستجابة من الله ليست خاصة كانت ليونس عليه السلام ، لأنه سبحانه قال : « وكذلك ننجي المؤمنين ، أى أنه باب واسع أدخل الله فيه كل المؤمنين ، ويضيف سيدنا جعفر الصادق : وعجبت لمن مكر به ولم يفرغ إلى قول الله :

﴿ وَأَقْرَضُ أَتْرَفِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة غافر)

فإن سمعت الله بعقبها يقول : « فوفاه الله سيئات ما مكروا » .

ومكر به معناها يت له الشر بحيث يخفى ، لأن المكر هو : تبييت من خصمك لشر يصيبك ، بينما أنت تقف بجانب الحق ، فيكون هذا المكر شراً يبيت خيراً وحق ، وهذا هو المكر السيء ، ويقابله مكر حسن ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إذن فهناك مكر ليس بسيء ، كان يبيت صاحب الحق لصاحب الشر . تبييتا يخفى عليه ، هذا اسمه مكر خير ، لأنه محاربة لشر ، ولذلك يوضح لنا الله هذا الأمر : افطنوا إلى هذه ، فإن كانوا يمحرون ويبيتون ، فهم إن يبتوا على الخلق جميعاً لا يبيتون على الله لأنه سبحانه العليم ، الخالق ، المربى ، وإن يبيت الله لهم فلن يستطيعوا كشف هذا التبييت ، إذن فالله خير الماكرين ، لأن تبييتهم مكشوف أمام الخالق ، لذلك فهو مكر ضعيف ، أما المكر الحقيقي فهو الذي لا توجد وسيلة تعرفه بها .

ونواصل مع سيدنا جعفر الصادق قوله في علاج النفس البشرية فيقول : وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفرغ إلى قول الله :

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الكهف)

فإن سمعت الله يعقبها بقوله :

﴿ إِن تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ فَسَعَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

واستنبط سيدنا جعفر الصادق ذلك من حكاية صاحب الجنة :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ فَسَعَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ ﴾

(سورة الكهف)

إنك حين تقول: « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فإن الدنيا تأتيك مهولة ، لأنك جرّدت نفسك من حولك ، ومن قوة حيلتك وأسبابك ، وتركت الأمر لله سبحانه وتعالى القادر على كل عطاء .

إذن فالجوانب البشرية في النفس : هي خوف له علاج ووصفة ، وهم له علاج ووصفة ، ومكر بك له علاج ووصفة ، وطلب دنيا وسعادة لها علاج ووصفة ، والوصفة التي نحن بصلدها هنا : « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء » .

والنعمة أن يعطيك الله على قدر عملك ، والفضل من الله هو أن يزيدك عطاء ، ولم يمس السوء أحداً من المؤمنين الذين طاردوا المقاتلين من قريش ، وكان من نتيجة ذلك أنهم جمعوا بين كل ما وهبه الله لهم ؛ من نعمة وفضل مع اتباعهم رضوان الله ؛ فقد صارت المسألة بالنسبة لهم تجربة محنة وتجربة « واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

لقد حاول المنافقون أن يشبطوا المؤمنين عن لقاء كفّار قريش ، فيريد الحق أن يكشفهم ، ويظهر الدافع إلى مثل ذلك الموقف من المنافقين ؛ لذلك قالوا للمؤمنين : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم »

ويظهر الله للمؤمنين حقيقة موقف المنافقين :

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ۚ فَلَا تَخَافُوهُمْ  
وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧٥)

إنها صرخة الشيطان الذي يخوف أوليائه ، ويصح أن يصرخ الشيطان صرخته وهو يتمثل في صورة بشر ، ويصح أن يتزعج الشيطان بصرخته لواحد من البشر فيصرخ هذا الإنسان يتزعج الشيطان له « إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه » .

وعندما نقرأ القرآن بدقة صفائية إيمانية فلا بد أن نفهم عن القرآن بعمق ، فمن هم أولياء الشيطان ؟ أولياء الشيطان في هذا الموقف ، إما كفار قريش ، وإما المنافقون أو هما معا . وه أولياؤه هم أحبابه الذين ينصرون فكرته .

كان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يُبَلِّغنا : إنما ذلكم الشيطان الذي قال: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، هذا الشيطان إنما يخوف أوليائه .

وللوهلة الأولى نجد أن الشيطان مُفترض فيه أن يخوف أعداءه . ونحن هنا أمام شيطان يتزعج بعبارة التخويف ، فمن الذي يخاف ويمن بخاف ؟

المفروض أن يُخيف الشيطان أعداءه ، هذا هو المنطق .

فنحن في حياتنا العادية نقول : خوّفت فلاناً من فلان ، أو خوّفت فلاناً فلاناً . إذن فالشيطان يحاول هنا أن ينسلط على المؤمنين ويخوفهم من أوليائه الكفار والمنافقين ، ونعرف في اللغة أن هناك في بعض المواقف يمكننا أن نحذف حرف الجر ونصل الجملة ، ونُسَمِّيه « مفعولاً به » . مثال ذلك قول الحق :

﴿ وَاخْتَارَ مُومِنٍ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾

فموسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً .

وعلى ذلك نقرأ قول الحق : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه » ونفهم منها : أن ذلكم الشيطان يخوفكم أنتم من أوليائه ، لأن حرف الجر في الآية الكريمة محذوف ، ومعاضد هذا ويقويه قراءة ابن عباس وابن مسعود : يخوفكم أولياءه ، وينبه الحق المؤمنين ألا يخافوا من أولياء الشيطان فيقول : « فلا تخافوهم » .

وهذا يوضح لنا أن الشيطان إنما أراد أن يخوف المؤمنين من أوليائه وهم المنافقون والكافرون . وبعض المفسرين قال : « يخوف أولياءه » المقصود بهم أن الشيطان يخوف أولياءه حتى ينجسوا من القتال ، فنزع فيهم أنهم إن خرجوا للقتال فقد يموتون . ولكن إن جاز ذلك القول على المنافقين الذين لم يخرجوا مع الرسول لملاقاة المشركين فكيف يجوز ذلك على الصنف الثاني من أوليائه وهم الكفار ؟ إن الكفار قد خرجوا فعلاً لقتال المؤمنين . ونفهم من قول الحق : « فلا تخافوهم وخافون » أن أولياء الشيطان ليسوا هم الخائفين ولكنهم هم المخوفون : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

فالحق سبحانه يطلب من المؤمنين أن يصنعوا معادلة ومقارنة ، أ يخافون أولياء الشيطان ، أم يخافون الله ؟ ولا بد أن يصلوا إلى الخوف من الله القادر على دحر أولياء الشيطان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنِ يُضْرُّوا ۗ اللَّهُ شَيْءًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا ۗ فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٦)



لقد كان المنافقون في أول المعركة مُحْتَفِينَ ومُسْتَوْرِينَ ، ثم ظهرت منهم بادرة الانخدال في أحد فكانوا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ، ولكنهم من بعد ذلك سارعوا إلى الكفر ، كأن هناك من يلاحقهم بسوط ليتسابقوا إلى الكفر .

وما هو ذا الحق سبحانه قد حدّد عناصر المعركة ، أو قوى المعركة ، أو ميدان المعركة أو جنود المعركة ، فينبه رسوله : « ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » ولم يقل : « لن يضروكم شيئا » لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته المؤمنين ليسوا طرفاً في المسألة ، فعداء الذين يسارعون في الكفر هو عداء الله ؛ لذلك يقول الحق : « إنهم لن يضروا الله شيئا » . كأن المعركة ليست مع المؤمنين . ولكنها معركة الكافرين مع الله ، وما دامت المعركة مع الله فالمؤمنون جنّد الله ؛ وهم الصورة التي أرادها الله لهزيمة الكافرين :

﴿ قَتَلُوهُمْ يَعَذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيُنْصِرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِى سُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١١)

(سورة التوبة)

فلو كانت معركة الكفر مع المؤمنين بالله فقط لقال الله : « ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر » إنهم لن يضروكم شيئا ، لكن المسألة ليست هكذا ، لقد أراد معسكر الكفر والنفاق أن يدخل معركة مع الله ، ولا توجد قوة قادرة على ذلك ، ولهذا يطمئن الله المؤمنين أكثر ، ليزدادوا ثباتاً على الإيمان ؛ لأن الكل من البشر مؤمنين وكفاراً أغيار ، وقد يتحول بعض من البشر المؤمنين الأغيار عن المنهج قليلاً ، فعندما تكون المعركة بين بشر وبشر فقد يغلب أحد الطرفين بقوته .

ومن أجل المزيد من الاطمئنان الكامل نقل الله المعركة مع الكفر إلى مسألة أخرى ، إنه بجلاله وكماله وجبروته هو الذى يقف ضد معسكر الكفار . والمهم فقط أن يظل المؤمنون في حضانة الله . والرسول كان يحزنه أن يسارع البعض إلى الكفر . فهل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم أنه إنما جاء مُبْلِغاً فقط ؟ . إنه يعلم ولكنه كان يحرس - صلى الله عليه وسلم - على أن يؤمن الناس جميعاً ليدوقوا حلاوة ما جاء به ، هذا الحرس هو الذى يدفع الحزن إلى قلب الرسول ، وعندما يرى

واحداً لا يتلوق حلاوة المنهج ، فالرسول يأمل أن يلوق الناس كلهم حلاوة الإيمان ، لأنه صلى الله عليه وسلم رموف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعاً ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ، ودليل ذلك أن جاءه التخيير .

فقد نادى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما رقبوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فتداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال : يا محمد ، إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشيش ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » (١)

فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يبقى على هؤلاء فقط ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة . وقد كان . وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما أخبر الله في آيات القرآن - يحزن عندما لا يلوق أحد حلاوة الإيمان ، يقول الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَمِيعَةِ نَفْسِكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَا يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝١١ ﴾

(سورة الكهف)

وفي موقع آخر يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَمِيعَةِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝١٢ إِنْ أُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ

ءَالَةٌ فَظَلَّ أَتَقْنُفُهُمْ مَا خَلِصِينَ ۝١٣ ﴾

(سورة الشعراء)

والحق سبحانه وتعالى لا يريد اعتناقاً ، لكنه يريد قلوباً تاتي له بعامل الاختيار والمحبة ، فباستطاعته وهو الخالق الأكرم أن يخلق البشر على هيئة غير قابلة للمعصية ، كما خلق الملائكة ، إن كل الأجناس تسبح بحمده ، إذن فالقرآن يبين جرسه صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن الناس جميعاً وأن يلوقوا حلاوة اللقاء بربه ،

وَاتَّبَاعِ مَنِجِ اللَّهِ ، وَحِلَاوَةِ التَّشْرِيعِ الَّذِي يُسَعِّدُهُمْ وَيُسَعِّدُ كُلَّ مَلَائِكَتِهِمْ . فَإِذَا مَا جَاءَتْ الْمَسَائِلُ عَلَى غَيْرِ مَا يُجِبُّ رَسُولُ اللَّهِ . فَهَا هُوَ ذَا قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ :  
« وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » .

وهذا دليل على أن الله يريد أن يُبَلِّغَ البشر : أيها الناس إن من قُرْطِ حُبِّ الرُّسُولِ لَكُمْ أَنَّهُ يَحْزَنُ مِنْ أَجْلِ عَصِيَانَتِكُمْ وَأَنَا الَّذِي أَقُولُ لَهُ : لَا تَحْزَنْ . وَالرُّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِيمٌ بِالْأُمَّةِ كَأَمَّا ، كَمَا يَقُولُ الْقُرْآنُ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢١٠)

(سورة الأنبياء)

ويكفيه موقفه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، حين تذهب كل أمة إلى رسولها ليوقها ، فتأتي الأمم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيُكرمهم الله بقبول شفاعته حتى يُعْجَلَ اللَّهُ بِالفَصْلِ والحِسَابِ ، وهذه رحمة للعالمين ، لأنهم من هول الموقف يتمنون الانصراف ولو إلى النار .

ونحن قلنا سابقاً : إن الحق سبحانه وتعالى علم انشغال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمته وبرحمته بهم ، فقال له الله - ليبرح عواطفه ومواجيدته - ما ورد هنا في الحديث الشريف :

فمن عبد الله ابن عمر بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم : « رَبِّ إِنِّي أَضَلَلْتُ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنْي » .

وقول عيسى - عليه السلام - « إِن تَعْلِبِهِمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

فرفع يديه وقال : اللهم آمين آمين وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يُبْكِيكَ ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل ،

اذهب إلى محمد فقل : ( إنا سنرضيك في أمك ولا نسوؤك )<sup>(١)</sup>

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - له موقف آخر يدل على كمال رحمته بأمته ، فقد أنزل الله فيما أنزل من القرآن الكريم - بعد فترة الوحي - قوله تعالى : ( ولسوف يعطيك ربك فترضى ) .

انظروا إلى ما ورد عن سيدنا علي في هذه الآية، فقد روى أنه - رضى الله عنه - قال لأهل العراق : إنكم تقولون : إن أرجى آية في كتاب الله تعالى : ( قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا ) . قالوا : إنا نقول ذلك . قال : ولكننا - أهل البيت - نقول : إن أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى : ( ولسوف يعطيك ربك فترضى ) . وفى الحديث لما نزلت هذه الآية قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : ( إذا لا أرضى وواحد من أمتى فى النار )<sup>(٢)</sup> .

كما روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : ( لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة )<sup>(٣)</sup> .

وهكذا نرى شغل رسول الله بأمته كأمر واضح موجود فى بؤرة شعوره .

إذن فقول الله : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » هو توضيح من الله لرسوله بأنهم لم يسارعوا فى الكفر تقصيراً منك ، فأنت قد أديت واجبك ، وبضيف سبحانه : « إنهم لن يضرّوا الله شيئاً ، ولم يقل سبحانه : إنهم لن يضرّوك ، أولن يضرّوا المؤمنين ، لا بل لقد جعل سبحانه وتعالى المعركة معه وهو القوى ذو الجبروت إنه هنا يطمئن المؤمنين .

ويريد الله ألا يجعل للذين يسارعون إلى الكفر حظاً فى الآخرة فيقول : « يريد الله

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الإيمان .

(٢) من تفسير الإمام القرطبي .

(٣) أخرجه البخارى .

ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم ، ومادامت هذه إرادات الله في ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ، أليكون لهم عمل يصادم مرادات ربهم ؟ لا .

إنه سبحانه يريد بما شرع من منهج أن تأتيهم سُنته ، والله يعذب من يخالف سُنته التي شرعها . لأنه جلت قدرته يطلب من المكلفين أن يطبقوا سنته التي شرعها لهم .

ويفرق بين وجود « لام العاقبة » التي تأتي حين يكون في مُراد العبد شيء ، ولكن القدرة الأعلى تريد شيئاً آخر ، وهي تختلف عن « لام الإرادة » والتعليل فد « لام الإرادة والتعليل » تتضح في قولنا : ذاكر التلميذ لينجح ، لأن علّة المذاكرة هي الرغبة في النجاح ، أما « لام العاقبة » ، فتتضح عندما يقول الأب لابنه : أنا أدلتك لترسب آخر العام .

أدلل الأب ابنه حتى يرسب ؟ لا ، ولكن الأب يأتي هنا بـ « لام العاقبة » أي كان للأب مراد ، ولكن قدرة أعلى جاءت على خلاف المراد .

ونوضح المسألة أكثر ، فالحق يقول في قصة سيدنا موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيْهِ ۖ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَلْبَ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِ ۚ وَلَا تَحْزَنِ ۚ إِنَّا رَآدُوهُ ۖ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾

(سورة القصص)

ونحن لا بد أن ننتبه إلى قول الحق : « فألقيه في اليم » والإنسان العادي لو قال لامرأة تحمل رضيمها : إن خفت على ابنك فألقيه في البحر . هذه المرأة لن تصدّق هذا القائل ، لكن أم موسى تلقت هذا الوحي من الله ، والتلّقى من الله لا يصادمه فكر شيطان ولا فكر بشر ، فالإلهام من الله ينجلّ في قوله : « وأوحينا إلى أم موسى » .

ومادام الله هو الذي ألهمها ، فإن خاطر الشيطان لا يجي . ولذلك قامت أم موسى بتنفيذ أمر الله . ويطمئنها الله فقال لها : « ولا تخافي ولا تحزني إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ

وجاعلوه من المرسلين .

وَيُنَبِّئُهُ مِيعَاتِهِمْ أَمْ مُوسَى أَنَّهُ لَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهَا لَمَجْرَدِ أَنَّهُ قُرْءَانُ عَيْنٍ ، وَلَكِنْ لَأَنَّ مُوسَى  
أَيْضاً مُهِمَّةٌ مَعَ اللَّهِ . وَفِي لَفْظَةٍ أُخْرَى يَقُولُ الْحَقُّ عَنْ مَسْأَلَةِ الْوَحْيِ لَأَمْ مُوسَى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَكَ مَا يُوْحَى ﴾ ١٨٨٨ ﴿ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْتَابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ  
فَلْيَلْقَاهُ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُ ۖ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي  
وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ ١٨٨٩

(سورة طه)

والحق هنا في هذه اللفظة بصف وقت تنفيذ العملية التي أوحى بها ، ففيه فرق بين  
التمهيد للعملية قبل أن تقع كما حدث في اللفظة السابقة حيث قال لها الحق : « فإذا  
خفت عليه فالقيه في اليم » . كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْإِعْدَادُ ، ثُمَّ جَاءَ وَقْتُ التَّنْفِذِ ، فَقَالَ  
الْحَقُّ لِمُوسَى : « إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَكَ مَا يُوْحَى » . إِنَّهَا سُلْسَلَةٌ مِنَ الْأَوْامِرِ الْمُتَلَحِّقَةِ الَّتِي  
تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةَ كَانَتْ فِي وَقْتٍ أَخَذَ جُنُودُ فِرْعَوْنَ لِأَطْفَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ  
لِيَقْتُلُوهُمْ ، إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَبِينُ لَنَا أَنَّ جُنُودَ اللَّهِ مِنَ الْجَمَادَاتِ الَّتِي لَا تَعْيُ تَلْقَتْ الْأَمْرَ  
الْإِلَهِيَّ بِأَنْ تَصْنَعُ مُوسَى ، فَكَلِمَةُ « أَقْذِفِيهِ » تَدُلُّ عَلَى السَّرْعَةِ ، وَتَلْقَى « الْيَمِّ » الْأَمْرَ  
مِنْ اللَّهِ بِأَنْ مُوسَى عِنْدَمَا يُلْقَى فِي الْبَحْرِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَلْقَاهُ إِلَى السَّاحِلِ . « إِذْ أَوْحَيْنَا  
إِلَى أَمْرِكَ مَا يُوْحَى أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقَاهُ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ » إِنَّهَا  
أَوْامِرٌ لِلْمُسَخَّرِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي لَا تَعْمَى .

لَكِنْ كَيْفَ تَكُونُ أَوْامِرُ الْحَقِّ لِعَدُوِّهِ ؟ إِنْ اللَّهُ يَدْخُلُهَا كَخَاطِرٍ مُلْحٍ فِي رَأْسِ  
فِرْعَوْنَ لِيَنْفُذَ مُرَادَ اللَّهِ . إِنْ أَمْرًا فِرْعَوْنَ تَقُولُ لَهُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِئَلَّا لَا تَقْسُلُوهُ هَمِّيَ أَنْ يَنْفَعَنِي أَوْ تُظْلِمَ  
وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴾ ١٨٩٠

(سورة القصص)

لَقَدْ دَخَلَ أَمْرُ اللَّهِ كَخَاطِرٍ ، وَالتَّقْلُطُ آلُ فِرْعَوْنَ لَا لِيَكُونَ قُرْءَانُ عَيْنٍ لِامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ،  
وَلَكِنْ لِأَمْرٍ مُخْتَلَفٍ أَرَادَهُ اللَّهُ . فَهَلْ سَاعَةُ الْإِلْتِقَاطِ كَانَ فِي بَالِهِمْ أَنْ يَكُونَ مُوسَى عَدُوًّا

أو قرّة عين ؟ إنها « لام العاقبة » التي تتضح في قوله : « ليكون لهم عدواً وحزناً » .  
فالإنسان يكون في مُرادهِ شيء ، ولكن القدرة الأعلى من الإنسان - وهو الله - تريد شيئاً آخر .

الإنسان في تخطيطه أن يقوم بالعملية لكذا ، ولكن القوة الأعلى من الإنسان تريد العملية لهدف آخر ، وهي التي أوحى للإنسان أن يقوم بهذه العملية . ويتجلى ذلك بوضوح في العلة لالتقاط آل فرعون لموسى . كان فرعون يريد قرّة عين له ، ولكن الله أراد أن يكون عدواً لفرعون . وفي هذا المثال توضيح شامل للفرق بين « لام العاقبة » و « لام الإرادة » والتعليل . وعندما نرى أحداثاً مثل هذه الأحداث فلا نقول : « هذا مراد الله » ولكن فنقول : ( العاقبة فيها فعلوا وأحدثوا خلاف ما خططوا ) .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَ يَضُرُّوْا  
اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إنهم لن يضرّوا الرسول وصحابه لأنهم في معيّة الله ، وهم لن يضرّوا الله ، وفي ذلك طمأنة للمؤمنين . كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أيها المؤمنون بن المصدّقون بمحمد إن المعركة مع الكفر ليست معركة المؤمنين مع الكافرين ، ولكنها معركة ربكم مع هؤلاء الكافرين . وفي هذا اطمئنان كبير .

« إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان » ، و « الاشتراء » صفقة ، والصفقة تقتضى « ثمناً » و « ثمناً » . و « الثمن » هنا هو الإيمان ، لأن الباء تدخل على المترك ، و « الثمن » هو الكفر لأنه هو المأخوذ . فهل أخذوا الكفر ودفعوا الإيمان ثمناً له ؟

وهل معنى ذلك أن الإيمان كان موجوداً لديهم ؟

نعم كان عندهم الإيمان ؛ لأن الإيمان القديم هو إيمان الفطرة وإيمان العهد القديم الذي أخذه الله على الذر قبل أن توجد في الذر الأغيار والأهواء :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾

(سورة الاعراف)

أو على الأقل كان الإيمان والكفر في متناولهم ؛ بانضباط قانون الاختيار في النفس البشرية ، لكنهم أخذوا الكفر بدل الإيمان . والبديلة واضحة ، فقد استبدلوا الكفر بالإيمان ، فالباء - كما قلت - دخلت على المتروك . لقد تركوا الإيمان القديم وهو إيمان الذر ، أو تركوا إيمان الفطرة فالحديث الشريف يقول :

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (١) .

لقد انسلخوا من الإيمان ، ودفعوه ثمنا للكفر ، فعندما يأخذ واحد الخمر ، فهو قد أخذ الكفر بدلاً من الإيمان . وهم « لن يضرّوا الله شيئاً ولهم عذاب أليم » لماذا ؟ لأننا إن افترضنا أن الدنيا كلها قد آمنت فهذا لن يفيد الله في شيء . والحديث القدسي يقول :

قال الله تعالى : ( يا عبادي إن حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدون أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمون أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسون أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفي فتفنعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على



أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم  
وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من  
ملكى شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد  
فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا  
أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد  
غيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه (١) .

إذن ، فلا الإيمان من البشر يزيد الله شيئاً ، ولا الكفر ينقص من الله شيئاً ، لأن  
الإنسان قد طرأ على ملك الله . ولم يأت الإنسان في ملك الله بشيء زائد ، فالإنسان  
صنعه الله وخلقه من عناصر ملكه - جلّت قدرته - ويستمر الحديث في توضيح أن  
الحق سبحانه لا يعالج شيئاً بيديه فيأخذ منه زمناً . لا ، إنه سبحانه جلّت مشيئته  
يقول للشيء : كن ، فيكون .

وكلمة « كن » نفسها هي أقصر أمر . إن أمره اللطف وأدق من أن يدركه على  
حقيقته مخلوق . لكن الحق يأتي لنا بالصورة الخفيفة التي تجعل بشريتنا تفهم الأمر .  
فالذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّوا الله شيئاً ولهم عذاب أليم . فهم لن يعيشوا  
بِنَجْوَةٍ ويُبعد عن العذاب ، بل سيكون لهم العذاب الأليم .

ونحن نجد أن الحق يقول مرة في وصف مشوى الكافرين إنه عذاب أليم ، ومرة  
أخرى لهم عذاب عظيم ومرة عذاب مهين ، لماذا ؟

لأن العذاب له جهات متعددة ، فقد يوجد عذاب مؤلم ، ولكن المَعَذِب يتجلد  
أمام من يُعَذِّبهُ ويُظهر أنه مازال يملك بقية من جلد ، إنه يتألم لكنه يستكبر على الألم ،  
ولذلك قال الشاعر :

وتجلى لى لشمسين أرى  
أنى لربى الدهر لا تضمر

فالتجلد هو نوع من الكبرياء على الواقع . ولذلك يأتي من بعد ذلك قوله الحق إن  
لامثال هؤلاء عذاباً مهيناً ، أى إنهم سيذوقون الذل والالم ، ولا أحد فيهم يستطيع  
التجلد . وهذا النوع من العذاب لا يقف فقط عند حدود الألم العادى ، ولكنه  
عذاب عظيم فى كميته وقدره ، واليم فى وقعه . ومهين فى إذلال ودك النفس البشرية  
وغرورها : لذلك فعندما نجد أن العذاب الذى أعده الله للكافرين موصوف بأنه  
« عذاب أليم » و « مرة » « عذاب عظيم » و « مرة » « عذاب مهين » فلنعرف أن لكل واحدة  
معنى ، فليست المسألة عبارات تقال هكذا بدون معنى مقصود .

وأريد أن أقف هنا فى هذا الحديث عند « لام العاقبة » لأن البعض يحاول أن يخلق  
منها إشكالات إن هؤلاء المتربصين لكلام الله يحاولون النيل منه ، وهم لا يبحثون إلا  
فيما يتوهمون - جهلاً - أنه نقاط ضعف ، وهو سبحانه وتعالى يقول عن الكفار والعياذ  
بالله وهم فى النار :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (١٢٧) قَالَ أَعْصُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونِ (١٢٨)  
إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ  
(١٢٩) فَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّ يَتَوَسَّلُونَ إِلَى اللَّهِ فَذَرْنُوهُمْ يَخُوتُوا وَيَلْعَبُوا بِاللَّعْنَةِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (١٣٠)

( سورة المؤمنون )

لقد انشغل الكفار بالسخرية من أهل الإيمان بإشارات أو لمز وغمز أو اتهام  
بالرجمية أو الدروشة أو مثل ذلك من ألوان السخرية ، لدرجة أنهم نسوا مسألة  
الإيمان ، فما الذى أنساهم ذكر الله ؟ لقد أنساهم ذكر الله انشغالهم بالسخرية من  
أهل الإيمان .

لقد قضى الكفار وقتهم كله للسخرية من أهل الإيمان حتى نسوا ولم يتذكروا أن  
هناك خالفاً للكون . وهذا ما يسمى « غاية العاقبة » وليست غاية وعلة للإرادة ،  
لأنهم لم يريدوا نسيان ذكر الله ولكن أمرهم انتهى إلى ذلك .

وسيعذب الله الكافرين عذاباً أليماً وعظيماً ومُهيناً . ولكل وصف مراده فى النص

حتى يستوعب كل حالات الإهانة من إبلام ، فالذى لا يَألم بشيء صغير ولا يتحمل  
الآلم القوى سيجد الآلم الكبير ، وكذلك الذى يتجلد على الآلم العظيم ، سيجد الآلم  
المهين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ  
لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ  
مُّهِينٌ ﴾

وعندما نسمع قول الله : « ولا يحسبن » فهو نهى ، وقد نهى الله الكافرين عن  
ماذا ؟ إن الكافر عندما يجد نفسه قد أفلت في المعركة من سيف المؤمنين وأن عمره  
قد طال في الكفر ، فهو يظن أن الحق سبحانه وتعالى تركه لخير له ؛ لأنه يفهم أن عمره  
هو أئمن شيء عنده ، فهادام قد حوفظ له على عمره فهو الخير . نقول لمثل هذا  
الكافر : إن العمر زمن ، والزمن وعاء الأحداث ، إذن فالزمن لذاته لا يمتد إلا  
بالحدث الذى يقع فيه ، فإن كان الحدث الذى يقع في الزمن خيراً ، فالزمن خير .  
وإن كان الحدث الذى يقع في الزمن شراً ، فالزمن شر ، ومادام هؤلاء كافرين ،  
فلا بد أن كل حركاتهم في الوجود والأحداث التى يقومون بها هي من جنس الشر  
لا من جنس الخير ، لأنهم يسرون على غير منهج الله . وربما كانوا على منهج المضادة  
والمضادة لمنهج الله .

وذلك هو الشر . إذن فانه لا يمل لهم بقصد الخير ، إنما يمل الله لهم لأنهم ماداموا  
على الكفر فهم يشغلون أوقات أعمارهم بأحداث شرية تخالف منهج الله . وكل  
حدث شرى له عذابه جزاؤه . إذن ، فإطالة العمر لهم شر .

والحق سبحانه يقول : « ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم »  
 وه يحسبن « هي فعل مضارع ، والماضى بالنسبة له هو « حَسِبَ » - بكسر السين -  
 ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (١)

(سورة العنكبوت)

إن الماضى هو « حَسِبَ » - بكسر السين - والمضارع « يحسب » - بفتح السين - .  
 أما حَسِبَ « بحسب » - بكسر السين - في المضارع وفتحها في الماضى فهى من الحساب  
 والعدد ، وهو عدد رقمى مضبوط .

أمر « حَسِبَ » وه يحسب « فتأتى بمعنى الظن ، والظن كما نعرف أمر وهمى ، والحق سبحانه  
 يذكرهم أن ظنهم بأن بقاء حياتهم هو خير لهم ليست حقاً . بل هى حدىس وتخمين لا يرقى  
 إلى اليقين .

صحيح أن العمر محسوب بالسنوات ؛ لأن العمر طرف للأحداث ، والعمر بذاته  
 - مجرداً عن الأحداث - لا يقال إن إطلته خير أو شر ، وإنما يقال : إن العمر خير أو  
 شر بالأحداث التى وقعت فيه ، والأحداث التى تقع من الكافر تقع على غير منهج  
 إيمان فلا بد أن تكون شراً ، حتى ولو فعل ما ظاهره أنه خير فإنه يفعل مضارة لمنهج  
 الله . فلو كانت المسألة بالعملية الرقمية ؛ لقلنا : « حسب » وه يحسب « - بفتح السين  
 فى الماضى وكسر السين فى المضارع - لكن هى مسألة وهمية ظنية ؛ لذلك نقول :  
 « يحسب » - بفتح السين فى المضارع - أى يظن . وهو سبحانه يقول : « إنما نملى  
 لهم » . ما الإملاء ؟ الإملاء هو تمديد الوقت وإطالته . ولذلك نجد فى القرآن :

﴿ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ لَئِنْ لَرَّئِنَّا أَنْ لَرَّجَحْنَكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ (٢)

(سورة مريم)

إنه يأمر سيدنا إبراهيم أن يهجره مدة طويلة . هذا هو معنى « واهجرنى ملياً » .

والمقصود هنا أن إطالة أعمارهم بعد أن أفلتوا من سيوف المؤمنين . ليست خيراً  
 لهم ولا يصح أن يظنوا أنها خير لهم ، لأن الله إنما نملى لهم ؛ « ليزدادوا إثماً ولهم

عذاب مهين ، وهنا نجد « لام العاقبة » .

وليك أن تقول أيها المؤمن : إن الله قد فعل ذلك ليعاقبهم . لا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع سنته في الكون ويطبقها على من يخرج على منهجه ، فمن يصنع إثماً يعاقبه الله عليه ، إنما نمل لهم ليزدادوا إثماً ، فكل ظرف من الزمن يمر عليهم يصنعون فيه أعمالاً أئمة على غير المنهج .

« ولهم عذاب مهين » وثاني كلمة « مهين » وصفاً للعذاب مناسبة تماماً ؛ لأن الكافر قد يخرج من المعركة وقد تملكه الزهو والمعجب بأن أحداً لم يستطع أن يقطع رقبته بالسيف ، ويتيه بالعزة الأئمة ، لذلك فالإيلام هنا لا يكفى ، لأنه قد يكتم الألم ويتجلد عليه ، ولكن العذاب عندما يكون مهيناً فهو العقاب المناسب لمثل هذا الموقف . والمتكلم هنا هو الله ، وسبحانه العليم بالمناسب لكل حال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ  
حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْبَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى  
الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَابِعُوا  
بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ  
عَظِيمٌ ۝١٧٦﴾

وساعة نسمع « ما كان » فلنعرف أن هنا « جحدوا » أي أن هناك من يبعد القضية . ويسمونها « لام الجحد » . فقبل حادثة أحد ، كان المنافقون متداخلين مع

المؤمنين . أكان الله يترك الأمر مختلطاً هكذا ، ولا يُظهر المنافقين بأحداث تبين مواقعهم الحقّة من الإيمان ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى لا يقبل ذلك ؛ حتى لا يظل المنافقون دسيسة في صفوف المؤمنين . وكان لابد أن تأتي الأحداث لتكشفهم . وجاءت أحداث أحد لتهيج الصف المنسوب إلى الإيمان ، وتفرزه ليتميز الحبيث من الطيب ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَمَّا الزُّبَيُّ فَيَدَبُّ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

( من الآية ١٧ سورة الرعد )

إذن كانت أحداث أحد ضرورية .

وقوله الحق : « ما كان الله ليذر المؤمنين » مقصود بها أن الله لم يكن ليدع المؤمنين ويتركهم عرضة لاختلاط المنافقين بهم بطون أن يتحيز المنافقون بشيء من الأشياء ، حتى لا تظل المسألة مقصورة على ما يعلمه الله لرسوله من أمر المنافقين . فلو أعلم الله رسوله فقط بأمر المنافقين ، ولو أعلن الرسول ذلك للمؤمنين دون اختبار واقعي للمنافقين لكان ذلك مجرد تشخيص نظري للنفاق يأتي من جهة واحدة ، وأراد الله أن تأتي حادثة واضحة وتجربة عملية واقعية تبين وتظهر الواقع ، حتى ينكشف المنافقون ، وحتى لا يعترض أحد منهم عندما يوصف بأنه منافق ، وحتى لا يكون هذا الوصف مجرد كلام من الخصم ، بل بفعل ارتكبه هم عملياً ، وبذلك تكون الحجة قوية للغاية .

لقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى في الصلاة ، لأن كل منافق منهم أراد أن يجلب مسألة نفاقه ، ويؤاثره ، فيحرص على ما يندفع المؤمنون إليه ، والمنافق كان يعرف أن المؤمنين يتسابقون إلى الصلاة ، فهو يسارع ليكون في الصف الأول من الصلاة . ويخبر الله سبحانه وتعالى رسوله :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بِإِسْمِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي حَزَنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴾

( سورة محمد )

أى لو لاحظت كلامهم لعرفتوهم ، مثلهم مثل كل المنافقين فى الدنيا ، تلاحظ فى كلامهم لقطة من نفاق ؛ فالمؤمن حين يجلس مع جماعة من المنافقين وياق وقت صلاة الظهر ويدعو الأذان إلى الصلاة ، تجدد المؤمن يقول : فلنقم إلى الصلاة ، وهنا يسخر المنافق ويقول للمؤمن : لتأخذنى على جناحك للجنة يوم القيامة . ومثل هذه الكلمة يكون « لحن القول » . أو عندما يدخل مؤمن على جماعة من الناس فيهم منافق ، فيستقبل المنافق المؤمن بلهجة من السخرية فى التحية ، « كيف حالك أيها الشيخ ( فلان ) ؟ » ومعنى ذلك أنه غير مستريح لوجود المؤمن فيسخر منه .

وذلك من « لحن القول » الذى يظهر به المنافق .

ومثل هذه العمليات عندما يواجهها المؤمن الواعى المستير الذى يتجلى الله عليه بالإشراقات النورانية ، مثل هذه العمليات تكون وفوداً للمؤمن وتزيد من إيمانه ؛ لأن المؤمن على منهج الحق ، وقادر على نفسه ، هذا ما يغيظ المنافق كثيراً ؛ فللنافاق يتساءل بينه وبين نفسه : لماذا يقدر المؤمن على نفسه ؟ والمنافق لا يقدر على نفسه ؛ لذلك يريد أن يسحب المؤمن من عقيدته ليكون معه على النفاق والعياذ بالله . وعلى المؤمن أن يوطن نفسه على أنه سيواجه منافقين يريدون أن يردوه عن الإيمان ، وسيجد أناساً يسخرون منه ويتغامزون عليه ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ۝٢٨﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ

يَتَغَامَزُونَ ۝٢٩ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝٣٠ وَإِذَا

رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ۝٣١ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ۝٣٢﴾

( سورة التين )

والمنافق أو الكافر قد يقول لأهله : لقد رأيت اليوم شيخاً أو رجل دين أو متديناً فسخرت منه وأهنته ويتندر المنافق بمثل هذا القول فى بيته الفاسدة ، ويكشفها الحق لنا بقوله الكريم . ليطمئن المؤمنين ، ويعوض كل مؤمن عما يصيبه من أهل النفاق والفساد :

﴿ قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضَعُكَُونَ ﴿٦١﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٦٢﴾  
هَلْ تُؤِتُونَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

فالحق سبحانه يسأل المؤمنين يوم القيامة : هل قدرنا أن نجازي الكفار والمنافقين الذين سخرؤا منكم ؟ فيقولون : نعم يارب العالمين قد جوزوا وأثبوا على فعلهم أوفى الجزاء وأتمه وأكمله .

إن سخرية المنافقين والكافرين من المؤمنين لها أمد دينوى ينقضى ، ولكن السخرية في الآخرة لا تنقضى أبداً . وعندما نقيسها نحن المؤمنين ، نجد أننا الفائزون الراضعون إن شاء الله . فلو ترك أى منافق ليتداخل فى أحضان المؤمنين ، ولا يظهر ذلك للمؤمنين لكانت المسألة صعبة العلاج ، ولهذا يقول الحق للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفَنَّهُمْ بِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة محمد)

والحق لا يكتفى بذلك ، لكنه يكشف لنا واقع المنافقين بتجارب عملية حتى لا يقول واحد منهم : لست منافقاً . وعندما يظهر الله المنافق ويكشفه بحادثة مدوية فعلية ، ومججلة تبين أنه منافق ، فيكون قد وُصم بالنفاق ، لأن كثيراً من الناس الذين يظنون طوال عمرهم ينافقون اعتياداً على أنهم مسلمون فى الظاهر لا يتركهم الله ، بل لابد أن يأتى الله لهم بخاطر من الخواطر ويقموا فى فخ اكتشاف المؤمنين لهم حتى يعرفهم المؤمنون ويقيمهم على حقيقتهم ، فسبحانه وتعالى القائل :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .

وكلمة « يذر » تعنى « يترك » أو « يدع » . والدارسون للنحو يعرفون أن هناك فعلين هما « يذر » و« يدع » ، أهملت العرب الفعل الماضى لهما ، فهذان الفعلان



ليس لهما فعل ماضٍ . ونستخدمهما في صيغة المضارع .

والحق سبحانه لم يكن ليدع المؤمنين على ما هم عليه من الاختلاط واندساس المنافقين بينهم وعدم معرفة المؤمنين للمنافقين ؛ لذلك يميز ويظهر الخبيث من الطيب . فلا يكتفى بإخبار النبي بأمر الخبيث فقط ، ولكنه يكشف الخبيث بفعل واقعي . فيقول : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » ؛ لأن الله لو أطلعكم على الغيب لتعرفوا المنافقين لأنكروا أنفسهم منكم وستروها عنكم ، ولذلك يجري سبحانه الوقائع لتكشف الخبيث من الطيب ، وبعد ذلك يوصم المنافق بالنفاق بإقرار نفسه وإقرار فعله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء » . إنه جل وعلا يختار من رسله من يشاء ليطلعهم على بعض الغيب حتى يزدادوا ثقة في أن الله لا يتخلل عنهم ، أى يعطى للرسول دلالات على المنافقين ، حتى يزداد الرسول ثقة في أن الله لا يتخلل عنه .

والله برحمته لا يكشف الغيب لكل المؤمنين ، فلو أطلع المؤمن على الغيب لفسدت أمور كثيرة في الكون . وَهَبْ أَنْ الله أطلع الإنسان على غيب حياته ، فعرف الإنسان ألف حادثة سارة ثم حادثة واحدة مكدره ؛ فإن كدر الإنسان بالحادثة الواحدة المكدره التى تقع بعد عشرين عاماً يفسد على الإنسان تنعمه بالأحداث السارة .

وإن كان الإنسان يريد أن يطلع على غيب الناس فهل يقبل أن يطلع على غيبه أحد ؟ فلماذا تريد أيها الإنسان أن تعرف غيب غيرك ؟ أيرضى أى واحد منا أن يعرف الناس غيبه ؟ لا . إذن فستر المعلومات عن الناس وجعلها غيباً هى نعمة كبرى .

ومع ذلك فالناس تلح أن تعرف الغيب . ونرى من يجرى على الدجالين والعرافين ومن يدعون كذباً أنهم أولياء الله ، وكل ذلك من أجل أن يعرف الواحد بعضاً من الغيب . وهنا نقول : ليست مهارة العارف فى أن يقول لك ماذا سيحدث لك فى المستقبل ، لكنها فى أن يقول واحد من هؤلاء المدّعين لمعرفة الغيب : إن حادثاً مكروهاً سيقع لك ، وسأمنعه أو أدفعه بعيداً عنك . لا أحد يستطيع دفع قدر الله ،

ولذلك فلنترك المستقبل إلى أن يقع . لماذا ؟ . حتى لا يجيا الواحد منا في الهم والحزن قبل أن يقع . إذن فقول الحق : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » هو سنة من الله لأن نظام الملك يتنظم بها ويحتاج إليها .

فكل إنسان له هزات مع نفسه ، وقد تأتى له فترة يضعف فيها في شيء من الأشياء ، فإذا ما عرف الغير منطقة الضعف في إنسان ما ، وعرف هذا الإنسان منطقة الضعف في أخيه ، فلسوف يبدو كل الناس في نظر بعضهم بعضاً ضعافاً . ومن فضل الله أن أخفى غيب الناس عن الناس . وجعل الله إنساناً ما قوياً فيما لا نعلم ، وذلك قوياً فيما لا نعلم ، وبذلك تسير حركة الحياة بانتظامها الذى أراده الله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتنبى من رسله من يشاء » والحق يجتنى من الرسل ، أى بعضاً من الرسل - لا كل الرسل - ليطلعهم على الغيب حتى يعطى لهم الأمان بأنهم موصولون بمن أرسلهم ، فهو سبحانه لم يرسلهم ليتخلل عنهم ، لا ، إنهم موصولون به لذلك يطلعهم على الغيب ، وقلنا : إن الغيب أنواع : فمطلق الغيب : هو ما غاب عنك وعن غيرك . ولكن هناك غيباً غائباً عنك وهو معلوم لغيرك ، وهذا ليس غيباً .

مثال ذلك إن ضاعت من أحدكم حافظة نقوده ، وسارقها غيب ، ومكانها غيب عن صاحبها ، لكن الذى سرقها عارف بمكانها ، إذن فهذا غيب على المسروق ، ولكنه ليس غيباً على السارق . إنه ليس غيباً مطلقاً ، وهذا ما يضحك به الدجالون على السذج من الناس ، فبعض من الدجالين والمشعوذين قد يتصلون بالشيطان أو الجن ؛ ويقول للمسروق حكاية ما عن الشيء الذى سرق منه وهؤلاء المشعوذون لا يعرفون الغيب ؛ لأن الغيب المطلق هو الذى لا يعلمه أحد ، فقد استأثر به الله لنفسه .

ومثال آخر : الأشياء الابتكارية التى يكتشفها البشر فى الكون ، وكانت سرراً ولكن الله كشف لهم تلك الأشياء ، وقد يتم اكتشافها على يد كفار أيضاً . فهل قال

أحد: إنهم عرفوا غيباً ؟ لا ؛ لأن مثل هذا الغيب مقدمات ، وهم بحثوا في أسرار الله ، ووفقهم سبحانه أن يأخذوا بأسبابه ماداموا قد بذلوا جهداً ، والله يعطى الناس - مؤمنهم وكافرهم - أسبابه . وماداموا يأخذون بها فهو يعطيهم المكافأة على ذلك . والله المثل الأعلى ، وسبحانه منزّه عن كل تشبيه ، أقول لكم هذا المثل للتقريب :

المدرس الذى يعطى تمرين هندسة للتلميذ ليقوم بحله ، فهل مجيء الحل غيب ؟ لا ؛ لأن التلميذ يعرف كيف يحل التمرين الهندسى ؛ لأن فيه المعطيات التى يتدبر فيها بأسلوب معين فتعطى النتيجة . ومادام التلميذ يخرج بنتيجة لتمرين ما بعد معطيات أخذها ، فذلك ليس غيباً .

ولذلك فعلينا أن نفطن إلى أن الغيب هو ما غاب عن الكل ، وهذا ما استأثر الله بعلمه وهو الغيب المطلق ، وهو سبحانه وتعالى يطلع عليه بعضاً من خلقه من الرسل ، وهو سبحانه القائل :

﴿ عِلْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾

( سورة الجن )

وأما الأمر المخفى فى الكون ، وكان غيباً على بعض من الخلق ثم يصبح مشهداً لخلق آخرين فلا يقال إنه غيب ، وعرفنا ذلك أثناء تناولنا بالخواطر لآية الكرسي :

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾

( سورة البقرة )

إن الحق سبحانه قد نسب هنا الإحاطة للبشر ، ولكن بإذن منه ، فهو يأذن للسر أن يولد ، تماماً كما يوجد للإنسان سلالات ولها أوقات معلومة لميلادها ، كذلك أسرار الكون لها ميلاد . وكل سر في الكون له ميلاد ، هذا الميلاد ساعة يأتي مياعده فإنه يظهر ، ويحيط به البشر . فإن كان العباد قد بحثوا عن السر وهم في طريق المقدمات ليصلوا إليه ووافق وصولهم مياعده ميلاده ؛ يكونوا هم المتكشفين له . وإن لم يحن مياعده ميلاد هذا السر فلن يتم اكتشافه . وإذا حان ميلاد السر ولم يوجد عالم معمل يأخذ بالأسباب والمقدمات فإله يخرج هذا السر كمصادفة لواحد من البشر . وحيتئذ يقال : إن هذا السر قد ولد مصادفة من غير موعد ولا توقع .

وأسرار الله التي جاءت على أساسها الاكتشافات المعاصرة ، كثير منها جاء مصادفة . فالعلماء يكونون بصدد شيء ، ويعطيهم الله ميلاد سر آخر . إذن فليس كل اكتشاف ابناً لبحث العلماء في مقدمات ما ، ولكن العلماء يشتغلون من أجل هدف ما ، فيعطيه الله اكتشاف أسرار أخرى ؛ لأن ميلاد تلك الأسرار قد جاء والناس لم يشتغلوا بها . ويتكرم الله على خلقه ويعطيهم هذه الأسرار من غير توقع ولا مقدمات .

ويستمر سياق الآية « فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » وهو سبحانه يخاطب المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى إذا خاطب قوماً بوصف ، ثم طلب منهم هذا الوصف فيما معناه ٤ . ومثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا ﴾

( من الآية ١٣٦ سورة النساء )

إنهم مؤمنون ، والحق قد ناداهم بهذا الوصف . معنى ذلك أنه يطلب منهم الالتزام بمواصفات الإيمان على مر الأزمان ، لأن الإيمان هو يقين بموضوعات الإيمان في ظرف زمني ، والأزمان متعاقبة لأن الزمن ظرف غير قارٍ . وه غير قارٍ ، تعنى أن الحاضر يصير ماضياً ، والحاضر كان مستقبلاً من قبل . فالماضي كان في البداية مستقبلاً ، ثم صار حاضراً ، ثم صار ماضياً . والزمن « ظرف » ، ولكنه ظرف غير قارٍ . أى غير ثابت . لكن المكان ظرف ثابت قارٍ . فكان الله يخاطبك : إن الزمن الذي مر قبل أن أخاطبك شغل بإيمانك ، والزمن الذي يحى أيضاً اشغله بالإيمان .

إذن معنى ذلك : يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم . « وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم اجر عظیم » ولنا أن نتصور عظمة عطاء الحق ، فالمنهج الإيمان يعود خيره على من يؤديه ، ومع ذلك فالله يعطى أجراً لمن اتبع المنهج . إذن فعندما يضع الحق سبحانه وتعالى منهجاً فإنه قد فعله لصالح البشر وأيضاً يشيهم عليه ، وهو يقول :

﴿ قَنِ اتَّبِعْ هُدَاىَ فَلَا يَظِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٧٧) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِىَ فَإِنَّ لَهُ  
مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٧٨﴾

( سورة طه )

إن المتبع للمنهج يأخذ نفعه ساعة تأدية هذا المنهج . ويزيد الله فوق ذلك أنه سبحانه يعطى المتبع للمنهج أجراً ، وهذا بعض الفضل ، وقلنا من قبل : إن العمر الذى يملأه الله للكافرين والمنافقين ليس خيراً . إذن فعلى الناس أن يأخذوا المسائل والأزمات بتبعات وآثار ونتائج ما يحدث فيها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَآءِ أَنَّهُمْ آلَهُ  
مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ  
مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١٨٠)

لقد ظن بعض من المنافقين والكفار أن طول العمر ميزة لهم ، وهما نحن أولاء بصدد قوم آخرين ظنوا أن المال الذى يجمعونه هو الخير فكلما زاد فرحوا . فيقول الحق : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » . فالمال قد جاءهم من

فضل الله ، ذلك بأنهم دخلوا الدنيا بغير جيوب . ولا أحد فينا قد رأى كفنًا له جيوب . ولا أحد فينا قد رأى قباط طفل ولبد له جيوب . فالإنسان يدخل الدنيا بلا جيوب ، ويخرج بلا جيوب . وكل ما يأتي للإنسان هو من فضل الله ، فلا أحد قد ابتكر الأشياء التي يأتي منها الرزق . ويمكن أن تبتكر من رزق موجود . فتطور في الوسائل والأسباب وللإنسان جزء من الحركة التي وهبها الله له ليضرب في الأرض ، ولكن لا أحد يأتي بأرض من عنده ليزرع فيها ، ولا أحد يأتي ببذور من عنده لم تكن موجودة من قبل ويزرعها ، ولا أحد يأتي بماء لم يوجد من قبل ليروي به ، فالأرض من الله ، والبذور عطاء من الله ، والماء من رزق الله . وحتى الحركة التي يتحرك بها الإنسان هي من فضل الله .

فبالله لو أراد إنسان أن يحمل الفأس ليضرب في الأرض ضربة ، فهل يعرف الإنسان كم عضلة من العضلات تتحرك ليرفع الفأس ؟ وكم عضلة تتحرك حين ينزل الفأس !!؟

وعندما يضرب الإنسان الفأس . فهو يضربها في أرض الله . والذي أراد لنفسه فأساً فإنه يذهب إلى الحداد ليصنعها له ، لكن هل سأل الإنسان نفسه من أين أتى الحديد ؟ وفي هذه قال الحق :

﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فماذا توجد أنت أيها الإنسان ؟

أنت تأخذ المواد الخام الأولية من عند الله ، وتبذل فيها الحركة الممنوحة لك من الله ، وأنت لا توجد شيئاً من معدوم ، بل إنك توجد من موجود ، فكل شيء من فضل الله . وأنت أيها الإنسان مضارب في كون الله . فعقلك الذي يفكر ، من الذي خلقه ؟ إنه الله . وجوارحك التي تفعل للعقل من الذي خلقها ؟ إنه الله .

وجوارحك تفعل في متفعل هو الأرض ، بآلة هي الفأس ، ثم ترونها بماء هو

نازل من السماء . فما الذى هو لك أيها الإنسان ؟ إن عليك أن تعرف أنه ليس لك شيء في كل ذلك ، إنما أنت مضارب لله . فلتعطه حق المضاربة .

والحق سبحانه لا يطلب إلا قدرأ بسيطاً من نتاج وثمرة الأرض . . إن كانت تروى بماء السماء فعليك عشر نتاجها . وإن كانت الأرض تروى بألة الطيور أو الساقية فعليك نصف العشر .

والذى يزرع أرضاً فإنه يحرقها في يوم ، ويروىها كل أسبوعين .

أما الذى يتاجر في صفقات تجارية فهو يحتاج إلى عمل في كل لحظة ، ولذلك فإن الحق قدر الزكاة عليه بمقدار اثنين ونصف بالمائة . إذن فكلما زادت حركة الإنسان قلل الله قدر الزكاة . وهذه العملية على عكس البشر . فكلما زادت حركته . فإنهم يأخذون منه أكثر !!

والله سبحانه يريد أن توجد الحركة في الكون ، لأنه إن وجدت الحركة في الكون انتزع الناس وإن لم يقصد التحرك . وبعد ذلك فأين يذهب الذى يأخذه الله منك ؟ . إنه يعطيه لأخ لك ولغيره . فإدام سبحانه يعطى أخاً لك وزميراً لك من ثمرة ونتيجة حركتك ، ففي هذا اطمئنان وأمان لك ، لأن الغير سيعطيك لو صرت عاجزاً غير قادر على الكسب . وفي هذا طمأنينة لأغيار الله فيك . فإن جاءت لك الأغيار فتجد أناساً يساعدونك ، وبذلك يتكاتف المجتمع ، وهذا هو التأمين الاجتماعى في أرقى معانيه . أليس التأمين أن تعطى وأنت واجد وأن تأخذ وأنت فاقد ؟ . إذن فهذا كله من فضل الله .

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم » إن الذين يبخلون بفضل الله يظنون أن البخل خير لمجرد أنه يكدر عندهم الأموال ، وليس ذلك صحيحاً ، لأن الحق يقول : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » أى أن ما بخلوا به يصنعه الله طوقاً في رقبة البخيل ، وساعة يرى الناس الطوق في رقبة البخيل يقولون : هذا منع حق الله في ماله .

والرسول صلى الله عليه وسلم يصور هذه المسألة تصويراً دقيقاً حين يبين لنا أن من يطلب منه حق الله ولم يؤده ، يأتى المال الذى منعه ويخل به يتمثل لصاحبه يوم القيامة « شجاعاً أقرع » وهو ثعبان ضخم ، ويطوق رقبته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعنى شذقيه-يقول : « أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا قوله تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » إلى آخر الآية (١) .

إذن فالذى يدخر بخلاً على الله فهو يزيد من الطوق الذى يلتف حول رقبته يوم القيامة .

« والله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير » نعم فلله ميراث السماوات والأرض ، ثم يضعها فيمن يشاء ، فكل ما فى الكون نسبه إلى الله ، ويوزعه الله كيفما شاء . إن الإيمان يدعونا ألا نتظر بالصدقة إلى حالة بلوغ الروح الحلقوم ، فقد روى عن أبى هريرة أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح صحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان » (٢) لأنه عند وصول الروح إلى الحلقوم لا يكون له مال .

قول الحق : « والله بما تعملون خبير » قضية تجعل القلب يرتجف خوفاً ورعباً ، فقد يدلس الإنسان على البشر ، فتجد من يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفتريين للضرائب ، واحداً للكسب الصحيح وآخر للخسارة الخاطئة ويكون هذا المنتهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك ، هذا الإنسان عليه أن يعرف أن الله خبير بكل ما يعمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾

(١) تفرد به البخارى دون مسلم من هذا الوجه . وقد رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة - باب أى صدقة أفضل .



## وَنَحْنُ أَغْنِيَهُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

روى - في سبب نزول هذه الآية الكريمة : قال سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - لما نزل قوله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » قالت اليهود : يا محمد افتقر ربك ، فسأل عباده القرض ؟ فانزل الله « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء » (١) .

والذين عاشوا الإسلام في المدينة كانوا من اليهود . واليهود كما نعرف كانوا يذبلون ويفخرون على العالم بأنهم أهل كتاب وعلم ومعرفة ، ويدلون على البيئة التي عاشوا فيها أنهم ملوك الاقتصاد كما يقولون الآن عن أنفسهم . كل من يريد شيئاً يأخذه من اليهود . وكانوا يبنون الحصون ويأتون بالأسلحة لتدل على القوة . وجاء الإسلام وأخذ منهم هذه السلطات كلها ، ثم تمتعوا بمزايا الإسلام من عفاضة على أموالهم وأمنهم وحياتهم .

أكان الإسلام يتركهم هكذا يتمتعون بما يتمتع به المسلمون أمناً واطمئناناً ، وسلامة أبدان وسلامة أموال ثم لا يأخذ منهم شيئاً ؟ لقد أخذ منهم الإسلام الجزية . فلم يكن من المقبول أن يدفع المسلم الزكاة ويجلس اليهود في المجتمع الإيماني دون أن يدفعوا تكلفة حمايتهم . ولذلك أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر إلى اليهود في المكان الذي يتدارسون فيه . فعن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناماً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم ومعه حجر يقال : أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله من عند الله قد جاء بالحق من عنده ، فجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، إنه

إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا . فغضب أبوبكر - رضى الله عنه - فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذي نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين<sup>(١)</sup> .

فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : يا محمد أبصر ما صنع بنى صاحبك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر » ؟ فقال يا رسول الله : إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجهه ، فجدد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيها قال فنحاص « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء »<sup>(٢)</sup>

هؤلاء لم يفطنوا إلى سر التعبير الجميل في قوله سبحانه :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضًا حسنًا ﴾

( من الآية ١١ سورة الحديد )

فإن هذا القول هو احترام من الحق - سبحانه - لحركة الإنسان في التملك . لماذا احترام الله حق الإنسان في التملك ؟ هو سبحانه يريد أن يغري المتحرك بزيادة الحركة ، ويعمل غير المتحرك على أن يتحرك . فإن طلب سبحانه شيئاً من هذا المال فهو لا يقول للإنسان : أعطنى ما أعطيت لك . بل كأنه سبحانه يقول : إننى سأحترم عرقك ، وسأحترم حركتك ، وسأحترم فكرك ، وسأحترم جوارحك وطاقاتك وكل ما فيك ، فإن أخذت منك شيئاً فلن أقول لك أعطنى ما أعطيت لك ، لكن أقول لك : أقرضها لى ؛ وإن أقرضتها فسوف تقرضها لا لأنتفع بها ، ولكنها لأخيك . وقد اقترض من القادر فيما بعد وذلك لك أنت إذا أصابتك الحاجة . لماذا ؟ لأننى أنا الله الذى استدعيت خلقي إلى الوجود . ومادمت أنا الله الذى استدعيت الخلق إلى

(١) أكذبونا : يئونا واطهروا كذبنا .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

الوجود فأرزاقهم مطلوبة مني .

إن الواحد من البشر عندما يدعو اثنين من أصدقائه فهو يصنع طعاماً يكفى خمسة أو عشرة أشخاص . ومادام الله هو الذى استدعى الخلق إلى الوجود فهو الذى يكفل لهم الرزق . وعندما يكفل لهم الرزق فلا بد أن يتحركوا . وعندما يتحركون فهو سبحانه يضمن آثار الحركة ، وذلك حتى ينال كل ما يرضيه ، أو على الأقل ما يكفيه من الضروريات .

ولذلك عندما جاءت آثار الحركة من المال وتدخل البشر فيها تأمياً وغير ذلك من الإجراءات قلّت الحركة . لكن الله سبحانه وتعالى يعلم حرص الإنسان على منفعة نفسه فيغريه بذلك حتى يتحرك ويستمتع المجتمع بحركته ، سواء قصد الإنسان أو لم يقصد . إذن فحين يفترض الحق سبحانه وتعالى من بعض خلقه لبعض خلقه ، فهو سبحانه لا يتراجع فيها وهب . بل يقول جل وعلا :

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١١ ﴾

( سورة الحديد )

وأضرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نحن البشر قد نضطر إلى هذا الموقف ؛ فالواحد منا عندما يعطى أبناءه مصروف اليد ، فكل ابن يدخر ما يبقى منه ، وبعد ذلك يأتى ظرف لبعض الأبناء يتطلب مالاً ليس في مكنة الوالد ساعة يأتى الحدث . فيقول الوالد لأبنائه : أفترضون ما في « حصّلاتكم » ، وسأردها لكم مضاعفة ، هو أخذها لأخيهم ، لكن لأنه الذى وهب أولاً فلم يرجع في الهبة ، لكنه طلبها قرضاً . وعندما يأتى أول الشهر فهو يرد القرض مضاعفاً ، فإن كان ذلك ما يحدث في مجال البشر فما بالنا بما يحدث من الخالق الوهاب لعباده ؟ . هو سبحانه يقول : « من ذا الذى يقترض الله قرضاً حسناً . »

لكن اليهودى لم يأخذ المسألة بهذا الفهم ، لكنه أخذها بغياء المادة فقال : إن الله فقير ونحن أغنياء . لذلك قال الحق سبحانه : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا . »

ولماذا يكتب الله ذلك وهو العالم بكل شيء ؟ . جاء هذا القول ليدل على التوثيق أيضاً ، فعندما يأتي هذا الرجل ليقرأ كتابه يوم القيامة يجدها مكتوبة ؛ فالكتابة لتوثيق ما يمكن أن يُنكر - بالبناء للمجهول - فإذا كان العلم من الله فقط فالعبد قد يقول :

- إنك يا رب الذي تعاقب . فلك أن تقول ما تقول . فإذا ما كان مكتوباً عليهم ليقروه . فهذا توثيق لا يمكن إنكاره .

ولم يفهم ذلك اليهودي أن القرض لله هو تلتطف من الحق سبحانه وتعالى واستدرار لحنان الإنسان على الإنسان . فقد شاء الحق أن يحترم أثر مجهودك وعرقك أيها الإنسان ، فإن وصلت إلى شيء من المال فهو مالك . ولم يقل الله لك : أعط أخاك ، فسبحانه وتعالى تلتطفنا مع خلقه يقول : أقرضني ؛ ليضمن الإنسان أن ما أعطاه إنما هو عند ملء . لكن أدب بنى إسرائيل مع الله مفقود ، فقد قالوا من قبل :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

( من الآية ٦٤ سورة المائدة )

وسبب ذلك أنه أصابتهُم سنة وجذب . وذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : « إن الله وسع على اليهود في الدنيا حتى كانوا أكثر الناس مالا ، فلما عصوا الله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه ضيق الله عليهم في زمنه صلى الله عليه وسلم ، فقال فتاح بن عازوراء ومن معه من يهود : يد الله مغلولة فأنزل الله هذه الآية . إنهم قالوا : السباء بخلت علينا ويد الله مغلولة ، فلم تعطنا رزقاً . هكذا كان اجتراؤهم في الحديث عن الله « يد الله مغلولة » ونعرف أن « الغل » هو ربط اليدين بسلسلة .

وهاهم أولاء يجترئون مرة أخرى فيقولون : « إن الله فقير » . ويورد الحق سبحانه كل ذلك تسلية لسيدنا محمد حتى إذا ما اجتروا عليه بكلمة أو على أصحابه باستهزاء ، فسبحانه يوضح لرسوله : أنهم لم يصنعوا ذلك معك ولا مع أتباعك ،

إن هذا هو موقفهم مني أنا . فإذا كان موقفهم وسوء أدبهم وصل بهم إلى أن يجترئوا على الذات المقدسة العلية ، ويقولون : « إن الله فقير ونحن أغنياء » ويقولون : « يد الله مغلولة » . أفتحزن وتأسى على أن يقولوا لك أو لاتباعك أي شيء يسوع إليكم ؟

إنها نعمت المواساة من الله لرسوله ونعمت التسلية . ويضيف الحق : « سنكتب ما قالوا » . لماذا يكتب الله ما قالوا مع أن علمه أزلي لا ينسى ؟

﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾

(من الآية ٥٢ سورة طه)

لقد جاءت كلمة « سنكتب » حتى لا يؤاخذهم سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنهم فعلوه ، ولكن بما كتب عليهم وليقرأوه بأنفسهم ، وليكون حجة عليهم ، كان الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتي يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً :

﴿ أَقْرَأْ كَتَبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١١﴾

(سورة الإسراء)

وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب في الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصوصنا أنفاسهم وكلماتهم أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها ؟ « سنكتب ما قالوا » وهم قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » وهذا معصية في القمة ، وتبجح على الذات العلية ، ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا الأنبياء الذين أرسلهم الله لهدايتهم ، لذلك يقول الحق : « سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق » .

وعندما يأتي هذا النبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو تسلية له من الحق سبحانه . لقد قالوا في ربك يا محمد ما قالوا ، وقتلوا الأنبياء إخوانك ، فإذا صنعوا معك ما صنعوا فلا تحزن فسوف يُجَاوِزُونَ على ما كتبناه عليهم بشهادة أنفسهم ، ونقول فوقوا عذاب الحريق . والحريق يصنع إلاماً إحساسياً في النفس .

والإحساس يختلف من حاسة إلى أخرى ، فمرة يكون الإحساس بالبصر ، ومرة بالأذن ، ومرة بالشم أو باللمس أو بالذوق .

والذوق هو سيد الأحاسيس ، فهو لا يضيع من أحد أبداً ، فقد نجد إنساناً أعمى ، وآخر أصم ، أو شخصاً ثالثاً أصيب بالشلل فلا تستطيع يده أن تلمس ، وقد يصاب واحد بركام مستمر فلا يصبح قادراً على الشم ، أما الذوق فهو حاسة لا تختفى من أى إنسان ، ذلك أن الذوق أمر من داخل الذات ، لذلك فهو أبلغ في الإيلام . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

﴿ كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

( سورة النحل )

انظر إلى التعبير القرآني « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . جاء التعبير بالإذاقة ، وجاء بشيء لا يذاق وهو اللباس . وهل اللباس يذاق ؟ لا ، لكنه سبحانه يريد أن ينبه الإنسان إلى أن كل الحواس التي فيه تحس ، حتى تلك الحاسة المخفية داخل النفس ، إن ذلك يشمل كل جزء في الإنسان .

فالإذاقة تحيط بالإنسان في هذا التصوير البياني القرآني الكريم : « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . إذن فهي شدة وقع الإيلام ، واستيعاب العذاب المؤلم لكل أجزاء الجسم حتى صار الذوق في كل مكان . « ذوقوا عذاب الحريق » ، والحريق هو النار القوية التي تحرق ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ

بظلامٍ للعبيد ﴾

وهذه تسمى صيغة المبالغة . وصيغة المبالغة إن وردت في الإثبات أى في الأمر

الموجب فهي تثبت الأقل ، فعندما يقال : « فلان ظلام » فالثابت أنه ظالم أيضاً ، لأننا ما دمتنا قد أثبتنا المبالغة فإننا تثبت الأقل . ومثل ذلك نقول : « فلان علام » أو « فلان علامة » فمعنى ذلك أن فلاناً هذا عالم . ولكن إذا قلنا : « فلان عالم » فلا يثبت ذلك أنه « علامة » . فصيغة المبالغة ليس معناها « اسم فاعل » فحسب ، إنها أيضاً اسم فاعل مبالغ فيه ، لأن الحدث يأتي منه قوياً ، أو لأن الحدث متكرر منه ومتعدد . فإذا ما أثبتنا صفة المبالغة فمن باب أولى تثبت صفة غير المبالغة . فإذا ما قال واحد : « فلان أكل » فإنه يثبت لنا أنه أكل ، هذا في الإثبات .

والأمر يختلف في النفي . إننا إذا نفينا صفة المبالغة ، فلا يستلزم نفي الصفة الأصلية ، فإن قلت : « فلان ليس علامة » فقد يكون عالماً . وهكذا نفهم لأن الإثبات يختلف عن النفي . فإذا أثبت صفة المبالغة تثبت الصفة التي ليس فيها مبالغة من باب أولى . أما إذا نفيت صفة المبالغة فلا يستلزم ذلك نفي الصفة الأقل .

والتذييل للآية التي نحن بصددنا الآن هو « وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

يفهم المستشرقون من هذا القول أنه مجرد نفي للمبالغة في الظلم ، لكنها لم تنف عنه أنه ظالم ولم يفهم المستشرقون لماذا تكون المبالغة هنا : إن الحق قد قال : إنه ليس بظلام للعبيد ، ولم يقل إنه ليس بظلام للعبيد . ومعنى ذلك أنه ليس بظلام للعبيد من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، فلو ظلم كل هؤلاء - والعياذ بالله - لقال إنه ظلام ، حتى ولو ظلم كل واحد أيسر ظلم . لأن الظلم تكرر وذلك بتكرر من ظلم وهم العبيد، فإن أريد تكثير الحديث فليفتن الغبي منهم إلى أن الله قال : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ولم يقل إنه ليس بظلام للعبيد .

وإذا كان الظالم لا بد أن يكون أقوى من المظلوم ، إذن فكل ظلم يتم تكييفه بقوة الظالم . فلو كان الله قد أباح لنفسه أن يظلم فلن يكون ظالماً ، لأن عظم قوته لن يجعله ظالماً بل ظلاماً .

فإن أردنا الحدث فيكون ظلاماً ، وإن أردنا تكراراً للحدث فيكون ظلاماً . وحين





يحاول بعض المستشرقين أن يستدركوا على قول الحق : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » فهذا الاستدراك يدل على عجز في فهم مرامي الألفاظ في اللغة أو أن هؤلاء يعلمون مرامي الألفاظ ويحاولون غش الناس الذين لا يملكون رصيذاً لغوياً يفهمون به مرامي الألفاظ . ولكن الله سبحانه وتعالى يُسخر لكتابه من ينه إلى إظهار إعجازه في آياته .

وبعد أن انتهى الحق من غزوة أحد ، فهو سبحانه يريد أن يقرر مبادئ يبين فيها معسكرات العداء للإسلام : معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر مشركي قريش في مكة ، ومعسكر المشركين الذين حول المدينة وكانوا يغيرون على المدينة .

فبعد غزوة أحد التي صفت ، وربت ، وامتنحت وابتلت ، وعرفت الناس قضايا الدين ، أراد الحق بعدها أن يضع المبادئ .

فأوضح القرآن : أن هؤلاء أعداؤكم ؛ تذكروهم جيداً ، قالوا في ربكم كذا ، ويقولون في رسولكم كذا ، وقتلوا أنبياءكم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ  
لِرَسُولٍ حَقٍّ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ ثَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ  
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَازِي قُلْتُمْ فَلِمَ  
قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ١٨٣

هم يدعون ذلك ويقولون : ربنا قال لنا هذا في التوراة ؛ إياكم أن تؤمنوا برسول

يأتيكم ، حتى يأتيكم بمعجزة محسة ، هذه المعجزة المحسة هي أن يقدم الرسول قرباناً فتزول نار من السماء تأكله .

هذا كان صحيحاً ، وكلنا نسمع قصة قابيل وهابيل :

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسٍ بِكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونريد أن نقبل على القرآن ونتدبر : لماذا جاء هذا اللفظ : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » ؟ إن القبول من الله ، وهو مسألة سرية عنده ، فكيف نعرف نحن أن الله تقبل أو لم يتقبل ؟ لا بد أنه الله قد جعل للقبول علامة حسية . ونحن نعرف أن الإنسان قد يعمل عملاً فيقبله الله ، ونجد إنساناً آخر قد يعمل عملاً ولا يقبله الله والعياذ بالله ، فمن الذي أعلمنا أن الله قد قبل عمل إنسان وقربانه ، ولم يقبل عمل الآخر وقربانه ؟ .

وبما أن القبول سر من أسرار الله إذن فلن نعرف علامة القبول إلا إذا كانت شيئاً محساً ، بدليل قوله : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقال الذي لم يتقبل الله قربانه : « لأقتلنك » كان الذي قبل الله قربانه قد عرف ، والذي لم يتقبل الله قربانه قد عرف أيضاً . إذن فلا بد أن هناك أمراً حسياً قد حدث .

وقلنا : إن الله كان يخاطب خلقه على قدر رشد عقولهم حساً ومعنى ، ولذلك كانت معجزاته سبحانه وتعالى للأنبياء السابقين لرسول الله هي من الأمور المحسوسة . فالمعجزة التي آتاها الله لإبراهيم كانت نارا لا تحرق ، وعصا سيدنا موسى تنقلب حية ، وسيدنا عيسى عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله . والمعجزة الحسية لها ميزة أنها تقنع الحواس ، ولكنها تنتهي بعد أن تقع لمرة واحدة . لكن المعجزة العقلية التي تناسب رشد الإنسانية ، هي المعجزة الباقية ،

وحق تظل معجزة باقية فلا يمكن أن تكون حسية .

إذنه فعندما تلقى معجزة خالدة لرسول هو خاتم الرسل ، والذي سوف تقوم القيامة على المنهج الذي جاء به ، هذه المعجزة لا بد أن تكون ذات أمد ممتد ، والامتداد يناقض الحسية ؛ لأن الحسية تظل محصورة فيمن رآها ، والذي لم يرها لا يقولها ولا يؤمن بها إلا إذا كان على ثقة عظيمة بمن أخبره بها . وإبنا آدم ، قابيل وهابيل قرب كل منهما قربانا .

وه قربان « مثلها في اللغة مثل » غفران « وه عُدوان » والقربان هو شيء أو عمل يتقرب به العبد من الله . وقبول هذا العمل من البر هو سر من أسرار الله . فما الذي أدرى هؤلاء أن قربان هابيل قد تقبله الله ولم يتقبل الله قربان قابيل ؟ لا بد أن تكون المسألة حسية . ولا بد أن قابيل وهابيل قد اختلفا ، ولكن القرآن لم يقل لنا على ماذا اختلفا ، إنها دعوى أن واحداً منهما مُقرب إلى الله أكثر ، ولكن بأي شكل ؟ لم يظهر القرآن لنا ذلك ، ولو كانت المسألة مهمة لأظهرها الله لنا في القرآن الكريم ، فلا تقل كان الخلاف على زواج أو غير ذلك . فالذي ظهر لنا من القرآن أن خلافاً قد وقع بينهما أو أنهما قد حكما الساء . ومبدأ تحكيم الساء لا يستطيع أحد أن ينقضه . وكان لكل واحد منهم شبهة . وعندما قامت الشبهة التي لقابيل ضد الشبهة التي لهابيل ، فلا إقناع من صاحب شبهة لصاحب شبهة ، ولذلك ذهبنا إلى التحكيم .

ونحن في عصرنا الحديث عندما نختلف على شيء فإننا نقول : نجرى قرعة . وذلك حتى لا يرضخ إنسان لهوى إنسان آخر ، بل يرضخ الاثنان للقدر ، فيكتب كل منهما ورقة ثم يتركان ثالثاً يجذب إحدى الورقتين . أما هابيل وقابيل فيذكر القرآن الكريم : « واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذا قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .

إذن فكل واحد منهما كانت له شبهة ، ولا أحد منهما بقادر على إقناع الثاني ؛ لذلك قال قابيل بعد أن قبل الله قربان هابيل : « لاقتلنك » فإذا قال هابيل ؟ قال : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

إذن فالذى يتقبل الله منه القربان هو الذى سَيُقْتَل . والذى يملاؤه الغيظ هو من لم يتقبل الله قربانه ، وهو الذى سوف يُقْتَل . فهاذا قال صاحب القربان المقبول :

﴿ لَنْ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٨)

(سورة المائدة)

إذن فهذا أهل لأن يتقبل الله قربانه ، لأنه متيقظ الضمير بمنهج السماء ، وهذه حيثة لتقبل القربان .

وحق لا نظن أن الآخر « قابيل » كله شر لمجرد أن الشهوة سيطرت عليه ، لكن الحق يظهر لنا أن فيه بعض الخير ، ودليل ذلك قول الحق :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴾ (٢٩)

(سورة المائدة)

وهذا القول يدل على أنه تردد ، فلا يقال : « طَوَّعَتْ الماء » ، ولكن يقال « طَوَّعَتْ الحديد » ، فكان الإيمان كان يعارض النفس ، إلا أن النفس قد غلبت وطَوَّعَتْ له قتل أخيه . وعندما قتل قابيل أخاه وهدأت شرّة الغضب وسُعار الانتقام ، رأى أخاه مُلقًى فى العراء :

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلتُ أَنْ أُكْمَلَ أَكْمُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّٰثِمِينَ ﴾ (٣٠)

(سورة المائدة)

وعلى هذا النسق قال اليهود : إن الله أوصانا ألا نؤمن برسول إلا بعد أن يأت بمعجزة من المُحَسِّنَات . لماذا قالوا ذلك ؟ قالوا ذلك لأن معجزة رسول الله الكبرى وهى القرآن الكريم لم تكن من ناحية المُحَسِّنَات وانتهى عهد الإعجاز بالمُحَسِّنَات فقط، فرسلنا له معجزات حسية كثيرة ، ونظروا لأن هذه ينتهى إعجازها بانقضائها فكان القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة وهو الذى يناسب الرسالة

الخاتمة ، فهم طلبوا أن تكون المعجزة بالمحسّات حتى يصنعوا لأنفسهم شبه عذر في أنهم لم يؤمنوا ، فقالوا ما أورده القرآن :

« الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا .. إلخ .

وعلمنا الحق في هذه الآية أن القربان تأكله النار ، ومن هذا نستنبط كيف تقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل ، لكى تفهم أن القرآن لا يوجد به أمر مكرر . والحق سبحانه يرينا ردوده الإلهية المقنعة الممتعة :

« قل قد جاءكم رسل من قبل بالبينات وبالذى قلم .. إلخ الآية .

لقد جاءكم رسل قبل رسول الله بالقربان وأكلته النار ومع ذلك كفرتم . فلو كان كلامكم أيها اليهود صحيحاً ، لكتتم أمتتم بالرسول الذين جاءوكم بالقربان الذى أكلته النار . وهكذا يكشف لنا الحق أنهم يكذبون على أنفسهم ويكذبون على رسول الله ، وأنها مجرد « محاكات » ولجاج وتمادٍ في المنازعة والخصومة .

والحق سبحانه يأمر رسوله أن يسأل : « فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ »

هو سبحانه يريد أن يضع لنا قضية توضح أن عهد المعجزات الحسية وحدها قد انتهى ، ورُشد الإنسانية وبلوغ العقل مرتبة الكمال قد بدأ ؛ لذلك أتى سبحانه بآية عقلية لتظل مع المنهج إلى أن تقوم الساعة . ولو كانت الآية حسية لاقتصرت على المعاصر الذى شهدها وتركت من يأتى بعده بغير معجزة ولا برهان . أما مجيء المعجزة عقلية فيستطيع أى واحد مؤمن في عصرنا أن يقول : سيدنا محمد رسول الله وتلك معجزته . ولكن لو كانت المعجزة حسية وكانت قرباناً تأكله النار ، فما الذى يصير إليه المؤمن ويستند إليه من بعد ذلك العصر ؟

إن الحق يريد أن يعلمنا أن الذى يأتى بالآيات هو سبحانه ، وسبحانه لا يأتى بالآيات على وفق أمزجة البشر ، ولكنه يأتى بالآيات التى تثبت الدليل ؛ لذلك فليس للبشر أن يقترحوا الآية . هو سبحانه الذى يأتى بالآية ، وفيها الدليل . لماذا ؟

لأن البعض قد قال للرسول :

﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ  
ثَجِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۚ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمَتْ  
عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَأَمَلِكِهِ قَبِيلًا ۚ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ  
أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَيْنًا كَاتِبًا تَقْرَأُهُ ۚ قُلْ  
سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۖ ﴾

( سورة الإسراء )

لقد كانت كل هذه آيات حسية طلبوها ، والله سبحانه وتعالى يرد على ذلك حين  
قال لرسوله : إن الذي منعه من إرسال مثل هذه الآيات هو تكذيب الأولين بها :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۖ ﴾

( من الآية ٥٩ سورة الإسراء )

فحتى هؤلاء الذين قالوا : لن نؤمن حتى تأتي بقربان تأكله النار قد جاءهم من  
قبل من يحمل معجزة القربان الذي تأكله النار ، ومع ذلك كذبوا ، إذن فالمسألة  
مما حكة ولجاج في الخصومة . ووسل الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتسليه الله  
لرسوله هنا تسلية بالنظير والمثل في الرسل . كأن الحق يوضح : إن كانوا قد كذبوك  
فلا تحزن ؛ فقد كذبوا من قبلك رسلاً كثيرين ، وأنت لست بدعاً من الرسل

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ  
جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾

ويتسامى الحق سبحانه وتعالى بروح سيدنا رسول الله إلى مرتبة العلو الذي لا يرقى إليه بشر سواه ، فيقول :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُّكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾

( من الآية ٣٣ سورة الانعام )

فالمسألة ليست مسألتك أنت إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً ولكن الظالمين بآيات الله يمحذون . أي هذا الأمر ليس خاصاً بك بل هو راجع إلى فلا أحد يقول عنك إنك كذاب هم يكذبونني ، الظالمون يمحذون وينكرون آياتي فالحق سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم هنا للتسلية ويعطيه الأسوة التي تجعله غير حزين مما يفعله اليهود والمكذبون به فيقول :

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ

النَّبِيِّ ﴿١٨﴾ ﴾

( سورة ال عمران )

ونعرف أن الشرط سبب في وجود جوابه . فإذا كان الجواب لم يأت فالشرط هو الذي يجعله يأتي ، وإذا كان الجواب قد حصل قبل الشرط فما الحال ؟ الحق يوضح : إن كذبوك يا محمد فقد كذبوا رسلاً من قبلك . أي أن « جواب الشرط » قد حصل هنا قبل الشرط وهذه عندما يتلقفها واحد من السطحين أدعياء الإسلام ، أو من المستشرقين الذين لا يفهمون مرامي اللغة فمن الممكن أن يقول :

إن الجواب في هذه الآية قد حصل قبل الشرط . وهنا نرد عليه قائلين : أقوله تعالى : « فقد كذب رسل من قبلك .. » هو جواب الشرط .. أم هو دليل الجواب ؟ لقد جاء الحق بهذه الآية ليقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

فإن كذبوك فلا تحزن ، فقد سبقك أن كذب قوم رسلكم . إنها علة لجواب الشرط ، كأنه يقول :

فإن كذبوك فلا تحزن . إذن فمعنى ذلك أن المذكور ليس هو الجواب ، إنما هو

الحيثية للجواب « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » . الخ .

وعندما نقول : « جاء فلان بكذا » فقد يكون هو الذى أحضره ، وقد يكون هو مجرد مصاحب لمن جاء به .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح - والله المثل الأعلى - فلنفترض أن موظفاً أرسله رئيسه بمظروف إلى إنسان آخر ، فالموظف هو المصاحب للمظروف .

إذن فالبينات جاءت من الله ، لكن هؤلاء الرسل جاءوا مصاحبين ومؤيدين بالبينات كى تكون حجة لهم على صدق بلاغهم عن الله ، « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » . أى جاءوا بالآيات الواضحة الدلالة على المراد . والآيات قد تكون لفتاً للآيات الكونية ، وقد تكون المعجزات .

ونعلم أن كل رسول من الرسل الذين سبقوا سيدنا رسول الله كانت معجزتهم منفصلة عن منهجهم ، فالمعجزة شئ وكتاب المنهج شئ آخر . « صحف إبراهيم » فيها المنهج لكنها ليست هى المعجزة ، فالمعجزة هى الإحراق بالنار والنجاة ، وموسى عليه السلام معجزته العصا وتقلب حية ، وانفلاق البحر ، لكن كتاب منهجه هو « التوراة » ، وعيسى عليه السلام كتاب منهجه « الإنجيل » ومعجزته العلاج وإحياء الموتى بإذن الله ، إذن فقد كانت المعجزة منفصلة عن المنهج ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن معجزته هى عين منهجه ، معجزته القرآن ، ومنهجه فى القرآن ، لماذا ؟

لأنه جاء رسولاً يحمل المنهج المكتمل وهو القرآن الكريم ، ومع ذلك فهو صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم ، فلا بد أن تظل المعجزة مع المنهج ؛ كى تكون حجة ، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « جاءوا بالبينات » : أى المعجزات الدالات على صدقهم . « والزبر والكتاب المنير » أى الكتب التى جاءت بالمنهج ، فهم يحتاجون إلى أمرين اثنين : منهج ومعجزة .

والبينات « هى المعجزة أى الأمور البينة من عند الله وليست من عند أى واحد



منهم ، ثم جاء « المنهج » في « الزُّبُر » والكتاب المنير . ومعنى « الزُّبُر » : الكتاب ، ومادام الشيء قد كُتِبَ فقد « زُبر » ، أى كُتِبَ ، وهذا دليل على التوثيق أى مكتوب فلا ينطمس ولا يحى فالزُّبُر الكتابة ، وه « الزُّبُر » تعنى أيضا الوعظ ؛ لأنه يمنع الموعوظ أن يصنع ما عظم أى يمنع عن الخطأ وإتيان الانحراف ، وه « الزُّبُر » أيضا تعنى العقل ؛ لأنه يمنع الإنسان من أن يرد موارد التهلكة .

والذين يريدون أن يأخذوا العقل فرصة للانطلاق والانفلات ، نقول لهم : افهموا معنى كلمة « العقل » ، معنى العقل هو التقييد ، فالعقل يقيدك أن تفعل أى أمر دون دراسة عواقبه . والعقل من « عَقَلَ » أى ربط ، كى يقال هذا ، ولا يقال هذا ، ويمنع الإنسان أن يفعل الأشياء التى تؤخذ عليه . وه الزبر أيضا : تحجير البشر ؛ فعندما نحفر البشر ليخرج الماء ، لا نتركه . بل نصنع له حافة من الحجر ونبنيه من الداخل بالحجارة . كى لا يُردم بالتراب وكل معانى الزبر ملتقية ، فهو يعنى : المكتوبات ، والمكتوبات لها وصف ، إنها منيرة ، وهذه الإنارة معناها أنها تبين للمسالك عقبات الطريق وعراقيله ، كى لا يتعثر .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يسأل رسوله صلى الله عليه وسلم ويوضح له : لا تحزن إن كذبتك ؛ فقد كذب رسل من قبلك ، والرسل جاءوا بالمنهج وبالمعجزة ، وبعد أن يعطى الله للمؤمنين ولرسول الله مناعة ضد ما يذيعه المرجفون من اليهود وضد ما يقولون ، وتربية المناعة الإيمانية فى النفس تقتضى أن يخبرنا الله على لسان رسوله بما يمكن أن تواجهه الدعوة ؛ حتى لا تفجأنا المواجهات ويكشف لنا سبحانه بما سيقولون . وبما سيفعلونه .

ونحن نفعل ذلك فى العالم المادى : إذا خفنا من مرض ما كالكوليرا - مثلاً - ماذا نفعل ؟ نأخذ الميكروب نفسه ونضعفه بصورة معينة ثم نحقق به السليم ؛ كى نربى فيه مناعة حتى يستطيع الجسم مقاومة المرض .

ثم بعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى بقضية إيمانية يجب أن تظل على بال المؤمن دائماً . هذه القضية : إن هم كذبوك فتكذبهم لا إلى خلود ؛ لأنهم سينتهون

بالموت ، فالقضية معركتها موقوتة ، والحساب أخيراً عند الحق سبحانه ، ولذلك يقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ  
أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ  
وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا  
مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١٨٥)

ونلاحظ أن كلمة « ذائقة » جاءت أيضاً هنا ، ونعرف أن هناك « قتلا » وهناك « موتا » . فالموت معناه أعم وهو : انتهاء الحياة سواء أكان بنقض البنية مثل القتل ، أم بغير نقض البنية مثل خروج الروح وزهوقها حتف الأنف ، ولذلك فالعلماء الذين يدققون في الألفاظ يقولون : هذا المقتول لو لم يُقتل ، أكان يموت ؟ نقول : نعم ؛ لأن المقتول ميت بأجله ، لكن الذي قتله هل كان يعرف ميعاد الأجل ؟ لا . إذن فهو يُعاقب على ارتكابه جريمة إزهاق الروح ، أما المقتول فقد كتب الله عليه أن يفارق الحياة بهذا العمل .

إذن فكل نفس ذائقة الموت إما حتف الأنف وإما بالقتل . ولأن الغالب في المقتولين أنهم شهداء ، والشهداء أحياء ، لكن الكل سيموت . يقول تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

انظروا إلى دقة العبارة : « وإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ » أي إياكم أن تنتظروا نتيجة إيمانكم في هذه الدنيا ، لأنكم إن كنتم ستأخذون على إيمانكم ثواباً في الدنيا

فهذا زمن زائل ينتهي ، فتوابكم على الإيمان لا بد أن يكون في الآخرة لكي يكون ثواباً لا ينتهي .

ونعرف ما حدث في بيعة العقبة الثانية ؛ حينما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار عهداً ، قالوا : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ لم يقل لهم صلى الله عليه وسلم ستتصرون أو ستملكون الدنيا ، بل قال : « الجنة » قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فبايعوه ، فلو وعدهم بأي شيء في الدنيا لقال له أي واحد فطن منهم : ما أهونها ، ولذلك عندما قال واحد لصاحبه : أنا أحبك قدر الدنيا ، فقال له : وهل أنا نافع عندك لهذه الدرجة ؟ .

فكان الحق سبحانه وتعالى يقول : إياكم أن تفهموا أن جزاء الإيمان يكون في الدنيا ؛ لأنه لو كان في الدنيا لكان زائلاً ولكان قليلاً كجزاء على الإيمان ، لأن الإيمان وصل بغير متبه وهو الله ، فلا بد أن يكون الجزاء غير متبه وهو الجنة ، فقال : « وإنما توفون أجوركم » . . وأخذ أهل اللحم من كلمة « توفون » أن هناك مقدمات ؛ لأن معنى « وفينه أجره » أي أعطينه وبقي له حاجة وأكمل له ، نعم هو سبحانه يعطيهم حاجات إيمان ، ويكفي إشراقه الإيمان في نفس المؤمن ، فالجواب لا بد أن يكون متمشياً مع منطق من يسمع هذه الآية ؛ فقد يموت من يسمعها بعد قليل في معركة ، وما دام قد مات في معركة فهو لم ير انتصاراً ، ولم ير غنائم ولا أي شيء ، فإذا يكون نصيبه ؟ إنه يأخذ نصيبه يوم القيامة « توفون » فمن نال منها شيئاً في الدنيا بالنصر ، بالغنائم ، بالزهو الإيمان على أنه انتصر على الكفر فهذا بعض الأجر ، إنما الوفاء بكامل الأجر سيكون في الآخرة ، لأن كلمة التوفية تفيد أن توفية الأجور وتكملها يكون في يوم القيامة ، وأن ما يكون قبل ذلك فهو بعض الأجر التي يستحقها العاملون .

ويقول الحق : « فمن رُحِزَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موضح سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرأوا إن شئتم : « فمن رُحِزَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » (١)

( ١ ) رواه ابن أبي حاتم ، ورواه البخاري ومسلم من غير هذا الوجه ويرون هذه الزيادة وأبو حاتم وابن حبان في

وعندما تقول : زحزحت فلاناً ، معناها أنه كان متوقفاً برعب ، فكيف يحدث ذلك عند النار ؟ . نعرف أن النار سببها المعصية ، والمعصية كانت لها جاذبية للعصاة ، وبأن الإيمان ليشدهم فتأخذهم جاذبية المعصية ، فكذا يكون الجزاء بالنار . إذن فالنار لها جاذبية لأنها ستكون في حالة غيظ . . . ولذلك يقول ربنا :

﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾

( من الآية ٨ سورة الملك )

النار تتميز من الغيظ على الكافرين . وما معنى تميز من الغيظ ؟ أما رأيت قنراً يفور ؟ ساعة يفور القدر فإن بعض الفقاقيع تخرج منه وتنفصل عما في القدر ، وهذا « تميز » أي تفرق ، والإنسان منا عندما يكون في حالة غيظ تخرج منه أشياء كفقاقيع غليان القدر إنه يرغب ويزيد أي اشتد غضبه ، هذه الفقاقيع تحرق من يقف أمامها أو يلمسها ، وهي من شدة الفوران تميز بعضها وانفصل عن القدر ، كذلك النار ، ولذا تميز من الغيظ ؟ إنها تميز من الغيظ من الكافرين ؛ لأنها أصلها مُسَبَّحة حامدة شاكرة ، وبعد ذلك يقول لها الحق :

﴿ هَلْ أَمْتَلَأْتُ ﴾ وتقول : ﴿ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾

( من الآية ٣٠ سورة ق )

وذلك مما يدل على أن كلمة : « تميز من الغيظ » حقيقة ؛ ولذلك يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النار لها جاذبية ، فالنار إنما كانت نتيجة المعصية في الدنيا ، والمعصية في الدنيا هي التي تجذب العصاة ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك : ( مثل ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الفراش والجنادب يقعون فيها وهو يذبح عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلتون من يدي )<sup>(١)</sup> انظر إلى التشبيه الجميل - حين توقد ناراً في شلاء فأول مظهر هو أن ترى الفراش والهوام والبعوض تأتي على النار ، ولذلك يقولون : رَبِّ نَفْسٍ عَشَقَتْ مَصْرَعَهَا .

لقد جاءت تلك الحشرات على أساس أنها جاءت للنور ، إننا نرى ذلك عندما نشعل موقداً في الخلاء فانت نجد حوله الكثير من هذه الحشرات صرعى ، تلك

(١) رواه أحمد ومسلم عن جابر .

الحشرات عشقت مصرعها ، إنها قد جاءت إلى النور ولكن النار أحرقتها ، كذلك الإنسان العاصي يعشق مصرعه ، لأنه لا يعرف أن هذه الشهوة ستدخله النار .

« فمن رُحِزَ عن النار ، أى أن النار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان ، ومجرد الزحزحة عن النار ، حتى وإن وقف بينها لا فى النار ولا فى الجنة فهذا حسن ، فما بالك إن رُحِزَ عن النار وأدخل الجنة ؟ لقد زال منه عطب وأعطى صالحاً . وهذه حاجة حسنة ، وهذا هو السبب فى أن النار مضروب على متنها الصراط الذى ستمر عليه ، لماذا ؟ حتى يرى المؤمن النار . . وهو ماشٍ على الصراط التى لو لم يكن مؤمناً لتزل فيها ، فيقول : الحمد لله الذى نجانى من تلك النار .

« فمن رُحِزَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » والفوز هو النجاة مما تكره ، ولقاء ما تحب ، مجرد النجاة مما تكره نعمة ، وأن تذهب بعد النجاة مما تكره إلى نعمة ، فهذا فوز . ونلاحظ فى « رُحِزَ » أن أحداً غيره قد زحزحه . نعم لأن الله تكرم عليه أولاً فى حياته بفيض الإيمان وهو الذى زحزحه عن النار أيضاً .

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وعندما يصف الحق سبحانه الحياة التى نعرفها بأنها « دنيا » ففى ذلك ما يشير إلى أن هناك حياة توصف بأنها « غير دنيا » وغير الدنيا هى « العليا » ، ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَمِىَ الْخَيْرَ مِنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المتكبر)

أى هى الحياة التى تستحق أن تُسمى حياة ؛ لأن الدنيا لا يقاس زمانها ببدايتها إلى قيام الساعة ، لأن تلك الحياة بالنسبة للكون كله ، ولكن لكل فرد فى الحياة دنيا ليس عمرها كذلك ، وإنما دنيا كل فرد هى مقدار حياته فيها . ومقدار حياته فيها لا يُعلم أهو لحظة أم يوم أم شهر أم قرن . وقصارى الأمر أنها محدودة جداً خاصاً لكل عمر ، وحداً عاماً لكل الأعمار .

والمتعة في الدنيا على قدر حظ الإنسان في المتع ، فهي على قدر إمكاناته ، فإذا نظرنا إلى الدنيا بهذا المعيار فإن متاعها يعتبر قليلاً ، ولهذا لا يصح ولا يستقيم أن يفتخر الإنسان بهذه المتعة متذكراً قول الله :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ۚ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ۚ ﴾

(سورة الغلق)

فالغرور إذن أن تلهيك متعة قصيرة الأجل عن متعة عالية لا أمد لانتهاؤها ، فحق لا يفتخر عاشق في الدنيا فيلهو بقليلها عن كثير عند الله في الآخرة يجب أن يقارن متعة أجلها محدود وإن طال زمانها بمتعة لا أمد لانتهاؤها ، متعة على قدر إمكاناتك ومتعة على قدر سعة فضل الله ؛ لذلك كانت الحياة الدنيا متاع غرور ممن غرَّ بالتافه القليل عن العظيم الجليل .

والله لم يظلم الدنيا فوصفها أنها متاع ، ولكن نبهنا إلى أنها ليست المتاع الذي يُغترَّ به فيلهي عن متاع أبقي ، إنه الخلود . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ولأتباع رسوله قضية تنشئ فيهم وتؤكد لهم أن الإيمان وحده خير جزاء للمؤمن ، وإن لم يأت له في الدنيا شيء من النعيم ، ولذلك أراد أن يوطنهم على أن الذين يدخلون الإيمان ، لا يوطنون أنفسهم على أن الإيمان دائماً منتصر ، فلو كان دائماً منتصراً لوطن كل واحد نفسه عليه ورضيه لأنه يضمن له حياة مطمئنة ؛ لذلك كان لا بد أن يوضح لهم : أن هناك ابتلاءات . فالقضية الإيمانية أن تبتلوا ، وموقع البلاء في نفوسكم أو في أموالكم ، فقال :

﴿ تَبْلَوْنِي فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ  
وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ  
قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ۚ ﴾

وَإِنْ تَصَيَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ

الْأُمُورِ ﴿١٨٩﴾

والبلاء في المال بماذا ؟ بأن تأني آفة تأكله ، وإن وجد يكون فيه بلاء من لون آخر ، وهي اختبارك هل تنفق هذا المال في مصارف الخير أو لا تعطيه لمحتاج ، فمرة يكون الابتلاء في المال بالإفناء ، ومرة في وجود المال ومراقبة كيفية تصرفك فيه ، والحق في هذه الآية قدم المال على النفس ، لأن البلاء في النفس يكون بالقتل ، أو بالجرح ، أو بالمرض . فإن كان القتل فليس كل واحد سيقتل ، إنما كل واحد سيأتيه بلاء في ماله .

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » هما إذن معسكران للكفر : معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر المشركين . هذان المعسكران هما اللذان كانا يعاندان الإسلام ، والأذى الكثير تمثل في محاولة إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأذى الاستهزاء بالمؤمنين ، وأهل الكفر والشرك يقولون للمؤمنين ما يكرهون « فوطئوا العزم أيها المسلمون أن تستقبلوا ذلك منهم ومن ابتلاءات السماء بالقبول والرضا .

ويخطيء الناس ويظنون أن الابتلاء في ذاته شر ، لا : إن الابتلاء مجرد اختبار ، والاختبار عرضة أن تنجح فيه وأن ترسب ، فإذا قال الله : « لتبلون » ، أي سأختبركم - والله المثل الأعلى - كما يقول المدرس للتلميذ : سأمتحنك « فتبتليك » يعني نختبرك في الامتحان ، فهل معنى ذلك أن الابتلاء شر أو خير ؟ . إنه شر على من لم يتقن التصرف . فالذي ينجح في البلاء في المال يقول : كله فائت ، وقلل الله مسؤوليتي ، لأنه قد يكون عندي مال ولا أحسن أدائه في مواقفه الشرعية ، فيكون المال على فتنة . فالله قد أخذ مني المال كي لا يدخلني النار ، ولذلك قال في سورة الفجر :

﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾

وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾

(سورة الفجر)

فهنا قضيتان اثنتان : الإنسان يأتيه المال فيقول : ربى أكرمنى ، وهذا أفضل ممن جاء فيه قول الحق :

﴿ قَالَ إِيَّمَا أَوْبَيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ ۖ مِنَ الْفُرُوقِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۖ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

إذن فالذى نظر إلى المال وظن أن الغنى إكرام ، ونظر إلى الفقر والتضييق وظن أنه إهانة ، هذا الإنسان لا يفطن إلى الحقيقة ، والحقيقة يقولها الحق : « كلا » أى أن هذا الظن غير صادق ؛ فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة ، ولكن متى يكون المال دليل الكرامة ؟ يكون المال دليل كرامة إن جاءك وكنت موفقاً فى أن تؤدى مطلوب المال عندك للمحتاج إليه ، وإن لم تؤد حق الله فالمال مذلة لك وإهانة ، فقد أكون غنياً لا أعطى الحق ، فالفقر فى هذه الحالة أفضل ، ولذلك قال الله للثنتين : « كلا » ، وذلك يعنى : لا إعطاء المال دليل الكرامة ولا الفقر دليل الإهانة .

واراد سبحانه أن يدل على ذلك فقال :

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْتِشُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَكُونُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَّمَّا ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

« كلا بل لا تكرمون اليتيم » وماذا منكم لا تكرمون اليتيم فكيف يكون المال دليل الكرامة ؟ إن المال هنا وزر ، وكيف إن سلبه منك يا من لا تكرم اليتيم يكون إهانة ؟ . . إنه سبحانه قد نزهك أن تكون مهانا ، فلا تتحمل مسئولية المال . إذن فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة .



« كلا بل لا تكرمون اليتم ولا تحاضون على طعام المسكين » وحتى إن كنت لا تملك ولا تعطى أفلا تحث من عنده أن يعطى ؟ أنت ضنين حتى بالكلمة ، فمضى تحض على طعام المسكين . أى تحث غيرك . . . فإذا كنت تضر حق بالنصح فكيف تقول إن المال كرامة والفقير إهانة ؟ . . . « كلا بل لا تكرمون اليتم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لما » أى تأكلون الميراث وتجمعون في أكلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم دون أن يتحرى الواحد منكم هل هذا المال حلال أو حرام . . . فإذا كانت المسألة هكذا فكيف يكون إيتاء المال تكريماً وكيف يكون الفقر إهانة ؟ . . . لا هذا ولا ذاك .

« لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً » والذي يقول هذا الكلام : هو الله ، إذن لا بد أن يتحقق - فيارب أنت قلت لنا : إن هذا سيحصل وقولك سيتحقق ، فإذا أعطيتنا لتواجه ذلك ؟ - اسمعوا العلاج : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » . . . نصبر على الابتلاء في المال ، نصبر على الابتلاء في النفس ، نصبر على أذى المعسكر المخالف من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا ، إن صبرت فإن ذلك من عزم الأمور ، والعزم هو : القوة المجتمعة على الفعل . فانت تنوى أن تفعل ، وبعد ذلك تعزم بمعنى تجمع القوة ، فقله : « فإن ذلك من عزم الأمور » أى من معزوماتها التى تقتضى الثبات منك ، وقوة التجميع والحشد لكل مواهبك لتفعل .

إذن فالمسألة امتحان فيه ابتلاء في المال ، وابتلاء في النفس وأذى كثير من الذين أشركوا ومن الذين أوتوا الكتاب ، وذلك كله يحتاج إلى صبر ، وه الصبر - كما قلنا - نوعان : « صبر على » وه صبر عن ، ، ويختلف الصبر باختلاف حرف الجر ، صبر عن شهوات نفسه التى تزين للإنسان أن يفعل هذه وهذه ، فيصبر عنها ، والطاعة تكون شاقة على العبد فيصبر عليها ، إذن ففى الطاعة يصبر المؤمن على المتاعب ، وفى المعصية يصبر عن المغريات .

وه لتبلون في أموالكم وأنفسكم ، توضح أنه لا يوجد لك غريم واضح في الأمر ، فالأفة تأتى للمال ، أو الأفة تأتى للجسد فيمرض ، فليس هنا غريم لك قد تحدد ،

ولكن قوله : « ولتسمع من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، فهذا تحديد لغريم لك . فساعة ترى هذا الغريم فهو يبيع فيك كوامن الانتقام . ف أوضح الحق : إياك أن تمكنهم من أن يجعلوك تفعل ، وأجل عملية الغضب ، ولا تجعل كل أمر يستخفك . بل كن هادئا ، وإياك أن تستخف إلا وقت أن تتيقن أنك ستنتصر ، ولذلك قال : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

واتقوا مثل « اتقوا الله » أى اتقوا صفات الجلال وذلك بأن تضع بينك وبين ما يغضب الله وقاية . عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فذكية وأردف أسامة بن زيد ورائه يعود سعد بن عباد بنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مر على مجلس فيه عبدالله بن أبي بن سلول وذلك قبل أن يسلم ابن أبي ، وإذا في المجلس أعلام من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفي المجلس عبدالله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خمر عبدالله بن أبي أنفه برذائه وقال : لا تغربوا علينا ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن فقال عبدالله بن أبي : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تؤذنا في مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبدالله بن رواحة رضى الله عنه : بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإننا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتاورون ، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يفضضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عباد فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا سعد » ألم تسمع إلى ما قاله أبو حباب ؟ يريد عبدالله بن أبي ، قال : كذا وكذا فقال سعد : يا رسول الله احف عنه واصفح فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذي نزل عليك ، ولقد اصططح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصاية فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله شرق بذلك ، فذلك الذي فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> .

(١) رواه البطلاني في صحبة عند تفسير هذه الآية

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتُرُونَ﴾ (١٨٧)

ونعرف - من قبل - أن الله قد أخذ عهداً وميثاقاً على كل الأنبياء أن يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام في قوله :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٨١)

(سورة آل عمران)

ونأت هنا إلى عهد وميثاق أخذه الله على أهل الكتاب الذين آمنوا بأنبيائهم ، هذا العهد هو : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » .

فما الذى يبينونه ؟ وما الذى يكتمونه ؟

وهل هم يكتمون الكتاب ؟ نعم لأنهم ينسون بعضاً من الكتاب ، وما داموا ينسون بعضاً من الكتاب فمعنى ذلك أنهم مشغولون عنه :

﴿ فَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

والذى لم ينسوه من المنهج ، ماذا فعلوا به ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَلْهَدُوا مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي

الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد كنتموا البيّنات التى أنزلها الله فى الكتاب ، فالكتم عملية اختيارية ، أما النسيان فقد يكون لهم العذر أنهم نسوه ، لكنهم يتحملون ذنباً من جهة أخرى ، إذ لو كان المنهج على يالهم وكانوا يعيشون بالمنهج لما نسوه . والذى لم ينسوه كنتموا بعبه ، والذى لم يكتموه لووا به ألسنتهم وحرفوه .

وهل اقتصروا على ذلك ؟ لا . بل جاءوا بشيء من عندهم وقالوا : هو من عند

الله :

﴿ قَوْلَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ

ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ وَيَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ

(سورة البقرة)

وقولهم : « هذا من عند الله » ما يصح أن يقال إلا لبلاغ صادق عن الله ، وكلمة « ليشتروا به ثمنًا قليلاً » لا بد أن توسع مدلولها قليلاً ، ولها معنى عام ، ونحن نعرف أن الثمن يشتري به ، فكيف تشتري أنت الثمن ؟ أنت إذن جعلت الثمن سلعة ، وما دام الثمن يجعل سلعة فيكون ذلك أول مخالفة لمنطق المبادلة ؛ لأن الأصل فى الأثمان أن يشتري بها ، أصل المسألة أن نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موجوداً عندهم فى الكتب ثم أنكروه .

﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فقول : « لتبينه » يعنى لتبين أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما هو موجود عندكم دون تغيير أو تحريف ، وعندما يبينون أمر الرسول بأوصافه ونعوته فهم يبينون ما جاء حقاً في الكتاب الذى جاءهم من عند الله . وهكذا نجد أن المعانى تلتقى ، فإن بينوا الكتاب الذى جاء من عند الله ، فالكتاب الذى جاء من عند الله فيه نعت محمد ، وهكذا نجد أن معنى تبين الكتاب ، وتبين نعت رسول الله بالكتاب أمران ملتقيان .

« لتبينه للناس ولا تكتُمونه فنبذوه وراء ظهورهم » يقال : نبذت الشيء أى طرحته بقوة ، وذلك دليل على الكراهية ، لأن الذى يكره شيئاً يحب أن يقصر أمد وجوده ، ومثال ذلك : لنفترض أن واحداً أعطى لآخر حاجة ثم وجدها جرة تلسعه ، ماذا يفعل ؟ هو يلا شعور يلقيها بعيداً . والنبذ له جهات ، ينبذه يمينه ، ينبذه أمامه ، ينبذه شماله ، أما إذا نبذه خلفه ، فهذا دليل على أنه ينبذه نبذة لا التفات إليها أبداً ، انظر التعبير القرآنى « فنبذوه وراء ظهورهم » .

إن النبذ وحده دليل الكراهية لوجود الشيء الذى يبغضه ، إمعان في الكراهية والبغض ، فلورمى إنسان شيئاً أمامه فقد يحسن له عندما يراه أو يتذكره ، لكن إن رماه وراء ظهره فهذا دليل النبذ والكراهية تماماً ، ولذلك يقولون : لا تجعلن حاجتى بظهر منك ، يعنى لا تجعل أمراً أريد منك وراء ظهرك . والحق يقول : « فنبذوه وراء ظهورهم » أى أنهم جماعة ود « ظهور » جمع « ظهر » ، كان كل واحد منهم نبذه وراء ظهره . وكان هناك إجماعاً على هذه الحكاية ، وكأنهم اتفقوا على الضلال ، واشتروا به ثمناً قليلاً فبش ما يشترون . والمشتري هنا هو الثمن ، والثمن يشتري به : ولندقق النظر في التعبير القرآنى ، فهناك واحد يشتري هذا الأمر بأكلة ، وآخر يشتري هذه الحكاية بحلّة أو لباس ، وهناك من يشتريها بحاجة ويتهى ، إنما هم يقولون : نريد نقوداً ونشتري بها ما نحب ، هذا معنى « واشتروا به ثمناً » .

ويعلق الحق على ما يشترونه قائلاً : « فبش ما يشترون » لماذا ؟ لأنك قد تظن أن بالمال - وهو الثمن - تستطيع أن تشتري به كل شيء ، ولكن النقود لا تنفع الإنسان كما تنفعه الحاجة المباشرة ، لأننا قلنا سابقاً : هب أن إنساناً في مكان صحراوى ومعه

جبل من ذهب وليس معه كوب ماء ، صحيح أن المال يأتى بالأشياء ، إنما قد يوجد شيء نافع من الأشياء يغنى ما لا يغنيه المال ولا الذهب ، فيكون كوب الماء مثلاً بالدنيا كلها ، ولا يساويه أى مال « فبش ما يشترون » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ  
يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ  
الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٨٨)

والحسبان للأمر أن يظنه السامع دون حقيقته ، والأمور التى يظنها السامع تسير أولاً على ضوء الشيء الواضح دون التدبر لما وراء واجهات الأشياء ، فالذين يفرحون بما آتوا نوعان : نوع يفرح بما آتاه مناهضاً لدعوة الحق كالمنافقين الذين فرحوا بأنهم غشوا المؤمنين ، وتظاهروا بالإيمان فعاملهم المؤمنون بحق الأخوة الإيمانية ، حدث هذا قبل أن يكشف الحق هؤلاء المنافقين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من بعد ذلك .

ونوع آخر يفرح لما آتاه وجاء به مناصراً لدعوة الحق فالفرح الأول - وهو فرح المنافقين - ممنوع ، والفرح الثانى مشروع . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ فَضَّلَ اللَّهُ وَبَرَاحَتُهُ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾

( من الآية ٥٨ سورة بقره )

إذن فلم يته الله عن مطلق الفرح ولكن ليفرحوا بفضل الله . إنه سبحانه قد نهى عن نوع من الفرح فى مسألة قارون :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة التوبة)

وهكذا نجد آيات تنهى عن الفرح وآيات تثبت للمؤمنين الفرح ، وتأمروهم به . إذن فالفرح في ذاته ليس ممقوتاً ، ولكن الممقوت بعض دواعي ذلك الفرح ، فدواعيه عند المؤمن أن يفرح بنصر الله ، وأن يفرح بإعلاء كلمة الحق ، وهذه دواع مشروعة . ودواعيه المنوعة أن يفرح بأن يقف أمام مبدأ من مبادئ الله ليدحض ذلك المبدأ ، وهذا ما يفرح به الكافر ، ولكن الفرح الحقيقي هو الفرح الذي لا يعقبه ندم ، ففرح المؤمن موصول إلى أن تقوم الساعة ، وموصول بعد أن تقوم الساعة . ولكن فرح الكافر والمنافق وأهل الكتاب الذين يصورون الله على غير حقيقته فرح موقوت وممقوت ، إذن فذلك لا يعتبر فرحاً ، لأن الندم بعد الفرح يعطى عاقبة شر ، لأن النادم يتحسر دائماً على فعله فهو في غم وحزن .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطى للمؤمن مناعة ، إنكم أيها المؤمنون تواجهون معسكرات تعادىكم . هذه المعسكرات ستفرح بما أتته ضدكم فيجب ألا يفت ذلك في عضدكم ، ولا تحسبنهم إن فعلوا ذلك بمنجاة من العذاب ، ومادام فرحهم سيؤدى بهم إلى العذاب فهو فرح أحمق .

وماذ صنع الدين جاء فيهم القول : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » يحتمل أن يكون المراد هم أهل الكتاب الذين كتبوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الآية السابقة تقول : « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينته للناس ولا تكتُمونه فتبلىوه وراء ظهورهم » ماذا فعل هؤلاء إذن ؟ لقد كتبوا أوصاف رسول الله ونعته الموجود في كتبهم وفرحوا بما كتبوا ، وبعد ذلك أحبوا أن يحمدا بما فعلوا من الذين على طريقته في الكفر والضلال .

إن الإنسان قد يأتى الذنب ولكنه يندم بعد أن يفعله ، ولكنه حين يسترسل فيفرح بما فعل فذلك ذنب آخر ، وهكذا صار إتيان العمل ذنباً ، والفرح به ذنباً آخر ، لأنه لو ندم على ما فعله لكان الندم دليلاً على التوبة ، أما أن يأتى العمل وبعد ذلك يفرح

به ثم يأتي بعد ذلك الأشد ؛ فيحب أن يُحمد بما لم يفعل ، فذلك من تمام الحق ، إنه جرم وذنوب مركب من فعل آثم ، ففرح به ، فحب الحمد على شيء لم يفعله .

أكان يجب أن يُحمد بما فعل أو بما لم يفعل ؟ بما لم يفعل ، لأنه خلع على أمره غير الحق ، وإذا قال قاتل : إنها نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله فالقول محتمل ؛ لأن هؤلاء تخلفوا عن الحرب مع رسول الله وفرحوا بأن متاعب السفر ومتاعب الجهاد لم تنلهم ، وبعد ذلك اعتذروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذارات كاذبة ولو ندموا لكان خيراً لهم ، ولم يتضح للمسلمين كذبهم فحمدوا لهم ذلك الاعتذار ، إنهم قد أتوا الذنب ، وفرحوا بأنهم أتوه ، ونجوا من مضار الحرب ، وبعد ذلك فرحوا أيضاً بأنهم أحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، لأن اعتذارهم كان نفاقاً ، سواء كان هذا أو ذاك فالآية على إطلاقها : للذين يفرحون بما أتوا من مناهضة الحق وذلك فعل ، والفرح به ذنب آخر ، والرغبة في الحمد عليه شيء ثالث ، إذن فالذنوب مركب ، فهم يسترون الأمر ويبينون نقيضه كي نحمدهم ونشكرهم ، والحق سبحانه وتعالى يعطي لهذا دستوراً إيمانياً لمطلق الحياة .

« ويجبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » وهل المنع عليهم أنهم يجبون أن يحمدوا ؟ أو المنع عليهم والمأخوذون به أنهم يجبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؟ إن المنع عليهم أنهم يجبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؛ لأن الإنسان إن أحب أن يُمدح بما فعل فلا مانع ، والقرآن حين يعالج نفساً بشرية خلقها الله بملكات ، فهو يعلم مطلوبات الملكات ، بعض الملكات قد تحتاج إلى شيء فلا يتجاوز الله هذا الشيء ، إن الإنسان مطبوع على حب الثناء من الغير ، لأن حب الثناء يثبت له وجوداً ثانياً ، ووجودك الثاني هو أن تعبر عن نفسك بعملك الذي يكون مبعث الثناء عليك ، والناس لا تثني على وجودك ، لكنها تثني على فعلك .

ومادام الإنسان يحب الثناء فسيغريه ذلك بأن يعمل ما يثنى به عليه ، ومادام يُغري بما يثنى عليه فسيعمل بإتقان أكثر ، وساعة يعمل فإن المحيط به يتفع من عمله ، والله يريد إشاعة النفع فلا يمنع سبحانه حب الثناء كي يزيد في الطاقة الفاعلة للأشياء ؛ لأنه لو حرم ذلك الثناء فلن يعمل إلا من كانت ملكاته سوية ، وسيفقد



المجتمع طاقات من كانت ملكاته قليلة ، فصاحب الملكات القليلة يريد أن يمدح ، فلا مانع من مدحه ليزيد من العمل ، ويمدح مرة ثانية ، وتستفيد الناس ، والذي ينتظر الثناء من الناس تنزل منزلته ومرتبته عن مرتبة من ينتظر التقدير من الله ، فهو الذي جنى على نفسه في ذلك . لكن لا بد أن نمدحه كي يعمل بما فيه من غريزة حب الثناء فنكون قد زدنا من عدد طاقات العاملين .

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما عرض لهذه القضية ، وهى قضية تزكية الصالح وتحريم الطالح الفاسد فى قصة « ذى القرنين » يقول تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ إِنَّا مَكَّالُهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

كى تعلم أن الممكن لا يمكن بذاته وإنما هو ممكن بمن مكنته ، فلو كان عنده تفكير إيمانى ، لما أغرته الأسباب أن يتمرد ؛ لأن الإيمان يعلمه أن الأسباب ليست ذاتية . ومن أجل أن ثبت الله أن الأسباب غير ذاتية فهو ينزع الملك ممن يشاء ، ويهب الملك لمن يشاء ، نقول له : لو كانت الأسباب ذاتية فتمسك بها ، لكن الأسباب هبة من الله « وآتيناه من كل شئ سببا » وحين يأتيه الله الأسباب فالأسباب أنواع : سبب مباشر للفعل ، وسبب متقدم على السبب المباشر ، فأنت إذا ارتديت ثوباً جميلاً ، فوراء ذلك أنك أتيت بالقماش الذى نسجه النسيج ، والنساج استطاع إتقان عمله بعد أن قام الغزال بغزل القطن ، والفطن نتج لأن فلاحاً بذر البذور ورعى الأرض بالحرث والرى . فأنت إن نظرت إلى الأسباب المباشرة المتلاحقة فانظر إلى نهاية الأسباب ، وستصل إلى شئ لا سبب له إلا المسبب الأعلى وهو الله - جلت قدرته - .

وسلسل أى شئ فى الوجود ستجد أنك أخيراً أمام سبب خلقه الله ، مثال ذلك النور الكهربى الذى تتمتع أنت به . ستجد أن المعمل قام بصنع الزجاج الخاص بالمصابيح الكهربائية ، ونوع من المصانع يصنع الأسلاك الموجودة بالمصباح ، وستنتهى إلى شئ موجود لا يوجد فيه بشر ، فتصل إلى الحق سبحانه وتعالى .

أنت مثلاً جالس على الكرسي . وقد تقول : لقد صنعه التجار والتجار جاء بالخشب من البائع ، والبائع جاء بالخشب من الغابة ، فمن أين جاء الخشب إلى الغابة ؟ تقول : لا أعرف ، أما إذا كان عندك الحس الإيمانى فأنت تقول : أوجده الله . وحين تنتهى الأسباب وسلسلتها نجد الله الخالق : « إنا مكنا له فى الأرض وأتيناه من كل شئ سبياً فاتبع سبباً » فعندما أعطاه الله الأسباب جاء هو بالوسائل فقط ، إذن فالأصل كله من الله .

ويتابع الحق : « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمة » هذا فى عين الناظر فقط ، فأنت حين تركب البحر ثم ترى الشمس عند الغروب تغلس فى البحر ، وعندما تذهب للمنطقة التى غطست الشمس فيها تجد الشمس موجودة ؛ لأنها لا تغيب أبداً ، إنما « تغرب فى عين حمة » أى فوجد الشمس فى نظره عند غروبها عنه كأنها تغرب فى مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود . ويتابع الحق : « ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً » .

والناس تفهم أن هذا تحيير ، يعنى إما أن تعذبهم ، وإما تحسن إلى من كنت تعذبهم ، لكن الدقة والتمعن يوضحان لنا أن الحق قد أعطى تفويضاً لذى القرنين ، بقوله : « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً » ففهم ذو القرنين عن الله التفويض ، ولم يأخذ التفويض وافترى ، بل قال : « أما من ظلم فسوف نعذبه » . وليس هذا هو العذاب الذى يستحقه ، لا ، نحن سنعذبه فى دنيانا كى لا يستشرى فيها الشر . وفوق ذلك سيعذبه الله عذاباً آخر .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً » إنه أولاً لم يصف عذابه بنكر ، إنما وصف عذاب الله فقال : « فيعذبه عذاباً نكراً » ، لأن عذاب البشر للبشر على قدر البشر ، لكن عذاب الله يتناسب مع قدرة الله ، فهل لنا طاقة بهذا العذاب والعياذ بالله ؟ ليس لنا طاقة به ، وماذا عن موقف ذى القرنين من الذى آمن ؟ إنه موقف مختلف .

يقول الحق : « وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا

يسرا ، هو يجازيه بالحسنى ويعطيه المكافآت ويكرمه ، وعندما يتساءل من يجب الثناء قائلاً : لماذا كرم هذا ؟ ويرى أسباب التكريم فيقول لنفسه لاصنع مثله كي أكرم . ولذلك تجمد الشباب يتهاافت حتى على اللعب بكرة القدم لماذا ؟ لأنهم يجدون من يضع هدفاً في كرة القدم يكرم ، فيقول : أنا أريد أن أضع هدفاً .

هذا وإن ديننا الحنيف يدعونا إلى أن نشكر من قدم خيراً أو أسدى معروفًا خفراً للهمم وتشجيعاً لبذل الطاقات وفي الأثر : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » إذن فحب الثناء من طبيعة الإنسان ، ولكن تغري الناس بأن يعملوا لأبد أن تأتي لهم بأعمال تستوعب طاقاتهم المتعددة ، أما إذا اقتصر إتقان العمل على من لا يحبون الثناء ، فسقلل الأيدي التي تفعل ، ولذلك تجمد العمل حيث توجد المكافأة التشجيعية التي يأخذها من يستحقها ويقابلها من التجريم والعقوبة لمن يعمل في عمله ، فلا يمنح رئيس عمل مكافأة لمن عملوا على هواهم ، بل عليه أن يمنحها لمن أدى عمله بإتقان . وحين يعلم الناس أنه لا يجازى بالخير ولا يكرم بالقول إلا من فعل فعلاً حقيقياً فالكل يفعل فعلاً حقيقياً ، لكن عندما تجمد الناس أن المكافآت لا يأخذها أحد إلا بالتزلف وبالتفاق وبالاشياء غير المشروعة فيفعلون ذلك ، وهكذا تأتي الحيلة .

وهكذا تجمد أن قوله الحق : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » .

إن هذا القول يضع أساساً ودستوراً إيمانياً لمطلق الحياة ، وعلاقة الحاكم بالمحكومين ، وعلاقة الفرد بنفسه وبين حوله . وعلاقة الإنسان بالعمل الصالح أو بالذنوب ؛ فالإنسان إذا ما أتى ذنباً ، فربما يكون قد نفس عن نفسه بارتكاب الذنب ، لكن بعد ما تهدأ شدة المعصية يجب عليه أن ينتبه فيندم ولا يفرح . هذه أول مرحلة . ولا يتمادي في ارتكاب الذنب ، أما إذا تمادى وخلع على فعله النقيض وادعى أنه قد أتى فعلاً حسناً حتى يناله مدح بدلاً من أن يناله ذم فذلك ذنب مركب ، ويحشره الله ضمن من قال فيهم : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » .

والمفازة هي المكان الذي يظن الإنسان أن فيه نجاته ، أي أن في هذا المكان فوزاً

له ، ويطلقون كلمة « مفازة » على الصحراء إطلاقاً تفاؤلياً ، لا يسمونها « مهلكة » لأن الذي كان يجوبها يهلك فسموها « مفازة » تفاؤلاً بأن الذي يسلكها يفوز ، أو أن الصحراء أرض مكشوفة ، ومادام الإنسان قد وصل إلى أرض مكشوفة فلن يصادف ما يخافه من حيوانات شرسة أو من وافدات ضارة كالحيات ، أو من غدو راصد ، وفي ذلك فوز له ، لأنه تجنب هذه المخاطر ، إنه إن سار في الجبال والوديان فمن الممكن أن تستر عنه الوحوش المفترسة أو الهوام أو تستر عنه الذين يتبعونه فلا يتوقعهم وقد يصيبونه بالأذى ، فإذا ما ذهب إلى الأرض المكشوفة نجا من كل هذا لأنه بنأى وابتعد عنهم ، وتكون التسمية على حقيقتها ، ومن يرى أن الصحراء مهلكة فليعرف أنها سميت « مفازة » تفاؤلاً ، كما يسمون اللديغ الذي لدغه الثعبان بـ « السليم » .

ونحن في أعرافنا العادية نتفاهل فنضع للشئ اسماً ضد مسماه تفاؤلاً بالاسم ، مثال ذلك : إذا كنت في ضيافة إنسان وقدم شراباً . قهوة مثلاً ، وبعد أن نشرب القهوة يأتي الخادم فيقول من قدم لك القهوة لخدمه : تعال « خذ المملوء » ولا يقول : « خذ الفارغ » وهذا لون من التفاؤل .

« فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب وهم عذاب أليم » هم يظنون أنهم بمفازة من العذاب برغم أنهم لا يؤمنون بالحق ، ولا يؤمنون بسيطرة الحق على كل أحوالهم وكل أمورهم فهم يظنون أن انتصارهم في معركة الدنيا لا هزيمة بعده ، ولكن الحق بعد هذه الآية قال :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾